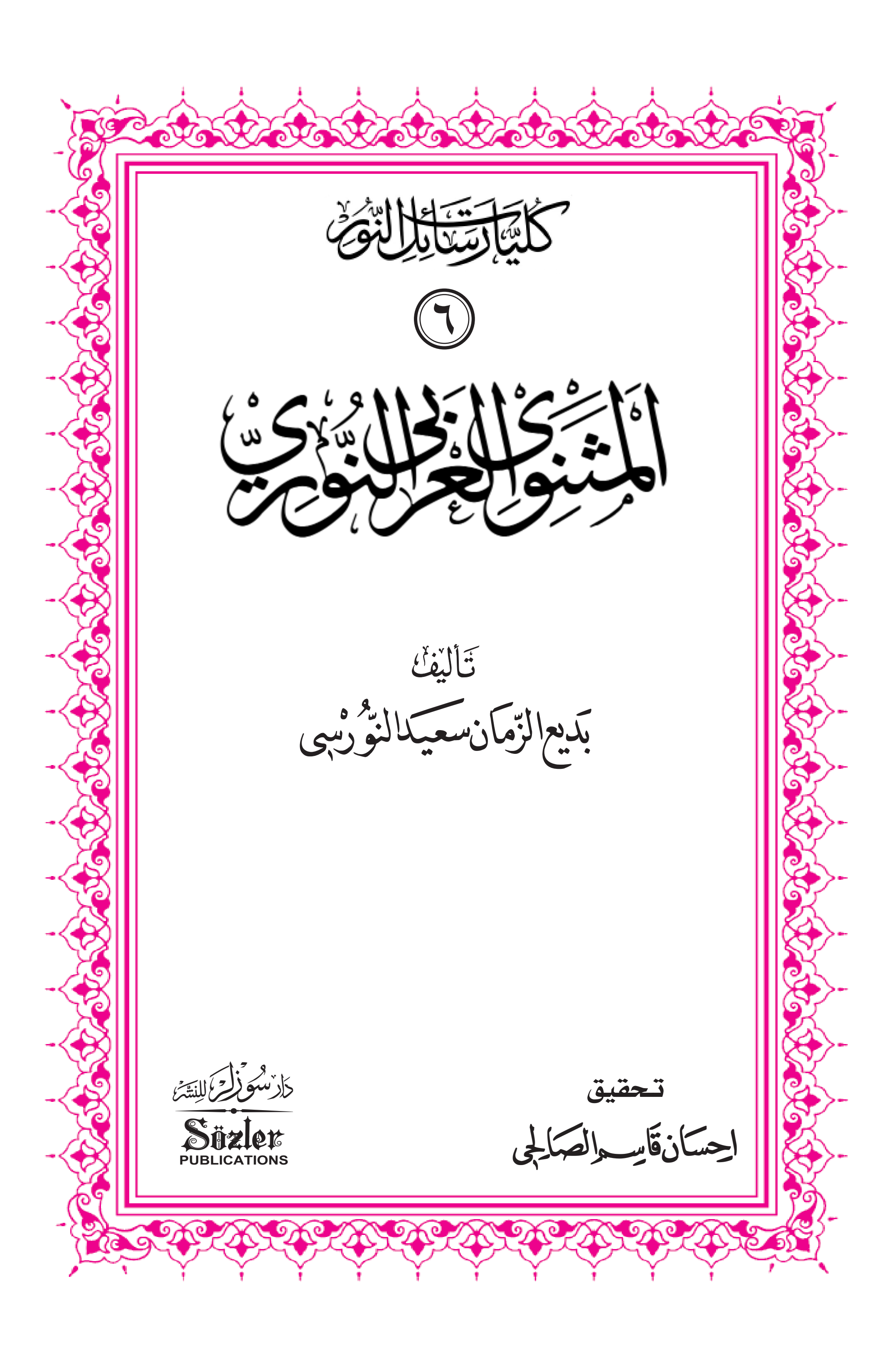

المثنوي العربي النوري

عنوان الكتاب :	TITLE :
المثنوي العربي النوري	MESNEVİ-İ NURİYE
تـأليـف :	AUTHOR :
بديع الزمان سعيد النّورسيّ	BEDIUZZAMAN SAID NURSI
تحقيق :	TAHQIQ :
إحسان قاسم الصالحي	IHSAN KASIM SALIHI
الترقيم الدولي : ٩-٧٨-٥٣٢٣-٩٧٧	ISBN : 977-5323-78-9
رقم الإيداع : ١٥١٦٦/ ٢٠٠٤	ARCHIVE NO : 2004 / 15166
الطبـعــة : السادسة (٢٠١١)	EDITION : SIXTH (2011)

الـنـاشــر :	PUBLISHER :
شـركـة سـوزلـر للنشـر	SÖZLER PUBLICATIONS
الـعـنـوان :	ADDRESS :
٣٠ شارع جعفر الصادق	30 Gafar El-Sadek St.
الحي السابع- مدينة نصر- القاهرة	7th Nasr City Cairo
جمهورية مصر العربية	Egypt
تليفاكس: ٢٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢)+	Tel&Fax: +(202) 22602938

www.sozler.com.tr

e-mail: darsozler@gmail.com



كليات رسائل النور

٦

المثنوي العربي النوري

تأليف

بديع الزمان سعيد النورسي

تحقيق

احسان قاسم الصالحي

دار سوزلر للنشر

Sözler
PUBLICATIONS



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم
العالم الفاضل محمد فتح الله كولن

ترجمة: أورخان محمد علي

إنني سعيد جدا لإتاحة الفرصة لي لكتابة كلمةِ تعريف لـ«المثنوي العربي النوري» لـ«بديع الزمان سعيد النورسي». فمن الواجب دراسة هذه الشخصية السامقة دراسة جدية وواسعة، وتعريفُها وتقديمها إلى الإنسانية جمعاء. ذلك لأن «بديع الزمان سعيد النورسي» يقف في مقدمةِ صفوفِ مفكري هذا القرن من الذين قدموا -وبشكل مؤثر ونقي ودون شوائب- العقيدةَ التي يعتنقها العالم الإسلامي، وحياتَه الروحية العريضة، ومعاييرَه المعنوية الواسعة. ونحن لا نعتقد بأننا نستطيع فهمه أو فهم أفكاره إن اقتربنا منه ومن أفكاره بشكل عاطفي، فمثل هذا الأسلوب لن يكون أسلوبا جديا في فهم المسائل التي طرحها والتي دافع عنها طوال حياته دفاعَ الأبطال، فقد كان طوال حياته إنسانا يعيش تحت ظل الكتاب والسنة ويحلق بأجنحة المنطق والتجربة، ومع عمق عالمه العاطفي، وقلبه المشبوب بالعشق الإلهي فقد ظلَّ على الدوام رجلَ عقلٍ ومنطق.

لقد قيل وكُتب الشيء الكثير حتى الآن عن سمو أفكاره وعن فهمه لطبيعة عصره، وبساطته، وروحه الإنسانية الواسعة، وعن وفائه وارتباطه بأصدقائه، وعن عفته وتواضعه وزهده واستغنائه عن الجميع. ويمكننا أن نقول بأن كل وصف من هذه الأوصاف المذكورة أعلاه يمكن أن يكون موضوعَ كتاب مستقل، وهي أوصاف طالما اهتم بها في كتبه وأكد عليها. ثم إن هناك العديد من الشهود الأحياء، وهم طلابه الذين سعدوا بالعيش بقربه وتعرفوا على عمق عالمه الروحي وسعته.

ومع أن مظهره الخارجي كان متواضعا جدا في غاية البساطة إلا أنه كان صاحب تفكير عميق، وصاحب حركة نشِطة وقوية قلَّ نظيرها؛ فقد قام باحتضان الإنسانية كلها متناولا

مشاكلَها الحيوية، ومتحديا الكفرَ والضلال، ومُعلنا الحرب على الاستبداد وعلى الدكتاتورية، مسترخصا روحَه في سبيل وفائه وخلقه الشجاع، وكان استقبالُه الموتَ ببشاشة وبابتسام سلوكا اعتياديا عنده.

وبجانب مشاعره الإنسانية الغنية فقد بقي في دعوته مرتبطا بالكتاب والسنة، مع الأخذ برقبة العقل والمنطق. لذا فقد تجلى في مظهره وسلوكه جانبان:

جانبُ العاطفة المشبوبة إلى درجة الوجد والعشق وصفة الرجولة والشجاعة.. ثم جانبُ رجل الفكر صاحبِ العقلية الفذة الذي يسبق معاصريه بنظراته الثاقبة وبخططه ومشاريعه الكبيرة.

إن فهم «سعيد النورسي» وفهم دعوته من هذه الزاوية يفيدنا في فهم معنى العصر الذي نعيش فيه.

وعلى الرغم من قيام البعض بتناسي هذا، فإن الحقيقة هي أن «سعيد النورسي» عُدّ من أفضل مفكري وكُتّاب جيله وعصره، واستطاع أن يكون قائدا للجماهير ومتحدثا باسمها، ولكنه لم يُعجب بنفسه، ولم يهتم بالمظاهر، وبَذَل كلَّ جهوده للابتعاد عن الشهرة والصيت، لذا فالقول المأثور عنه: «الشهرة عين الرياء وموت للقلب» ليس إلّا حكمةً ذهبية واحدة من بين حِكَمه العديدة في هذا الموضوع.

لقد استطاع «سعيد النورسي» أن يكون–مع بضعة آخرين– في رأس قائمة الكُتّاب والمفكرين في طول العالم الإسلامي وعرضه في القرن العشرين، وأن تكون كتبه مقروءة بشوق وبحب من قبل مختلف المستويات، وأن يكون من الشخصيات التاريخية التي لا تبلى مع الزمن ولا تُنسى مع الأيام.

إن جميعَ كتب «بديع الزمان» ومؤلفاته محصولٌ لجهد فكري كبير في تفسيرِ وتناول بعض الأمور –القابلة للتأويل– من زاوية العصر الذي ولد فيه. وتستطيع أن تقرأ وتسمع في كتبه صرخات ألم الأناضول والعالم الإسلامي وأنينهما، وكذلك أصواتَ البشائر وزغاريد أمل الأناضول والعالم الإسلامي.. صحيح أنه ولد في قرية نائية من قرى إحدى الولايات الشرقية في تركيا إلّا أنه أحس دائما أنه ابن الأناضول، وأحس بنبض مشاعرنا كابن مرموق

من أبناء إسطنبول، ولكنه في جميع الأحوال كان يضم البلادَ كلها إلى صدره بكل حنان وعطف ومحبة.

عاش «بديع الزمان» في فترة عاصفة سادت فيها الفلسفة المادية، وانتشرت فيها الشيوعية انتشار النار في الهشيم.. فترةٍ ادلهمت فيها الخطوب وحَلَكَ فيها الظلام.. في هذه الفترة العصيبة قام «بديع الزمان» -بكتبه ومؤلفاته- بنفخ روحِ الأمل والإيمان في إنسانِ عصرنا المضطرب، وبإرشاده إلى طرق الإيمان والأمل. ونَفَخ في الجماهير في كل مكان زاره روحَ البعث بعد الموت والحركةِ بعد الجمود.

لقد رأى بثاقب بصره أن أهم مشكلة يجب تناولها وحلّها هي مشكلة الفوضى النابعة من الكفر والإلحاد، لذا قضى حياتَه كلَّها وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء، وصَرَف جهدا يفوق طاقةَ البشر في هذا الخصوص، فقد كان على وعي كامل بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في هذا العالم الذي وجده يتلوّى أمامه من آلام الأزمات الخانقة والمشاكل المزمنة.. وعندما تصدى لحمل هذا العبء الذي تُشفق الجبالُ من حمله، تصدى لذلك بكل تواضع وحياء، ولكن بكل ثقة وبكل اطمئنان أيضا بقدرة الله المطلقة وغناه اللامحدود.

أجل، لقد عاش في الوقت الذي أصبح فيه العلمُ والفلسفةُ أداةً لدفع الناس نحو الإلحاد، وفي الوقت الذي تم فيه غسلُ الأدمغة بالشيوعية، والذي كان يُنفى فيه ويُهجَّر من يرفع صوتَه ضد هذه السلبيات من مدينة لمدينة ومن بلدة إلى أخرى، إذ عاش الوطنُ فترةَ تهجيرٍ مُخجِلة. والأغربُ من هذا أن كل هذه العمليات كانت تَحدُث باسم المدنية والمعاصَرة.

في أثناء تلك الأيام السوداء التي انقلبت فيها المفاهيم حتى أصبحت الحركة الفوضوية حركة واسعة منتشرة تحمل سحرا وجاذبية.. في تلك الأيام انتصب «بديع الزمان» أمامنا يسلط الضوء على دخائل أنفسنا وكأنه طبيب حاذق.. يُرينا سجون أنفسنا.. وأغلال أرواحنا.. جرائمَنا وجناياتنا.. قيامَنا بأسر أنفسنا بأنفسنا.. يُسلط الضوء على الجوانب الإنسانية الهامدة في أعماق أرواحنا وفي عوالم ضمائرنا.. فأثار في قلوبنا الشوق إلى السمو، وبَعَث فيها نبض الحياة ودفق الأمل.. وأوضح أمام جميع الأنظار أن في أعماقنا علاقةَ وصلةً مع العوالم الأخرى وارتباطا بها، ووهَب لنا كل ثمرات المدارس والتكايا والزوايا وحلقات العلم والدراسة.

أجل، ففي عهد كانت الأمة فيه تتقلب ألما من السقوط ومن الضحالة الفكرية، والتي أصبحت فيه الآلام الاجتماعية عُقدة مستعصية، وظهرت كلَّ يوم مئاتٌ من الحوادث المفزعة في كل ناحية من أنحاء البلاد، وتهدمت كل المعايير والمفاهيم الإسلامية والملية، وأصبحت أنقاضا فوق أنقاض.. في مثل هذا العهد المظلم العاصف كان «بديع الزمان» يفكر ويبحث عن الحلول، ويشخّص الأمراض ثم يكتب الوصفات لها كأي طبيب حاذق. لقد رأى الأجيال البائسة وهي تئن تحت ثقل البلايا الهائلة التي أفرزتها الأعوام الطويلة المظلمة، وكيف أنها تاهت وضلت سبيلها في أودية الضلالة ودروب الإلحاد. وكيف أنها كلما أرادت الخلاص والنجاة انغرست في أزمات أسوأ وغرقت في مشاكلَ أفظع.. رأى هذا وأحس بآلام هذه الأجيال في أعماق روحه، فعاش حياته وهو في انفعالٍ وفورانٍ روحيّ، يفكر ويبحث على الدوام ليقدم حُلولا بديلةً للدولة وللمجتمع، وينبه هذه الأمة البائسة ويذكّرها أنها وإن كانت الآن تعيسةَ الحظِّ إلّا أنها أمة عريقة في المجد وغنية بالبطولات.

قام «بديع الزمان» منذ عهد الدولة العثمانية بالتجوال في معظم أرجاء البلاد؛ من مدنها الكبيرة إلى قراها الصغيرة.. ومن المناطق المزدحمة بالسكان إلى المناطق النائية.. رأى الجهل ضاربا أطنابه في كل مكان، ورأى الناس يتجرعون آلام الفقر.. رآهم شيعا وأحزابا يأكل بعضهم بعضا.. ارتعش فزعا مما رآه، ولأنه كان رجلَ فكرٍ ونظرٍ ثاقب أدرك طبيعة عصره وفهِمها بعمق، لذا حاول أن يبث في الجماهير آنذاك روحَ العلم، واهتم بأسباب المشاكل الاقتصادية وعوامل الفقر والحاجة، وبَحَث عن حلولٍ لأسبابِ فرقة أُمتنا وعن علاج لخلافاتها، وأكد دائما على ضرورة الوحدة والاتفاق، وكان مع هذه الأمة على الدوام، ولم يدَعْها وحيدة في تلك الأيام العصيبة لحظة واحدة. وفي كل مكان وطئته قدماه كان يهتف بملء فيه: «إن لم تُعالَج الآنَ هذه المشاكلُ المتداخلة بعضُها في البعض الآخر، وإن لم تُضمد هذه الجروح بأيدٍ متخصصة ماهرة، فإن أمراضنا ستزمن وتستعصي على العلاج، لذا لابد من تشخيصِ كلِّ مشاكلنا العلمية والاجتماعية والإدارية، وتحليل كل عللنا المادية والمعنوية لوصف العلاج الشافي لها، إذ لابد من إيقاف هذه المشاكل وإنهاء هذه العلل التي تقوّض بنيتنا وتهدد بقاءنا وتهز قواعدَ وأسسَ وجودنا».

كان «بديع الزمان» يرى أن منبع جميع الشرور والسيئات آنذاك -كما هي الآن- هو الجهل والفقر والتشتت والاختلاف. أجل، لقد كان الجهل هو العامل الأول في الضائقات الاجتماعية والدافعَ الأول لبؤس الأمة. ونعني بالجهل هنا الجهل بالله وعدم معرفة النبي ﷺ وعدم المبالاة بالدين وعدم مشاهدة قوانا المادية والمعنوية والتاريخية.. مثل هذا الجهل كان من أكبر المصائب والبلايا المسلطة على رؤوسنا، لذا صرف «بديع الزمان» عمره في محاربة هذه الجرثومة القاتلة، إذ رأى أنه ما لم تجهز الجماهير بالعلم والمعرفة، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم تُجابَه تيارات الأفكار المنحرفة، فمن العبث الأمل في خلاص هذه الأمة.

أجل، أليس الجهل هو السببَ في انفصام الكون عن القرآن وانفصام القرآن عن الكون؟.. انفصما فأصبح أحدهما يتيما في سجون الأرواح المتعصبة التي لا تفهم أسرار الوجود ولا تدرك سر الأشياء والحوادث، وتحول الآخرُ إلى حالة فوضى في يد أجهل الجهال الذين يبحثون عن كل شيء في المادة ولا يرون غيرها، وانطمست أعينهم وعميت عن رؤية المعاني.. ثم ألم يكن الجهل هو السبب في انسحاق هذه الأمة تحت وطأة الفقر والحاجة على الرغم من أراضيها الخصبة وأنهارها الفياضة وسهولها ومراعيها؟ أليس الجهل هو الذي جعلنا فقراء معدمين ومديونين بديون قاصمة للظهر مع وجود كل هذه المعادن النفيسة غير المستغَلة تحت الأرض في كل أرجاء بلادنا، ومع وجود كل أسباب الغنى والثروة سواءٌ منها ما تحت الأرض أو الموجودة منها فوق سطحها؟

أجل، فمنذ أعوام طويلة كانت هذه المصيبة التي أذلت أُمتنا هي السبب في أن عمالنا وفلاحينا -على الرغم من بذلهم كل طاقاتهم- لا يحصلون على المقابل الحقيقي لجهودهم ولا على بركة هذا الشيء القليل في أيديهم، وتمضي حياتهم في ضنك وفي ضيق، ولا يعرفون طعما للسعادة.

وكان من نتيجة هذا الجهل، وكذلك من نتيجة الفرقة -النابعة أيضا من الجهل- أننا ابتُلينا في أطراف عديدة من هذه الدنيا بصنوف من الظلم والذل والهوان والعلل، فسالت الدماء واغتُصبت الأعراض، ومع ذلك فقد فشلنا -في هذه الدنيا التي تتقلب فيها أوضاع التوازن الدولي- أن نخلص أنفسنا من قبضة الخلاف والانقسام والتشتت لكي نوقف هذه

المآسي والفواجع، ولا نستطيعُ مدّ يد العون إلى العالم الإسلامي، ولا نستطيع الارتقاء إلى مستوى العصر في حل مشاكله المستمرة في التفاقم، والتي تجرّه إلى مهاوٍ خطرة ومزالق رهيبة. وبينما تتلوى الأمة جميعها في شِباك هذه الأمراض والعلل المهلكة، نرى أن قسما من الذين سكرت وثملت أرواحهم وانبهرت أبصارهم بتقدم الغرب المادي الظاهري -بدلا من مَلء أدمغتهم بالعلوم وقلوبِهم بالحقائق الدينية للوصول إلى الغنى المادي والمعنوي- فضلوا التعامي عن كل قيمنا الدينية والملية الحيوية التي هي مصادر قوتنا وعواملُ منعتنا وتناسوها، وفضّلوا السير في طريق التقليد الأعمى الذي يسلب الشعب وجماهيرَ الأمة كلَّ سجية دينية أو ملية، وكلَّ وعي بالتاريخ وكل فضيلة وميزة أخلاقية. وفي نظري أن هذا الطريق الذي سُلك بهدف إنقاذ الأمة كان طريقا خاطئا وضارا، وفَتَح في صدر الأمة وروحها جروحا لا تلتئم.

ففي الحالة الأولى عاش إنسانُنا لسنوات طويلة في كابوس مرعب، وفي الحالة الثانية خسِرْنا كل فضائلنا الملية وأصالتِنا الروحية ومصادر قوّتنا الدافعة.

تصدى «بديع الزمان» منذ بداية حياته وحتى انتقاله في مدينة «أُورْفَة» إلى الرفيق الأعلى لكلا هذين الفريقين ولطرق سلوكهم ومعالجتهم للأمور، ولكل النتائج الوخيمة التي أفرزتها طرق المعالجة الخاطئة هذه، وفَتَح بمبضع الطبيب الجرّاح قيحَ وصديدَ قرنٍ كامل، وشخّص المصائب والبلايا التي أنتجها هذا القيح وهذا الصديد، ثم أشار إلى الدواء الناجع والعلاج الشافي لينقذ إنسان هذه الأمة من السقوط والضياع. لقد ظل «بديع الزمان» أمينا طوال حياته لمبادئه هذه التي كَرَّر بكل إخلاص وتفانٍ ووفاءٍ ذكرَها وتقديمَها على الدوام.

إنَّ إدخال أفكار جديدة وترسيخَها في ذاكرة المجتمع وفي فكرها أمر شاق ومهمة صعبة كصعوبة قلع الأفكار والمبادئ والقيم المتوارثة -صحيحة كانت أم خاطئة- من الماضي، التي ترسخت في داخل المجتمع حتى أصبحت تجري في عروقه مجرى الدم. ولا شك أن الجماهير بقيت تحت تأثيرِ مثلِ هذه الأفكار المنتقلة إليها من الماضي -سواءٌ أكانت هذه الأفكار صالحة أم طالحة- حيث أدّت هذه الأفكار والآراء دورا مهما في تشكيل حياتها الاجتماعية والفردية وتوجيهِها، وأصبحت هذه الجماهير تشعر بالنفور من كل فكر لا يتماشى مع هذه الأفكار

المعتادة ولا يتلاءم مع المشاعر والعواطف العامة، وتحاول الابتعاد عنها. إنَّ مثل هذا الشعور ومثل هذا التصرف يكون خاطئا في بعض الأحيان. ذلك لأنه في حالةِ تَبَنِّي الجماهير لأفكار خاطئة وعادات سيئة وتقاليد ضارة وتجذُّرِ هذه الأفكار والعادات والتقاليد في بنيتها وتسللها إلى مختلف جوانب حياتها فإن من الضروري التصدي لهذه الأفكار المنحرفة والقناعات الخاطئة ومحاربتُها وتصفيتها من الأذهان وتخلية القلوب منها وتحليتها بالخصال الحميدة لكي تستطيع الأمة السير بأمان وثقة نحو المستقبل.

لقد حمل «بديع الزمان» هذه الأفكار منذ شبابه المبكر. وعدَّ إخفاءَ أيِّ حقيقة في هذا الموضوع -مهما كانت صغيرة أو جزئية- خيانةً لأُمته ولأبناء أُمته. لذا وقف أمام كل الأفكار وكل القرارات الخاطئة رافعا يديه إلى أعلى مشيرا بهما إشارةَ التحذيرِ وهاتفا بكل قوته: «احذروا! هذا طريق مسدود».

كانت فطرته حساسة جدا ضد ما يناقض القيم الدينية، مع نظرة بعيدة المدى وهمّة عالية لا توجد إلّا عند أولي العزم من الرجال. فصاحبُ قلبٍ شجاعٍ مثله ما كان ليستطيع ألّا يحرك ساكنا وهو يشاهد اضمحلال أُمة عريقة مجيدة وذوبانَها، لذا لم يدّخر وسعا في توجيه الأنظار إلى عيوبنا كأمة وإلى أعمق أسباب الهلاك والاضمحلال وأدقها، لتقُوم الأمة بمحاسبة نفسها ومحاكمةِ ذاتها. لقد ذكّرها مرارا وتكرارا بعوامل الانقراض والفناء، وقدم إليها وصفات النجاة والخلاص دون أن يُخفي عنها أَمَرَّ الحقائق وأكثرها إيلاما للنفس، ودون أن يتردد في هذا أيّ تردد، لذا فقد واجه القناعات الخاطئة والأفكار المتعفنة، وناضل طوال حياته ضد كل الموانع التي تمنع انتشار أنوار الحقيقة.

في تلك الأيام الحالكة السواد التي لم يكن هناك من يتجرأ على التفوه بأي شيء حول الحقائق الدينية، قام هو بإيقاظ الجماهير التي أُريدَ تخديرها وتنويمها، فأَعلنَ الحرب على الجهل والفقر والفرقة، وهزَّ أركان الأوهام الكثيرة المختلفة التي أحاطت بالمجتمع، فكما أعلن حربا ضروسة ضد الإلحاد وإنكار الخالق، فقد أغرق الأباطيل والخرافات في تناقضاتها وسدَّ الأبواب أمامها. وبشجاعة منقطعة النظير قام بتشريح مشاكلنا وعِلَلِنَا المزمنةِ منذ عدة عصور، وقَدَّم طرق علاجها والشفاء منها.

ولقد قام بعملية كيٍّ للرياء وللمظاهر الكاذبة المستشرية عندنا منذ ما يقارب مئتي سنة، ذلك لأن «آخر الدواء الكيّ». وذكر أمورا جديدة وجدت صداها في النفوس بدءا من رجال قصر السلطان وانتهاءً إلى رؤساء العشائر في الولايات الشرقية، ومن منتسبي المشيخة الإسلامية إلى رئاسة أركانِ حربِ القوات المسلحة، فجَمَع أنظار جميع طبقات الشعب إليه. ومع أنه كان يتجنب الظهور والشهرة بطبيعته، إلّا أن طبيعة الأمور كانت تؤدي إلى هذه النتيجة.

نبّه «بديع الزمان» جميع مستويات الشعب وطبقاته بأن عليها أولا كسْرَ أغلالِ روحِها قبل أن تجرّد السيفَ من الغمد للجهاد، وبَشَّر الشباب ببعث جديد للحياة فدلّهم على الطرق المؤدية إلى لفكر الإسلامي. ومما لاشك فيه أنه كان يخشى من تمزق الوطن من الناحية الجغرافية وانقسامِه وتقلصِه خشيةً شديدة، ولكنه كان يخشى أكثرَ من العوامل التي تودي إلى هذه النتيجة المفجعة، بضمور الأفكار وسفالة الروح والتقليد الأعمى للغرب.

دعا «بديع الزمان» إلى القراءة والمطالعة والتفكر، وإلى السعي والحركة لينقذ أفراد الأمة من ضنك العزلة، وليشكل مجتمعا سليما معافىً، وأمة متينةَ البنيةِ، وأكد على التعليم الذي رآه ضرورة قصوى لرفع الوطن والإنسانِ إلى الذروة التي أشار إليها.. فدعا إلى طبع الكتب ونشرها، وإلى نشر المعارف بكل أشكالها في كل مكان، وإلى نشر التعليم والتربية، إذ كان يرى اشتراك المساجد والمدارس الدينية ومعسكرات الجنود والسجون وكافة مرافق المجتمع في تعبئة عامة للتعليم، فبالمعارف وحدها يمكن تحقيق الوحدة العقلية والفكرية، إذ كان يرى أن العقول إن لم تتآلف مع بعضها أولا فلا يمكنها أن تقطع معا شوطا كبيرا في الطريق. ويجب أن تتحد الضمائر والمشاعر أولا لكي تتحد القلوب والأيدي فيما بعد. والطريق إلى مثل هذه الوحدة يكون بتناول الحياة حسب مبادئ الدين وقيمه، وحسب الكتاب والسنة وطريق السلف الصالح واجتهادهم، على أن تفسَّر الأمورُ الجديدة والمستحدثة حسب إدراك العصر وضرورته.

أجل، لابد أن يتعرف الإنسان على ما جلبه العصر من المعاني والتفسيرات، وأن يتواءم معها. فإن انزوينا وتقوقعنا على أنفسنا في الوقت الذي تنطلق فيه الدنيا في طريقها وفي سبيلها

فإن هذا يعني الموت بالنسبة إلينا. فمن أراد عيش الحياة الحالية فإن عليه أن يجد الطريقة التي يستطيع بها تأسيس التناغم والملائمة بين شلالات الحياة المنطلقة وبين إرادته وسعيه. وإلّا فإن مقاومة تيار الكون العام لا يؤدي إلّا إلى تلف المقاوم وفنائه.

لو أن «بديع الزمان» حظي بدعم بضع مئات من المثقفين وهو ينشر رسائله في أرجاء البلاد، ووجد منهم سندا لأفكاره فلربما كنا من أغنى الأمم وأكثرها مدنية، ومن أقدرها على حلِّ المشاكل التي تعرض لها، –ولكنا دخلنا المرحلة الحالية منذ ذلك الوقت، أي منذ بداية القرن العشرين– ولَمَا جابهتْنا المشاكلُ الحالية العديدة. ومع كل هذا فنحن نحمل أملا كبيرا، لأننا نرى أن الذين ينظرون إلى أُمتنا وكأنها فَقدت كل جذورها المعنوية هم على خطأ كبير..صحيح أننا تأخرنا مثل غيرنا من الأمم الأخرى وضعُفنا، فليس في وسع أحد إنكار هذا، ولكن ليس في وسع أحد أيضا أن ينفي قدرتنا على النهوض ومتابعةِ التقدم مرة ثانية، فلقد بدت أنوار اليقظة والانتباه تلتمع في أرواحنا كأمة بدلا من روح الكسل والخمود، إذ بدأ دفء الحياة ونبض النشاط والحيوية يتسلل إلى أرواحنا التي كانت قد ضعفت نتيجة الميل إلى الكسل والإخلاد إلى الأرض، إذن فلا شك أن أيام الربيع المشرقة الخضراء، على الأبواب. غير أننا في انتظارِ أبطالٍ من أمثال «الخضر» ليفرش سجادة الصلاة على سفوحنا، وأمثال «إلياس» لينشر شراعه نحو الآفاق البعيدة دون خوف أو وجل.. كان «بديع الزمان» معْلَما في هذا الأمر.

يقال «إن العبقري لا يختار» فهو لا يقول: «سأعمل هذا ولا أعمل ذاك» ولا يُصدِر حكما: «لنعملْ هذا لأنه مفيد ولا نعمل ذاك لأنه ضار»، ذلك لأن الشخص العبقري يملك موهبة إلهية، وقوةً دافعة ذاتية (لدنية) وشوقا يستطيع بها معرفة كل الحاجات الظاهرة أو الباطنة، الروحية منها والاجتماعية، وأن يحتضنها، ويتصدى بقوة وطاقة متعددةِ الأوجهِ التي خزنها في روحه لحمل عبء وظائفَ عديدة، فهو بهذه الأوصاف شخص خارق بطبيعته وفطرته.. والذين دققوا شخصية «بديع الزمان» والكتبَ التي تركها وراءه يرون اجتماع جميع عناصر العبقرية وصفاتها فيه، فهو اعتبارا من سنوات شبابه التي قدم فيها للناس حوله كتبَه الأولى التي تعد من أُولى علامات عبقريته، ووصولا إلى كتبِ مرحلة النضوج والتكامل والتي قضاها في المحاكم والسجون والمنفى.. في كل هذه الكتب نرى أنه حافَظ على مستوى القمة والذروة، وتحدّث دائما حديثَ شخصٍ عبقري ذي قابليات غير اعتيادية.

كان كتاب «المثنوي» من أوائل كتبه؛ لذا نجد وجود جذور أفكاره هنا، فكل فكرة في هذا الكتاب –التي كانت مثل جنين أو برعم أو نبتة صغيرة أو كقطرة من قطرات فكره النير– أصبحت فيما بعد نهرا متدفقا وشلالا هادرا أو بستانا عبِقَ الأرجاءِ بالورود أو كغابة سامقة الأشجار ملتفة الأغصان والأوراق، حرّكت الجوانبَ الإيمانية والفكرية والمشاعر الرقيقة لأصدقائه وأثارتها، وقذفت في قلوب أعدائه الرعب والفزع.

من أوائل أنفاسه التي نفخها في أرواحنا فأثارتها، وإلى قلوبنا فرسمت فيها معاني جديدة ملونة وبراقة وحفرت فيها خطوطا مضيئة، نقدم بعض الأمثلة بمثابة قطرة من بحر أو لمعة من شمس أو مسحة من عالم الوجود انعكست في مشاعرنا ووجدت هناك صداها:

إنَّ أكبر حقيقة في الدنيا، في رأي «بديع الزمان» –وفي رأي كل المفكرين المسلمين– هي حقيقة الإيمان وحقيقة التوحيد. فالوجود كله –في منظومة تفكير «بديع الزمان»– ليس إلا مثل آلة نسيج تنسج حقيقة التوحيد، وتنقش المعاني الإلهية نقشة نقشة وزخرفة زخرفه، وتنسج لوحات بديعة. إن الإحساس بكون هذه الحقيقة ذات ماهية شاملة تستوعب الغاية الإلهية وتتداخل ضمن أدق الفروع وأصغرها، وتفسيرَها حسب المعرفة الإلهية، ليس إلا ظهورا لحقيقة التوحيد، وهو مفهوم التوحيد لدى العامة قبل الدخول في التفاصيل المؤدية إلى اليقين.

أجل، «إنّ التوحيد توحيدان:

الأول: توحيد عامي يقول: «لا شريك له، ليست هذه الكائنات لغيره» فيمكن تداخل الغفلات بل الضلالات في أفكار صاحبه.

والثاني: توحيد حقيقي يقول: «هو الله وحدَه له الملك، وله الكون، له كل شيء»». وأصحاب مثل هذا الإيمان يملكون عقيدة راسخة لا تهتز، إذ يرون سِكَّة الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، ويقرون ختمه على جبين كل شيء.

وقد تناول «بديع الزمان» هذا الموضوع فيما بعدُ بشكل مفصل في»المقام الثاني من الكلمة العشرين»، وقدّمه في قالبٍ وفي شكلِ درسِ توحيدٍ كامل يُشبع حاجة كل إنسان مهما كان مستواه الثقافي والعقلي.

ومن أهم المواضيع التي اهتم بها «بديع الزمان» هو شرْحه كيف أن الإيمان يُعد منشورا يحلل الأبعاد الحقيقية لماهية الوجود والإنسان، فهو يرى أن الكون أصبح بفضل الإيمان كتابا يمكن قراءته ومعرضا يمكن مشاهدته، أما الإنسان فهو لب هذا العالم وجوهره حيث «تحولت حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العبثية والمُهْمَلِيَّة وملعبة التصادف إلى صيرورتها مكتوبات ربانية وصحائفَ آياتٍ تكوينية ومرايا أسماءٍ إلهية، حتى ترقّى العالمُ وصار كتابَ الحكمة الصمدانية.. وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية العاجزة الفقيرة الذليلة إلى أوج الخلافة، بقوة ضعفه، وقدرة عجزه، وسَوق فقره، وشوق فاقته، وشوكة عبوديته، وشعلة قلبه، وحشمة إيمان عقله. ثم انظر كيف صارت أسبابُ سقوطه، من العجز والفقر والعقل أسبابَ صعوده».

كما تم شرح هذا الموضوع وتفصيله في النقطة الأولى والثانية في «الكلمة الثالثة والعشرين» من رسائل النور ليناسب فهمَ واستيعابَ كل إنسان في مختلف المستويات.

ويرى «بديع الزمان» أيضا أن المسائل المتعلقة بحقيقة الإيمان وإن بدت مختلفة الواحدة عن الأخرى -إن نظرنا إليها من زوايا مختلفة- إلّا أنها مرتبطة الواحدة بالأخرى ارتباطا وثيقا وهي بمثابة أوجه متعددة لحقيقة واحدة، يقول:

«**اعلم** أن بين الإيمان بالله والإيمان بالنبيّ والإيمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازما قطعيا وارتباطا للتلازم في نفس الأمر بين وجوب الألوهية وثبوت الرسالة ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة».

وفي فترة رسائل النور الخصبة نرى في «المسألة التاسعة للشعاع الحادي عشر» بحثا أصيلا ومهما جدا حول ترابط أركان الإيمان وتلازمها فيما بينها.

من أهم الملاحظات التي قدمها «بديع الزمان» هي أن من يعمل في ساحة الفلسفة والعلوم العقلية دون أن يفتح نوافذ نفسه على عالم الروح والقلب لن يكون إلّا فيروسا ينقل الأمراض، ولن يكون هو نفسه إلّا علامة من علامات المرض والسقم، يقول:

«قد شاهدتُ ازدياد العلم الفلسفي في ازديادِ المرض، كما رأيت ازدياد المرض في

ازدياد العلم العقلي. فالأمراض المعنوية توصِلُ إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولّد أمراضا قلبية».

وإليكم تشخيصا وملاحظة أصيلة وقيّمة أخرى لـ«بديع الزمان»؛ إذ يقول: إن مراعاة الأسباب مع كونها من ضمن مسؤوليات الإنسان إلّا أنَّ من الضلالة الواضحة والانحراف البيّن إعطاءَ تأثير حقيقي لها، فبعد مراعاة الأسباب يجب العلم أن النتائج تأتي من قِبَل الله تعالى، يقول:

«إن التعلق بالأسباب سببُ الذلّة والإهانة. ألا ترى أن الكلب قد اشتهر بعَشرِ صفاتٍ حسنة، حتى صارت صداقتهُ ووفاؤه تُضربُ بهما الأمثال؟! فمن شأنه أن يكون بين الناس مباركا. ففضلا من المباركية ينـزل على رأس المسكين من طرف الإنسان ضربةُ الإهانة بالتنجيس؛ مع أن الدجاجة والبقر حتى السنّور، الذين ليس فيهم حسّ شُكْرانٍ وصداقةٍ في مقابلةِ إحسان البشر، يُشرَّفون بين الناس بالمباركية. أقول -بشرط أن لا ينكسر قلب الكلب ولا يصير غيبةً- إن سببه أن الكلب بسبب مرض الحرص اهتم بالسبب الظاهري، بدرجةٍ أغفَلته -بجهةٍ- عن المُنعمِ الحقيقي، فتوهَّم الواسطة مؤثرةً، فذاق جزاءَ غفلته بالتنجيس، فَتَطهّر.. وأكل ضربَ الإهانة كفارةً للغفلة، فانتَبه! أما سائر الحيوانات المباركة فلا يعرفون الوسائط ولا يقيمون لها وزنا، أو يقيمون لها وزنا خفيفا؛ مثلا: إن السنّور يتضرع حتى يأخذ الإحسانَ، فإذا أخذ فكأنه لا يعرفك ولا تعرفه. ولا يحس في نفسه شكرانا لك، بل إنما يشكر المنعم الحقيقي بـ«يا رحيم.. يا رحيم.. يا رحيم..» فقط؛ إذ الفطرة تعرف صانعَها وتعبدهُ شعوريا وغير شعوري..»

ثم نراه يتناول هذا الموضوع من زاوية مختلفة في «الغصن الأول من الكلمة الرابعة والعشرين»، وهو تناوُل لطيف يقدم لأفكارنا وعواطفنا ملاحظات مهمة.

من المواضيع التي وقف عندها الأستاذ بإصرار وباهتمام موضوع اتباع السنة النبوية السَّنِيَّة في جميع مسالك الحياة ومظاهرها، فهو -مَثَله في ذلك مثل جميع علماء أهل السنة والجماعة- يرى في الرسول ﷺ مرشدا لا يَضِلُّ ولا يُضِلُّ، ويرى في السنة النبوية الطريقَ الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة، لذا فهو يدعونا على الدوام للتمسك بها والعض عليها بالنواجذ.

أجل، إنَّ كل رحلةِ حياةٍ لم تسترشد بالسنة النبوية تشبه الوقوع في دوامة نهر، فمع أن الشخص الواقع فيها يبدو وكأنه يسبح ويقطع مسافةً، إلّا أنه في الحقيقة واقع في دوامة مهلكة، يقول:

«**اعلم** أنى شاهدت في سيري في الظلمات السننَ السَنِيَّة نجوما ومصابيح، كلُّ سُنة وكل حدّ شرعي يتلمع بين ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضلة. وبالانحراف عن السنة يصير المرء لعبة الشياطين، ومَركبَ الأوهام، ومعرض الأهوال، ومطية الأثقال -أمثالِ الجبال- التي تحملها السنةُ عنه لو اتبعها.. وشاهدتُ السنن كالحبال المتدلية من السماء؛ من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها واعتمد على العقل الدائر بين الناس، كمَن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمّق فرعون بـ ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا ﴾ (غافر:٣٦).»

ومن آرائه الأصيلة فيما يتعلق بعلاقاتنا مع الدنيا وزاوية نظرتنا إليها هي عدم وجود ما يدعو إلى كرهها، بل يقول: إن من الواجب حبها حيث يورد الأسس التي يقيم عليها هذا الحب وهي:

«**إن الدنيا لها وجوه ثلاثة:**

وجه: ينظر إلى أسماء الله.

ووجه: هو مزرعة الآخرة.. فهذان الوجهان حَسنان.

والوجه الثالث: الدنيا في ذاتها بالمعنى الاسمي، مدار للهوسات الإنسانية ومطالبِ الحياة الفانية.»

وبعد صفحاتٍ يتناول هذا الموضوع من زاوية أخرى ويعبر عنه بهذه الكلمات:

«يرجع إلى الحي من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجةِ مالكيةِ الحي للحياة وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات راجعة إلى المحيي جل جلاله بالمَظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوانِ وأنواعِ جلوات رحمته في جنته في الحياة الأخروية التي هي ثمراتُ بذورِ هذه الحياة الدنيوية وهكذا..

إذ كما أن الشخص الموظف بأن يجس ويضع إصبعه -عند اللزوم- على الجهازات التي تتحرك بها السفينة العظيمة للسلطان، لا يرجع إليه من فوائد السفينة إلا بمقدار علاقته وخدمته، أي من الألوف واحد.. كذلك درجة تصرّفِ كل حي في سفينة وجوده، بل هناك يمكن أن يستحق من الألوف واحدا، لكن لا يستحق بالذات هنا من ملايينِ ملايينَ واحدا أيضا..»

ومن آرائه أنه يجب عدم النظر إلى الأشخاص من وراء منظار مكبر؛ أي عدم إعطاء صورة لأي إنسان أكبر من حقيقته، فهذا ظلم أولا، وخطوة أُولى نحو الوثنية ثانيا، والمرء الذي يخطو هذه الخطوة الأولى قد لا يستطيع فيما بعدُ التراجعَ عنها، يقول:

«إن من أشد ظلم البشر إعطاءَ ثمراتِ مساعي الجماعة لشخصٍ، وتوهمَ صدورها منه، فيتولد من هذا الظلم شركٌ خفيٌ؛ إذ توهُّم صدورِ محصّلِ كسبِ الجماعة، وأثَر جُزئهم الاختياري من شخصٍ، لا يمكن إلّا بتصور ذلك الشخص ذا قدرة خارقة ترقت إلى درجة الإيجاد، وما تولدت آلهة اليونانيين والوثنيين إلّا من أمثال هذه التصورات الظالمة الشيطانية».

وتشخيص آخر له، إذ يقول: إن عداء الكفار للمسلمين هو من موجبات الكفر، وهذا العداء يرجع إلى عهود ما قبل التاريخ، لذا فليس في الإمكان إرضاء الكفار. أما الاستفادة منهم فمن رابع المستحيلات، فيقول: «إن الكفار لاسيما الأوربائيون ولاسيما شياطين في إنكلترة وأباليس الفرنك، أعداء ألدّاء، وخصماء معاندون أبدا للمسلمين وأهلِ القرآن.. بسرِ أن القرآن حَكَم على مُنكري القرآن والإسلام وعلى آبائهم وأجدادهم بالإعدام الأبدي، فهم محكومون بالإعدام أبدا، والحبس في جهنم سرمدا بنصوص ذلك القرآن الحكيم. فيا أهل القرآن كيف توالون مَن لا يمكن أن يوالوكم أو يحبوكم أبدا؟!».

ثم نراه يبدي لنا في مواضع متفرقة: أن الإيمان منبع ثريّ للطاقة وللقوة، والذي يملك في يده هذا المنبع يستطيع حجز العوالم ويستطيع أن يُسخر كل شيء ويربطه به. ويقول: «أجل، مَن كان لله تعالى كان له كل شيء، ومَن لم يكن له كان عليه كل شيء، والكون له بترك الكل له والإذعانِ بأن الكلّ مالُه.. وهو الذي فطرك بصورةٍ أحاطت بك دوائرُ متداخلة من الحاجات، وجهّزك في أصغرها التي نصف قطرها مدُّ يدك باقتدار واختيار. وجهّزك في البواقي التي

وسعت بعضها كما بين الأزل والأبد والفرش والعرش بالدعاء فقط.. وفي التنـزيل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ (الفرقان:٧٧) فالصبي ينادي أبويه فيما لا تصل يدهُ إليه؛ فالعبد يدعو ربَّه فيما عجز عنه.»

إنَّ فخر الكائنات وخاتم الرسل ﷺ هو أساس الوجود وخلاصته وخميرته، فليس هناك موضع في الكون يخلو من حقيقة نوره. فمثله كمثل بذرةِ شجرة باسقة تضم كل خصائص تلك الشجرة. فنوره أساس للوجود ومرآةُ تجليات الأول والآخر.

أجل، «إنه بينما ترى العالم كتابا كبيرا، ترى نور محمد «عليه الصلاة والسلام» مدادَ قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة، ترى نورَه عليه الصلاة والسلام نواتها أولا، وثمرتها ثانيا.. وبينما ترى العالم يلبس جسم الحيوان، ترى نوره عليه الصلاة والسلام روحه.. وبينما ترى العالم تحوّل إنسانا كبيرا، ترى نوره عليه الصلاة والسلام عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً، ترى نوره عليه الصلاة والسلام عندليبه.. وبينما ترى العالم قصرا مزينا عاليا ذا سرادقات تتظاهر فيها شعشعة سلطنة سلطان الأزل وخوارق حشمته، ومحاسن تجليات جماله، ونقوش خوارق صنعته، إذن ترى نوره عليه الصلاة والسلام نظّارا يرى لنفسه أولا، ثم ينادي بـ«يا أيها الناس تعالوا إلى هذه المناظر النـزيهة، وحَيهلوا على مالَكُم فيه شيء من المحبة والحيرة والتنـزه والتقدير، والتنور والتفكر وما لا يحد من المطالب العالية». ويريها الناس، ويشاهِد ويشهَد لهم.. يتحير ويُحيِّرهم.. يُحب ويُحبِّبُ مالِكه إليهم.. يستضيئ ويُضيء لهم.. يستفيض ويفيض عليهم..»

ويتناول «الأساسُ الثالث للكلمة الحادية والثلاثين»، وكذلك «الذيلُ الثاني للكلمة العاشرة» هذا الموضوعَ القيم بعمق وبشكل غنيّ وثريّ، ويبسّطه أمام أعينِ وبصائرِ قلوبنا.

والأستاذ «بديع الزمان» يرى أن ماهية طبيعة الإنسان لها وجهان: وجه صنم خادع من جهة، ومنشور حافل بالأسرار يعكس الحقيقة اللانهائية وأثر صانعه وخالقه. أجل، فالذي له استعداد معنوي وقابلية روحية، والذي استطاع أن يمسك بزاوية النظر الصحيحة يدرك أن الإنسان صنعة مزخرفة ومنشور بلوري، وهو كتاب لا يضل قارئه، وخطيب بليغ ومنبعُ نورٍ يضيء ما وراء أستار الأشياء ويكشفها. وهو يسوق ملاحظاته هذه بالكلمات التالية التي تبدو وكأنها أنشودة رائعة:

«إن هذه ثلاثون سنة، لي مجادلة مع طاغوتين وهما: «أنا» في الإنسان، و«الطبيعة» في العالم.

أما هذا، فرأيته مرآةً ظليا حرفيا. لكنْ نظر الإنسانُ إليه نظرا اسميا قصديا بالأصالة، فتفرعن عليه وتَنَمرَدَ.

وأما هذه، فرأيتها صنعة إلهيّة وصبغة رحمانية.. لكنْ نظرَ البشرُ إليها بنظر الغفلة فتحولت لهم «طبيعة» فتألّهتْ عند ماديبهم. فأنشأتْ كفرانَ النِعَم المنجرّ إلى الكفر.

فلله الشكر والحمد، وبتوفيق الأحد الصمد، وبفيض القرآن المجيد أنتجت المجادلةُ قتلَ الطاغوتين وكسْرَ الصنمين.»

وفي عهد تكامُل رسائل النور نجد هذا الموضوع الحافل بالأسرار مشروحا بشكل مفصل وواسع وغني في «المقصد الأول من الكلمة الثلاثين»، وكذلك في «اللمعة الثالثة والعشرين»، حيث يهدم أركان فكرة عبادة الطبيعة ويقوضها من أساسها ويقتلعها من جذورها.

في منظومة فكر «بديع الزمان» نجد أن الذنوب والمعاصي عنده بمثابة المرشدين والدالّين على طريق الكفر؛ ففي المواضع التي يكثر فيها هؤلاء يتجه شراع الفكر نحو الفسق وتحيط الأخطار بالإيمان. أجل، «إنَّ في ماهية المعصية -لاسيما إذا استمرت وكثرت- بذرَ الكفر.. إذ المعصية تولد ألفةً معها وابتلاء بها، بل تصير داءً، دواؤها الدائمي نفسها، فيتعذر تركُها. فيتمنى صاحبُها عدَم عقابٍ عليها، ويتحرى بلا شعور ما يدل على عدم العذاب، فتستمر هذه الحال حتى تنجر إلى إنكار العذاب وردّ دار العقاب».

وفي عهد توسُّع مؤلفاته وتطورها نجد هذا الموضوع في «النكتة الأولى من اللمعة الثانية» حيث يقول بأن المعاصي تشكل مصائد وشباك طريق الكفر.. وهذه ملاحظة أصيلة في الحقيقة.

لقد كان الاشتغالُ بالقرآن الكريم والتعمق في فهمه الشغلَ الشاغل لهذه العقلية النيرة، فاعتبارا من «إشارات الإعجاز» إلى «المثنوي» إلى الكلمات المختلفة في كتابه «الكلمات» ولا سيما «الكلمة الخامسة والعشرون» نراه يتنفس القرآنَ في كل كلمة ويأتي بتفاسير جديدة

وأصيلة وعميقة، ثم يَعرض هذه المعاني الإلهية المستنـزلة إلى مستوى المدارك الإنسانية أمام العيون الباحثة والقلوب الظمأى للحقائق، فيثير وجداننا بأفكاره الذهبية التي تعكس ارتفاع هذه المعاني إلى ذروة المدارك الإنسانية يقول:

«إنه (القرآن) جمَع السلاسة الرائقة، والسلامة الفائقة، والتساند المتين، والتناسب الرصين، والتعاون بين الجمل وهيئاتها، والتجاوب بين الآيات ومقاصدها بشهادة علم البيان وعلم المعاني، مع أنه نزل في عشرين سنة منجّما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقاطعا بتلاؤم كأنه نزل دفعةً.. ولأسبابِ نزولٍ مختلفة متباينة مع كمال التساند، كأن السبب واحدٌ.. وجاء جوابا لأسئلة مكررة متفاوتة، مع نهاية الامتزاج والاتحاد، كأن السؤال واحد.. وجاء بيانا لحادثاتِ أحكامٍ متعددة متغايرة، مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة.. ونزل متضمنا لتنـزلات إلهية، في أساليبَ تُناسب أفهامَ المخاطبين، لاسيما فهم المنـزَل عليه عليه السلام بحالات في التلقي متنوعة متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأن الحالة واحدة.. وجاء متكلما متوجها إلى أصنافِ مخاطبين متعددة متباعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطب واحد، بحيث يظن كلُ صنف كأنه المخاطب بالأصالة.. ونزل مُهديا وموصلا لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد؛ تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي «التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة». فبسر امتلائه من التوحيد، الْتأمَ وامتزج وانتظم واتّحد.

ومن كان له عين في بصيرته، يرى في التنـزيل عينا ترى كل الكون، كصحيفة مبصرة واضحة.. وقد جاء مكررا ليقرّر.. ومردّدا ليحقق قصصا وأحكاما. مع أنه لا يُمِلُّ تكرارهُ، ولا يُزيل عَوْدُه ذَوْقَه ولا يُسئِمُ ترداده. كلما كرِّر حقَّق وقرّر، بل ما كررتَه تحلو وتفوحُ أنفاسُ الرحمن منه «إن المسك ما كررتَه يتضوّع». وكلما استعدتَه استَلَذْتَه؛ إن كان لك ذوق سليم بقلب غير سقيم. والسر فيه: أنه قُوت وغذاء للقلوب، وقوة وشفاء للأرواح، والقوت لا يُمِلُّ تكرارهُ.. فمألوفُه آنَسُ وألذّ، خلاف التفكّه الذي لذتُه في تجدده، وسآمته في تكرره».

ويصل تحليل هذا الموضوع في «الكلمة الخامسة والعشرين» إلى مرتبةٍ جذابة وساحرة، فما كان هنا قطرة يصبح هناك بحرا واسعا، وما كان هنا نبتة صغيرة يصبح هناك غابة كثيفة.

وبعد هذا التذكير القصير في «المثنوي».. بعد صفحات قليلة فقط نراه يعرض علينا موضوعا قرآنيا غاية في الروعة عرضا موجزا:

«إنك إذا استمعت القرآن فألبس لكلّ نغمةٍ من نغماتهِ المتطوّرة على الحُجُب، والمتنوعة في المراتب الإرشادية، والمنصبغة بحسيات الوسائط، من جبرائيل عليه السلام إلى من تسمع منه، ما يناسبها.. فلك أن تَمُرّ بسمعك من القارئ في مجلسك إلى الاستماع من النبيِّ ﷺ الذي يقرؤه في ذروة شاهق النبوة في مجلس الأرض على أبنائها من بني آدم وغيرهم.. ولك أيضا أن تستمع من جبرائيل وهو يخاطب النبيَّ في الأفق الأعلى عليهما الصلاة والسلام.. ولك أن تستمع من خلفِ سبعين ألفَ حجابٍ من المتكلم الأزلي، وهو يتكلم مع النبي في قاب قوسين أو أدنى. فألبسْ إن استطعتَ لكلٍّ ما يليقُ به!»

وكتاب «المثنوي» يُعد في الحقيقة معرضا لمواضيع واسعة جليلة، وفهرسا لها.. يمكن أن يؤلف حول كل واحد منها كتاب خاص.. هذه المواضيع التي تناولها بالشرح والتفصيل فيما بعد في رسائل النور في مختلف أجزائها.

فما أهمَّ وما أعظم تلك الحقائق التي تناولها تحت عنوان «زهرة» باختصارٍ، وضمَّها فيما بعدُ إلى رسائل النور!

ورسالة «ذرة» تعد مثل نبتة صغيرة للتقوى والعمل الصالح، فهناك يتم استجواب رغباتنا ومشاعرنا الدنيوية، وتُنفخ فكرة التوحيد لأذهاننا ويُعرض الإيمان الشامل المترامي الأطراف أمام الأنظار.

أما رسالة «شمة» فتمس القلوب مثل طيف رقيق، حيث تعرض أمام الأنظار أن غنى الآيات وعمق معانيها لا يمكن مقارنتها بالشعر، وتقف أمام غايات خلق أعضاء الإنسان فيكشف بعض الأستار عن العيون ويزيل الألفة التي تكدر البصائر وتضعفها.

وفي «الرسالة العاشرة» يأخذ بيدنا إلى سفوح معاني القضاء والقدر والعطاء الإلهي ليمس قلوبنا بمعاني الآيات القرآنية وأسرارها، ومن ثم يجد مقدمة لكي يعرض على الباحث عن الحقيقة اليوم طريقا مختلفا لكي يوصله إلى الحق.. يعرض هذا بينما هو يحول أنظارنا إلى أفق عجزنا وفقرنا. وبعد خطوتين فقط وتحت عنوان آخر يسترعي انتباهنا إلى أن الإنسان يختلف

في خلقه عن جميع الأحياء الأخرى، حيث يؤكد ويذكّر أنه فهرس للوجود بأجمعه، ومن ثم نراه يعود إلى الأدعية التي تناولها بالتحليل فيما بعد في «كليات رسائل النور» مرات عديدة، فيفرج بين الأبواب السرية لقبول الأدعية والاستجابة لها، فيثير في قلوبنا الرغبة والشوق للمناجاة. وفي موضع آخر نراه يقيم التوازن بين «التحدث بالنعمة» و«الغرور».

وبعنوان «شعلة» نسيح معه في المعاني الواسعة للفظ الجلالة «الله» الذي هو اسم ذات له، فيهز قلوبنا بانفعال معرفةٍ ذاتِ طعم مختلف لم نتذوقها من قبل.

ثم سرعان ما يفتح فقرة حول الأدعية فينبه قُرّاءه بأن إيفاء الوظائف الدينية بهمة عالية يُعَدّ دعاءً فعليا.

ثم يعود فيوجه الأنظار إلى أهمية التربة وكيف أن الدنيا تعد كقلب للعالم. وينهي ملاحظـاته بعد ذلك بشرحِ حديثِ «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وتحت عنوان «نقطة» يضيف الأستاذ «بديع الزمان» دليل الضمير الإنساني (الوجدان) -الذي يَعده نقطة تماس بين عالم الغيب وعالم الشهادة- إلى الأدلة الرئيسية الثلاثة حول الذات الإلهية التي كثيرا ما وقف عندها في رسائل النور، ففرج بذلك فرجة في بابٍ وقف عنده الكثير من المفكرين وأرباب القلوب من المتصوفة وهم على درب السير في مدارج السلوك.

ويؤكد على استحالة التطور إذ ذكر منذ البداية أن الطفرات لا يمكن أن تفسِّر شيئا ولا أن تكون كافية لأي تطور، وذلك في وقت مبكر وقبل أن ينتبه الكثيرون إلى هذه الحقيقة، وذَكر أن من المستحيل الانتقالَ من نوع إلى نوع آخر في عالم الأحياء. لذا فقد قال بشكل مجمل وبشكل مطلق: «لا، لنظرية التطور»، مستندا في ذلك إلى أساس فكري سليم.

إن جهود الأستاذ المدقق «إحسان قاسم الصالحي» المشكورة في تهيئة الطبعة العربية للمثنوي -مثلما هيأ من قبلُ ترجمةَ كليات رسائل النور- فوق كل تقدير، وهي بلا شك أفضلُ بكثير من مثل هذه المقدمات التي حررناها والتي لا تخلو من العيوب والقصور.

والحقيقة أن الجهود المباركة للأستاذ إحسان قاسم لم تقتصر -كما فعلنا نحن- على جزء من كليات رسائل النور وبشكل مجمل، بل شملت كل رسائل النور.

وكان من المفروض أن تكون كل مسألة من المسائل التي عرضتْها هذه الرسائل موضوعا لرسالة دكتوراه تراعي كل الأسس العلمية الموجودة في المستويات الأكاديمية الغربية. وهذا الأمر مهم من ناحية ظهور القيمة الحقيقية لرسائل النور على المستوى الأكاديمي. وكذلك من ناحية كونها جهودا في مستوى الجهود التي بذلها الأستاذ إحسان قاسم.

صحيح أن العديد من أصدقائنا الشباب قدموا دراسات وأطروحات ماجستير ودكتوراه حول رسائل النور، ولكن لم تكن أيٌّ منها كافية لإعطاء القيمة الحقيقية لذلك العملاق بإبراز مستوى فكره الرفيع.

وكل ما نتمناه هو تأسيس معهد يأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة في أقرب فرصة.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا محمد ومن والاه، وبعد..

إن مما دفعني إلى القيام بتحقيق هذا الكتاب بهذا النمط من التحقيق المتواضع هو:

أولا: حاجتي الماسة إلى من يرشدني إلى دروب النفس الأمارة بالسوء، ويكشف لي عن دقائق مسالكها وخبايا دسائسها، ويضع أمامي علاج أمراضها المتنوعة، ومن ثم يأخذ بيدي إلى منابع الإيمان في رياض الكون الفسيح لأنهلَ منها ما أنهلُ حتى يرتوي القلبُ ويشبعَ العقل وتنبسط الروح.. بمعنى أنني قمت بهذا التحقيق لنفسي قبل كل أحد.

ثانيا: وجدت أن كثيرا من الباحثين والمفكرين يرومون الوصول إلى أصول فكر الأستاذ النورسي، ويهمهم أن يوغلوا معه في أعماق تجاربه مع النفس، وأن يرافقوه في سَرَيان روحه في أرجاء الكائنات، ويُعملوا فكرهم في ما نَصَبه من موازين علمية ومعايير منطقية ومناهج فطرية؛ فأردت أن أضع بين يديْ هؤلاء الأفاضل هذا السِفرَ النفيس من مؤلفات الأستاذ الذي عدَّه «مشتلَ رسائل النور وغراسها»، حيث فيه خلاصة أفكاره، بل إن أغلب ما أزهر من أفكاره –في رسائل النور– بذورُه كامنة في هذا الكتاب.

ولما كان الغوص في هذه الأمواج الزاخرة من الأفكار و الخواطر والمسائل وإخراجُ لآلئها الثمينة ودررِها النفيسة ليس في طوقي، اكتفيت بهذا التحقيق، ليجد أولئك الكرام بين يديهم نسخة كاملة من الكتاب، فيبذلوا فيه جهدهم لعل المولى القدير يقيّض منهم من يضطلع للقيام بتلك المهمة التي أعجزُ عنها، فيسدّ جوعة الروح وهزال الفكر التي يعانى منها الكثيرون.. بمعنى أنني قمت بهذا التحقيق لهؤلاء الأكارم.

ثالثا: إنَّ كل مسلم بل كل إنسان يشعر في قرارة نفسه أنه بحاجة إلى تربية روحه وتزكية نفسه وتنمية عقله وتوسيع آفاق خياله، فتراه يتلمس مبتغاه من مظانه من الكتب.. فأردت أن أضع هذا الكتاب القيم أمام كل مسلم، بل كل إنسان ليرى نمطا جديدا وفريدا من أساليب

التزكية والتربية، قلما يجده في كتاب آخر؛ حيث إنه يمزج أدق الموازين العقلية والمقاييس المنطقية بأرفع الأشواق القلبية وأسطع التفجرات الروحية ضمن أمثلة ملموسة لا تكاد تخفى على أحد، آخذا بيد القارئ برفق، متجولا معه في ميادين النفس والآفاق، مبينا له ما توصل إليه من نتائج يقينية، بعد تجارب حقيقية خاض غمارها تحت إرشاد القرآن الكريم.. بمعنى أنني أردت أن أبيّن بهذا التحقيق هذا المنهج القرآني الفريد لكل مسلم، بل لكل إنسان.

قبل كل ذلك وبعده؛ فإن قطرة من عمل خالص لوجه الله أعظم من بحر من الأعمال المشوبة، فأَمَلي بالله عظيم أن يتقبل هذا التحقيق المتواضع خالصا لوجهه الكريم، وأتضرع إليه تعالى أن يهيئ في مقبل الأيام من يوفي حق هذا الكتاب من الشرح والبيان ليعم النفع ويجزل الثواب.

* * *

ولقد سار التحقيق هذا وفق الخطوات الآتية:

١- المقابلة بين النسخ المتوفرة لديّ وهي:

أ- الطبعة الأولى من الكتاب، المطبوع في إسطنبول سنة ١٣٤٠-١٣٤١ هـ (١٩٢٢م) وقد رمزت إليها بـ«ط١»

ب- نسخة خطية بـ«الرونيو» بخط «أحمد نظيف» أحد طلبة الأستاذ النورسي، مصحح من قبل الأستاذ نفسه، حيث كتب في الختام دعاءً رقيقا للكاتب ومساعديه.

ج- مخطوط بخط «جيلان جالشقان» الذي خدم الأستاذ النورسي وهو مازال شابا ولازمه حتى وفاته. والمخطوط مصحح من قبل الأستاذ نفسه.

د- الطبعة الأخيرة من الكتاب، المطبوع في مطبعة النور سنة ١٩٥٨م في أنقرة، وتتميز هذه الطبعة بتصحيح كثير من أخطاء الطبعة الأولى، ولكن ما زالت فيها أخطاء مطبعية كثيرة، فعالجتُ تلك الأخطاء واعتبرت هذه الطبعة هي المعول عليها في التحقيق.

هـ- الترجمة التركية للكتاب، وقد قام بها شقيق الأستاذ النورسي: الملا عبدالمجيد، وطبعَتْها «دار سوزلر» في إستانبول سنة ١٩٧٦ وقد رمزت إليها بـ«ت».

و- مخطوط الترجمة التركية بخط «علي الصغير» أحد طلبة الأستاذ والذي كان يلقّبه

بـ«ذي الروح العظيمة» وقد سجل له دعاءً لطيفا في الختام، والمخطوط هذا بالحروف العربية بخلاف المطبوع الذي هو بالحروف اللاتينية.

٢- وضع بعض الفقرات، وإفادات المرام التي لا توجد إلّا في «ط١» في الهامش مع الإشارة إلى مواضعها.

٣- استخراج الآيات الكريمة من القرآن الكريم ووضع اسم السورة ورقم الآية.

٤- تخريج الأحاديث الشريفة الواردة على الأغلب بالمعنى، اعتمادا على كتب موثوقة.

٥- استخراج الأمثال الواردة من كتاب «مجمع الأمثال للميداني».

٦- رسم إملاء الكتاب حسب قواعد الإملاء الشائع اليوم، حيث كان رسم الإملاء في النسخ الأصلية والمطبوعة على الرسم القديم. مثل: الصلوة. الحيوة.

٧- درج معاني بعض الكلمات في الهامش باختصار شديد؛ إذ قد صعب عليّ معاني بعض الكلمات، مما دفعني إلى مراجعة قواميس اللغة وبخاصة: القاموس المحيط للفيروزآبادي، ومختار الصحاح للرازي.

٨- القيام بترجمة كل ما ورد في الكتاب بالتركية من عبارات وفقرات ورسائل. ألخّصها بالآتي:

أ- مقدمة الكتاب، حيث قد كتبها الأستاذ النورسي سنة (١٩٥٤) أي بعد ما يقارب أكثر من ثلاثين سنة على تأليفه، وقد قام أخوه عبد المجيد بترجمة هذه المقدمة إلى اللغة العربية، فأعدتُ النظر فيها لتكون أكثر مشابهة بالنص.

ب- البيان الذي أُلقي في مجلس الأمة التركي.

ج- رسالة «نقطة من نور معرفة الله جلّ جلاله» كاملة.

د- بعض الهوامش أو المقدمات المقتضبة التي وردت، وقد وضعتها بين قوسين مركنين [ ] لتمييزها عن الأصل العربي.

أما الفقرات التي وردت في الكتاب باللغة الفارسية فقد تفضل بترجمتها مشكورا الأخ

الكريم «فاروق رسول يحيى» الذي وفقه الله تعالى لترجمة ونشر العديد من رسائل النور باللغة الكردية. وقد حصرنا هذه الفقرات المترجمة عن الفارسية بين قوسين مركنين مزدوجين [[ ]].

٩- الإشارة في الهوامش إلى تلك المسائل التي وضّحها المؤلف -فيما بعد- في رسائل النور والتي وفقَنا المولى الكريم إلى ترجمتها.

١٠- توضيح بعض العبارات أو الجمل في ضوء ما جاء في الترجمة التركية للكتاب والإشارة إليها بـ«ت» ورقم الصفحة في الهامش.

١١- تشكيل بعض الكلمات، ووضع علامات الترقيم لإزالة اللبس.

١٢- وضْع تراجم لقسم من الأعلام الواردة في الكتاب.

١٣- تعريف بعض المصطلحات، مع ترك الكثير منها، حيث الكتاب نفسه كفيل بشرحه، وبخاصة إذا استُعين «بالفهرس التحليلي».

١٤- وضْع فهارس عامة وتحليلية للموضوعات والأعلام والأماكن وغيرها تسهيلا للقارئ الكريم.

١٥- وأخيرا نشر رسالة «نور من أنوار نجوم القرآن» لأول مرة بإلحاقها بهذا المجلد (المثنوي) لشدة الترابط والتشابه في مباحثهما. وذلك بعد إجراء التحقيق على مخطوطها الوحيد المكتوب بخط «الحافظ توفيق الشامي» أحد طلاب الأستاذ النورسي في منفاه «بارلا». علما أن المخطوط صُحح من قبل المؤلف.

* * *

وبعد القيام بهذه الخطوات وفي أثنائها، لفتت نظري مسائلُ نحوية لغوية لا تستقيم مع ما تعلمناه في دراستنا المدرسية. فألجأتني إلى البحث عنها في بطون الكتب القديمة المعتمدة كالمغني والأشموني، والاستفسار عنها ممن لهم الباع الطويل في معرفة دقائق اللغة، فأرشدوني إلى ما فيه الصواب، جزاهم الله خيرا، حتى اطمأن القلب إلى أن ما كتبه الأستاذ النورسي هو الصحيح أو فيه الجواز. وأن ما ألِفناه ودرسناه من قواعد اللغة لا يرقى ليكون محكا في مثل هذه المسائل.

وأرى من الأفضل تلخيص عدد من تلك المسائل التي ربما تلفت نظر القارئ الكريم أيضا مع أنها لا تخفى عليه. وهي:

١- إيثاره استعمال جمع العقلاء لغير العاقل؛ إشارة إلى أن كل جزء من أجزاء العالم حيّ عاقل يسبّح لله، وعملا بها في الآية الكريمة: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤).

٢- تغليب التذكير على التأنيث، ولاسيما في الأفعال المتقدمة على الفاعل المؤنث المجازي بخلاف المتأخرة عن الفاعل.

٣- استعماله الوجوه المختلفة للكلمات التي يجوز فيها التذكير والتأنيث، كالروح. وربما يستغرب القارئ من إيراد كلمة «النفس» أحيانا بصيغة التذكير، إلّا أن استغرابه يزول بمجرد قراءة العبارات التي تليها، حيث يجد أن المقصود منها «أنا» أي ذات الإنسان.

٤- استعماله لمعدود «المائة» و«الألف» بصيغة الجمع أحيانا، أو تأنيثُ وتذكيرُ الصدر دون العجز في الأعداد المركبة.

وأمثالها من الأمور التي لم نألفها.

ولا يخفى أن لهذه الوجوه تخريجاتِها اللغوية وشواهدها التي تُسندها، إلّا أننا لم نوردها في مواضعها لئلا نُشغل القارئ الكريم عن الهدف الأساس من الكتاب.

٥- كلمة «الذات» الدالة على الله سبحانه ترد بصيغة التذكير فمثلا: الذات الأقدس، إذ جعلها اسما للحقيقة من كل شيء فزال عنه التأنيث.

٦- الإكثار من استعمال جمع المؤنث السالم، حتى في بعض الجموع، مثل: لوازمات، شؤونات، نواتات...

٧- لقد تخللت الجملَ كلماتٌ تركية، استعملها الأستاذ لزيادة الإيضاح -أو قالها أثناء التدريس- وهي موضوعة بين قوسين () للتمييز، ويعقبها على الأغلب معناها بالعربية. فمثلا: إن هذا (التَّمَلْ جوروك) الأساس فاسد.. أو (شِمَنْدوفر) القطار.. (فابْريقة) المعمل.

٨- استعماله كلمة «غير» معرّفة بـ«أل» مما لا تُستعمل في الأسلوب الحديث[1] وقد

(١) وقد أشرنا إلى هذا أيضا في المجلد الخامس من كليات رسائل النور «إشارات الإعجاز» فمن شاء فليراجعه.

بعث إليّ العالِم الجليل «عمر الريشاوي» رسالة يوضح فيها هذه المسألة أدرج هنا ملخصها لإزالة اللبس:

«إننا إذا أردنا كلمة «غير» صفةً للمعرفة، فلا نملك سوى اختيار أحد الطريقين:

أ- تحليتها بـ«ألـ» لتصبح معرفة وتصلحُ بالتالي صفة للمعرفة كما هو مقرر نحويا.

ب- أضافتها إلى المعرفة.

ولما كان الطريق الثاني لا يحقق هدفنا، إذ بإضافتها إلى المعرفة لا تصبح معرفة، تعيّن اتخاذ الطريق الأول وهو تحليتها بـ«ألـ» ولا محيد عن ذلك، هذه من ناحية القواعد النحوية، وأما من حيث الاستعمال، فتبدو ندرة استعمالها مع «ألـ»، أو لا نجدها إلّا في كلام المجدِّدين.

والخلاصة: أن الكاتب أو المتحدث يجب عليه رعاية أحد الأمرين:

إما رعاية ناحية الاستعمال وإضافتها إلى المعرفة وقبول التأويل؛ وهو أن هذه الكلمة عوملت معاملة المعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة:٧) و ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ (النساء:٩٥).

وإما مراعاة ناحية القواعد وهو تحليتها بـ«ألـ» لأن المقام -وهو كون الاسم صفة للمعرفة- يقتضي ذلك نحويا».

ثم أبدى الأخ الكريم ملاحظة مهمة وهي:

أولا: إن المشكلة التي أصبحت مثار البحث حالة واحدة وهي كون «غير» صفة للمعرفة، أما حالاته الأخرى: فاعلا أو مجرورا أو مضافا أو صفة للنكرة أو حالا أو بدلا أو غير ذلك من الحالات الإعرابية الأخرى فلا أتصور أية مشكلة فيها نحوية أو استعمالية.

ثانيا: قرر المجمع اللغوي المنعقد في القاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في شهر شباط ١٩٦٩ بقبول الرأي القائل: «إن كلمة «غير» الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف إليه المعرفة. ويصحّ في هذه الصورة التي تقع بين متضادين، وليست مضافة أن تقترن بـ«ألـ» فتستفيد التعريف». اهـ.

❊ ❊ ❊

ورُبّ سؤال يرد للخاطر:

لماذا ألّف الأستاذ النورسي هذه الرسائل باللغة العربية، والمخاطبون لا يتقنونها، علما أنه كتب رسائل النور بالتركية؟

فالجواب -والله أعلم-: أن اللغة العربية كانت هي لغة العلم في تلك الفترة (أي إلى منتصف العشرينات) وقبل استبدال الحروف العربية، رغم أن المحادثات الجارية بين الناس كانت بالتركية..

ثم إن هذه الرسائل العربية بحد ذاتها أصول وقواعد، ومناهج، وموازين مستلهَمة من نور القران الكريم، خاطب بها الأستاذ النورسي نفسَه أولا، وألزمها الحُجةَ حتى أرغمها على التسليم، فهي أعلمُ بلغته و تعابيره. ومما يُثبت ما نذهب إليه هو أن الأستاذ النورسي قد صبّ هذه المعانيَ ووسّع منها وكشف عن دقائقها في الرسائل التي ألّفها بالتركية -فيما بعدَ ١٩٢٧م- تلك هي رسائل النور التي غَدَت موضعَ استفادة العالِم والمتعلم والكبير والصغير. فأدّت مهمتها المرجوة في حفظ الإيمان تجاه تيار الكفر والطغيان.

أما ما يرِد من سؤال حول تسمية الكتاب. أي لماذا سّماه الأستاذ المؤلف بـ«المثنوي» الذي يعني في الشعر أبيات مثنى مثنى، علما أن الكتاب ليس ديوانا للشعر؟

فالجواب: لقد سمّى الأستاذ النورسي هذه الرسائل بـ«الرسائل العربية» أو «المجموعة العربية» وقد كُتب على مجلد الطبعة الأولى: «قطرات من فيوضات الفرقان الحكيم». ولكن لأن فعل هذه الرسائل في القلب والعقل والروح والنفس يشبه فعل «المثنوي» لجلال الدين الرومي المشهورِ والمتداول بين أوساط الناس ولاسيما في تركيا، وأن عمله في تجديد الإيمان وترسيخه في القلب وبعثه الروح الخامد في النفوس يشبه «المثنوي الرومي» فقد سماه الأستاذ النورسي بـ«المثنوي». ولأجل تمييزه عن «المثنوي الرومي» الذي كُتب بالفارسية سماه «المثنوي العربي». ولأنه أساسٌ لرسائل النور وغراس لأفكارها ومسائلِها أضيف إليه «النوري» فأصبح الكتاب يحمل عنوان: «المثنوي العربي النوري».

ومما يجدر الإشارة إليه أن الكتاب مع أنه جامع لكثير من أساليب البيان وأنماط الاستعارة وأنواع التشبيه والجناس والطباق وغيرها من أساليب البلاغة، فإن كل قارئ -مهما

كان تذوقه البلاغي– يظل مشدودا مع بلاغة المعنى وجمال المغزى أكثرَ من انشداده مع بلاغة المبنى وجمال اللفظ؛ إذ إن عمق المعاني وسعة الأفكار ودقة المسائل التي يطرقها تجعل القارئ يقول: حقا «إن الكلام البليغ هو ما استفاد منه العقل والوجدان معا».

هذا ولقد أغنانا الأستاذ نفسه عن تقديم أي كلام حول سبب تأليفه للكتاب وفترة تأليفه له، حيث سجل ذلك في مقدمته البديعة، وفي إفادات المرام مستهلَّ كل رسالة.

والله نسأل أن يوفقنا إلى حسن القصد وصحة الفهم وصواب القول وسداد العمل..

وصلّ اَللّٰهُمَّ على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

إحسان قاسم الصالحي

المدخل

الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ

لا جدال في أنّ «النفس البشرية» طاقة عظمى من طاقات البناء والإعمار، ومصدر خصب من مصادر الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم إذا ما زكت وصفت وغدت موصولة الأسباب بفاطرها وموجِدها، لأن صلتها بالله، واستمساكها بأسباب أنواره، يجعلها موضع نظره، ومَنْ كَان موضعَ نظر الله تعالى أُفيضَ عليه من صفات جماله وكماله ما يستطيع بها أن يمحق ظلام الدنيا وشرورها.. وهي (أي النفس) قوة تدميرية عمياء، وطاقةُ هَدْم مرعبة، إذا ما نجمت فيها جرثومة التمرد والنـزق والجموح، وعصفت بها رياح الهوى الهوج المحركة لنيران رغباتها المجنونة، وشهواتها العارمة، فتحرق هذه النار كل سبب يصلها بالله تعالى، فلا تلبث -بعد ذلك- أن تتنكر لخالقها وبارئها، وتنـزع إلى عصيانه، وترغب في الانفلات من مسؤوليات الإيمان، وتكاليف الإسلام.

والنورسي -رحمه الله- إنما يرصد هذه النفس الضالة التي قد غلبت عليها رعونتها، وركبتها حماقتها، فتنشط في البحث عمّن يسليها ويلهيها، وينسيها مَنْ تكون..؟ ولِمَ كانت..؟ وما واجبها..؟ وما مسؤولياتها..؟ ويأسف لها وهي تتصامم عمّن يريد لها الصحو المسؤول، واليقظة البصيرة، ويطلب لها التعلم والمعرفة، ويأخذ بيدها للارتقاء والسمو، ويشرّفها بمعرفة الله ويتوّجها بتاج طاعته، ويُلبسها حُلل معرفته.. ويرى أنها -إذا زاد ارتكاسها وفاض بها غرورها- قد تتوهم نفسها قطب العالم ومحور الوجود، فتقيس كل شيء بمقاييسها، وتزنه بموازينها، لظنها أنها منبع كل حق، ومصدر كل صواب.. وقد تتمادى في هذا الغرور الأحمق حتى لتنازع «الربوبية» سلطانها، وتنسب لنفسها من صفات الألوهية ما تشاء ويشاء لها الهوى. وتتفاوت «النفوس» في أسباب تعرضها لمخاطر هذا التورم الخبيث، والانتفاخ المَرَضيّ المخيف، فيغدو البعض أشدّ عتوا، وأصعب توعرا، وأكثر استعصاءً وتمردا على حقوق الربوبية، ومستلزمات العبودية من البعض الآخر. وبسبب هذا التورم الذي يتسلل إلى مخ النفس، فيشل وعيَها، ويفقدها صوابها، ويُعمّي عليها حقيقة حجمها، وتبيان موقعها

الصحيح من الله.. وبسبب غياب «العقل الإيماني» الذي يبصرها بحقيقتها، ويمنعها من الجموح والشطط، فهي غالبا ما تنساق مع الوهم، فتتخيل استطالة حجمها، وتضخّم جِرمها، وتحسب الكون قاصرا عن احتوائها، والأرض عاجزةً عن حمل عظمتها.. ومن هنا.. من عدم تحديد مكان «النفس» من الله، ومن تجاوزها حدود وظائفها في هذا العالم تنجم جميع شرور العالم وآثامه، وتنبعث جميع آلامه وأحزانه ومآسيه، ومصداق ذلك ما يحدثنا به التاريخ من مدّعي «الألوهية» و«الربوبية» من الملوك والأباطرة والفراعين وغيرهم على اختلاف مدّعياتهم الباطلة، وما خلفوه وراءهم من جروح وآلام في حياة الشعوب والحضارات.

وخشية من وقوع «النفوس» فريسة هذا التورم البشع المخيف، وحرصا من «الإسلام» على أن تظل «نفس» المسلم صحيحة تستمتع بالسلامة والعافية، فقد حثّ القرآن على مجاهدة نزق النفس، وحذّر من تمردها وعصيانها لخالقها، واعتبر مجاهدتها واجبا إيمانيا لا يقل أهميةً عن واجب مجاهدة العدو، بل يزيد عليه، لأن العدو الذي يريد الشر بالبلاد والعباد بيّنٌ ظاهر للعيان بسلاحه وعدّته وعدده، نواجهه ونحن نرى ونسمع، فيجتمع عليه كياننا كله، وتتهافت عليه حواسُنا جميعا، وتتعاون على قهره طاقاتُنا بأسرها.

أما «النفس العاصية لله» فهي عدو خفي لا نراه ولا نحس بعداوته، لأنها تسري في وجودنا كله، وتجري منا مجرى الدم، ولا يجتمع عليه وجودنا كله لأنها جزء من هذا الوجود، فضلا عن أننا لا نعرف متى تهاجمنا؟ ومن أيّ ثغرة تتسلل إلى مقاتلنا؟ وأيّ سلاح رهيب من أسلحتها تجربه فينا؟ لذا يتعين علينا أن نبقى حذرين دائمي الحذر، متيقظين دائمي التيقظ، نرصد حركاتها، ونراقب مناوراتها، ونأخذ منها زمام المبادرة، فنلجمها قبل أن تجمح بنا، ونأخذ بخطامها قبل أن تهيج علينا وتلقي بنا تحت أقدام طغيانها فلا تفلتنا حتى تسحق منا الروح والقلب والعقل.

* * *

وقد عانى النورسي من نفسه الشيءَ الكثير؛ فهي نفس جموح، وعرة المراس، صعبة الترويض، عصيّة على الاقتناع، تأبى أن تسلس له القياد ما لم يأتها على الرأي الذي يراه بالدليل القاطع لكل شك، والبرهان المبدد لكل ريب. لذا فقد كان همّه الأعظم إقناعها بالرأي الذي

يراه، والفكر الذي يخلص إليه.. فهو في كل ما كتب ولاسيما في «المثنوي» إنما كان يكتب لنفسه بهذا القصد ولهذا الغرض، وكأنّ نفسه -لشدة جموحها ونفورها من الفكر التقليدي- قد آثرت الانفصال عنه، والانسلاخ منه، فصار لها كيان مستقل، وشخصية مناوئة، تقف إزاءه، وترصد فكره، ولا تنفك تحاوره وتلح عليه في الحوار، وتسأله وتلح عليه في السؤال، حتى تضطره للإجابة عليها بحشد هائل من الأدلة والبراهين التي تقنعها وتطمئنها، وتلزمها الحجة والتسليم. وفي معرض وصفه لهذه المعاناة مع نفسه يقول النورسي:

«إن هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما: «أنا» في الإنسان، و«الطبيعة» في العالم».[1]

والمأساة الأخرى التي ظلّتْ تؤرّق النورسي طوال حياته، وتنغر في ضميره، إنما هي سقوط الملايين من البشر في هذا العصر في حبائل «الطبيعة» وانحباس أرواحهم في أقفاصها، وتعبّدهم -كما يتعبد الوثنيون- لنواميسها وسننها، فنسبوا لهذه النواميس والسنن ما ينسبه المؤمنون إلى الله تعالى من صفات الخلق والإيجاد والقدرة والعلم والحكمة والقصد والاختيار، وبذلك حَجبت «الطبيعةُ» المخلوقةُ، بصفاتها الاعتبارية غير الذاتية، الإنسانَ الوثني عن «الخالق» الحقِ، وامتصت إيمانَه، وأنشبت أظفار الجحود الحاد في روحه، وحولت قلبه الخصب إلى جفاف كجفاف رمال الصحراء، فاستُثني -بهذا الانحراف الأخرق عن الله- استثناءً شاذا من بين التوافق الكوني العظيم الذي تندرج الأشياء جميعا فيه، وتتآلف معه في وحدة كونية نابضة بالمعرفة والمحبة لله، فإذا به -على الرغم من كل منجزاته الحضارية المبهجة- ينوح نوحا مريرا على شقائه الروحي كنواح النغم الحزين المنفرد بحزنه من بين منظومة اللحن الضاحك البهيج.

وكما حاور النورسي جموح النفس، وناقش نزقها وتمردها، وردّ على اعتراضاتها حتى راضت وقنعت واطمأنت، فإنه كذلك ناقش المؤلِّهين للطبيعة، واستعرض مقولاتهم، ثم ردّ عليها واحدةً تلو الأخرى، وخلص في خاتمة المطاف إلى خطلِ رأي مَنْ ينسب إليها الحياة والخلق والإيجاد من دون الله تعالى.

ولما كانت «نفسه» دائمة الحضور معه، قائمة بين جنبيه، تناقش فكره الإيماني، وجها

(١) رسالة «حبة من نواتات ثمرة من ثمرات جنان القرآن».

لوجه، وتُلقي باعتراضاتها حوله، لذا فإنّ النورسي كتب ما كتب بقصدِ ترويض هذه النفس الجموح الثائرة على كل فكر تقليدي، وبنية تبديد شكوكها، وقهر عنادها، وإقناعها بصحة أفكاره، ومصداقية قناعاته.

ومن هنا فليس غريبا أن يكتنف بعضَ أفكاره في «المثنوي» شيء من الغموض غير المقصود، لأنه لم يكن مقصودا من كتاباته سوى نفسه، فلربما كفاه السطر والسطران لتفهَم عنه نفسُه، وتعرف مراده، ولا تكفيه الصفحة والصفحتان ليفهم عنه القارئ بعض مراده.(١)

ومن حق القارئ الذي يقرأ هذا الكلام أن يسأل نفسه:

إذا كان مقصود النورسي فيما كتب في هذا الكتاب «نفْسَهُ» فما جدوى نشره، وإغراء الآخرين بقراءته؟ وهو لم يُكْتَبْ لهم أصلا، ولم يُصْنّف لأجلهم؟

وللجواب على هذا السؤال نقول:

إنَّ «النفس الإنسانية» هي واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضها، كالجسد تماما، فإذا كانت الأمراض التي يمكن أن تصيب جسد «زيد» هي نفسها التي يمكن أن تصيب جسد «عمرو» وأن ما يفيد «زيدا» من دواء يفيد «عمروا» أيضا، فكذلك فإن أمراض «النفس» هي واحدة لدى جميع البشر مع بعض الفروقات بين نفس ونفس. فالعلاج الذي استعمله النورسي لنفسه قد يفيد أي إنسان آخر يعاني ما كان يعانيه النورسي من نفسه، وهو يقول بهذا الصدد:

«ولا تخف من تمرد النفس، لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادت، وذللت تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق، بل شيطاني الرجيم أُفحم وانخنس.. كنْ مَنْ شئت، فلا نفسُك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانُك أغوى وأشقى من شيطاني».(٢)

فضلاَ عن التجارب الذاتية التي تخوضها النفوس العظيمة، هي رصيد جديد يضاف إلى رصيد الإنسانية ويثري معرفتها بشؤون الروح والوجدان، ويمنح أفرادها ما يفيد في اجتياز قلقهم الروحي بنجاح، وتخطي عواصف شكوكهم بسلام، وقد اعتاد البشر -منذ أقدم

(١) إفادة مرام رسالة «شمة» و«نقطة».
(٢) انظر: «تنبيه، إخطار، اعتذار».

العصور- أن يفيد بعضهم من تجارب البعض الآخر، ولولا هذه السنّة الحسنة التي درج عليها الناس لما وصلت البشرية إلى هذا الصرح الهائل العظيم من المعارف والعلوم والأفكار.

ونكاد نلمس بين سطور «المثنوي» غبار الصراع الدؤوب الذي خاضه النورسي بشجاعته ضد تمردات نفسه وجنوحاتها قبل أن تسلس له القياد، وتسلم له الزمام، حتى إننا لنتعاطف معه، ونأسى من أجله ونحن ننظر بعين الخيال إلى ما عاناه هذا الرجل من عذاب قبل أن يحقق انتصاره النهائي على الجانب المُستعصي من نفسه.

وما من أحد من المؤمنين إلّا وله مع نفسه العصية مواقف أو بعض مواقف -كالتي كانت للنورسي مع نفسه- مع اختلاف درجات التوتر والقلق والصراع ضعفا وقوةً، وقلة وكثرةً، في الأشخاص، تبعا لدرجات إيمانهم ويقينهم؛ لذا فما من أحد إلّا وله في تجربة النورسي ما يفيده بدرجة أو بأخرى.. وإذا ما فاتنا النـزر اليسير من علاجات النورسي لنفسه، بسبب بعض الغموض في بعض وصفاته، إلّا أننا سنفيد -بلا ريب- من الشيء الكثير منها، وكما يقول:

«لا تقل: إذا لم أدرِ الكل لا أريد الكل.. فإذا كنت في بستان أَتَتْرك الثمرات إن لم تأكل كلها».[١]

فَرُبّ زهرة تقطفها من حديقة «المثنوي» تغنيك بشذاها وجمالها عن عشرات الأزهار، ورُبّ فاكهة تنالها يدك تعطيك مذاق مائة فاكهة وفاكهة.

فالمثنوي.. كتاب فريد في مصداقيته، قد سجل فيه النورسي بأمانة وعفوية وصدقٍ سيرةَ نفسه وما كان يعتَورها من قلق واطمئنان، وينتابها من صحة وسقام، ويتناوشها من شك ويقين، من دون زيادة أو نقصان، حتى إنه لَيترك نفسه تنساب -على سجيتها- مع انسياب قلمه، فلا يجري على كلامه في بداهته الأولى أيّ تبديل أو تعديل، حفاظا على براءة عفويته، وخوفا من أن يدخل على كلامه ما يخدش صدقه، ويمسُّ بكارة معانيه.[٢]

وما يتكرر في أول كل خاطرة من خواطر «المثنوي» من «اعلم» فالمقصود: «اعلم يا سعيد». أو «اعلمي»، فالمقصود: «اعلمي يا نفسي»، فبسر قوة الصدق الذي يشيع في ثنايا

(١) إفادة مرام «شمة من نسيم هداية القرآن»
(٢) انظر إفادات المرام ولا سيما إفادة مرام «حبة».

الكتاب -لأنه ليس بعد الصدق مع النفس من صدق- وبسرّ قوة الروح المسكوب في كلماته -لأنه ليس من روح أقوى من روح عجنته المعاناة وأنضجته نار التجربة- يمكن لأي إنسان الإفادة من تجربة هذا الكتاب في ترويض نفسه، والتحرر من رهقها، وكذلك تنقية مداركه العقلية من مفاهيمها الخاطئة عن ربوبية «الطبيعة» وأُلوهية ماديتها. فبانهدام هذين الوثنين: النفس والطبيعة، وتحررِ الإنسان من طغيان سطوتها عليه، ينفسح له المجال واسعا لميلاد ذاته الحرة من جديد، وانتفاضها من بين أنقاض عالمه المتهدم مفعمةً بالعافية، طافحةً بالحيوية، فلا تلبث حتى تسرع في استرداد وعيها الأعمّ الأشمل، وإدراكها الأصح الأصوب، فترى -بصفاء نظرها وسريرتها- أنّ كل موجود -بحد ذاته- حرف ضائع لا معنى له ما لم يعطه اسم «الله» الأعظم معناه بالانتساب إليه، ويسبغ عليه مغزاه على قدر ارتباطه به وفهمه عنه.

فالكائنات والموجودات -بما فيها الإنسان- حروف خاوية حائرة تجوب كتاب العالم، فلا تقرُّ أو تجد لها مكانا فوق سطور هذا الكتاب الكبير ما لم تستمد معانيها من أسماء الله الحسنى، وما لم يمسها مدد من أمدادها، وينسكب فيها مِدَادٌ من مِدَادِ بحار القدرة.. فلا شيء موجود على الحقيقة ما لم يعطه الله شيئيته، ويمنحه كيانه، ويقدّر وجوده. فإذا وصل الإنسان إلى هذه النقطة من الإدراك، ولاسيما بعد عظيم المعاناة، فقد وصل إلى «التوحيد» الخالص، وتشرّب جوهر الإيمان والإسلام، وعرف جدوى الوجود ومعناه.

وهذا هو ما يرمي «المثنوي» ويهدف إلى تحقيقه في نفس صاحبه أولا، وفي نفس كل قارئ من بعده.

* * *

والتوحيد الخالص من شوائب الشك، والذي يشكل لبَّ الإيمان، وجوهر عقيدة الإسلام، هو في «المثنوي» ليس أمرا تقريريا، ولا معنىً تلقينيا، ولا عقيدة تقليدية، ولا كلاما محفوظا مرددا يردده المسلم بلسان جاف، وقلب بارد، ووعي ذاهل، كما هو مشاهَد اليوم لدى الكثير من المسلمين.. فلا غرو إذا ما عجزتْ «كلمةُ التوحيد» اليوم -وقد خالطها هذا القصور المعيب- أن تخرق أبواب الروح، وتلِج إلى أعماق الفؤاد، لتُطلق قوى المسلم، وتفجّر طاقات كيانه الروحي الذي أصابه الضمور وغدا عاجزا عن ممارسة أي نشاط يمكن أن يزيد في نموه،

ويقوي فيه بصيرة الكشف الذكي عن «علوم التوحيد» العظيمة في مظانها الأصلية من نفس الكون والإنسان.

فالتوحيد الذي يدعونا إليه «المثنوي» ليس تقريريا، ولا تلقينيا، ولا تقليديا، ولا ترديديا، بل استكشافيا.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا –عبر خواطره– في جولة استكشافية في أغوار النفس الإنسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون المَؤُودة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدثنا عن بصمات «التوحيد»، وتدلنا على آيات الإله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا إلّا ونحن قد اكتشفنا «التوحيد» والتقيناه في أشد الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم أفئدتنا انبثاقا، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهز هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمر المسلم كشافا رائدا لأعمق الحقائق –في الكون والإنسان– في ديمومة لا تتوقف حتى تتوقف حياته.. فيزيد فهما، ويتسع وعيا، ويخصب وجودا وحياةً.

والإيمان بالله واحدا أحدا فردا صمدا هو أحد المحاور الثلاثة –بعد النفس والطبيعة– الذي يدور حوله النورسي في أفكاره وخواطره المسجلة على صفحات «المثنوي». وهو يرى أن العقل المسلم ينبغي أن يكون قرآنيَّ التصورِ لمفاهيم التوحيد، ولصفات الكمال والجلال والجمال التي يتصف بها الله سبحانه وتعالى. وأن هذا «العقل» الذي تُشكِّل المفاهيمُ القرآنية تصوراته عن الألوهية والربوبية.. لا يمكن أن يرقى إلى قمته عقلٌ كائنا ما كان ما دام محجوبا عن القرآن.

والنورسي وإن لم يكن قد استعرض تصورات العقليين للألوهية والربوبية، وتصورات غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب والنحَل، إلّا أننا نحسُّ من خلال كلامه عن أسماء الله تعالى وصفاته، وكأنه يردّ –ضمنا– على هذه التصورات المنحرفة، ويفندها الواحدة تلو الأخرى.

ففي كلامه كما سيلمس القارئ بنفسه ردّ ضمني على مَنْ يزعم –من العقليين– بأن الله تعالى خلق العالم وفرغ من خلقه، ولا شأن له به بعد ذلك.

وردٌّ على مَنْ يدّعي عدم علم الله بالجزئيات، تعالى عن هذا علوا كبيرا.

وردّ على مَنْ يؤمن بالله ولكنه يتردد ويتلجلج في إيمانه بالملائكة والكتب والرسل والقدر، واليوم الآخر، والنشر والحشر، والجنة والنار.. إلى آخر تلك التصورات السقيمة المجانبة للحق، والمجافية لما أثبته القرآن وجاءت به السنة المطهرة.

إنَّ الآية القرآنية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) قد أوفَتْ وكفت وردّت على تصورات العقول البشرية -بقصورها ومحدوديتها- لله سبحانه وتعالى، وأزرت بقياساتها الفاسدة ابتداءً من تصورات أدنى الوثنيين عقولا، ومرورا بأكبر عقل من عقول فلاسفة الإغريق، وانتهاءً بآخر ما وصل إليه العقل الرياضي والعلمي الحديث.. والآية -بحد ذاتها- إشارة إلى أن المسألة أجلّ وأعظم من أن تترك للأمزجة والخيالات والعقول القاصرة لكي تخوض فيها وترى فيها رأيها من غير هديٍ يهديها من الله الذي هو أعلم بنفسه، وأعلم بخلقه، وقدرات عقولهم عن الفهم عنه، وإدراك ما هو في مكنتهم من معاني أسمائه وصفاته.

* * *

والنورسي يرى في «الأسماء والصفات» حلا للغز العالم، وجوابا على أسئلة كثيرة ربما كان أهمها وأعظمها على الإطلاق هو السؤال الذي حار فيه أكبر العقول من فلاسفة هذا العصر وفلاسفة كل العصور السابقة، وهو: لماذا مُنِحْنَا منحة الخلق..؟ وأُعطينا فرصة الوجود..؟ وهذا العالم ما حكمة وجوده..؟ وما مغزى انبعاثه عن العدم..؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي ما زالت مثار اهتمام العقول الحائرة من بني البشر.

والنورسي في خواطره عن صفات الله الجمالية يلتقي الحل، ويقع على الإجابات المقنعة، فهو يرى أن الرسام حين يرسم أجمل لوحاته -ولا مشاحة في المثال- إنما يعبر عن فيض الجمال الذي يغمر نفسه، وهو يفعل ذلك ليرى جمال نفسه في لوحاته وليُرِيَ هذا الجمال للآخرين ممّنْ يملكون القدرة على تذوقه وفهمه والتأثر به.. فكم يكون موقفنا سخيفا وغير منطقي لو توجهنا بالسؤال لهذا الفنان قائلين: ماذا تفعل..؟ وما الذي يحملك على مسك فرشاتك لترسم هذه اللوحة..؟ وما سرّ ذلك؟ وما حكمته؟ أليس التوجه بمثل هذا السؤال عبثا لا معنى له؟ ألا يدل على قصور عقولنا؟ وسذاجة أفهامنا؟

فكذلك - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - فإن الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة

التي يدور غالب أفكار «المثنوي» وخواطره حولها، هذه الصفات التي وصف الله -جلّ شأنه- بها نفسه ومنها: «الخالق، البارئ، المصور، الرحمن، الرحيم، اللطيف، الودود، الرزاق، الكريم، القادر، العليم..» إلى آخر هذه الصفات لا بد لها من التجلي بمعانيها الجمالية والكمالية في الخلق والإيجاد، وأن ترتسم صورتها في مرآة العالم والوجود، وتنسكب بمحاسنها وألوانها على صور الكائنات والموجودات، ليراها مَنْ وصف نفسه بـ«أحسن الخالقين»، وليُريها للإنسان في خفايا نفسه، وفيما يحيط به من موجودات. فيرى -هذا الإنسان- ويتأمل ويعتبر، ويشهد ويشغف، ويعجب ويشدَه، ثم لا يقف عند هذا بل يمر سريعا من الرسم إلى الرّسام، ومن النقش إلى النَقَّاش، ومن الظل إلى الأصل، وبذلك -أي بهذا الانتقال السريع- يصبح الإنسان جديرا بالفهم عن الله سبحانه وتعالى، الذي قدّر أن يكون محطَّ عنايته، وخليفته في أرضه.. وهي بلا شك ستبلغ (أي هذه الصفات الجمالية والكمالية) مداها الأعظم والأشمل والأوفى من الجمال والكمال في حياة الإنسان الأخرى، وعمره الثاني في كنف الرحمن وفي جنته التي هي أروع لوحاته جمالا وحسنا وكمالا وقدرة..

وكما أنّ اللوحة الفنية العظيمة لرسام عبقري، لا يقدر على تذوق محاسنها، وترشُّف روح الجمال فيها، إلّا مَنْ كان له إلمام ببعض قواعد الرسم، ممّن رهُف حسُّه، ورقّ شعوره، وملك نفسا نقيةً صافية، وقلبا سريع الحساسية بلمحات الحسن والجمال، فكذلك فإن «الجنة» -ولا مشاحة في المثال مرة أخرى- هذه اللوحة المعجزة والتي رسمتها يد القدرة بألوان اللطف والرحمة الإلهيين، لابُدّ وألّا يزاح عنها الستار إلّا لمَنْ يمتلك رصيدا جماليا في روحه وبدنه، واستعدادا ذوقيا يهيئ له سبل الاستمتاع بهذا الجمال الذي لا عين رأت مثله، ولا أذن سمعت وصفه، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء وصفه -بهذا المعنى- في الحديث الشريف.

ولذا فقد كرّس النورسي جملةً عظيمة من خواطره في «المثنوي» لتشويق الإنسان، وترغيبه بالجنة، ولفْتِ نظر النفس إلى محاسنها، وتمهيد سبل معرفتها، والوصول إليها، وذلك بتهيئة أحاسيسه الذوقية والجمالية وإرهافها -وهو بعدُ في الدنيا- وتنقية حواس الروح والبدن من الشوائب والأكدار، وتطهير الضمير والوجدان من قبح الرذائل والآثام، وبهذا تجمُل «النفس» فيشتاق جمالها إلى جمال الجنة فيتناغمان ويتجاذبان، ثم إذا قُضي الأجل يلتقيان، فيندغمان ويتذاوبان في حرارة الاشتياق وبهجة اللقاء.

والآخرة بأحداثها وأهوالها، ونشرها وحشرها وجنتها ونارها، ليست -عند النورسي- قضية هامشية تحتل هامش ذهنه، وفضول وقته، وبقايا همّه -كما هي اليوم لدى الغالبية العظمى من الناس- وإنما هي شهود دائم، وحضور قائم، ووجود شاخص، لا يبرح فكره، ولا يغادر وجدانه، يراها بنظر بصيرته كما يرى الأشياء بنظر عينه، وتتحسسه روحه كما يتحسس كل مشهود ومعلوم، وينفعل كيانه بها انفعالَ منْ يَبْدَهُه الشيء العظيم والخطير، فيستهوِله ويتعظمه، ويخافه ويرجوه، ويرغب به، ويرهب منه.. فما دام الذي بين الإنسان وبين أن تقوم قيامته، وتحل آخرته، هو أن يأتي زمن موته، وهو زمن مجهول قدرُهُ، محجوب سرّ قدومه، مكتوم وقت نزوله، ولكنه آت لا ريب فيه، لذا فالآخرة -بهذا الاعتبار- هي غائبة حاضرة، بعيدة قريبة، مجهولة معلومة، مستورة مكشوفة.. هكذا يتحدث عنها النورسي -مستعينا بما يرمز إليها من شؤون الدنيا- ويصف قيامتها وحشرها ونارها وجنتها وصْفَ مَنْ يراها ويسمعها، ويغشاهُ وقتها وزمانها. وما لم يكن الشلل الروحي قد استفحل دبيبه في كيان المرء، وما لم يكن قد سرى خدَره المتيبّسَ إلى أمداء عميقة وسحيقة فيه، بحيث لم يَعُد يجدي فيه أيّ علاج.. فأغلب الظن أن «المثنوي» قادر بإذن الله -بما تفيض به كلماته من بداهة الصدق المقنع- على تحرير هذا المرء من أصفاد شلله، وقادر على إجراء ذلك التمسيد المنشط للذرات الباردة المتيبسة في وجدان هذا المرء، وبعث الدفء والحركة والإحساس بالعافية في كيانه كله، فلا يلبث أن يندفع -في فورة عافيته- مخترقا شغاف الأوهام بسنا النور الذي أشرقت شمسُه في فؤاده، ومبددا دياجي الأباطيل ببوارق الحق الذي سطع ضوءُه في آفاق عقله.

وتجربة النورسي في مثنويه تعلمنا بأن «الحقيقة الدينية» -كأية حقيقة وجودية أخرى بل أكثرها علوا وشرفا- لا يمكن أن تفصح عن نفسها، وتكشف عن سرها إلّا إذا بَحث عنها وجهد في استكشافها الكيانُ البشري برمته، أي بنـزاهة الفكر، وإخلاص الضمير، وطهارة الروح والبدن، لأن كل هذه الجوانب -التي منها يتكون الكيان البشري ويستقيم أمره- لها مجساتها الخاصة التي بها تجس جانبا من جوانب الحقيقة وتتلمسها متلذذةً بهذا التلمس والتحسس. وبمجموع هذه المجسات المتساندة والمتعاونة في الكيان البشري، وبالجوارح جميعا -المادية والمعنوية- يمكن الإحاطة بالحقيقة الدينية والتقاطُها وجعلها تسفر عن نفسها كأنصع وأجمل ما تكون، لتنال كلُّ جارحة منها حظها، وتترشف منها ما يلائم مزاجها، ويُرضي حاسة

ذوقها. ولعلّ في إسراء الرسول ﷺ وفي معراجه إلى الملكوت الأعلى بكيانه البشري كله -لا بجزء من هذا الكيان- إيماءً إلى أن المعارف الدينية والتعبدية لا يمكن للمرء أن يستكمل جميع ما يتقطر منها من حلاوة ولذة إلّا باستخدام جميع أحاسيس كيانه الروحية منها والمادية. فكما أن آلام هذا الكيان ليست واحدة، فألم العين ليس كألم الأذن، وألم الأذن غير ألم الضرس، وأوجاع النفس غير أوجاع البدن، فكذلك فإن مباهج هذا الكيان وأفراحه وأذواقه ليست واحدة على التحقيق..

فالصلاة مثلا -وهي معراج المسلم خمس أوقات في اليوم- تصبح -في الأداء الأمثل- موضع مذاقات الذات البشرية بأسرها؛ فكرا وروحا وبدنا، ومن هنا جاء قوله ﷺ: «**يا بلال أقم الصلاة أرِحْنَا بها**».[1] وقس على هذا جميع العبادات والمعارف الإيمانية الأخرى التي استعرضها النورسي في كتابه هذا، مبينا ضرورتها للإنسان كضرورة الماء والهواء، بل أعظم منهما ضرورة، فهو (أي النورسي) لشدة احترامه للإنسان فإنه يحاور -في مثنويه- الكيان الإنساني بأسره وبجميع لطائفه أسوةً بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يقرر بأن أية معرفة إيمانية لا يكون من همّها إشباعُ لطائف الإنسان جميعا، تبقى ناقصة ومبتورة أمام المعرفة الجامعة الكاملة المستقاة من القرآن الكريم مباشرةً من قِبل مَنْ هم ورثة الأنبياء حقا وصدقا.

وحتى «القدر» الذي يقدّر مقادير الخلق، ويعيّن وظائف الموجودات، ويرسم لكل كائن في هذا العالم المدى الذي يمضي إليه، والبعد الذي يصل عنده ويؤشر له نقطة البداية التي ينطلق منها، ونقطة النهاية التي يقف عندها، ثم يربط الموجودات بعضها ببعض، ويسنّ لها سنن التعاون والتساند فيما بينها، فما يبدو -للوهلة الأولى- وكأنه صراع من أجل البقاء بين بعض أنواعها، هو في النظرة العميقة الشاملة وفي المحصلة النهائية، وما يفضي إليه هذا الصراع من غايات ومقاصد، يصب في تيار التعاون والتساند ويثري الحياة، ويسهم في دفعها نحو الهدف الذي يريده منها خالق الحياة..

---

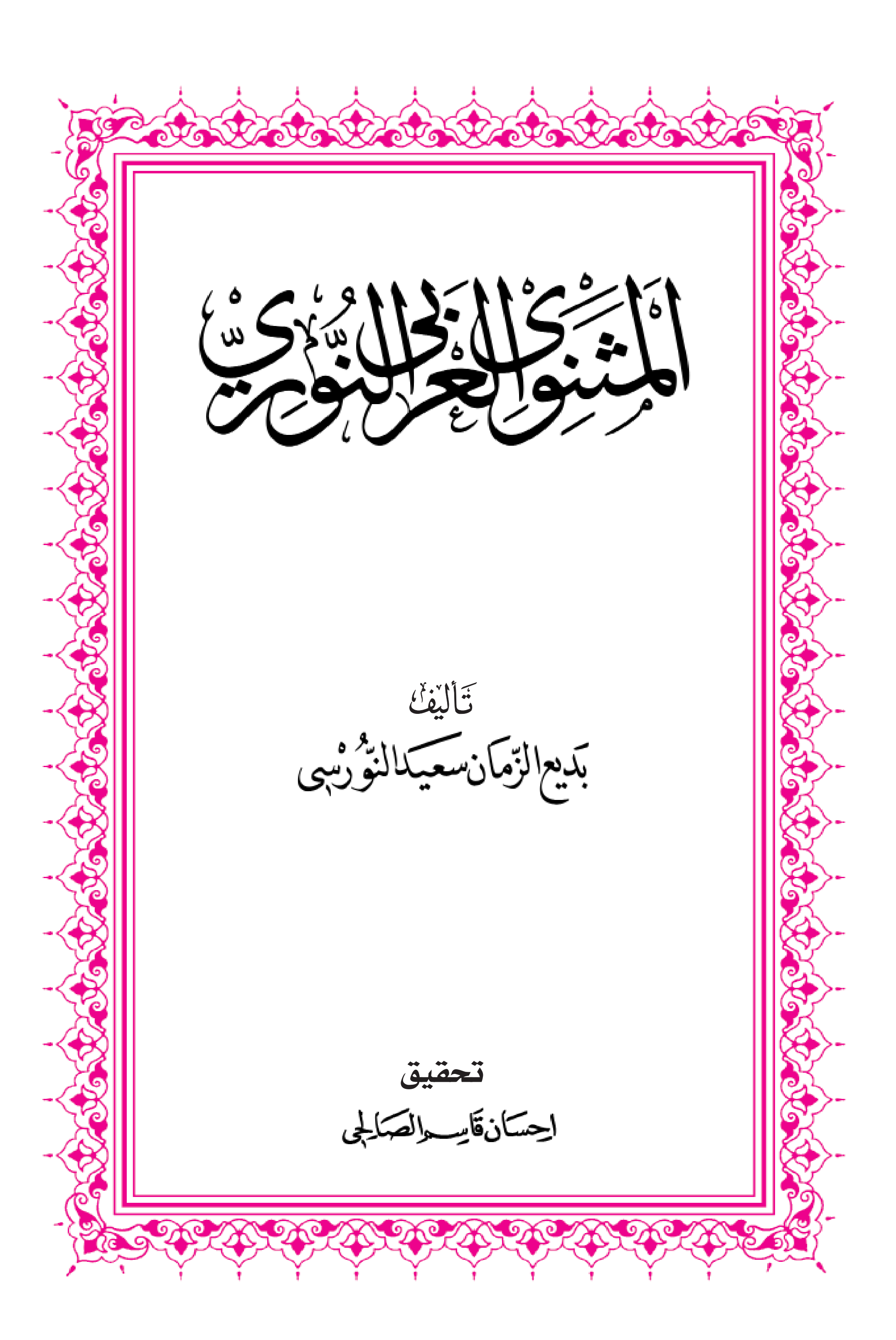
(١) رواه أبو داود عن سالم ابن أبي الجعد. قال: قال رجل ليتني صليت فاسترحت فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» ولأبي داود رواية أخرى مشابهة عن محمد الحنفية. (كشف الخفاء ١/ ١٠٨ باختصار).

أقول: إن القدر، بهذا المفهوم الذي يطرحه النورسي في جملة من خواطره في «المثنوي» –وإن كان فوقيا وغيبيا– إلّا أنه لا ينـزل بالإنسان هكذا فجأة وعلى غير انتظار، ولا يلطم أحدا إلّا تأديبا له وتعليما، أو تنبيها وتذكيرا ولا يُرَبّتُ على ظهر أحد غير جدير برحمته، وبلمسات لطفه وودّه، وهو ليس من همه أبدا أن يقف في طريق الإنسان، ويدخل معه في صراع فلا يفلته حتى يصرعه.. فلو استعرض كلٌّ منا شريط حياته لشعَر وكأنّ ما وقع له من أحداث أو أقدار –في سني عمره كله– لم تقع اعتباطا، ولم تحدث لغير ما مغزى ويتيقن بأنّ كل شيء حدث له وكأنه كان ينبغي أن يحدث على الشكل الذي حدث به وبالطريقة عينها التي حدث بها، وأنه النتيجة المتوقعة لسلسلة من المقدمات التي سبقته، فلا تقبل نتيجةً سواها. فالأحداث أو الأقدار –تأنيسا لبني البشر– لا تأتي مغايِرة لمن تقع لهم، بل تأتي شبيهة بهم وبأعمالهم، وبما ينطوي عليه كيانهم البشري من أصول البطولة أو الخسة، ومن جذور النقاء أو الدنس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (الإسراء:٨٤) فعلى شاكلة هذه الأعمال، وبسببها وعلى قدْرِها يقع القَدَر، وينفذ القضاء.

وبعد:

ويجدر بي أن أشير إلى أن الجديد في هذا الكتاب هو قدرة النورسي الفذة على صياغة القضايا الإيمانية والبرهنةِ على صدقها وأحقيتها بأسلوب هو مزيج من عقل المفكر، وقلب الشاعر.. ولكي أعطي صورة قريبة عن هذا الأسلوب للقارئ الكريم أقول:

إنَّ النورسي نفس شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفاذة مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه. وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيد الوجود. وظامئ عطش يترشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كل صفات «الشاعر العظيم» إلّا أنه لم يقل شعرا، أعني أنه لم ينظم شعرا كما ينظم الشعراء، ولكن ما قاله في «المثنوي» رغم أنه يحمل ميزات «النثر» ومقوماته شكلا وقالبا، إلّا أنه شاعريّ الروح والنفس وجداني الانسياب، رشيق في صوره وأخيلته، مع عمق أفكاره ودقيق معانيه!



المثنوي العربي النوري

تأليف

بديع الزمان سعيد النورسي

تحقيق

احسان قاسم الصالحي



مقدمة المؤلف

للمجموعة العربية لفظا والمثنوي حكما

ترجمة: الملا عبد المجيد النورسي

«تتضمن خمس نقاط»[١]

النقطة الأولى

كان «سعيد القديم» -قبل حوالي خمسين سنة- لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلكا ومدخلا للوصول إلى حقيقة الحقائق، داخلا في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة. وكان لا يَقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدَها -كأكثر أهل الطريقة- بل جَهَد كلَّ الجهد أوّلا لإنقاذ عقله وفكره من بعض الأسقام التي أورثَتها إيّاه مداومةُ النظر في كتب الفلاسفة.

ثم أراد -بعد أن تخلّص من هذه الأسقام- أن يقتدي ببعض عظماء أهل الحقيقة، المتوجهين إلى الحقيقة بالعقل والقلب، فرأى أن لكلٍّ من أولئك العظماء خاصيّةً جاذبة خاصة به، فحار في ترجيح بعضهم على بعض. فخطر على قلب ذلك «السعيد القديم» الممخض بالجروح ما في مكتوبات «الإمام الرباني»(*) من أمره له غيبا: «وحِّد القبلة» أي إن الأستاذ الحقيقي إنما هو القرآن ليس إلّا، وإن توحيد القبلة إنما يكون بأستاذِيَّة القرآن فقط. فشرع بإرشادٍ مِن ذلك الأستاذ القدسي بالسلوك بروحه وقلبه على أغرب وجه، واضطرته نفسُه الأمارة بشكوكها وشبهاتها إلى المجاهدة المعنوية والعلمية.

---

(١) لدى مقابلة هذه الترجمة مع الأصل التركي وجدتها وافية بالغرض إلّا ما استوجب من تغيير طفيف في بعض العبارات وإضافة أخرى لتكون أكثر مشابهة بالنص التركي.

وخلال سلوكه ذلك المسلكَ ومعاناته في دفع الشكوك، قَطَع المقاماتِ، وطالَع ما فيها، لا كما يفعله أهلُ الاستغراق مع غض الأبصار، بل كما فعله الإمام الغزالي(*) والإمام الرباني وجلال الدين الرومي،(*) مع فتح أبصار القلب والروح والعقل، فسار فيها (أي في المقامات) ورأى ما فيها بتلك الأبصار كلها، منفتحةً من غير غضٍ ولا غمض.

فحمدا لله على أن وُفِّق على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وإرشاده، حتى بيّن برسائل النور التي ألّفها «سعيد الجديد» حقيقةَ:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ [١]

النقطة الثانية

لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوكَ في تلك المقامات، ساعيا بالقلب تحت نَظَارة العقل، وبالعقل في حماية القلب، كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي. فبادر إلى ضماد جراحات قلبه وروحه، وخلّص نفسَه من الوساوس والأوهام. وبخَلاصِه منها انقلب «سعيدٌ القديم» إلى «سعيد الجديد»، فألّف بالعربية ما هو بحكم المثنوي الشريف -الذي هو أصلا بالفارسية- رسائلَ عدة في أوجز العبارات. وكلما سنحت له الفرصة أقدمَ على طبعها، وهي: «قطرة، حباب، حبة، زهرة، ذرة، شمة، شعلة، ودروس أخرى» مع رسالتين بالتركية وهما: لمعات[٢] ونقطة. وبيّن ذلك المسلك في غضون نصف قرن من الزمان في رسائل النور التي لم تقتصر على جهاد النفس والشيطان، بل أصبحت شبيهة بمجموعةٍ كليةٍ واسعة من «المثنوي» تنقذ الحيارى المحتاجين وتنتشُل المنساقين إلى الضلالة من أهل الفلسفة.

النقطة الثالثة

إن المناظرة الجارية بين ذينك السعيدين -سعيد القديم والجديد- كانت دافعة للشيطان، قاهرةً للنفس، حتى غدت رسائل النور طبيبة حاذقة لذوي الجراحات من طلاب الحقيقة، وأصبحت مُلزِمةً ومُسكتةً لأهل الإلحاد والضلالة.

فتبيَّن أن هذا «المثنوي العربي» كان نواة لرسائل النور، وغرسا لها، يُخلِّص الناس من

(١) لأبي العتاهية في ديوانه، وينسب إلى علي كرم الله وجهه، ونسبه ابن كثير في تفسيره إلى ابن المعتز.
(٢) نشرت ترجمتها ملحقة بمجلد الكلمات تحت عنوان: «اللوامع».

شبهات الشياطين من الإنس والجن.. ولا يخفى أن تلك المعلومات في حكم المشهودات، وأن يقين العلم كعين اليقين، يورث القناعة ويوجب الاطمئنان التام.

النقطة الرابعة

لما كان أكثر اشتغال «سعيد القديم» بعلمَي الحكمة والحقيقة، ويناظر عظماء العلماء ويناقشهم في أدق المسائل وأعمقها، ويراعي درجةَ أفهامِ طلابه القدامى المطلعين على العلوم الشرعية العالية، فضلا عن أنه يشير إلى ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية، بأدق العبارات وأقصر الجمل التي لا يفهمها إلّا هو؛ لذا قد لا يُدرِك قسما منها -بعد جهد جهيد- إلّا الراسخون في العلم.

فلو كانت تلك الخواطر القلبية مبيّنة بعبارات سهلةٍ مفصَّلةٍ وموضحةً بإيضاح يقرّبها إلى الأفهام لكان ذلك «المثنوي العربي» مَعينا تاما لرسائل النور ومعاونا لها في وظيفتها.

فتبيّن أن «المثنوي العربي» -وهو مشتل رسائل النور وغراسها- قد سعى كالطرق الخفية إلى المعرفة الإلهية، في تطهير الأنفس والداخل من الإنسان، فوفّق إلى فتح الطريق من الروح والقلب.

بينما رسائل النور -التي هي بستانه اليانع- قد فتحت طريقا واسعا إلى معرفة الله، بتوجهها إلى الآفاق الكونية -كالطرق الجهرية- فضلا عن جهادها في الأنفس، حتى وكأنها عصا موسى عليه السلام أينما ضربتْ فجّرت الماءَ الزلال.

وكلاهما يوصل إلى معرفة الله.. كما قيل:

عِبَاراتُنا شَتى وَحسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الجَمَالِ يُشير[1]

وكذا فإن رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتَبسٌ من الإعجاز المعنوي للقرآن يُخرج زلالَ معرفةِ الله من كل شيء، فيستفيد السالك في رسائل النور في لحظةٍ ما لا يستفيده سالكو سائر المسالك في سَنة.

وذلك سرٌّ من أسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد ويدفع به هجومَ أهل العناد.

(١) لم ينسب إلى قائله: انظر تفسير الألوسي ٨/ ٤١٧؛ البحر المديد لابن عجيبة ٤/ ١١٣؛ البرهان للزركشي ٢/ ١٦٠.

النقطة الخامسة

إنك ترى في ثاني «المثنوي» أعني تلك المجموعة العربية، من المسائل والحقائق الدقيقة التي من شأنها أن يكون كلٌّ منها موضوعا لرسالة.. قد ذُكرتْ ضمن ألفاظٍ ضيقة لا تَسعها، وفي سطور معدودة لا تستوعبها.. وأُفرِدت تلك المسائل بذكرِ: «اعلم.. اعلم» في أوائلها. فلا تظنن أن المسائل –التي كل منها موضوعٌ لرسالة ومشيرٌ إلى حقائقَ متخالفةٍ بعضُها عن بعض– كلها من فن واحد، أو عائد إلى مقام واحد، أو كاشف عن جواهرِ صَدفٍ واحد، قائلا في نفسك: «إنَّ ذِكر «اعلم» وتكرارَه في رؤوس هذه المسائل مما لا فائدة له ولا طائل تحته»؛ لأن كلا منها عنوان وفهرس لرسائل وحقائق، وتكراره إنما هو للإشارة إلى ما بين تلك المسائل من المغايرة.

فعلى القراء الكرام أن يضعوا هذه النقاط المذكورة آنفا نصب أعينهم كيلا يبادروا إلى الاعتراض.[1]

سعيد النورسي

* * *

(١) قد تَرجم المترجم مقدمة هذا «المثنوي» قرب صاحب «المثنوي الأول» –جلال الدين الرومي– في مدينة قونية في تركيا. وهذا ليس من التصادف، بل فيه إشارة وحكمة لا أقدر أن أعبر عنها. (عبد المجيد)

تنبيه.. إخطار.. اعتذار!

اعلم أن هذه الرسالة نوعُ تفسيرٍ شهوديّ لبعض الآيات القرآنية. وما فيها من المسائل أزاهيرُ اقتُطفت من جنّات الفرقان الحكيم، فلا يوحشك ما في عباراتها من الإشكال والإجمال والإيجاز، فكررْ مطالعتَها حتى ينفتح لك سرُّ تكرار القرآن؛ أمثال:

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحديد:٢).

ولا تخف من تمرد النفس؛ لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادتْ وذُلّلت تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق! بل شيطاني الرجيم أُفحِم وانخنس.

كُن مَن شئت، فلا نفسُك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانُك أغوى وأشقى من شيطاني.

أيها القارئ!

لا تحسبَنّ براهين التوحيد ومظاهره في الباب الأول[1] يغني بعضها عن بعضٍ.. مطلقا. إذ شاهدتُ الاحتياج إلى كل واحدٍ في مقام مخصوص، إذ قد تُلجئ الحركةُ الجهادية إلى موقع لابد -للخلاص- من فتح بابٍ في ذلك الموقع؛ إذ لا يتيسّر في ذلك الآنِ التحولُ إلى الأبواب الأُخر المفتوحة.

وكذا لا تظنن أني باختياري أشكلتُ عليك عبارةَ هذه الرسالة؛ إذ هذه الرسالة مكالمات فجائية مع نفسي في وقتٍ مدهش. والكلمات إنما تولدتْ في أثناء مجادلةٍ هائلة كإعصارٍ يتصارع فيه الأنوارُ مع النيران، يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ومن الحضيض إلى الأوج، من الثرى إلى الثريا؛ إذ سلكتُ طريقا غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب،

(١) جاء هذا التنبيه في -الطبعة الأولى- مقدمة لرسالة «قطرة من بحر التوحيد» إلّا أن أهميته جعلته يتصدر المجموعة العربية كاملة.

ودارَ عقلي من دهشة السقوط والصعود. فكلما صادفتُ نورا نصبتُ عليه علامة لأتذكّره بها. وكثيرا ما أضع كلمةً على ما لا يمكن لي التعبير عنه، للإخطار والتذكير، لا للدلالة.. فكثيرا ما نصبتُ كلمة واحدة على نور عظيم.

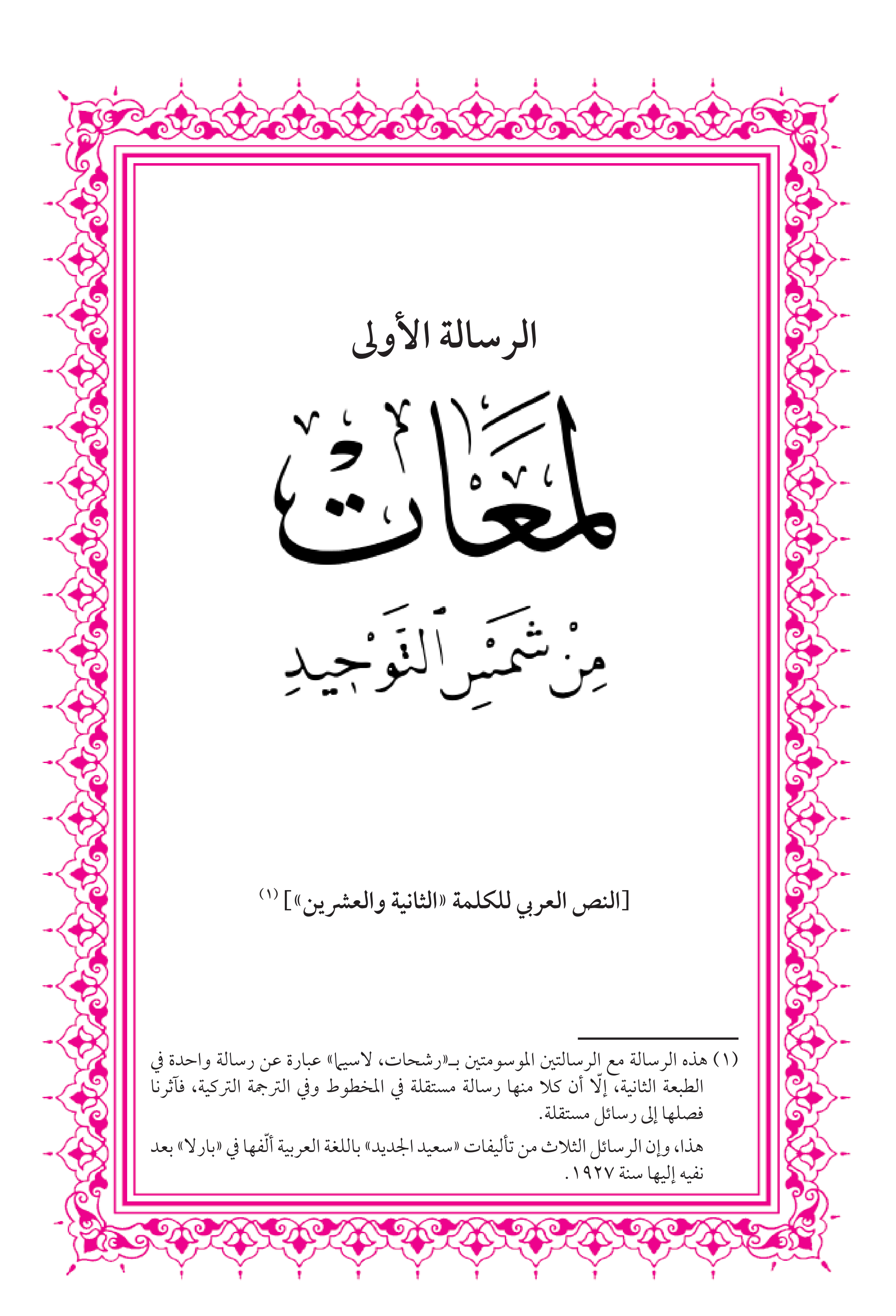
ثم شاهدت أنّ أولئك الأنوار الذين يمدونني في بطون أرض الظلمات ما هم إلّا شعاعاتُ شمسِ القرآن تمثلوا لي مصابيحَ.

اَللّٰهُمَّ اجعل القرآن نورا لعقولنا وقلوبنا وأرواحنا، ومرشدا لأنفسنا.. آمين

يا من نظر في كتابي!

إن استفدت منه شيئا لابد أن تفيدني فاتحةً أو دعاءً خالصا في سبيل الله.

* * *



الرسالة الأولى

لَمَعَاتٌ

مِنْ شَمْسِ التَّوْحِيدِ

[النص العربي للكلمة «الثانية والعشرين»] [1]

---

(١) هذه الرسالة مع الرسالتين الموسومتين بـ«رشحات، لاسيما» عبارة عن رسالة واحدة في الطبعة الثانية، إلّا أن كلا منها رسالة مستقلة في المخطوط وفي الترجمة التركية، فآثرنا فصلها إلى رسائل مستقلة.

هذا، وإن الرسائل الثلاث من تأليفات «سعيد الجديد» باللغة العربية ألّفها في «بارلا» بعد نفيه إليها سنة ١٩٢٧.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سبحانك يا من تُسبِّحُ بحمدك هذه الكائناتُ السيالة بتسبيحاتِ لِسان محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ إذ هو الذي تتموج أصديةُ تسبيحاته لك، على أمواج الأجيال، وأفواج الأعصار، بمَر الفصول والعصور والأدوار.

اَللَّهُمَّ فأبِّدْ على صفحات الكائنات وعلى أوراق الأوقات، أصديةَ تسبيحاته عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة والعرَصَات.

سبحانك يا مَن تُسبِّحُ بحمدك الأرضُ، ساجدةً تحت عرش عظمة قدرتك بلسان محمدِها عليه أفضلُ صلواتك وأجملُ تسليماتك؛ إذ هو الناطقُ والمترجِمُ لتسبيحات الأرض لك بألسنةِ أحوالها. وبرسالته استقرت الأرضُ في مستقرها في مدارها.

اَللَّهُمَّ فأنطِق الأرضَ بأقطارها إلى نهاية عمرها بتسبيحات لسانه عليه الصلاة والسلام.

سبحانك يا مَن يُسبِّحُ بحمدك جميعُ المؤمنين والمؤمنات، في جميع الأمكنة والأوقات، بلسان محمدِهِمْ عليه أكملُ الصلوات وأتم التسليمات؛ إذ هو الذي تتظاهر أنوارُ تسبيحاته لك من أفواه أهل الإيمان.

اَللَّهُمَّ فأنطق بني آدم إلى آخر عمر البشر بتسبيحات محمدِك لك، عليه صلاتك وسلامك كما يليق بحرمته وبرحمتك، وارحمنا وارحم أمته. آمين.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

في بيان جواهرَ من خزائن هذه الآيات: [(١)]

﴿ اَللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ ﴾ (الزمر:٦٢،٦٣).

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذ۪ي بِيَدِه۪ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس:٨٣)

﴿ وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلَّا عِنْدَنَا خَزَٓائِنُهُ ﴾ (الحجر:٢١)

﴿ مَا مِنْ دَٓابَّةٍ اِلَّا هُوَ اٰخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ (هود:٥٦).

يا أيها الغافل المنغمس في الأسباب! إنّ الأسبابَ حجابُ تصرّفِ القدرة؛ إذ العزةُ والعظمة تقتضيان الحجابَ، لكنَّ المتصرّف الفعّال هو القدرة الصمدانية؛ إذ التوحيد والجلال هكذا يقتضيان. إذ سلطان الأزل له مأمورون، لكن ليسوا وسائطَ الإجراء حتى يكونوا شركاءَ سلطنةِ الربوبية، بل هم من الدلّالين الذين يُعلنون إجراآت الربوبية، ومن النُظّار الذين يشاهِدون ويَشهَدون، ويكتسبون -في الانقياد للأوامر التكوينية- عباداتٍ تُناسبُ استعداداتهم. فهذه الوسائط لإظهار عزةِ القدرة وحشمة[(٢)] الربوبية.

وأمّا السلطان الإنساني، فلعجزه واحتياجه يحتاج إلى وسائط ومأمورين يشتركون في سلطنته. فلا مناسبة[(٣)] بين المأمور الإلهي والإنساني.

نعم، إن نظر أكثر الغافلين لا يدرك حُسنَ الحادثات ولا يعرف حِكمَتَها، فيشتكي بلا حقٍ، ويعترض جهلا. فُوضِعَتِ الأسباب لتتوجه الشكاوى إليها. وإذا وُفِّقَ أحدٌ لدَرْك الحكمة والحقّ ارتَفعَت الأسباب عن نظره.

وقد قيل بتمثيل معنوي: إنّ عزرائيل عليه السلام اشتكى إليه تعالى: بأن عبادك

(١) الدرس الرابع عشر من كتاب «المدخل إلى النور» (Nurun İlk Kapısı) الذي يعدّ أول مؤلفات «سعيد الجديد» بالتركية.

(٢) الحشمة: عند المولَّدين بمعنى الأدب، المهابة، الجلال. (لسان العرب)

(٣) أي لا موازنة ولا مقايسة.

يشتكون منّي في قبض الأرواح، فأُلقي إليه: إنّي أضع بينك وبينهم، وسائط المصيبات حتى يتوجّه شكواهم إليها لا إليكَ.[١]

الحاصل: إنّ العزةَ والعظمة تقتضيان وضعَ الأسباب الظاهرية لردّ الشكايات الباطلة، ولئلا يرى العقلُ الظاهريُ مباشرةَ يد القدرة بالأمور الخسيسة الجزئية. ولكن التوحيد والجلال يَردّان أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي.

تنبيه

إنّ التوحيد توحيدان:

الأول: توحيد عامي يقول: «لا شريك له، ليس هذه الكائنات لغيره» فيمكن تداخل الغفلات بل الضلالات في أفكار صاحبه.

والثاني: توحيد حقيقي يقول: «هو الله وحدَه، له الملك، وله الكون، له كل شيء» فيرى سِكّته[٢] على كل شيء ويقرأ خاتمه على كل شيء، فيثبته له إثباتا حضوريا. لا يمكن تداخل الضلالة والأوهام في هذا التوحيد.

فنحن نُسمِعُكَ لمعاتٍ من هذا التوحيد التي استفدناها من القرآن الحكيم:

اللمعة الأولى

إنَّ للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته سكّةً خاصةً بمن هو خالق كل شيء.. وعلى كل مخلوق من مخلوقاته خاتمٌ خاص بمن هو صانع كل شيء.. وعلى كل منشور من مكتوبات قدرته طغراءُ[٣] غَرّاءُ لا تُقلَّد، خاص بسلطان الأزل والأبد.

مثلا: انظر مما لا يُعدّ من سكاته، إلى هذه السكة التي وضعها على «الحياة». انظر إلى الحياة كيف يصير فيها شيءٌ كلَّ شيءٍ. وكذا يصير كلُّ شيءٍ شيئا.

نعم، يصير الماءُ المشروب -بإذن الله- ما لا يُعد من أعضاءٍ وجهازاتٍ حيوانية، فصار شيءٌ بأمر الله كلَّ شيء. وكذا يصيرُ جميعُ الأطعمة المختلفة الأجناس -بإذن الله- جسما

(١) انظر: أبو الشيخ، العظمة ٣/ ٨٩٧؛ أبو نعيم، حلية الأولياء ٥/ ٥١؛ تفسير بحر العلوم للسمرقندي ٣/ ٣٨٢؛ الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٥٤٣؛ الحكيم الترمذي، نوادر الأصول ١/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) السكة: شارة الدولة الموضوعة على مسكوكاتها.

(٣) الطرة أو الطغراء: علامة ترسم على المناشير السلطانية.

خاصا وجلدا مخصوصا وجهازا بسيطا، فيصير كلُّ شيءٍ شيئا لأمر الله. فمَن كان له عقل وشعور قلب يفهم: أنّ جعْلَ شيءٍ كلَّ شيء وجعلَ كلَّ شيء شيئا سكةٌ خاصة بصانع كلِّ شيء وخالقِ كلّ شيء جلّ جلاله.

اللمعة الثانية

انظر إلى خاتمٍ واحد من الخواتم الغير المعدودة الموضوعة على «ذوي الحياة» وهو:

أنَّ الحيّ بجامعيته كأنه مثال مصغّر للكائنات، وثَمرٌ مُزْهر لشجرة العالم، ونَواةٌ منوّرةٌ لمجموع الكون، أدرج الفاطر فيه أنموذجَ أكثرِ أنواع العالم، فكأنَّ الحيَّ قطرةٌ محلوبة من مجموع الكون بنظامات حكيمة معينة، وكأنهُ نقطة جامعة مأخوذة من المجموع بموازينَ حساسة علمية، فلا يمكن أن يَخلق أدنى ذي حياةٍ إلّا مَن يأخذ في قبضةِ تصرُّفِه مجموعَ الكائنات. فمَن كان له عقل لم يفسد، يفهم: أن مَن جعل النحل –مثلا– نوعَ فهرستةٍ[1] لأكثر الأشياء، ومن كتب في ماهية الإنسان أكثرَ مسائل كتاب الكائنات، ومَن أدرج في نواة التينة هندسةَ شجرةِ التين، ومَن جعل قلب البشر أنموذجا ومرصادا لآلاف عوالم، ومَن كتب في حافظة البشر مفصَّلَ تاريخ حياته وما يتعلق به.. ليس إلّا خالقَ كل شيء، وأن هذا التصرف خاتمٌ مخصوص برب العالمين.

اللمعة الثالثة

انظر إلى نقش طغرائه المضروب على «الإحياء، وإعطاء الحياة»..

نذكر مما لا يُعد واحدا وهو أنه: كما أن للشمس على كل شفاف –أو كشفاف– من السيارات، إلى القطرات، إلى الذرات الزجاجية، والزجيجات الثلجية[2] سكةً مثالية من جلواتها، وطغراءَ غرّاء خاصة بها.. كذلك إنّ للشمس الأحدية السرمدية[3] على كل ذي حياة –من جهة الإحياء وإفاضة الحياة–، طرةً وسكةً من تجلي الأحدية تظهر بخصوصية، لو اجتمع الأسباب –بفرض الاقتدار والاختيار لها– على أن يقلدوا ويأتوا بمثلها لم يفعلوا ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

(١) فهرس أو فهرست: كلمة معربة، وفهرستة هنا للأفراد.
(٢) البلورات الثلجية.
(٣) الشمس السرمدية تعبير مألوف في الأدب التركي والفارسي بحق الله جلّ جلاله المنوِّر لكل شئ بخلاف الأدب العربي.

فكما أنه لو لم تُسنِد تماثيلَ الشمس[١] المتلألئة في القطرات، إلى تَجلي الشمس، يلزم عليك أن تقبل شُمَيْسة حقيقيةً وبالأصالة في كلّ قطرة قابلَتْها الشمسُ وفي كل زجاجة أضاءتها الشمسُ، بل في كل ذرةٍ شفّافةٍ تشمّسَتْ. وما هذا الفرض إلّا بلاهة من أعجب البلاهات.

كذلك إنك لو لم تُسنِد كلَّ حي وحياة وإحياء بواسطة تجلي الأحدية الجامعة، وبواسطة كون الحياة نقطةً مركزية لتجلي الأسماء -التي هي أشعةُ شمس الأزل والأبد- لَزِمَ عليك أن تَقبَل في كل ذي حياة -ولو ذبابةٍ أو زهرة- قدرةً فاطرةً بلا نهاية وعلما محيطا وإرادةً مطلقة، وكذا صفاتٍ لا يمكن وجودها إلّا في الواجب الوجود. حتى تضطر أن تعطي لكل ذرةٍ اُلوهيةً مطلقة، إنْ أسنَدتَ الشيء إلى نفسه، أو تَقبَلَ لكل سبب من الأسباب الغير المحدودة ألوهية مطلقة إن أسندت الشيء إلى الأسباب، وتَقْبَلَ شركاء غير متناهية في الألوهية التي شأنها الاستقلالية التي لا تَقبَلُ الشركة أصلا.

إذ إنَّ كل ذرة -لاسيما إذا كانت من البذرة والنواة- لها وضعية منتظمة عجيبة، ولها مناسبة مع أجزاء الحي الذي هي جزء منه، بل لها مناسبات مع نوعه، بل مع الموجودات، ولها وظائف في نِسَبِها كالنَّـفَر[٢] في الدوائر العسكرية. فلو قطعتَ نسبةَ الذرة عن القدير المطلق، لزِمكَ أن تقبل في الذرة عينا ترى كل شيء وشعورا يحيط بكل شيء.

الحاصل: كما أنه لو لم تُسنِد الشُّمَيسَاتِ المشهودةَ في القطرات إلى جلوة الشمس في ضيائها، لزمك قبول شموس غير محصورة في أشياء صغيرة تضيق عن نُجيمة الذُّبَيْبَة التي تطير في الليل...[٣] كذلك لو لم تُسنِد كلَّ شيء إلى القدير المطلق الذي تتساوى بالنسبة إلى قدرته الذراتُ والشموس، والجزء والكل، والجزئي والكلي،[٤] والصغير والكبير. لزمك قبول آلِهاتٍ[٥] غير متناهية وسقطتَ في بلاهةٍ مِن أشنع البلاهات.

(١) أي صورتها المرتسمة في القطرة حيث إنها صورة مثالية.
(٢) الجندي الفرد.
(٣) المقصود اليَراع أو الحُباحِب وهي حشرة تطير ليلا كأنها نار.
(٤) من الاصطلاحات المستعملة في علم المنطق والكلام، وللتوضيح نقول: إن اليد والعين كلا منهما «جزء» من الجسم الذي هو «كل». أما الإنسان الذي هو اسم للنوع أو للجنس الشامل لأفراد كثيرة فهو «كلي»، وكل فرد من الناس «جزئي». وكذا «الكائن الحي» الذي يندرج تحته كل ذي حياة هو «كلي» بينما نملة أو نحلة مثلا «جزئي».
(٥) جمع آلهة التي هي جمع قلة.

اللمعة الرابعة

فكما أن الكتاب لو كان مكتوبا يكفي له قلمٌ واحدٌ لواحدٍ، ولو كان مطبوعا يلزم لطبعه أقلام بعدد حروفه -على شكل حروفه- واشتراكُ كثيرين لتصنيع تلك الأقلام، أي الحروف الحديدية. ولو كتب بخط دقيق أكثر الكتاب في بعض الكلمات -كما قد تُكتب سورة «يس» في كلمة «يس»[١]- فحينئذ لابد لطبع تلك الكلمة الواحدة أقلامٌ حديدية بعدد حروف أكثر الكتاب.

كذلك هذه الكائنات إذا قلتَ إنها مكتوبة بقلم الواحد الأحد، سلكتَ طريقا سهلا معقولا في نهاية السهولة بدرجة الوجوب، وإذا أسندتَها إلى الطبيعة وإلى الأسباب، سلكتَ طريقا في نهاية الصعوبة بدرجة الامتناع وفي نهاية عدم المعقولية بدرجة المُحالية؛ لأنه يلزم على الطبيعة إن تُحضِر لطبع كل حيٍ كلَّ ما يلزم لأكثر الكائنات. فهذه من الخرافات التي تمجّها الأوهام. بل لابد أن تُوجِد في كل جزء من التراب والماء والهواء؛ إمّا ملايينَ مطبعاتٍ معنوية وماكينات مستترةٍ فيه حتى بعدد الأزهار والأثمار، لِيُمكن تَشكُّلُ هاتيك الأزاهير والثمرات المتخالفةِ الجهازاتِ والماهيات.. وإمّا فَرضُ وجودِ قدرةٍ قادرةٍ على تصنيع جميع النباتات، ووجودِ علمٍ بلا نهاية محيطٍ بتفاصيل جميع خواص جميع الأشجار والمتزهرات وجهازاتها وموازينها، في كل جزء من التراب والماء والهواء؛ إذ كل جزء من هذه الثلاثة يَصلُح أنْ يصير مَنشأً لتَشكُّل كل النباتات أو أكثرها.

فافرضْ قصعةَ تراب، ثم افرض دخولَ كل بذر ونواة فيها على التعاقب، ثم أفرغ القصعة واملأها من صُبْرَةِ[٢] التراب حتى تكيل كل التراب، ترى النتيجة واحدة. على أن المشهود يكفيك؛ إذ تُشاهِد في سيرك في الأرض مَنشَئِيَّةَ أكثرِ أجزاء التراب لأكثر النباتات، مع أن تشكُّل كل واحدٍ واحدٍ من النباتات المزهرة والمثمرة مخالفٌ لكل واحدٍ واحدٍ منها؛ وكلُّ واحد منها له من الانتظام والاتزان والامتياز طرز خاص وخصوصية تستلزم جهازاتٍ مخصوصةً، وماكينة خاصة، ومطبعة تخصه، بل تستلزم وجودَ كل جهازاتِ تشكيلِ تمامِ الشجرة والنبات في كل واحد من نواته وبذره، مع بساطة البذور والنواتات[٣] وتشابهها. فيلزم

(١) كما كتب خطاطون بارعون لوحات فنية فيها سورة «يس» كاملة في كلمة «يس».
(٢) صُبْرة: ما جمع من الطعام بلا كيل و لا وزن.
(٣) تجمع النواة: نوى، ونويات، وأنوَاء، ونوى. أما هنا فقد جمعت جمعا مؤنثا سالما.

على الطبيعة أن تُحضر –معنىً– جهازاتٍ تُشكّل كل الأشياء وماكيناتها المعنوية وأسبابها في كل شيء شيءٍ. فهذه سفسطة يتنفّر منها السوفسطائي أيضا، وخرافةٌ يخجل منها من يُضحِكُ الناس بنقل الخرافات.

اللمعة الخامسة

انظر! كما أن كل حرف من كتاب يدل على نفسه بمقدار حرف وبوجه واحد، لكن يَدُلّ على كاتبه بوجوه ويعرِّفُ نَقّاشَه بمقدار سطر..[1]؛ كذلك كلُّ حرف مجسمٍ من كتاب الكائنات يدل على نفسه بمقدار جِرمه ويُظهر ذاتَه بمقدار صورته، لكن يدل على صانعه بوجوه كثيرة، إفرادا وتركيبا بدخوله في المركبات، ويُظهر أسماءَ صانعه ويُنشد في بيانها بمقدار قصيدة طويلة.

فعلى هذا لو تحَمَّقَ أحدٌ كـ«هبنّقة»[2] فأنكر نفسه وأنكر الكائنات، ينبغي أن لا يتجاسر بإظهار نهاية البلاهة على إنكار الصانع.

اللمعة السادسة

انظر! كما أن الصانع سبحانه وضع على كل جزئي جزئيٍ خاتمَه الخاص، وضرَب على كل جزءٍ جزءٍ سكّته المخصوصة –كما مرّ–؛ كذلك وَضَع على كلّ نوعٍ نوعٍ وعلى كلِّ كُلٍّ كُلٍّ خاتمه الخاص، وخَتم أقطار السماوات والأرض بخاتم الواحدية، وضرب على مجموع العالم سكةَ الأحدية بصورة جلية واضحة.

فانظر إلى خاتمه الذي أشارت إليه آيةُ ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (الروم:٥٠)، إذ في كيفية إحياء الأرض حشرٌ عجيب، ونشر غريب، يُحشَرُ في إحيائها أزيدُ من ثلاثمائة ألف نوع، تُساوي أفرادُ نوعٍ واحد –من كثير من تلك الأنواع– في السنة مجموعَ أفراد الإنسان في الدنيا؛ لكن لحكمة خفية لا تعادُ في الأكثر بأعيانها، بل بأمثالها بمثليةٍ كالعينية! وكيفما كان فلا بأس في دلالتها على سهولة حشر البشر، وفي كونها أمثلةَ النشر وإشاراتِ الحشر.

(١) أي كأن يقول: إن كاتبي يتقن اللغة ويحسن الكتابة ويملك القلم.. وهكذا.

(٢) أحمقَ من هبنّقة مثل يضرب لشدة الحماقة. حيث «هبنقة» ما كان يعرف إلّا نفسه، ولا يعرف نفسه إلّا بقلنسوته، وإذا ما رآها على رأس أحد ظنّ أنه نفسه! (مجمع الأمثال للميداني)

فإحياء تلك الأنواع الكثيرة المختلطة المشتبكة في نهاية الاختلاط والاشتباك بنهاية الامتياز، وإعادتُها في كمال التمييز، بلا خطأ ولا خلط، بلا غلط ولا سقط، خاتمٌ خاص بمَن له قدرة بلانهاية وعلم محيط.

وكذا كتابةُ ثلاثمائة ألف كتاب مختلفة بل أزيدَ في صحيفة سطح الأرض؛ مختلطةً لكن في نهاية الانتظام بلا سهو ولا مزج، ومشتبكةً لكن في نهاية الانتظام بلا نقص ولا بخس، وممتزجةً لكن في نهاية التمييز والتشخيص بلا قصور ولا فطور.. سكةٌ خاصة بمن بيده ملكوت كل شيءٍ، وبيده مقاليد كل شيء، ولا يُشغله شيءٌ عن شيءٍ.

فيا مَن يَستبعد الحشرَ مستنكرا له! انظر كيف ترى في كيفية إحياء الأرض مائة ألف أمثلته وإشاراته في ستة أسابيع! فمَثَلُك في استبعادك الإنكاري، كمَثَل: مَن يرى ذاتا ذا معجزات يكتب في آن واحد في صحيفة واحدة كتبا كثيرة مندرِسةً بقيت[1] في حافظته، أو يؤلفها جديدةً أمثال المندرسة، فقيل له: سيَكتب هذا الكاتبُ كتابك الذي هو ألّفه فمَحاه الماءُ، في صحيفة في طرفة عين. فقال: كلّا، كيف يمكن كتابة كل ما اندرس من حروفاته في آن واحد؟! فقاس الكاتبَ الحفيظَ القديرَ ذا الإعجاز على نفسه الجاهلة العاجزة.

ومَنْ يقول لمن يرفع الجبال -بالإشارة- لإظهار عظمته أو سلطنته: هو لا يرفع هذه الصخرة العظيمة التي سَدّت الطريق على المسافرين الذين دعاهم إلى بستان نِعَمِهِ.. ما هو إلّا مجنون أبله.

نعم، للربوبية في هذا التصرف العظيم الربيعيّ خاتمٌ عالٍ عظيم دقيق النقش، هو الإتقان المطلق في الانتظام المطلق، في الجود المطلق في الوُسعة[2] المطلقة، في السرعة المطلقة في السهولة المطلقة، في الامتياز المطلق مع الاشتباك المطلق. فهذا الخاتم يختص بمن لا يمنعه فعلٌ عن فعل، ولا يغيب عنه شيءٌ، ولا يثقل عليه شيء.

نعم، نشاهد في الربيع في وجه الأرض فعالية حكيمة بصيرة كريمة، وصنعة خارقة في آن واحد، في كل مكان، بطرزٍ واحد، في كل فرد، وبإتقان ممتاز، في جُود مطلق، بانتظام مكمّل،

(١) في الأصل: بقت. وهي صحيحة على لغة طيء لأنهم يرجعون ماضي الأفعال الثلاثية المعتلة إلى وزن «فَعَل» بفتح العين. إلّا أننا جعلناها «بقيت» المستعملة كما وردت في «إشارات الإعجاز».

(٢) الوسعة والسعة والتوسعة بمعنى: الاتساع.

في سرعة مطلقة، بإبرازِ خوارقَ منتظمةٍ، في سهولة مطلقة، في وُسعة مطلقة، فما هذه الفعالية إلّا خاتمُ مَن «كما أنه ليس في مكانٍ، هو في كل مكان، حاضرٌ ناظر بقدرته وعلمه لا يؤوده شيء ولا يستعين بشيء».

اللمعة السابعة

انظر! كما يُشَاهَدُ على صحيفة الأرض، ويُتراءى على أقطار السماوات والأرض خاتمُ الأحد الصمد، كذلك يشاهَدُ على «مجموع العالم» خاتم التوحيد واضح النقش بدرجة كُبره؛ إذ هذا العالم كالقصر المحتشم، كـ«الفَابْرِيقَة»[1] المنتظمة، كالبلد المكمّل، فيما بين أجزائه -كأجزائها وأفرادها- معاوَنةٌ حكيمة ومجاوبة كريمة؛ إذ يُسرع بعض الأجزاء لمعاونة بعض، في الطرق الطويلة المعوَجّة بلا انحراف وبانتظام، وفي وقت الحاجة، ومن حيث لا يحتسب. فانظر تَرها قد مدَّ بعضٌ يَدَ المعاونة لحاجة بعض، وفي هذا التعاون تجاوبٌ بـ: «لبيك، لبيك!» بألسنة الأحوال لأسئلة الأغيار والأمثال.. قد أخذ بعضٌ يَدَ بعضٍ، فيسعَون ويعملون بالانتظام يدا في يد، ويَخدمون ذوي الحياة رأسا مع رأس، ويتوجهون إلى غاية، ويطيعون مدبّرا واحدا كتفا بكتف.

فانظر إلى دستور «التعاون» كيف يجري من الشمس والقمر ومن الليل والنهار ومن الصيف والشتاء، إلى سعى النباتات لإمداد الحيوانات بحمل أرزاقها وأخذِها من خزينة الرحمة.. ثم إمداد الحيوانات للبشر للخدمة، حتى النحلُ والدود يأخذان العسلَ والحرير من خزينة الرحمن، ويوصلانهما إلى الإنسان.. ثم إمداد الذّرات الغذائية للثمرات، مع تخالف أغذيتها، وإمداد المواد الطعامية لتغذيةِ حُجَيْرات البدن بكمال الانتظام والعناية والحكمة!

فمظهرية هذه الأشياء لاسيّما الجامدة لهذا التعاون الحكيم المنتظَم الكريم المكمَّل دليلٌ واضح وبرهان ساطع على أنها خدّامُ مربٍّ حكيم وعَمَلة مدبرٍ كريمٍ يتحركون بأمره وإذنه وقوته وحكمته.

---

(١) المعمل أو المصنع.

اللمعة الثامنة

انظر! إن ما يشاهَد من «الرزق» المُوزَّع على المرتزقين على قدر حاجاتهم، بطرزٍ يناسب كل واحدٍ واحدٍ منهم.. وهذا الرزق العامُّ في هذه الرحمة الواسعة المشهودة المتضمنة للتودد والتعرّف.. وهذه الرحمة الواسعة في هذه العناية التامة المتضمِّنة للتلطيف والإكرام.. وهذه العناية المشهودة في هذه الحكمة العامة المتضمنة للقصد والشعور.. وهذه الحكمة المشهودة في هذا الانتظام المشهود.. وهذا الانتظام في ضمن هذه المسخّرية المشهودة.. وهذه المسخرية في ضمن هذا التعانق مع التجاوب.. وفي ضمن هذا التساند مع التعاون فيما بين أجزاء الكائنات.. خاتمٌ خاص بمَن هو ربّ كل شيء ومربّي كل شيء ومدبّر كل شيء.. وسكة مخصوصة بمَن الشمسُ والقمر والنجوم مسخّراتٌ بأمره: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة:٧). ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

اللمعة التاسعة

فكما رأيتَ خاتم الأحدية على الجزئيات، وعلى الأرض، وعلى العالم؛ فانظر ترَ ذلك على الأنواع المنشورة، وعلى العناصر المحيطة.

فكما أن زرعَ بذرٍ في مزرعة يدل على أن المزرعة في تصرّف صاحب البذر، وأن البذر لمتصرف المزرعة؛ يشهد هذا لذاك، وذاك لهذا.. كذلك، إن هذه العناصر التي هي مزرعة المصنوعات، بلسان واحديّتها وبساطتها في كليتها وأحاطتها بطرز متعيِّنٍ بعلمٍ، وبصورة مُحكمة بحكمة.. وإن هذه المخلوقات التي هي ثمرات الرحمة ومعجزات القدرة وكلمات الحكمة، بلسان انتشارها الحكيم، مع المماثلة في الأشخاص، وبلسان توطنها في الأطراف المتباعدة، بتوزيعٍ عجيب حكيم مع المشابهة في الأفراد.. تشهدان على أن المحيط والمحاط والمزارع والبذور، في قبضةِ تصرفِ صانعٍ واحد. فكل نوع وكل عنصر يشهد لكلٍّ وللكل؛ بأنكم مالُ مَنْ أنا مالُهُ! فيصير كل زهرة وكل ثمرة وكل حيوان وحُوينة سِكةً ناطقة وخاتما متكلما وطرةً متلفظة بلسان انتظام الحال وحكمة المآل؛ بأن هذا المكان: مُلك مَنْ أنا مُلكه! وصُنعُ مَنْ أنا صنعُه! ومكتوبُ مَنْ أنا حرفه! ونسجُ مَن أنا نقشه!

فعلى هذا، فكما أن التصرف الحقيقي في أدنى مخلوق، والربوبيةَ على أضعف موجود

يختصان بمَن دَخَل في قبضة تصرفه جميعُ العناصر.. كذلك إن تدبير أي عنصر كان وتدويرَه، يختص بمَن يربّي جميع الحيوانات والنباتات ويدبّرها ويأخذها في قبضة ربوبيته سبحانه! فهذا خاتم توحيدٍ يُبصره مَن لم يكن في عينه غين[1] وعلى قلبه رَين.

أيها المتَفَرْعِن! جرّب نفسك، هل تقدر أن تملك شيئا من الكون؟ فاذهب واستمع ما يقول كل فرد جزئي. إذ يقول بلسان المِثليةِ: مَن تَملَّك مجموع نوعي يمكن أن يَدّعي التملُّكَ عَليّ وإلّا فلا.. ثم اذهب إلى النوع تَر كُلَّ نوعٍ يقول بلسان الانتشار: مَن تملّك الأرض ظهرا وبطنا يمكن له أن يَدّعي التملك عليَّ وإلّا فلا.. ثم اذهب إلى الأرض تَرَها تقول بلسان التساند بينها وبين أختها السماءِ: مَن تملّك مجموع الكائنات يمكن له أن يدّعي التملك عليَّ وإلّا فلا.

اللمعة العاشرة

فإذا رأيتَ ما أشرنا إليه من بعض خواتم التوحيد المضروبة على الجزء والجزئي والكل والكلي، وكل العالم، وعلى الحياة وذي الحياة والإحياء، فانظر إلى سكةٍ واحدة مما لا تعد من سِكات الوحدانية المضروبة على «الأنواع والكليات».

نعم، كما أن كميةَ كلفةِ تربيةِ الشجرةِ المثمرة تساوي كلفةَ ثمرة واحدة في السهولة؛ لوحدة التربية واتحاد التدبير، إذ لاتّحاد المركز ووحدةِ القانون ووحدانيةِ التربية تخففت الكلفةُ والمشقةُ والمصرف، وتسهّلت بدرجةٍ لا فرق بين الشجرة ذاتِ الثمراتِ الغير المعدودة وهي في يد الوحدة، وبين الثمرة الواحدة وهي في يد الكثرة. فالشركة والكثرة وتعدُّد المركز تحتاج -لتربيةِ ثمرة واحدة- إلى كل ما يحتاج إليه تمامُ الشجرة بأثمارها من جهة كمية الجهازات، ولا فرق إلّا في الكيفية. كما أن كل الفَابْرِيقَات والماكينات التي تَعمل لاستحصال الجهازات العسكرية للجيش العظيم تلزم بتمامها لتجهيزاتِ نفرٍ[2] واحدٍ والفرقُ في الكيفية فقط. وكما أن أُجرَةَ طبعِ أُلوفِ نسخٍ في المطبعة التي طَبَعت كتابك تساوي-بل أقل من الأجرة التي أعطيتها- لطبعِ نسخةٍ واحدة، وإذا تركتَ المطبعة الواحدة وذهبتَ إلى الكثرة اضطُررتَ إلى إعطاءِ أُلوفِ أُجَرٍ.

(١) المقصود: غشاوة.
(٢) جندي واحد.

الحاصل: إذا تركتَ إسناد الكثرة الغير المحدودة إلى الواحد -فمع أنك تضطر لإسناد شيء واحد إلى الكثرة الغير المحدودة- تتزايد الكلفةُ بعدد الأفراد. فما يشاهد في إنشاء كل نوعٍ منتشرٍ من السهولة الخارقة فإنما هي من يُسر الوحدة والتوحيد.

اللمعة الحادية عشر

كما أنّ توافُقَ كل أفراد النوع وتشابُهَ كل أنواع الجنس في الأعضاء الأساسية، يدلّان على اتحاد السكة ووحدة القلم، الشاهدَين على أن جميع المتوافقات والمتشابهات صُنْعُ واحدٍ.. كذلك هذه السهولة المطلقة المشهودةُ وخفّة الكلفة، تستلزمان بدرجة الوجوب أن يكون الجميع آثار صانعٍ واحد؛ وإلّا لَذَهَبَت الصعوبةُ الصّاعدة إلى درجة الامتناع بذلك الجنس وبذلك النوع إلى العدم. فكما يمتنع شريكُ ذاتِهِ سبحانه، -وإلّا لفسد العَالمُ بالخروج عن الانتظام..- كذلك يمتنع شريكُه في فِعْله، وإلّا لانعَدَم العالمُ ولم يوجد.

اللمعة الثانية عشر

انظر! كما أن الحياة برهان الأحدية، ودليل وجوب الوجود، فالموت دليل السرمدية والبقاء. إذ كما أن ظهور قطرات النهر الجاري وحَبابات[1] البحر المتمّوج وشفافات وجه الأرض المتجددة شاهداتٌ على الشمس بإراءة تماثيلها وضيائها، وأن زوال تلك القطرات والحبابات والشفافات وغروبَها وأفولَها وفَناءها وموتها مع استمرار تجلي الضياء على أمثالها الآتية عقيبها، ودوامِ جلوات التماثيل على كل قافلةٍ سيارةٍ خلفها، شاهداتٌ على بقاء الشمس في تجلياتها ودوامِ الضياء في جلواتها وعلى أن كل هذه التماثيل والأَشِعّاتِ آثارُ شمسٍ واحدة، فيظهرون وجودها بوجودهم وبقاءها ووحدتها بعدمهم، مع انعدام أسبابهم الظاهرية معهم.

كذلك هذه الموجودات تشهد بوجودها على وجوب وجود الواجب الوجود، وتشهد بزوالها مع أسبابها ومجيء أمثالها عقيبها على أزليته وسرمديته وواحديته؛ إذ إن تجدّد المصنوعات الجميلة وتبدلَ الموجودات اللطيفة وغروبَها في طلوع أمثالها وأفولَها في ظهور أشباهها عند اختلاف الليل والنهار وعند تحول الفصول وتبدل العصور، تَشهَدُ شهادةً قاطعةً على وجود ذي جمالٍ مجردٍ سرمدي عالٍ دائم التجلي، وعلى بقائه ووحدته.. وإن زوال

(١) الحَباب: الفقاقيع التي تعلو الماء.

الأسباب السفلية مع المسبَّبات في الانقلابات السنوية والعصرية، ثم إعادة أمثال المسبَّبات مع الأسباب، يشهد قطعا على أن الأسباب كالمسبّبات عاجزة مصنوعة قورنَت بينها وبينها لِحكَمٍ دقيقة، بل تدل على أن كل هذه المصنوعات اللطيفة السيّالة وهاتيك الموجودات الجميلة الجوّالة إنما هي صَنْعَةٌ متجددةٌ للذات الأحدية ذي الجلال والجمال -الذي جميعُ أسمائه قدسية جميلة- ونقوشُه المتحولة ومراياه المتحركة وسكاتُه المتعاقبة وخواتمه المتبدلة.

اللمعة الثالثة عشر

انظر! إن كل شيء، من الذرات إلى السيارات، ومن النفوس إلى الشموس؛ بلسان عجزه في ذاته، يدل على وجوب وجود خالقه، ويشهد بلسان حَمله -مع عجزه- وظائف عجيبة في النظام العمومي على وحدة خالقه.

ففي كل شيء له شاهدان على أنه واجب واحد.. وفي كل حي له آيتان على أنه أحد صمد.

ولقد فهمتُ من فيض القرآن الحكيم أن كل جزءٍ من أجزاء الكائنات يشهد للواجب الوجود الواحد الأحد الصمد بقريب من خمسة وخمسين لسانا فذكرتُها إجمالا في رسالة عربية تسمى «قطرة». فإن شئتَ فراجعها.

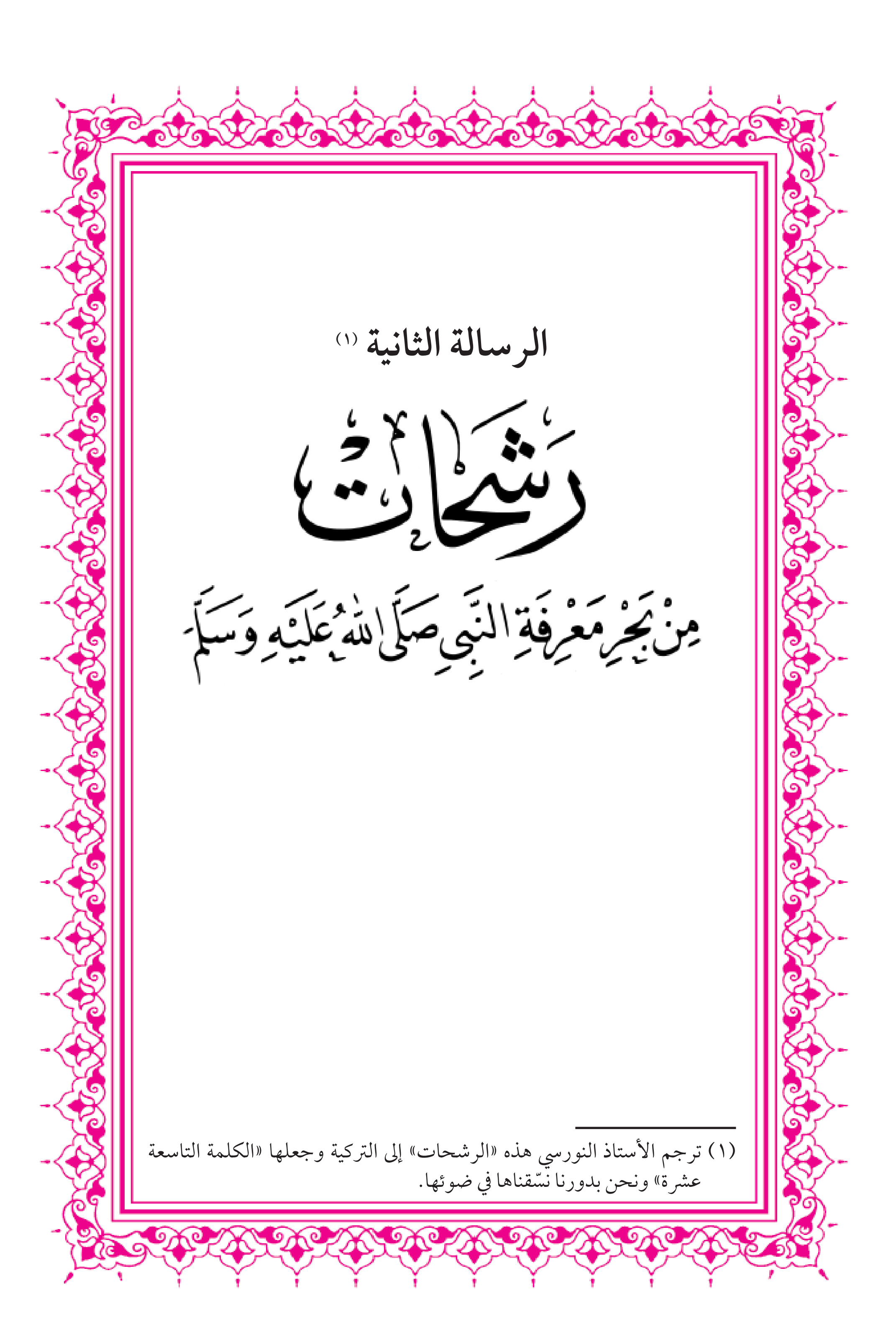
اللمعة الرابعة عشر

اعلم أن هذه الموجودات كما تشهد على وجوبه ووحدته سبحانه.. كذلك تشهد على جميع أوصافه الجلالية والجمالية والكمالية.. وكذلك تشهد على كمال ذاته، وعلى أنه لا نقص ولا قصور لا في ذاته ولا في شؤونه ولا في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله؛ إذ إن كمال الأثر يدل على كمال الفعل بالمشاهدة، وكمال الفعل يدل على كمال الاسم بالبداهة، وكمال الاسم يدل على كمال الصفة بالضرورة، وكمال الصفة يدل على كمال الشأن الذاتي بالحدس اليقيني، وكمال الشأن يدل على كمال الذات بحق اليقين.

فكما أن مُكمَّليةَ نقوشِ تزييناتِ قصرٍ بلا قصورٍ، تُظهر لك مكمليةَ أفعال الصانع المهندِسِ المستترةِ تلك الأفعالُ تحت النقوش، والمتحركة تحت التزيينات.. ومكمليةَ

تلك الأفعال تصرّح لك بمكمليةِ أسماء ذلك الفاعل، أي هو صانع ماهر، ومهندسٌ عليم، ونَقّاش حكيم، وهكذا.. ومكملية أسمائه تُفصح لك عن مكمّلية صفات المسمى، أي له علم وحكمة وصنعة وهندسة.. ومكملية صفاته تشهد على مكملية شؤون ذاته، أي له قابلية فائقة واستعداد جيد.. ومكملية الشؤون تكشف عن وجهِ مكملية ذاتِ ذلك النقاش بوجه يليق به ويناسب مقامه.. كذلك إن مكملية هذه الآثار المشهودة في هذه الكائنات بلا قصور ولا فطور، تشهد بالمشاهدة الحدسية على مكملية أفعالٍ مستترة خلفها.. ومكملية هذه الأفعال التي هي كالمشهودة، تشهد بالبداهة على كمال أسماء ذلك الفاعل.. وكمالُ تلك الأسماء، يشهد بالضرورة على كمال الصفات؛ إذ الأسماء ناشئة من نسب الصفات.. وكمالُ الصفات يكشف باليقين عن كمال الشؤون الذاتية التي هي مبادئ الصفات القدسية.. وكمال الشؤون يشهد بحق اليقين على كمال الذات بما يليق بجنابه سبحانه. بل مجموع ما في الكائنات من الكمال والجمال إنما هو ظل ضعيف مفاض بالنسبة إلى كماله عزّ كمالُه، وإلى جمالِه جلّ جمالُه.

❋ ❋ ❋



الرسالة الثانية [1]

رشحات

من بحر معرفة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) ترجم الأستاذ النورسي هذه «الرشحات» إلى التركية وجعلها «الكلمة التاسعة عشرة» ونحن بدورنا نسّقناها في ضوئها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تنبيه

إنَّ ما يُعرّف لنا ربَّنا لا يعد ولا يحد، ولكن البراهين الكبيرة والحجج الكلية ثلاثة:

إحداها: هذه الكائنات، وقد سمعتَ بعض آيات هذا الكتاب الكبير.

وثانيتها: الآية الكبرى من هذا الكتاب، وهي خاتم ديوان النبوة، ومفتاح الكنوز الخفية عليه الصلاة والسلام.

وثالثتها: مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الأنام، أي القرآن الحكيم.

فلابد أن نعرف هذا البرهان الثاني الناطق ثم نستمع إليه.. فنذكر من بحر معرفته رشحات:

الرشحة الأولى

اعلم أن ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة.

فإن قلت: ما هو؟ وما ماهيته؟

قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطحُ الأرض مسجدَه، ومكةُ محرابَه، والمدينةُ منبرَه.. وهو إمامُ جميع المؤمنين يأتمّون به صافّين خلْفَهُ.. وخطيبُ جميع البشر يُبين لهم دساتير سعاداتهم.. ورئيسُ جميع الأنبياء، يزكّيهم ويصدّقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم.. وسيدُ جميع الأولياء، يرشدهم ويربّيهم بشمس رسالته.. وقطبٌ في مركز دائرةِ حلقةِ ذكرٍ تركّبَتْ من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها.. وشجرةٌ نورانية عروقُها الحيوية المتينة هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانُها الخضرة الطرية وثمراتُها اللطيفة النيرة، هي الأولياء بمعارفهم الإلهامية. فما من دعوىً يدّعيها إلّا ويشهد لها جميعُ الأنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميعُ الأولياء مستندين بكراماتهم. فكأن على كل دعوى من دعاويه خواتمَ جميع الكاملين؛ إذ بينما تراه قال: «**لا إله إلّا الله**» وادعى التوحيدَ، فإذا نسمع من

الماضي والمستقبل من الصفَّين النورانيين (أي شموسِ البشر ونجومِه القاعدين في دائرة الذكر) عينَ تلك الكلمة؛ فيكررونها، ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكأنهم يقولون بالإجماع: «صَدَقْتَ وبالحَق نَطقتَ».

ولا حدّ للوَهم أن يَمُدّ يدَه لردّ دعوىً تأيدتْ بشهاداتِ مَن لا يُحدّ من الشاهِدِين الذين تزكّيهم معجزاتُهم وكراماتُهم.

الرشحة الثانية

اعلم أن هذا البرهان النوراني الذي دلَّ على التوحيد وأرشد البشرَ إليه، كما أنه يتأيد بقوة ما في جناحَيه: نبوةً وولايةً من الإجماع والتواتر.. وكذا تُصدّقه إشاراتُ الكتب السماوية من بشارات التوراة والإنجيل والزبور وزُبُر الأولين.. وكذلك تصدّقه رموزاتُ الإرهاصات الكثيرة المشهودة.. وكذا تصدّقه بشاراتُ الهواتف الشائعة المتعددة.. وكذا تصدّقه شهادات أهل الكهانة المنقولةُ بالتواتر.. وكذا تصدقه دلالات ألفِ معجزات من أمثال شق القمر، ونَبَعانِ الماء من الأصابع كالكوثر، ومجيءِ الشجر بدعوته، ونزولِ المطر في آن دعائه، وشِبَع الكثير من طعامه القليلِ، وتكلُّم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر.. إلى ألفٍ مما بيّنَه الرواةُ الثقاة والمحدّثون المحققون.. وكذا تصدّقه شريعته الجامعةُ لسعادات الدارين.

وقد سمعتَ ورأيت في الدروس السابقة شعاعاتٍ من شمس شريعته المفيضة للسعادات. فيكفيك إنْ لم يكن على عينك غين وفي قلبك رَين، فلا نطوّل هنا.

الرشحة الثالثة

اعلم أنه كما تصدّقه الدلائلُ الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدّقه الدلائل الأنفسية؛ إذ اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالاتفاق.. وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضلَ جميع السجايا الغالية والخصائلِ النـزيهة.. وكذا قوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته.. وكذا كمال وثوقه بشهادة سِيَره وكمال جدّيته وكمال متانته..وكذا قوةُ أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه، تصدّقه في دعوى تَمَسُّكِهِ بالحق وسلوكه على الحقيقة، كما تصدّق الأوراقُ الخضرة والأزهار النضرة والأثمار الطرية حياةَ شجرتها.

الرشحة الرابعة

اعلم أنَّ للمحيط الزماني والمكاني تأثيرا عظيما في محاكمات العقول.. فإن شئت فتعال، نخلع هذه الخيالات الزمانية والعصرية والمحيطية، ونتجرّد من هذا اللباس الملوّث؛ ثم نخوض في بحر الزمان السيال، ونَسبَح فيه إلى أن نخرج إلى عصر السعادات التي هي الجزيرة الخضراء فيما بين العصور والدهور، فلننظر إلى جزيرة العرب التي هي المدينة الشهباء في تلك الجزيرة الزمانية، ولنلبس ما نسَجَ لنا ذلك الزمانُ، وخاطه لنا ذلك المحيط، حتى نزور -ولو بالخيال- قطبَ مركزِ دائرةِ الرسالة، وهو على رأس وظيفته يعمل.

فافتح عينيك وانظر! فإن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة: شخصٌ خارقٌ، له حسنُ صورةٍ فائقة، في حُسن سيرة رائقة؛ فها هو آخذ بيده كتابا مُعجزا كريما، وبلسانه خطابا موجزا حكيما يبلّغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! ما يقول؟ نعم، يقول عن أمرٍ جسيم، ويبحث عن نبأٍ عظيم؛ إذ يشرح ويحل المعمّى العجيبة في سرّ خِلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي أشغلت العقولَ وأوقعتها في الحيرة؛ إذ هي الأسئلة التي يَسأل عنها كلُّ موجود، وهي: مَن أنت؟ ومِن أين؟ وإلى أين؟

الرشحة الخامسة

انظر إلى هذا الشخص النوراني، كيف ينشر من الحقيقة ضياءً نَوّارا، ومن الحق نُورا مضيئا! حتى صيّر ليل البشر نهارا وشتاءَه ربيعا، فكأن الكائنات تَبدَّل شكلُها فصار العالم ضاحكا مسرورا بعدما كان عبوسا قمطريرا.

إذ إذا لم نستضئ بنوره نرى في الكائنات مأتما عموميا، ونرى موجوداتها كالأجانب والأعداء، لا يعرف بعضٌ بعضا، بل يعاديه، ونرى جامداتها جنائز دهّاشَة، ونرى حيواناتها وأناسيّها أيتاما باكين بضربات الزوال والفراق، ونرى الكائنات بحركاتها وتنوعاتها وتغيّراتها ونقوشها مَلعَبَةَ التصادف مُنجرّةً إلى العبثية مهملةً لا معنى لها، ونرى الإنسان قد صار -بعَجزه

المزعج وفقره المعجِز وعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل إلى رأس الإنسان- أدنى وأخسرَ من جميع الحيوانات. فهذه هي ماهية الكائنات عند مَن لم يدخل في دائرة نوره.

فانظر الآن بنوره، وبمرصاد دينه، وفي دائرة شريعته، إلى الكائنات كيف تراها؟ انظر! قد تبدل شكلُ العالم، فتحول بيتُ المأتم العمومي مسجدَ الذكر والفكر، ومجلسَ الجذبة والشكر.. وتحوَّل الأعداء الأجانب من الموجودات أحبابا وإخوانا.. وتحوَّل كلٌّ مِن جامداتها الميتة الصامتة حيا مؤنسا مأمورا مسخرا، ناطقا بلسان حاله آياتِ خالقه.. وتحوَّل ذوو الحياة منها -الأيتامُ الباكون المشتكون- ذاكرين في تسبيحاتهم، شاكرين لترخيصاتهم عن وظائفهم.. وتحوَّلت حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العبثية والمُهمَليّة وملعبةِ التصادف إلى صيرورتها مكتوباتٍ ربانية وصحائفَ آيات تكوينية ومرايا أسماءٍ إلهية، حتى ترقّى العالمُ وصار كتابَ الحكمة الصمدانية.

وانظر إلى الإنسان كيف ترقّى من حضيض الحيوانية العاجزة الفقيرة الذليلة إلى أوج الخلافة، بقوة ضعفه، وقدرة عجزه، وسَوق فقره، وشوق فاقته، وشوكة عبوديته، وشعلة قلبه، وحشمة إيمان عقله. ثم انظر كيف صارت أسبابُ سقوطه من العجز والفقر والعقل أسبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني!

ثم انظر إلى الماضي، ذلك المزارِ[1] الأكبر في ظلماته، كيف استضاء بشموس الأنبياء وبنجوم الأولياء! وإلى الاستقبال تلك الليلةِ الليلاء في ظلماته، كيف تنوّر بضياء القرآن وتكشّف عن بساتين الجنان!

فعلى هذا؛ لو لم يوجَد هذا الشخص لسقطت الكائناتُ والإنسانُ وكلُّ شيء إلى درجة العدم، لا قيمة ولا أهمية لها، فيلزم لمثل هذه الكائنات البديعة الجميلة مِن مِثل هذا الشخص الخارق الفائق المعرِّف المحقق، فإذا لم يكن هذا فلا تكنِ الكائناتُ، إذ لا معنى لها بالنسبة إلينا. فما أصدقَ ما قالَ مَنْ ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ (الانعام:٧٣) «**لولاكَ لَولاكَ لَما خَلقتُ الأفلاكَ**».[2]

---

(١) المقبرة.

(٢) أي إنَّ هذا حديث قدسي. وقد تكلم علماء محققون حول هذا الحديث، فمنهم من أقره، ومنهم من ضعفه ومنهم من أنكره ولعلّ قول علي القاري في شرح الشفا (١/ ٦) يعدّ خلاصة جيدة، إذ يقول: «إنه صحيح معنىً ولو ضُعّف مبنى» وأيده ابن تيمية من حيث صحة معناه في مجموع الفتاوى (١١/ ٩٦-٩٨).

الرشحة السادسة

فإن قلت: مَن هذا الشخص الذي نراه قد صار شمسا للكون، كاشفا بدينه عن كمالات الكائنات، وما يقول؟

قيل لك: انظر واستمع ما يقول! ها هو يخبر عن سعادة أبدية ويبشّر بها، ويكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها ويدعو الناس إليها. وهو دلّالُ محاسنِ سلطنةِ الربوبية ونَظّارُها، وكشّافُ مخفيات كنوز الأسماء الإلهية ومعرِّفها.

فانظر إليه من جهة وظيفته؛ تَـرَه برهانَ الحق وسراجَ الحقيقة وشمس الهداية ووسيلة السعادة.

ثم انظر إليه من جهة شخصيته تَـرَه مثالَ المحبةِ الرحمانية، وتمثالَ الرحمة الربانية، وشرفَ الحقيقة الإنسانية، وأنورَ أزهرِ ثمراتِ شجرة الخلقة.

ثم انظر، كيف أحاط نورُ دينه بالشرق والغرب في سرعة البرق الشارق، وقد قَبِل بإذعان القلب قريبٌ من نصف الأرض ومن خُمس بني آدم هديةَ هدايته بحيث تفدي لها أرواحها.

فهل يمكن للنفس والشيطان أن يناقشا بدون مغالطة في مدَّعَيات مثل هذا الشخص، لاسيما في دعوىً هي أساس كل مدّعَياته وهو «**لا إله إلّا الله**» بجميع مراتبه؟!

الرشحة السابعة

فإن شئت أنْ تَعرف أن ما يحرّكه إنما هو قوّة قدسية، فانظر إلى إجراآته في هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الأقوام الوحشيةَ في هذه الصحراء العجيبة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، القاسيةَ قلوبُهم بدرجة يدفِن أحدُهم بنتَه حيةً بلا تأثّر! كيف رفع هذا الشخصُ جميع أخلاقهم السيئة والوحشية، وقلَعَها في زمان قليل! وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية، فصيّرهم معلِّمِي العالمِ الإنساني وأساتيذَ[1] الأمم المتمدنة. فانظر، ليست سلطنته على الظاهر فقط، بقوة الخوف كسائر الملوك، بل ها هو يفتح القلوب والعقول،

(١) جمع أستاذ.

ويسخِّر الأرواح والنفوس حتى صار محبوبَ القلوب ومعلِّم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح.

الرشحة الثامنة

من المعلوم أن رفعَ عادةٍ صغيرة كـ«التتون»[١] مثلا، من طائفة صغيرة بالكلية قد يَعسُرُ على حاكم عظيم بهمّة عظيمة، مع أنّا نرى هذا الذات ها هو قد رفع بالكلية عاداتٍ عظيمة كثيرة، من أقوام عظيمة متعصبين لعاداتهم، معاندين في حسياتهم، بقوة جزئية، وهمةٍ قليلة وفي زمان قصير، وغَرسَ بدلها برسوخ تام في سجيتهم عاداتٍ عاليةً، وخصائل غالية. فانظر إلى «عمر» رضي الله عنه قبل الاهتداء وبعده، تَرَه نواةً قد صار شجرةً باسقة. وهكذا يتراءى لنا من خوارق إجرآاته الأساسيةِ ألوفُ ما رأينا، فمن لم يَرَ هذا العصر نُدخل في عينه هذه الجزيرة! فليجرّب نفسه فيها. فليأخذوا مائة من فلاسفتهم وليذهبوا إليها وليعملوا مائةَ سنة هل يتيسر لهم أن يفعلوا بالنسبة إلى هذا الزمان جزءا من مائة جزءٍ مما فعل سيدُنا في سنةٍ بالنسبة إلى ذلك الزمان؟!

الرشحة التاسعة

اعلم -إنْ كنت عارفا بسجية البشر- أنه لا يتيسر للعاقل أن يدّعيَ في دعوى فيها مناظرة كذبا يخجل بظهوره، وأن يقوله بلا حجاب[٢] وبلا مبالاة وبلا تأثر يشير إلى حيلته،[٣] وبلا تصنّع وتهيّج يُوميان إلى كذبه، في أنظار خصومه النقادة، ولو كان شخصا صغيرا، ولو في وظيفة صغيرة، ولو بحيثية حقيرة، ولو في جماعة صغيرة، ولو في مسألة حقيرة. فكيف يمكن تداخل الحيلة ودخول الخلاف[٤] في مدَّعَيات مثل هذا الشخص الذي هو موظف عظيم، في وظيفة عظيمة، بحيثية عظيمة، مع أنه يحتاج لأَمنية عظيمة، وفي جماعة عظيمة، وفي مقابلة خصومة عظيمة، وفي مسألة عظيمة، وفي دعوى عظيمة؟ وها هو يقول ما يقول بلا مبالاة بمعترضٍ، وبلا تردّد وبلا حجاب وبلا تخوف وبلا تأثر، وبصفوةٍ صميمية، وبجدية خالصة،

(١) التتون: التبغ والتدخين.
(٢) أي بلا خجل.
(٣) أي إلى خداعه.
(٤) أي خلاف الواقع.

وبطرزٍ يحرِّك أعصاب خصومه بتزييف عقولهم وتحقير نفوسهم وكسر عزّتِهم، بأسلوب شديد عُلوي. فهل يمكن تداخل الحيلة في مثل هذه الدعوى من مثل هذا الشخص في مثل هذه الحالة المذكورة؟ كلَّا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٤).

نعم، إن الحقَّ أغنى من أن يُدلِّس، ونظر الحقيقة أعلى من أن يُدلَّس عليه! نعم، إن مسلكه الحق مستغنٍ عن التدليس، ونظرهُ النَقَّاد منـزّه من أن يلتبس عليه الخيال بالحقيقة.

الرشحة العاشرة

انظر واستمع ما يقول! ها هو يبحث عن حقائقَ مدهشة عظيمة، ويُنذر البشر ويبحث عن مسائل جاذبة للقلوب، لازمةٍ جالبة للعقول إلى الدقة[١] فيبشّر البشر. ومن المعلوم أن شوقَ كشفِ حقائق الأشياء قد ساق الكثيرين من أهل «المَرَق»[٢] إلى فداء الأرواح. ألا ترى أنه لو قيل لك: إن أفديتَ نصفَ عمركَ أو نصف مالك، لَنـزل من القمر أو المشتري شخصٌ يخبرك بغرائب أحوالهما ويخبرك بحقيقة استقبالك، أظنك ترضى بالفداء؟ فيا للعجب! ترضى لدفع «مَرَقِك» بترك نصف العمر والمال، ولا تهتم بما يقول هذا ويصدِّقه إجماعُ أهل الشهود وتواترُ أهل الاختصاص من الأنبياء والصديقين والأولياء والمحققين؛ فيبحث عن شؤون سلطانٍ: ليس القمرُ في مملكته إلّا كذبابٍ يطير حول فَراشٍ، يطير ذلك الفراشُ حول سِراجٍ من القناديل التي أسرجَها في منـزلٍ أعدّه لضيوفه المسافرين من ألوفِ منازله! وكذا يخبر عن عالمٍ هو محل الخوارق والعجائب، وعن انقلاب عجيب، فرضا لو انفلقت الأرضُ وتطايرت جبـالُها كالسحاب ما ساوتْ عُشر معشار عَشِير غرائبِ ذلك الانقلاب.

فإن شئت فاستمع من لسانه أمثالَ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ و ﴿ ٱلْقَـارِعَةُ ﴾ .. وكذا يخبر بتحقيقٍ عن استقبالٍ ليس الاستقبالُ الدنيوي بالنسبة إليه إلّا كقطرةِ سرابٍ بلا طائلٍ بالنسبة إلى بحر بلا ساحل.. وكذا يبشّر عن شهودٍ بسعادةٍ ليست السعادةُ الدنيوية بالنسبة إليها إلا كبرقٍ زائل بالنسبة إلى شمسٍ سرمدية.

---

(١) أي الملاحظة والتدبر وإنعام النظر.

(٢) أي الولع واللهفة والرغبة الملحة والاهتمام والفضول. ويستعملها الأستاذ في أماكن متفرقة ويعقبها بمعناها العربي.

نعم، تحت حجاب هذه الكائنات -ذاتِ العجائب- عجائبُ، تنتظرنا وتنظر إلينا. ولابد لإخبار تلك العجائب والخوارق [من] شخصٍ عجيب خارق يشاهِد ثم يشهَد، ويُبصِر ثم يُخبر.

نعم، نشاهد من شؤونه وأطواره أنه يشاهِد ثم يشهَد، فينذر ويبشّر. وكذا يخبر عن مرضيات رب العالمين ومَطالبه منّا وهكذا.. من عظائم مسائل لا مفرّ منها، وعجائبِ حقائقَ لا منجا منها، ولا سعادة بدونها.

فيا حسرةً على الغافلين! ويا خسارةً على الضالين! ويا عجبا من بلاهة أكثر الناس! كيف تَعامَوا عن الحق وتصامّوا عن هذه الحقيقة! لا يهتمون بمثل هذا الذات في عجائبه، مع أن من شأن مثله أن تُفدى له الأرواحُ ويُسرع إليه بترك الدنيا وما فيها.

الرشحة الحادية عشرة

اعلم أن هذا الشخص، المشهودَ لنا بشخصيته المعنوية، المشهور في العالم بشؤونه العلوية؛ كما أنه برهانٌ ناطقٌ صادقٌ على الوحدانية، ودليلٌ حقٌّ بدرجة حقانية التوحيد.. كذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الأبدية؛ بل كما أنه بدعوته وبهدايته سببُ حصولِ السعادة الأبدية ووسيلةُ وصولها.. كذلك هو بدعائه وعبوديته سببُ وجود تلك السعادة ووسيلةُ إيجادها.

فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمة وُسعَتها صيّرت هذه الجزيرة -بل الأرضَ- مصلين بتلك الصلاة الكبرى.. ثم انظر، إنه يصلي تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجةٍ كأنه هو إمام في محرابِ عصره واصطفّ خلفَه مقتدين به جميعُ أفاضل بني آدم، من آدم إلى هذا العصر إلى آخر الدنيا، في صفوف الأعصار مؤتَمّين به ومُؤَمِّنين على دعائه.. ثم استمع ما يَفعل في تلك الصلاة بتلك الجماعة؛ فها هو يدعو لحاجةٍ شديدةٍ عظيمةٍ عامةٍ بحيث يشترك معه في دعائه الأرضُ، بل السماء، بل كلُّ الموجودات، فيقولون بألسنة الأحوال: «نعم يا ربَّنا تقبل دعاءه، فنحن أيضا نطلبه، بل مع جميع ما تجلى علينا من أسمائك، نطلب حصول ما يطلب هو..». ثم انظر إلى طوره في طرز تضرعاته كيف يتضرّع بافتقارٍ

عظيمٍ في اشتياق شديد وبحزن عميق في محبوبية حزينة، بحيث يهيّج بكاءَ الكائنات فيُبكيها فيُشركُها في دعائه.. ثم انظر، لأيّ مقصدٍ وغاية يتضرع؛ ها هو يدعو لمقصدٍ لولا حصول ذاك المقصد لسقط الإنسان بل العالم بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى. وبمطلوبه تترقى الموجوداتُ إلى مقاماتِ كمالاتها.. ثم انظر، كيف يتضرع باستمدادٍ مديد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرشَ والسماوات، ويهيّج وجدَها، حتى كأنه يقول العرشُ والسماوات: «آمين اَللَّهُمَّ آمين».. ثم انظر، ممّن يطلب مسؤولَه؟ نعم، يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم، الذي يَسمع أخفى دعاءٍ من أخفى حيوانٍ في أخفى حاجة، إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أملٍ في أدنى ذي حياة في أدنى غاية؛ إذ يوصله إليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة، ويُكرم ويَرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم؛ لا يبقى ريب في أن هذه التربية والتدبير مِن سميعٍ عليم ومن بصير حكيم.

الرشحة الثانية عشرة

فيا للعجب! ما يطلب هذا الذي قام على الأرض وجمَعَ خلفَه جميعَ الأنبياء، أفاضلِ بني آدم، ورَفَع يديه متوجها إلى العرش الأعظم، ويدعو دعاءً يُؤمِّن عليه الثقلان، ويُعلَم من شؤونه أنه شرفُ نوعِ الإنسان، وفريدُ الكون والزمان، وفخرُ هذه الكائنات في كل آن؛ ويَستشفع بجميع الأسماء القدسية الإلهية المتجلية في مرايا الموجودات، بل تدعو وتطلب تلك الأسماءُ عينَ ما يطلب هو. فاستمع! ها هو يطلب البقاءَ واللقاء والجنة والرضاء. فلو لم يوجَد ما لا يُعد من الأسباب الموجبة لإعطاء السعادة الأبدية من الرحمة والعناية والحكمة والعدالة المشهودات -المتوقفِ كونُها رحمة وعناية وحكمة وعدالة على وجود الآخرة، وكذا جميع الأسماء القدسية، أسبابٌ مقتضية لها- لكفى دعاءُ هذا الشخص النوراني لأن يبني ربُّهُ له ولأبناء جنسه الجنةَ، كما يُنشئ لنا في كل ربيع جِنانا مزينة بمعجزاتِ مصنوعاته.

فكما صارت رسالته سببا لفتح هذه الدار الدنيا للامتحان والعبودية، كذلك صار دعاؤه في عبوديته سببا لفتح دار الآخرة للمكافأة والمجازاة.

فهل يمكن أن يتداخل في هذا الانتظام الفائق، وفي هذه الرحمة الواسعة، وفي هذه الصنعة الحسنة بلا قصور، وفي هذا الجمال بلا قبح، بدرجةٍ أنطق أمثال الغزالي بـ«ليس في الإمكان أبدع مما كان».. وأن تتغير هذه الحقائق بقبحٍ خشين، وبظلم مُوحش، وبتشوش عظيم؛ إذ سماعُ أدنى صوت في أدنى خلق في أدنى حاجة وقبولُها بأهميةٍ تامة، مع عدم سماع أرفَع صوتٍ ودعاءٍ في أشد حاجة، وعدمُ قبولِ أحسنِ مسؤول، في أجمل أمل ورجاء؛ قبحٌ ليس مثله قبح، وقصورٌ لا يساويه قصور، حاشا ثم حاشا وكلّا.. لا يَقبل مثلُ هذا الجمال المشهود بلا قصور مثلَ هذا القبح المحض، وإلّا لانقلبت الحقائقُ بانقلاب الحُسن الذاتي قبحا ذاتيا.

الرشحة الثالثة عشرة

يا رفيقي في هذه السياحة العجيبة، ألا يكفيك ما رأيت؟ فإن أردتَ الإحاطة فلا يمكن، بل لو بقينا في هذه الجزيرة مائة سنة ما أحطنا ولا مَلِلْنا من النظر بجزءٍ واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه، وغرائب إجراآته.. فلنرجع قهقريا، ولننظر عصرا عصرا، كيف اخضرّت تلك العصور واستفادت من فيض هذا العصر؟

نعم، نرى كلَّ عصرٍ نمرُّ عليه قد انفتحت أزاهيرُه بشمس عصر السعادة، وأثمَر كلُّ عصرٍ من أمثال أبي حنيفة،(*) والشافعي،(*) وأبي يزيد البسطامي،(*) والجنيد البغدادي،(*) والشيخ عبد القادر الكيلاني(*) والإمام الغزالي، ومحيي الدين بن عربي،(*) وأبي الحسن الشاذلي،(*) والشاه النقشبند،(*) والإمام الرّبّاني ونظائرهم ألوفَ ثمراتٍ منورات من فيض هداية ذلك الشخص النوراني.

فلنؤخر تفصيلات مشهوداتنا في رجوعنا إلى وقت آخر.

ونصلي ونسلم على هذا الذات النوراني، ذي المعجزات، أعني سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام:

اَللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلٰى هٰذَا الذَّاتِ النُّورَانِيِّ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ
مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مِنَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَعْنِي سَيِّدَنَا مُحَمَّدا
أَلْفَ أَلْفِ صَلَاةٍ وَأَلْفَ أَلْفِ سَلَامٍ بِعَدَدِ حَسَنَاتِ أُمَّتِهِ.

عَلٰى مَنْ بَشَّرَ بِرِسَالَتِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَبَشَّرَ بِنُبُوَّتِهِ الْإِرْهَاصَاتُ وَهَوَاتِفُ
الْجِنِّ وَأَوْلِيَاءُ الْإِنْسِ وَكَوَاهِنُ الْبَشَرِ، وَانْشَقَّ بِإِشَارَتِهِ الْقَمَرُ..
سَيِّدِنَا وَمَوْلاٰنَا مُحَمَّدٍ أَلْفُ أَلْفِ صَلَاةٍ وَأَلْفُ أَلْفِ سَلَامٍ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ أُمَّتِهِ.

عَلٰى مَنْ جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الشَّجَرُ، وَنَزَلَ سُرْعَةً بِدُعَائِهِ الْمَطَرُ، وَأَظَلَّتْهُ الْغَمَامَةُ مِنَ الْحَرِّ، وَشَبِعَ مِنْ صَاعٍ مِنْ طَعَامِهِ مِئَاتٌ مِنَ الْبَشَرِ، وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كَالْكَوْثَرِ، وَسَبَّحَ فِي كَفَّيْهِ الْحَصَاةُ وَالْمَدَرُ، وَأَنْطَقَ الله لَهُ الضَّبَّ وَالظَّبْيَ وَالذِّئْبَ وَالْجِذْعَ وَالذِّرَاعَ وَالْجَمَلَ وَالْجَبَلَ وَالْحَجَرَ وَالشَّجَرَ صَاحِبِ الْمِعْرَاجِ وَمَا زَاغَ الْبَصَرُ... سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا وَشَفِيعِنَا مُحَمَّدٍ أَلْفُ أَلْفِ صَلَاةٍ وَأَلْفُ أَلْفِ سَلَامٍ بِعَدَدِ كُلِّ الْحُرُوفِ الْمُتَشَكِّلَةِ فِي الْكَلِمَاتِ الْمُتَمَثِّلَةِ بِإِذْنِ الرَّحْمٰنِ فِي مَرَايَا تَمَوُّجَاتِ الْهَوَاءِ عِنْدَ قِرَاءَةِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ قَارِئٍ مِنْ أَوَّلِ النُّزُولِ إِلٰى آخِرِ الزَّمَانِ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا يَا إِلٰهَنَا بِكُلِّ صَلَاةٍ مِنْهَا آمِينَ آمِينَ آمِينَ.

* * *

اعلم[1] أن دلائل النبوة الأحمدية لا تعد ولا تحصى، وقد ذكرنا قسما منها في «الكلمة التاسعة عشرة» و«المكتوب التاسع عشر». فمع شهادة «معجزاته» البالغة إلى ألف، ومع شهادة «القرآن» البالغِ وجوهُ إعجازه إلى أربعين، السابقِ تفصيلها في «الكلمة الخامسة والعشرين» على رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام.. كذلك تشهد هذه «الكائناتُ» بآياتها على نبوته؛ إذ كما أن في هذه المصنوعات المبثوثة في الكائنات آياتٌ لا تُحد تشهد على وحدانية الذات الأحدية.. كذلك فيها بيّنات لا تعد، تشهد على رسالة الذات الأحمدية عليه الصلاة والسلام؛

منها: كمال حسن الصنعة؛ إذ كمال حُسن الصنعة في هذه المصنوعات يدل على الرسالة الأحمدية دلالة قطعية؛ لأن جمال هذه المصنوعات المزيَّنات يُظهِر للناظر حُسنَ صنعةٍ وزينةٍ

(١) هذا البحث القيم في دلالة الكائنات بحث مستقل عن «الرشحات» ترجمه الأستاذ النورسي إلى التركية وجعله «النقطة الثالثة من الكلمة الثامنة عشرة».

بالمشاهدة.. وأن حسن الصنعة وزينة الصورة يدلان بالبداهة على أن في صانعها إرادةَ تحسينٍ وطلبَ تزيينٍ في غاية القوة.. وأن إرادة التحسين وطلبَ التزيين يدلان بالضرورة على أن في صانعها محبةً عُلويةً لصنعته، ورغبةً قدسية لإظهار كمالاتِ صنعته.. وأن تلك المحبة والرغبة تدلان بالقطع على أن الإنسان الذي هو أكمل المصنوعات وأبدعها وأجمل المخلوقات وأجمعها، هو المظهرُ الجامعُ والمدارُ البارعُ لتلك المحبة والرغبة، وهو الذي تتمركزان فيه.. وأن الإنسان لكونه أجمع وأبدع المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الخلقة، أي هو لها كثمرةٍ ذات شعور.. فلكونه كالثمرة، فهو ما بين أجزاء الكائنات جزء أجمعُ وأبعدُ من جميع الأجزاء.. فلكونه أجمعَ وأبعدَ وذا شعور، فله نظرٌ عام وشعور كلي.. فلكون نظره عاما يرى مجموع شجرة الخلقة.. ولكون شعوره كليا يعرف مقاصد الصانع، فهو المخاطَب الخاص للصانع.. فلكون عموم النظر وكلية الشعور سببا لخصوصية الخطاب، فالفرد الذي يَصرِف كلَّ نظرهِ العامِ وعمومَ شعوره الكلي إلى التعبد للصانع والتحببِ إليه والمحبة له، ويوجِّه تمامَ شعورِه ودقةِ نظره إلى استحسان صنعة الصانع وتقديرها وتشهيرها، ويَستعمِل جميعَ نظره وشعوره ومجموعَ قوّته وهمّته إلى شكر نعمةِ ذلك الصانع الذي يطلب الشكر في مقابلة إنعامه، وإلى دعوة الناس كافةً إلى التعبد والاستحسان والشكر. فبالبداهة يكون ذلك الفردُ الفريد هو المخاطبَ المقرَّبَ والحبيبَ المحبَّب..

فيا أيها الناس! هل يمكن عندكم أن لا يكون محمّد عليه الصلاة والسلام ذلك الفردَ الفريد؟ وهل يستطيع تاريخكم أن يُظهر فردا آخر أليقَ بهذا المقام من محمّد عليه الصلاة والسلام؟ فيا مَن له بصر بلا رَمَد، وبصيرة بلا عمى! انظر إلى عالم الإنسان في هذه الكائنات، حتى تشاهد بالعيان دائرتين متقابلتين، ولوحين متناظرين:

فأما إحدى الدائرتين، فدائرةُ ربوبيةٍ محتشمة منتظمة في غاية الاحتشام والانتظام. وأما أحد اللوحين فلوح صنعةٍ مصنَّعٍ مرصّع في غاية الإتقان والاتزان.

وأما الدائرة الأخرى فهي دائرة عبوديةٍ منوّرة مزهرة في غاية الانقياد والاستقامة. وأما اللوح الآخر، فهو لوحُ تفكرٍ واستحسان في غاية الوُسعَة، وصحيفةُ تشكُّرٍ وإيمان في غاية الجمع.

فإذ شاهدتَ هاتين الدائرتين وهذين اللوحين، فانظر إلى مناسبة الدائرتين واللوحين حتى تشاهِد بالعيان أن دائرة العبودية تتحرك جميعُ جهاتها باسم الدائرة الأولى، وتعمل بجميع قوتها بحسابها، وحتى تشاهد بأدنى دقة أن لوح التفكر والتشكُّر والاستحسان والإيمان ينظر بجميع معانيه وإشاراته إلى لوح الصنعة والنعمة.

فإذ شاهدتْ عينُك هذه الحقيقةَ فهل يمكن لعقلك أن ينكر أعظَم المناسبة بين رئيس دائرة العبودية وصاحب دائرة الربوبية؟ وهل يجوز لقلبك أن لا يوقن بأن ذلك الرئيس الذي يَخدم بالإخلاص لمقاصد الصانع في تشهير صنعته وتقديرها، له مناسبة عظيمة مع الصانع، وانتساب قوي إليه، وله معه مكالمة، ومنه إليه رسالة؟ نعم، فبالبداهة يُعْلَمُ أنه محبوبٌ مقبولٌ عند مالك الملك بل أحب الخلق إليه وأقربهم منه.

فيا أيها الإنسان! هل يمكن في عقلك أن لا يباليَ ولا يهتمَّ صانعُ هذه المصنوعات المزيّنات بأنواع المحاسن، ومُنعِمُ هذه النعم، المُراعي لدقائق الأذواق في أفواه الخلق، بمثل هذا المصنوع الأجمل الأكمل المتوجه إليه بكمال الاشتياق والتعبد والتحبب، وبمثل هذا المخلوق الذي أطربَ الفرشَ والعرشَ بوَلْوَلة استحساناته، ودمدَمة تقديراته، لمحاسن صنعة ذلك الصانع، واهتز البرُّ والبحرُ جذبةً من زَمْزَمَة تشكّراته لإحسانات ذلك الفاطر، ومن شَعْشَعَة تكبيراته لعظمة ذلك الخالق المنعم؟

فهل يمكن أن لا يبالي مثلُ ذلك الصانع المُحسن المقتدر بمثل هذا المصنوع المستحسِن المتشكِّر؟ وهل يمكن أن لا يتوجهَ إليه؟ وهل يمكن أن لا يتكلم معه؟ وهل يمكن أن لا يحبه؟ وهل يمكن أن لا يقرّبه إليه؟ وهل يمكن أن لا يريد سرايَة وَضْعِيَّته الحَسنة وحالته الجميلة إلى عموم الخلق؟ وهل يمكن أن لا يجعله قدوةً للناس حتى ينصبغوا بصبغته ووضعيته وحالته؟ وهل يمكن أن لا يجعله رسولا إلى الناس كافة؟

أم هل يمكن أن لا يكون لصانع هذه المصنوعات المنتظمةِ الدالةِ نقوشُ صنعتها على علم بلا نهاية وعلى حكمة بلا غاية، شعورٌ واطلاع على الفرد الأكمل والأجمل من مصنوعاته..؟ أم هل يمكن أن يعلَم ويبصر ولا يتكلم معه..؟ أم هل يمكن أن يتودد ويتعرف بتزيينات مصنوعاته، ولا يودّ ولا يعرف مَن يودّه كما يَحِق، ويعرفه كما يليق، ويتودد إليه بالصدق، ويتعبّد له بالحق..؟

الرشحة الرابعة عشرة

المتضمنة لقطرات من بحر المعجزة الكبرى

القطرة الأولى

اعلم أن دلائل النبوة الأحمدية لا تعد ولا تحد؛ ولقد صَنَّف في بيانها أعاظمُ المحققين. وأنا مع عجزي وقصوري قد بينتُ شعاعاتٍ من تلك الشمس في رسالة تركية مسماة بـ«شعاعات». وكذا بينتُ -إجمالا- وجوهَ إعجاز معجزته الكبرى (أي القرآن)؛ وقد أشرتُ بفهمي القاصر إلى مقدار أربعين وجها من وجوهِ إعجاز القرآن في «لمعات»،[1] وقد بينتُ من تلك الوجوه واحدا وهو البلاغة الفائقة النظمية في مقدار أربعين صحيفة من تفسيري العربي المسمى بـ«إشارات الإعجاز». فإن شئت فارجع إلى هذه الكتب الثلاثة.

القطرة الثانية

اعلم أنك قد تفهمتَ من الدروس السابقة أن القرآن الذي جاء من خالق هذه السماوات والأجرام العلوية وهذه الأرضِ والموجودات السفلية، ويعرّف لنا ربَّنا ربَّ العالمين، له مقامات ووظائف كثيرة.

فإن قلت: القرآن ما هو؟

قيل لك: هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسِّر كتاب العالَم.. وكذا هو كشافٌ لمخفياتِ كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المُضْمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.. وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.. وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.. وكذا هو مربٍّ للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المُهدي إلى ما خُلِقَ البشر له.. وكذا هو للإنسان كما أنه كتابُ شريعة، كذلك كتابُ حكمة.

(١) وترجمت إلى رسالة «اللوامع» المنشورة ملحقةً بمجلد الكلمات.

وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتابٌ واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمَنـزلٍ مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه قد أبرز لمَشربِ كلِّ واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلَكِ كل واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين، رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المَشرب وتنويره، ولمَساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل.

القطرة الثالثة

في بيان لمعة الإعجاز في تكرارات القرآن.[١] وفي هذه اللمعة ستة نقاط:

النقطة الأولى: اعلم أن القرآن لأنه كتابُ ذكرٍ وكتابُ دعاء وكتابُ دعوةٍ يكون تكرارُه أحسن وأبلغ بل ألزم. إذ الذكر يُكرَّر، والدعاء يُردَّد، والدعوة تُؤكَّد. إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد.

النقطة الثانية: اعلم أن القرآن خطاب ودواء لجميع طبقات البشر؛ من أذكى الأذكياء إلى أغبى الأغبياء؛ ومن أتقى الأتقياء إلى أشقى الأشقياء؛ ومن الموفقين المُجِدِّين الفارغين من الدنيا إلى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا. فإذن لا يمكن لكل أحد في كل وقتٍ قراءةُ تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحدٍ في كل وقتٍ. فلهذا أدرج الحكيمُ الرحيم أكثرَ المقاصد القرآنية في أكثر سُوَرٍ؛ لاسيما الطويلة، حتى صار كلُّ سورة قرآنا صغيرا، فسَهَّل السَبيلَ لكل أحدٍ. وينادي مشوِّقا: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧).

النقطة الثالثة: اعلم أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفة في الأوقات؛ فإلى بعضٍ في كل آن كالهواء، وإلى قسم في كل وقتِ حرارةِ المعدة كالماء، وإلى صنفٍ في كل يوم كالغذاء، وإلى نوع في كل أسبوع كالضياء، وإلى طائفة في كل شهر، وإلى بعض في كل سنة كالدواء، كلها في الأغلب، وقس عليها.. كذلك إن الحاجات المعنوية الإنسانية أيضا مختلفة الأوقات؛ فإلى قسم في كل آن كـ «هو» و«الله»، وإلى قسم في كل وقت كـ«بسم الله»، وإلى قسم في كل ساعة كـ«**لا إله إلا الله**» وهكذا فقس.

(١) المسألة العاشرة من «الشعاع الحادي عشر» توضح حكمة التكرار إيضاحا وافيا.

فتكرار الآيات والكلمات للدلالة على تكرّر الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها، ولتنبيه عِرق الاحتياج وإيقاظه، وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية.

النقطة الرابعة: اعلم أن القرآن مؤسِّس لهذا الدين العظيم المتين ولأساساته، وأساساتٍ لهذا العالم الإسلامي، ومقلِّب لاجتماعيات البشر ومحوِّلُها ومبدلُها. ولابد للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد.

وكذا إن القرآن فيه أجوبة لمكرَّراتِ أسئلةِ الطبقات المختلفة البشرية بألسنة الأقوال والأحوال.

النقطة الخامسة: اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها. فلابد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة.

النقطة السادسة: اعلم أن لكل آيةٍ ظهرا وبطنا وحدّا ومطّلعا، ولكل قصة وجوها وأحكاما وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضعٍ لوجهٍ، وفي آخر لأخرى، وفي سورةٍ لمقصدٍ وفي أخرى لآخر وهكذا، فعلى هذا لا تكرار إلا في الصورة..

القطرة الرابعة

في بيان لمعة الإعجاز في إهمال القرآن في بعض المسائل الكونية الفلسفية، وإبهامِه في بعضٍ آخر منها، وإجمالِه في قسم منها، وفي هذه اللمعة ست نكت:

النكتة الأولى: فإن قلت: لأي شيء لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة؟

قيل لك: لأن الفلسفة عدَلَت عن طريق الحقيقة فاستخدمَت الموجودات لأنفسها بـ«المعنى الاسمي». وأما القرآن فبالحق أُنزل وبالحق نَزَل، وإلى الحقيقة يذهب، فيستخدم الموجودات بالمعنى الحرفي لا لأنفسها بل لخالقها.

فإن قلت: لأي شيء أبهَم القرآنُ وأجملَ في أمثالِ ماهيةِ الأجرام العلوية والسفلية وشكلها وحركتها على ما بيّنها الفن؟.[١]

قيل لك: لأن الإبهامَ أهمُّ والإجمالَ أجملُ:

فأولا: لأن القرآن إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهرا وأظْهَر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه. فلو قال على ما يشتهيه أهل الفن: «يا أيها الناس، انظروا إلى الشمس في سكونها، وإلى الأرض في حركتها لتعرفوا عظمةَ قدرة خالقها»، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة، وأبعدَ بمراتبَ مِن فهم أكثر البشر في أكثر الأزمان والأعصار، مع أن حق الأكثر المطلق أهم في نظر الإرشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لا تنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقلِّ محروميةُ الأكثر في أكثر الأوقات.

وثانيا: إن من شأن البلاغة الإرشادية مماشاةَ نظر العموم، ومراعاةَ حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور؛ لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة. فأَبلغُ الخطاب معهم والإرشاد أن يكون ظاهرا بسيطا سهلا لا يُعجزهم، وجيزا لا يملهم، مُجملا فيما لا يلزم تفصيله لهم.

وثالثا: إنَّ القران لا يذكر أحوال الموجودات لها، بل لمُوجِدها.. فالأهم عنده أحوالها الناظرة إلى مُوجِدها. وأما فن الحكمة فتبحث عنها لها. فالأهم عنده أحوالها الناظرة إلى نفسها.. فشتان ما بين الثريا والثرى.

وكذا إنَّ التنـزيل يخاطب كل الناس ويراعى فهم الأكثر ليعرفوا تحقيقا لا تقليدا.. والفن يتكلم بالأصالة مع أهل الفن، وأما مع العموم فللتقليد. فما فصَّل فيه الفن -بشرط الصدق- لابد أن يُجمل فيه القرآن أو يُبهم أو يُهمل على درجات نفع العامة.

ورابعا: إنَّ القرآن لأنه مرشد لكل طبقات البشر تستلزم بلاغةُ الإرشاد أن لا يذكر ما يوقع الأكثرَ في المغلطة والمكابرة مع البدهيات في نظرهم الظاهري، وأن لا يغيّر بلا لزومٍ ما هو من المتعارَفات المحسوسة عندهم، وأن يُهمل أو يُجمل ما لا يلزم لهم في وظيفتهم الأصلية.

(١) أي العلوم الحديثة وتفصيل المسألة في «الشعلة الثانية من الكلمة الخامسة والعشرين».

مثلا: يبحث عن الشمس، لا للشمس ولا من ماهيتها، بل لمن نوّرها وجعلها سراجا، وعن وظيفتها بصيرورتها زنبركَ انتظامِ صنعةٍ، ومركزَ نظامِ خلقةٍ، ومكوكَ انسجامِ صنعةٍ في نسج النقاش الأزلي لهذه المنسوجات بخيوط الليل والنهار، في اختلاف الفصول، المفروشاتِ تلك المنسوجاتُ على وجه الأرض والسماء. ليعرّفنا القرآن بإراءة نظام النسج وانتظام المنسوجات كمالاتِ فاطرها الحكيم وصانعِها العليم. وحركةُ الشمس سواء كانت ظاهرية أو حقيقية، لا تؤثر في مقصد القرآن. إذ المقصد إراءة نسج النظّام الحكيم في ضمن إراءة جريان الشمس المشهود. فالنسج مشهود بكمال حشمته فلا يضره سكون الشمس في الحقيقة على ما يزعمه الفن..

النكتة الثانية: إنَّ القرآن يقول: ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٦) و ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ (يس:٣٨).

فإن قلت: لأي شيءٍ عبّر عن الشمس بالسراج، مع أنها عند الفن أعظم من أن تكون تابعةً للأرض، بل هي مركز الأرض مع السَّيَّاراتِ؟

قيل لك: إن في التعبير بالسراج تصويرَ العالم بصورةِ قصر؛ وتصويرَ الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازماتِ ذلك القصر ومزيِّناته ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، وإحساسَ أنه قد أحضرتْها لضيوفه وخدامِه يدُ كريمٍ رحيم. وما الشمس إلّا مأمورٌ مسخّر وسراج منوَّر. ففي تعبير السراج إخطارُ رحمةِ الخالق في عظمة ربوبيته، وإفهامُ إحسانه في وسعة رحمته، وإحساسُ كرمه في حشمة سلطنته، وإعلان وحدانيته بإراءة أعظمِ ما يتوهمه المشركُ معبودا؛ أنه ما هو إلا سراج مسخَّر. إذ أين السراج المسخر الجامد وأين لياقة العبادة؟

وفي تعبير الجريان إخطارُ التصرفات المنتظَمة العجيبة في ما بين اختلاف الليل والنهار ودوران الصيف والشتاء.. وفي إخطارها إفهامُ عظمةِ قدرةِ الصانع في إنفراده في ربوبيته.

فمن نقطتَي الشمس والقمر يوجه الذهن إلى صحائف الليل والنهار، والصيف والشتاء، ومنها إلى سطور الحادثات المكتوبة في أجوافها. فتعبير الجريان عنوان لهذه المعاني، فيكفي ظاهر العنوان ولا تعلُّقَ للمقصد بحقيقته.

فانظر إلى كلمات القرآن مع كونها سهلةً بسيطةً معروفةً؛ كيف صارت أبوابا ومفاتيحَ

لخزائنِ لطائفِ المعاني. ثم انظر إلى مُطَنْطَنَاتِ كلماتِ الحكمة الفلسفية كيف أنها مع شَعْشَعَتها لا تفيدك كمالا علميا ولا ذوقا روحيا، ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية. بل إنما تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضيء في أودية الكثرة المظلمة. فاستمع بعض ما يقول الفلسفي في الشمس يقول:

«هي كتلة عظيمة من المائع الناري أعظم من أرضنا بمليون وثلاثمائة ألف مرة، تدور على نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى. فتدور هذه الأجرام العظيمة المختلفة في الجسامة، والقربِ من الشمس والبعدِ منها، بالجاذب العمومي حول الشمس في الفضاء الخالي. فإنْ خرج أحدها من مداره بالتصادف بحادثة سماوية كمرور النجم ذي الذنَب به لحصل هرْجٌ ومرْجٌ في المنظومة الشمسية، وفي الدنيا بدرجة تتدهش منه السماوات والأرض».

فانظر إلى نفسك ما أفادتك هذه المسألة؟.. فيا سبحان الله! كيف تَقلِب الضلالةُ شكلَ الحقيقة، وما «الشمس مع سياراتها، إلّا مصنوعةٌ موظفةٌ ومخلوقةٌ مسخرةٌ بأمر فاطرها الحكيم وبقوة خالقها القدير. وما هي -مع عظمتها- إلّا قطرة متلمعة في وجه بحر السماء يتجلى شعاع من اسم «النور» عليها».

والفلاسفة لو أدرجوا في مسائلهم قبسا من القرآن فقالوا: «يفعل الله بهذه الأجرام المدهشة الجامدة وظائف في غاية الانتظام والحكمة، وهي في غاية الإطاعة لآمره»، لكان لِعِلْمِهِمْ معنىً، وإلّا بأن أسندوا إلى أنفسها وإلى الأسباب صاروا كما قال القرآن: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١) وقس على هذه المسألة سائر المسائل.

النكتة الثالثة: اعلم أن مقاصد القرآن الأساسيةَ وعناصرَه الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوتَ المقصد. فلهذا قد أَبهَم وقد أهمَل وقد أجمل القرآنُ في بعض المسائل الكونية. وكذا إن الأكثر المطلق من مخاطبي القرآن عوامٌّ، وهم لا يقتدرون على فهم الحقائق الغامضة الإلهية بدون

توسيط التمثيل والتقريب بالإجمال، ولا يستعدون في كل وقت لمعرفة مسائلَ لم يصل إليها بعدَ القرون الطويلة إلّا قليلٌ من الفلاسفة. فلهذا أكثرَ القرآنُ من التمثيل. ومن التمثيل بعضُ المتشابهات فإنها تمثيلات لحقائق غامضة إلهية. وأجملَ فيما كشفه الزمانُ بعد عصور وبعد حصولِ مقدماتٍ مرتَّبة.

النكتة الرابعة: اعلم أنه كما أن الساعة غير ثابتة بل متزلزلةٌ مضطربةُ الآلات، كذلك الدنيا التي هي ساعة كبرى أيضا متزلزلة. فبإدراج الزمان فيها صار «الليلُ والنهار» كمِيلَين يَعُدّان ثوانيها، و«السنةُ» إبرةً تَعدّ دقائقَها، و«العصر» كإبرة تعد ساعاتها. وبإدراج المكان فيها صار «الجو» -بسرعةِ تغيّره وتحوّله وتزلزُله- كمِيل الثواني، و«الأرضُ» -بتبدل وجهها نباتا وحيوانا، موتا وحياة- كميل الدقائق، وبتزلزل بطنها وتولُّد «جبالِها» كميل الساعات، و«السماء» -بتغيراتها بحركات أجرامها وظهور ذوي الأذناب، والكسوفات والشهابات- كالميل الذي يعدُّ الأيام.

فالدنيا المبنية على هذه الأركان السبعة -مع أنها واصفة لشؤونات الأسماء ولكتابة قلم القدرةِ والقَدَر- فانية هالكة متزلزلة راحلة كالماء السيال في الحقيقة، لكن تجمدت صورةً بالغفلة، وتكدرت بالطبيعة فصارت حجابا عن الآخرة. فالفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جمودتها وكدورتها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعيّة. وأما القرآن فينفُش الدنيا كالعهن بآياته، ويشففها[1] ببيناته، ويذيبها بنيراته، ويمزّق أبديتها الموهومة بنَعَيَاته، ويفرّق الغفلة المولدة للطبيعة برعداته. فحقيقة الدنيا المتزلزلةِ تَقرأ بلسان حالها المذكورة آيةَ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

فلهذا أجمل القرآن فيما فصّلتْ فيه الفلسفةُ من ماهيات الأشياء وخواصها.. وفصّل فيما أجملتْ أو أهملت فيه من وظائفها في امتثال الأوامر التكوينيةِ، ودلالاتها على أسماء فاطرها وأفعاله وشؤونه.

الحاصل: أن القرآن يبحث عن معاني كتاب الكائنات ودلالاتها، أما الفلسفة فإنما تبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها. ولا تعرف أن الموجودات كلماتٌ تدل

(١) أي يجعلها شفافة.

على معانٍ. فإن شئت أن ترى فرق حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن فراجع ما في بيان آيةِ ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩).

النكتة الخامسة: [تحال إلى الأنوار الثلاثة من الشعلة الثانية للكلمة الخامسة والعشرين (المعجزات القرآنية) حيث تتضمن هذه النكتة آياتٍ كثيرةً جدا والمقام هنا ليس مقامَ إيضاح].[1]

النكتة السادسة: **اعلم** أنه يفهم من هذه النكتة السابقة أن القرآن إنما يَنظر إلى وجوه دلالات الآثار على أفعاله تعالى، وإلى وجوه إظهار الأفعال لأسمائه سبحانه، وإلى صور انصباب الأفعال إلى الأسماء أو جريانها من الأسماء، وإلى وجوه إحاطة الأسماء التي هي أشعة الصفات بالأشياء.

الحاصل: أنَّ القرآن إنما ينظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى فاطرها؛ وأما الفلسفة فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها، وغايتِها الناظرة إلى مصالحَ جزئيةٍ فلسفية أو صنعوية. فما أجهلَ مَن اغتر بالفنون الفلسفية، وصيَّرها مِحَكّا لمباحث القرآن القدسية. ولقد صدق من قال: «إن الفنون جنون كما إن الجنون فنون».[2]

القطرة الخامسة

اعلم أن مِن لمعات إعجاز القرآن كما ذكرتُ في «حبة» أنه جَمَع السلاسةَ الرائقة والسلامة الفائقة، والتساندَ المتين والتناسبَ الرصين، والتعاونَ بين الجمل وهيئاتها، والتجاوبَ بين الآيات ومقاصدها، بشهادة علم البيان وعلم المعاني، مع أنه نزل في عشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات، نزولا متفرقا متقاطعا مع كمال التلاؤم كأنه نزل دفعة، ولأسبابِ نزولٍ مختلفة متباينة مع كمال التساند كأن السبب واحد. وجاء جوابا لأسئلة مكررة متفاوتة مع نهاية الامتزاج والاتحاد كأن السؤال واحد. وجاء بيانا لحادثاتِ أحكام متعددة متغايرة مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة. ونزل متضمنا لتنـزلاتٍ إلهية في أساليبَ تُناسب أفهامَ المخاطَبين، لاسيما فهم المنـزل عليه عليه السلام بحالات في التلقي متنوعة متخالفة مع حسن التماثل والسلاسة؛ كأن الحالة واحدة. وجاء متكلما متوجها إلى أصنافِ مخاطبين متعددة

(١) هذه النكتة الخامسة موجودة بكاملها في الرسالة الأخيرة: «أنوار من نجوم القرآن».

(٢) تَذَكَّرَ نَجْدا والحديثُ شُجونُ * فَجُنَّ اشْتِيَاقا والجُنُوْنُ فُنُونُ. (مجمع الأمثال، ١/ ٣٠١).

متباعدة مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام، كأن المخاطبَ واحد، بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب بالأصالة. ونزل مُهديا وموصلا لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة مع كمال الاستقامة والموازنة والنظام كأن المقصد واحد. فمن كانت له عين سليمة في بصيرته، فلا ريب أنه يرى في القرآن عينا ترى كل الكائنات ظاهرا وباطنا كصحيفة مبصَرةٍ واضحةٍ يقلّبها كيف يشاء، فيعرِّف معانيها على ما يشاء.

القطرة السادسة

في بيان أنه لا يقاس القرآن على سائر الكلام، كما ذكرت في رسالة «قطرة».

اعلم أن منابع علوِّ طبقةِ الكلام وقوّته وحسنه وجماله أربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط كما ضلَّ فيه الأدباء. فانظر إلى مَن قال؟ ولمن قال؟ ولِمَ قال؟ وفيمَ قال؟ فالكلام إن كان أمرا ونهيا فقد يتضمن الإرادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف عُلويته وقوته.

نعم، أين صورةُ أمرِ فضولي ناشئٍ أمرُه من أماني التمني وهو غير مسموع، وأين الأمر الحقيقي النافذ المتضمن للقدرة والإرادة؟ فانظر، أين ﴿ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ (هـود:٤٤). ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١)، وأين خطاب البشر للجمادات بصورة هذيانات المبرسَمين[١] في المرض: «اسكني يا أرض وانشقي يا سماء وقُومي أيها القيامة»؟. وكذا، أين أمرُ أميرٍ مطاع لجيش عظيم مطيع بـ«آرْش!»[٢] واهجُموا على أعداء الله، وأين هذا الأمر إذا صدر من حقير لا يُبالَى به وبأمره؟ أين ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢)، وأين كلام البشر؟ وكذا أين تصويرُ مالكٍ حقيقي، وآمِرٍ مؤثرٍ أمرُه، ونافذٍ حكمُه، وبيانُ صانعٍ وهو يصنع، ومنعمٍ وهو يحسن قد شرع في آن الصنعة والإحسان يصوّر أفاعيله؛ يقول: فعلتُ كذا وكذا، وأفعلُ هذا وذاك. انظر إلى ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۞ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۞

(١) المبرسم: الذي أصيبت بالبرسام، والبِرسام ـ بالكسر: علّة يُهذَى فيها. وعن علي رضي الله عنه: «لا يجوز طلاق مَعتوه ولا مُبَرْسَم ولا صاحب هذيان».

(٢) آرش: إيعاز عسكري يعني تقدّم للهجوم.

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:٦-١١). ثم أين تصويرُ فضوليٍّ في بحثه عن أفاعيلَ لا تماسَّ له بها؟

نعم، أين أعيان النجوم؛ ثم أين تماثيلها الصغيرة السيالة -التي لا هي موجودة ولا معدومة- المرئيةُ في الزجَيْجات؟

نعم، أين ملائكةُ كلمات كلام خالق الشمس والقمر الملهمة لأنوار الهداية؛ ثم أين زنابير مزوّرات البشر النفاثات في عقد الهوسات؟

نعم، أين ألفاظ القرآن التي هي أصدافُ جواهر الهداية، ومنبع الحقائق الإيمانية، ومعدن الأساسات الإسلامية المنبثة من عرش الرحمن مع تضمن تلك الألفاظ للخطاب الأزلي وللعلم والقدرة والإرادة؛ ثم أين ألفاظ الإنسان الهوائية الواهية الهوسية؟

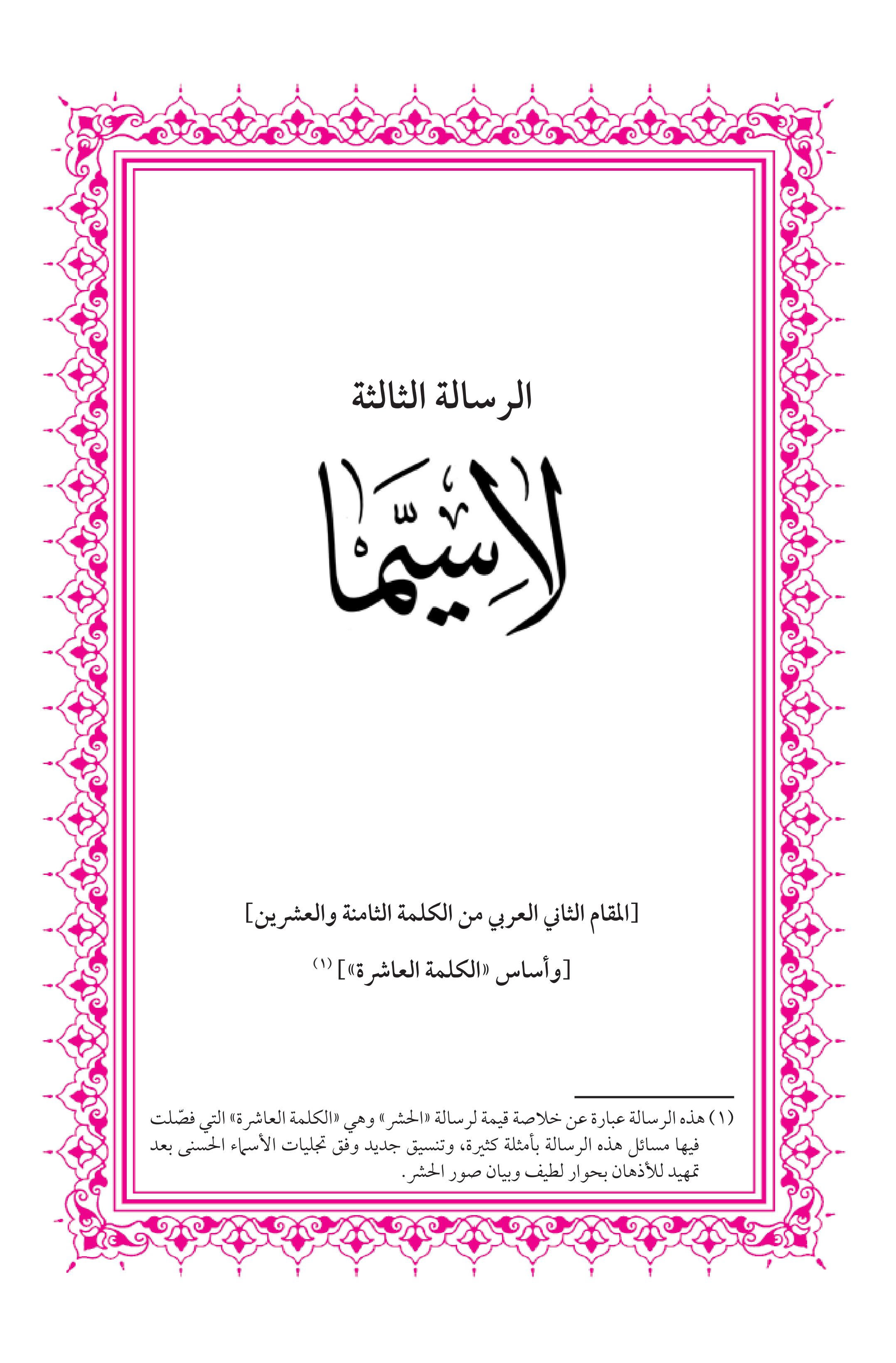
نعم، أين القرآن الذي هو كشجرة تفرعت وأورقت وأزهرت وأثمرت هذا العالم الإسلامي بمعنوياته وشعائره وكمالاته ودساتيره وأصفيائه وأوليائه، حتى انقلب كثير من نواة تلك الشجرة الطوبائية دساتيرَ عملية وأشجارا مثمرة الذي قيل في حقه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) وقد أفحم بجزالة نظمه وبلاغة معناه، وبداعة أسلوبه، وبراعة بيانه، وفصاحة لفظه، في جامعية اللفظ لوجوه كثيرة مقبولة، وحُسنِ دلالته في جامعيته لبحر هذه الشريعة المتضمنة للحقيقة والطرائق بمأخذ المجتهدين، وأذواق العارفين، ومشارب الواصلين، ومسالك الكاملين، ومذاهب المحققين.. وبطراوة شبابيته في كل عصر، وبلياقته وموافقته في كل عصر لكل طبقة. وألزَم مصاقع الخطباء ونوابغ العلماء، بل أعجز جميعَ البشر أن يأتوا بسورة من مثله؛ ثم أين كلام البشر؟ أين الثرى من الثريا!

اَللّٰهُمَّ بحق القرآن وبحق مَن أُنزل عليه القرآن نوّر قلوبنا بنور القرآن، واجعل القرآن شفاءً لنا من كل داءٍ، ومونسا لنا في حياتنا وبعد مماتنا، واجعله لنا في الدنيا قرينا، وفي القبر مونسا، وفي القيامة شفيعا، وعلى الصراط نورا، ومن النار سترا وحجابا، وإلى الجنة رفيقا، وإلى الخيرات دليلا وإماما، بفضلك وجمدك وكرمك وإحسانك ورحمتك،

يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين.

وصل وسلم على من أنزلت عليه القرآن وأرسلته رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه صلاةً تُرضيك وترضيه وتَرضى بها يا رب العالمين..

فيا منـزل القرآن، بحق القرآن اجعل هذا الكتاب نائبا عني ناطقا بهذا الدعاء بدلا عني إذا أسكتَ الموتُ لساني آمين. ألف آمين..



الرسالة الثالثة

الأسماء

[المقام الثاني العربي من الكلمة الثامنة والعشرين]

[وأساس «الكلمة العاشرة»] [1]

---

(١) هذه الرسالة عبارة عن خلاصة قيمة لرسالة «الحشر» وهي «الكلمة العاشرة» التي فصّلت فيها مسائل هذه الرسالة بأمثلة كثيرة، وتنسيق جديد وفق تجليات الأسماء الحسنى بعد تمهيد للأذهان بحوار لطيف وبيان صور الحشر.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شهدتْ على وجوب وجوده ووحدته ذراتُ الكائنات ومركباتُها بلسان عجْزها وفقرها. والصلاة والسلام على نبيّه الذي هو كشاف طلسمِ الكائنات ومفتاحُ آياتها، وعلى آله وصحبه وعلى إخوانه من النبيين والمرسَلين وعلى الملائكة المقربين، وعلى عباد الله الصالحين من أهل السماوات والأرضين.

اعلم يا من سَدَّت عليه الطبيعةُ والأسباب بابَ الشكر، وفتحتْ له باب الشرك! إنَّ الشرك والكفر والكُفرانَ تأسست على محالاتٍ غير محدودة، فانظر من تلك المحالات إلى هذا المحال الواحد:

وهو أن الكافر إذا ترك شُكْر الجهالة ونظر إلى كفره بعين العلم، يَضطر -للإذعان بكفره- أن يحمل على ظهر ذرةٍ واحدةٍ ألفَ قنطار، وأن يقبل في كل ذرةٍ ذرّةٍ ملايينَ مطبعاتٍ للطبيعة، واطلاعا -مع مهارة- على جميع دقائقِ الصنعة في جميع المصنوعات؛ إذ كلُّ ذرة من الهواء -مثلا- تصلُح أن تمرّ على كل نباتٍ وزهرة وشجرة وثمرة، وأن تعمل في بنيتها، فلابد لهذه الذرة والقوة البسيطة المستترة فيها -إن لم تكن مأمورةً، تعمل باسم مَن بيده ملكوت كل شيء- أن تعرف كيفيةَ جهازاتِ كلِ ما دخلت الذرةُ في بنيتها وكيفيةَ صنعته وتشكيله، مع أن الثمرة -مثلا- متضمنةٌ لمثال مصغر للشجر، وأن نواتها كصحيفةِ أعمال الشجر، وفيها تاريخُ حياتِه. فالثمرة تنظر إلى كل الشجرة بل إلى نوعها بل إلى الأرض أيضا. ومن هذه الحيثية فالثمرة -بعظمة صنعتها ومعناها- في جسامة صنعة الأرض بوجه، فمَن بناها بهذه العظمة المعنوية الصنعوية، لابد أن لا يعجزَ عن حمل الأرض وبنائها.

فيا عجبا للكافر المنكِر كيف يدّعي العقل والذكاوة مع أنه يتبطن -بكفره- في قلبه مثلَ هذا الحمق والبلاهة!

واعلم أن لكل شيء صورتين:

أما إحداهما: فمادية محسوسة كقميصة قُدّتْ على مقدار قامة الشيء بتقدير القَدَر بغاية الانتظام.

وأما الأُخرى: فمعقولة مركبة من أشتاتِ صُوَر الشيء في حركته في بحر الزمان، أو مرور نهر الزمان عليه، كصورة الدائرة النورانية المخيَّلة الحاصلة من جولان الشعلة، فهذه الصورة المعنوية للشيء هي تاريخ حياة الشيء، وهي مدارُ القَدَر المشهور، وهي المسماة بـ«مُقدَّرات الأشياء». فكما أن الشيء -كالشجرة مثلا- في الصورة المادية، له نهايات منتظمة مثمرة، وله غايات موزونة متضمنة لمصالح حِكَمية، كذلك له في صورته المعنوية أيضا نهايات منتظمة متضمنة لمصالح، وله حدود معينة تعينت لحِكَم خفية. فكأن القُدرة في الصورة الأولى كالباني، والقَدَر كالهندسة، وفي الثانية كالمصدر، والقَدَر كالمِسطَر.[1] فتكتب القدرةُ كتابَ المعاني على رسوم مِسطَر القدر.

فيا أيها الكافر! تضطر في كفرانك وكفرك -عند المراجعة إلى العلم والحقيقة- أن تقبل في كل ذرةٍ وقوّتِها الجزئية الصغيرة معرفةَ صنعةِ خياطةٍ بدرجةٍ تقتدر تلك الذرةُ -وطبيعة السببية- على أن تقُدّ وتخيط ألبسةً وأقمصة مختلفة متنوعة بعدد أشتات الأشياء التي يمكن أن تذهب إليها الذرة، مع اقتدارها على تجديد الصور المتخرقة بأشواك الحادثات في مرور الزمان، مع أن الإنسان -الذي هو ثمرةُ شجرة الخلقة وأقدر الأسباب -بزعمه- وأوسعُها اختيارا- لو جَمع كلَّ قابليةِ صنعةِ خياطته ثم أراد أن يخيط قميصا لشجرة ذاتِ أشواك على مقدار أعضائها، ما اقتدر. مع أن صانعَها الحكيم يُلبسها في وقتِ نَمائها أقمصةً متجددة منتظمة طرية لا تشففها الشمس، وحُللا خَضِرة متزينة موزونة، بكمال السهولة والسرعة بلا كُلفة ولا معالجة. فسبحان مَن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (يس:٨٢-٨٣).

اعلم أن للأحد الصمد على كل شيء سِكّةً وخاتما وآيةً، بل آياتٍ تشهد بأنه له وملكُه وصُنعه. فإن شئت فانظر -مما لا يحد ولا يعد من سكاتِ أحديتِه وخواتمِ صمديتِه- إلى هذه

(١) المِسطَر: ما يُسطِّر به الكُتّاب.

السكة المضروبة على صحيفة الأرض في فصل الربيع بمرصاد هذه الفقرات الآتية المتسلسلة المتعانقة المتداخلة، لترى السكةَ كالشمس في رابعة النهار.

وهي: أنا نشاهد في صحيفة الأرض إيجادا بديعا حكيما: في جُودٍ واسع عظيم في سخاوة مطلقة في إتقان مطلق، في سهولةٍ مطلقة في انتظام مطلق، في سرعة مطلقة في اتزان مطلق، في وُسعة مطلقة في حُسنِ صُنعٍ مطلق، في رخيصيةٍ مطلقة وقيمتُه في غلو مطلق، في خِلطة مطلقة في امتياز مطلق، في بُعدةٍ مطلقة في اتفاق مطلق، في كثرة مطلقة في أحسن خلقة.

على أن كلا من هذه الفقرات بانفرادها تكفي لإظهار السكة؛

إذ نهاية السخاوة نوعا مع غاية الإتقان وحسنِ الصنعة في فردٍ فردٍ، تختص بمَن لا يُشغلهُ شيء عن شيء، وله قدرة بلا نهاية.

وكذا إن نهاية السهولة مع غاية الانتظام، تختص بِمَن لا يُعجزه شيء، وله علم بلا نهاية.

وكذا إن نهاية السرعة مع غاية الاتزان والموزونية، تختص بمن استسلم كلُّ شيء لقدرته وأمره.

وكذا إن نهاية وُسْعة التصرف -بانتشار النوع- مع غاية حسنِ صنعِ كل فردٍ فرد، تختص بمن ليس عند شيء، وهو عند كل شيء بقدرته وعلمه.

وكذا إن نهاية الرخيصية والمبذولية مع غاية غلوّ قيمة الفرد باعتبار الصنعة، تختص بمَن له غَناء بلا غاية وخزائن بلا نهاية.

وكذا إن نهاية الاختلاط والاشتباك -في أفراد الأنواع المختلفة- مع غاية الامتياز والتشخيص بلا مَرْج[1] ومزج وبلا خلط وغلط، تختص بمن هو بصير بكل شيء، وشهيد على كل شيء لا يمنعه فعل عن فعل، ولا يختلط عليه سؤال بسؤال.

وكذا إنّ الفعالية؛ مع نهاية التباعد بين الأفراد المنتشرة في أقطار الأرض، مع غاية التوافق في الصورة والتشكيل والإيجاد والوجود، حتى كأن أفراد كل نوعٍ نوعٍ منتظرٌ أمرا يخصّها من مدبرٍ واحد، تختص بمن الأرضُ جميعا في قبضةِ تصرّفه وعلمه وحُكمه وحِكمته.

(١) مَرَج الشيء بالشيء: خَلَطَه.

وكذا إن نهاية الكثرة في أفراد النوع مع غاية مُكَمَّليةِ خِلقةِ فردٍ فردٍ وحُسنِ إيجادِ جزءٍ جزءٍ، تختص بالقدير المطلق الذي تتساوى بالنسبة إليه الذراتُ والنجوم والقليل والكثير.

على أن في كل فقرة آيةً أخرى على صنع القدير المطلق وهي التضاد بين السخاوة والإتقان الاقتصادي، وبين السرعة والموزونية، وبين الرخيصية وغلو القيمة، وبين الاختلاط الأطم والامتياز الأتم... وهكذا.

فإذا كان كل فقرة بانفرادها كافيةً لإظهار خاتم الأحدية، فكيف إذا اجتمعت متداخلة متآخذة في فعالية واحدة؟! ومن هذا ترى سرَّ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (الزمر:٣٨) أي إنَّ المنكِر المتعنّد إذا سُئل منه -بتنبيه عقله- يضطر لأن يقول: «الله»..

اعلم أن بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي والإيمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازما قطعيا، وارتباطا تاما؛ للتلازم في نفس الأمر بين وجوب الألوهية وثبوت الرسالة، ووجودِ الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة.

إذ كما لا يمكن وجود كتاب -لاسيما إذا تضمن كلُّ كلمة منه كتابا وكل حرف قصيدةً منتظمة- بلا كاتب.. كذلك لا يمكن شهود كتاب الكائنات -بدون سُكر- بلا إيمان بوجوب وجودِ نقّاشه الأزلي.

وكما لا يمكن وجود بيت -لاسيما إذا اشتمل على خوارق الصنعة وعجائب النقوش وغرائب التزيينات حتى في كل حجر منه- بلا بانٍ وصانع، بلا منشئ وصاحب.. كذلك لا يمكن التصديق بوجود هذا العالم -بدون سُكر الضلالة- بلا تصديق بوجود صانعه.

وكما لا يمكن شهود تلمعات الحَبابات في وجه البحر، وتلألؤِ القطرات المائية وتشعشع الزُجيجات الثلجية في وسط النهار مع إنكار وجود الشمس، إذ يلزم حينئذ قبول وجود شُميسات بالأصالة بعدد الحبابات والقطرات والزجيجات الثلجية.. كذلك لا يمكن -لمن له عقل لم يفسد- شهودُ هذه الكائنات -المتحولة دائما في انتظام، المتجددة في انسجام- بلا تصديقٍ بوجوبِ وجودِ خالقها وبانيها، الذي أسس ذلك البيت المحتشم، والشجر المعظم،

بأصول مشيئته وحكمته، وفصّله بدساتير قضائه وقَدَره، ونظّمه بقوانين عادته وسنته، وزيّنه بنواميس عنايته ورحمته، ونوّره بجلوات أسمائه وصفاته..

نعم، وبعدم قبول الخالق الواحد يُضطر إلى قبول آلهات غير متناهية بعدد ذرات الكائنات ومركباتها، بحيث يَقتدر إلهُ كلٍّ واحدٍ على خلق الكل؛ بسرِّ أن كل جزئيٍ ذي حياة كأنموذج للكل؛ فخالقهُ لابد أن يقتدر على خلق الكل!

ثم إنه كما لا يمكن وجود الشمس بلا نشر ضياء.. كذلك لا يمكن الألوهية بلا تظاهر بإرسال الرسل..

ولا يمكن جمال في نهاية الكمال بلا تبارز وبلا تعرُّف بواسطة رسول معرِّف..

ولا يمكن كمال صنعةٍ في غاية الجمال بلا تشهير بواسطة دلّال ينادي عليه..

ولا يمكن سلطنة ربوبية عامة، بلا عبودية كلية، بإعلان وحدانيته وصمديته في طبقات الكثرة بواسطة مبعوثٍ ذي الجناحين..

ولا يمكن حُسنٌ لانهاية له، بلا طلب ذي الحسن، ومحبته لمشاهدة محاسن جماله ولطائف حسنه في مرآة، وبلا إرادته لإشهاد أنظار المستحسنين عليه وإراءته لهم بواسطة عبد حبيب يتحبب إليه، ورسول يحببه إلى الناس. أي هو بعبوديته مرآةٌ لشهود ذي الجمال جمالَ ربوبيته، وبرسالته مدارُ إشهاده..

ولا يمكن وجود كنوز مشحونةٍ بعجائب المعجزات وغرائبِ المرصعات، بلا إرادة صاحبِها ومحبته لعَرْضها على الأنظار وإظهارِها على رؤوس الأشهاد، لتبيِّن كمالاتِه المستورة بواسطة معرِّفٍ صرّاف ومُشهِّر وصّاف.

فإذ هذا هكذا، فهل ظهر في العالم أجمعُ لهذه الأوصاف من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟ كلا، بل هو أجمعُ وأكملُ وأرفعُ وأفضلُ. فهو سلطان الرسل المظهرين المبلّغين المعرّفين المُشهّرين الدلّالين العابدين المعلنين المرشدين الشاهدين المشهدين المشهودين المحبوبين المحبين المحببين الهادين المهديين المهتدين، عليه وعليهم وعلى آلهم أفضل الصلوات وأجمل التسليمات، مادامت الأرض والسماوات.

* * *

ثم انظر إلى قوة حقانية الحشر والآخرة، وهي أنه:

كما لا يمكن سلطان بلا مكافأة للمطيعين وبلا مجازاة للعاصين:

لاسيما: إذا كان له كرمٌ عظيم يقتضي الإحسان، وعزةٌ عظيمة تقتضي الغيرة..

ولاسيما: إذا كان له رحمة واسعة تقتضي فضلا يليق بوسعة رحمته، وله جلالُ حيثيةٍ تقتضي تربيةَ مَن يستخف به، ولا يوقّره..

ولاسيما: إذا كان له حكمة عاليةٌ، تقتضي حمايةَ شأنِ سلطنته بتلطيف الملتجئين إلى جناحه، وله عدالة محضة تقتضي محافظةَ حشمةِ مالكيته بمحافظة حقوق رعيته..

ولاسيما: إذا كان له خزائن مشحونة مع سخاوة مطلقة، تقتضي وجود دارِ ضيافةٍ دائمة، وتقتضي دوامَ وجودِ محتاجين بأنواع الحاجات فيها. وكذا له كمالاتٌ مستورة تقتضي التشهير على رؤوس المشاهِدين المقدِّرين المستحسِنين. وكذا له محاسنُ جمال معنوي بلا مثل، وله لطائفُ حُسن مَخفيّ بلا نظير، تقتضي الشهودَ لحُسنه بنفسه في مرآة، والإشهادَ لغيره، والإراءةَ بوجود مستحسِنين متنـزِّهين ومشتاقين متحيرين بل دوامِ وجودهم؛ إذ الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل!

ولاسيما: إذا كان له شفقة رحيمة في إغاثة الملهوف وإجابة الداعي، بدرجةٍ يُراعي أدنى حاجةٍ مِن أدنى رعية، تقتضي تلك الشفقة اقتضاءً قطعيا يقينا أن تُسعِفَ أعظمَ الحاجة من مقبول السلطان، وبالخاصة إذا كانت الحاجة عامة مع أنها يسيرة سهلة عليه، ومع اشتراك العموم في تضرع مقبول السلطان.

ولاسيما: إذا شوهد مِن إجراآته آثارُ سلطنته في نهاية الاحتشام، مع أن ما يُرى من رعيته إنما اجتمعوا في منـزلٍ مُعَدٍّ للمسافرين، يُملأ ويُفرغ في كل يوم، وحضروا في ميدانِ امتحانٍ يتبدل في كل وقت، وتوقفوا قليلا في مَشهَد قد أُعدّ لإراءة أنموذجِ غرائبِ صنعةِ المَلِك، ونموناتِ[1] إحساناته؛ وهذا المشهد يتحول في كل زمان. فهذه الحالة تقتضي بالضرورة أن يوجَد خلفَ هذا المنـزل والميدان والمشهد وبعدَها قصورٌ دائمة، ومساكن مستمرة، وخزائن مفتحة الأبواب، مشحونة بجيّداتِ أصول الأنموذجات المغشوشات.

---

(١) نماذج وعينات.

ولاسيما: إذا كان الملك في نهاية الدقة في وظيفة الحاكمية، بحيث يكتب ويستكتب أدنى حاجة وأهونَ عمل وأقل خدمة، ويأمر بأخذ صورةِ كلِّ ما يجري في ملكه، ويستحفظ كل فعل وعمل. فهذه الحفيظية تقتضي المحاسبة، وبالخاصة في أعظم الأعمال من أعاظم الرعية.

ولاسيما: إذا كان الملك قد وعد وأوعد مكررا، بما إيجادُهُ عليه هيّن يسير، ووجودُهُ للرعية في نهاية الأهمية، وخُلفُ الوعدِ في غاية الضدية لعزّة اقتداره.

ولاسيما: إذا أخبر كلُّ مَن ذهب إلى حضور ذلك الملك، أنه أعدّ للمطيعين والعاصين دار مكافأة ومجازاة، وأنه يَعِد وَعدا قويا ويُوعِد وعيدا شديدا، وهو أجلّ وأعز من أن يذِل ويتنـزل بخُلف الوعد، مع أن المخبِرين متواترون، قد أجمعوا على أن مدار سلطنته العظيمة إنما هو في تلك المملكة البعيدة عنا. وما هذه المنازل في ميدان الامتحان إلّا مؤقتة، سيبدّلها -البتة- بقصور دائمة؛ إذ لا يقوم مثل هذه السلطنة المستقرة المحتشمة على هذه الأمور الزائلة الواهية المتبدلة السيالة.

ولاسيما: إذا أظهر ذلك المَلِكُ في كل وقت في هذا الميدان المؤقت، كثيرا من أمثال ذلك الميدان الأكبر ونموناته. فيُعلَم من هذه الكيفية، أن ما يُشاهَد من هذه الاجتماعات والافتراقات ليست مقصودة لذاتها، بل إنما هي تمثيل وتقليد لتؤخذ صورُها، وتُركَّب وتُحفظ نتائجها، وتُكتب لتدوم، وتدور المعاملة في المجمع الأكبر والمشاهدة في ذلك المحضر عليها، فتثمر الفانيةُ صورا ثابتة وأثمارا باقية.

ولاسيما: إذا أظهر ذلك الملك في تلك المنازل الزائلة والميادين الهائلة والمشاهر الراحلة آثارَ حكمة باهرة، وعناية ظاهرة، وعدالة عالية، ومرحمة واسعة، بدرجةٍ يَعرِف باليقين مَن له بصيرة أنه لا يمكن أن يوجَد أكملُ من حكمته، وأجملُ من عنايته، وأشملُ من مرحمته، وأجلُّ من عدالته. فلو لم يكن في دائرة مملكته أماكنُ دائمة عالية ومساكنُ قائمة غالية، وسواكنُ مقيمة خالدة لتكون مظاهرَ لحقيقة تلك الحكمة والعناية والمرحمة والعدالة، لَلَزم حينئذ إنكار هذه الحكمة المشهودة، وإنكار هذه العناية المبصَرة، وإنكار هذه المرحمة المنظورة، وإنكار هذه العدالة المرئية؛ وللزم قبول كون صاحب هذه الأفاعيل الحكيمة الكريمة سفيها لعّابا وظالما غدارا. فيلزم انقلاب الحقائق بأضدادها، وهو محال باتفاق جميع أهل العقل غير السوفسطائي الذي ينكر وجود الأشياء حتى وجودَ نفسه.

وهكذا مما لا يعد ولا يحصى من دلائلَ، أنه سينقل رعيته من هذه المنازل المؤقتة إلى مقر سلطنته الدائمة، ومما لا يحد ولا يستقصى من أماراتٍ، تبديلُه هذه المملكةَ السيارة بتلك المملكة المستمرة.

كذلك[1] لا يمكن –بوجه من الوجوه قطعا وأصلا– أن يوجِد هذا العالَمَ ولا يوجِد ذلك العالَمَ، وأن يبدع الفاطر هذه الكائناتِ ولا يُبدعَ تلك الكائنات، وأن يخلق الصانعُ هذه الدنيا ولا يخلقَ تلك الآخرة؛ إذ شأن سلطنة الربوبية يقتضي المكافأة والمجازاة.

ولاسيما: يُعلَم بالآثار أن لصاحب هذه الدار كرما عظيما، ومثلُ هذا الكرم يقتضي كمال الإحسان وحسنَ المكافأة. وأن له عزة عظيمة تقتضي كمالَ الغيرة وشدة المجازاة؛ مع أن هذه الدار لا تفي بعُشر مِعشار عَشير ما يقتضيه ذلك الكرم وتلك العزة..

ولاسيما: أن لصاحب هذا العالم رحمةً وسعت كلَّ شيء، ومن لطائف تلك الرحمة شفقةُ الوالدات مطلقا، حتى النباتاتِ على أولادها، وسهولةُ أرزاق أطفال الحيوانات وضعفائها، وهذه الرحمة تقتضي فضلا وإحسانا يليقان بها. انظر أين مقتضى هذا الرحمة، ثم أين هذه التنعمات الزائلة المنغّصة في هذه الدنيا الفانية –في هذا العمر القصير– التي لا تفي بقطرة من بحر تلك الرحمة؟ بل الزوال بلا إعادة يصيّر النعمةَ نقمةً، والشفقةَ مصيبةً، والمحبة حرقة، والعقل عقابا، واللذة ألما، فتنقلب حقيقةُ الرحمة. فتلزم المكابرة بإنكار الرحمة المشهودة، كإنكار الشمس مع شهود امتلاء النهار من ضيائها. وكذا يُعلم من تصرفات صاحب هذا العالم أن له جلالَ حيثيةٍ وعزةٍ، يقتضيان تأديب من لا يوقّره وقهرَ من يستخف به، كما فعل بالقرون السالفة في هذه الدنيا، ما يدل على أنه لا يهمل وإن أمهل. وكذا يُفهم من إجراآته أن له غيرةً عظيمة على استخفاف أوامره ونواهيه.

نعم، ومن شأن من يتعرف إلى الناس بأمثال هذه المصنوعات المنظومات، ويتودد إليهم بأمثال هذه الأزاهير الموزونات، ويترحّم عليهم بأمثال هذه الثمرات المزينات، ثم لا يعرفونه بالإيمان، ولا يتحببون إليه بالعبادة، ولا يحترمونه بالشكر إلّا قليل.. أن يُعِدّ لهم في مقر ربوبيته الأبدية دارَ مجازاة ومكافأة.

---

(١) جواب: كما لا يمكن سلطان بلا مكافأة...

ولاسيما: أن لمتصرِّف هذا العالم حكمةً عامةً عالية، بشـهاداتِ رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها.

وكذا يشاهد أن له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له؛ وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها –لوجوده أو حفظ بقائه– وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة: إذا سُئِل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمةٍ كبرى؛ مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مَظهرا لحقيقةِ تلك العدالة؛ فلابد حينئذ لهذا الملِك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة.

ولاسيما: أن لصاحب هذا العالم والمتصرِّف فيه بهذه الأفعال، سخاوةً وَجُودا عظيما، وخزائن مشحونة. ومن ظرائف ظروف تلك الخزائن هذه الشموسُ المملوءة من الأنوار، وهاتيك الأشجار المشحونة من الأثمار.. وهذه السخاوة السرمدية مع هذه الثروة الأبدية تقتضيان وجود دارِ ضيافةٍ أبدية، ودوامَ وجودِ محتاجين بأنواع الحاجات فيها؛ إذ الكرم بلا نهاية يقتضي الامتنانَ والتنعيم بلا نهاية؛ وهما يقتضيان قبول المنة والتنعم بلا نهاية؛ وهما يقتضيان دوام وجود الشخص المكرم عليه، ليُقابِل بدوامه في التنعم شكرَ المنة الدائمة، وإلَّا لانحصر مقابلةُ كل واحد في دقائق عمره الزائل، ولصار بحيث لا يهتم بما لا يرافقه، بل يتنغص عليه ذلك التنعم الجزئي أيضا.

وكذا لفاعل هذه الأفعال الحكيمة الكريمة كمالات مستورة، يُفهم من تظاهره بهذه المعجزات المزينات أنه يحب أن يشهِّر تلك الكمالاتِ على رؤوس الأشهاد المستحسِنين المقدِّرين.

نعم، إن من شأن الكمال الدائم التظاهرَ بالدوام، ووجودَ نظر المستحسِن الدائميّ.. فالناظر الذي لا يدوم يسقط مِن نظرِ محبته قيمةُ الكمالات.

وكذا لصانع هذه المصنوعات الجميلات المليحات المزينات المنورات، محاسنُ جمالٍ

مجرد معنوي بلا مثل، وله لطائف حُسن مخفي يليق به بلا نظير؛ بل في كل اسم من أسمائه كنوز مخفية من جلوات ذلك الحسن المنـزه والجمال المجرد.

نعم، أين عقولنا وأين فهم جمالِ مَن مِن بعض مراياه الكثيفةِ وجهُ الأرض المتجددة التي تُظهر وتصف لنا في كل عصر –بل في كل فصل، بل في كل وقت– ظلالَ جلوات ذلك الجمال الدائمِ التجلي، مع تفاني المرايا وسَيَّالية المظاهر.. ومِن بعض أزاهيره ونقشه: الربيعُ؟

ثم إنه من الحقائق المستمرة الثابتة أن كل ذي جمال فائقٍ يُحب أن يشاهِد جمالَه بنظره، وبنظر غيره؛ ويَنظر إلى محاسنه بالذات، وبالواسطة؛ ويشتاقُ إلى مرآةٍ فيها جلوة جماله المحبوب، والى مشتاقٍ فيه مقاييس درجاتِ حُسنه المرغوب. فالحُسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد؛ وهما يقتضيان وجود مستحسِنين متنـزهين في مناظرهما، ووجودَ مشتاقين متحيرين في لطائفهما. ثم لأن الجمال سرمدي، يقتضي أبديةَ المستحسِن المتحيّر؛ إذ الجمال الدائم الكامل لا يرضى بالمشتاق الزائل الآفل؛ إذ بسرٍّ أن الشخص المقيّد بنفسه، له نوع عداوة لما لا يصل إليه فهمُهُ أو يدُهُ، ولمن يردّه أو يطرده من دائرة حضوره. فيحتمل حينئذ أن يقابِل هذا الشخصُ ذلك الجمالَ –الذي يستحق أن يقابَل بمحبة بلا نهاية، بشوق بلا غاية واستحسانٍ بلا حد– بعداوة وحقد وإنكار.

الحاصل: أن هذا العالم كما يستلزم صانعَه بالقطع واليقين، كذلك يستلزم صانعُهُ الآخرةَ بلا شك ولا ريب..

ولاسيما: أن لمالك هذا العالم رحيميةً شفيقة في سرعةِ إغاثةِ الملهوف المستغيث، وفي إجابة الداعي المستجير؛ إذ قد نرى أنه يراعي أدنى حاجةٍ مِن أدنى خلقه، بدليل قضائها وقتَ وجودها من حيث لا يحتسب، وأنه يسمع أخفى نداءٍ مِن أخفى خلقه، بدليل إسعاف مسؤوله ولو بلسان حاله.

فانظر إلى حُسن تربيةِ أطفال ذوي الحياة وضعفائها، كي ترى هذه الشفقة كالشمس في ضيائها. فهذه الشفقة الرحيمة الكريمة تقتضي اقتضاءً ضروريا قطعيا أن تسعف أعظمَ حاجة وأشدَّها، مِن أعظم عباده وأحب خلقه إليه..

وبالخاصة إذا كانت الحاجة عامة بحيث يؤمِّن على دعاء ذلك الحبيبِ جميعُ الخلق

بألسنةِ الأقوال والأحوال.. وبالخاصة إذا كانت مُهمةً عند كل شيء، لكونها سببا لصعود قيمة الأشياء إلى أعلى عليين، وبدونها تسقط قيمة كل شيء إلى أسفل سافلين. فحينئذ يشترك في تضرعِ ذلك الحبيبِ جميعُ الموجودات بألسنة استعداداتها.. وبالخاصة إذا كانت مطلوبةً لكل الأسماء المتجلية في الكائنات.

نعم، تلك الحاجة كمخزن الغايات لتلك الأسماء ولكمالاتها في ظهورها بإجراء أحكامها، فحينئذ تَشْفَع جميعُ الأسماء عند مسمّاها لإسعاف حاجة ذلك الحبيب.. وبالخاصة إذا كانت تلك الحاجة كلمح البصر سهلة يسيرة على مالكها الكريم.. وبالخاصة إذا تضرع ذلك الحبيب بأنواع التضرعات الحزينة، متذللا بأنواع الافتقارات المشفَّعة، متحببا بأنواع العبادات المقبولة. وقد اصطف خلفَه -مؤتمّين به مؤَمِّنين على دعائه- جميعُ أفاضلِ ثمراتِ شجرةِ الخلقة من الأنبياء والأولياء والأصفياء، وهو إنما يطلب من ربه الكريم الجنةَ والبقاءَ والسعادةَ الأبدية والرضاء.

فبالضرورة لا يمكن بوجه من الوجوه أن يقبل جمالُ هذه الشفقة الشاملة المشهودة بآثارها، قبحا غدّارا بعدم قبول مثل هذا المطلوب المعقول، مِن مثل ذلك المحبوب المقبول!

نعم، كما أن ذلك الحبيب الذي هو مدار الشهود والإشهاد للشاهد الأزلي رسولٌ؛ وبرسالته كاشفُ طلسمِ الكائنات، ودلّال الوحدة في غمرات الكثرة، وسببٌ لوصول السعادة في الجنة.. كذلك عبدٌ؛ فبعبوديته كشافُ خزائن الرحمة، ومرآةٌ لجمال الربوبية، وسببٌ لحصول مدار السعادة، وسبب لوجود الجنة. فلو فُرض عدم جميع الأسباب الغير المحصورة المقتضية للجنة إلّا مثلُ هذا الطلب من مثل ذلك الحبيب، لكفى لإيجاد هذه الجنة ووجودها مِن جُودِ جَوادٍ يوجِد في كل ربيع جِنانا مزيَّنة كأنموذجات تلك الجنة. فما هذه بأسهل من تلك، وما هي بأصعب عليه من هذه. فكما يحقّ -وحقٌّ أن يُقال، وقد قيل-: «**لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك**»، يستحق أن يقال: لو لم يكن إلّا دعاؤك لخلقتُ الجنة لأجلك.

اَللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلٰى ذٰلِكَ الْحَبِيبِ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَفَخْرُ الْعَالَمَيْنِ وَحَيَاةُ الدَّارَيْنِ وَوَسِيلَةُ السَّعَادَتَيْنِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ وَرَسُولُ الثَّقَلَيْنِ وَعَلٰى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَعَلٰى إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، آمِينَ.

ولاسيما: أنه يُشاهَد في جريان هذا العالم آثارُ سلطنةٍ محتشَمة في تسخير الشموس والأقمار والأشجار والأنهار، فيُعلم أن لمتصرف هذه الموجودات سلطنةً محتشمة في ربوبيةٍ معظمة؛ مع أن هذه الدار -بسرعةِ تحوّلها أو زوالها- كمنـزلٍ في خانٍ أُعدّ للمسافرين، يُملأ ويُفرغ في كل يوم، وكميدانِ امتحان يتبدل في كل وقت، وكمَشهر أُحضِرَ لإراءة أنموذجاتِ غرائبِ صنعةِ صاحبِ الموجودات، ونمونات إحساناته. وهذا المشهر يتحول في كل زمان، مع أن الخلق والعِباد الذين هم كالرعية ومدار السلطنة اجتمعوا في ذلك المنـزل، وهم على جناح السفر في كل آن، وحضروا ذلك الميدانَ مستمعين ناظرين بمقدارِ سؤالٍ وجواب، وهم على نية الخروج في كل زمان، وتوقفوا قليلا في ذلك المشهر وهم على قصد التفرق في كل وقت وأوان.

فهذه الحالة تقتضي بالضرورة أن يوجَد خلف هذا المنـزل الفاني والميدان المتغير وبعد هذا المشهر المتبدل، قصورٌ دائمةٌ ومساكن أبدية وخزائنُ مفتحة الأبواب مشحونة من جيّدات أصول تلك الأنموذجات المغشوشات لتَقوم تلك السلطنة السرمدية المشهودة عليها؛ إذ من المحال أن يكون قيام هذه الربوبية المحتشمة بأمثال هذه الفانيات الوانيات[1] الزائلات الذليلات!

نعم، كما يَتفطن مَن له أدنى شعور إذا صادف في طريقه منـزلا أعده ملِكٌ كريم في الطريق لمسافريه الذين يذهبون إليه، ثم إن الملك قد صرف ملايين الدنانير لتزيين المَنـزل لتَنـزُّهِ ليلة واحدة، ثم رأى أن أكثر المزينات صور وأنموذجات! ثم رأى المسافرين يذوقون من هذا وذلك للطعم[2] لا للشبع، إذ لا يشبعون من شيء، ويأخذ كل واحد بـ«فُوطُوغْرَافِه» المخصوص صورَ ما في المنـزل، ويأخذ خُدّامُ الملك أيضا صور معاملاتهم بغاية الدقة.. ثم رأى أن الملِك يخرّب في كل يوم أكثر تلك المزينات الغاليات القِيمةِ، ويجدد لضيوفه الجديدين مزيناتٍ أخرى.. ويَتفهم بلا شك أن لصاحب هذا المنـزل المؤقت منازلَ عالية دائمة، وثروةً غالية مخزونة، وسخاوة عظيمة كريمة؛ وهو يريد أن يشوّق إلى ما عنده ويرغّبهم فيما ادَّخره لهم..

(١) ونى: فَتَرَ وضعف قال تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه:٤٢).
(٢) أي للتذوق.

كذلك؛ لابد أن يتفطن الإنسان أن هذه الدنيا ليست لذاتها وبذاتها، بل إنما هي مَنـزلٌ تُملأ وتُفرغ بحلول وارتحال، وأن ساكنيها مسافرون، يدعوهم رب كريم إلى دار السلام.. وأن هذه التزيينات ليست للتلذذ بالتنـزه فقط، بدليل أنها تُلِذُّك آنا، ثم تؤلمك بفراقها أزمانا، وتُذيقك وتفتح اشتهاءك، ثم لا تشبعك لقِصَر عُمرها أو قصر عمرك، بل إنما هي للعبرة وللشكر، وللشوق إلى أصولها الدائمة ولغايات عُلوية.. وأن هذه المزينات صور وأنموذجات لِما ادّخره الرحمن في الجنان لأهل الإيمان، وأن هذه المصنوعات الفانيات ليست للفناء، بل اجتمعت اجتماعا قصيرا لتؤخَذ صورُها وتماثيلُها ومعانيها ونتائجها، فيُنسج منها مناظر دائمة لأهل الأبد، أو يَصنع منها مُحَوّلُها ما يشاء في عالم البقاء.

ومن الدليل على أن الأشياء للبقاء لا للفناء، بل الفناءُ الصوري تمامُ الوظيفة وترخيصٌ له، أن الفاني يفنى بوجهٍ ويبقى بوجوهٍ غير محصورة! مثلا: انظر من كلمات القدرة إلى هذه الزهرة التي تنظر إلينا في وقت قصير، ثم تفنى؛ تراها كالكلمة التي تزول لكن تودِعُ بإذن الله في الآذان ألوفَ تماثيلها، وفي العقول -بعدد العقول- معانيَها؛ إذ هي وقت تمام الوظيفة تُبقي وتُودع في حافظتنا وفي حافظة كل مَن رآها في الشهادة، وفي بذورها في الغيب صورَها ومعانيَها؛ حتى كأن حافظة كلِّ مَن نظر إليها وكلَّ بُذيراتها (فوطوغرافاتٌ) لحفظ زينةِ صورها، ومنازلُ لبقائها. وقس عليها ما فوقها وما فوق ما فوقها من ذوي الأرواح الباقية.

وإن الإنسان ليس سدىً غاربهُ على عنقه:[١] يسرح كيف يشاء، بل تؤخذ صور أعماله، وتُكتب وتحفظ نتائج أفعاله ليحاسَب؛ وإن التخريبات الخريفية للمصنوعات الجميلات الربيعية، إنما هي ترخيصات بتمام الوظيفات وتفريغات لوفود مخلوقات جديدات، وإحضارات لنـزولِ مصنوعاتٍ موظفات، وتنبيهات للغفلات والسكرات. وإنّ لِصانع هذا العالم عالما آخر باقيا يسوق إليه عبادَه ويشوّقهم إليه، وإنه قد أعد لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.[٢]

---

(١) أصل المثل: «حبلُكِ على غاربك»، ويستعمل في كنايات الطلاق. والغارب: الكاهل. يقال: ألقى حبلَ الشخص على غاربه: تركه يذهب حيث يشاء (مجمع الأمثال).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ (السجدة:١٧). رواه البخاري ومسلم برقم (٢٨٢٤) ولم يذكر الآية، والترمذي (٣١٩٥) تحقيق أحمد شاكر.

ولاسيما: أن لمتصرف هذا العالم حفيظيةً تامة بحيث لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا تحفظها في كتاب مبين. ومن أبواب هذا الكتاب المبينِ النظامُ والميزانُ المشهودان، إذ نشاهد أن كل ما تمّ عمرُه بتمام وظيفته، وذهب عن الوجود في عالم الشهادة، يُثبت فاطرهُ كثيرا من صوره في ألواح محفوظة، وينقُش أكثرَ تاريخ حياته في نواتاته ونتائجه، ويُبقيه في مرايا متعددة غيبا وشهادة، حتى كأن كثيرا من الأشياء موظفون بأخذ صورةِ جريان معاملة الأشياء المجاورين لها.

فإن شئت فانظر إلى حافظة البشر وثمرة الشجر ونواة الثمر وبذر الزهر، لتفهم عظمةَ إحاطة قانون الحفظ والحفيظية، حتى في السيالات الزائلات. فقس من هذا قوةَ جريان هذه الحفيظية في الأمور المهمة المثمرة في العوالم الغيبية والأخروية. فيُفهم من هذه المحافظة التامة أن لصاحب هذه الموجودات اهتماما عظيما بانضباط ما يجري في ملكه، وأن له نهايةَ دقةٍ في وظيفةِ حاكميته، وانتظاما تاما في سلطنة ربوبيته، بحيث يَكتب ويَستكتب أدنى حادثة وأهونَ عمل وأقلَّ خدمة، ويأمر -بالأمر التكويني- بأخذ صورةِ كل ما يجري في ملكه، ويَحفظ ويستحفظ كلَّ فعل وعمل. فهذه الحفيظية تشير بل تصرح بل تستلزم المحاسبة. وبالخاصة في أعظم الأعمال وأهمها من أكرم المخلوقات وأشرفها أي الإنسان، لأن الإنسان كالشاهد على كليات شؤون الربوبية، وكالدلّال على الوحدانية الإلهية في دوائر الكثرة، وكالمشاهِد والضابط على تسبيحات الموجودات، وهكذا.. مما لا يعد من أسباب تكريمه بالأمانة وتقليده بالخلافة.

فمع هذا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة:٣٦) ولا يُسألَ غدا؟ كلا.. بل لَيحاسَب على السَبَد واللَبد،[1] وسيذهب إلى الحشر والأبد. وما الحشر والقيامة بالنسبة إلى قدرته إلّا كالربيع والخريف. فكل الوقوعات الماضية معجزاتُ قدرته تشهد قطعا على أنه قدير على كل الإمكانات الاستقبالية.

ولاسيما: أن مالك هذا العالم قد وَعد مكررا بها إيجادُه عليه هيّن سهل يسير، ووجوده لخلقه وعباده مهمّ بلا نهاية، وغال بلا غاية. مع أن خُلف الوعد في غاية الضدية لعزّة اقتداره

(١) السبد: ج أسباد: القليل من الشعر، يقال: ماله سبد ولا لبد، أي لا شعر له ولا صوف، يقال لمن لا شيء له (مجمع الأمثال)

ومرحمة ربوبيته؛ إذ خُلفُ الوعد نتيجةُ الجهل أولا والعجز آخرا. فخلف الوعد محال على العليم المطلق والقدير المطلق. فليس إيجاد الحشر بانقلاباته وبجنّاته بأعسر عليه من إيجاد الربيع بتحولاته وبجنانه. وأما وعدُه سبحانه فثابت بتواتر كل الأنبياء بإجماع جميع الأصفياء. استمع قوةَ وعدِه سبحانه من هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧).. ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس:١٧) لا يصدِّق حديثَ مَن هذه الموجودات كلماتُه الصادقة بالحق، وهذه الكائنات آياتُه الناطقة بالصدق؛ ويعتمد على هذيانات وهمِه وحماقات نفسِه وأباطيل شيطانه. نعوذ بالله من الخذلان ومن شر النفس والشيطان..

ولاسيما: أنّا نشاهد في هذا العالم تظاهراتِ ربوبيةٍ محتشمة سرمدية، وآثارَ سلطنةٍ مشعشعةٍ مستقرة. وقس عظمة صاحب هذه الربوبية من كون هذه الأرض بسَكَنَتها كحيوان مسخّر مذلل تحت أمره يحييها ويميت، ويربّيها ويدبّر. والشمس بسياراتها مسخرةً منظمة بقدرته ينظمها ويدَوِّر، ويقدرها ويكوّر. مع أن هذه الربوبية السرمدية المستمرة والسلطنة المستقرة المحيطة –بشهادة تصرفاتها العظيمة المحيّرة للعقول– لا تقومان على هذه الأمور الزائلة الواهية المتبدلة السيّالة، ولا تُبْنَيان على مثل هذه الدنيا الفانية المغيّرة المتخاذلة المنغّصة. بل لا يمكن أن تكون هذه الدنيا في سرادقات هذه الربوبية إلا كميدان بُنيت فيها منازلُ مؤقتة للتجربة والامتحان والتشهير والإعلان، ثم تُخرَّب وتبدل بقصور دائمة ويساق إليها الخلق. فبالضرورة لابدّ أن يوجَد لربّ هذا العالم الفاني المتغير عالمٌ آخر باقٍ مستقر. ومع ذلك قد أَخبر كلُّ مَن ذهب من الظاهر إلى الحقيقة من ذوي الأرواح النيّرة والقلوب المنوّرة والعقول النورانية، ودخل في حضور قُربه سبحانه أنه أعدّ للمطيعين والعاصين دارَ مكافأة ومجازاة، وأنه يَعِدُ وعدا قويا ويوعد وعيدا شديدا، وهو أجلُّ وأقدس من أن يَذِلّ ويتذلّل بخُلف الوعد، وأعلى وأعزّ من أن يَعجز عن إنجاز الوعيد. مع أن المخبِرين الذين هم الأنبياء والأولياء والأصفياء متواترون، وأهلُ اختصاص لمثل هذه المسألة، وقد أجمعوا واتفقوا –مع تخالفهم في المسالك والمشارب والمذاهب– على هذا الإخبار الذي تؤيده الكائنات بآياتها. فهل عندك أيها الإنسان حديثٌ أصدقُ من هذا الحديث؟ فهل يمكن أن يكون خبر أصدقَ من هذا الخبر وأحقَّ؟

ولاسيما: أن متصرف هذا العالم يُظهِر في كل وقت -يوما وسَنة وقرنا ودَورا- في ميدان الأرض الموقت الضيّق كثيرا من أمثال ذلك الميدان الأكبر الأوسع، ومن نموناته ومن إشاراته.. فإن شئت فتأمل في كيفية إحياء الأرض في الحشر الربيعي، كي ترى قريبا من ثلاثمائة ألف حشر ونشر بكمال الانتظام في مقدار ستة أيام، وبكمال الامتياز والتشخيص مع غاية اختلاط تلك الأموات الغير المحصورة المشتبكة المنتشرة، متداخلة في صحيفة الأرض! فمن يفعل هذا كيف يؤوده شيء؟.. وكيف لا يخلق السماوات والأرض في ستة أيام؟.. وكيف لا يكون حشرُ الإنسان كلمح البصر بالنسبة إليه؟!

نعم، مَن يكتب ثلاثمائة ألف كتاب قد انمحت حروفُها في صحيفة واحدة معا، ومختلطا بلا غلط ولا مرج ولا مزج، كيف يعجز عن استنساخ كتابٍ عن حافظته -هو ألّفه أولا ثم محاه- كتابةً ثـانيةً؟ فإن شئت فانظر إلى آيةِ ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (الروم:٥٠) لِترى في تلك الكيفية حقيقة هذا التمثيل. فيُفهَم من هذه التصرفات ويُتحدَّس من هاتيك الشؤونات، أن ما يشاهَد من هذه الاجتماعات والافتراقات، ليست مقصودةً لذاتها، لعدم المناسبة بين تلك الاحتفالات المهمة وبين الثمرات الجزئية الفانية في زمان قصير! بل إنما هي تمثيل وتقليد لتؤخَذ صورُها، وتُركَّب وتحفَظ نتائجُها، وتكتب لتدور المعاملة في المجمع الأكبر عليها، وتدومَ المشاهدة في المحضر الأشهر بها؛ فتثمر هذه الفانيات صورا دائمة وأثمارا باقية ومعاني أبدية وتسبيحات ثابتة. فما هذه الدنيا إلّا مزرعة، والبيدرُ الحشرُ، والمخزنُ الجنةُ والنار.

ولاسيما: إذا أظهر ذلك الربُّ السرمدي والسلطان الأزلي الأبدي، في تلك المنازل الزائلة والميادين الآفلة والمشاهر الراحلة، آثارَ حكمةٍ باهرة ماهرة، وعنايةٍ ظاهرة زاهرة، وعدالة عالية غالية، ومرحمة واسعة جامعة؛ بدرجةٍ يَعرِف باليقين مَن لم يكن على عينه غين وفي قلبه رين، أنه ليس في الإمكان أكملُ من حكمته، وأجمل من عنايته، وأشمل من مرحمته، وأجلّ من عدالته. فلو لم تكن في دائرة مملكته -في ملكه وملكوته- أماكنُ دائمة عالية، ومساكن قائمة غالية، وسواكن مقيمة خالدة، لتكون تلك الأمور مظاهر لتَظاهُر حقائق تلك الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، لَلزم حينئذٍ إنكار هذه الحكمة المشهودة لذي عقل، وإنكارُ هذه العناية المُبصَرة لذي بصيرة، وإنكارُ هذه الرحمة المنظورة لذي قلب، وإنكار هذه العدالة المرئية لذي

فكر؛ وللزم قبول كون صاحب هذه الأفعال الحكيمة الرحيمة الكريمة العادلة -حاشا، ثم حاشا!- سفيها لعّابا، وظالما غدّارا، فيلزم انقلاب الحقائق بأضدادها، وهو محال باتفاق جميع أهل العقل غير السوفسطائي الذي ينكر وجود الأشياء، حتى وجودَ نفسه. فمن لم يصدِّق فهو كالسوفسطائي، أحمقُ من هبنّقة المشهور الذي كان لا يعرِف إلّا نفسَه، ولا يعرف نفسَه إلّا بقلنسوته، حتى إذا رآها على رأس أحدٍ ظن أنه نفسه! ففِكرُ المنكِر كقلنسوة هذا!

* * *

فيا من رافقني بفهمه من أول المسألة إلى هنا! لا تظنّن انحصار الدلائل فيما سبق. كلا! بل يشير القرآن الحكيم إلى ما لا يعد ولا يحصى من أمارات: أن خالقنا سينقلنا من هذا المشهر المؤقت إلى مقرّ سلطنة ربوبيته الدائمة.. ويلوّح إلى ما لا يحد ولا يستقصى من علامات: أنه سيبدل هذه المملكة السيّالة السيارة بتلك المملكة المستمرة السرمدية..

وكذا لا تحسبنّ أنّ ما يقتضي الآخرة والحشر من الأسماء الحسنى، منحصرٌ على: «الحكيم والكريم والرحيم والعادل والحفيظ». كلا، بل كل الأسماء المتجلية في تدبير الكائنات، تقتضيها بل تستلزمها.

الحاصل: إن مسألة الحشر مسألة قد اتَّفق عليها:

الحقُ سبحانه بجماله وجلاله وجميع أسمائه..

والقرآنُ المبين المتضمن لإجماعِ كلِ كتبِ الأنبياء والأولياء والأصفياء..

وأكملُ الخلق محمدٌ الأمينُ عليه الصلاة والسلام، الحاملُ لسرّ اتفاق ذوي الأرواح النيّرة الصافية العالية، من الرسل والنبيين ومن أهل الكشف والصديقين..

وهذه الكائناتُ بآياتها، حتى إن لكلٍ من هذه الموجودات -كلا وجزءا وكليا وجزئيا- وجهين:

فوجه؛ ينظر إلى خالقه وفي ذلك الوجه ألسنةٌ كثيرة، تشهد وتشير إلى الوحدانية..

ووجه آخر؛ ينظر إلى الغاية والآخرة، وفي هذا الوجه أيضا ألسنةٌ كثيرة تدل وتشهد على الدار الآخرة واليوم الآخر.

مثلا: كما تدل أنت -بوجودك في حُسن صنعةٍ- على وجوب وجودِ صانعك ووحدته.. كذلك تدل -بزوالك بسرعةٍ مع جامعية استعدادك الممتد آمالُه إلى الأبد- على الآخرة، فتأمل!

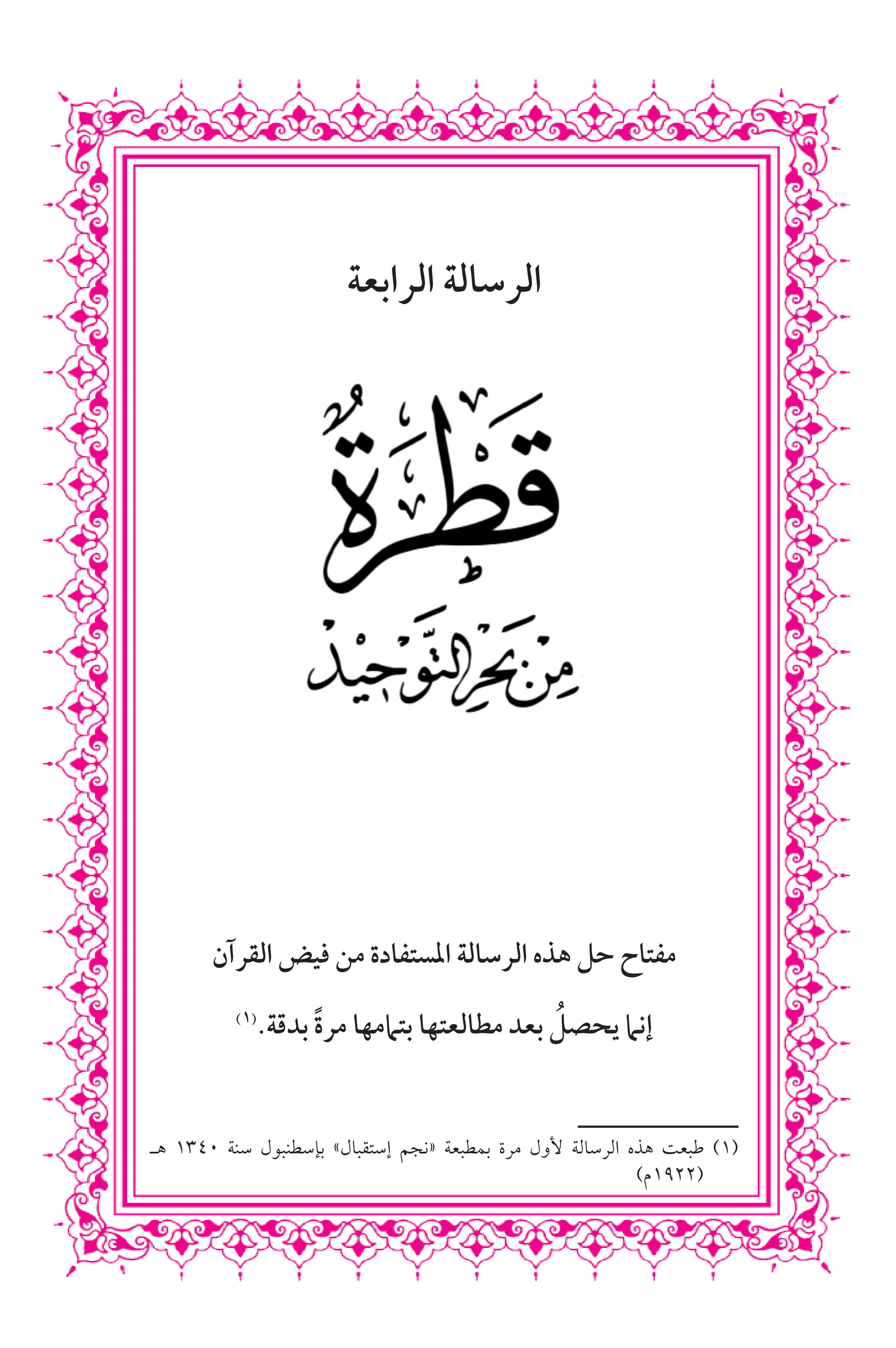
وقد يتحد الوجهان؛ مثلا: إن ما يُشاهَد على كل الموجودات من انتظام الحكمة، وتزيين العناية، وتلطيف الرحمة، وتوزين العدالة، وحسن الحفظ؛ كما تشهد على الصانع الحكيم الكريم الرحيم العادل الحفيظ، كذلك تشير بل تصرح بحقانية الآخرة وبقرب الساعة وبتحقيق السعادة.

اَللّٰهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ السُّعَدَاءِ وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ مَعَ السُّعَدَاءِ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّكَ الْمُخْتَارِ. فَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ كَمَا يَلِيقُ بِرَحْمَتِكَ وَبِحُرْمَتِهِ

آمِينَ آمِينَ آمِينَ.

والحمد لله رب العالمين.

* * *



الرسالة الرابعة

قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ التَّوْحِيدْ

مفتاح حل هذه الرسالة المستفادة من فيض القرآن

إنما يحصلُ بعد مطالعتها بتمامها مرةً بدقة.[1]

(١) طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم إستقبال» بإسطنبول سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢م)

إفادة المرام

اقرأ بدقة تَقَرَّ عينُك بإذن الله

اعلم

يا أيها الناظرون! إنى قد ساقني القدر الإلهي إلى طريق عجيب، صادفتُ في سيري فيه مهالك ومصائب وأعداء هائلةً. فاضطربتُ، فالتجأت بعجزي إلى ربي.. فأخذت العنايةُ الأزلية بيدي، وعلّمني القرآنُ رشدي، وأغاثتني الرحمة فخلصتني من تلك المهالك. فبحمد الله صرتُ مظفرا في تلك المحاربات مع النفس والشيطان اللذين صارا وكيلين فضوليين لأنواع أهل الضلالات..

فأولا: ابتدأَت المشاجرةُ بيننا في هذه الكلمات المباركة وهي:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فوقع تحت كلٍ من هذه الحصون الحصينة ثلاثون حربا. فكلُّ جملة، بل كل قيد في هذه الرسالة نتيجة مُظفَّريةٍ لحرب لم يبقَ للعدوّ في شيء منها مطمَعٌ وأدنى ممسكٍ.. فما كتبتُ إلّا ما شاهدتُ.. بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي. فأُشيرُ بعضا إلى حقيقة طويلة مع دليلها بقيدٍ أو صفة اندمج دليلُ الحُكم فيهما، يُعرف بالدقة. وما صرّحتُ ليُحسَّ بالمرام من احتاج ولا يشتغلَ مَن لم يحتج فيحتاج..

أظن أن جريان هذا الزمان يلقي العقولَ والقلوبَ في المهالك التي أَمَرَّني القدرُ عليها. فهذا الأثرُ يمكن أن يكون نافعا بإذنه تعالى لبعض المصابين. ومن الله التوفيق..

سعيد النورسي



الحمد لله والصلاة على نبيه

فهذا الأثر على أربعة أبواب وخاتمة ومقدمة.

المقدمة

اعلم أني حصّلتُ في أربعين سنة في سفر العمر، وثلاثين سنة في سير العلم: أربع كلمات، وأربع جمل. سيجيء تفصيلها. أشيرُ هنا إلى الإجمال..

أما الكلمة فهي:

المعنى الحرفي، والمعنى الاسمي،[1] والنية، والنظر.

أعني: أن النظر إلى ما سواه تعالى، لابد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وأن النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب خطأٌ. ففي كل شيء وجهان: وجهٌ إلى الحق، ووجه إلى الكون. فالتوجه إلى الوجه الكوني لابد أن يكون حرفيا وعنوانا للمعنى الاسمي الذي هو جهةُ نسبتِهِ إليه تعالى؛ مثلا: لابد أن يُرى النعمةُ مرآةً للإنعام، والوسائطُ والأسباب مرايا لتصرف القدرة..

وكذا، إن النظر، والنيّة يغيّران ماهيات الأشياء، فيَقلبان السيئاتِ حسناتٍ. كما يقلب الإكسيرُ الترابَ ذهبا، كذلك تَقْلب النيةُ الحركاتِ العاديةَ عباداتٍ. والنظرُ يقلب علومَ الأكوان معارفَ إلهية.. فإن نُظر بحساب الأسباب والوسائط فجهالات، وإن نُظر بحساب الله فمعارف إلهية..

(١) سيرد شرح هذين المصطلحين في ثنايا الكتاب. فالحرف يعرَّف في النحو بأنه ما دلّ على معنى في غيره، أما الاسم فيعرَّف بأنه ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بزمان. والمقصود أن النظرة القرآنية إلى الموجودات تجعلها بمثابة حروفٍ تدل على معانٍ في غيرها، فهي تعبّر عن معاني تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم سبحانه، فكأنها مكتوباتٌ ربانية تالياتٌ للأسماء الحسنى.

وأما الكلام:

فالأول: «إني لست مالكي» وإن مالكي هو مالك الملك ذو الجلال والإكرام... فتَوَهَّمْتُني مالكا،[١] لأفهم صفات مالكي بالمقايسة. ففهمت بالمتناهي الموهومِ الغيرَ المتناهي. فجاء الصباح وانطفأ المصباح المتخيَّل..

الثاني: «الموت حق» فهذه الحياة وهذا البدن ليسا بقابلين لأن يصيرا عمودَين تُبنى عليهما هذه الدنيا العظيمة؛ إذ ما هما بأبديين ولا من حديد ولا حجر بل من لحم ودم وعظم. ومتخالفات توافقوا في أيام قليلة هم على جناح التفرق في كل آن.. فكيف يُبنى بالآمال قَصْرٌ يسع الدنيا على هذا الأساس الرخو الفاسد والعمود المدَوّد[٢] الكاسد..

الثالث: «ربي واحد»: كل السعادات لكلٍّ واحدٍ هو التسليمُ لرب واحد. وإلّا لاحتاج إلى الأرباب المتشاكسين من مجموع الكائنات؛ إذ لجامعية الإنسان، له احتياجات إلى كل الأشياء، وعلاقات معها، وتألمات وتأثرات، شعوريا وغير شعوري بكل منها، فهذه حالة جهنميّة. فمعرفة الرب الواحد الذي كل هذه الأرباب الموهومة حجابٌ رقيق على يد قدرته هي حالة فردوسية دنيوية..

الرابع: إن «أنا» نقطة سوداء، وواحد قياسي، التفّ على رأسه خطوط الصنعة الشعورية، تشاهَد فيها أن مالكه أقربُ إليه منه..

سيجيء تفصيل هذه الجمل في خاتمة الباب الأول.

---

(١) أي توهمت أني مالك.
(٢) المنخور.

الباب الأول
في
لا إله إلّا الله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لله ربِ العالَمينَ والصّلاةُ والسّلامُ عَلى سيّد المرسَلين، وعلى آله وصَحبه أجمعين.

أُشهِدُ كلَّ شاهدٍ ومشهود بأنّي **أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله** الذي دلّ على وجوب وجوده، ودلّ على أوصاف كماله، وشهد على أنه واحد أحد فرد صمد:

الشاهدُ الصادق المصدَّق والبرهانُ الناطق المحقَّقُ.. سيدُ الأنبياء والمرسلين.. الحاملُ لسر إجماعهم وتصديقهم.. وإمامُ الأولياء والعلماء المتقين.. الحاوي لسر اتفاقهم وتحقيقهم.. ذو الآيات الباهرة والمعجزات القاطعة المحققة المصدّقة.. والسجايا السامية والأخلاق العالية المكملة المنـزّهة.. مهبط الوحي الرباني.. سيّارُ عالم الغيب والملكوت مُشاهدُ الأرواح ومُصاحبُ الملائكة.. مرشد الجن والإنس.. أنموذج كمال الكائنات بشخصيته المعنوية المشيرة إلى أنه نصبَ عين فاطر الكون.. ذو الشريعة التي هي أنموذج دساتير السعادات، المرمزَة بأنها نظام ناظم الكون سيدنا ومهدينا إلى الإيمان: محمّد بن عبد الله بن عبدالمطلب عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.. فإنه يشهد عن الغيب في عالم الشهادة على رؤوس الأشهاد بشيرا ونذيرا ومناديا لأجيال البشر خلف الأعصار والأقطار بأعلى صوته، وبجميع قوته وكمال جديته، وغاية وثوقه ونهاية اطمئنانه وكمال إيمانه بأنه:

لا إلهَ إلّا الله الذي دلَّ على وجوب وجوده، وصرّح بأوصاف جلاله وجماله وكماله، وشهد على وحدانيته:

الفرقانُ الحكيم المتضمن لسرِّ إجماع كلِّ كتبِ الأنبياءِ المختلفةِ الأعصارِ، وكلِّ كتب

الأولياء المختلفة المشارب، وكلّ كتب الموحدين المبرهنين المختلفةِ المسالكِ. فقد أجمع الكلُّ -أي العقول والقلوب في هؤلاء- على تصديق حُكم القرآنِ الكريم المنوَّرِ جهاتُه الستُّ: كلام الله، المحافظ لياقتَه لهذا الاسم على مر الدهور.. محض الوحي بإجماع مهبط الوحي وأهل الكشف والإلهام.. عين الهداية بالبداهة.. معدن الإيمان بالضرورة.. مَجمَع الحقائق باليقين.. موصلٌ إلى السعادة بالعيان.. ذو الثمرات الكاملين بالمشاهدة.. مقبول الملك والإنس والجان بالحدس الصادق المتولدِ من تفاريق الأمارات.. المؤيَّد بالدلائل العقلية باتفاق العقلاء الكاملين.. المصدَّق بشهادة الفطرة السليمة عن الأمراض باطمئنان الوجدان.. المعجزة الأبدية بالمشاهدة.. لسان الغيب يشهد في عالم الشهادة شهادات مكررة جازمة بـ ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩) الذي دَلَّ على وجوب وجوده ودَلَّ على أوصاف جلاله وجماله وكماله، وشهد على وحدانيته:

العالمُ، أي هذا الكتاب الكبير بجميع أبوابه وفصوله وصُحفه وسطوره وجُمله وحروفه، وهذا الإنسان الكبير بجميع أعضائه وجوارحه وحجيراته وذراته وأوصافه وأحواله. أي هذه الكائنات بجميع أنواع العوالم تقول: **لا إله إلّا الله**.. وبأركان تلك العوالم: لَا خالِق إلّا هو.. وبأعضاء تلك الأركان: لا صانع إلّا هو.. وبأجزاء تلك الأعضاء، لا مدبّر إلّا هو.. وبجزئيات تلك الأجزاء: لا مُربّيَ إلّا هو.. وبحجيرات تلك الجزئيات: لا متصرف إلّا هو.. وبذرات تلك الحجيرات: لا خالِقَ إلّا هو.. وبأثير تلك الذرات: لا إله إلّا هو.. فتشهد الكائنات على أنه هو الواجب الوجود الواحد الأحد بجميع أنواعها وأركانها وأعضائها وأجزائها وجزئياتها وحجيراتها وذراتها وأثيرها، إفرادا وتركيبا، متصاعدا بتركيبات منتظمة، رافعاتٍ أعلامَ الشهادة على وجوب وجود الصانع الأزلي.. ومتنازلا بنقوش غريبة، شاهدات على وجوب وجود النَّقّاش الأزلي.. والكائناتُ كلٌّ واحد من مركباتها وأجزائها تشهد بخمس وخمسين لسانا بأنه واجب الوجود الواحد الأحد..

سيجيء تفصيل تلك الألسنة.

أما إجمالها فهي: تنادي بألسنة إفرادها وتركيباتها المنتظمة.. وفقرها وحاجاتها المَقْضِيَّة.. وأحوالها المنتظمة.. وصورها المكمَّلة العجيبة اللائقة.. ونقوشها المزينة الغريبة

الفائقة.. وحِكَمها العالية.. وفوائدها الغالية.. وبتخالفاتها الخارقة المتلاحظة.. وتماثلاتها المنتظمة المتناظرة.. وبألسنة نظامها وموازنتها جزءا وكلا.. وبانتظامها واطرادها.. وبإتقان الصنعة الشعورية وكمالها في كل شيء.. وبتجاوب المتخالفات الجامدات بعضٍ لحاجة بعض.. وتساند المتباعدات المتفاوتات.. وبلسان الحكمة العامة.. والعناية التامة.. والرحمة الواسعة.. والرزق العام.. والحياة المنتشرة.. وبلسان الحُسن والتحسين.. والجمال المنعكس الحزين.. والعشق الصادق.. والانجذاب والجذبة.. وظليّة الأكوان.. وبلسان التصرف لمصالح.. والتبديل لفوائد.. والتحويل لحِكَم.. والتغيير لغايات.. والتنظيم لكمالات.. وبألسنة إمكانها وحدوثها.. واحتياجاتها وافتقاراتها.. وفقرها.. وضعفها.. وموتها..وجهلها.. وفنائها.. وتغيرها.. وعباداتها.. وتسبيحاتها.. ودعواتها.. والتجاآتها..

فالكائنات -مركباتها وأجزاؤها- بكل هذه الألسنة شاهدات على وجوب وجود خالقها القديم القدير.. ودالّات على أوصاف كماله -كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز- شاهدات على وحدانيته تعالى.. وذاكرات تاليات لأسمائه الحسنى..ومسبّحات بحمده تعالى.. ومفسّرات لآيات القرآن الحكيم.. ومصدقات لإخبارات سيد المرسلين..ومولّدات لحدس صادق منظّم[١] إلى نور الإسلام، المنظم إلى التسليم لطور النبوة، المنظّم لنور الإيمان بواجب الوجود الواحد الأحد. فإجماع الكائنات بكل ألسنتها تحت أمر الكلام القديم، ورياسة سيد الأنام والمرسلين، قائلاتٌ ناطقات: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (البقرة:٢٥٥).

فاستمع تفصيل هذه الفقرات المذكورة:[٢]

□ (٢،١) إذ ما يتراءى ويتظاهر في الكائنات مجموعا وأجزاءً من نوع «التنظيمات» المتلاحظة والنظامات المتناظرة و«الموازنات» المتساندة، الدالة على وجوبِ وجودِ مَن هذه الكائناتُ في تصرفِ قبضَتَيْ «نظامه وميزانه»، والشاهدة بالتلاحظ والتناظر والتساند على أن المقنِّن والأستاذ والنَظّام واحد.. يفتحان مَنفذا نَظارا إلى المطلوب: أي وجوب الوجود والوحدة، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (٣،٤) وإن ما في بيت الكائنات من «الانتظام والاطراد» الدالَّين على عدم تداخل

(١) نظّم الشيء إلى الشيء: ضمه وألّفه.
(٢) وضعنا أرقاما أمام الفقرات تسهيلا للقارئ الكريم.

الأيدي المتعددة، وأن الصنعة والنقش والمُلك لواحد.. يفتحان كوةً نظارةً بطرزٍ آخر أيضا، تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (٦،٥) وإن «إتقان الصنعة الشعورية، وكمالَها» في كل شيء بما تسعه لياقةُ قابليته المجعولة بقلم القَدَر من يد الفياض المطلق الدالَّين على اتحاد القلم، وأن كاتبَ صحيفةِ السماء بنجومها وشموسها هو كاتبُ صحيفةِ النحل والنمل بحُجيراتها وذراتها.. يفتحان مشكاة نظّارةً بطور آخر أيضا، تشهد الكائنات فيها بلسان كل مصنوع مناديةً: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (٨،٧) وإن «تجاوب الأشياء المتخالفة» الجامدة في الطرق الطويلة المعوجة، بعضٍ لحاجة بعض؛ كمادة غذاء الحجيرات والثمرات «وتساندَ الأشياء المتباعدة المتفاوتة» كالسيارات التي هي ثمرات الشمس، الدالَّ ذلك التجاوبُ والتساند على أن الكل خُدّامُ سيدٍ واحد، وتحت أمرِ مدبّرٍ واحدٌ، ومرجعُهم مربٍّ واحدٌ.. يفتحان منفذا نظارا أيضا بمرتبة أخرى، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (١٠،٩) وإن «تشابُهَ الآثار» المنتظمة المتناظرة، كنجوم السماوات، «وتناسُبَ الآثار المتلاحظة» كأزاهير الأرضين، الدالَّين على أن الكلَّ مالُ مالكٍ واحد، وتحت تصرّفِ متصرف واحد، ومصدرُهم قدرةُ واحدٍ.. يفتحان منفذا نظارا أيضا، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (١١) وإن «مظهرية كل حي لتجليات أسماء كثيرة شعورية» مختلفة الآثار والجمال، المتساندة في التأثير، والمتشابهة المتشاركة حتى في حجيرةٍ واحدة، والمتعاكسة كلٌّ في كلٍّ، والمتمازجة كالألوان السبعة في ضياء الشمس الدالة هذه الأحوال مع وحدة أثرها، على أن مسمّاها واحد، تدل بالضرورة على أن خالقَ الحيّ هو بارئُه، ومصوّره، والمنعم عليه، ورزاقه، وأن رزاقه هو خالقُ منابع الرزق، وخالقها هو الحاكم على الكل.. فتفتح هذه الحقيقة منفذا نظارا أيضا إلى مرتبة الوجوب والوحدة، تشهد الكائنات فيه بلسان كل حي: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (١٣،١٢) وإن «ارتباط» أمثال عين النحل والنمل ومعدتها بالشمس ومنظومتها، مع «المناسبة» في الجزالة الكيفية والتلاحظ والتناظر، الدال ذلك الارتباطُ والمناسبة

على أنهما: كلاهما نَقْشَا نقاشٍ واحد.. فيفتحان منفذا نظارا أيضا، تشهد الكائنات فيه مناديةً: **الله لا إله إلّا هو**..

□ (١٤) وإن «أخوّة الجاذبة» المكتوبة المنسوجة المنقوشة بين الذرات والجواهر الفردة «للجاذبة العمومية» المكتوبة المنسوجة الممددة بين النجوم والشموس، الدالة على أنهما: كلاهما كتابةُ قلمٍ واحدٍ ومدادِهِ ونَسْجَا نسّاجٍ واحدٍ وأسدائه، وشعاعا شمس واحدٍ وفيضِه.. تفتح مرصادا نظارا أيضا إلى الوجوب والوحدة، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان الدقيق والعُلوي: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (١٥) وإن «نِسَب كلّ ذرةٍ في المركبات» المتداخلة المنتظمة الموظفة تلك الذرةُ كالنفر في كل نسبة له وظيفة لفائدة، كذرة العين في مركبات الأعصاب المحركة والحساسة والأوردة والشرايين والباصرة. فتدل بالضرورة على أن خالق عين العين والعين، وعين العالم -أي الشمس- وواضعَها موضعَها اللائق هو خالق كل المركبات.. فتفتح هذه الحقيقة أيضا مشكاةً نظارةً، تشهد الكائنات فيها بلسان كل ذرة من ذراتها: **الله لا إله إلّا هُو**.

□ (١٦) وإن «وُسعَة تصرف القدرة في النوع الواحد» الذي لا يصدر إلّا عن الواحد بالبداهة، مع شمول بعض الأنواع أكثر الكائنات -كالحيات والملَك والسمك- يُتحدس منه بأن خالق الفرد هو خالقُ النوع؛ مثلا: إن القلم الذي رَسَم تشخُّص وجهِ «زيد» لابد بالضرورة أن يكون كلُّ أفراد البشر منظورا له دفعةً، لمخالفة تعيّنه لكلِّ فرد، وإلّا لوقَع التوافق بالتصادف، وخالقُ النوع بهذا السرّ هو خالق الأجناس.. فتفتح هذه الحقيقة أيضا منفذا نظارا، تشهد الكائنات فيه: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (١٧) وإن «ما يُتوهم -بقصور النظر- من الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة» المنجرَّة إلى الاستنكار في إسناد كل شيء إلى الواجب الوجود الواحد الأحد.. فتلك الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة والمعالجات تنقلب حقيقيةً عند عدم الإسناد إلى صاحب مرتبة الوجوب والوحدة،[1] بل تتضاعف تلك الأمور عند إسناد الآثار إلى جانب الإمكان والكثرة والأسباب وأنفسِها، عددَ أجزاء الكائنات.. فما يُتوهم في إسناد الكل إلى الواجب يتحقق في إسناد جزء واحد إلى غيره تعالى. بل الأولُ أسهلُ وأيسر؛ إذ صدور الكثير عن الواحد أقلُّ

(١) تفصيله في «حباب».

كلفةً من صدور الواحد عن الكثير المتشاكسين العُمي الذين اجتماعهم يُزيدهم عَمىً؛ إذ النحلة لو لم تخرج من يد قدرة الواجب، لزم اشتراك ما في الأرض والسماوات في وجودها! بل تترقى الكلفة والمعالجة في الجزء الواحد من الذرة بالنسبة إلى الوجوب إلى أمثال الجبال، ومن الشعرة إلى أمثال الحبال، لو أُحيل على الأسباب.. إذ الواحد بالفعل الواحد يحصّل وضعيةً ومصلحة للكثير لا يصل إلى عين تلك الوضعية والنتيجة الكثيرُ إلّا بفعل كثير؛ كالأمير بالنسبة إلى نَفَراته، والفوّارة إلى قطراتها، والمركز إلى نقاط دائرته. فبفعل واحدٍ تصل هذه الثلاثة إلى تحصيل وضعيةٍ للكثير،[١] ونتيجةٍ لا تصلُ النفرات والقطرات والنقاط لو أحيلت عليها إلّا بأفعال كثيرة وتكلُّفات عظيمة. بل الاستغراب والاستبعاد الموهومان في طرف الوجوب، ينقلبان هنا إلى محالات متسلسلة.

من بعض المحالات: فرض صفات الواجب في كل ذرة بضرورة اقتضاء النقش الكامل والصنعة المتقنة.. وكذا، توهُّمُ شركاءَ غيرِ متناهية في الوجوب الذي لا يقبل الشركة أصلا.. وكذا، فرض كل ذرة حاكما على الكل ومحكوما لكلٍ من المجموع، وللكلِ معا، بضرورة اقتضاء النِظام والانتظام.. وكذا، فرض شعورٍ محيط، وعلمٍ تام في كل ذرةٍ، بضرورة اقتضاءِ التساند والموازنة.

فإسناد الأشياء إلى الأسباب في جانب الإمكان والكثرة يستلزم التزامَ هذه المحالات المتسلسلة، والممتنِعات العقلية، والأباطيل التي تمجّها الأوهام.. وأما إذا أُسند إلى صاحبها الحقيقي، وهو صاحب مرتبة الوجوب والوحدة، لا يلزم إلّا أن تكون الذرة ومركباتها -كقطرات المطر المتشمِّسة المتلمعة بتماثيل الشمس- مظاهرَ للمعاتِ تجليات القدرة النورانية الأزلية الغير المتناهية المتضمنة للعلم والإرادة الأزليين الغير المتناهيين، فلمعتُها المالكة لخاصيتها أجلُّ من شمس الأسباب تأثيرا بسبب التجزؤ والانقسام في جانب الإمكان والكثرة دون الوجوب والوحدة. فالتّماس مع تلك القدرة في أقلَّ من ذرة أكبر تأثيرا من أمثال الجبال في جانب الكثرة، بسبب أن جزء النوراني مالكٌ لخاصية الكل، كأن الكلّ كلي، والجزءَ جزئيٌ ولو كان النور ممكنا، فكيف بنور الأنوار المتنور من جانب الوجوب؟..[٢] وكذا لا كلفة ولا

(١) سيرد شرح هذا المثال في «ذيل الحباب».
(٢) أي لو كان النور من جانب الإمكان هذا فعله فكيف بنور الأنوار...

معالجة بالنسبة إلى تلك القدرة؛ إذ هي ذاتية للذات[1] محالٌ تداخلُ ضدِّها فيها، فتتساوى بالنسبة إلى لمعتها الذراتُ والشموس والجزء والكل والفرد والنوع، بسر الشفافية والمقابلة والموازنة والتجرد والإطاعة والانتظام[2] بل بالحدس والمشاهدة، إذ تلك القدرة تفعل بأمثال الخيوط الدقيقة الجامدة أمثالَ العناقيد، تلك الخوارق الحيوية.. لو أُحيلت على الأسباب؛ لاحتيج لتصنيع عنقود واحد -لو أمكن- إلى ملايين قنطارٍ من تلك الكلفة والمعالجات! وكذا إن تلك القدرة تتجلى بجلوات الوجود المنعكس من ظل الوجوب في سَمِّ الخياط، على صفحات الشفافات بالتماثيل البرزخية.. لو أحيلت على الأسباب لامتنعت أو احتيجت إلى ما لا يحد من المعالجات.

اعلم أن الحياةَ والوجود والنور -لشفافية وجهَي المُلكِ والملكوتِ فيها- ما استترت القدرةُ عند إيجادها تحت الوسائط الكثيفة. فيترقق السببُ الظاهري فيها بحيث يتراءى تحتَه تصرفُ القدرة. فمن أمعن النظر في أطوار الحياة والأنوار، يشاهِد تصرفاتِ القدرة تحت الأسباب؛ إذ تلك القدرة لا تَصرِفُ لتصنيع عنقودِ العنب إلّا غصنا دقيقا جامدا، ولترسيم شُميسة في زجيجة إلّا إمرارَ النور في سَمِّ الخياط، ولتنوير البيت إلّا توسيطَ شَعرةٍ في زجاجة.

وكذا إن الأرواحَ والعقول في اضطرابات مزعجة ناشئة من أمراض وضلالات ناشئة من الاستنكارات الناشئة من الاستبعاد والاستغراب والحيرة في إسناد الأشياء إلى أنفسها وأسبابها الإمكانية.[3] فتُجبر الاضطراباتُ الأرواحَ للخلاص والتشفي[4] إلى الفرار إلى الواجب الوجود الواحد الأحد الذي بقدرته يحصل إيضاحُ كل مُشكل، وإرادتُه مفتاح كل مغلق، وبذكره تطمئن القلوب. فلا ملجأ ولا منجى ولا مناص ولا مخلص، إلّا الالتجاء والفرار إلى الله والتفويض إليه. كما قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات:٥٠) ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨) فتفتح هذه الحقيقة أيضا مشكاةً نظارة إلى الحدس الصادق، المنظّم إلى نور الإسلام، المنظّم إلى التسليم لطور النبوة، المنظّم

(١) للذات الإلهية.
(٢) هذه الأسرار الستة مذكورة بالتفصيل في «ذيل الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين». وفي «السانحات» من مجلد «صيقل الإسلام».
(٣) انظر «حباب».
(٤) أي الاستشفاء، مشتقة من الشفاء.

لنور الإيمان بواجب الوجود الواحد الأحد، فتشهد الكائنات بلسان كل جزء من أجزائها: **الله لا إله إلّا هو..**

□ (١٨) وإن «بساطةَ الأسباب» الظاهرية كالخبز واللبن، ومحدوديتَها وحصرَها وانضباطها وعرَضيةَ بعضها وفقرَها وضعفها وموتَها وجمودها في ذاتها وعدم شعورها وعدم إرادتها بالمشاهدة، واعتبارية القوانين، وموهوميتَها، وعدمَ تعيّنها إلّا بمقنِّنها، وعدم وجودها الموهوم إلّا بعد رؤيتها، وعدمَ رؤيتها إلّا بعد وجود المسبّب «مع خوارق نقش المسبَّبات» وأعجبيةَ صنعتها كتشكيلات نُسُج حجيرات البدن بسببية أكل الخبز، وكتابةِ النقوش الغير المحدودة المنتظمة المكتوبة في خردلة الحافظة، كأن تلك الخردلة سند[1] استنسختها يدُ القدرة من صحيفة الأعمال، وأعطتها ليد الإنسان ليتذكّر به وقتَ المحاسبة، وليطمئن أن خلْفَ هذا الهَرْجِ والمَرْجِ الوجودي مرايا للبقاء، يرسُم العليمُ فيها الأشياءَ بانتظام بلا اختلاط -ولو كانت الأشياء كثيرة مختلطة- وكان المُرسَم فيه أضيقَ الأشياء بسببية وضعية التلافيف وتشكيلات الحروف والصور الذهنية في التكلم والتفكّر، بسببية قرع اللها[2] وحركة الذهن المقتضية هذه المسببات بالضرورة... لقدرة غير متناهية؛ بل علم وإرادة غير متناهيين. فتستلزم هذه الحقيقةُ أنه لا مؤثر في الكون على الحقيقة إلّا خالقٌ قدير لانهاية لقدرته بوجه من الوجوه. وما الأسباب إلّا «بهانات»[3] وما الوسائط إلّا حجابات ظاهرية، وما الخاصيات والخواص إلّا أسماء وعنوانات وزُجيجات جامدة لِلَمعاتِ تجلياتِ القدرة الأزلية النورانية الغير المتناهية، المستندة، بل المتضمنة للعلم والإرادة الأزليين الغير المتناهيين. إذ التّماس مع تلك القدرة بأدنى شيء أعظمُ وأجلّ وأكبر من جبال الأسباب. إذ تفعل لمعةُ تلك القدرة بأمثال الخيوط الدقيقة الجامدة اليابسة أمثالَ العناقيد تلك الخوارقَ الحيوية الطرية، لو أُحيلَت على الأسباب واجتمعت الأسباب والوسائط على أن يأتوا بمثله ما فعلوا ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيرا. وتستلزم هذه الحقيقة أيضا أنّ ما يسمى بالقوانين والنواميس إنما هي أسماء وزُجيجات لتجليات مجموع العلم والأمر والإرادة على الأنواع. وما القانون إلّا أمرٌ ممدود أو أوامر مسرّدة. وما الناموس إلّا إرادة مطولة أو تعلقات منضّدة.. فتفتح هذه الحقيقةُ

---

(١) أي المستند والدليل والحجة.
(٢) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم والتي تساعد على التصويت والتحكم في مخارج الكلام.
(٣) حجج واهية.

مشكاةً نظّارةً في الإمكان إلى مرتبة الوجوب تشهد الكائنات بلسان كلِ مسبَّب من مسبباتها مناديةً: **الله لا إله إلّا هُو**.

□ (١٩) وإن «عدمَ تناهي خوارق نقش صنعة الكائنات وإتقانها» والاهتمام بها، تستلزم قدرةً غير متناهية، بل كل جزء منها أيضا يستلزم تلك القدرة. فإذن تستلزم وتقتضي وتدل بالضرورة على أن لهذه الكائنات خالقا قديرا، له قدرة كاملة لانهاية لتجليات تلك القدرة بوجه من الوجوه. فإذن استغنَى عن الشركاء بالقطع فلا حاجة إليها بالضرورة، مع أن الشركاء الموهومة المُستَغنيَ عنها بالقطع والضرورة ممتنعةٌ بالذات. لا يمكن أن يوجد فرد منها؛ وإلّا لزم تحديد القدرة الكاملة الغير المتناهية من كل وجه، وانتهاؤها في وقت عدم التناهي بالمتناهي بلا ضرورة، بل مع الضرورة في عكسه وهو محال بخمس مراتب بالضرورة. فمن هنا يكون الاستقلال والانفراد خاصيتين ذاتيتين للألوهية. مع أنه لا محلَّ ولا موضعَ ولا مكان للشريك إلَّا في الفرض الوهمي؛ إذ ما نزل سلطانٌ قط ولا احتمالٌ عن دليل، ولا إمكانا ذاتيا[1] ولم يوجد أمارة ما قط على وجود الشريك في جهة من جهات الكائنات. وإلى أي جهة روجع واستُفسر عن الشريك، أُعطى جوابُ ردٍّ بإراءة سكة التوحيد، مع أنه لا مؤثر في الكون على الحقيقة إلّا واحد أحد؛ بسرّ أنّ أشرف الكائنات وأوسع الأسباب اختيارا الإنسانُ، مع أنه ليس في يد البشر مِن أظهرِ أفعاله الاختيارية كالأكل والكلام من مائة جزء إلّا جزءٌ واحد مشكوك فيه. فإذا كان الأشرفُ والأوسعُ اختيارا هكذا مغلولَ الأيدي فكيف بالأسباب الجامدة الميتة؟ فكيف يكون المنديل والظرف الذي لَفَّ فيه السلطانُ هديتَه، شريكا للسلطان أو معينا له؟.. فتتحدس من هنا قطعا بأن الأسبابَ حجابُ القدرة فقط؛ ومناطُ الحكمة، ليس إلّا.. فتفتح هذه الحقيقة أيضا مرصادا ناظرا إلى الوجوب والوحدة؛ فتشهد الكائنات فيه بهذا اللسان منادية: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (٢٠) وإن «تساند الأسماء المتجلية» في الكائنات، مع شمول بعض الأسماء كلَّ شيء بظهور أثرها فيه كالعليم، وتَشاركَها وتشابُكَها حتى في ذرة واحدة، وتعاكسَها كلا في كلٍ، وتمازجَها كالألوان السبعة في ضياء الشمس، تدل هذه الأحوال مع وحدة أثرها على أن مسمّاها واحد أحد فرد صمد؛ فتفتح مشكاةً نظارةً إلى الواجب الوجود الواحد الأحد، تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان النوراني: **الله لا إله إلّا هُو**..

(١) أي ولا حتى إمكانا ذاتيا.

□ (٢١) وإن ما يتظاهر في مجموع الكائنات كلا وأجزاء: من «الحكمة العامة» المتضمنة للقصد والشعور والإرادة والاختيار، الدالة على وجوب وجودِ حكيم مطلق؛ لامتناع الفعل بلا فاعل، ولامتناع أن يكون جزء المفعول المنفعل الجامد فاعلا لهذا الفعل العام الشعوري..

□ (٢٢) وما يتلألأ على وجه الكائنات من «العناية التامة» المتضمنة للحكمة واللطف والتحسين، الدالة بالضرورة على وجوبِ وجودِ خلاق كريم؛ لامتناع الإحسان بلا محسن..

□ (٢٣) وما انبسط على وجه الكائنات من «الرحمة الواسعة» المتضمنة للحكمة والعناية والإحسان والإنعام والإكرام والتلطيف والتودد والتحبب والتعرف، الدالة على وجوب وجود الرحمن الرحيم؛ لامتناع الصفة بلا موصوف ولامتناع أن يُلبس هذه الحُلّةَ التي تسع السماوات والأرض غيرُه تعالى. إذ أين قامة هذه الأسباب الجامدة الميتة القصيرة الحقيرة، وأين قيمة هذه الحُلة الغير المحدودة؟..

□ (٢٤) وما وزع على ذوي الحياة -على تنوّع حاجاتها- من «الرزق العام» المتضمن للحكمة والعناية، والرحمة والحماية، والمحافظة والتعهد، والتعمد والتودد والتعرف الدال بالضرورة على وجوب وجود رزاق رحيم؛ لامتناع الفعل بلا فاعل، وامتناع أن يكون جزء المفعول فاعلا لهذا الفعل العام..

□ (٢٥) وما انتشر وانتشر في الكائنات من «الحي والحياة» المتضمنتين للحكمة والعناية والرحمة والرزق والصنعة الدقيقة والنقش الرقيق والإتقان والاهتمام المترشحة بتجليات قصد وشعور وعلم وإرادة تامة عليها، الدالة تلك الحياة على وجوب وجود قادر قيوم محيٍ مميت واحد؛ ولأن كلَّ شيءٍ واحدٌ فخالقُه واحد؛ إذ «الواحد لا يصدر إلّا عن الواحد» فخالقُ الكل واحد خلافا لقاعدة الفلسفة الكاذبة المشركة القائلة: «الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد».

فهذه الحقائق الخمسة الممتزجة كالألوان السبعة في الضياء وكالدوائر المتداخلة المتحدة المركز، تدل بالبداهة على أن لهذه الكائنات ربا، قديرا، عليما حكيما، كريما، رحيما، رحمانَ، رزاقا، حيًّا، قيوما، متصفا بأوصاف الكمال.. فتفتح هذه الخمسة الممتزجة بضياء واحد مشكاة نظارة إلى الحدس الصادق المنظم إلى نور الإسلام، المنظّم إلى التسليم لطور النبوة، المنظّم

لنور الإيمان بأنه: هو الله الواجب الوجود الواحد الأحد. فتشهد الكائنات في تلك المشكاة بهذا اللسان ذي النغمات الخمس منادية. **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (٢٦) وكذا إن ما يتلمع على وجه الكائنات من «الحُسن العَرَضي، والتحسين» المشيرَين إلى وجوب وجود مَن له الحسن الذاتي والإحسان..

□ (٢٧) وما يُرى في خد الكائنات من «الجمال الحزين» المنعكس المرمِز إلى وجوب وجود ذي الجمال المجرد..

□ (٢٨) وما يُرى في قلبها من «العشق الصادق» المنادي على المحبوب الحقيقي.

□ (٢٩) وما يُحَسّ به في صدرها من «الانجذاب والجذبة» الملوِّحين بالحقيقة الجاذبة التي تنجذب إليها الأسرار..

□ (٣٠) وما «يُسمع من كل الكُمَّلين من شهادتهم» بمشاهدتهم كونَ كل الأكوان ظلالَ أنوار ذاتٍ واحد..

آيات نيرات.. فهذه الحقائق الخمس تدل بالضرورة على أن لهذا الكون ربًّا واجب الوجود، متصفا بأوصاف الجلال والجمال والكمال. فتفتح كوة نظارة أيضا تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان ذي النغمات الخمس: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (٣١) وكذا إن ما يُرى في جزئيات أنواع الكائنات، من «التصرفات المتناظرة» والتصرف لمصالح الدال بالبداهة على وجوب وجود متصرفٍ حكيم واحد؛ لامتناع الفعل بلا فاعل، وامتناع أن يكون جزء المفعول المنفعل الجامد فاعلا لهذا الفعل العام الشعوري المتلاحظ..

□ (٣٢، ٣٣) وما يُرى في أجزاء الكائنات من أنواع النباتات والحيوانات من «التبديل لفوائد، والتحويل لحِكَم» الدالَّين على وجوب وجود رب مدبر حكيم..

□ (٣٤) وما يُرى في أعضاء الكائنات ككرة الأرض بلَيلها ونهارها من «التغيير لغايات» الدال على وجوب وجود فاعل مختار، فعالٍ لما يريد؛ لامتناع الفعل بلا فاعل، ولامتناع أن يكون مصدرُ هذه الأفاعيل المتناظرة، غيرَ قدرة الواجب..

□ (٣٥) وما يُرى في العالم من «التنظيم لكمالات» الدال بالبداهة على وجوب وجود القادر القيوم؛ لامتناع التنظيم بلا ناظم، وامتناع أن يكون جزء الكثير الممكن المنفعل فاعلا لهذا الفعل المحيط الشعوري. وأين يدُ العنكبوت من نسجِ حُلّةٍ قُدّت على مقدار قامة الكائنات؟ بل أين الأعمى الأشل الجامد وأين نسجُ قميص مطرَّز لهذا العالم؟

أيضا آيات[١] على وجوب الوجود والوحدة..

وهذه الحقائق الخمسة في الفعالية كالألوان السبعة في الضياء، وكالدوائر المتداخلة المتحدة المركز، تدل بالبداهة على أن لهذه الكائنات ربا متصرفا حكيما مدبرا فاعلا مختارا فعّالا لما يريد قادرا قيّوما متصفا بأوصاف الكمال. فتفتح هذه الحقائق الخمسة أيضا بضياء واحد كوة نظّارة إلى مرتبة الوجوب والوحدة، فتشهد الكائنات بهذا اللسان ذي الأصوات الخمسة منادية: **الله لا إله إلّا هُو**..

□ (٣٦) وكذا إن «حدوث الكائنات» كُلّا وجزءا يستلزم مُحدِثا قديما.. وإنّ تردد الكائنات مجموعا وأجزاءً بين «الإمكانات» الغير المحدودة ذواتٍ وصفاتٍ وكيفياتٍ بمقدار تخصصها تتزايد الإمكانات. ثم أخذَها هذا الشكل المنتظم المتقَن المحكم من بين تلك الطرق العقيمة يستلزم ذلك التردد، ويدل بالضرورة على وجوب وجود رب عليم حكيم قدير.

□ (٣٧) وإن «احتياجات الكائنات» كلّا وأجزاءً وجودا وبقاءً مادة ومعنى، حياة وفكرا، مع فقرها وضعفها في ذاتها وقِصَر يدِها عن أدنى حاجاتها، ثم قضاءَ حاجاتها -على تنوعها- من حيث لا يُشعَر في أوقاتها المناسبة؛ تستلزم وتقتضي وتدل على وجوب وجود رب مدبر رزاق كريم رحمان رحيم..

□ (٣٨) وإن «افتقارات الكائنات» مجموعا وأجزاءً وجودا وبقاء مادة ومعنىً، مع ضعفها في ذاتها وقِصَر يدها عن أدنى مطالبها، ثم إغناءَ مطالبها من حيث لا يُحتَسب في الأوقات اللائقة؛ تستلزم وتقتضي وتدل على وجوب وجود رحيم كريم فياض لطيف ودود.

(١) أي ما ذكر من التصرف والتبديل والتحويل والتغيير والتنظيم.

□ (٣٩) وإن «فقرها في ذاتها» كالشجر والأرض اليابسين في الشتاء «مع تظاهر الاقتدار المطلق» في معدن ضعفها كحياتها في الربيع، يدل على وجوب وجود القدير المطلق الذي تتساوى بالنسبة إليه الذراتُ والشموس.

□ (٤٠) وإن فقر الكائنات لذاتها، مع تظاهر آثار «الغناء المطلق» كظهور الأرزاق من التراب اليابس، يدل على وجوب وجود الغني المطلق الذي من حجيرات خزائن رحمته: الشمسُ والشجر، ومن مسيلات حوض رحمته: الماء والضياء.

□ (٤١) وإن «موتَها في ذاتها مع تظاهر أنوار الحياة» يدل على وجوب وجود الحي القيوم المحيي المميت.

□ (٤٢) وإن «جمودها وجهلها مع تظاهر آثار الشعور المحيط» وإن ذا [١] هذا الشعور سميع بصير، يدلان على وجوب وجود عليم خبير.

□ (٤٣) وإن «فناءها وتغيرَها على الدوام بالانتظام» يدلان بالحدس القطعي على وجوب وجود المغير، الغير المتغير الدائم الباقي.

□ (٤٤) وإن ما لذوي الأرواح من «العبادات النورانية» المقبولة المثمرة المتضمنة للمشاهدات والمكالمات والفيوضات والمناجاة، تدل على وجوب وجود معبود حقيقي.

□ (٤٥) وإن «تسبيحات الكائنات» القاليّة والحالية،[٢] تدل على وجوب وجود مَن ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحشر:٢٤) إذ دلالة الفطرة صادقة، وشهادتها الفذة لا تُرد.. فكيف بدلالاتٍ غير متناهية وشهادات غير محصورة، قد اتفقت كالدوائر المتداخلةِ المتحدةِ المركز، على وجوب وجود مَن ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بألسنة أقوالها وأحوالها وبنقوش جباهها؟.

□ (٤٦) وإن «أدعية ذوي الحاجات» المقبولة والمستجابة، والمؤثرة والمثمرة، تدل بالضرورة على وجوب وجود مَن يجيب المضطر إذا دعاه.

---

(١) صاحب هذا الشعور.
(٢) بلسان الحال والمقال.

□ (٤٧) وإن «التجاآت ذوي البلايا» شعوريا وغير شعوري عند الاضطرار إلى حاميها المجهول، بل خالقها، تدل على وجوب وجود ملجأ الخائفين، وغياث المستغيثين.

□ (٤٨) وإن «مشاهدة كل الكُمّلين» العابرين من الظاهر إلى الباطن، واتفاقَهم بالكشف والشهود والذوق والمشاهدة على أن كل الأكوان ظلالٌ لأنوارِ ذاتٍ تدل على وجوب وجود شمس الأزل الذي هذه الأكوانُ ظلالُ أنواره.

□ (٤٩) وكذا إن ما يُعلَم بل يُتحدَّس بل يُحَسّ بل كأنه يُرى ويُشاهد مِلءَ الكون والفضاء، قد توضعت على مثل الذرة أمثالُ الجبال من «الأفاعيل المتجلية، وتجليات الأسماء» السيالة الهابطة من مرتبة الوجوب والوحدة، تدل بالضرورة على أن مبدأ هذه الأفاعيل ليس مرتبةَ الإمكان، بل هي أشعة مرتبة الوجوب، وتدل على وجوب وجود ذاتٍ مقدس فاعلٍ لهذه الأفاعيل، ومسمىً لهذه الأسماء.

□ (٥٠) وإن «اضطرابات الأرواح» من الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة المنجرة إلى الاستنكار ثم إلى محالات متسلسلة في تفويض الأكوان إلى أنفسها وأسبابها تلجئ العقول والأرواح، للخلاص من مرض الاضطراب والتشفي منه إلى امتثال أمر: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات:٥٠).. ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).. ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمُورُ﴾ (فاطر:٤) الذي بقدرته يحصل الإيضاح لكل مشكل وبذكره تطمئن القلوب. نعم، لا مؤثر في الكون حقيقةً إلا الله..

□ (٥١) وكذا إن ما يُرى من «القَدر بالضرورة» في المحسوسات، و«بالنظر» في غيرها، يدلان على وجوب وجود مَن خلق كل شيء وقدّره تقديرا؛ إذ عالَم الشهادة مجموعا وأجزاءً، لكل شيء منه غاياتٌ منتظمة، ونهاياتٌ مثمرة وحدود كأنها آجال منتظمة، التي تسمى بالمقادير التي لا تحصل إلّا بقوالب؛ وما هي إلّا القضاء والقدر، التي هي قوالب القدَر قُدّتْ على مقدارِ قامات الأشياء، تعينت أولا فبنيت الأشياء على هندستها. فإن شئت مثالا فانظر إلى بدنك باعوجاجاته ويدك بأصابعها.. فيُنتَقل بالحدس الصادق، من هذا القَدر الضروري إلى القَدَر النظري في المعنويات والأحوال؛ إذ لها أيضا نهايات وغايات مثمرة وحدود وآجال منتظمة، هي مقاديرها، هي قوالبها ترسّمت بيد القضاء والقدر، فكتبت القدرةُ كتابَ المعاني

على مِسطر القَدَر. فالقُدرة مصدرٌ، تنظر إلى مِسطَر القدر.[١] فهذان القَدران يدلان بالضرورة على وجوب وجود مَن هذه الكائناتُ خطوط قلم قضائه وقدره. آمنّا!

▫ (٥٢) وكذا إن «جامعية استعداد الإنسان» تخبرنا بأن البشر ثمرةُ شجرةِ الخلقة، فيكون أكملَ وأبعدَ، فوجههُ الشفاف متوجهٌ إلى الظلمة وفضاءِ العدم الذي هو باطن الدنيا. وما في جامعية الاستعداد من قابلية العبادة، تخبرنا بأن الإنسان ما خُلق هكذا، ليكون منكوس الرأس يخلد إلى الفاني، بل قابلية العبادة لصرف وجهه الشفاف من الظلمة إلى النور، ومن فضاء العدم إلى الوجود، ومن المنتهى إلى المبدأ، ومن الفاني إلى الباقي، ومن الخلق إلى الحق. كأن العبادةَ حلقة اتصال بين المنتهى والمبدأ في دائرة الخلقة. فتشهد الفطرة بهذا اللسان على وجوب وجود مَن خَلق الخلق ليُعْرَف، وخلَق الجنَّ والإنس ليُعْبَد. آمنّا..

▫ (٥٣) وكذا إن ما يُشاهد في الكون من مرتبة «الإمكان والكثرة والانفعال» يستلزم بالبداهة الأَولَوية مرتبةَ الوجوب والوحدة والفاعلية، فيدل بالضرورة على وجوب وجود الواجب الوجود الواحد الأحد الفعال لما يريد. آمنا..

▫ (٥٤) وكذا يُشاهَد في الكائنات أن «الأشياء تتحرك قبل الوصول إلى نقطة الكمال لها» ثم تسكن بعد الوصول وتستقر. فيتحدس من هنا بأن الوجود يقتضي الكمال؛ والكمال يقتضي الثبات، فوجود الوجود بالكمال، وكمال الكمال بالدوام، فالواجب السرمدي، هو الكامل المطلق. فكل كمالات الممكنات ظلالٌ لتجليات أنوار كماله. فتدل هذه الحقيقة على أن الله هو الكامل المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله. آمنا..

▫ (٥٥) وكذا إن «ألْطفية باطن الشيء من ظاهره» كما يدل على أن صانعه ليس خارجا بعيدا منه، كذلك «محافظته لِنِسَب النظام والموازنة» مع سائر الأشياء يدل على أنه ليس داخلا في الشيء أيضا. فالنظر إلى المصنوع في ذاته كما يدل على أن صانعه عليم حكيم.. فالنظر إليه مع الغير يدل على أن صانعه سميع بصير، فوق الكل يراه مع الغير يرسم بهما نقشا لمصلحة. فتدل هذه الحقيقة على وجوب وجود الصانع الذي ليس داخلا في العالم ولا خارجا، كما هو في أبطن البطون كذلك فوق الفوق، كما يرى شيئا يرى معه كل الأشياء. آمنا..

---

(١) أي إن تجليات القدرة المطلقة تنضبط وفق مقادير القدر كما هو في علم الله.

فهذه الحقائق العشرون المتمازجة كألوان القوس القُزح وكالدوائر المتداخلة المتحدةِ المركز، آياتٌ نيّرات تدل بالضرورة على أن لهذه الكائنات ربًّا، قديما واجب الوجود، عليما، حكيما، مريدا، قديرا، رحمانَ، رحيما، رزاقا، كريما، قادرا، غنيا، حيا، قيوما، عليما، خبيرا، دائما، باقيا، معبودا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحشر:٢٤).. ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل:٦٢) ملجأ الخائفين، غياث المستغيثين، الذي هذه الكائنات ظلال أنواره وتجليات أسمائه وآثار أفعاله.. الذي بذكره تطمئن القلوب.. وإليه ترجع الأمور.. خلق الجن والإنس ليعبدوه.. نظّم الكائنات بقوانين قضائه وقدره.. وهو الواجب الوجود الواحد الأحد.. الكامل المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله.. وهو اللطيف الخبير السميع البصير..

فتفتح هذه العشرون من الحقائق المتمازجة، بأنوار مخططة كواتٍ نظارةً بوجوهٍ وجهاتٍ ومراتبَ إلى الحدس الصادق المنظم لنور الإسلام المنظم إلى التسليم لطور النبوة المنظم إلى الإيمان؛ بأنه هو الله الواجب الوجود الواحد الأحد. فتشهد الكائنات بهذا اللسان ذي النغمات العشرين منادية: **الله لا إله إلّا هُو**.

□ و**اعلم** أن «**الله لا إله إلا هُو**» بكل دلائله المزبورة[1] مثبت «لا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله».

وكذا فاعلم أن «**لا إله إلا الله**» بكل براهينه المذكورة، يستلزم «محمد رسول الله». فمحمد رسول الله كما يتضمن من الإيمان خمسة أركانه، كذلك هو مظهرٌ ومرآةٌ لصفة الربوبية. فبهذا السر صار قرينا موازيا لـ«**لا إله إلا الله**» في ميزان الإيمان، فتأمل. ولأن النبوة مظهر لصفة الربوبية تكون جامعةً وكليةً، والولاية خاصة وجزئية، فنسبتها إليها كنسبة صفة «رب العالمين» إلى «ربي»... ونسبة العرش إلى القلب.. ونسبة المعراج الممتد من الأرض إلى ما فوق العرش المار على طوائف المُلك والملكوت إلى معراج المؤمن في سجوده.. بالوجه الخاص..

(١) أي المكتوبة.

تنبيه

▫ **اعلم** أن هاتيك البراهين على هذا المطلب العالي، كالدائرة المحيطة بالمركز، وكلُّ نقطة من المحيط كمنفذ ينظر بلونه المخصوص إلى المركز، وبين النقاط تساندٌ يزيل ضعفَ الأفراد الخصوصية، ويتولد من مجموع البراهين حدسٌ صادقٌ ينظِّم إلى نور الإسلام، ثم يُنَظَّم إلى التسليم لطور النبوة، ثم يُنظَّم لنور الإيمان القيوم للمطلوب. وما البراهين إلا منابع لتحلُّب هذا الحدس، فضعفُ الفرد يزول بسرّ التساند.. ومع فرض عدم زواله لا يسقط الفردُ عن الجزئية وعن الاعتبار، بل عن الاستقلالية والبرهانية.. ومع فرض إبطال الفرد لا تبطل الدائرةُ بل تتصاغر.. وبفرض إبطالها لا يزول الحدسُ الصادق.. وبفرض زواله فلا بأس أيضا.. إذ نور الإسلام قائم، وبعدَه التسليمُ لطور النبوة لا يتزلزل.. وبعدَه نور الإيمان الموهوب قيومٌ. فطلبُ قوةِ وضوحِ المطلوب المترتب على مجموع البراهين من كل فردٍ على حدة بجزئية الذهن من مرض النفس، الذي يزيد مرضَها ويلقنها ملَكةَ الرد والإنكار.. اَللَّهُمَّ احفظنا! فالبرهان الواحد أولا يُنظر به إلى المطلوب، ثم يتشرب أنموذج المجموع فتتساقط عنه الأوهام.

▫ **اعلم** أيضا أن من البراهين ما هو كالماء، ومنها ما هو كالهواء، ومنها ما هو كالضياء، لابد من التوجه بلطفٍ ووُسعةِ نظرٍ في لينة؛ وإلّا فبالحرص والتعمق والجسّ بأصابع التحري يسيلُ ويزولُ ويختفي.[١]

▫ ثم **اعلم** أن النظر إلى شجرة ذات أغصان وفروع وثمرات لمعرفة حياتها وطعمها ودرجة قوتها على قسمين:

نظرٌ من طرف الأصل والجُرثوم،[٢] فهذا نظر سهل وبسيط مستقيم متين.

والثاني: من طرف الثمرات والفروعات، فهذا النظر بدون النظر الأول سقيم موصلٌ إلى الضلالات.

كذلك إن شجرة الإسلامية جُرثومها في السماء، أغصانها منتشرة في آفاق الكثرة، فلمعرفتها نظران؛ وللدخول في دائرتها طريقان:

---

(١) تفصيل هذه البراهين في «زهرة من رياض القرآن»، وفي «المذكرة العاشرة من اللمعة السابعة عشرة».
(٢) بمعنى الأصل.

فالنظر الأول: هو النظر من جانب الأصل، فإذا نظر الموفَّقُ إلى الجُرثوم يرى فيها حوضا عظيما منبعُه الصافي هو الوحي المحض، فتزايدَ الحوضُ بتحلّب الآيات الآفاقية والأنفسية. فمِن ذلك الحوض الممتزج مادةُ حياة الثمرات وغذائها. فإثباتُ حياةِ ثمرة واحدة تكفي لإثبات سائر أخواتها، بل -وكذا- تدل على حياة شجرتها، مع أن إثبات حياة الثمرة سهلٌ سريع يحصل برؤية الاتصال فقط، وإبطالَها وزوالها عسير بطيء، لا يقتدر على إبطالها مع بقاء الاتصال وعلى منبع[1] سريان الحياة إليها ما لا يقتدر على قلع الأصل. ولو صادف هذا النظر بين الثمرات ميتةً يابسة حَكَمَ بأنها دخيلةٌ ويُحيل موتَها على الأسباب الخارجية. هذا النظر هو النظر الإيماني والإسلامي والمستقيم السهل والمنقاد لطور النبوة.. اَللَّهُمَّ ارزقنا وثبتنا عليه.

والنظر الثاني: السقيم الذي هو منشأ الضلالات ومعدن الاضطرابات، هو النظر من جانب الثمرات بنظر تنقيدي.. وفي هذا النظر يحتاج في كل ثمرة إلى الإثبات والذوق، لفقد الاتصال هنا، مع أن إثبات ثمرةٍ فردةٍ وإيصالَ مادةِ غذائها عسيرٌ يحتاج إلى ما يحتاج إليه تمامُ الأصل، مع أن زوالها وبطلانَها سريع يحصل بأدنى شيء. ولو صادف بينَها ميتةً يابسة أحالَها على موت الأصل.. أعاذنا الله من هذا النظر، لكن لو كان هذا النظر تابعا للنظر الأول كان حَسنا وسببا لاطمئنان النفس.

سعيد النورسي

* * *

(١) وفي نسخة: ومنع سريان الحياة.

خاتمة هذا المبحث

في أربعة أمراض [١]

الأول: اليأس

اعلم أنك إذا تدهّشت من العذاب وما وُفِّقتَ للعمل، تتمنى عدمَ العذاب، فتتحرى ما ينافيه، فترى الأمارات المنافية براهينَ، فتخطفك الشياطين؛ فاستمع بقلب شهيد قولَه تعالى:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣).

والثاني: العُجب

نعم يا نفس! [٢] أيستَ ثم تَحريتَ ما تستند إليه في مقابلة العذاب، فرأيت محاسنك، فوقعت في ضلالةٍ من باب العُجب، مع أنه لاحقَّ لك قطعا في شيء من الكمالات، فتأمل..

يا نفسي! هذا الوجود الذي سكنته ما هو صنعتُك حتى تُتَملّك، وما هو لقيطةٌ التقطتها حتى يُتَمَلَّك، وما هو نتيجة تصادفٍ أعمى واتفاقيةٍ عوراء وأسبابٍ جامدة حتى يُقتَطف ويُتملك، وليس شيئا رخيصا بلا أهمية تافها سدىً أعرض عنه مالكُه حتى تأخذَه وتتملَّكه، بل هذا الوجود -بعجائب صنعته وغرائب نقشه- يدل على أنه خرج من يدِ صانعٍ حكيم، مهيمن عليه دائما..

ألا تَرى أنه ليس في يدك من تصاريف هذا الوجود من ملايينِ تصرفاتٍ إلّا تصرفٌ واحد مشكوكٌ هو حجتُه عليك..

وكذا ألا ترى أنك أشرفُ الأسباب وأوسعها اختيارا وأظهرُ أفعالك الاختياريةِ الأكلُ والكلامُ، مع أنه ليس في يدك من مائة جزءٍ منهما إلّا جزءٌ واحد..

وكذا إن أضيقَ خاصياتك الاختيارُ وأوسَع حواسك الخيالُ، مع أن الخيال لا يحيط بالعقل وثمراته، فكيف تُدخِله تحت دائرة الاختيار فتفتخر به؟

---

(١) في (ط١) أربعة أمراض مضلة.
(٢) ذكّر النفس لأن المقصود منه الإنسان وفي (ت ٥٩) يا أخي.

وكذا تجري فيك وعليك أفاعيلُ لا يلحقها شعورك مع أنها شعورية، فصانعها ذو شعور سميعٌ بصير، لا أنت ولا الأسباب العُمْي الصُم. فلابد أن تتبرأ من دعوى المالكية وتوهُم مصدرية المحاسن، وتعترفَ بأنه ليس إليك منك إلّا النقصان والقصور؛ إذ بسوء اختيارك تُغيّر صورةَ فيضِ الكمال المُفاض عليك.. وبأنَّ الجسد الذي هو منـزلك عاريةٌ وأمانة وأنت مسافر، ومحاسنك هذه موهوبةٌ وسيئاتِك مكسوبة لك، فلابد أن تقول: **له الملك وله الحمد ولا حول ولا قوة إلّا بالله..**

والثالث: الغرور

وكذا من مرضك غرورُك، فبحُكمهِ نظرتَ إلى الأسلاف العظام من بُعدٍ فتصاغروا في عينك، فحُرِمْتَ محاسنَ إرشاداتهم، وابتُليتَ بالأوهام المتطايرة من تحت أقدامهم في سلوكهم مع أوهامك. فانظر إليهم من قُربٍ تَرَهُم أعاظمَ كَشفوا في أربعين يوما ما لم تقتدر على كشفه إلّا في أربعين سنة.

والرابع: سوء الظن

وكذا من مرضك سوء الظن، فبحُكم أن الجائع يتوهم الناسَ جياعا، أسأتَ الظن -بسبب مرضك وريائك- بأولئك الأسلاف العظام. فقد رأيت أنك بغمضِ عينك جعلتَ النهارَ ليلا على نفسك فقط.

اَللَّهُمَّ احفظنا من اليأس وسوء الظن والعجب والغرور، آمين..

* * *

ثم قد شاهدت في سياحة تحت الأرض المعنوية وفي بطنها حقائق:

الحقيقة الأولى: اعلم أن الغفلة عن المالك الحقيقي جلّ جلاله، سببٌ لفرعونية النفس، فتتوهم نفسَها مالكةً لها، فيتشكل في وهمها دائرةٌ لحاكميتها، ثم تقيس الناسَ بل الأسباب على نفسها، فتقسّم مالَ الله عليها، فتُعارض الأحكامَ الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها؛ مع أن الحكمة في إعطاء أنانيةٍ لها أن تصير واحدا قياسيا لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفَتْها في غير ما وُضِعَت له..

يا أيها الناظر!

إن هذه الحقيقة الدقيقة الرقيقة صارت مشهودةً لي بتمام ظهورها، فرأيت أن ما في النفس من «أنا» المتنبّت بماء الغفلة هو «نقطة سوداء» تصير واحدا قياسيا لِفَهمِ صفات خالقها الذي لا شريكَ له لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في أُلوهيته.

إذ معرفة الناس للأشياء أوّلا نسبية وقياسية، وتفهّم الصفات المحيطة التي لا حد لها يحصل بتوهم الحد.

فـ«أنا» يتجاوز عن حدِّه.. فيتوهم الحدَّ، فيقيس، فيفهم.. فيرجع إلى حدِّه، فيزول الحد الموهوم.. فيصير أولا سمكا، وثانيا حَبابا.

فقد مَرّ: أن النفس ليست مالكة لنفسها ولا لجسمها، إذ ما هو[1] لقيطةٌ ولا نتيجةُ تصادف، ولا شيء تافه، ولا متشكلٌ بنفسه؛ بل هو ماكينة دقيقة عجيبة إلهية يعمل فيه في كل وقت قلمُ القدرة بيد القضاء والقدر.

فيا أيتها النفس! تفرّغي من هذه الدعوى الباطلة، وسلّمي المُلكَ إلى مالكه، وكُوني أمينةً على هذه الأمانة. فإذا خنتِ في درهمٍ وأسندتِهِ لذاتك، تَشْرعين -بسرّ قياس النفس- تعطين من مال الله لأبناء جنسك، ثم للأسباب قناطيرَ مقنطرةً، كما فعلته الفلاسفة.

أيتها النفس! لستِ مالكةً لك وإلَّا لابد أن تكوني صانعةً وموجِدة لهذا البدن، أو صنعَته الأسباب فاغتصبتِهِ منها.

كيف تكونين صانعةً وأنت أخت الغنم؟

فالغنم كيف يدعي أنه صانع جسمه؛ والغنم أخو الرمان؟

وكيف تكون صبغةُ الرمان صانعةَ حبّاته؟

وكيف تكون الثمرةُ المتوضّعة على رأس الشجرة خالقةً وصانعة لشجرتها؟

فإن صحّت هذه، صحّت لكِ المالكية.

---

(١) أي الجسم.

وأما على الشق الثاني:

فالمصنوع ينادي بأعلى صوته بأني صنعةُ عليمٍ حكيم، سميع بصير، بنظام وميزان. مع أن الأسباب عميٌ صمٌ جامدة ميتة؛ كلما اجتمعت واختلطت -ففضلا عن حصول صنعة بصير- يتزايد العَمى والأصمّية؛ إذ اختلاط العُمي الصُم لا يزيدهم إلّا عُميا وأصمية، مع أن الأسباب بالنسبة إلى ذلك البدن كنسبة زجاجات الأدوية في «أَجْزَخَانَةٍ»[1] بالنسبة إلى معجونٍ ذي خاصية عجيبة يؤخذ من كلٍّ مقدارٌ معين بلا زيادة ولا نقصان بميزان مخصوص، إن زاد أو نقص درهمٌ من مئات من الزجاجات، فاتَتْ خاصيةُ المعجون؛ فإن أمكن أن يَخرج من كل زجاج مقدارٌ مخصوص بنفسه بلا حكيم مع تفاوت المقادير، ثم يتحصل ذلك المعجون بنفسه، أمكن أن تدّعي: أن هذا البدن اختطفتِه من أيدي الأسباب، فتملّكتِه.

الحاصل: توهُّم المالكية إنما نشأ من حُمقكِ وبلاهتكِ.

الحقيقة الثانية: **اعلمي** يا أيتها النفس الأمارة! أن لك دنيا هي قصر، واسعةً مبنيةً بآمالك وتعلقاتك واحتياجاتك إلى الأكوان، فالحجرُ الأساس في ذلك القصر، والأصلُ الأول والعمود الفريد، هو وجودك وحياتك، مع أن هذا العمود مدوّد، وهذا (التمل جوروك) والأساس فاسد ضعيف مهيأ للخراب في كل آن. فليس هذا الجسم بأبديّ ولا من حديد ولا حجر؛ بل من لحم ودم مهيئ لأن يتفرق في كل آن، فبانحلاله تنفلق عنك هذه الدنيا بحذافيرها، فتخرب على رأسك دنياك. فانظري إلى الماضي إذ هو قبر واسع خرب على رأس كل ميتٍ كان مِثلَكِ في دنياه، والمستقبل أيضا قبر واسع يكون مثله، وأنت الآن بين ضغطة القبرين، كما أن أمس قبرُ أبي، وغدا قبري، وأنا أيضا بين ضغطة القبرين. فالدنيا مع أنها واحدة؛ تداخلتْ واندمجت فيها -لكل أحد- دُنيا بتمامها، فهي شخصية كلية، مَن مات قامتْ قيامتهُ..

الحقيقة الثالثة: قد شاهدتُ أن الدنيا بجميع لذائذها حملٌ ثقيل، وقيدٌ لا يرضى بها إلا المريضُ الفاسدُ الروحِ؛ فبدلا من التعلقات بالكائنات، والاحتياجات إلى كل الأسباب، والتملق لكل الوسائط، والتذبذب بين الأرباب المتشاكسين الصم العُمي؛ لابد من الالتجاء إلى الرب الواحد السميع البصير الذي إن توكلتَ عليه فهو حسبُك.

(١) الصيدلية.

الحقيقة الرابعة: اعلم يا «أنا»، أن ما التفَّتْ على رأسك من سلاسل الإيجاد العلمية، واتصلت بأنانيتك من سطور الصنائع الشعورية، وما أخذت بأيدي حوائج ذاتك من وسائل المدد والإجابة، تدل على أن موجِدَك وصانعَك ومغيثَك يسمع أنينات[١] فاقاتك، فيتحنن لها، ونداءَ حاجاتك ويتودد بقضائها، ويرى أشكال احتياجاتك وآمالك، فيتعرف بتعهّدها؛[٢] إذ ذلك الصانع والموجِد يغيث ويلبي نداءَ حاجة حجيراتك الصغيرة بالمشاهدة؛ فكيف لا يجيب ولا يغيث -وهو السميع البصير- لدعائك.

أيتها الحجيرة الكبرى المعبَّرة بـ«أنا»، المركَّبة من تلك الحجيرات! فقل[٣] يا إلهي، يا ربي، يا خالقي، يا مصوري، يا مالكي، يا سيدي، يا مولاي لك الملك ولك الحمد: أنا مسافر في وديعتك وأمانتك ومملوكك الذي هو هذا الجسم بمشتملاته.

فيا «أنا» لِمَ تتملك ما لا يصير لك مُلكا؟ فتفرَّغْ من هذه الدعوى الباطلة، إذ توهُّمُ التملّك يوقعك في ألم أليم. فانظر إلى الشفقة التي هي من مزينات الروح ومراوحه،[٤] لو بُنيتْ على توهمك هذا لانقلبت نكالا مزعجا للروح.

مثلا: إذا رأيت يتيما واحدا ضعيفا فقيرا له بيتٌ صغير ومُلك قليل يتهاجم عليه ألوفٌ من القاسية القلوب، كيف تتألم بألمه؟! ولو تزايد مثلُ هذه الواقعة إلى ما لا حدَّ له تتزايد الآلام المنعكسة إليك بنسبته. وأما إذا رأيت أحدَ نفرِ العسكر للسلطان، قد احترق مسكنُه أو غُصِبَ مَركَبه -بغير قصورك وبإذن السلطان- لا تتوجع على النفر؛ إذ المالُ للسلطان الذي لا يتأثر بمثل هذا النقصان، ولا يتأثر العساكر بضياعه تأثرا عميقا؛ إذ ليس هو ملكَه، وهو فقير، بل ملكَ غني خُرّب مالُه بواسطة أخرى، بل تترحم بحساب السلطان وبنظر رحمة السلطان. فالشفقة على خلق الله -من حيث هو خلق الله- كلما تزايدت تنبسط الروحُ. والشفقة الناشئة من الغفلة والمبنية على توهم المالكية بتزايدها ينقبض الروحُ ويتألم القلب بظلمة الغموم.

---

(١) الأنين: صوت توجع وألم.. ج: أنات. والمقصود هنا أنين كل فاقة.
(٢) أي بتعهده وتفضله سبحانه لتلك الحاجات يتعرف إليه الإنسان.
(٣) فقل يا أنا..
(٤) مروّح: مطّيب.

كذلك: إن النظر الإيماني والتوحيدي يرى كلَّ ذي حياة يتصرف في وجوده، كالأمير المستأجَر على السفينة للسلطان الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء. فهذا النظر لا يرى النملةَ ولا النحلةَ الصغيرة الفقيرة تُصارِع الأسبابَ الظالمة المهاجمة، بل يرى النملة والنحلة تتصرفان في سفينة برية وطيارة هوائية، زمامُهما وناصيتُهما تصل بيد قدرةِ قدير، تتصاغر الأسبابُ الهاجمة في نظر راكبهما. إنما النملة وكذا النحلة تصارع الأسبابَ -ولو عظمت- بالاستناد بمالكه الحقيقي.

وإذا قيل عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦) فمعناه: المالُ له، وأنا في أمره، وإليه أذهبُ، ما عليّ لو لم أقصّر في حفظه. مَثَلُه كمثل نفرٍ هَجم على ما في يده من مال السلطان بعضُ الناس. يقول النفر: أنا وما معي للسلطان وإليه أذهب، فإن كان بإذنه فلا عليّ.. وأما إذا نظر بنظر توهم التملك انقلبت الشفقةُ نارا محرقة لمن له قلب؛ إذ يصير كل الحيوانات مثل اليتيم المذكور ويَرى في الكون مأتما عموميا..

الباب الثاني[١]
في
سبحان الله

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سُبحان الله القادر المطلق بالقدرة الذاتية، والغني المطلق المتقدس المتنـزّه عن العَجز والاحتياج.

سُبحانَ الله الكامل المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، المتقدسِ المتنـزّه عن القصور والنقصان؛ إذ كمال آثاره دالٌّ على كمال أفعاله، وهو على كمال أسمائه، وهو على كمال أوصافه، وهو على كمال ذاته جل جلاله. بل مجموع ما في الكائنات والمصنوعات من الكمال والجمال؛ إنما هو ظلٌّ ضعيف بالنسبة لكماله وجماله بالحَدس الصادق، وبالبرهان القاطع، وبإجماع جماعاتٍ عظام متواترين مُتفقين بالكشف والذوق والشهود والمشاهدة: على ظِلية كمال الكائنات بل كلِّ الأكوان لأنوار واجب الوجود.

سبحان الله الواحد الأحد المتقدس المتنـزّه عن الشركاء، لا شريك له؛ لا في ملكه لواحدانية الأثر الدالة على وحدة المؤثر، ولا في ربوبيته لاتحاد القلم، ولا في ألوهيته المستلزمة للانفراد والاستقلال بالذات.

سبحان الله القدير الأزلي المتقدس المتنـزّه عن المُعين والوزراء؛ لامتناع التحديد والانتهاء في القدرة الكاملة الغير المتناهية بواسطة الممكن المتناهي..

سبحان الله القديم الأزلي المتقدس المتنـزّه عن مماثلة المحدَثات..

(١) [إيضاح هذا الباب الثاني الذي يخص «سبحان الله» في اللمعة العربية «التاسعة والعشرين» وفي مواضع عدة من رسائل النور، لذا جاء هنا مختصرا] (المؤلف).

سبحان الله الواجب الوجود المتقدس المتنـزّه عن لوازم ماهيات الممكنات..

سبحان الله الذي له المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم المتقدس المتنـزّه عما تصفه العقائد الباطلة الخاطئة، وعما تتصوره الأوهام الباطلة القاصرة، وعن كل النقائص؛ إذ هي إما من الأعدام،[1] أو إلى الأعدام. فكيف تصل إلى ذيل الوجود الواجب؟!

سبحان الله السرمدي الأبدي المتقدس المتنـزّه عن التغير والتبدل اللازمين للكثرة والإمكان والمنافيين للوجوب والوحدة..

سبحان الله خالق الكون والمكان، المتقدس المتنـزّه عن التحيّز والتجزي المنافيين للغناء الذاتي.

سبحان الله القديم الباقي المتقدس المتنـزّه عن الحدوث والزوال.

سبحان الله الواجب الوجود المتقدس المتنـزّه عما لا يليق بجنابه من الحلول والاتحاد -ما للتراب ولرب الأرباب!- ومن الحصر والتحديد المستلزمين للمحكومية؛ ومن الوالد والولد تعالى الله عَمَّا يقول الظَّالمون عُلوّا كبيرا.

سبحان الله الذي تسبح له الملائكة كلهم ويسبح له ما في السماوات وما في الأرض، بما على جباهها من نقوشِ قلم القَدَر..

❊ ❊ ❊

(١) جمع العدم.

الباب الثالث (١)

في

الحمد لله



الحمد لله الذي تَحمَد له وتُثني عليه بإظهار صفاته الكمالية هذه العوالمُ بجميع ألسنتها الحالية والقالية؛ إذ العوالم بأنواعها وأركانها وأعضائها وأجزائها وذراتها وأثيرها؛ بألسنةِ حدوثها وإمكاناتها واحتياجاتها وافتقاراتها وحكمتها وصنعتها ونظامها وموازنتها وإتقانها وكمالاتها وعباداتها وتسبيحاتها.. ألسناتٌ مسبّحات تاليات لأوصاف جلاله بأنه هو الله الواجب الوجود القديم السرمدي الأبدي الواحد الأحد الفرد الصمد العزيز الجبار المتكبر القهار.. وكذا حامداتٌ تاليات لأوصاف جماله قائلات بأن خالقَنا رحمن، رحيمٌ، رزاق، كريم، جواد، ودود، فيَّاض، لطيف، محسن، جميل.. وكذا ذاكرات تاليات لأوصاف كماله ناطقات -قالا وحالا- بأن خالقنا ومالكنا: حيٌّ، قيوم، عليم، حكيم، قدير، مريد، سميع، بصير، متكلم، شهيد.. وكذا ألسناتٌ تاليات لأسمائه الحسنى المتجلية في الكائنات.

ثم الحمد لله الذي تحمده وتسبح له وتثني عليه بإظهار صفاته الكمالية هذه الكائناتُ بجميع ما فيها؛ إذ هذا الكتاب الكبير بجميع أبوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجُمَله وحروفه؛ بحكمتها وصنعتها بصفاتها ونقوشها، كلٌ بقدرِ نسبته مَظاهرُ متفاوتةٌ ومرايا متنوعةٌ لتجليات بوارقِ أوصاف جلاله، وأضواءُ أوصافِ جماله وأنوارُ أوصاف كماله وأشعّاتُ أسمائه الحسنى..

الحمد لله على نعمة الوجود الذي هو الخير المحض، وعلى نعمة الحياة التي هي كمالُ الوجود، وعلى نعمة الإيمان الذي هو كمال الحياة بل حياة الحياة..

الحمد لله على نور الإيمان المزيلِ عنا ظلماتِ الجهات الستة، والمنوّرِ للجهات الآفاقية

(١) [لقد كتب هذا الباب المهم في «الحمد لله» كتابةً مفصلة في الرسالة العربية «التفكر الإيماني الرفيع» (اللمعة التاسعة والعشرين) لذا جاء هنا مختصرا]. (المؤلف).

والأنفسية، والنيِّرِ الذي فيه الأنوار الستة ومنه الأضواء الثلاثة المنعكِسِ من شمس معرفة سلطان الأزل.

الحمد لله على الإيمان بالله، إذ به يخلص الروح من ظلمات الأعدام ووحشة الأكوان ومن المأتم العمومي، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن إلى ما لا يحد مِن الأهوال المحرقة للروح..

الحمد لله على نور الإيمان الذي أرانا ملجأ، محسنا، كريما، ودودا، رؤوفا، رحيما؛ إذ الإيمان هو المنوّر لنا الحياةَ الأبدية، والمبشر المضيء لنا السعادة الأبدية، وهو المحتوي على نقطتَي الاستناد والاستمداد، وهو الدافع لحجاب المأتم العمومي عن وجه الرحمة المرسَلة على وجه الكائنات، وهو المزيل للآلام الفراقية عن اللذائذ المشروعة بإراءة دوران الأمثال، ويديم النِّعمَ معنىً بإراءة شجرة الإنعام..

وكذا يُبدّل نورُ الإيمان ما يُتوهَّم من الكائنات أعداءَ أجانب أمواتا موحشين؛ ويحولها أودّاءَ إخوانا أحياءً مؤنسين.

وكذا يصور ذلك النورُ كلَّ الكائنات ومجموعَ الدارين مملوءا من الرحمة هديةً لكل مؤمن حقا -بلا مزاحم- يستفيد من جميعها بوسائطها وحواسها المتنوعة الكثيرة الموهوبة، فحُقَّ له وعليه أن يقول: «الحمد لله على كل مصنوعاته». ولازمٌ له وواجب عليه أن لا يرضى بمَن ليس كل الكائنات في يده يهديها لمن يشاء، ربا ومعبودا ومحبوبا ومقصودا..

الحمد لله رب العالمين على رحمته على العالمين التي هي سيدُنا محمد ﷺ، إذ به وبرسالته استثبت واستقر ما انطفأ تحت كثافة الفلسفة ما في سائر الأديان من أنوار فكر الألوهية.. وكذا برسالته تظاهر للبشر مرضيات رب العالمين.. وكذا به اهتدى البشر إلى الإيمان الذي هو نورُ الكون والوجود..

الحمد لله على نعمة الإسلامية التي هي مرضيات رب العالمين؛ إذ الإسلام هو الذي أرانا ما يَرضى به ويريده ويحبه ربُّنا وربُّ العالمين ورب السماوات والأرضين.

الحمد لله على نور الإيمان المستضيء بضياءِ: **بسم الله الرحمن الرحيم**؛ لابد للحامد أن ينظر من النعمة إلى الإنعام، ليرى أن المُنعم أبصرُ به وأقربُ منه إليه؛ يتعرّف بالإنعام، ويتوَدّد بالإحسان، ويتحبب بالإكرام إلى الإنسان. فالإنسان إنما يكون شاكرا إذا استشعر ذلك التعرّفَ والتودّد.

الباب الرابع
في
الله أكبر

هذا الباب قسمان: هذا القسم الأول بغاية الإجمال، والقسم الثاني فيه إيضاح تام.

القسم الأول

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الله أكبر.. من كل شيء، إذ هو القدير على كل شيء، بقدرة لانهاية لها بوجه من الوجوه، تتساوى بالنسبة إليها الذراتُ والنجومُ والجزءُ والكلُّ والفردُ والنـوعُ بسرٍّ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨).

نعم، إن الذرة والجزء والفرد ليست بأقلَّ جزالةً من النجم والنوع والكل.

الله أكبر.. إذ هو العليم بكل شيء بعلمٍ لانهاية له بوجهٍ من الوجوه، لازمٍ ذاتي[1] للذات، فلا يمكن أن ينفكَّ عنه شيء، بسر الحضور.. وما في الكائنات من الحكمة العامة، والعناية التامة، والشعور المحيط، والأقضية المنتظمة، والأقدار المثمرة، والآجال المعينة، والأرزاق المقنّنة، والرحماتِ المتنوعة، والإتقانات المفننة، والاهتمام المزين.. شاهداتٌ على إحاطة علمه تعالى بكل شيء، بسر: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤) جل جلاله.

الله أكبر.. إذ هو المريد لكل شيء؛ إذ تَرددُ الكائنات بين الإمكانات الغير المحدودة، ثم تنظيمُها بهذا النظام وموازنتُها بهذا الميزان، وخلقُ المختلفات المنتظمة -كالشجر بأوراقها وأزهارها وثمراتها مثلا- من البسيط الجامد.. شاهداتٌ على عموم إرادته تعالى، ومستلزمة لـ: «ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن». جلّ جلاله..

(١) كلزوم الضياء المحيط للشمس، ولله المثل الأعلى.

الله أكبر.. إنْ قلتَ: لِمَ، ومَن هو؟ قيل لك: إذ هو الشمس الأزلي الذي هذه الكائنات ظلالُ أنواره وتجلياتُ أسمائه وآثارُ أفعاله باتفاق أهل الشهود.

الله أكبر.. من كل شيء.. إن قلت: لِمَ، ومَن هو؟ قيل لك: إذ هو السلطان الأزلي الذي هذه العوالم بتمامها في تصرف قبضتَي نظامِه وميزانه جلّ جلاله.

الله أكبر.. إنْ قلت: لِمَ، ومَن هو؟ قيل لك: إذ هو الحاكم الأزلي الذي نظّم الكائنات بقوانين سنته، ودساتير قضائه وقَدَره، ونواميس مشيئته وحكمته، وجلوات عنايته ورحمته، وتجليات أسمائه وصفاته. وما القوانين والنواميس إلّا أسماءٌ لتجلي مجموعِ العلم والأمر والإرادة على الأنواع.

الله أكبر.. إنْ قلت: لِمَ، ومَن هو؟ قيل لك: إذ هو الصانع الأزلي الذي هذا العالمُ الكبير إبداعهُ وإنشاؤه وصنعتُه، وهذا العالمُ الصغير إيجادهُ وبناؤه وصبغته.. وعلى جوانبهما بل على كل جزء من أجزائهما سكتُه.

الله أكبر.. إنْ قلت: لِمَ، ومَن هو؟ قيل لك: إذ هو النقاش الأزلي الذي هذه الكائناتُ خطوطُ قلمِ قضائه وقَدَره، ونقوشُ بركار[1] حكمته، وثمرات فياض[2] رحمته، وتزييناتُ يدِ بيضاء عنايته، وأزاهيرُ لطائف كَرَمه، ولمعاتُ تجليات جماله.

تنبيه

أحكام هذه الأبواب الثلاثة[3] تشربت براهينُها. تُعرف بالدقة، في قيودها دلائلُ الأحكام.

الله أكبر.. إنْ قلت: مَن هو؟ قيل لك: إذ هو القدير الأزلي الذي هذه الموجودات معجزات قدرته. تشهد تلك المعجزات على أنه على كل شيء قدير. لم يخرج ولن يخرجَ عن حكم قدرته شيءٌ، تتساوى بالنسبة إليه الذراتُ والشموس..

الله أكبر.. إنْ قلتَ: مَن هو؟ قيل لك: إذ هو الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى.

(١) بركار: آلة هندسية معروفة لرسم الدوائر.
(٢) الفيّاض: الكثير الماء.
(٣) أي «سبحان الله والحمد لله والله اكبر».

الذي هذه الأجرام العلوية نيّراتُ براهين ألوهيته وعظمته، وشعاعاتُ شواهد ربوبيته وعزته جلّ جلالُه..

الله أكبر.. إنْ قلت: مَن هو؟ قيل لك: إذ هو الخالق لكل شيء، إذ هو الرزاق لكل حي، وهو المنعم لكل النِعَم، وهو الرحمن في الدارين؛ مِن عظيمِ رحمتِهِ سيدُنا «محمد» عليه الصلاة والسلام، و«الجنة». وهو الرب لكل شيء، وهو المدبّر لكل شيء وهو المربي لكل شيء..

الله أكبر.. إنْ قلتَ: مَن هو؟ قيل لك: إذ هو المصور لكل شيء، وهو المتصرف في كل شيء، وهو النظّام لهذا العالم.

الله أكبر.. وأعظمُ وأجلُّ مِن أن يحيط به الأفكارُ والعقول، وأرفعُ وأعلى وأجلّ وأنزَه من أن يناله العجزُ والقصور..

الله أكبر من كل شيء؛ أي ما يكون لأجله أكبرُ، وأعلى، وأحسن، وأولى.. وما يكون به أعظم وأجلّ..

* * *

تنبيه

هذه الكلمات المباركة التي تتكرّر بعد الصلوات؛ شاهَدتُ أنها ليست تكرارا، بل تأسيسٌ -كما أُشير إليه في الأبواب- أو تأكيدٌ في تأسيسٍ، معانيها متساندةً لا متحدةً.

مثلا: رميتَ حجرا في وسط حوضٍ كبير تقول للدائرة المتشكلة من وقوع الحجر: واسعة.. واسعة.. واسعة.. كلما تتلفظ بـ«واسعة» تتظاهر دائرةٌ أوسع. وكذا تأكيدٌ في المعنى، تأسيسٌ في المقاصد والثمرات.

* * *

إن قلت: ما معنى «**الله أكبر**» من كل شيء. ما قيمة «الممكن» حتى يقال: «الواجب» أكبرُ منه؟ أين «الخالقين.. والراحمين» غيرُه تعالى حتى يُقال: «أحسنُ الخالقين» و«أرحم الراحمين»؟

قيل لك: أي ما كان منه أكبرُ وأعلى، وما كان له أحسنُ وأولى، وما كان به أعظمُ وأجلُّ.

وهو في ذاته أكبرُ من كل ما يتصوره العقول.. وكذا لابد أن يكون أكبرَ في قلوبكم وأهم من كل مقاصدكم ومطالبكم.. وكذا أكبرُ وأعظم من أن يسترَه ويحجبَه حجابُ الكائنات.

وأما «أحسن الخالقين»! أي هو في ذاته أحسنُ من الخالقين الذين في مرايا العقول بتجلي صفة الخالقية فيها، كالشمس في المرايا. يقال: الشمسُ في ذاتها أنورُ من تماثيلها المنوَّرِين في المرايا.. وكذا أحسنُ في مرتبة وجوبه من الخالقين الموهومين في فرض الأوهام.. وأيضا نظرُنا الوهمي الظاهري لمّا يرى الآثارَ من الأسباب ويتوهم الخالقية، أي هو أحسنُ خالقا بلا حجابِ الأسباب، فلابد أن يُتَوَجّه إليه بالذات، ولا يُبالى بالأسباب الظاهرية.. وكذا إن نسبة المفاضلة تنظر إلينا وإلى الأشياء التي تتعلق بنا، لا في نفس الأمر، كما يُقال لنفرٍ في وظيفة جزئية: السلطانُ أحسن وأعظم. أي مدخله في وظيفتك هذه أزيد؛ فلابد أن تلاحظه أزيد من سائر أمرائك الظاهرية.

الله أكبر وأجلّ من أن تحيط به الأفكار والعقول.. وأرفع وأنزه من أن يناله العجز والقصور.. وهو الكامل المطلق في ذاته، وصفاته، وأفعاله، جل جلاله..

❊ ❊ ❊

الباب الرابع المفصل

في مراتب

الله أكبر

القسم الثاني

[سنذكر سبعا من ثلاث وثلاثين مرتبة لهذا الباب، حيث قد ذُكر قسمٌ مهم من تلك المراتب في المقام الثاني من «المكتوب العشرين»، وفي نهاية الموقف الثاني من «الكلمة الثانية والثلاثين»، وبداية الموقف الثالث منها، فمن شاء أن يطلع على حقيقة هذه المراتب فليراجع تلك الرسائل].

المرتبة الأولى

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء:١١١). لَبَيكَ وَسَعْدَيكَ.

جلّ جلالُه، الله أكبر مِنْ كُلِّ شيءٍ قُدرَةً وَعِلما، إذ هُوَ الخَالِقُ البارئُ المُصَوِّرُ الَّذي صَنَعَ الإنسَانَ بقُدرَتهِ كالكَائِنَاتِ، وَكَتَبَ الكَائِنَاتِ بقَلَمِ قَدَرِهِ كَمَا كَتَبَ الإنسَانَ بذَلِكَ القَلَمِ. إذ ذاكَ العَالَمُ الكَبيرُ، كَهَذَا العَالَمِ الصغيرِ مَصنُوعُ قُدرَتِهِ، مَكتُوبُ قَدَرِهِ. إبدَاعُهُ لِذَاكَ صَيَّرَهُ مَسْجدا، إيجَادُهُ لهذا صَيَّرَهُ ساجِدا. إنْشَاؤُهُ لِذَاكَ صَيَّرَ ذاكَ مُلكا، بنَاؤُهُ لِهذا صَيَّرَهُ مَملُوكًا. صَنْعَتُهُ في ذاكَ تَظَاهَرَتْ كِتَابًا، صِبْغَتُهُ في هَذا تَزَاهَرَتْ خِطابًا. قُدرَتُهُ في ذاكَ تُظهِرُ حِشمَتَهُ، رَحْمَتُهُ في هَذا تَنظِمُ نِعْمَتَهُ. حِشمَتُهُ في ذاكَ تَشْهَدُ: هُوَ الوَاحِدُ. نِعْمَتُهُ في هَذا تُعلِنُ: هُوَ الأحَدُ. سِكَّتُهُ في ذَاك في الكُلِّ وَالأَجْزَاءِ سُكونًا حَرَكَةً. خاتَمُهُ في هَذا في الجِسمِ وَالأَعْضاءِ، حُجَيْرَةً ذَرَّةً..

فَانْظُرْ إلى آثَارِهِ المُتَّسِقَةِ كيفَ تَرى -كَالفَلَقِ- سَخَاوَةً مُطْلَقَةً مَعَ انْتِظَامٍ مُطْلَقٍ، فِي سُرْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّزَانٍ مُطْلَقٍ، فِي سُهُولَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ إتْقَانٍ مُطْلَقٍ، فِي وُسْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ حُسْنِ صُنْعٍ مُطْلَقٍ، فِي بُعْدَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّفَاقٍ مُطْلَقٍ، فِي خِلْطَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ امْتِيَازٍ مُطْلَقٍ، فِي رُخْصَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ غُلُوٍّ مُطْلَقٍ. فَهَذِهِ الكَيْفِيَّةُ المَشْهُودَةُ شَاهِدَةٌ للعَاقِلِ المُحَقِّقِ، مُجْبِرَةٌ للأَحْمَقِ المُنَافِقِ، عَلى قَبُولِ الصَنْعَةِ وَالوَحْدَةِ للحَقِّ ذي القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ وَهُوَ العَلِيمُ المُطْلَقُ.

وَفي الوَحْدَةِ سُهُولَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَفِي الكَثْرَةِ وَالشِّرْكَةِ صُعُوبَةٌ مُنغَلِقَةٌ. إنْ أُسْنِدَ كُلُّ الأَشْيَاءِ لِلوَاحِدِ؛ فَالكَائِنَاتُ كَالنَّخْلَةِ وَالنَّخْلَةُ كَالثَّمَرَةِ سُهُولَةً فِي الابْتِدَاعِ.. وَإنْ أُسْنِدَ لِلكَثْرَةِ فَالنَّخْلَةُ كَالكَائِنَاتِ وَالثَّمَرَةُ كَالشَّجَرَاتِ صُعُوبَةً فِي الامْتِنَاعِ؛ إذ الوَاحِدُ بِالفِعْلِ الوَاحِدِ يُحَصِّلُ نَتِيجَةً ووَضْعِيةً للكَثيرِ بِلا كُلْفَةٍ ولا مُبَاشَرَةٍ؛ لَوْ أُحِيلَتْ تِلْكَ الوَضْعِيَّةُ وَالنَّتِيجَةُ إلى الكَثْرَةِ لا يُمْكِنُ أنْ تَصِلَ إلَيهَا إلّا بِتَكَلُّفَاتٍ وَمُبَاشَرَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ، كَالأَمِيرِ مَعَ النَّفَرَاتِ، وَالبَانِي مَعَ الحَجَرَاتِ، وَالأرضِ مَعَ السَّيَّارَاتِ، والفَوَّارَةِ مَعَ القَطَرَاتِ، وَنُقطَةِ المَرْكَزِ مَعَ النُّـقَطِ فِي الدَّائِرَةِ:

بِسِرِّ أنَّ فِي الوَحْدَةِ يَقُومُ الانتِسَابُ مَقَامَ قُدْرَةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ. وَلا يُضْطَرُّ السَّبَبُ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ، وَيتعَاظَمُ الأَثَرُ بالنِّسْبَةِ إلى المُسْنَدِ إلَيهِ. وَفي الشِّرْكَةِ يُضْطَرُّ كُلُّ سَبَبٍ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ، فَيَتَصاغَرُ الأَثَرُ بِنِسْبَةِ جِرْمِهِ. وَمِنْ هُنَا غَلَبَتِ النَّمْلَةُ وَالذُّبَابَةُ عَلى الجَبابِرَةِ، وَحَمَلَتِ النَّوَاةُ الصَّغِيرَةُ شَجَرَةً عَظِيمة.

وَبِسِرِّ أنَّ فِي إسْنادِ كُلِّ الأشياءِ إلى الوَاحِدِ لا يَكُونُ الإيجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ، بَلْ يَكُونُ الإيجَادُ عَيْنَ نَقلِ المَوجُودِ العِلمِيِّ، إلى الوُجُودِ الخَارِجِيِّ. كَنَقْلِ الصُّورَةِ المُتَمَثِّـلَةِ فِي المِرآةِ، إلى الصَّحِيفَةِ الفُوطُوغْرافِيَّةِ لِتَثْبِيتِ وُجُودٍ خَارِجِيٍّ لَهَا بِكَمالِ السُّهُولَةِ، أوْ إظهارِ الخَطِّ المَكتُوبِ بِمِدَادٍ لا يُرى بِواسِطَةِ مَادَةٍ مُظهِرَةٍ لِلكِتَابَةِ المَسْتُورَةِ..

وَفي إسْنَادِ الأَشْيَاءِ إلى الأَسْبَابِ وَالكَثْرَةِ يَلْزَمُ الإيجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ؛ وَهُوَ إنْ لَمْ يَكُنْ مُحَالا يَكُونُ أصْعَبَ الأَشْيَاءِ! فَالسُهُولَةُ في الوَحْدَةِ واصِلَةٌ إلى دَرَجَةِ الوُجوبِ، وَالصُعُوبَةُ فِي الكَثْرَةِ وَاصِلَةٌ إلى دَرَجَةِ الامتِنَاعِ.. وَبِحِكْمَةِ أنَّ فِي الوَحدَةِ يُمْكِنُ الإبْدَاعُ وَإيجَادُ «الأَيْس مِنَ اللَّيْس»[1] يَعْني إبْدَاعَ المَوْجُودِ مِنَ العَدَمِ الصِّرْفِ بِلا مُدَّةٍ وَلا مَادَّةٍ، وَإفراغَ الذَّرَّاتِ فِي القَالَبِ

(١) الأيس: الموجود. والليس: المعدوم.

العِلْمِيِّ بلا كُلْفَةٍ وَلا خِلْطَةٍ.. وَفِي الشِّرْكَةِ وَالكَثْرَةِ لا يُمْكِنُ الإبْدَاعُ مِنَ العَدَمِ بِاتِّفَاقِ كُلِّ أهلِ العَقْلِ. فَلا بُدَّ لِوُجودِ ذِي حَيَاةٍ جَمْعُ ذَرَّاتٍ مُنْتَشِرَةٍ في الأرضِ وَالعَناصِرِ، وَبِعَدَمِ القَالَبِ العِلْميِّ يَلْزَمُ لِمُحَافَظَةِ الذَّرَاتِ في جِسْمِ ذي الحيَاةِ وُجُودُ عِلْمٍ كُلِّي وَإرادَةٍ مُطْلَقَةٍ في كُلِّ ذَرَّةٍ. وَمَعَ ذلِكَ إنَّ الشُّركاءَ مُسْتَغْنيةٌ عَنْهَا وَممْتَنِعَةٌ بالذَّاتِ بخَمسَة وجوهٍ متداخلة، والشُركاء المُستَغنيةُ عنها والمُمتَنِعَةُ بالذات تَحَكُّمِيَّةٌ مَحْضَةٌ، لا أمارَةَ عَلَيْها وَلا إشَارَةَ إلَيْهَا في شَيءٍ مِنَ المَوْجُودَاتِ، إذ خِلْقَةُ السَّماوَاتِ وَالأرضِ تَسْتَلْزِمُ قُدْرَةً كَامِلَةً غَيْرَ مُتَناهِيَةٍ بالضَّرُورَةِ، فَاسْتُغْني عَنِ الشُّرَكَاءِ.. وَإلّا لَزِمَ تَحْديدُ وَانْتِهَاءُ قُدْرَةٍ كَامِلَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ في وَقْتِ عَدَمِ التَّناهِي بِقُوَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، بِلا ضَرورَةٍ، مَعَ الضَّرُورَةِ في عَكْسِهِ. وَهُوَ مُحَالٌ في خَمْسَةِ أوْجُهٍ: فَامْتَنَعَتِ الشُّرَكَاءُ، مَعَ أنَّ الشُّرَكَاءَ المُمتَنِعَةَ بِتِلكَ الوُجوُهِ لا إشَارَةَ إلى وُجودِها، وَلا أمارَةَ عَلى تَحققهَا في شيءٍ مِنَ المَوجُودَاتِ.

فَقَدِ استَفسَرنا هذِهِ المَسْألَةَ في المَوقِفِ الأَوَّلِ مِنَ الرِّسالَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلاثِينَ: مِنَ الذَّرَّاتِ إلى السَّيَّارَاتِ، وَفِي المَوْقِفِ الثَّاني: مِنَ السَّمَاواتِ إلى التَّشَخُّصَاتِ الوَجْهِيَّةِ، فَأعْطَتْ جَمِيعُها جَوَابَ رَدِّ الشِّرْكِ بِإراءة سِكَّةِ التَّوْحِيدِ.

فَكَمَا لا شُرَكَاءَ لَهُ، كَذَلِكَ لامُعِينَ وَلا وُزَراءَ لَهُ. وَمَا الأسْبَابُ إلّا حِجَابٌ رَقِيقٌ عَلى تَصَرُّفِ القُدْرَةِ الأَزَلِيَّةِ لَيْسَ لَهَا تَأثِيرٌ إيجادِيٌّ في نَفسِ الأمرِ؛ إذ أشْرَفُ الأسْبَابِ وَأوْسَعُها اختِيَارا هُوَ الإنسَانُ، مَعَ أنَّهُ لَيسَ في يَدِهِ مِنْ أظْهَرِ أفْعَالِهِ الاختِيَارِيَةِ -كَالأَكْلِ وَالكَلامِ وَالفِكْرِ - مِنْ مِئَاتِ أجْزاءٍ إلّا جُزْءٌ وَاحِدٌ مَشْكُوكٌ. فَإذَا كَانَ السَّبَبُ الأَشْرَفُ وَالأَوْسَعُ اختِيَارا مَغْلُولَ الأَيْدي عَنِ التَّصَرُّفِ الحَقيقيِّ كَمَا تَرى، فَكَيفَ يُمْكِنُ أنَ تَكُونَ البَهيماتُ والجَمَاداتُ شَرِيكا في الإيجَادِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لخَالِقِ الأرضِ وَالسَّمَاواتِ؟ فَكَمَا لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ الظَّرْفُ الَّذي وَضَعَ السُّلطَانُ فيهِ الهَدِيَّةَ، أو المَنديلُ الَّذي لَفَّ فيهِ العَطيَّةَ، أوِ النَّفَرُ الَّذي أرسَلَ عَلى يَدِهِ النِّعْمَةَ إليكَ؛ شُرَكَاءَ لِلسُلْطَانِ في سَلْطَنَتِهِ.. كَذَلِكَ لا يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ الأسْبَابُ المُرْسَلَةُ عَلى أيْديهِمُ النِّعَمُ إلينَا، وَالظُرُوفُ الَّتي هِيَ صَنَادِيقُ للنِّعَم المُدَّخَرَةِ لَنَا، والأسْبَابُ الَّتي التَفَّتْ عَلى عَطَايَا إلَهِيَّةٍ مُهْداةٍ إلَينَا؛ شُرَكَاءَ أعْوانا أو وَسَائِطَ مُؤَثِّرَة.

المرتبة الثانية

جلّ جلالُه، الله أكبرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعِلْمَا، إذ هُوَ الخَلّاقُ العَليمُ الصَّانِعُ الحَكِيمُ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ الَّذي هذِهِ المَوجُودَاتُ الأرضِيَّةُ وَالأجْرَامُ العُلوِيَّةُ في بُسْتَانِ الكَائِنَاتِ مُعجِزَاتُ قُدْرَةِ خَلّاقٍ عَلِيمٍ بِالبَدَاهَةِ. وَهَذهِ النبَاتَاتُ المُتَلَوّنَة المُتَزَيِّنَةُ المَنْشُورةُ، وَهَذِهِ الحَيْوَانَاتُ المُتَنَوِّعَةُ المُتَبَـرِّجَةُ المَنْشُورَةُ في حَدِيقَةِ الأرضِ خَوَارِقُ صَنْعَةِ صانِعٍ حَكِيمٍ بِالضَّرُورَةِ. وَهَذهِ الأَزْهَارُ المُتَـبَسِّمَةُ وَالأَثْمَارُ المُتزَيِّنَةُ في جِنَانِ هذِهِ الحَديقَةِ هَدَايَا رَحْمَةِ رَحْمن رَحِيمٍ بالمُشَاهَدَةِ.. تَشْهَدُ هاتِيكَ، وَتُنَادي تَاكَ، وتُعْلِنُ هذِهِ بِأَنَّ خَلَّاقَ هَاتيكَ، وَمُصَوِّرَ تَاكَ، وَوَاهِبَ هذِهِ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وَبِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، قَد وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعِلمَا، تتَسَاوى بِالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَتِهِ الذَّرَّاتُ وَالنُّجُومُ، وَالقَليلُ وَالكَثيرُ، والصَغيرُ وَالكَبيرُ، وَالمُتَنَاهِي وَغَيرُ المُتَنَاهِي، وَكُلُّ الوُقُوعَاتِ المَاضِيَةِ وَغَرَائِبِها مُعْجِزَاتُ صَنْعَةِ صانِعٍ حَكيمٍ، تَشْهَدُ أنَّ ذَلِكَ الصَّانِعَ قَديرٌ عَلى كُلِّ الإمْكَانَاتِ الاْسْتِقْبَالِيَّةِ وَعَجائِبِها، إذ هُوَ الخَلّاقُ العَليمُ وَالعَزيزُ الحَكِيمُ.

فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ حَديقَةَ أرضِهِ مَشْهَرَ صَنْعَتِهِ، مَحْشرَ فِطْرَتِهِ، مَظْهَرَ قُدرَتِهِ، مَدَارَ حِكْمَتِهِ، مَزْهَرَ رَحْمَتِهِ، مَزْرَعَ جَنَّتِهِ، مَمَرَّ المَخْلُوقَاتِ، مَسِيلَ المَوجُودَاتِ، مَكيْلَ المَصْنُوعَاتِ.

فَمُزَيِّنُ الحَيْوانَاتِ، مُنَقِّشُ الطُّيورات، مُثَمِّرُ الشَّجَرات، مُزَهِّرُ النَبَاتات؛ مُعْجِزَاتُ عِلمِهِ، خَوَارِقُ صُنْعِهِ، هَدايَا جُودِهِ، بَراهِينُ لُطْفِهِ.

تَبَسُّمُ الأزهَارِ مِنْ زينَةِ الأثْمَارِ، تَسَجُّعُ الأطيَارِ في نَسْمَةِ الأسْحَارِ، تَهَزُّجُ الأمطارِ عَلى خُدُودِ الأزهَارِ، تَرَحُّمُ الوالِدَاتِ عَلى الأَطفَالِ الصِّغَارِ، تَعَرُّفُ وَدُودٍ، تَوَدُّدُ رَحمنَ، تَرَحُّمُ حَنَّانٍ، تَحَنُّنُ مَنَّانٍ، لِلجِنِّ وَالإنسَانِ، وَالرُّوحِ وَالحَيوَانِ وَالمَلَكِ وَالجانِّ. وَالبُذُورُ وَالأثْمَارُ، والحُبُوبُ وَالأزهَارُ مُعجِزَاتُ الحِكمَةِ.. خَوَارِقُ الصَّنْعَةِ.. هَدَايا الرَّحْمَةِ.. بَراهينُ الوَحْدَةِ.. شَوَاهِدُ لُطْفِهِ في دارِ الآخِرَةِ... شَوَاهِدُ صَادِقَةٌ بأَنَّ خَلَّاقَهَا عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وَبِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ. قَدْ وَسِعَ كُلَّ شيءٍ بِالرَّحْمَةِ وَالعِلْمِ وَالخَلْقِ وَالتَّدْبيرِ وَالصُّنْعِ وَالتَّصْويرِ. فَالشَّمسُ كَالبَذرَةِ، وَالنَّجْمُ كَالزَّهْرَةِ، وَالأَرضُ كَالحَبَّةِ، لا تَثْقُلُ عَلَيهِ بِالخَـلْقِ وَالتَّدْبيرِ، وَالصُّنعِ

وَالتَّصْويرِ. فَالبُذُورُ وَالأَثْمَارُ مَرَايا الوَحْدَةِ في أَقْطَارِ الكَثْرَةِ، إشَاراتُ القَدَرِ، رُمُوزَاتُ القُدْرَةِ؛ بِأنَّ تِلكَ الكَثْرَةِ مِنْ مَنْبَعِ الوَحْدَةِ، تَصْدُرُ شَاهِدَةً لِوَحْدَةِ الفَاطِرِ في الصُّنْعِ وَالتَصْويرِ. ثُمَّ إلى الوَحْدَةِ تَنْـتَهي ذَاكِرَةً لِحِكمَةِ الصَّانِعِ في الخَلْقِ وَالتَّدْبيرِ.. وَتَلْويحاتُ الحِكْمَةِ بأنَّ خَالِقَ الكُلِّ -بِكُلِّيَّةِ النَّظَرِ إلى الجُزْئيِّ- يَنْظُر ثمَّ إلى جُزْئِهِ، إذ إنْ كانَ ثَمرا فَهُو المَقْصُودُ الأظهَرُ مِنْ خَلقِ هَذا الشَّجَرِ. فَالبَشَرُ ثَمَرٌ لِهَذِهِ الكَائِنَاتِ، فَهُوَ المَقْصُودُ الأَظْهَرُ لِخَالِقِ المَوْجُودَاتِ. والقَلبُ كَالنُّوَاةِ، فَهُوَ المِرآةُ الأنْوَرُ لِصَانِعِ المَخْلُوقَاتِ، ومِنْ هذِهِ الحِكْمَةِ فَالإنسَانُ الأَصْغَرُ في هذِهِ الكَائِنَاتِ هُوَ المَدَارُ الأَظْهَرُ للنَّشْرِ وَالمحَشْرِ في هذِهِ المَوجُوداتِ، وَالتَّخْريبِ والتَّبْديلِ وَالتَّحويلِ وَالتَّجْديدِ لِهَذِهِ الكَائِنَاتِ.

الله أكبر: يَا كَبيرُ أنتَ الَّذي لا تَهدِي العُقُولُ لِكُنْهِ عَظَمَتِهِ..

كه «لا إله إلّا هو برابر مي زند هرشيء

دمادمجويد: يا حق، سراسركويد: يا حي»[١]

المرتبة الثالثة [٢]

إيضاحها في رأس «الموقف الثالث من الرسالة الثانية والثلاثين».

جلّ جلالُه، الله أكبرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ قُدْرَةً وَعِلما، إذ هُوَ القَديرُ المُقَدِّرُ العَلِيمُ الحَكيمُ المُصَوِّرُ الكَريمُ اللَّطِيفُ المُزَيِّنُ المُنْعِمُ الوَدُودُ المُتَعَرِّفُ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ المُتَحَنِّنُ الجَمِيلُ ذُو الجَمَالِ وَالكَمَالِ المُطْلَقِ، النَّقَّاشُ الأزلي الَّذي: ما حَقَائِقُ هَذِهِ الكَائِناتِ كُلا وَأجزَاءً، وَصَحَائِفَ وَطَبَقاتٍ، وَما حَقائِقُ هذِهِ المَوجُودَاتِ كُلّيا وَجُزئيا وُجُودا وَبَقاءً.. إلّا خُطُوطُ قَلَمِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ بِتَنْظِيمٍ وَتَقديرٍ وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.. وَإلّا نُقُوشُ بَركَارِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بِصُنْعٍ وَتَصويرٍ.. وَإلّا تَزْييناتُ يَدِ بَيْضاءِ صُنْعِهِ وَتَصويرِهِ وَتَزْيينِهِ وَتَنْويرِهِ بِلُطْفٍ وَكَرَم.. وَإلّا أزاهيرُ لَطائِفِ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وتَعَرُّفِهِ وَتَوَدُّدِهِ بِرَحْمَةٍ وَنِعْمَةٍ.. وَإلّا ثَمَرَاتُ فَيَّاضِ عَيْنِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ

(١) [[الذي لا إله إلّا هُو يقابل كلّ شيء.. دائما يطلبونَ الحق، وأبدا يقولون: ياحيّ]].

(٢) [هذه المرتبة الثالثة تأخذ بعين الاعتبار زهرة جزئية وحسناء جميلة، فالربيع الزاهر كتلك الزهرة والجنة العظيمة مثلها؛ إذ هما مظهران من مظاهر تلك المرتبة، كما أن العالم إنسان جميل وعظيم، وكذا الحور العين والروحانيات وجنس الحيوان وصنف الإنسان.. كل منها كأنه في هيئة إنسان جميل يعكس صفحاته هذه الأسماء التي تعكسها هذه المرتبة]. (المؤلف).

وَتَـرَحُّمِهِ وَتَحَنُّنِهِ بِجَمَالٍ وَكَمالٍ.. وَإلّا لَمَعَاتُ جَمالٍ سَرْمَديٍّ وَكَمالٍ دَيْمُومِيٍّ بِشَهَادَةِ تَفانِيَّةِ المَرايا وَسَيَّالِيَّةِ المَظاهِرِ، مَعَ دوام تَجَلي الجَمَالِ عَلى مَرِّ الفُصُولِ وَالعُصُورِ وَالأدْوَارِ، وَمَعَ دَوَامِ الإنْعَامِ عَلى مَرِّ الأَنَامِ وَالأَيَّـامِ وَالأَعْوَامِ.

نعم، تَفَاني المِرْآةِ، زَوَالُ المَوجُودَاتِ مَعَ التَّجَلِّي الدَّائِمِ مَعَ الفَيضِ المُلازِمِ، مِنْ أظْهَرِ الظَّوَاهِرِ، مِنْ أبْهَرِ البَوَاهِرِ أنَّ الجَمالَ الظَّاهِرَ، أنَّ الكَمالَ الزَّاهِرَ ليسَا مُلْكَ المَظَاهِرِ، مِنْ أفصَحِ تِبيانٍ، مِنْ أوضَحِ بُرْهَانٍ لِلجَمَالِ المُجَرَّدِ، للإِحسانِ المُجَدَّدِ، للواجِبِ الوُجُودِ، لِلبَاقي الوَدُودِ.

نعم، فَالأَثَـرُ المُكَمَّلُ، يَدُلُّ بالبَدَاهَةِ عَلى الفِعْلِ المُكَمَّلِ، ثُمَّ الفِعْلُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلى الاسمِ المُكَمِّلِ، وَالفَاعِلِ المُكَمَّلُ. ثم الاسم المُكَمّلُ يَدُلُّ بلا رَيبٍ عَلى الوَصفِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الوَصفُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِلا شَكٍ عَلى الشَّأنِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الشَّأنُ المُكمَّلُ يَدُلُّ بِاليَقينِ عَلى كَمالِ الذَّاتِ بِمَا يَليقُ بِالذَاتِ، وَهُوَ الحَقُّ اليَقينُ.

المرتبة الرابعة

جَلَّ جَلالُهُ الله أكبرُ؛ إذ هُوَ العَدلُ العَادِلُ الحَكَمُ الحَاكِمُ الحَكِيمُ الأزلي الَّذي أَسَّسَ بُنْيَانَ شَجَرَةِ هذِهِ الكَائِنَاتِ في سِتةِ أيَّامٍ بِأُصُولِ مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَفَصَّلَها بِدَساتِيرِ قَضائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَظَّمَها بِقَوَانينِ عادَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَزَيَّنَها بِنَواميسِ عِنَايَـتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَنَوَّرَهَا بِجَلَواتِ أسْمائِهِ وَصِفَاتِهِ: بِشَهَادَاتِ انْتِظامَاتِ مَصنُوعَاتِهِ، وَتَزَيُّنَاتِ مَوجُودَاتِهِ وَتَشابُهِها وَتنَاسُبِها وَتَجَاوُبِها وَتَعاوُنِها وَتَعانُقِها، وَإتْقانِ الصَّنعَةِ الشُّعُوريَّةِ في كُلِّ شَيءٍ، عَلى مِقْدَارِ قَامَةِ قابِليَّتِهِ المُقَدَّرَةِ بِتَقْدِيرِ القَدَرِ.

فَالحِكمَةُ العَامَّةُ في تَنْظيماتِها، وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ في تَزيِينَاتِها، وَالرَّحمَةُ الوَاسِعَةُ في تَلطيفاتِها، وَالأَرزَاقُ وَالإعاشَةُ الشَّامِلَةُ في تَربِيَـتِها، والحَيَاةُ العَجيبَةُ الصَّنعَةِ بِمَظْهَرِيّـَتِها لِلشُؤونِ الذَّاتِيَّةِ لِفَاطِرِها، وَالمَحَاسِنُ القَصْدِيَّةُ في تَحْسيناتِهَا، وَدَوَامُ تَجَلِّي الجَمَالِ المُنْعَكِسِ مَعَ زَوالِهَا، وَالعِشْقُ الصَّادِقُ في قَلْبِها لِمَعبُودِهَا، وَالانْجِذَابُ الظَّاهِرُ في جَذبَتِها، وَاتِّفاقُ كُلِّ كُمَّلِهَا عَلى وَحْدَةِ فاطِرِها، وَالتَصَرُّفُ لِمَصالِحَ في أجزائِها، وَالتَّدْبيرُ الحَكيمُ لِنَباتاتِها،

وَالتَّربِيَةُ الكَرِيمَةُ لِحَيواناتِهَا، والانتِظامُ المُكَمَّلُ في تَغيُّراتِ أركَانِها، وَالغاياتُ الجَسيمةُ في انتِظامِ كُلِّيتِها، وَالحُدُوثُ دَفْعَةً مَعَ غايَةِ كَمَالِ حُسنِ صَنْعَتِها، بِلا احتِياجٍ إلى مُدَّةٍ ومَادَّةٍ، وَالتَّشَخُّصاتُ الحَكِيمَةُ مَعَ عَدَمِ تَحْديدِ تَرَدُّدِ إمْكاناتِها، وَقَضاءُ حاجاتِها عَلى غَايَةِ كَثْرَتِها وَتَنَوُّعِها في أوقَاتِها اللاَّئِقةِ المُنَاسِبَةِ -مِنْ حَيثُ لا يَحتَسِبُ وَمِنْ حَيثُ لا يَشْعُرُ- مَعَ قصرِ أَيْدِيها مِنْ أصغَرِ مَطالِبِها، وَالقُوَّةُ المُطلَقَةُ في مَعْدِنِ ضَعْفِهَا، وَالقُدْرَةُ المُطلَقَةُ في مَنبَعِ عَجزِها، وَالحَياةُ الظَاهِرَةُ في جُمُودِها، وَالشعُورُ المُحيطُ في جَهْلِها، وَالانتِظامُ المُكَمَّلُ في تَغَيُّراتِها المُسْتَلزِمُ لِوُجُودِ المُغَيِّرِ الغَيرِ المُتَغَيِّر. وَالاتِّفاقُ في تَسْبِيحَاتِها -كَالدَوّائِرِ المُتَدَاخِلَةِ المُتَّحِدَةِ المَرْكَزِ- وَالمَقْبُولِيَّةُ في دَعَوَاتِها الثَّلاثِ: بِلسانِ استِعدادها وبِلسانِ احتِيَاجَاتِها الفِطرِيَّةِ وبِلسانِ اضطِرارِها، وَالمُناجاتُ وَالشُّهوداتُ وَالفُيُوضاتُ في عِباداتِهَا، وَالانتِظامُ في قَدَرِيها، وَالاطْمِئنَانُ بِذِكرِ فاطِرِها، وَكَونُ العِبادَةِ فيها خَيْطَ الوُصْلَةِ بَينَ مُنْـتَهاها وَمَبْدَئها، وسَببَ ظُهُورِ كَمَالِها، وَلِتَحَقُّقِ مَقَاصِدِ صانِعِها وَهكَذا.. بِسائِرِ شُؤُوناتِها وَأحْوَالِها وَكَيفِيَّاتِها.. شاهِداتٌ بِأَنَّها كُلَّها بِتَدبيرِ مُدَبِّرٍ حَكيم واحِدٍ، وَفي تَربِيَةِ مُرَبٍ كَريم أَحَدٍ صَمَدٍ، وَكُلُّهَا خُدَّامُ سَيِّدٍ واحِدٍ، وتَحتَ تَصَرُّفِ متصرِّف واحدٍ وَمَصدَرُهُمْ قُدْرَةُ واحِدٍ، الَّذي تَظاهَرتْ وَتَكاثَرَتْ خَواتِيمُ وَحْدَتِهِ عَلى كُلِّ مَكتُوبٍ مِنْ مَكتُوبَاتِهِ في كُلِّ صَفحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ مَوجُودَاتِهِ.

نَعَمْ، فَكُلُّ زَهرَةٍ وَثَمَرٍ، وَكُلُّ نَبَاتٍ وَشَجرٍ، بَل كُلُّ حيوانٍ وَحَجَرٍ، بَل كُلُّ ذَرٍّ وَمَدَرٍ، في كُلِّ وادٍ وَجَبَلٍ، وكُلِّ بادٍ وقَفرٍ.. خاتَمٌ بَيِّنُ النَّقشِ وَالأثَر، يُظْهِرُ لِدِقَّةِ النَّظرِ بِأنَّ ذا ذاكَ الأثر هُوَ كاتِبُ ذاكَ المَكانِ بِالعِبَرِ، فَهُوَ كاتِبُ ظَهْرِ البَرِّ وَبَطْنِ البَحْرِ، فَهُوَ نَقَّاشُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ في صَحيفَةِ السَّماوَاتِ ذاتِ العِبَرِ جَلَّ جَلالُ نَقَّاشِها الله أكبرُ.

كه لا إله إلّا هو برابر مى زند عالم[1]

المرتبة الخامسة [2]

جلّ جلالُه، الله أكبرُ؛ إذ هُوَ الخَلّاقُ القَديرُ المُصَوِّرُ البَصيرُ الَّذي هذِهِ الأجرَامُ العُلويَّةُ والكَواكِبُ الدُّرِّيَّةُ نَيِّراتُ بَراهينِ أُلُوهيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَشُعاعاتُ شَوَاهِدِ رُبُوبيَّتِهِ وَعِزَّتِهِ، تَشْهَدُ

(١) [[حيث إن «لا إله إلّا هو» أعظم من العالم]].

(٢) [لقد وضحت هذه المرتبة في ذيل الموقف الأول من «الكلمة الثانية والثلاثين» وفي المقام الثاني من «المكتوب العشرين»] (المؤلف).

وَتُنادي عَلى شَعْشَعَةِ سَلْطَنَةِ رُبُوبيَّـتِهِ، وَتُنَادي عَلى وُسْعَةِ حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وعَلى حِشمَةِ عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ.

فَاسْتَمِعْ إلى آيَةِ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا ..﴾ (ق:٦) إلخ.. ثُمَّ انظُرْ إلى وَجْهِ السَّماءِ: كيفَ تَرى سُكُوتا في سُكُونَه، حَرَكَةً في حِكْمَةٍ، تَلألُؤا في حِشمَةٍ، تَبَسُّما في زِينَةٍ؛ مَعَ انتظامِ الخِلقَةِ مَعَ اتِّـزَانِ الصَّنْعَةِ.. تَشَعْشُعُ سِراجِها لِتَبديلِ المَوَاسِمِ، تَهَلهُلُ مِصْباحِها لِتَنويرِ المَعَالِمِ، تَلألُؤُ نُجُومِها لِتَزيينِ العَوَالِم.. تُعْلِنُ لأَهلِ النُهى سَلْطَنَةً بلا انتِهَاءٍ لِتَدبيرِ هذَا العَالَم.

فَذَلِكَ الخَلّاقُ القَديرُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ، وَمُريدٌ بِإرادَةٍ شَامِلَةٍ «ما شاءَ كانَ وَمَا لَم يَشأ لَمْ يَكُنْ». وَهُوَ قَدِيرٌ عَلى كُلِّ شَيءٍ بِقُدْرَةٍ مُطْلَقَةٍ مُحيطةٍ ذاتِيَّةٍ. وَكَما لا يُمكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجُودُ هذِه الشَّمسِ في هذا اليَومِ بِلا ضِياءٍ ولا حَرارةٍ، كذَلِكَ لا يُمْكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجودُ إلهٍ خالِقٍ لِلسَّماواتِ بِلَا عِلمٍ مُحيطٍ وبِلا قُدرَةٍ مُطلَقَةٍ.. فَهُوَ بِالضَرورَةِ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ بِعلمٍ مُحيطٍ لازِمٍ ذَاتيٍّ لِلذاتِ يَلزَمُ تَعَلُّقُ ذلِكَ العِلمِ بِكُلِّ الأَشيَاءِ، لا يُمكِنُ أنْ يَنْفَكَّ عَنْهُ شَيءٌ؛ بِسِرِّ الحُضُورِ وَالشُّهُودِ وَالنُّفُوذِ وَالإحَاطَةِ النُّورانِيَّةِ.

فَما يُشَاهَدُ في جَميعِ المَوجُودَاتِ: مِنَ الانْتِظامَاتِ المَوزُونَةِ، وَالاتِّزاناتِ المَنْظُومَةِ، وَالحِكَمِ العَامَّةِ، وَالعِنَايَاتِ التَّامَّةِ، وَالأَقْدَارِ المُنْتَظَمَةِ، وَالأَقْضِيَةِ المُثْمِرَةِ، وَالآجالِ المُعَيَّنَةِ، وَالأَرزَاقِ المُقَنَّـنَةِ، وَالإتْقَانَاتِ المُفَنَّـنَةِ، وَالاهْتِمَامَاتِ المُزَيَّنَةِ، وَغَايَةِ كَمَالِ الامتِيازِ، وَالاتِّزانِ، وَالانْتِظَامِ، وَالإتْقَانِ، وَالشُّهُولَةِ المُطلَقَةِ.. شَاهِدَاتٌ عَلى إحَاطَةِ عِلمِ عَلّامِ الْغُيُوبِ بِكُلِّ شَيءٍ، وَإنَّ آيَةَ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤). تَدُلُّ عَلى أَنَّ الوُجودَ في الشَيءِ يَسْتَلزِمُ العِلمَ بِهِ، وَنُورَ الوُجودِ في الأَشيَاءِ يَستَلزِمُ نُورَ العِلمِ فيها. فَنِسبَةُ دَلالَةِ حُسنِ صَنْعَةِ الإنسانِ عَلى شُعُورِهِ، إلى نِسبَةِ دَلالَةِ خِلقَةِ الإنسانِ عَلى عِلمِ خالِقِهِ، كَنِسبَةِ لُمَيعَةِ نُجَيْمَةِ الذُّبَيْبَةِ في اللَّيلَةِ الدَّهمَاءِ إلى شَعشَعةِ الشَمْسِ في نِصفِ النَّهارِ عَلى وَجهِ الغَبْراءِ.

وَكَما أَنَّهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ فهو مريدٌ لكُلِّ شَيءٍ، لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحقَّقَ شَيءٌ بِدُونِ مَشِيئَتِهِ. وَكمَا أَنَّ القُدْرَةَ تُؤَثِّرُ وَأَنَّ العِلمَ يُمَيِّـزُ، كَذَلكَ إنَّ الإرادةَ تُخَصِّصُ ثُمَّ يَتَحَقَّقُ وُجودُ الأَشيَاءِ.

فَالشَوَاهِدُ عَلى وُجودِ إرادَتِهِ تَعالى وَاختِيَارِهِ سُبحانَهُ بِعَدَدِ كَيفِيَّاتِ الأَشيَاءِ وَأَحْوالِهَا وَشُؤُوناتِها.

نعم، فَتَنْظيمُ المَوجودَاتِ وَتَخْصيصُها بِصِفاتِها مِنْ بِينِ الإِمْكَانَاتِ الغَيْرِ المَحْدُودَةِ، وَمِنْ بَينِ الطُّرُقِ العَقيمَةِ، وَمِنْ بَينِ الاحتِمَالاتِ المُشَوَّشَةِ، وَتَحتَ أيدي السُّيُولِ المُتَشاكِسَةِ، بِهذا النِّظَامِ الأَدَقِّ الأَرَقِّ، وَتَوْزِينُهَا بِهذا المِيزانِ الحَسَّاسِ الجَسَّاسِ المَشْهُودَينِ.. وَأَنَّ خَلقَ المَوجُوداتِ المُختَلِفَاتِ المُنتَظَماتِ الحَيَوِيَّةِ مِنَ البَسائِطِ الجَامِدَةِ -كَالإنسانِ بِجِهَازاتِهِ مِنَ النُّطفَةِ، وَالطَّيْرِ بِجوارِحِهِ مِنَ البَيضَةِ، وَالشَّجَرِ بأَعْضَائِهِ المُتَنَوعَةِ مِنَ النَّوَاةِ- تَدُلُّ عَلى أَنَّ تَخَصُّصَ كُلِّ شَيءٍ وَتَعَيُّـنَـهُ بِإرادَتِهِ واختِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ.

فَكَما أَنَّ تَوافُقَ الأشيَاءِ مِنْ جِنْسٍ وَالأفرَادِ مِنْ نَوعٍ، في أَسَاساتِ الأَعْضاءِ، يَدُلُّ بالضَّرورَةِ عَلى أَنَّ صانِعَها واحِدٌ أحدٌ.. كَذلكَ إنَّ تَمايُزَها في التَّشَخُّصاتِ الحَكيمَةِ المُشتَمِلَةِ عَلى عَلاماتٍ فارِقَةٍ مُنْتَظَمَةٍ، تدُلُّ عَلى أَنَّ ذلكَ الصَّانِعَ الواحِدَ الأَحدَ هُوَ فاعِلٌ مُختَارٌ مُرِيدٌ.. يَفعَلُ ما يَشاءُ وَيَحكُمُ ما يُريدُ. جَلَّ جَلالُهُ.

وَكَما أَنَّ ذلِكَ الخَلّاقَ العَليمَ المُريدَ؛ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ وَمُرِيدٌ لِكُلِّ شَيءٍ، لَهُ عِلمٌ مُحيطٌ وَإِرادةٌ شَامِلَةٌ وَاختيَارٌ تَامٌّ.. كَذلكَ لَهُ قُدرَةٌ كامِلَةٌ ضَرُورِيَّةٌ ذَاتِيَّةٌ ناشِئَةٌ مِنَ الذَّاتِ وَلازِمَةٌ لِلذَّاتِ. فَمُحَالٌ تَداخُلُ ضِدِّها، وَإِلَّا لَزِمَ جَمْعُ الضِّدَّيْنِ المُحالُ بالاتِفَاقِ، فَلا مرَاتِبَ في تِلكَ القُدرةِ، فَـتَـتَساوى بِالنِّسبَةِ إلَيها الذَّرَّاتُ وَالنجُومُ، وَالقَليلُ وَالكثيرُ، وَالصَغيرُ والكبير، وَالجُزئيُّ وَالكُلِّيُّ، وَالجُزءُ وَالكُلُّ، وَالإنسانُ وَالعالَمُ، والنَّوَاةُ والشَّجَرُ؛ بِسِرِّ النُّورَانيَّةِ، وَالشَّفافِيَّةِ، وَالمُقابَلَةِ، وَالمُوَازَنَةِ، وَالانتِظامِ، وَالامتِثالِ؛ بِشَهادَةِ الانتِظامِ المُطلَقِ، وَالاتِّزَانِ المُطلَقِ، وَالامتِيَازِ المُطلَقِ، في السُّرعَةِ وَالسُّهُولَةِ وَالكَثرَةِ المُطلَقَاتِ. بِسِرِّ إمدادِ الوَاحِديَّةِ، ويُسرِ الوَحدَةِ، وتجَلِّي الأَحَديَّةِ؛ بِحِكمَةِ الوُجوبِ، وَالتَجَرُّدِ، وَمُبَايَنَةِ الماهيَّةِ. بِسرِّ عَدَمِ التَّقَيُّدِ، وَعدَمِ التَّحَيُّزِ، وَعَدَم التَّجَزُّؤِ. بِحِكمَةِ انقِلابِ العَوَائِقِ وَالمَوَانِعِ إلى الوَسَائِلِ في التَسهيل إن احتيجَ إلَيهِ. وَالحَالُ أَنَّهُ لا احتِيَاجَ كأعصابِ الإنسانِ وَالخُطُوطِ الحَديديَّةِ لنَقلِ السَيَّالاتِ اللَّطيفَةِ؛ بِحكمةِ أَنَّ الذرَّةَ وَالجُزءَ وَالجُزئيَّ وَالقَليل وَالصَغيرِ والإنسانَ والنَّواةَ ليسَت بِأَقَلَّ جَزَالَةً مِنَ النَّجْمِ وَالنَّوعِ وَالكُلِّ

وَالكُلّيِّ وَالكَثيرِ وَالكَبيرِ وَالعَالَمِ وَالشَّجَرِ. فَمَنْ خَلَقَ هؤُلاءِ لا يُسْتَبعَدُ مِنْهُ خَلقُ هذِهِ؛ إذ المُحاطاتُ كالأمثِلَةِ المَكتُوبَةِ المُصَغَّرَةِ أو كالنُّقَطِ المَحلُوبَةِ المُعَصَّرَةِ؛ فَلابُدَّ بالضَرُورَةِ أنْ يَكونَ المُحيطُ في قَبضَةِ تَصَرُّفِ خالِقِ المُحَاطِ، لِيُدْرِجَ مِثالَ المُحيطِ في المُحَاطَاتِ بِدَسَاتيرِ عِلمِهِ، وَأنْ يَعْصِرَها مِنْهُ بِمَوازينِ حِكمَتِهِ. فَالقُدرَةُ الَّتي أبرَزَتْ هَاتيكَ الجُزئيَّاتِ لا يَتَعسَّرُ عَليها إبرَازُ تَاكَ الكُلّيَّاتِ.

فَكَما أنَّ نُسخَةَ قُرآنِ الحِكمَةِ المَكتُوبَةِ عَلى الجَوهَرِ الفَردِ بِذَرَّاتِ الأثيرِ؛ لَيسَتْ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ نُسْخَةِ قُرآنِ العَظَمَةِ المَكتُوبَةِ عَلى صَحَائِفِ السَّماواتِ بِمِدادِ النُّجُومِ وَالشُّموسِ.. كذَلِكَ لَيسَتْ خِلقَةُ نَحْلَةٍ وَنَمْلَةٍ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ خِلقَةِ النَّخْلَةِ والفيلِ، وَلا صَنْعَةُ وَردِ الزَّهْرَةِ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ صَنْعَةِ دُرِّيِّ نَجمِ الزُّهْرَةِ. وَهكَذا فَقِسْ. فَكمَا أنَّ غايَةَ كَمالِ السُّهُولَةِ في إيجَادِ الأشيَاءِ أوقَعَتْ أهلَ الضَّلالَةِ في التِبَاسِ التَّشكيلِ بالتَّشَكُّلِ، المُستَلزِمِ لِلمُحَالاتِ الخُرَافيَّةِ الَّتي تَمُجُّها العُقُولُ، بَل تَتَنَفَّرُ عَنها الأوهَامُ.. كذلِكَ أثْـبَـتَتْ بِالقَطعِ وَالضَرُورَةِ لأهلِ الحَقِّ وَالحَقيقَةِ تَساويَ السَّيَّاراتِ مَعَ الذَّرَّاتِ بالنِسبَةِ إلى قُدْرَةِ خالِقِ الكائِناتِ. جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأنُهُ وَلا إلهَ إلّا هُوَ.

المرتبة السادسة [١]

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شَأنُهُ اللهُ أكبرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلمًا؛ إذ هُوَ العَادِلُ الحَكيمُ القَادِرُ العَليمُ الوَاحِدُ الأحَدُ السُّلطَانُ الأزلي الَّذي هذِهِ العَوَالِمُ كُلُّهَا في تَصَرُّفِ قَبْضَتَيْ نِظامِهِ وَميزَانِهِ، وَتَنْظيمِهِ وَتَوزينِهِ وَعَدلِهِ وَحِكمَتِهِ وَعِلمِهِ وَقُدرَتِهِ، وَمَظهَرُ سِرِّ وَاحِديَّتِهِ وَأحَديَّتِهِ بِالحَدْسِ الشُّهُوديِّ، بَل بِالمُشَاهَدَةِ؛ إذ لا خَارِجَ في الكَونِ مِنْ دَائِرَةِ النِّظَامِ وَالميزَانِ، وَالتَّنظيمِ وَالتَّوزينِ. وَهُمَا بابانِ مِن «الإمامِ المُبينِ وَالكِتَابِ المُبينِ»، وَهُما عُنوَانانِ لِعِلمِ العَليمِ الحَكيمِ وَأمْرِهِ، وَقُدْرَةِ العَزيزِ الرَّحيمِ وَإرادَتِهِ. فَذلكَ النِّظَامُ مَعَ ذلكَ الميزَانِ في ذلكَ الكِتَابِ مَعَ ذلكَ الإمامِ بُرهَانانِ نَـيِّرانِ؛ لِمَنْ لَهُ في رَأسِهِ إذعَانٌ وفي وَجهِهِ العَينَانِ: أنْ لا شَيءَ مِنَ الأشياءِ في الكَونِ وَالزَّمانِ، يَخْرُجُ مِنْ قَبضَةِ تَصَرُّفِ رَحمنَ، وَتَنْظيمِ حَنَّانٍ وَتَزيينِ مَنَّانٍ وَتَوزينِ دَيَّانٍ.

(١) [لو كتبت هذه المرتبة السادسة كسائر المراتب لطالت جدا، لأن «الإمام المبين والكتاب المبين» لا يمكن بيانهما باختصار، وحيث إننا ذكرنا نبذة منهما في «الكلمة الثلاثين» فقد أجملنا هنا، إلّا أننا سردنا بعض الإيضاحات أثناء الدرس]. (المؤلف).

الحَاصِلُ: أنَّ تَجَلِّيَ الِاسمِ «الأَوَّلِ وَالآخِرِ» في الخَلّاقِيَّةِ، النَّاظِرَينِ إلى المَبدَإِ وَالمُنتَهى، وَالأَصلِ وَالنَسلِ، وَالمَاضي وَالمُستَقبلِ، وَالأَمرِ وَالعِلمِ، مُشيرانِ إلى «الإمامِ المُبينِ». وَتَجَلِّيَ الِاسمِ «الظَّاهِرِ وَالباطِنِ» عَلى الأَشيَاءِ في ضِمنِ الخَلّاقِيَّةِ، يُشيرانِ إلى «الكِتابِ المُبينِ».

فَالكَائِناتُ كَشَجَرَةٍ عَظيمَةٍ، وَكُلُّ عالَمٍ مِنها أيضا كَالشَّجَرة. فَنُمَثِّلُ شَجَرَةً جُزئِيَّةً لِخِلقَةِ الكائِناتِ وَأَنواعِها وَعَوالِمِها. وهَذِهِ الشَّجَرَة الجُزئِيَّةُ لها أصلٌ وَمَبدَأٌ، وَهُوَ النَّواةُ الَّتي تَنبُتُ عَليهَا. وَكَذا نَسلٌ يُديمُ وَظيفَتَها بَعدَ مَوتِها؛ وَهُوَ النَّواةُ في ثَمَراتِها. فَالمَبدَأُ وَالمُنتَهى مَظهَرانِ لِتَجَلِّي الاسم «الأَوَّلِ وَالآخِرِ»، فَكأنَّ المَبدأ وَالنَّواةَ الأَصليَّةَ بِالانتِظامِ وَالحِكمَةِ فِهرِستَةٌ، وَتَعرِفَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَجمُوعِ دَساتيرِ تَشكُّلِ الشَّجَرةِ، وَالنَّواتَاتُ في ثَمَراتِها الَّتي في نِهاياتِها مَظهَرٌ لِتَجَلِّي الِإسمِ «الآخِرِ».

فَتِلكَ النَّواتاتُ في الثَّمَراتِ بِكمَالِ الحِكمَةِ كَأَنَها صُنَيدِيقَاتٌ صَغيرَةٌ أُودِعَتْ فيها فِهرِستَةٌ وَتَعرِفَةٌ لتَشَكُّلِ ما يُشابِهُ تِلكَ الشَجَرةَ وَكأَنَّها كُتِبَ فيها بِقَلَمِ القَدَرِ دَساتيرُ تَشكُّلِ شَجَراتٍ آتِيَةٍ. وَظاهِرُ الشَّجَرَةِ مَظهَرٌ لِتَجَلِّي الِإسمِ «الظَّاهِرِ». فَظَاهِرُها بِكَمالِ الانتِظامِ وَالتَّزيينِ وَالحِكمَةِ كَأنَها حُلَّةٌ مُنتَظَمَةٌ مُزَيّنَةٌ مُرَصَّعَةٌ، قَد قُدَّتْ عَلى مِقدارِ قَامَتِها بِكَمالِ الحِكمَةِ وَالعِنَايَةِ. وَبَاطِنُ تِلكَ الشَّجَرَةِ مَظهَرٌ لِتَجَلِّي الاسمِ «البَاطِنِ»، فَبِكَمالِ الانتِظامِ وَالتَّدبيرِ المُحَيِّرِ لِلعُقُولِ، وَتَوزيعِ مَوَادِّ الحَياةِ إلى الأَعضاءِ المُختَلِفَةِ بِكَمالِ الانتِظامِ، كأَنَّ باطِنَ تِلكَ الشَّجَرَةِ ماكِينَةٌ خارِقَةٌ في غَايَةِ الانتَظامِ وَالاتِّـزَانِ. فَكَما أنَّ أوَّلَها تَعرِفَةٌ عَجيبَةٌ، وآخِرَها فِهرِستَةٌ خارِقَةٌ يشيرانِ إلى «الإمامِ المُبينِ».. كَذَلكَ إنَّ ظَاهِرَها كحُلَّةٍ عَجيبَةِ الصَنْعَةِ، وَباطِنَها كَمَاكينَةٍ في غَايَةِ الانتِظامِ، يشيرَانِ إلى «الكِتَابِ المُبينِ». فَكما أنَّ القُوَّاتِ الحَافِظاتِ في الإِنسانِ تُشيرُ إلى «اللَّوحِ المَحفُوظِ» وَتَدُلُّ عَلَيهِ، كَذلِكَ إنَّ النَّوَاتاتِ الأَصليَّةَ وَالثَّمَراتِ تُشيرَانِ في كُلِّ شَجَرةٍ إلى «الإمامِ المُبينِ»، وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ يَرمُزَانِ إلى «الكِتَابِ المُبينِ». فَقِسْ عَلى هذِهِ الشَّجَرَةِ الجُزئِيَّةِ شَجَرَةَ الأَرضِ بِمَاضِيها وَمُستَقبَلِها، وَشَجَرةَ الكَائِناتِ بِأَوائِلِها وَآتِيها، وَشَجَرةَ الإِنسانِ بِأَجْدَادِها وَأَنسَالِها. وَهَكذا جَلَّ جَلالُ خالِقِها وَلا إلَهَ إلّا هُوَ.. يا كَبيرُ أنتَ الَّذي لا تَهدِي العُقُولُ لِوَصفِ عَظَمَتِهِ، وَلا تَصِلُ الأَفْكَارُ إلى كُنْهِ جَبَرُوتِهِ.

المرتبة السابعة

جَلَّ جَلالُهُ، الله أكبرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدرَةً وَعِلما إذ هُوَ الخَلّاقُ الفَتّاحُ الفَعّالُ العَلّامُ الوَهّابُ الفَيّاضُ،(١) شَمسُ الأَزَلِ الَّذي: هذِهِ الكَائِناتُ بِأنواعِها وَمَوجُودَاتِها ظِلالُ أنوَارِه، وَآثارُ أفعَالِهِ، وَألوانُ نُقوشِ أنواعِ تَجَلِّياتِ أسمائِهِ، وخُطُوطُ قَلَمِ قَضائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَرَايَا تَجَلِّياتِ صِفَاتِهِ وَجَمَالِهِ وَجَلالِهِ وَكَمالِهِ؛ بِإجمَاعِ الشَّاهِدِ الأزلي بِجَميعِ كُتُبِهِ وَصُحُفِهِ وآياتِهِ التَكْوِينيَّةِ والقُرآنيَّةِ، وبِإجمَاعِ الأَرضِ مَعَ العَالَمِ بِافتِقَاراتِها وَاحتِيَاجاتِها في ذاتِها وَذَرَّاتِها مَعَ تَظاهُرِ الغِناءِ المُطلَقِ وَالثَّروَةِ المُطلَقَةِ عَلَيها؛ وبِإجمَاعِ كُلِّ أهلِ الشُّهُودِ مِنْ ذَوي الأَرواحِ النَّيِّـرَةِ، وَالقُلوبِ المُنَوَّرَةِ، وَالعُقُولِ النُّورانيَّةِ مِنَ الأَنبِيَاءِ وَالأَولِيَاءِ والأَصفِيَاءِ بِجَميعِ تَحقيقَاتِهِمْ وَكُشُوفَاتِهِمْ وَفُيُوضاتِهِمْ وَمُنَاجَاتِهِم. قَدْ اتَّفَقَ الكُلُّ مِنهُم، وَمِنَ الأَرضِ وَالأَجرَامِ العُلويَّةِ وَالسُّفليَّةِ بِما لا يُحَدُّ مِنْ شَهادَاتِهِمُ القَطعيَّةِ وَتَصدِيقاتِهِمُ اليَـقينيَّةِ بِقُبولِ شَهَادَاتِ الآيَاتِ التَّكْوينيَّةِ والقُرآنيَّةِ وَشَهَادَاتِ الصُّحُفِ والكُتُبِ السَّماويَّةِ الَّتي هيَ شَهَادَةُ الوَاجِبِ الوُجُودِ عَلى أنَّ هذِهِ المَوجُودَاتِ: آثارُ قُدرَتِهِ ومكتوبات قَدَرِهِ وَمَرايا أسمائِهِ وَتَمَثُّلاتِ أنوَارِه.

جَلَّ جَلالُهُ وَلا إلَهَ إلّا هُوَ..

* * *

(١) [يمكن الانتقال إلى المسمى ذي الجلال والإكرام بالنظر بمنظار هذه الأسماء المباركة إلى مظاهر الأفعال والآثار الإلهية وراء هذه الموجودات]. (المؤلف)

خاتمة

في مسائل مشهودة متفرقة

المسألة الأولى

اعلم أني أقول مادمتُ حيا، كما قال مولانا جلال الدين الرومي قُدس سرّه:

من بنده‌ء قرآنم أكر جان دارم من خاك راه محمد مختاره م [1]

لأني أرى القرآن منبع كلّ الفيوض، وما في آثاري من محاسن الحقائق ما هو إلّا من فيض القرآن. فلهذا لا يرضى قلبي أن يخلو أثرٌ من آثاري من ذِكرِ نُبَذٍ من مزايا إعجاز القرآن. ولقد ذكرتُ في [اللوامع] أنواع إعجاز القرآن البالغة إلى نيف وأربعين نوعا. أذكرُ هنا تبركا مسألةً فقط؛ هي هذه:

انظر إلى مَن قال؟ ولمَن قال؟ ولِمَ قال؟ وفيمَ قال؟

نعم، إن مَنابع علو طبقة الكلام؛ وقوّته وحسنِه وجماله أربعةٌ: المتكلم، والمخَاطَبُ، والمقصدُ، والمقامُ. لا المقام فقط.. كما ضلّ فيه الأُدباء. وكذا إن الكلام لفظُه ليس جسدا بل لباسٌ له، ومعناه ليس روحا بل بدنٌ له. وما حياتُه إلّا مِن نية المتكلم وحسّه. وما روحُه إلّا معنىً منفوخٌ من طرف المتكلم. فالكلام إنْ كان أمرا أو نهيا فقد يتضمن الإرادةَ والقدرةَ بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علويةُ الكلام وقوته.

نعم؛ أين صورة أمر فضولي ناشئ من أماني التمني وهو غير مسموع، وأين الأمر الحقيقي النافذُ المتضمن للإرادة والقدرة؟ فانظر أين: ﴿ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ (هود:٤٤) وأين خطاب البشر للجمادات كهذيانات المُبَرسَمين: «اسكني يا أرض وانشقي يا سماء وقومي يا أيتها القيامة».. وكذا أين أمرُ أميرٍ مُطاعٍ لجيش عظيم مطيع بـ«آرش!.» واهجموا على أعداء الله، فهجموا وغلَبوا، ثم أين هذا الأمر إذا صدر من حقير لا يُبالَى به وبأمره.. وكذا أين تصويرُ مالكٍ حقيقي، وآمرٍ مؤثرٍ أمرُه، نافذٍ حكمُه، وصانع وهو يصنع،

(١) [[مَادمتُ حيا فأنا خادم القرآن.. وأنا تراب سبيل محمد المصطفى]].

ومُنعمٍ وهو يُحسن قد شرع يصوّر أفاعيلَه، يقول: فعلتُ كذا وكذا.. فعل هذا وذاك.. صيّرتُ لبيتكم الأرضَ فرشا والسماء سقفا، ثم أين تصويرُ فضولي وبحثُه عن أفاعيلَ لا تماسَّ له بها.. وكذا أين أعيانُ النجومِ ثم أين تماثيلها الصغيرة السيالة -التي لا هي موجودة ولا معدومة- المرئيةُ في الزُجيجات؟ نعم، أين ملائكةُ كلماتِ كلامِ خالقِ الشمس والقمر، ثم أين زنابيرُ مزاميرِ مزوَّرات البشر؟.. وكذا أين ألفاظُ القرآن التي هي أصدافُ الهدى والحقائق الإيمانية والأساسات المنبثة من عرش الرحمن مع تضمن اللفظ للخطاب الأزلي وللعلم والقدرة والإرادة، ثم أين ألفاظ الإنسان الهوائيةُ الواهية الهَوسية؟[1].. وكذا أين شجرةٌ تفرعت وأورقت وأزهرت وأثمرت، ثم أين المعجونُ الذي اتخذه أحدٌ من بعض ثمراتها بتغيير صورة الثمرات وإزالة العقدة الحياتية منها مع مزجها بمادة أخرى؟

نعم، إن القرآن أنبتَ شجرةً هكذا فانقلبت كلُّ نوَياته دساتيرَ عملية وأشجارا مثمرةً، تَشكَّل وتركّب منها هذا العالمُ الإسلامي بمعنوياته وأعماله، فأخذ منها كلَّ الأفكار فتَصرّفَ فيها إلى الآن حتى صارت حقائقهُ العُلوية العالية علوما متعارَفة ومُسَلّماتٍ، فيقوم أحدٌ ويأخذ من تلك الحقائق ويتصرف فيها بتغيير الصورة، فتزيل منها العقدةُ الحياتية. ثم على زعمه يزيّنها بتهوسه، فيوازن ذوقُه الفاسد بينه وبين الآيات. فكيف يمكن الموازنة بين الصورة العَرضَية التابعة المنحوتة بهوس الصبيان في جواهر منتظمة ودرر منثورة، وبين تلك الجواهر والدرر نفسها؟

ولقد شاهدتُ أن مشاهدة جمال القرآن تابعةٌ لدرجةِ سلامة القلب وصحته؛ فمريضُ القلب لا يشاهد إلّا ما يشوِّه له مرضُه. فأسلوب القرآن والقلبُ كلاهما مرآتان ينعكس كلُّ واحدٍ في الآخر.

نكتة[2] ....[3]

---

(١) الهوس: مصدر هاس: وهو طرف من الجنون وخفة العقل.

(٢) النكتة: هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها (التعريفات للجرجاني).

(٣) في (ط١): نكتة: اعلم أن ما يُرى على كل شئ من أثر الشعور والعلم والبصر فيه إطلاق يشير إلي عدم التناهي، لا يتيسر للمقيّد المتناهي -من الشعور والعلم والبصر- ذلك التأثير. وان ذرة الإطلاق وعدم التناهي أجلّ واعظم بلا حدّ من المحدود المقيد.. فإن شئت تقريب هذه الحقيقة إلى الفهم فانظر إلى «عالم المثال» الذي هو اقرب إلى الإطلاق من عالم الشهادة المقيد، ترَ ذرة من جرم شفاف -الذي هو منفذ من هنا إلى عالم المثال- يمكن أن تسع تلك الذرة من الصور المثالية ما لا تسع الأرض من أعيانها.

نكتة

ولأن الإيمان يؤسس الأخوّة بين كل شيء، لا يشتد الحرصُ والعداوةُ والحقد والوحشة في روح المؤمن؛ إذ بالدقة يَرى أعدى عدوِّه نوعَ أخٍ له.. ولأن الكفر يؤسس أجنبيةً وافتراقا -لا إلى اتصال- بين كل الأشياء، يشتد في الكافر الحِرصُ والعداوةُ والتزام النفس والاعتمادُ عليها. ومن هذا السر صاروا غالبين في الحياة الدنيا. ولأن الكافر يرى في الدنيا مكافأةَ حسناتِه في الجملة، والمؤمن يرى جزاءَ بعضِ سيئاته في الدنيا؛ صارت: «**سجن المؤمن وجنة الكافر**».[1]

و**اعلم** أن إكسير الإيمان إذا دخل في القلب يصيّر الإنسان جوهرا لائقا للأبدية والجنة، وبالكفر يصير خزفا خاليا فانيا. إذ الإيمانُ يُرِي تحت القشر الفاني لبا لطيفا رصينا، ويُري ما يُتوهم حَبابا مُشمسا زائلا، ألماسا متنورا. والكفر يُرِي القشر لبا فيتصلب فيه فقط، فتنـزل درجة الإنسان من الألماس إلى الزجاجة بل إلى الجمد بل إلى الحباب، هكذا شاهدتُ..

نقطة

قد شاهدتُ ازدياد العلم الفلسفي في ازديادِ المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي. فالأمراض المعنوية توصِلُ إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولّد أمراضا قلبية.

وكذا شاهدت الدنيا ذات وجهين:

وجه: ظاهرهُ مأنوس في الجملة مؤقتا، باطنهُ موحشٌ إلى ما لا يحد.

ووجه: ظاهره موحِش في الجملة، وباطنهُ مؤنس إلى ما لا نهاية.

فالقرآن يوجّه الأنظار إلى الوجه الثاني، الذي يتصل بالآخرة. والوجه الأول الذي يتصل بالعدم ضدُّ الآخرة، وضرّتُها ومعكوستُها حسَنُه قبيحُها، قبيحُه حسَنُها.

وكذا شاهدتُ أن ما في الممكن من وجه الوجود؛ بالأنانية يوصِل إلى العدم وينقلبُ إليه، وما فيه من وجه العدم بتركِ الأنانية ينظرُ إلى الوجود الواجب. فإن أحببتَ الوجودَ فانعدِمْ لِتَجِدَ الوجود..

---

(١) مسلم، الزهد ١؛ الترمذي، الزهد ١٦؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ١٩٧، ٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥.

نكتة

اعلم أن النيةَ إحدى الكلمات الأربعة التي ذكرتُ في المقدمة أنها محصولةُ أربعين سنة من عمري!

نعم، إن النية إكسيرٌ عجيب تَقلِب بخاصيتها العادات الترابية والحركات الرملية [١] إلى جوهر العبادة.. وكذا هي روح نافذة تحيا بها الحالات الميتة، فتصير عباداتٍ حيويةً.. وكذا فيها خاصيةٌ تقلبُ السيئات حسنات.

فالنية روح، وروحُها «الإخلاص» فلا خلاص إلّا بالإخلاص. ويمكن بالنية -بسبب هذه الخاصية - عملٌ كثير في زمانٍ قليل، فيمكن اشتراءُ الجنة بما يُعمل في هذا العمر القليل بهمّة تلك الخاصية.

وبالنية يصيرُ المرءُ شاكرا دائما؛ لأن ما في الدنيا من اللذائذ والنِعَم يُقتطف بوجهين:

الوجه الأول: يقول المرءُ بسبب النية: هذه النعمة مَدَّتْها إليَّ يدُ رحيمٍ محسن، فينتقل نظرُه من النِعمة إلى الإِنعام، فيتلذذُ به أزيدَ من نفس النعمة.

والوجه الثاني: يتحرى اللذةَ بتهوّس النفس، فلا يتخطر الإنعام، إنما ينحصر نظرُه على النعمةِ واللذة فيتلقى اللذةَ غنيمةً فيقتطفها بلا مِنّة، بل يغتصبها.

ففي الوجه الأول: تموت اللذةُ بالزوال ويبقى روحُها، أي إن رحمةَ المُنعم تَخَطّرتني، فلا تنساني. فهذا التخطُر رابطةٌ ومناسبةٌ في الخاطر!

وفي الوجه الثاني: لا تموت اللذة الموقتة ليبقى روحُها، بل تنطفئ ويبقى دخانُها. والمصيبة يخمد دخانُها ويبقى نورها، ودخانُ اللذة زوالها وإثمها.

وإذا نُظرَ بنور الإيمان إلى اللذائذ المشروعة في الدنيا والنِعَم في الآخرة، يُرى فيها حركةٌ دورية ووضعية تتعاقب فيها الأمثالُ، فلا تنطفئ الماهية، وإنما يحصل الفراقُ والافتراق عن التشخصات الجزئية. فلهذا لا ينغَّص -بألم الزوال والفراق- اللذائذُ الإيمانية بخلاف الوجه الثاني. فإن لكلّ لذةٍ زوالا، وزوالُها ألَمٌ، بل تَصوُّرُ الزوالِ أيضا ألـمٌ؛ إذ في الوجه الثاني، ليست الحركة دوريةً بل حركةٌ مستقيمة، ففيها اللذة محكومة بالموت الأبدي..

(١) أي العادات الأرضية.

نقطة

اعلم أن التعلقَ بالأسباب سببُ الذلّة والإهانة؛ ألا ترى أن الكلب قد اشتهر بعَشرِ صفاتٍ حسنة، حتى صارت صداقتُه ووفاؤه تُضربُ بهما الأمثال؟! فمن شأنه أن يكون بين الناس مباركا. ففضلا من المباركية ينـزل على رأس المسكين من طرف الإنسان ضربةُ الإهانة بالتنجيس؛ مع أن الدجاجة والبقر حتى السنّور، الذين ليس فيهم حسّ شكرانٍ وصداقةٍ في مقابلة إحسانِ البشر، يُشرَّفون بين الناس بالمباركية. أقول -بشرط أن لا ينكسر قلبُ الكلب ولا يصير غيبةً- إن سببه: أن الكلب بسبب مرض الحرص اهتم بالسبب الظاهري، بدرجةٍ أغفلَته -بجهةٍ- عن المُنعِم الحقيقي، فتوهَّم الواسطةَ مؤثرةً. فذاق جزاءَ غفلته بالتنجيس، فَتَطهّر.. وأَكَلَ ضربَ الإهانة كفارةً للغفلة، فانتَبِه! أما سائر الحيوانات المباركة فلا يَعرفون الوسائط ولا يقيمون لها وزنا، أو يقيمون لها وزنا خفيفا. مثلا: إن السنّور يتضرع حتى يأخذ الإحسانَ، فإذا أخذ فكأنه لا يعرفك ولا تعرفه، ولا يحس في نفسه شكرانا لك، بل إنما يشكر المنعمَ الحقيقي بـ: يا رحيم.. يا رحيم.. يا رحيم.. فقط[1]؛ إذ الفطرة تعرف صانعَها وتعبدُه شعوريا وغيرَ شعوري..

نكتة

ولقد شاهدتُ: أنه لو لم يُسند كلُّ شيء إليه تعالى لَزِمَ إثبات آلهة -كلٌّ منها ضدٌّ للكل، ومِثلٌ في آن واحدٍ- غير متناهية.. يزيد عددُها على عدد ذرات العالم ومركباتها، بوجهٍ يكون كلُّ إلهٍ يَمُدُّ يَدَه إلى مجموع العالم ويتصرف فيه.

مثلا: إن القدرة الخالقة لفردِ نحلةٍ أو حبةِ عنب، لابد أن ينفُذ ويَجري حكمُها في عناصر الكائنات؛ إذ هما أُنموذجان أُخذَت أجزاؤهما من جميع الكون، مع أنه لا محل في الوجود إلّا للواجب الأحد، وأما لو أُحيلت الأشياءُ على أنفسها لزِمَ إثباتُ الألوهية لكلِّ ذرةٍ؛ ألا ترى أن الأحجار التي في قبة «آيا صوفيا»[2] إذا انتفى الباني، لزِمَ أن يكون كلُّ حجرٍ منها مثلَ «معمار سنان»[*]. فدلالةُ الكائنات على خالقها الواحد أظهرُ وأنورُ وأجلى وأولى وأفصحُ وأوضحُ من دلالتها على وجود نفسها بمراتب. فيمكن إنكارُ الكون ولا يمكن إنكار الواحد الأحد القدير على كل شيء..

(١) للأستاذ المؤلف خاطرة لطيفة حول هذا، في «الكلمة الرابعة والعشرين من مجلد الكلمات».
(٢) كنيسة قديمة حوّلها السلطان محمد الفاتح إلى جامع، وظل هكذا طوال قرون عدة حتى حُوِّلَ إلى متحف سنة ١٩٣٤.

نقطة

ما أعجب شأنَ الضلالة بسبب الغفلة! كيف استخرجت العلّيةَ من المقارنة الساذجة والدوران الطردية بين المصنوعات! مع ارتكاب محالاتٍ متسلسلة، مع أنه لم يتبين ولم يتحقق قط في شيء من الأشياء أمارةٌ صادقة على وجود شريكِ صانعٍ لذلك الشيء، بل تحت صنعةِ كلِّ شيء مجهوليةٌ تتكشف عن قدرةٍ غير متناهية لقدير واجبِ الوجود. فيا خسارةَ الإنسان ويا جهالتَه! كيف أخذ الشركُ لنفسه موقعا في نفسه وفي عقله!

نكتة

وما في نون «نعبُدُ» من سر الجماعة، يصوِّر للمصلي المتنبه سطحَ الأرض مسجدا، اصطفّ فيه -مع المصلي- جميعُ المؤمنين، ويرى نفسَه في تلك الجماعة العظمى. وبما في إجماع الأنبياء والأولياء على ذكر «**لا إله إلّا الله**» مِن تَوافقِ الأصوات يتيسرُ للذاكرِ أن يرى الزمانَ «حلقةَ ذكرٍ» تحت رياسة «إمام الأنبياءُ».. في يمين الماضي «الأنبياء» قاعدون.. في يسار الاستقبال «الأولياء» جالسون.. يذكرون الله بصوتٍ يسمعه مَن ألقى السمعَ وهو شهيد. فإن كان حديدَ السمع والبصيرة استمعَ الذِّكرَ من مجموع المصنوعات أيضا ورأى نفسَه في حلقة ذِكرها..

نقطة

اعلم أن محبةَ ما سواه تعالى على وجهين:

وجهٍ يَنـزل من علوٍ، أي يحبُّ الله فبحبِّهِ يُحب من يُحبُّه الله، فهذه المحبة لا تُنقصُ من محبة الله بل تزيدها.

والوجه الثاني: يَعرُج من سُفلٍ، أي يحب الوسائل، فيتدرج في محبتها ليتوسل إلى محبة الله، فهذه المحبة تتفرق، وقد تصادف وسيلةً قوية فتقطع عليها الطريق فتهلكها، وإن وصلتْ وصلتْ بنقصان.

نكتة

اعلم أن الرزاق جل شأنه تعهَّد بآيةِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ (هود:٦) رزقَ كل دابة، إلّا أن الرزق قسمان:

حقيقي ومجازي، فالمتكفَّل بالآية هو الحقيقي. وأما المجازي الصُنعي اللازم بالتزام ما لا يلزم وبالاختيارات السيئة والاعتيادات المضرة، حتى صارت الحاجات الغيرُ الضرورية ضروريةً، فَلَبست الحاجاتُ الكاذبةُ صورةَ الرزق، فهذا الرزق غير متكفَّل بالآية. ومَن تأمل في الباذنجانات التي هي أسماكُ البر وفي الأسماك التي هي باذنجانات البحر كيف أسَمَنتها القدرة الفاطرة؛ إذ كلها سمينة -ما فيها هزيلة- يأتيها رزقُها رغدا من حيث لا تحتسب.. عَلِم أن الوسوسة في الرزق واتهامَ الرزاق من البلاهة.

نكتة

اعلم أن المصائب التي تصيب المعصومَ من الحيوان والإنسان، يجوز أن يكون لها أسبابٌ تدِقّ عن فهم البشر؛ مثلا: إن الشريعة الفطرية التي هي دساتير المشيئة، لا تنظر إلى العقل حتى يَسقط التكليفُ بها عند عدم العقل، بل تنظرُ إلى القلب والحس، بل والاستعداد أيضا، فتجازي على أفاعيلها.. وقد نشاهد الحيوان كاملا في حس النفس، والصبي بالغا في حس القلب، بل حسُّ طفلك، أكملُ من عقلك وأشد تيقظا؛ إذ تظلِمُ يتيما بالضرب ولا يمنعك عقلُك، وصبيُك الناظر إليك يُبكيه حسُّ شفقته.. لو كان هو لانزجر.

فإذ كان هذا هكذا؛ فالصبي الذي يمزِّق للتهوس والتلهّي نحلةً مسكينة، ولم يسمعْ نهيَ حسِّ شفقته الحساسة، فأصيب بأن انكسر رأسُه.. استحقَّ.

مثلا: إن النَّمِرة تحس في نفسها على شِبلها شفقةً شديدة ومع رفيقها حسَّ حمايةٍ، فلا يمنعها هذان الحسّان من تمزيق الظبية المسكينة.. فمزّقتها، ثم أصيبت هي ببندقة[1] الصياد مثلا، أفلا تكون مستحقةً؟ إذ رزقُها الحلال أمواتُ الحيوانات لا أحياؤها! على أن هذا مبنيّ على توهم مالكية الحيوانات لأنفسها، والحق أن هذا باطل كما مرّ سابقا، وأن المالك الحقيقي هو مالك الملك ذو الجلال والإكرام يتصرف في مُلكه كيف يشاء، وهو الفاعل المختار الفعال لما يريدُ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣).

(١) البندق: كل ما يرمي به رصاص كروي وغيره، ومنه البندقية المعروفة.

ذيل القطرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبّ العَالمين، والصَلاةُ والسّلامُ على سيدنا مُحمّدٍ وعلى آله وصَحبهِ أجمَعين.

رمز

اعلم أن الصلاة في أول الوقت، والنظر إلى الكعبة خيالا مندوبٌ إليهما، ليرى المصلي حول بيت الله صفوفا كالدوائر المتداخلة المتّحدة المركز، فكما أحاط الصفُ الأقربُ بالبيت، أحاط الأبعدُ بعالم الإسلام، فيشتاق إلى الانسلاك في سلكهم، وبعد الانسلاك يصير له إجماعُ تلك الجماعة العظمى وتواترُهم حجةً وبرهانا قاطعا على كل حُكمٍ ودعوى تتضمنّها الصلاة.

مثلا: إذا قال المصلّي «الحمد لله» كأنه يقول كلُّ المؤمنين المأمومين في مسجد الأرض: نعم صَدَقتَ.[1] فيتضاءل ويضمحل تكذيبُ الأوهام ووسوسة الشياطين. وكذا يستفيض كلٌّ من الحواس واللطائف حصةً وذوقا وإيمانا، ولا يعوقها لِمَ؟ وكيف؟ ففي أول الوقت تنعقد الجماعةُ العظمى «للمتقين»، ولاتفاق الصلوات الخمس في الأقوال والأركان لا يخلّ اختلافُ المطالع بخيال المصلي.. ولينظر المصلي وهو في مكانه إلى الكعبة وهي في مكانها لا يجذبها إليه ولا يذهب إليها ليتظاهر الصفوف، لا يشتغل بها قصدا، بل يكفي شعورٌ تَبَعي. وما يُدريك لعل القَدر الذي لا يُهملُ شيئا من الأشياء يكتب بأشكال هذه الصفوف المباركة المنتظمة في حركاتها سطورا على صحائف عالَم المثال الذي من شأنه حفظ ما فيه دائما..

رمز

اعلم أنّي شاهدتُ في سيري في الظلمات السُّنَن السَّنية نجوما ومصابيح، كلُّ سُنَّةٍ، وكلُّ حَدٍ شرعي يتلمّع بين ما لا يُحصر من الطرق المظلمة المضلّة. وبالانحراف عن السُّنة يصير المرء لعبةَ الشياطين، ومركَبَ الأوهام، ومَعرضَ الأهوال، ومطيةَ الأثقال -أمثالِ الجبال- التي تحملها السُنةُ عنه لو اتّبعها.

وشاهدتُ السُننَ كالحبالِ المتدلّية من السماء، من استمسك ولو بجزئي استَصعد

(١) حيث يقولون جميعا: الحمد لله، مثله.

واستسعد. ورأيتُ مَن خالَفَها واعتمدَ على العقل الدائر بين الناس، كمَن يريد أن يبلُغَ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمّق كما تَحمّقَ فرعونُ بـ

﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا ﴾ (غافر:٣٦).

رمز

اعلم أن في النفس عقدة مغلقةً مدهشةً تُصيّرُ الضدَّ مولِّدَ الضّدِ، وترى ما عليها كأنه لها.

مثلا: إن الشمس تصل يدُها إليك تمسحُ أو تضربُ وجهكَ، ولا تصل يدُك إليها ولا يؤثر «كيفُك»[١] فيها. فهي قريبةٌ إليك، بعيدة منك! فكما أنّ جعلَ وجهِ البُعديّة دليلا على عدم تأثيرها فيك، ووجه القُربية دليلا على تأثّرها منك، جهلٌ.. كذلك نظرُ النفس -بعين الهوى والأنانية- إلى خالقها القريب إليها، البعيدِ منها سببُ ضلالتها.

وكذا ترى النفسُ عظمةَ المكافأة، فمن شدة الحرص تقول: ليت، وأنّى، وهيهات. وتسمع دهشة المجازاة، فمن شدة الخوف تتسلى بالتعامي والإنكار.

فيا أيتها النقطة السوداء الحمقاء[٢] إن أفعالَه تعالى إنما تليق به وتنظر إليه تعالى، لا بكَ ولا إلى حَوصلتِكَ الضيقة، ولا بنَى هندسةَ الكائنات على هَوَسِك، ولا أشهَدَك خَلقها. ولقد صدقَ الإمام الرباني في قوله: «لا يحمل عطايا المَلِك إلّا مطاياه».[٣]

رمز

اعلم أن مَن يُزَيِّن رأسكَ ويُحسنه، ويعلّق به زينةَ البصر أبصرُ بك منك. فالصانعُ الذي زيّن رأسك بفصّي العينين، وصَدَفي الأُذنين، وعلّق مرجانَ اللسان في مغارة وجهك -يتلقلق- لهو أبصرُ بك منك، وأقربُ إليك منك، وأشفَقُ عليك منك، وأسمعُ لك منك..

رمز

اعلم أنَّ الدعاء لاسيما من المضطرين، له تأثيرٌ عظيم، يسخَّر بسببه أقوى الأشياء وأعظمُها لأضعفِ الأشياء وأصغرِها، كسكوتِ غضب البحر لأجل معصومٍ على لوحٍ منكسر دعا بقلبٍ منكسر؛ فيدلّ على أن المجيبَ يحكم على الكلِّ فهو ربُّ الكل.

---

(١) الكيف: المزاح والسرور، والمقصود هنا: ما تشتهيه وترغبه.
(٢) أي «أنا».
(٣) الإمام الرباني، المكتوبات في مواضع عدة منها: ج/ ١ المكتوب ١٨، ١١٣، ٢٢١، ٢٧٧، ٢٨٧.

رمز

اعلم أن من أهم مرض ضلالة النفس؛ طلبُ شوكةِ الكلِّ من الجزء، وحِشمةِ السلطان من نَفَر، فإذا لم تجدْه فيه تَردُّه. مثلا: تطلب تمامَ تجليات الشمس في تمثالها المرتسِم في حَباب، فإذا لم تجد بالتمام تُنكرُ أنه منها.

أيتها النفس! وحدةُ الشمس لا تستلزم وحدة التجليات، وإن الدلالة لا تستلزم التضمن، وإن ما يصفُ لا يلزم أن يتَّصف؛ فالذرةُ الشفافة تصفُ الشمسَ، والنحلة تصف الصانعَ الحكيم.

رمز

اعلم أن الذهاب في طريق الكفر كالذهاب في الجَمَد بل تحت التراب بل الحديد، مع دفع الدافعة، مشكلٌ عسير على مَن توجَّه إليه قصدا وبالذات. وهذا الإشكال يستتر تحت النظر التَبعي.

وفي سبيل الإيمان كالذهاب في الماء بل الهواء بل الضياء، مع جذبة الجاذبة، سهلٌ يسير للمُوفَّق.

مثلا: تريد أن تقابل الشمسُ جهاتك الستة، فإما أن تتحول أنت بلا كُلفة فيحصل المقصود، وإما أن تُكلِّفَ الشمسَ قطع مسافةٍ مدهشةٍ لمقصد جزئي. فالأول: مثال التوحيد سهولةً. والثاني: مثال الشرك إشكالا. هكذا شاهدتُ. وبرهان هذا الرمز في «قطرة».

فإن قلت: فكيف يُقبَل الكفرُ مع هذا الإشكال ويُترَك الإيمانُ مع هذه السهولة؟..

قيل لك: إن الكفر لا يُقبَل قصدا، بل يُزلَق بسوء الهوى ويُسقَط فيه ويُتلوث به. وأما الإيمان فيُقصَد فيقبَل ويُوضع في القلب.

رمز

اعلم أنه كما أن الكلمة الفردةَ مسموعةٌ لألوفٍ من المخاطَبين كواحدٍ لا فرقَ بين الواحد والملايين، كذلك نسبةُ الأشياء إلى القدرة الأزلية، لا فرق بين الفرد والنوع..

رمز

اعلم أن جامعيةَ القرآن ووسعته، ومراعاته لحسيات طبقات المخاطَبين، لاسيما: تَنزّلاته لتأنيس العوام-الذين هم الأكثر المطلق والمخاطَبون أولا وبالذات- مع أنها سببٌ لكماله. فالنفس المريضة تضلّ بها؛ إذ تتحرى في أدنى طرزِ تفهيمِه المناسبِ للمقام أعلى وأزينَ صور الإفادة، وتصيّر الأسلوبَ -الذي هو ميزانٌ ومَعكِسٌ لحسّ المخاطب وفهمِه- ميزانا ومرصادا تنظُرُ منه إلى المتكلم، فتضل ضلالا بعيدا!

رمز

كيف السكون إلى الدنيا بالوجه الثالث والفرح بها؟.. إن الدنيا لها وجوه ثلاثة:

وجه: ينظر إلى أسماء الله.

ووجه: هو مزرعة الآخرة.. فهذان الوجهان حَسَنان.

والوجه الثالث: الدنيا في ذاتها بالمعنى الاسمي، مدار للهوسات الإنسانية ومطالب الحياة الفانية.

أنا رُكّبتُ نقطةً ميتة، وتركَبُني جيفةٌ ميتة. ويومي تابوتي، بين أمسٍ وغدٍ قبرَي أبي وابنه. فأنا بين تضييق ميتتين وضغطة القبرين. إلّا أن الدنيا من جهة أنها مزرعة الآخرة والنظر إليها بنور الإيمان تصير كجنةٍ معنوية.

رمز

اعلم أن وجودك كالبندقة الميرية[1] أو الفرس الميري في يد عسكر. كما أن العسكر مكلّف بتعهد بندقته وفرسِه السلطانيَين، كذلك أنت مكلّف بحفظ أمانتك وتعهدها..

اعلم أن السائق لهذا القول، أني رأيت نفسي مغرورةً بمحاسنها. فقلتُ: لا تملكين شيئا! فقالت: فإذن لا أهتم بما ليس لي من البدن.. فقلت: لابد أن لا تكوني أقلَّ من الذباب.. فإن شئتِ شاهدا فانظري إلى هذا الذباب، كيفَ ينظّفُ جناحَيهِ برجليهِ ويمسحُ عينيه ورأسَه بيديه! سبحان من ألهَمَه هذا، وصيّره أستاذا لي وأفحمَ به نفسي!

(١) أي التي تملكها الدولة.

رمز

اعلم أن من المزالق للأقدام: خلطَ أحكام الاسم «الباطن» بأحكام الاسم «الظاهر» وسؤالَها منه.. ولوازمِ «القدرة» بلوازم «الحكمة» وطلبَ رؤيتها فيها..ومقتضياتِ دائرة «الأسباب» بمقتضيات دائرة «الاعتقاد والتوحيد» وطلبَها منها.. وتعلّقاتِ «القدرة» بجلوات «الوجود» أو تجليات سائر الصفات، وملاحظةَ نواميسها وحِكمها فيها.. مثلا: وجودُك هنا تدريجي، ووجودك في المرايا البرزخية دفعيّ آني؛ لتمايز الصفات الإلهية في التعلقات.. وللفرق بين الإيجاد والتجلي.

رمز

اعلم أن الإسلامية رحمةٌ عامة، حتى إن الكفار سعادةُ حياتهم الدنيوية وعدمُ انقلاب لذائذهم إلى الآلام الأليمة، سببُها الإسلامية! إذ الإسلاميةُ قَلَبت الجحودَ والكفر المطلق، والإنكار المحض المتضمنين لليأس الأليم والألم الشديد إلى الشك والتردد. فالكافر بسبب تولُّد احتمال الحياة الأبدية في ذهنه بصيحةِ القرآن يستريحُ من الألم المنغِّص، وبعدم اليقين يستريح من الكلفة اللازمة للديانة. فهو كالنعامة (إبل الطير) إذا قيل له: طِرْ يقول: أنا إبل.. إذا قيل له: احمل الحمل. يقول: أنا طير! فهذه الدسيسة الشيطانية هي التي صيَّرت الكافر والفاسقَ مسعودَين ظاهرا في الحياة الدنيوية بالنسبة إلى الكافر المطلق والمؤمن الخالص..

رمز

اعلم أن النفسَ لا تريد أن تعترفَ وتتصور صدور ما هو أصغر أو أقلُ قيمةً منها من يدِ قدرةِ الخالق، لتحافظ على دائرة ربوبية نفسها، فتعطي للخالق ما فوقَها، وتتغافل عما تحتها. فما دامت لم تر نفسَها أصغرَ الأشياء أو لا شيء، لا تخلص من ميل نوعِ تعطيلٍ[1] أو شرك خفي.

رمز

اعلم أن النفس بسبب تكاسلها في وظيفتها، تريد أن لا يكون عليها رقيب، فتحبُّ التستر. فتلاحظ عدمَ المالك مكررا، فتعتقد حريتَها؛ فأولا تتمنى، ثم تترجى، ثم تلاحظ، ثم

(١) أي إنكار صفات الخالق.

تتصور، ثم تعتقد العدَم. ثم تمرُق من الدين! ولو استشعَرتْ بها تحت الحرية والراحة وعدم المسؤولية من الأهوال المدهشة المحرقة واليُتم الحزين الأليم؛ لما مالتْ أدنى ميلٍ، بل لفرّتْ وتبرأت وتابت أو ماتت.

رمز

اعلم أن الأشياء تتفاوت بتفاوت مدار الاستناد؛ مثلا: إن النفر المستند بسلطانٍ عظيم يفعل ما لا يَقتدِر عليه «شاه»[1] عظيم، فالنفر يزيد بسبعِ مراتب على من زاد عليه بسبعين مراتب؛ فالبعوضة المأمورة من طرف القدرة الأزلية تغلب نمرودَ النماريد المتمرّدة. فالنواة المأذونة من طرف فالق الحَبّ والنوى، تتضمن وتَسَعُ كلَّ ما تحتاج إليه النخلةُ الباسقة، ولا تسعُهُ «فابريقات» تسَع قريةً..

اعلم أن الفرق بين طريقي في «قطرة» المستفادة من القرآن؛ وطريق أهل النظر والفلاسفة، هو أني أحفر أينما كنتُ، فيخرج الماءُ، وهم تشبثوا بوضعِ ميازيبَ وأنابيب لمجيء الماء من طرفِ العالَم ويُسلسِلونَ سلاسلَ وسلالمَ إلى ما فوق العَرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضعُ ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الأوهام. وأما ما علَّمَنا القرآنُ فما هو إلّا أن أُعطينا مثلَ «عصا موسى» أينما كنتُ -ولو على الصخرة- أَضربُ عصاي فينفجر ماءُ الحياة، ولا أحتاج إلى السفر الطويل إلى خارج العالم، وتعهُّدِ الأنابيب الطويلة من الانثلام والانكسار..

رمز

(أي واه) وا اسفا! إن وجودَ النفس عمىً في عينها، بل عينُ عَماها، ولو بقي من الوجود مقدارُ جناحِ الذباب يصيرُ حجابا يمنع رؤيتَها شمسَ الحقيقة. فقد شاهدتُ أن النفسَ بسبب الوجود تَرى على صخرةٍ صغيرةٍ في قلعة عظيمةٍ مرصوصةٍ من البراهين القاطعة ضعفا ورخاوةً، فتنكر وجودَ القلعة بتمامها. فقس من هنا درجةَ جهلها الناشئ من رؤيتها لوجودها..

(١) رتبة عظيمة قريبة من السلطان.

رمز

اعلم يا «أنا» قد علمتَ أنه ما في يدك منك من الأُلوف، إلّا جزءٌ مشكوك؛ فابنِ على ذلك الجزء الاختياري الضعيف ما يطيق حملَه، ولا تحمل على الشعرة الشعورية الصخورَ العظيمة، ولا تحمل على ما ليس إليك، إلّا بإذن مالِكهِ. فإذا تكلمتَ بحسابكَ -بالغفلة - فلا تتجاوز عن حدِّك، وميدان جولانك شعرة فقط.

وإذا تكلمتَ بحساب مالك الملك فاحمل ما ترى كيفما أمر، وكيفما يشاء لا كيفما تشاء وإذنُ المالكِ ومشيئتُه تُعرَف من شريعته.

رمز

يا من يطلب الشهرة المسماة في العرف بـ«شان وشرف»! اسمع مني. فقد شاهدتُ الشهرةَ عينَ الرياء وموتَ القلب، فلا تطلبها لئلا تصير عبدَ الناس، فإن أُعطيتَها فقل:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

* * *

تقريظ

الشيخ صفوت أفندي(*)

رئيس مجلس تدقيق المصاحف الشريفة والمؤلفات الشرعية



وبه ثقتي

أحمد الله سبحانه وأُصلي وأُسلم على نبيه الذي أَنزل عليه قرآنه وعلى آله وأصحابه الذين شيّدوا معالمَ الدين ومهّدوا بنيانه.. وبعد:

فقد تجلى لعيني هذه «القطرة من بحر التوحيد» فرأيت لا فرقَ بينها وبينه، لأنها أظهرت وأفاضت في دين الإسلام عينه، وفي الحقيقة منه بدت وإليه تعود، فشَكَر الله تعالى سعيَ أخينا في رضاعة ثدي الإسلام المغترف من بحار التوحيد «بديع الزمان العلّامة سعيد» والغريب في هذه الأيام.. **فطوبى للغرباء**..[1] كما قال عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الفقير إليه سبحانه

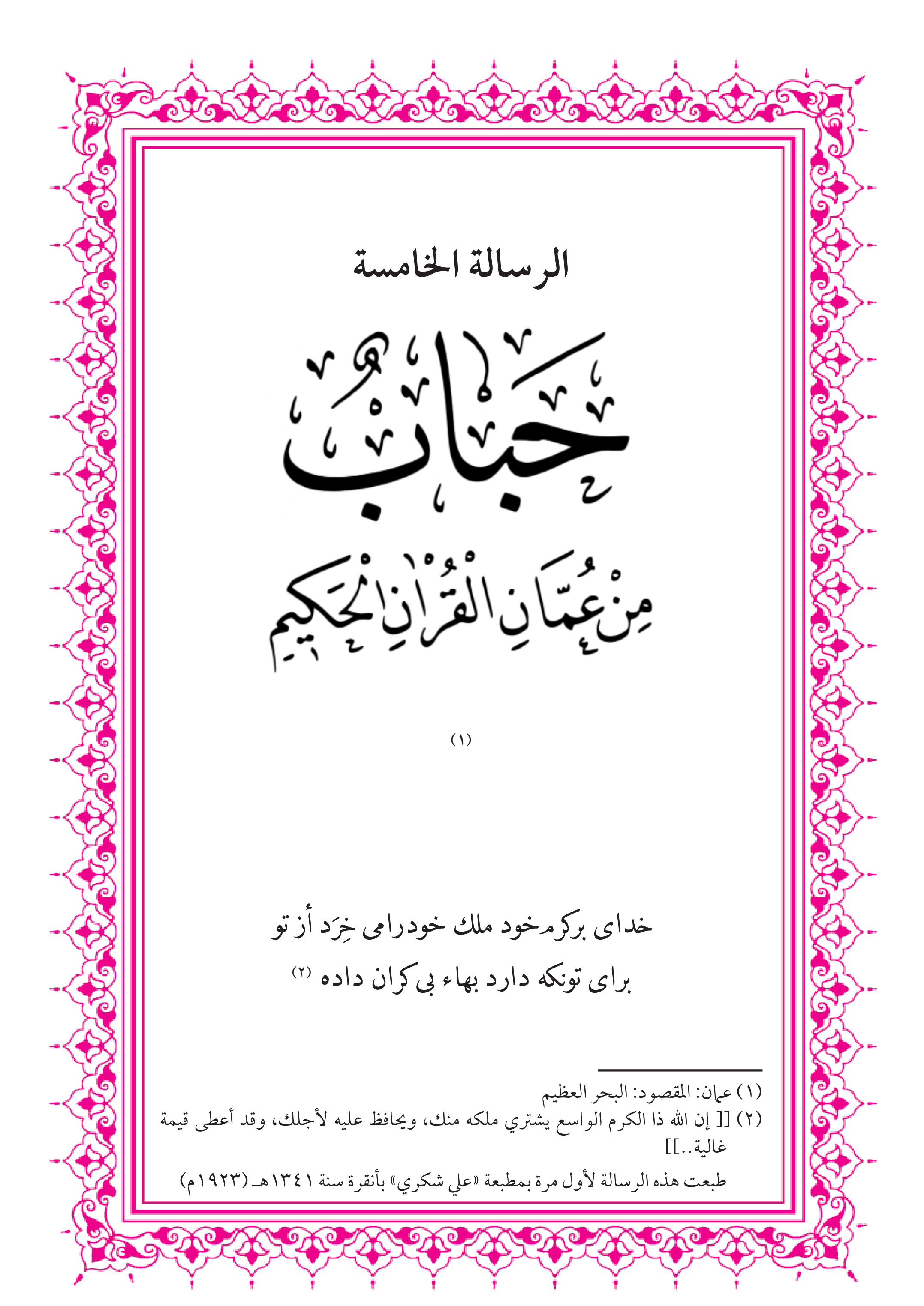
تراب أقدام العلماء

صفوت

* * *

---

(١) مسلم، الإيمان ٢٣٢؛ الترمذي، الإيمان ١٣؛ ابن ماجه، الفتن ١٥؛ الدارمي، الرقاق ٤٢؛ المسند ١/ ٣٩٨، ٢/ ١٧٧، ٢٢٢، ٣٨٩.



الرسالة الخامسة

حَبَابٌ

مِنْ عُمَّانِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

(١)

خداى بركرم خود ملك خودرامى خِرَد أز تو

براى تونكه دارد بهاء بى كران داده (٢)

(١) عمان: المقصود: البحر العظيم

(٢) [[إن الله ذا الكرم الواسع يشتري ملكه منك، ويحافظ عليه لأجلك، وقد أعطى قيمة غالية..]]

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «علي شكري» بأنقرة سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمدُ لله ربّ العالَمينَ

والصَلاةُ والسَّلامُ على سيّد المُرسلينَ. وعلى آلهِ وَصَحبهِ أجمَعين.

اعلم أيها المؤمن المصلي الذاكر، إذا قلت: «أشهدُ أن **لا إلهَ إلّا الله**» أو «محمدٌ رسولُ الله» أو «الحمد لله».. مثلا: حكمتَ بحكمٍ، ادّعيتَ دعوى، وأعلنت اعتقادا، يشهد لك في دعواك في آنِ تلفّظِك ملايينُ، وقبلَك ملايينُ ملايينَ من المؤمنين المتكلمين بها تكلمتَ به؛ كأنهم يصدّقونك.. وكذا يؤيدُك في دعواك ويُثبت حكمَك ويزكّي شهداءك كلُّ ما قام على صدق الإسلامية، وكلُّ ما أثبت حُكما من أحكامها، وكلُّ ما استند عليه جزءٌ من أجزاء قَصر الإسلام من الشواهد والبراهين ومسامير الدلائل.. وكذا اندمج في ملفوظك وتوضَّعَ عليه أمرٌ عظيم، ويُمنٌ جسيمٌ من الفيوضات والبركات القدسية.. وكذا اتصل بملفوظك وأحاطَ به معنىً جاذب، وروحٌ جالب من شرارات جَذَبات توجهات جمهور المؤمنين، ومن رشاشات رشحات رشفات قلوب الموحّدين الشاربين ماءَ الحياة من عيون تلك الكلمات المباركة..

اعلم أنه قد تقرر في الأصول: «أن المثبِت يرجَّح على النافي». وسرُّه: أن النفي ينحصر في موضعه، والإثبات يتعدى. ولو نفى ألفٌ، وأثبته ألفٌ كان كلٌّ من المثبتين كألفٍ. بسرّ: أنه إذا رأى واحدٌ الشمسَ من مشكاةٍ، وآخر من أخرى، وهكذا؛ فكلٌّ يؤيد كُلا، لاتحاد المَرئي والمشهودِ مع تعدد المناظر.. وإذا لم يره واحدٌ لعدم المشكاة، وآخر لضعف البصر، وآخر لعدم النظر، وهكذا.. فقوةُ كلٍّ في نفسهِ فقط، والانتفاءُ عنده، لا يدل على الانتفاء في نفس الأمر، فلا يؤيد أحدٌ أحدا لاختلاف الأسباب مع تعدد المدَّعى؛ لأن الانتفاء مقيّدٌ عند النافي بـ«عندي» مثلا.

فإذا تفهّمت هذا السر؛ فاعلم أن اتفاق كلّ أهل الضلالة والكفر على نفي مسألةٍ من المسائل الإيمانية، فاتفاقهم لا تأثير فيه، بل كحُكم واحدٍ. مع أنه حجةٌ قاصرة ينحصر على النافي فقط. وأما اتفاقُ أهل الهدى على المسائل الإيمانية فكلٌّ يتأيد بكلٍّ، كأن الكلَّ شواهد كلِّ واحدٍ.

اعلم أنه كما أن الأجزاء والأحجار في البناء المتساند يستند كلُّ واحدٍ بقوة الكل، ويزول ضعفُ كلٍّ بتساند الكلِّ، كأن الكلَّ عَوَنَةُ كلِّ واحدٍ ومساميره.. وأيضا كما أن الأغصان والأثمار في الشجرة تستند معرفةُ صفاتِ كل واحدٍ بالكلِّ، فكلٌّ للكلِّ معرِّفٌ، كأن كلَّ واحدٍ لكلِّ واحدٍ منفذٌ نظّار، ولمعرفته معيار.. كذلك إنّ تفاصيلَ لمعات الإيمان والإسلام ومسائلَهما يستند كلُّ جزئي بقوة الكلِّ، فبازدياد التفاصيل والجزئيات يزداد وضوحُ فهم كلِّ جزء وقوةُ معرفة كلِّ جزئي، وإذعانُ كلِّ حكم، وإيقانُ كلِّ مسألة. ومع كلِّ ذلك، فالنفسُ الشيطانة تعكس فتنتكس. فتزعم ضعفَ الجزء سببَ ضعفَ الكلِّ..

اعلم أن كلَّ جزء من كلِّ الكون واحد قياسيّ لإمكانات سائر الأجزاء. وبالعكس؛ فأجزاء الكائنات مقاييس للإمكانات بينها كلٌّ لكلٍّ..

اعلم أن أصغر جزءٍ؛ من أعظم كلٍّ، يحتاج إلى ما يحتاج إليه كلُّ الكلِّ كَمّا، فالثمرةُ تحتاج إلى كلِّ ما يحتاج إليه كلُّ الشجرة. فخالقُ الثمرة بل حُجيرةٍ من حُجيراتها لابد أن يكون خالقَ الشجرة، بل خالقَ الأرض، بل خالقَ شجرة الخلقة.

اعلم أن المسألة التي طرفاها في غاية التباعد، كل طرف كنواة تَسَنبلَت وأشجرت وتفرعت، لابد أن لا يتوضّع عليها الشكوك والأوهام؛ إذ التباسُ نواةٍ بنواة ممكن ما بقيت النواةُ نواةً مستورة. وأما إذا صارت شجرة وأثمرت، ثم شككتَ في جنس النواة شهدت الثمراتُ عليها، ولو توهمتَها غيرها، كذّبتْكَ تلك الثمرات.

مثلا: لا يتيسر لك فرضُ النواة التي انقلبت شجرةَ التفاح نواةَ حنظلةٍ، إلّا بتوهمها إياها، أو تبديل كلِّ ما أثمرت من التفاحات حنظلات وهو محال.

النبوة نواةٌ، أَنبتت شجرةَ الإسلامية بأزاهيرها وثمراتها، والقرآنُ شمسٌ أثمرت سياراتِ أركان الإسلامية الأحد عشر.[١]

اعلم[٢] أنه كما أن مَن يرى قشر بيضة انقشعت عن طير همائي[٣] تكمَّل وطار في السماء،

(١) أي الأركان الخمسة للإسلام والستة للإيمان. أفتبقى شبهة في البذرة بعد مشاهدة ثمراتها اليانعة؟ حاش وكلا (ت: ٧٨).

(٢) هذه المسألة موضحة في الأساس السادس من الإشارة الرابعة للمكتوب التاسع عشر.

(٣) طير في غاية الجمال كالطاووس (ت: ٧٨)

ثم يتحرى ما يسمع من كمالاتِ ذلك الطير الطائر في فضاء العالَم[١] في تلك القشرة اليابسة، لابد أن يغالط نفسه، أو يكذّب.[٢] وكذا لو نظر إلى فلقتَي نواةٍ انكشفت عن شجرةٍ تكمّلت وأثمرت، ومددت أغصانها في جو السماء، ثم تحرّى ما قرع سمعَه من عظمتها وثمراتها وأزهارها في تلك القشرة المطروحة في التراب، لابد أن يتبلّه أو ينكر..

كذلك إن مَن نظر إلى صورة ما نقله التواريخ من مبادي ظهور نبيّنا عليه الصلاة والسلام نَظرا ماديا وسطحيا وصوريا، لا يتيسر له دركُه وتقديرُ قيمته ومعرفة شخصيته المعنوية؛ بل لابد أن ينظر إلى ما نقله التواريخ والسِير بنظر قشر رقيقٍ انشقَّ عن قمريٍّ[٣] -كقمر- في جو الملكوت. ويرى ما يرى من لوازم البشرية، والأحوال الصورية كقشر نواة انكشفت منها شجرة طوبى المحمدية، التي تُسقى بماء الفيض الإلهي، وتنمو بإمداد الفضل الرباني على مرّ الدهور. فكلما مرّ على سمعه شيءٌ من الأحوال الصورية والمبدئية، فلابد أن لا ينحبسَ عليه ذهنهُ، بل ليرفعْ رأسه بسرعة وفي كل مرة منه إلى ما ترقى وتصاعد إليه الآن مما لا يدرك منتهاه.

وكذا إن ممّا يشط النظر لاسيما نظر المتحرّي الشاكّ، أنه لا يفرق بين المصدرية والمظهرية، بين المنبعية والمعكسية، وبين المعنى الاسمي والحرفي، وبين الذاتي والتجلّي. فكونه عليه السلام عبدا محضا، وأعبدَ خلق الله؛ يستلزم أن يُنظَر إليه بأنه مَظهرٌ ومَعكِسٌ لتجلياته تعالى. وكلُّ ما فيه من الكمالات من فيضه تعالى.

نعم، قد ذكرنا مرارا أن الذرة لاتسع مصدريةً ولو رأسَ ذبابة، ولكن تسع مظهريةً ولو نجوم سماوات. ونظرُ الغفلة ينظر أولا وبالذات إلى الذاتي الاسمي والمصدرية، فيتوهم الصنعةَ الإلهية طبيعةً طاغوتية..

اعلم أن الدعاء أنموذج لأسرار التوحيد والعبادة؛ إذ الداعي في نفسه خُفيةً، لابد أن يعتقد سماعَ المدعو لهواجسِ نفسه وقدرتَه على تحصيل مطلبه، فيستلزم هذا الاعتقادُ، اعتقادَ أن المدعو عليمٌ بكلِّ شيءٍ، وقديرٌ على كلِّ شيء.

اعلم أنه كما يمكن دخول هذه الشمس -سراج العالم- في عين الذباب بالتجلي فتتنور،

(١) أي إن شهرته وكمالاته أطبقت الآفاق (ت: ٧٨)
(٢) حيث لا يرى ما يسمعه في القشرة (ت: ٧٨)
(٣) لعله القُمْرِيُّ: وهو طائر يُشْبه الحَمامَ القُمْرَ البيض.

ولا يمكن دخول شرارة من كبريتٍ في عينها بالأصالة، بل لو دخلتْ لانطفت العين.. كذلك يمكن بل يجب مظهرية كل ذرة لتجليات أسماء شمس الأزل، ولا يمكن -بل يمتنع- أن تكون ذرةٌ مصدرا وظرفا لمؤثر حقيقي، ولو كان أصغر وأقل من الذرة.

اعلم يا «أنا» المتمردُ المغرور المتكبر، انظر إلى درجة ضعفك وعجزك وفقرك ومسكنتك! إذ يبارِزك ويصارعك -فتخرّ صعقا- الحُوَينُ الذي لا يُرى إلّا بتكبيره مرات ودرجات.

اعلم ومن صُغر الإنسان أنه يجول في خردلة حافظته، وتصير تلك الخردلة عليه كصحراءَ عظيمة يسري دائما ولا يقطعها إلى جانب. فقس درجةَ مَن يسري دائما ولا يتم دَورَ خردلةٍ،[١] ومع أن الخردلة الحافظة تصير كصحراء عظيمة على عقل الإنسان، كذلك يصير ذلك العقلُ كبحر يبتلع الدنيا.. فسبحان مَن جعل الخردلة لعقل الإنسان كالدنيا، وجعل الدنيا له كخردلة!

اعلم أن من أشد ظلم البشر إعطاءَ ثمرات مساعي الجماعة لشخصٍ، وتوهُّمَ صدورها منه، فيتولد من هذا الظلم شركٌ خفيٌ؛ إذ توهّمُ صدورِ محصّل كسبِ الجماعة، وأثَرِ جُزئهم الاختياري من شخصٍ، لا يمكن إلّا بتصور ذلك الشخص ذا قدرة خارقة ترقت إلى درجة الإيجاد، وما آلهة اليونانيين والوثنيين، إلّا تولدت من أمثال هذه التصورات الظالمة الشيطانية.

اعلم أن الإنسان كدوائرَ متداخلة متحدة المركز. ففي دائرةٍ: لباسُه جسمُه، وفي أخرى: بلدُه، وفي أخرى: وجهُ الأرض، وفي أخرى: عالم الشهادة وهكذا.. ولكنه لا فِعلَ ولا تأثير له إلّا في الدائرة الصغرى، وفيما سواها من الدوائر عاجزٌ مسكين، منفعلٌ وقابلٌ لأخذ الفيض فقط. لو تَفَعَّل[٢] ما فعل إلا تغييرَ صورة الفيض بالقصور والنقصان اللذين هما من ألوان العدم.

اعلم أن في الذاكر لطائفَ مختلفةً في الاستفاضة؛ بعضُها يتوقف على شعور العقل والقلب، واستفادةُ بعضٍ لا شعوري تحصل من حيث لا يُشعَر. فالذكر مع الغفلة أيضا لا يخلو من الإفاضة.

---
(١) أي لا يتم دورانا حجم خردلة!
(٢) أي لو أظهر الفعل مع عجزه.

اعلم أن الله خلق الإنسان في تركيب عجيب، ووحدةٍ في كثرة؛ بسيطٌ وهو مركب، فردٌ وهو جماعة، له أعضاء وحواس ولطائف، لكلٍّ في ذاته ألمٌ ولذة مع تألمه وتلذذه من انفعالاتِ الكل وتأثراتِ إخوانه؛ بدليل سرعة التعاون والإمداد بينها. فمن حكمة هذه الخلقة جَعَلَ الإنسانَ مَظهرا لأنواع اللذائذ ولأقسام النِعَم ولأصناف الكمال -لاسيما في الآخرة- إن سلكَ في سبيل العبودية.. وكذا جعله محلا لأنواع الآلام ولأشكال العذاب ولأقسام النقم، إن ضلَّ في طريق الأنانية. فألمُ وَجَع السنِّ غيرُ ألَم وجع الأذن. ولذةُ العينِ غيرُ لذة اللسان، واللمس والخيال والعقل والقلب وهكذا..

اعلم أن كثرةَ فوائد عدمِ تعين الآجال؛ دليلٌ نيِّر على تعيُّنها في علم الباري، ولو تعينت لَتُوُهِّمَ عدمُ تعيُّنها من جهة العلمِ بتوهم تفويض تَعيّنها على القانون الفطري، وإذ لم تتعين فيما بين الحدين المعيّنين؛ لا حقّ للوَهم أن يدّعي عدمَ التعيّن.

اعلم أن الذكر من شأنه أن يكون من الشعائر، والشعائر أرفع من أن تنالها أيدي الرياء.

اعلم أن تكرارَ كلمة التوحيد؛ لتجريد القلب من أنواع العلاقات، وطبقات المعبودات الباطلة، ولأن في الذاكر أنواعا من لطائف وطبقاتٍ من حواس؛ لكلٍّ توحيدٌ وتجريدٌ من الشرك المناسب له.

اعلم أن الفاتحة المقروءة، مثلا؛ لا تفاوتَ بين إهداء مثلِ ثوابها لواحدٍ، ولألوفٍ، أو لملايين، كمثل الكلمة الملفوظة؛ سواءٌ في استماعها الفردُ والألوفُ، لسرٍ لطيف في سرعة التناسل والاستنساخ في اللّطيف.. ولرمزٍ شريفٍ في التكثّر مع الوحدة في النوراني، كمصباح قابلَه مرآةُ فردٍ، أو ألوفٌ من المرايا.

اعلم أن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كإجابة دعوة المُنعم الذي أفاضَ فيضه، وبسَطَ مائدةَ إنعامه على مقام صاحب المعراج. وإذا وصف المصلّي النبيَّ بصفةٍ، لابد أن يتأمل في مناط تلك الصفة ليشتاق المصلّي لتصليةٍ جديدة.[1]

اعلم أيها العالم الديني! لا تحزن على عدم الرغبة في عملك وقلّة أُجرتك؛ إذ المكافأة الدنيوية تنظر إلى جهة الاحتياج، لا إلى درجة القيمة الذاتية، إذ جهة المزية الذاتية ناظرة إلى المكافأة الأخروية، لا يجوز لك أن تشتريَ بها ثمنا قليلا من متاع الغرور.

(١) أي بتكرار الصلوات عليه.

اعلم أيها المحرّر والخطيب العمومي بلسان الجريدة! لك أن تتواضع وتهضم نفسك وتعلن قصورك تندّما. ولا حقّ لك أن تتمرد بالتجاهر بما يضاد شعائر الإسلام. فأين جاز لك، ومَن وكّلَكَ، وبأيّ حقّ تتجاسر على إعلان القصور الديني،[١] بل إشاعة الضلالة بحساب الملة وباسم الأمة، وتظن الملّة على قلبك الضال؟![٢].. فلا يجوز لأحدٍ -فضوليا- أن يهضم نفسَ غيره حتى نفسَ أخيه. فمن أين جاز لك أن تزيِّفَ عامة الملّة الإسلامية بإساءة الظن بهم بإعراضهم عن الشعائر الإسلامية.. ولا ريب أن نشر ما لا يقبله جمهور المؤمنين في الجرائد العمومية من المستحدثات دعوةٌ إلى الضلالة، فناشرُها داعٍ إلى الضلالة، فلا يُجاب بالضرب على فمه فقط، بل يُعنّف بالأخذ على يده.

اعلم أن الكفار لاسيما الأوربائيون ولاسيما شياطين في إنكلترة وأباليس الفرنك،[٣] أعداء ألدّاء، وخُصماء معاندون أبدا للمسلمين وأهل القرآن.. بسر أن القرآن حَكَم على مُنكري القرآن والإسلام وعلى آبائهم وأجدادهم بالإعدام الأبدي، فهم محكومون بالإعدام أبدا، والحبسِ في جهنم سرمدا بنصوص ذلك القرآن الحكيم. فيا أهل القرآن كيف توالون مَن لا يمكن أن يوالوكم أو يحبوكم أبدا؟.. فقولوا: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣) ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الأنفال:٤٠).

اعلم أن الفرق بين مدنية الكافرين ومدنية المؤمنين، أن الأولى: وحشةٌ مستحالة ظاهرُها مزيّن، باطنُها مشوّه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة.. ومدنية المؤمنين باطنُها أعلى من ظاهرها، معناها أتمّ من صورتها، في جوفها أُنسيةٌ وتحبّب وتعاون. والسر: أن المؤمن بسر الإيمان والتوحيد يرى أخوّةً بين كل الكائنات، وأُنسيةً وتحببا بين أجزائها، لاسيما بين الآدميين ولاسيما بين المؤمنين. ويرى أخوةً في الأصل والمبدأ والماضي، وتلاقيا في المنتهى، والنتيجة في المستقبل. وأما الكافر فبحكم الكفر له أجنبيةٌ[٤] ومفارقة بل نوعُ عداوةٍ مع كل شيء لا نفع له فيه، حتى مع أخيه؛ إذ لا يرى الأخوة إلّا نقطة اتصال بين افتراق أزلي ممتد، وفراق أَبدي سرمد؛ إلّا أنه بنوع حَميّةٍ ملّية أو غيرة جنسية تشتد تلك الأخوة في زمان قليل، مع أن ذلك

(١) أي إشاعة شبهات باطلة حول الدين (ت: ٨٠).
(٢) فتحسب الأمة جميعا ضالين مثلك (ت: ٨٠).
(٣) أي الإفرنج الذي أطلق على الفرنسيين أولا ثم شمل الأوربيين.وفي (ط١) أمريقا.
(٤) أي الإحساس بالغربة في هذا الكون.

الكافر لا يحب في محبة أخيه إلّا نفسَ نفسه. وأما ما يُرى في مدنية الكفار من المحاسن الإنسانية والمعالي الروحية، فمن ترشحات مدنية الإسلام، وانعكاسات إرشادات القرآن وصيحاته، ومن بقايا لمعات الأديان السماوية.

فإن شئتَ فاذهب بخيالك إلى مجلس «سيدَا»[١] قُدّس سره في قرية «نورشين».. وما أظهرتْ من المدنية الإسلامية بصحبته القدسية، تَرَ فيها ملوكا في زي الفقراء وملائكة في زي الأناسي. ثم اذهب إلى «باريس» وادخل في لجنة الأعاظم تَرَ فيها عقاربَ، تلبسوا بلباس الأناسي، وعفاريتَ تصوَّروا بصور الآدميين. وقد بينتُ الفروق بين مدنية القرآن والمدنية الحاضرة في «لمعات»[٢] «وسنوحات»[٣] فراجعهما لترى فيهما أمرا عظيما تغافلَ عنه الناس.

اعلم يا من يطلب الاجتهاد في مسائل الدين في هذا الزمان! إن باب الاجتهاد مفتوح، لكن لا يجوز لكم الدخول فيه لستة أمور:

فأولا: لأن عند هبوب العاصفات في الشتاء يُسَدّ المنافذ الضيقة، فكيف تُفتح الأبواب؟ وعند إحاطة سيل المنكَرات والبدعيات وتَهاجم المخرّبات لا يُشقّ الجدار بفتح منافذ.

وثانيا: إن الضروريات الدينية التي لا مجال للاجتهاد فيها، والتي هي في حكم الغذاء والقوت للمسلمين قد أُهملَت وتزلزلت، فلابد صرفُ كلِّ الهمّة لأقامتها وامتثالها وإحيائها، ثم بعد اللَّتيّا والّتي[٤] تَمَسّ الحاجة إلى الاجتهاد في النظريات التي توسعت باجتهادات السلف، بحيث لا يضيق عن حاجات كل الزمان.

وثالثا: إن لكل زمان متاعا مرغوبا، يشتهر في سوقه، تُجلَب إليه الرغبات وتُوجَّه وتنجذب الأفكار إليه، كالسياسة وتأمين الحياة الدنيوية الآن.. وكاستنباط مرضيات خالق العالم من كلامه، وتأمين السعادة الأبدية في زمان السلف. فلأجل توجُّه الأذهان والقلوب والأرواح في الجمهور إلى معرفة مرضيات ربّ السماوات والأرض في ذلك الزمان، صار كلُّ مَن له استعداد جيد يتدرّس قلبُه وفطرتُه -من حيث لا يشعر- من كل ما يجري في ذلك الزمان

---

(١) وهو مرادف لكلمة الأستاذ. والمقصود هنا وليّ مشهور من الصالحين في جنوب شرقي تركيا.
(٢) اللوامع -مجلس في عالم المثال- من مجلد «الكلمات».
(٣) السانحات، في مجلد «صيقل الإسلام».
(٤) اللتيا والتي: هي الداهية الكبيرة والصغيرة. (مجمع الأمثال للميداني).

من الأحوال والوقوعات والمحاورات، كأن كلَّ شيء معلِّمٌ يلقن فطرتَه استعدادا إحضاريا للاجتهاد، حتى يكاد زيت ذهنه يضيء ولو لم تمسسه نارُ كَسْبٍ. فإذا توجه إلى الاجتهاد صار له نورٌ على نور. وأما الآن فلتشتتِ الأفكار والقلوب، وانقسامِ العناية والهمة، وتحكّم السياسة والفلسفة في الأذهان، لا يمكن لمن كان في ذكاء «سفيان ابن عيينه»(*) مثلا أن يحصِّل الاجتهادَ إلّا بعشرة أمثال وقت ما حصَّل سفيان الاجتهادَ فيه. إذ إن سفيان يبتدئ تحصيلُه الفطري من حيث التمييز، فيتهيأ استعدادُه كالكبريت للنار. وأما نظيره الآن -فبسر ما مرّ آنفا- يتباعد استعدادُه بدرجة تبحّره في الفنون الحاضرة و يتقاسى عن قبول الاجتهاد بدرجة تغلغله في العلوم الأرضية.

ورابعا: إنَّ ميلَ التوسيع والاجتهاد إن كان من الداخلين بحقٍ في دائرة كمال الإسلام بمظهرية التقوى الكاملة وامتثال الضروريات، يكون ذلك الميل كمالا وتكملا. وأما إن كان ممن يهمل الضروريات ويرجّح الحياة الدنيوية على الآخرة يصير ذلك الميل ميلَ تخريبٍ، ووسيلةً لحل ربقة التكليف عن عنقه.

وخامسا: إنَّ المصلحةَ حِكمةٌ مرجِّحة، وليست بعلّة للحُكم. ونظرُ هذا الزمان يصيِّر المصلحةَ علّةً للحُكم. وكذا نظرُ هذا الزمان يتوجه أولا وبالذات إلى السعادة الدنيوية، مع أن نظرَ الشريعة متوجه أولا وبالذات إلى السعادة الأخروية، وثانيا وبالعرض إلى الدنيا من حيث هي وسيلة الآخرة.. وكذا إن كثيرا من الأمور التي ابتُلي الناسُ بها، وعمّت البليةُ بها حتى صارت من «الضروريات»؛ فلتولدها من سوء الاختيار، ومن الميول الغير المشروعة «لا تبيح المحظورات» ولا تصير مدارا لأحكام الرّخَصية. كما أن مَن سَكر بشرب حرامٍ لا يُعذر في تصرفاته في حالة السُكر.. وهكذا فالاجتهادات بهذا النظر في هذا الزمان تصيرُ أرضية، لا سماويّة. فالتصرف في أحكام خالق السماوات والأرض وفي عباده بلا إذنه مردود.

مثلا: يَستحسِن بعضُ الغافلين الخطبةَ بالتركية لتفهيم السياسة الحاضرة لعامة المسلمين، فهذا الغافل المسكين لا يعلم أن السياسةَ الحاضرةَ -بكثرة الكذب والحيلة والشيطنة فيها- صارت كأنها وسوسةُ الشياطين، فلا حقَّ لهذه الوسوسة السياسية أن ترتقيَ إلى مقام تبليغ الوحي. وكذا لا يَفهم هذا الجاهل أن أكثر الأمة إنما يحتاجون لإخطار الضروريات وتذكير المسلّمات والتشويق على امتثال الحقائق المتعارَفة بين المؤمنين، من أركان الإيمان والإسلام

ومراتب الإخلاص والإحسان. فبكثرة التسامع يتساوى العوامُ والعلماء في التذكر والتخطر بسماع القرآن. إذ العجمي يفهم المآل إجمالا وإن لم يعرف المعنى. وكذا لا يَعقلُ ذلك الغافلُ أن عربية الخطبة وَسْمٌ سماوي مسدّد ومُزيَّن في سماء وحدة الإسلام، وبالتغيير يصير وَشما مشتِتا مشينا.[١]

اعلم يا من أحاطَ به الغفلة وأظلمت عليه الطبيعة حتى صار «أعمى وأصم» يعبد الأسباب في ظلمات الطبيعة الموهومة! إني أُترجم لك لسانا واحدا من خمسة وخمسين ألسنة يتكلم بها كلُّ واحدٍ من مركبات الكائنات وذراتها شاهداتٍ على وجوب وجوده تعالى ووحدته في ألوهيته وربوبيته جل جلاله[٢].. وهو أن اضطرابات الأرواحِ والعقول الناشئةَ من ضلالاتها الناشئةِ من استنكاراتها الناشئةِ من الاستبعاد والاستغراب والحيرة في إسناد الأشياء إلى أنفسها، وإلى الأسباب الإمكانية.. تلجئ الأرواحَ والعقولَ للفرار إلى الواجب الوجود الواحد الأحد الذي بقدرته يحصل إيضاحُ كل مُشكل، وبإرادته يحصل فتحُ كلِّ مغلَق، وبذكره تطمئن القلوب.

فإن شئت تحقيقه فانظر إلى هذه الموازنة وهي: أن الموجودات إما فاعلُها جانبُ الإمكان والكثرة، وإما جانبُ الوجوب والوحدة؛ فما يُتوهم بقصور النظر من الكلفة والاستبعاد، والاستغراب في إسناد كل شيء إلى الواجب الوجود، تصير محققةً عند الإسناد إلى الكثرة، لقصور أي سبب كان، وضعفِه عن تحمل أي مسبَّب كان، في جانب الكثرة دون الوحدة. فما يُتوهمُ هناك متحقق هنا. ثم بعد هذا تتضاعف الكلفة والاستبعاد والاستغراب عدد أجزاء الكائنات مع أنها في الإسناد الأول كانت واحدةً موهومة وصارت هنا حقيقةً متضاعفة عدد أجزاء الكائنات؛ إذ في الإسناد إليه تعالى نسبةُ كثيرٍ غيرِ محدود إلى واحدٍ مباين الماهية لها، وفي جانب الكثرة نسبةُ واحدٍ إلى كثير غير محدود متماثلة الماهية؛ إذ النحلة مثلا، لو لم تُسنَد إلى الواجب الواحد، لزِمَ اشتراكُ السماوات والأرض في إيجادها لعلاقتها بأركان العالم. مع أن صدورَ الكثير عن الواحد أسهلُ بمراتبَ من صدور الواحد عن الكثيرين المتشاكسين الصُم العُمي الذين لا يزيد اختلاطُهم إلّا أعميتَهم وأصمّيتَهم. ثم مع ذلك إن الكلفة لو كانت في الإسناد الأول مثلَ ذرة، تترقى في الإسناد الثاني إلى أمثال الجبال؛ إذ الواحد بالفعل

(١) أما الأمر السادس فمذكور ضمنا هنا، وهو موضح في «الكلمة السابعة والعشرين» (رسالة الاجتهاد).
(٢) قد ذكرت تلك الألسنة إجمالا في «قطرة» وما هنا إيضاح لسانٍ واحدٍ فقط. (المؤلف).

الواحد يحصِّل وضعيةً ونتيجة للكثير، لا يتيسر للكثير -لو أُحيلت عليهم- أن يحصّلوا تلك الوضعيةَ، أو يصلوا إلى تلك النتيجة إلّا بأفعال كثيرة وتكلفاتٍ عظيمة؛ كالأمير مع نفَراته، والفوارةِ مع قطراتها، والمركزِ مع نقاط دائرته. ثم مع ذلك إن الاستبعاد والاستغراب الموهومَين في الإسناد الأول، ينقلبان في الإسناد الثاني إلى محالات متسلسلة.

من بعض المحالات: فرضُ صفات الواجب في كل ذرة؛ إذ كمال الصنعة ونقوشها وإتقانها تقتضي علما محيطا، وبصرا مطلقا، وقدرة تامةً وإرادةً شاملةً.. ومنها فرضُ شركاء غير متناهية في الألوهية والوجوب اللذين لا يقبلان الشركة أصلا؛ إذ لو لم تُسند الأشياء إلى الواحد الواجب، للزم أن يكون لكل واحدٍ وفي ضمنه واحد من الآلهة.. ومنها فرض كل ذرة حاكما على الكل، ومحكوما للكلِّ ولكلٍّ، كالأحجار في البناء المعقد لو انتفى الباني، لزِمَ أن يكون كل حجر كالباني عالما مهندسا بانيا؛ إذ النظام والانتظام والإتقان والحِكمُ هكذا تقتضي، لا محل للتصادف فيها.. ومنها فرض الشعور المحيط والعلمِ التام والبصرِ المطلق في كل ذرة وسبب؛ إذ الموازنة والتناظر والتساند والتعاون يقتضي شعورا محيطا وبصرا مطلقا وهكذا.. من الصفات المحيطة.

فلو أُسندت الأشياءُ إلى أنفسها لزم تصوّر هذه الصفات في أنفسها، ولو أُسندت إلى الأسباب لزم تصور هذه الصفات في أسبابها، بل في كل ذرة من ذراتها.. وهكذا من المحالات المتسلسلة والممتنعات العقلية والأباطيل التي تمجّها الأوهام.. وأما إذا أُسندت إلى صاحبها الحقيقي وهو صاحب مرتبة الوجوب والوحدة، لا يلزم إلّا أن تصير الذراتُ ومركباتها -كقطرات المطر الحاملة لتماثيل الشمس بالانعكاس- مظاهرَ لتجلياتِ لمعات القدرة النورانية المطلقة المحيطة الأزلية الغير المتناهية، المستندة بل المتضمنة للعلم والإرادة الأزليين الغير المتناهيين. وهي القدرة التي شهدت عليها معجزات المخلوقاتُ، التي لمعتُها الفذة أجلّ من شمس الإمكان والكثرة بسر التجزؤ والتوزيع والانقسام في جانب الإمكان والكثرة، دون جانب الوجود والوحدة. وإن ذرةَ تلك القدرة أعظم من جبال الأسباب، بسر أن جزء تجلي النوراني مالك لخاصية الكل، كأن الكلّ كلّيٌّ، ولو في جانب الإمكان، حتى ترى الشمس بتمامها في ذرة زجاجية. فكيف نور الأنوار المتظاهر من جانب الواجب الوجود الواحد الأحد؟!

فالفرق بين الإسناد الأول والإسناد الثاني، كالفرق بين تجلي الشمس بخاصيتها في قطرة بل في ذرة بالتجلي وبين دعوى وجود شمس بالأصالة في تلك القطرة؛ ومحاليةُ هذه الدعوى أظهر من أن تَخفى.. ومع كل ذلك لا كلفةَ ولا معالجةَ ولا تَعَمُّلَ في عمل تلك القدرة المجهولة الأزلية، بل تتساوى بالنسبة إليها الذراتُ والنجوم، والجزء والكل، والفرد والنوع، والقليل والكثير، والصغير والكبير، وأنت والعالم، والنواة والشجرة. والسرُّ في أنه لا كلفة بالنسبة إليها أن تلك القدرة لازمةٌ ذاتية ضرورية ناشئة للذات الأزلي، فلذاتيتها، محالٌ تداخلُ ضدِّها في ما بينها. فإذ لا عجزَ فلا مراتب فيها، فإذ لا مراتب فيها، تتساوى بالنسبة إليها أصغرُ الأشياء وأعظمُها.

فإن شئت تقريبَ هذه الحقيقة إلى الفهم بتمثيلات في دائرة الإمكان والكثرة، فاستمع مثلا - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ -: يتساوى في أخذ تجلي الشمس في تمثالها الذراتُ الزجاجية، والبحور الأرضية، والسيارات السماوية بسر «الشفافية»..

وإن المصباح المركزي للمرايا المحيطة يتساوى بالنسبة إلى المصباح زجاجةٌ من زجاجاتِ أصغرِ دائرة، ومجموع الزجاجات في أكبر الدائرة، بسر «المقابلة»..

وإن النور والنوراني تتساوى بالنسبة إلى الاستضاءة والاستفاضة الواحدُ والألوفُ، لا تَزاحُمَ فيه بسر «النورانية». فلنوعِ نورانيةٍ في لطافة الكلمة يتساوى في الاستماع الواحدُ والألوف..

ومثلا: إن الميزان الحساس بدرجةٍ يتحسس بذرّة، لو كان في كفتيه شمسان أو جوزتان، بين رفع كفةٍ إلى الثريا وكفة إلى الثرى، بوضع جوزة أخرى في كفة بسر «الموازنة»..

ومثلا: إن أعظم السفن لا يتعسر سوقُها وتحريكها على صبي كما لا يتعسرُ عليه تحريك سفينته التي هي ملعبته في كفه، أو تحريكُ ساعته بسر «الانتظام»..

ومثلا: إن «القماندان»[1] لا فرق في أمره بـ«آرش» بين نفر وفيلق، يتساوى في التحريك والتحرك النفرُ، وكلُ العسكر بسر التزام «الامتثال»..

---

(١) القماندان: القائد العسكري.

ومثلا: إن الماهية المجردة في الأنواع والكليات، يتساوى بالنسبة إليها فردٌ من أصغر الأفراد وأكبرُ الأفراد وكلُ الأفراد الغير المحدودة بسر «التجرد»..

وهكذا من الأمثلة الدالة على أنه يمكن عدم التفاوت بين القليل والكثير والصغير والكبير بالنسبة إلى شيء.(١)

فبسر «شفافية» الملكوتية في كل شيء، وبسر «مقابلة» وجه كل شيء للقدرة، وبسر «نورانية» تلك القدرة، وبسر «الموازنة» الإمكانية، وبسرّ «الانتظام» بقوانين القضاء والقدر، وبسر «امتثال» كل ذرة من ذرات الكائنات بكمال الشوق واللذة للأوامر التكوينية المندمجة في أمر «كن»، وبسرّ «تجرد» الواجب الوجود عن الماديات.. فبهذه الأسرار الستة تتساوى بالنسبة إلى قدرته إحياءُ البعوضة وإحياء الأرض، وخلقُ النحلة وخلق السماوات والأرض، وإيجاد الذرة وإيجاد الشمس. بل إن التساويَ وعدمَ التفاوت ثابتٌ بالحدس القطعي والمشاهدة؛ إذ تلك القدرة المجهولة بماهيتها، والمعلومة بمعجزاتها تفعل بمثل غصن دقيق -كخيط رقيق- أمثالِ العناقيد التمرية والعنبية وغيرهما، تلك الخوارقَ الحيوية التي لو أحيلَت صنعتُها على الأسباب لاحتاجت إلى ما لا يحد من التكلفات، وتتجلى تلك القدرة بجلوات الوجود في سَمّ الخياط على الشفافات والعيون الناظرة إلى الخيال بالتماثيل البرزخية، لو أحيلَت على الأسباب لامتنعت أو لاحتاجت إلى ما لا يحد من المعالجات.

الحاصل: أن ما يُرى من إيجاد القدرة للأشياء الحيوية والوجودية والنورية يدل على أمور ثلاثة:

الأول: أنَّ الوسائط والأسباب الظاهرية حُجُبٌ ضعيفة وضِعَت لمحافظة عزة القدرة في المباشرة الظاهرية في وجه المُلك الكثيف الخسيس فقط..

والثاني: أنَّ الحياةَ والوجود والنور -لشفافيةِ وجه مُلكها كملكوتيتها- ما وضعت الحُجُب الكثيفة على يد القدرة، بل ترقرقت الوسائط فيها..

والثالث: لا تكلّف ولا تَعمُّل ولا معالجة في تأثير تلك القدرة؛ إذ مَن يصنع بنواةِ تينةٍ شجرةَ تينة بعظمتها، وبخيطٍ دقيق عنقودا من حبات العنب -وكلُّ حَبة فيها ما فيها- لا

(١) في «الكلمة العاشرة» و«الكلمة التاسعة والعشرين» وفي السانحات (مجلد صيقل الإسلام) توضيح وافٍ لهذه الأسرار الستة.

يتعسّر عليه شيء.. ولا ريب في الحقيقة أن ظهور صاحب تلك القدرة الأزلية أشدُّ بمراتبَ من ظهور الكائنات. إذ كلُّ مصنوع دلالته على نفسه بوجوه قليلة مرئية، وعلى صانعه بوجوه كثيرة مشهودة وعقلية وغيرهما. وأي مصنوع كان لو أُحيل على الأسباب، واجتمعت عليه الأسبابُ الأرضيةُ والسماوية لم يَأتُوا بمِثلِهِ وَلَو كانَ بعضُهمْ لبَعضٍ ظهيرا. إذ حبة نواة في حبة تينة ليست بأقلَّ جزالةً من شجرة تينة، وليس الإنسان أقلَّ جزالةً وأدنى صنعة من الأرض. فالقدرة التي أوجدت النواة والإنسان لا يتعسّر عليها إبرازُ الشجر والعالم.

فيا مَن ضلّ بالاستبعاد والاستغراب والحيرة والاستنكاف في جانب الحق! فقد سمعت بهذه التحقيقات أن الاستبعادَ بلا نهاية، والاستغرابَ بلا غاية، والحيرة بلا حد، وتحقق الكلفة بما لا يُحصى مع محالات عجيبة، فقد سمعتَها موجودة في جانب باطلك الذي ابتُليتَ به من نسبة الأشياء بالأصالة إلى أنفُسها وأسبابها. فاضطرابات الأرواح والعقول الناشئةُ من هذه الضلالة؛ تُلجئ القلوبَ إلى الفرار بالتسليم إلى الواجب الوجود الواحد الأحد الذي لا يحصُل إيضاحُ شيء من الأشياء إلّا بإضافته إلى قدرته، ولا يحصل فتحُ شيء من المغلقات إلّا باتصاله بإرادته، ولا يطمئنُ قلبٌ ولا يستقر يقينٌ في مسألة من المسائل إلّا بربطها بذكره واسمِه جل جلاله..

اعلم أن ميدانَ اشتغال الإنسان، ومسايرَ جولان الهمة، أوسعُ من أن يُحاط به. فقد يجول في ذرة، ويسبَح في قطرة، وينحبس في نقطة، مع أنه قد يضع العالَم نصب عينيه، وقد يُدخل الكائنات في عقله حتى يتطاول إلى رؤية الواجب الوجود ومشاهدته. فقد يكون الإنسان أصغر من ذرة، وقد يصير أكبرَ من السماوات، فيدخُلُ في القطرة مع أنه يدخل فيه الفِطرةُ بأنواعها وأركانها..

اعلم أن كل ما أَنعم الله به على الإنسان، له شرائط ومفاتيح بعضها آفاقي وبعضها أنفسي. مثلا: إن الله أنعم بالضياء والهواء والغذاء والصدى، وعلّق الاستفادةَ منها على فتح العين والأنف والفم والسمع وهكذا.. مع أن هذه الفتوح الأنفسية من كسبنا، فلا يتحصل إلّا بخلقه وإيجاده تعالى. فلا تتخيّلن أيها الغافل هذه النعمَ سدىً مهملة تسئم[1] فيها كيف تشاء

(١) الكلمة مأخوذة من سامت الماشية، أي خرجت إلى المرعى، وليست من سئم، بمعنى ملّ وضجر.

بلا منّة ولا حساب. كلا! بل تُساق إليك بقصدِ مُنعمها فتُلتَقَم باختيارك ثم تنتشر على مظان حاجاتك بإرادة مُحسنها عمّ نوالُه..

اعلم أن أواخرَ الأشياء ونهاياتِها ليست بأقلَّ انتظاما وإتقانا من أوائلها؛ ولا ظواهرها ولا صورها بأحسن صنعةً وحكمةً من بواطنها. فلا تحسبنَّ أواخرَ الأشياء وبواطنَها سدىً مهملةً تلعب بها يدُ التصادف. ألا ترى الثمرة مع الزهرة، أظهرَ حكمةً من الجرثوم النابت من النواة. فالصانع جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

اعلم أن إعجازَ القرآن، حَفظَ القرآن عن التحريف، فلا يتيسر لكلام مفسِّر أو مؤلّفٍ أو مترجم أو محرّف وغيرهم، أن يلتبس بالآيات أو يلبسَ زيّها كما التبست واختلطت سائر الكتب المنـزلة حتى صارت محرفة..

اعلم أن تكرار آيةِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في مقاطع الآيات التنـزيلية المشيرة إلى الآيات التكوينية المتنوعة المختلفة في سورة «الرحمن» يدل على أن أكثر عصيان الجن والإنس وأشدَّ طغيانهما وأعظم كفرانهما يتولد من عدم رؤية الإنعام في النعمة.. والغفلةِ عن المنعم.. وإسنادِ النعم إلى الأسباب والتصادفات.. حتى يصيرا مكذِّبَين بآلاء الله. فلابد للمؤمن من أن يبسمل بَدء كلّ نعمةٍ قاصدا بها أنها منه، أنا آخذها باسمه وبحسابه، لا بحساب الوسائط، فله الشكر والمنة.

اعلم أيها المتوسوس المتخطر بإلقاآت الشيطان، وإخطار مرض القلب والخيال، وبإمرار خسّة النفس ولؤمِها مزخرفاتٍ[1] شتّى على عين عقلك عند توجهك إلى الحقائق الإلهية، حتى قد تمر على عينيك سحائبُ مظلمة ممطرة رذائلَ وفواحشَ وشتوما تقشعر منها عند نظرك إلى شمس الحقائق، كأنك تمدّ يد التنـزيه والتقديس، وترسل عينَك للتسبيح والتمجيد؛ والحال أن يدَك تَتنجّس بأرجاس خيالك، ويستقذر نظرُك ممّا يمر عليه من سفاسف خبثِ نفسك، ثم تنعكس تلك المستقذراتُ على المقدسات في نظرك، فتتألم فتتأمل في المستقذرات. لا تيأس ولا تتأثر ولا تلقِ نفسَك في الغفلة للفرار من هذه الحال، والنجاة من هذا اللوم الأليم؛ إذ لا ضررَ إلّا ضررُ توهّمِ الضرر، فتتكرر فتتضرر. ألا ترى أنك إذا نظرت إلى الشمس وضيائها، والسماءِ ونجومِها، والجنةِ وأزاهيرها، في مسامات ثوبٍ مستقذَر بمزخرفات شتى، لا

(١) مزخرفات: المقصود بها المستقذرات.

يمكن أن تسري تلك إليها وتتكدر هي بها، بل تنفعل أنت منها. فلا تهتم بها لتذهبَ؛ إذ هذه الوهميات والهوائيات كالهوام والزنابير؛ إن دافعتَهم قاتلوك، وإن تركتَهم فارقوك..

اعلم أيها المتفلسف المرجِّح للعقل على النقل، فتُؤوِّل النقلَ بل تُحرِّف؛ إذ لم يسعه عقلُك المتفسخ بالغرور والتغلغلِ في الفلسفيات! إنني كنتُ في حينٍ كما كنتَ، ثم شاهدتُ قصرا شاهقا شارقا اتصل سطحُه بسقف السماء، قد أُرسِلت متدليةً من شبابيكها العالية زنابيلُ[1] متفاوتةٌ، حبالُها في المبدأ والمنتهى. فبعضُها قريبٌ من الأرض فيقذف الإنسانُ الموفَّق نفسَه في ذلك الزنبيل فيرتفع إلى أعلى المنازل، وبعضُها أخفض مبدأ وأرفعُ منتهى. وهكذا.. ثم رأيت بعضَ الناس الخاسرين المغرورين لا يبالون بتلك الزنابيل، فيتشبثون للصعود بجمع الأحجار والأشياء ويضعونها تحت أرجلهم، فيتصاعدون قليلا ثم يتساقطون، وأنّى لهم الصعود! وشاهدتُ بعض المعتمدين على أنفسهم المتفرعنة، يدقون مسامير في جدار القصر فيضعون أرجلهم عليها متصاعدين فيخرّون فتندقّ أعناقُهم وهكذا.. ورأيت أن ما جُهزوا به من مكاسبهم وآلاتهم إنما أُعطوها ليستعملوها على قدر الاستعداد والتوفيق في الصعود إلى الزنبيل، لا إلى المنازل. فعقلُكَ عقالُكَ، وبالنقل نقلتُك. مَن توكّل على الله فهو حسبه..

اعلم يا من تحيَّـرَ في سبب غلبةِ الفجار على الأبرار، وتفوُّقِ الطالحين على الصالحين في الحياة الدنيوية. أني قد شاهدتُ في واقعةٍ قصورا،[2] في كل قصر سرادقات متداخلة متصاعدة، سكان طبقاتها متفاوتون في اللطافة والعلوية والنورانية، فمن في المركز العالي كالسلطان، وتحته منازل فيها سكان متفاوتون في القيمة والنورانية، وهكذا إلى الباب. ومن عند الباب خادم مظلم كثيف، وقدام الباب كلبٌ متملق. ثم رأيت بعض القصور تلألأت ساحةُ بابه، فتأملتُ فيها فرأيت ملك القصر يلعب مع الكلب قدّام الباب، والمخَدَّرات[3] يداعِبن مكشوفاتٍ رؤوسُهن مع الصبيان، وقد تعطلت الوظائف النـزيهة في الطبقات، وتشعشعت وظائف الكلب والصبيان وسَفَلة الخدام، فتفتق القصر عن مكنوناته متفسقا، مُشرقا مقتدرا قويا ظاهر الباب، مظلما معطَّلا ذليلا في الداخل. وفسوقُه كفتوق فلقتي الرمان مثلا عن حباته. فعلمت

(١) إن إيضاح هذه المسألة قد ذكر في بيان الطرق الثلاثة في آخر «الفاتحة» في رسالة «أنا» [الكلمة الثلاثون] وفي [اللوامع] في سياحة خيالية ختام «الكلمات». والزنابيل المتدلية إشارة إلى الحقائق القرآنية التي هي الصراط المستقيم.. (المؤلف).
(٢) الكلمة الثالثة والعشرون توضح هذه الحالة بالتفصيل.
(٣) أي النساء.

أن تلك القصور هي الأناسي، حتى رأيتُ كل إنسان قصرا، حتى رأيت نفسي العاصية أيضا قصرا.. وسقوطَ أهل القصور على مراتب مختلفة نزولا أدنى فأدنى. فشاهدت أن ما يزعم أهلُ المدنية ترقيا ما هو إلّا سقوطٌ، واقتدارا ما هو إلا ابتذال، وانتباها ما هو إلّا انغماس في نوم الغفلة، و«نزاكة»[١] ما هي إلّا رياءٌ نفاقي، و«ذكاوة»[٢] ما هي إلّا دساسية شيطانية، وإنسانيةً ما هي إلّا قلبُ الإنسانية حيوانيةً. لكن يلوح على هذا الشخص الساقط العاصي لوائحُ اللطافة والجاذبية لاختلاط لطائفه النورانية بنفسه الظلمانية؛ خلافا للمتدين المطيع الذي عند الباب نفسُه المتكدرة فقط. إلّا أنه قد يتنازل لطائفُ الصالح أيضا، لا للهوسات السفلية، بل لإرشاد الناس الخارجين من الحدود وإمدادِهم بإرجاعهم إلى ما هم خُلقوا لأجله، إن الله سبحانه إذا أحبّ عبدا لا يحبب إليه محاسن الدنيا بل يُكرّهها إليه بالمصائب.

أيواه! واأسفا! قد أظهرت هذه المدنيةُ السفيهة خوارقَ جلابة وملاهيَ جذابة، يتساقط إليها سكان قصور الإنسان ومخدَّراتُها، كتساقط الفَراش على النور المشرق المنقلب إلى النار المحرقة..

اعلم أيها السعيد الشقي! ما هذا الغرور والغفلة والاستغناء؟ ألا ترى أن ليس لك من الاختيار إلّا شعرة، وليس من الاقتدار إلّا ذرة، وليس من هذه الحياة إلّا شعلة تنطفئ، وليس من العمر إلّا قليل مثل دقيقة تنقضي، وليس من الشعور إلّا لمعة تزول، وليس من الزمان إلا آنٌ يسيل، وليس من المكان إلا مقدار القبر! ولك من العجز ما لا يُحدّ، ومن الاحتياج ما لا يتناهى، ومن الفقر ما لا يُحصى، ومن الآمال ما لا غاية لها، وهكذا.. فمَن كان بهذه الحالة من العجز، وفي هذه الدرجة من الحاجة، هل يتوكل على ما في يده ويعتمد على نفسه.. أو يتوكلُ على الله الرحمن الرحيم الذي من ظروف خزائن رحمته وصناديق نعمته: هذه الشموس وهؤلاء الأشجار المملوءة من الأنوار والأثمار، ومن موازيب حوض فيضه ومسيلاتِ رحمته: الماء والضياء.

اعلم يا من يستعظم النتيجةَ ويستضعف دليلَها! إنه ما من دليل يشهد على حقيقةٍ من الحقائق الإيمانية، إلّا ويزكّيه ويؤيّده ويقوّيه ويمدّه كلُّ ما قام على صدق شيء ما من

(١) نزاكة: اللطف والرأفة.
(٢) ذكاوة: الذكاء والفطنة.

الإسلامية. فكأن كلَّ ما لا يعد من الشواهد والشهداء والبراهين والأمارات، كل منها يضعُ إمضاءه على سند كلٍ من أخواتها، فيختم كلٌّ منها خاتمَ تصديقه على منشور كلِّ واحدٍ، بسرّ ما مرّ -في بداية هذه الرسالة-، خلافا للنافي؛ إذ للمنافاةِ بين النافي والمثبِتِ يُنفى منَ النَّافي ما يُثبَتُ للمُثبِتِ. فألفُ نافٍ كفردٍ.

اعلم أنه قد تصير شدةُ محبة الشيء سببا لإنكاره، وكذا شدةُ الخوف، وكذا غايةُ العظمة، وكذا عدم إحاطةُ العقل..

اعلم أني قد تيقنتُ -كأني شاهدتُ بحدس قطعي- أن جهنم مندمجةٌ بالقوة[1] في بذر الكفر كاندماج شجرة الحنظلة في نواتها.. وأن الجنة مندمجة في حبة الإيمان كاندراج شجرة النخلة في نواتها. فكما لا غرابة في استحالة النواة وانقلابها إلى شجرة الحنظلة أو شجرة النخلة، كذلك لا استبعاد في تحول معنى الضلالة متجسما جهنما[2] تعذِّب، ولا في تمثل أنوار الهداية جنةً تُستَعذب. وفي «اللوامع»[3] نبذة من هذه الشهود في هذا العالم أيضا.

اعلم كما أن الحبة من بذور الحبوبات ونوى الثمرات إذا ثُقبت في قلبها، لا تتكبر بالتنبّت. كذلك حبة «أنا» إذا ثُقبت بشعاع ذكر: الله.. الله.. لا تتعاظم تلك الأنانية متفرعةً بالانتعاش ومتفرعنةً بالغفلة، ومستحصنةً ومستندةً بآثار النوع، ومبارزةً بالعصيان لجبّار السماوات والأرض. والأولياءُ النقشبنديون موفَّقون لفتح حبة القلب وكشف طريقٍ قصير بثقب جبل «أنا» وكسر رأس النفس بمثقاب الذكر الخفي. كما أن بالذكر الجهري تُخرّب طاغوت الطبيعة أو تمزَّق..

اعلم أن أبعدَ وأوسعَ وأرقَّ دوائر الكثرة وطبقاتها يتلألأ عليها أيضا أثرُ الحكمة والإتقان والاهتمام. فإن شئتَ فانظر إلى نهاية ما انبسط وانتشر إليه التكثّر من جلد الإنسان وصورته، لترى كيف يُحَشِّي قلمُ القدرة صحيفةَ جبهته ووجهه وكفيه بخطوطٍ ونقوش وآلات دالات على معاني في روح الإنسان، وعلى طائره المعلق في عنقه المشير إلى القَدر المكتوب في فطرته، حتى لم يترك هذه التحشيةُ منفذا لدخول التصادف الأعمى والاتفاقية العوراء..

---

(١) المقصود بالقوة: بالاستعداد والقابلية الكامنة في الشيء. أما بالفعل فيعني: بالمشاهدة والماثل أمام العين.

(٢) لا تنصرف جهنم إلّا إن نكّرت فتنصرف.

(٣) يراجع بالتفصيل: كل الآلام في الضلالة وكل اللذائذ في الإيمان-اللوامع من مجلد «الكلمات».

اعلم يا من ابتُلي بحب هذه الحياة حتى حسبتَ أن العلة الغائية في الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعتْه القدرةُ الأزلية في جوهر الإنسانية وذوي الحياة من الجهازات العجيبة والتجهيزات الخارقة، إنما أعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة السريعةِ الزوال، ولأجل البقاء. كلا ثم كلا! إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهرُ وأبهرُ وأنورُ دلائلِ الحكمة والعناية والانتظام وعدم العبثية بإجماع شهادات نظامات الكائنات؛ أعجَبَ وأغربَ وأنسَبَ مثال العبثية والإسراف، وعدمِ الانتظام وعدم الحكمة. كمثل شجرٍ -كجبل- ليس لها إلّا ثمرة فردة كخردلة. بل يرجع إلى الحي من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجةِ مالكيةِ الحي للحياة وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات راجعةٌ إلى المحيي جلّ جلاله بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوانِ وأنواعِ جلوات رحمته في جنته في الحياة الأخروية التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية وهكذا..

إذ كما أن الشخص الموظف بأن يجسّ ويضع إصبعه عند اللزوم على الجهازات التي تتحرك بها السفينة العظيمة للسلطان، لا يرجع إليه من فوائد السفينة إلا بمقدار علاقته وخدمته، أي من الألوف واحد.. كذلك درجة تصرّف كل حي في سفينة وجوده. بل هناك يمكن أن يستحق من الألوف واحدا، لكن لا يستحق بالذات هنا من ملايينِ ملايينِ واحدا أيضا..

اعلم يا قلبي أن لذائذ الدنيا وزينتَها بدون معرفة خالقنا ومالكنا ومولانا -ولو كانت جنة- فهي جهنم. هكذا ذقتُ وشاهدتُ. حتى في نعمة الشفقة كما في «قطرة». ومعرفته تُغني عن كل ما في الدنيا حتى عن الجنة أيضا.

اعلم يا قلبي: إن كل ما يجري في هذه الدنيا له وجهان: وجه إلى الدنيا والنفس والهوى، ووجه إلى الآخرة. فأما الوجه الدنيوي فأعظمُ الأمور وأثقلُها وأَثْبَتُها هو في نفس الأمر بدرجة من الصغر والخفة والزوال، بحيث لا يساوي ولا يوازي ولا يليق لأن يُشوَّش له القلب «بالمَرَق» والتضجر، والتألم وشدة التأمل..

اعلم يا قلبي هل ترى أحمقَ وأبلهَ وأجهل ممن يرى تمثالَ الشمس مثلا في ذرةٍ شفافة، أو تجليَها في صبغةِ زهرة؛ ثم يطلب في الشُميسة المرئية في الذرة ومن لون الزهرة وصبغتها

كلِّ لوازمات السراج الوهاج في سقف العالم، حتى جذبَها للسيارات ومركزيتها للعالم. ثم إذا زال بعارضٍ ما رآه في هذه الذرة والزهرة، شرع -بسبب قصر النظر وانحصاره- ينكر وجودَ الشمس في وسط النهار، مع وجود شهاداتِ سائر الذرات وكل «الشبنمات»[1] والرشاشات والقطرات والحبابات والحياض والبحور والسيارات في ضحوة النهار الصحو.

ثم إن ذلك الأجهل يلتبس عليه «الوجود الظلي» بالتجلي بمقدار لياقة قابلية الشيء المرسّمة بالقَدَر بـ«الوجود بالأصالة». فإذا رأى الشمسَ في ذرة شفافة يقول: أين عظمة الشمس، وأين حرارتها الخارقة، وكيف وكيف؟. إلى آخر بَلاهاته! وقد يريد أن يقتبسَ من نارها أو يحسَّها بيده أو يؤثر في ذاتها تأثيرا بوجه ما، ولا يتفطنُ أن قربها منه بالتأثير فيه، لا يستلزم قربه منها حتى تتأثر الشمسُ من فعله. ثم إنه يرى في صغار الأشياء وخسائسها إتقانا عجيبا واهتماما غريبا وصنعة فائقة وحكمة رائقة، فيزعم -بالقياس الباطل- أن صانع هاتيك تكلَّفَ في صنعها وتعمَّل كثيرا؛ فيقول: ما قيمة الذباب مثلا، حتى يُصرَف له هذا المَصْرَفُ المهم من صانع حكيم؟ حتى يصير ذلك المسكين سوفسطائيا.

فيا هذا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل:٦٠) ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الزمر:٦٢) لابد أن تعلم أُمورا أربعة ينحل بها الإشكال.

الأول: أن كل شيء -من الذرات إلى الشموس- يصفه تعالى بما لَهُ[2] في كمال ربوبيته، لكن لا يتصف بما له لأجل مظهريته لتجليه..

الثاني: أنه ينفتح من كل شيء إلى نوره تعالى بابٌ، لكن بانسداد باب واحد في نظرٍ قاصر لا ينسد ما لا يُحد من الأبواب، وإن أمكن فتحُ الكل بفتح واحدٍ.

والثالث: أن القدرَ المنعكس من العلم المحيط قد قيَّد ورَسَم لكل شيء حصة لائقة من فيض تجلي الأسماء المطلقة النورانية.

والرابع: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢) و ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨) وأما إذا أُسنِد -بالغفلة- الأشياءُ إلى

(١) الندى.
(٢) يصف الله تعالى بما له من صفات جليلة.

أنفسها وإلى الأسباب الإمكانية، للزم على كل العقلاء أن يقبلوا المحالات الناشئة من حكم ذلك الأجهل الأبله.

اعلم أن القرآن المعجز البيانِ يعبّر كثيرا عن تبيين الحقائق بضرب المثل، بسر أن الحقائق المجردة الإلهية متمثلةٌ في دائرة الممكنات بقيود الأمثال، فالممكن المسكين ينظر إلى الأمثال في دائرة الإمكان، ويلاحظ من خلفها شؤون دائرة الوجوب - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ -.

اعلم أن العرش كالقلب، فقلبك فيك مُلكا[1] وأنت في قلبك ملكوتا. ففي دائرة الاسم «الظاهر» العرش العظيم محيط بالكل، وفي دائرة الاسم «الباطن» كالقلب للكون. وفي الاسم «الأول» يشار إليه بـ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود:٧) وفي الآخر يرمز إليه بـ: «**وسقف الجنة عرش الرحمن**»[2] إذ لعرش مَن ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد:٣) حصةُ الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية..

اعلم أن العجز معدن النداء، وأن الاحتياج منبع الدعاء.

فيا ربي ويا خالقي ويا مالكي! حُجتي عند ندائي حاجتي. وعُدتي عند دعائي فاقَتي. ووسيلتي انقطاعُ حيلتي. وكنـزي عجزي. ورأسُ مالي آمالي وآلامي. وشفيعي حبيبُك ورحمتك. فاعف عني واغفر لي وارحمني يا الله، يا رحمـن، يا رحيم.

(١) أي كما أن قلبك فيك في حالة مُلك، وأنت في قلبك في حالة ملكوت، أي كما أن الإنسان من حيث الملك ظرف لقلبه ومن حيث الملكوت مظروف.. (ت: ٩٦).

(٢) الديلمي، المسند ٢/ ٣٣٨؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٤١؛ ابن حجر، فتح الباري ٣/ ٣٥.

هذه المناجاة تخطرت إلى القلب هكذا باللسان الفارسي

يَا رَبْ! بَه شَشْ جِهَتْ نَظَرْ مِي كَرْدَمْ، دَرْدِ خُودْرَا دَرْمَانْ نَمِي دِيدَمْ

دَرْ رَاسْت مِي دِيدَمْ كِه: دِي رُوزْ مَزَارِ پَدَرِ مَنست

وَدَرْ چَپْ دِيدَمْ كِه: فَرْدَا قَبْرِ مَنست

وَإِ يمْرُوزْ: تَابُوتِ جِسْمِ پُرْ اِضْطِرَابِ مَنست

بَرْ سَرِ عُمُرْ جَنَازَءِ مَنْ إيسْتَادَه اسْت

دَرْ قَدَمْ: آبِ خَاكِ خِلْقَتِ مَنْ وَخَاكِسْتَرِ عِظَامِ مَنْ اَستْ

چُونْ دَرْ پَسْ مِينِكَرَمْ، بِينَمْ: اِيْن دُنْيَاءِ بِي بُنْيَادْ هِيچْ دَرْ هِيچَسْت

وَدَرْ پِيشْ: أَنْدَازَءِ نَظَرْ مِيكُنَمْ، دَرِ قَبْرْ كُشَادَه اَسْت

وَرَاهِ أَبَدْ بَدُورِدِرَازْ بَدِيدَارسْت

مَرَا جُزْجُزْءِ اِخْتِيَارِي چِيزِي نِيسْت دَرْ دَسْت

كِه أُوجُزْءْ هَمْ عَاجِزْ، هَمْ كُوتَاهُ، وَهَمْ كَمْ عَيَارَاسْت

نَه دَرْ مَاضِي مَجَالِ حُلُولْ، نَه دَرْ مُسْتَقْبَلْ مَدَارِ نُفُوذَاسْت

مَيْدَانِ أُو اِينْ زَمَانِ حَالْ، وَيَكْ آنِ سَيَّالَسْت

بَا إِينَ هَمَه فَقْرَهَا وَضَعْفَهَا، قَلَمِ قُدْرَتِ تُوآشِكَارَه

نُوِشْتَه اَسْت، «دَرْ فِطْرَتِ مَا»: مَيْلِ أَبَدْ وَأَمَلِ سَرْمَدْ

بَلْكِه هَرْچِه هَسْت، هَسْت

دَاَئِرَءِ اِحْتِيَاجْ مَانَنْدِ دَاَئِرَءِ مَدِّ نَظَرْ بُزُرْكِي دَارَسْت

خَيَالْ كُدَامْ رَسَدْ اِحْتِيَاجْ نِيزْ رَسَدْ

دَرْ دَسْت هَرْچِه نِيسْت دَرْ اِحْتِيَاجْ هَسْت

دَاَئِرَءِ اِقْتِدَارِ هَمْچُو دَاَئِرَءِ دَسْتِ كُوتَاهِ كُوتَاهَسْت

پَسْ فَقْرُو حَاجَاتِ مَا بِقَدَرِ جِهَانَسْت

سَرْمَايَهءِ مَا هَمْچُو: «جُزْءِ لَا يَتَجَزَّا» اَسْت

إِينْ جُزْءِ كُدَامْ وَإِينْ كَآئِنَاتِ حَاجَاتِ كُدَامَسْت؟

پَسْ دَرْرَاهِ تُو، أَزْإِينْ جُزْءْ نِيزْ بَازْمِى كُذَشْتَنْ چَارَءِ مَنْ اَسْت

تَا عِنَايَتِ تُو دَسْتَكِيرِ مَنْ شَوَدْ، رَحْمَتِ بِى نِهَايَتِ تُوپَنَاهِ مَنْ اَسْت

آنْ كَسْ كِه بَحْرِ بِى نِهَايَتِ رَحْمَتْ يَافْتَ اسْتْ،

تَكْيَه نَه كُنَدْ بَرَاينْ جُزْءِ اِخْتِيَارِى كِه يَكْ قَطْرَه سَرَابَسْت

أَيْوَاهْ! إِينْ زَنْدِكَانِى هَمْچُو خَابَسْت

وِينْ عُمْرِ بِى بُنْيَادْ هَمْچُوُ بَادَسْت

إِنْسَانْ بَزَوَالْ دُنْيَا بَفَنَا اَسْت، آمَالْ بِى بَقَا آلَامْ بَبَقَا اَسْت

بِيَا أىْ نَفْسِ نَا فَرْجَامْ! وُجُودِ فَانِى خُودْرَا فَدَا كُنْ

خَالِقِ خُودْرَا كِه إِينْ هَسْتِى وَدِيعَه هَسْت

وَمُلْكِ أو وَاُودَادَه فَنَا كُنْ تَا بَقَا يَابَدْ، أزْآنْ

سِرّى كِه: «نَفْىِ النَفْى» إِثْبَاتَ سْت

خُدَاىِ پُرْكَرَمْ خُودْ مُلْكِ خُودْرَا مِى خَرَدْ أزْتُو

بَهَاىِ بِى كِرَانْ دَادَه بَرَاىِ تُو نِكَاهْ دَارَاسْت

ترجمة المناجاة [١] التي تخطرت إلى القلب باللسان الفارسي

[[يا رب! لقد بحثتُ في الجهات كلها (الجهات الست) فلم أجد دواءً لدائي.

فنظرت نحو اليمين، وإذا بقبر أبي بالأمس.

ورنا بصري نحو اليسار، فإذا قبري في الغد.

وهذا اليوم هو تابوت يحمل جسمي المضطرب.

فجنازتي ماثلة أمامي فوق رأس عمري.

وتحت الأقدام ماءُ خلقتي ورميم عظامي ممزوجين.

وكلما نظرت إلى الخلف رأيت هذه الدنيا سرابا في سراب.

وإذا ما امتد نظري إلى الأمام، فالقبر فاغرٌ فاه. وطريق الأبد يتراءى من بعيد.

وإنني لا أملك سوى «الجزء الاختياري» وهو عاجز، قاصر، عديم الجدوى.

إذ لا مجال له للحلول في الماضي، ولا النفوذ إلى المستقبل.

وإنما ميدان تجواله هو: زمان الحال، وآنٌ واحدٌ سيال.

وعلى الرغم من هذا الفقر والضعف فقد كَتب قلمُ قدرتك في الفطرة مَيلا إلى الأبد وأملا في الخلود.

فدائرة الاحتياج واسعةٌ سعةَ امتداد النظر، فأينما يصلُ الخيالُ تصل الحاجةُ أيضا.

بينما دائرة اقتداري قاصرةٌ كاليد.

ففقري وحاجتي بسعةِ الدنيا إذن.

ورأس مالي مثل «الجزء الذي لا يتجزأ» فأين هذا الجزء من تلك الحاجات التي تسع الكائنات؟

---

(١) تفضل مشكورا الأخ الكريم فاروق رسول يحيى بترجمة نص هذه المناجاة. أما ترجمتها الوافية ففي الكلمة السابعة عشرة وفي الرجاء السابع من اللمعة السادسة والعشرين «رسالة الشيوخ».

ولكني أنطلق في سبيلك من هذا الجزء كي أحظى بعنايتك.

إن رحمتك المطلقة ملاذي.

فالذي يجد فيضا من الرحمات، لا يعتمد على هذا الجزء الاختياري، الذي هو قطرة من سراب.

يا رب! هذه الدنيا ما هي إلّا كالمنام، وهذا العمر يذهب أدراج الرياح.

والإنسان فانٍ بفناء الدنيا، والآمال الفانية آلامٌ في البقاء.

تعالي أيتها النفس التي لا حدود لها ضَحّي بوجودِكِ الفاني.

فخالقك الذي بيده الوجود.. موجود.

له الملك وهو المعطي، فأفنِ نفسكِ كي تجد النفسُ البقاء.

وذلك بسر: نفيُ النفي إثبات.

يا إلهي يا ذا الجود والكرم هب لي مُلكا من عندك.

وأعطني قيمةً لا حدود لها، فإنك أنت الحفيظ.]]

* * *

خطاب إلى مجلس الأمة [1]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣)

يا أيها المبعوثون! إنكم لمبعوثون ليوم عظيم.

أيها المجاهدون! ويا أهل الحل والعقد!

أرجو أن تُعِيروا سمعا إلى مسألة يُسديها إليكم هذا الفقير إلى الله في بضع نصائح وفي عشر كلمات:

أولا: إن النعمة الإلهية العظمى في انتصاركم هذا تستوجب الشكر، لتستمر وتزيد، إذ إن لم تُستقبل النعمة بالشكر فستزول وتنقطع. فمادمتم قد أنقذتم القرآن الكريم من إغارة العدو -بفضل الله تعالى- فعليكم إذن الامتثالُ لأمره الصريح وهو الصلاة المكتوبة، كي يظل عليكم فيضُه وتدوم أنواره بمثل هذه الصورة الخارقة.

ثانيا: لقد أبهجتم العالمَ الإسلامي بهذا الانتصار، وكسبتم ودّهم وإقبالهم عليكم، ولكن هذا الودّ والتوجّه نحوكم إنما يدومان بالتزام الشعائر الإسلامية؛ إذ يحبكم المسلمون ويَوَدّونكم لأجل الإسلام.

ثالثا: لقد توليتم قيادةَ مجاهدين وشهداءَ في هذا العالم وهم بمثابة أولياء صالحين، فمِن شأن أمثالكم من الغيارى السعيُ والجدّ لامتثال أوامر القرآن الكريم لنيل صحبة أولئك النورانيين، والتشرفِ برفاقتهم في ذلك العالم. وإلّا فستضطرون إلى الْتِماس العون والمدد من أبسط جندي هناك، في حين أنتم قادة هنا. فهذه الدنيا بما فيها من شهرة وشرف لا تستحق أن تكون متاعا تُرضي كراما أمثالَكم، ولا تكون لكم غاية المنى ومبلغَ العلم.

---

(١) أُلقي هذا الخطاب في مجلس الأمة التركي في ١٩/١/١٩٢٣ (١٣٣٩) وهو محفوظ في سجلات المجلس، وكانت الدولة عندئذٍ على مفترق الطرق.. وكان من تأثير هذا الخطاب البالغ أن أقبل كثير من النواب (المبعوثين) إلى أداء الفرائض. وقد نشر كلّه بالتركية في الكتاب فترجمناه كاملا.

رابعا: إن هذه الأمة الإسلامية مع أن قسما منهم لا يؤدون الصلاة، إلّا أنهم يتطلعون أن يكون رؤساؤهم صالحين أتقياء حتى لو كانوا هم فسقة. بل إن أول ما يبادر أهلُ كردستان (الولايات الشرقية) مسؤوليهم هو سؤالهم عن صلاتهم. فإن كانوا مقيمين لها، فبها ونِعمَت ويثقون بهم، وإلّا فسيظل الموظف المسؤول موضع شك وارتيابٍ رغمَ كونه مقتدرا في أداء واجباته. ولقد حَدَثَتْ في حينه اضطرابات في عشائر «بيت الشباب» فذهبتُ لأستقصي أسبابها، فقالوا: إن كان مسؤولنا «القائمقام» لا يقيم الصلاة ويشرب الخمر، فكيف نطيع أوامر أمثال هؤلاء المارقين من الدين؟ هذا علما أن الذين قالوا هذا الكلام هم أنفسهم كانوا لا يؤدون الصلاة، بل كانوا قطّاعَ طرق!

خامسا: إنَّ ظهور أكثر الأنبياء في الشرق وأغلب الفلاسفة في الغرب رمزٌ للقَدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرقَ ويقوّمه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة.. فمادمتم قد أيقظتم الشرقَ ونبهتموه، فامنحوهم نهجا ينسجم مع فطرته. وإلّا فستذهب مساعيكم هباءً منثورا، أو تظل سطحية موقتة.

سادسا: إن خصومَكم وأعداءَ الإسلام الأفرنجَ قد استغلوا ولا يزالون يستغلون إهمالكم أمور الدين، حتى أستطيعُ أن أقول: إن الذين يستغلون تهاونَكم هذا يضرون بالإسلام بمثل ما يضرّ به أعداؤكم فينبغي لكم باسم مصلحة الإسلام وسلامة الأمة تحويلُ هذا الإهمال إلى أعمال. ولقد تبيّن لكم كيف لاقى زعماء «الاتحاد والترقي» نفورا وازدراءً من الأمة في الداخل رغم ما بذلوه من تضحية وفداء وعزم وإقدام، حتى كانوا سببا -إلى حدٍ ما- في هذه اليقظة الإسلامية، وذلك لعدم اكتراث قسم منهم بالدين وبشعائره، بينما المسلمون في الخارج قد منحوهم التقديرَ والاحترام لعدم رؤيتهم تهاونَهم وإهمالَهم في الدين.

سابعا: على الرغم من تمكن عالم الكفر في الإغارة على العالم الإسلامي منذ مدة مديدة فإنه لم يتغلب عليه دينيا مع جميع إمكاناته وقدراته ووسائله الحضارية وفلسفته وعلمه ومبشّريه. فبقيت الفرقُ الضالة جميعها -في الداخل- أقليةً محكومة. لذا ففي الوقت الذي حافظ الإسلامُ على صلابته ومتانته بأهل السنة والجماعة لن يتمكن تيار بدعي مترشح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية، أن يجدَ سبيلا إلى صدر العالم الإسلامي. أي إن القيام

بحركة انقلابية جوهرية لا يمكن أن تحدث إلّا بالانقياد لدساتير الإسلام، وإلّا فلا. علما أنه لم يحدث مثل هذه الحركة في السابق، ولو كانت قد حدثت فلقد تلاشت سريعا وأَفَلَت.

ثامنا: ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بنّاء مع التهاون في الدين، حيث اقتربت الحضارة القرآنية من الظهور وأوشكت الحضارة الأوربية الضالة المسؤولة عن ضعف الدين على التمزق والانهيار. أما القيام بعمل سلبي فليس الإسلام بحاجة إليه، كفاه ما تعرض له من جروح ومصائب.

تاسعا: إن الذين يولونكم الحبَّ قلبا ولسانا، ويثمّنون خدماتكم وانتصاراتكم في «حرب الاستقلال» هذه هم جمهور المؤمنين، وبخاصة طبقة العوام، وهم المسلمون الصادقون. فهم يحبونكم بجد، ويعتزون بكم بصدق، ويساندونكم بإخلاص، ويقدّرون تضحياتكم، ويمدّونكم بأضخم ما تنبه لديهم من قوة. وأنتم بدوركم ينبغي لكم الاتصالُ بهم والاستناد إليهم اتباعا لأوامر القرآن الكريم ولأجل مصلحة الإسلام، وإلّا فإن تفضيلَ المتجردين من الإسلام والمبتوتي الصلة بالأمة من مقلدي أوربا المعجَبين بها، وترجيحَهم على عامة المسلمين منافٍ كليا لمصلحة الإسلام؛ وسيولّي العالم الإسلامي وجهه إلى جهة أخرى طلبا للمساعدة والعون.

عاشرا: إنْ كان في طريقٍ تسعةُ احتمالات للهلاك، واحتمالٌ واحد فقط للنجاة، فلا يسلكها إلّا مجنون طائش لا يبالي بحياته.. ففي أداء الفرائض الدينية نجاة بتسع وتسعين بالمائة، علما أنه لا يستغرق –هذا الأداءُ– إلّا ساعةً واحدة في اليوم، مقابلَ ما قد يمكن أن يكون احتمال ضرر واحد فقط يصيب الدنيا ومن حيث الغفلة والكسل. بينما إهمال الفرائض وتركها فيه احتمال تسع وتسعين بالمائة من الضرر مقابل واحد بالمائة من احتمال النجاة من حيث الغفلة والضلالة.. فيا ترى أي مسوّغٍ وأيّ مبرر يمكن ابتداعه في ترك الفرائض الذي يصيب ضررُه الدينَ والدنيا معا؟ وكيف تسمح حَمِيّةُ الفرد ونخوته بذلك التهاون؟

إن تصرفات هذه القافلة المجاهدة من أعضاء هذا المجلس العالي بالغةُ الأهمية، إذ إنها سوف تُقلَّد.. فالأمة إما أنها تقلِّد أخطاءهم أو تنتقدُها، وكلاهما مليء بالأضرار والأخطار. فتمسّكهم بحقوق الله وتوجّهُهم لأداء الفرائض يتضمن حقوق العباد أيضا.

إن عملا جادا لا يُنجز مع أولئك الذين يَرضون بأوهام براقة نابعة من سفسطة النفس ووسوسة الشيطان ويُصمّون آذانهم عن البلاغ المبين والبراهين الساطعة بالتواتر والإجماع.. ألا إن الحجر الأساس لهذا الانقلاب العظيم يجب أن يكون متينا صلدا.

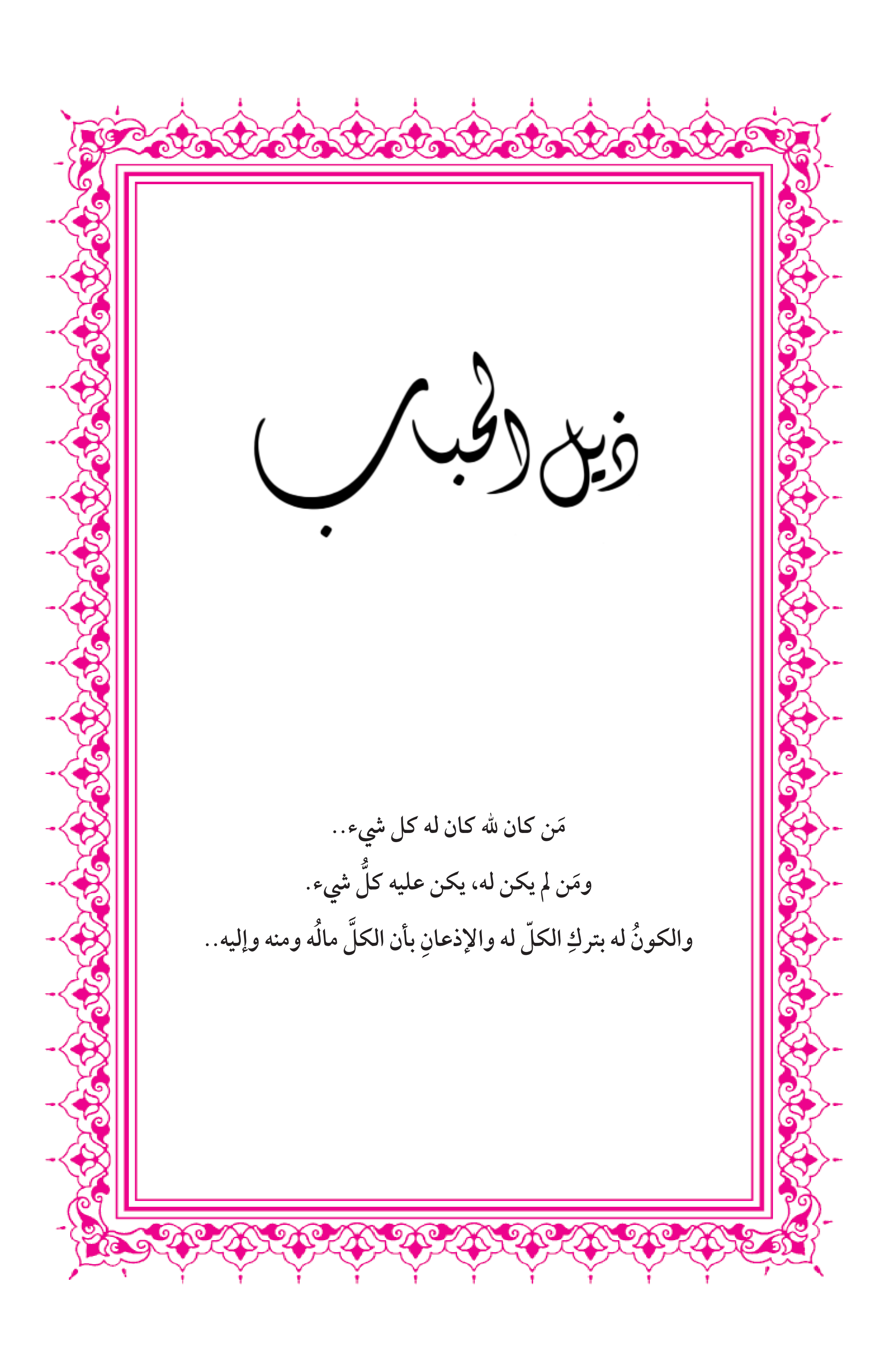
إن الشخصيةَ المعنوية لهذا المجلس العالي قد تعهّدت معنى «السلطنة» بما تتمتع به من قوة، فإن لم يتعهد –هذا البرلمان– معنى «الخلافة» وكالةً أيضا ولم يقم بامتثال الشعائر الإسلامية ولم يأمر الآخَرين بالقيام بها، أي إذا أخفق في تقديم «معنى الخلافة» ولم يستوفِ حاجةَ الأمة الدينية –هذه الأمة التي لم تفسد فطرتها والمحتاجةُ إلى الدين أكثر من حاجتها لوسائل العيش– والتي لم تَنس حاجتَها الروحية تحت كل ضغوط المدنية الحاضرة ولهوها، فإنها تضطر إلى منح معنى الخلافة إلى ما ارتضيتموه –تماما– من اسم ولفظ. فتمنح له القوةَ والإسناد أيضا لإدامة ذلك المعنى. والحال أن مثل هذه القوة التي ليست بيد المجلس ولا تأتي عن طريقه تسبب الانشقاق، وشقّ عصا الطاعة يناقض أمر القرآن الكريم الذي يقول: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (آل عمران:١٠٣).

إنَّ هذا العصر عصرُ الجماعة، إذ الشخصية المعنوية –التي هي روح الجماعة– أثبتُ وأمتن من شخصية الفرد. وهي أكثر استطاعةً على تنفيذ الأحكام الشرعية. فشخصية الخليفة تتمكن من القيام بوظائفها استنادا إلى هذه الروح المعنوية. إن الشخصية المعنوية تعكس روحَ العامة فإن كانت مستقيمة فإن إشراقَها وتألّقها يكون أسطع وألمع من شخصية الفرد، أما إن كانت فاسدة فإن فسادها يستشري وفق ذلك. فالشر والخير محددان في الفرد، بينما لا يحدهما حدود في الجماعة. فإياكم أن تمحقوا المحاسنَ التي نلتموها تجاه الخارج بإبدالها شرورا في الداخل.

أنتم أعلم بأن أعداءكم الدائميين وخصومكم يحاولون تدميرَ شعائر الإسلام، مما يستوجب عليكم إحياءَ هذه الشعائر والمحافظة عليها. وإلّا فستُعينون –بغير شعورٍ منكم– العدو المتحفز للانقضاض عليكم.

إنَّ التهاون في تطبيق الشعائر الدينية يفضي إلى ضعف الأمة، والضعف يُغرى العدو فيكم ويشجعه عليكم ولا يوقِفه عند حدّه.

حسبنا الله ونعم الوكيل.. نعم المولى ونعم النصير.



ذيل الحباب

مَن كان لله كان له كل شيء..

ومَن لم يكن له، يكن عليه كلُّ شيء.

والكونُ له بتركِ الكلّ له والإذعانِ بأن الكلَّ مالُه ومنه وإليه..

في (ط١)

إفادة مرام

يا أيها الناظر في رسائلي العربية الثمان![1]

إني أولَ ما كتبتُها، ما كتبتُ إلّا لنفسي، ثم تخطّرتُ أن هذه النعمة من شُكرها نشرُها، لعل أن ينتفع بها أناسٌ. ثم بعد تكرار النظر فيها تفطنت فيها سرا ترددتُ في إظهاره من زمان، ولكن أُحسّ في قلبي الآن سائقا لإظهاره، وهو:

أنه أرى مسائل تلك الرسائل وسائلَ وسلالم للصعود إلى الزنابيل النورانية المتدلّية من عرش الرحمن التي هي الآيات الفرقانية. فما من مسألةٍ منها إلّا ويماسّ رأسُها قدمَ آيةٍ من الفرقان. فمسائلها وإن حصلت لي أولَ ما حصلت شهوديةً وحدسية وذوقية، لكن لدخولي في صحراء الجنون مع رفاقة عقلي مفتوحَ الجفون -فيما يغمض فيه ذوو الأبصار- لفّ عقلي على عادته ما رآه قلبي في مقاييسه وَوَزَنه بموازينه واستمسكه ببراهينه.. صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة كأنها مبرهنة استدلالية.

فيمكن لمن ضلّ من جهة الفكر والعلم أن يستفيدَ منها ما يُنجيه من مزالق الأفكار الفلسفية.

بل يمكن أن يَستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والإيضاح عقائدَ إيمانيةً وعلمَ كلام جديد في غاية القوة والرصانة لردّ ضلالات أفكار هذا الزمان.

بل يمكن لمن اختلط عقلُه بقلبه، أو التحق قلبُه بعقله المتشتتِ في آفاق الكثرة أن يستنبطَ منها طريقة كسكّة الحديد متينةً أمينةً يسلك فيها تحت إرشاد القرآن الكريم..

كيف لا، وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو إلّا من فيض القرآن..

ولله الحمد كان القرآن هو مرشدي وأستاذي في هذا الطريق.

نعم، مَن استمسكَ به استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

---

(١) وهي: «قطرة وذيلها»، «ذرة»، «شمة»، «حبة وذيلها»، «حباب وذيله»، ويلحق بها: «نقطة» و«شعاعات» و«لمعات».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تقدست عن الأشباه ذاتُه، وتنزّهت عن مشابهة الأمثال صفاتُه، الخلاّق الذي ذاك العالمُ الكبير إبداعُه.. وهذا العالَمُ الصغير (أي الإنسان) إيجادُه.. وذا إنشاؤه وهذا بناؤه.. وذا صنعتُه وهذا صبغتُه.. وذا نقشه وهذا زينتُه.. وذا رحمتُه وهذا نعمته.. وذا قدرتُه وهذا حكمته.. وذا عظمتُه وهذا ربوبيتُه وذا مخلوقُه وهذا مصنوعُه.. وذا ملكهُ وهذا مملوكُه.. وذا مسجدُه وهذا عبده.. وعلى جوانبهما بل على كلِّ جزءٍ منهما سكتُه الناطقة بأن الكلَّ مالُه.

اَللَّهُمَّ يا قيومَ الأرض والسماء إنّا نُشهِدك ونُشهدُ حَملَة عرشكَ وملائكتك بشهادة جميع أنبيائكَ وأوليائك وآياتك وجميع مصنوعاتك وجميع خلقك بأنك أنت الله لا إلهَ إلّا أنت وحدك لا شريكَ لك، ونستغفركَ ونتوب إليك ونشهد أن محمدا عبدك ورسولك، أرسلتَهُ رحمةً للعالمين.

اَللَّهُمَّ صلِّ عليه كما يناسب حرمته وكما يليقُ برحمتك وعلى آله وصحبه أجمعين..

اعلم أن ما أنعم الله عليك من وجودك وتوابعه، ما هو إلّا إباحةٌ وليس بتمليك. فلك أن تتصرَّف فيما أعطاكَ كما يرضى مَن أعطى، لا كما ترضى أنت. كمن أضاف أحدا، ليس للضيف أن يُسرف أو يَصرف فيما لا إذن للمضيِّف فيه.

اعلم يا من يستغرب الحشرَ الأعظم ويستبعده! ألا تنظر إلى ما بين يديك مما لا يُحصى من أنواع الحشر والنشر والقيامات الخصوصية! وكيف تستبعد القيامة الكبرى مع مشاهدة ما لا يحد من القيامات في كل سنة، حتى في كل شجرة مثمرة أو مزهرة؟ وإن شئتَ اليقينَ الشهودي، فاذهب مع عقلك في آخر الربيع والصيف إلى تحت شجرة التوت أو المشمش، مثلا.. وانظر كيف حُشرت ونُشرت هذه الثمراتُ الحلوة الحية.. والمخلوقاتُ الطرية اللطيفة النظيفة. كأنها أعيانُ الثمرات اللاتي ماتت في السنة الخالية. فهؤلاء الثمرات المنشورة المنثورة اللاتي يضحكن في وجهك، ما هي إلّا أخواتُ الميتات الخاليات وأمثالُها كأنها هي. ولو كانت لها «الوحدة الروحية» كالإنسان كانت هي إياها، أي عينَها، لا مثلَها! ثم تأمل في

الشجرة مع يبسها وجمودها وحقارتها وصغرها، مع ضيق مجاريها واشتباك مسيل حَمَلة أرزاق الأزهار والأثمار..كيف صارت تلك الشجرة برأسها عالَما عجيبا، يصور للمدقق تمثال: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (الانفطار:٤). الحق أن القدرة التي تنشُر من الشجرة اليابسة هذه المصنوعاتِ اللطيفة لا يتعسر عليها شيء ما في الإمكان. آمنا.

اعلم أن تضمين كلِّ سورةٍ سورةٍ من القرآن مجمَلَ ما في كل القرآن وسائرِ السوَر من المقاصد وأهم القصص، لأجل أن لا يُحرَمَ مَن يقرأ سورة فقط عما أُنزلَ له التنـزيل؛ إذ في المكلَّفين الأمّيُّ أو الغبيُّ، ومَن لا يتيسر له إلّا قراءة سورةٍ قصيرة فقط، فمِن هذه اللمعة الإعجازية تصير السورةُ قرآنا تاما لمَن قرأها.

اعلم أن الواحد المتصرفَ في الكثير لا يلزم أن يكون مباشرا مخالطا متداخلا فيما بينهم؛ لاسيما إذا كان مباينَ الماهية، ولاسيما إذا كان غيرَ مادي ولا ممكنٍ، بخلاف الكثير. والفاعلُ الكثير -كفعل الأمير في النفرات- يحصل بالإرادة والأمر بدون الاختلاط والمعالجة. ولو أُحيلت وظائفُ الإمارة وأفاعيلُها على النفرات، لَزِمت المباشرةُ الذاتية والمعالجة، أو انقلاب النفرات إلى ماهية الأمير. فالحق سبحانه مع غاية تقدّسه وتنـزّهه وعلوّه وعظمته، ونهاية بُعدنا وخساستنا، يتصرف فينا كما يشاء.وهو سبحانه كالشمس قريبٌ منا.. ونحن بعيدون منه جلّ جلاله.

اعلم أن الكثرةَ تنجر إلى الوحدة بجهة صيرورة الجزء أنموذجَ الكل، كالشجرة إلى الثمرة؛ فيصيرُ الكل كالكلي، والجزء كالجزئي كضياء الشمس المنبسط في الفضاء، إذ قد تضمن كلٌّ من ذرات ذلك الضياء لتمثالٍ من تماثيل الشمس، كأن الذرات المهتزة شُميساتٌ اتصلت فصارت ضياء مثلا: - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ -.. هكذا تجليات أسماء نور الأنوار الأزلي فتجلي أسماء الله يُري بهذين الوجهين كلا وكليا.

اعلم يا مَن اطمأن بالدنيا وسكن إليها! إن مَثَلَكَ كمثل من يتدحرج ساقطا من أعلى قصر، يتدحرج ذلك القصر في سيلٍ، يتساقط ذلك السيل من أعالي جبل، يتدحرج ذلك الجبل متنازلا بالزلزلة إلى أعماق الأرض.. إذ قصرُ الحياة ينهدم، وطائرُ العمر يمرّ كالبرق أوشك أن يبيضك في وكر القبر، وسيلُ الزمان تسرع دواليبُه بدرجةٍ تُدهش العقول، وسفينةُ الأرض تمرّ

مرّ السحاب. فمَن كان في «شمندوفر»[١] يسرع سرعة شديدة، ثم مدَّ يدَه -في وسط الطريق وفي آن السرعة- إلى أزاهيرَ ذات أشواك مفترسة في جانب الطريق، فمزّقت الأشواكُ يدَه.. فلا يلومنّ إلّا نفسَه. فإذا كان هذا هكذا.. فلا تمدنّ عينيك ولا يديك إلى زهرة الدنيا، فإن أشواكَ آلام الفراق تمزّق القلوبَ في آنِ التلاقي؛ فكيف بوقت الفراق!

فيا نفسي الأمارة بالسوء! اعبدي مَن شئت وادْعي ما شئت.. وأما أنا فلا أعبدُ إلّا الذي فطرني واقْتَدَر على أن سخّر لي الشمسَ والقمر والأرض والشجر، ولا أستمدُّ إلا ممن حَملني في طيارة العمر السابح في فضاءِ محيط القَدر، وسخّر لي الفَلكَ الدائر الطائر بين النجوم السيارات، وأركبني في «شمندوفر» الزمان المار كالبرق في أخدود الأرض وتحت جبل الحياة إلى باب القبر في طريق أبد الآباد.. وأنا قاعد بإذنه وتذكرته في «واغون»[٢] هذا اليوم المتصل طرفاه بحلقتي الأمس والغد.. ولا أدعو ولا أستغيث إلّا مَن يقتدر على توقيف «جرخ الفَلَك»[٣] المحرك ظاهرا لفُلكِ الأرض.. وعلى تسكين حركة الزمان بجمع الشمس والقمر.. وعلى تثبيت هذه الدنيا المتغيرة المتدحرجة من شواهق الوجود في أعماق أودية الفناء والزوال بتبديل الأرض غيرَ الأرض؛ إذ لي آمال ومقاصد متعلقة بكل شيء، تبقى آمالي ملتزقة على ما يمر عليه الزمان، وتذهب عليه الأرض وتفارقه الدنيا، ولي علاقة ولذة بسعادةِ كلِ صالح من أهل السماوات والأرض. ولا أعبد إلّا مَن هو؛ كما يسمع أدقّ هواجس سري ويُصلح لي أرقّ آمالِ قلبي وميوله.. كذلك يقتدر مع ذلك على ما يتمناه عقلي وخيالي من تحصيل السعادة الأبدية لنوع البشر بإقامة القيامة وتقليب الدنيا بالآخرة؛ فيصل يدُه إلى الذرة وإلى الشمس، فلا تتصاغر الذرةُ مختفيةً عن تصرفه، ولا يتكبر كبرُ الشمس على قدرته.. إذ هو الذي إذا عرفتَه انقلبت لك الآلامُ لذائذَ، وبدونه تُنتج العلومُ أوهاما.. والحِكَمُ أسقاما.. بل هي هي.

نعم، وبدون نوره تبكي الوجودات لك إعداما، والأنوار ظلماتٍ، والأحياء أمواتا، واللذائذ آلاما وآثاما، ويصيرُ الأودّاءُ بل الأشياءُ أعداء، وما البقاء بدونه إلّا بلاءٌ، والكمال هباءٌ، والعمر هواءٌ، والحياة عذاب، والعقل عقاب، وتبكي الآمالُ آلاما.

(١) شمندوفر: القطار. وتوضيح المسألة في الكلمة الثالثة والعشرين.
(٢) واغون: عربة من القطار.
(٣) جرخ الفلك: دولاب العالم، أي المقدرات.

مَن كان لله تعالى كان له كل شيء، ومَن لم يكن له كان عليه كل شيء، والكون له بترك الكل له والإذعان بأن الكلّ مالُه.. وهو الذي فطرك بصورة أحاطت بك دوائرُ متداخلة من الحاجات وجهّزك في أصغرها التي نصف قطرها مدُّ يدك باقتدار واختيار. وجهّزك في البواقي التي وسّعت بعضُها كما بين الأزل والأبد والفرش والعرش بالدعاء فقط.. وفي التنـزيل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ (الفرقان:٧٧) فالصبي ينادي أبويه فيما لا يصل يدهُ إليه؛ فالعبد يدعو ربَّه فيما عجز عنه.

اعلم أن كمالَ صنعة كل شيء وإتقانَها، ما هو إلّا من سر الوحدة. ولولا الوحدة بلا توزيع وبلا تجزؤ وبلا تزاحم لتفَاوَتَت المصنوعات. كوحدة الشمس ووجودها بالتجلي في كل ما مسَّه ضياؤها.. من ذرةٍ شفافة إلى وجه البحر، ولا يشغلها شيء عن شيء. فهذا السر تشاهده في هذه الشمس الممكنة المسكينة المقيدة المحدودة الجامدة الميتة التي هي قطرة متلمعةٌ بتجلي شعلةٍ من اسم النور الحق. فكيف شمسُ الأزل والسلطان الأبد والقيومُ السرمد الواجبُ الوجود الواحد الأحد الحي القدير الصمد جل جلاله؟ - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - فوحدة الضياء المحيط تشير إلى الواحدية، ووجود الشمس بخاصيتها بالتجلي في كل جزء وذرة من ذلك الضياء المحيط يرمز إلى الأحدية. فتأمل!

اعلم أن مِن أصدق شواهد الأحدية:

«الوحدةُ في كل شيء» من ذرات حجيرة من عينك، إلى وحدة العالم.

و«الإتقانُ الأكمل في كل شيء» بما تَسَعه لياقة قابليته المجعولة بقلم القضاء وقالب القدر.

و«السهولةُ المطلقة في إنشاء كل شيء وإيجاده». وأن السهولة المطلقة تدل على أن وجود الصانع ليس من جنس وجود المصنوع، بل لابد أن يكون أثبتَ وأرسخَ منه بما لا يتناهى.

اعلم أن الأرضَ تعطيكم وتبيعكم متاعَها والمالَ الذي في يدها، رخيصا بنهاية الرخيصية. فلو كان المتاع مالَها أو نسجَ الأسباب الإمكانية، لمَا اشتريتم رمانةً فردةً بجميع ما تصرفون، لاستحصال جميع ما تأخذونه من جميع الأرض بأيادي أشجارها ومزارعها؛ إذ يُرى في كل حبةٍ أن صانعها اهتم بها وأتقن فيها بنهاية الإتقان وغاية التزيين، وجَمعَ فيها

ما جمع بشعور تام، ومهارة حكيمة، وجهّزها بلطائف اللّون والطعم والرائحة لجلب أنظار المشترين. فلو لم تكن هي مصنوعةَ مَن لا كُلفةَ ولا معالجةَ ولا مباشرة في صُنعه وإيجاده حتى تتساوى بالنسبة إلى قدرته الحبةُ والحديقةُ والفردةُ الفذةُ وكلُّ النوعِ والذرةُ والشمس.. لمَا كان هذا هكذا بلا ريب وبالبداهة وبالحدس القطعي؛ إذ لابد أن يكون صانعُ هذه الحبّات العِنَبية والرمانية المصنوعة ظاهرا لتطمين ذوقٍ موقت وهَوَس جزئي لبعض الحشرات والحيوانات، إما مسلوبَ الشعور ومفقودَ الحسّ وعديمَ الإرادة بلا علم وبلا اختيار وبلا كمال، ليكون هذا هكذا رخيصا تافها مبذولا؛ والحال أن الصنعة الشعورية المتقنة الحكيمة المختارة تكذّب هذا الفرضَ أشدَّ تكذيب.. وإما واجبَ الوجود: قدير، مريد، عليم، حكيم، بيده ملكوت كل شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ (لقمان:٢٨) بالنسبة إليه، وله في كل مصنوع حِكَمٌ وغايات تنظر إلى تجليات أسمائه وإلى أسرارٍ له في الفعالية الشؤونية، غيرُ ما يعود إلى المستهلكين من الفوائد الجزئية. فلا يمكن أن يكون منشأُ هذا الفيض العام قوّةً عمياء تسيل منها هذه الثمرات كالسيل، ثم تلعب بها يد التصادفات والاتفاقيات؛ إذ تشخصاتها المنتظَمة الحكيمة وخصوصياتها المتقنة الشعورية تردّ يد التصادف الأعمى والاتفاقية العوراء ردا قطعيا يقينا. فبالضرورة تدل هذه الرخيصية المبذولة والسهولة نوعا وكمّا، والإتقان والاقتصاد فردا وشخصا وكيفا، وتشهد على الجود المطلق من الجواد المطلق والحكيمِ المطلق والقدير المطلق جلّ جلالُه وعمّ نوالُه وشمل إحسانه.

فسبحان مَن جَمع نهايةَ الجود المطلق مع نهاية الحكمة المقتصدة، وأدرج الفيض المطلق الغير المحدود في ظروف النظام التام والميزان الحساس والعدل العادل.. الحساسة -تلك الثالثة- بدرجة تُجبر الفيلَ لمدافعة الذباب العاض على ذرة من جسمه الجسيم، وتُقلق هذا الإنسانَ المتكبر، الذي يحكّ بيافوخه[1] كتفَ السماء بطعن البعوض «رُميحته» فيتشمر لمقاتلته: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ (الحج:٧٣).. ويسكن غضبُ البحر ويسكت غيظُ العاصفات وتسكن حدةُ البرودة بدعاءٍ خفي من قلبٍ منكسر لصبيّ نجا على لوح منكسر في البحر اللجيّ.. ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل:٦٢) يجيبُه مَن يسمع هواجس القلب والسر، ويحكم على حركات الشمس والقمر، جلّ سلطانه..

(١) مثل يضرب على التكبر.

اعلم يا أيها المبتلى بالأسباب، إن خلق السبب وتقدير سببيته وتجهيزه بلوازمِ إنشاء المسبَّب، ليس بأسهل وأولى وأكمل وأعلى من خلق المسبَّب عند السبب بأمر «كن» ممن يتساوى بالنسبة إليه الذراتُ والشموسُ..

اعلم يا قلبي أن ما يُرى ملء الدنيا من آلام الأعدام، إنما هي تجدّد الأمثال، ففي الفراق مع وجود الإيمان توجد لذةُ التجدد دون ألم الزوال. فآمِن تُؤمَن، وأسْلِم تسلَم.

اعلم أن العصبيةَ العنصريةَ الجاهلية، ما هي إلّا الغفلةُ المتساندة المتصالبة، وإلّا الضلالةُ والرياء والظلم المتجاوبة المتعاونة.. فيصير الخلقُ وملّته كمعبودِه -العياذ بالله- وأما الحمية الإسلامية، فهي النور المهتز المنعكس من ضياء الإيمان.

اعلم يا من يشتغل بالمناظرة مع الملحدين والمتشككين والمقلدين للزنادقة الأوروبائيين! إنك على خطر عظيم إن كانت نفسُك غيرَ مزكاة، لأجل التحاق نفسك سرا وتدريجا من حيث لا تشعر بخصمائك.. على أن المناظرة بالإنصاف المسمى بالتركي «بي طَرَفَانَه مُحَاكَمَه»[1] أشدُّ خطرا على ذي النفس الأمارة؛ إذ بكثرة تكرار فرض المنصف نفسَه في موقع الخصم يقيمُ في ذهنه خصما خياليا فيتولد منه في دماغه «لُمّةُ تنقيدٍ» تصيرُ وكيلَ خصمه داخلا، فيتعشش الشيطانُ في تلك اللمة. لكن لا تيأس إن كانت نيتُك خالصة. فإذا أحسَستَ بهذا الحال فاصرف عنان الجهاد إلى عدوك الأكبر الداخلي، وعليك بكثرة التضرع والاستغفار.

اعلم أن الآلات الجامدة والحيوانات وجهَلةَ العَمَلة المستخدمة في بناء قصر عجيب لسلطان عظيم، وترسيمِ نقوشه، يعلم كلُّ مَن رآها أنها «لا تعمل بحساب أنفسها بل بحساب مَن يستخدمها» في مقاصده العالية الواسعة وأغراضِه الرقيقة التي تتقاصر عن إدراكها أفكارُ خواص العلماء، فكيف بجَهلَة العوام وبهيمةِ الأنعام وجامدات الأقلام.. كذلك من أمعن في جلوات الأزاهير وتودداتها وتحبباتها إلى أنظار ذوي الحياة تيقَّن أن الأزاهير موظفون -من جانبِ حكيمٍ كريمٍ- بالخدمة والتودد لضِيفَان ذلك الكريم النازلين بإذنه في أرضه، وكذلك الحيوانات.

نعم، أين حس الزهرة وشعور البهيمة، وأين دَرْكُ غايات نقوش الحِكَم ولطائف

(١) أي المناظرة الموضوعية الحيادية والمنصفة.

محاسن الكرم المودَعة في جلوات الأزاهير بتزييناتها، وتطورات الأنعام بمنافعها؟ فما هذه الحالات إلا تعرُّفُ ربٍ كريم وتودُده وتحبّبه إلى عباده وضيوفه جلّ جلاله وعمَّ نوالُه وشمل إحسانُه.

اعلمي! أيتها النفس المشؤومة! إنك تطلبين كلَّ لوازمات المراتب المختلفة في كل مرتبةٍ، وحاجاتِ كل الحواس في حاجة كل حسٍّ، وأذواق كل اللطائف في درجةِ كل لطيفةٍ، وشعاعات كل الأسماء الحسنى في كلِّ اسمٍ، وعظمةَ المؤثر خلفَ كل أثرٍ ومصنوعٍ، وخواصَ المعنى الخارجي في المدلول الظلي،[1] بل في الدال. فاطلبي من كلٍّ ما يليق به وما يَسَعه لئلا تستهوي بك الأوهامُ.

اعلم أنه لابد إذا رأيت نفسَك بعظمتها أن تنظر إلى ما هو أعظمُ منك من السماوات وغيرها، وإذا رأيت ما هو أصغر منك من الهوام والحشرات فانظر إلى حُجيرات جسدك وادخل مع نظرك في حُجيرة منها، ثم انظر إليها حتى ترى البعوضةَ فما فوقها أكبرَ منك، لئلا يسقطَ في عينك أهمية الحِكمة والرحمة والنعمة وإتقان الصنعة فيك. وإذا رأيت الغيرَ الغيرَ المحدود المماثلين لك في النِعم، فانظر إلى احتياجك وعَجز نفسك وحكمة النعمة، لئلا تهونَ عندك قيمةُ نعمتك.

نعم، هل يخفّف احتياجَك إلى العين وجودُ العين في عموم الحيوان؟. أم هل يُنقِص الشمولُ أثر القصد والإنعام الخاص؟ كلا، بل يشدّه ويزيده.

اعلم أن الحياة في كل ذي حياة لها غايات لا تعد ولا تحصى، يعود إلى الحي واحدٌ وإلى المحيي بمقدار مالكيته الغير المتناهية؛ ولا حق للكبير أن يتكبر على الصغير في الخلقة، ولا عبثية في الواقع، وإنما هي في نظر البشر النفسي الغَرور الذي يزعم ويرى أن الأشياءَ كلَّها لأجل منافعه وهَوَساته. ويحسب أن لا غاية لها غير ما يعود إليه..

نعم، هذه الضيافة المفروشة على ظهر الأرض إكرامٌ للبشر بسرّ الخلافة وبشرط استحصال لياقة الكرامة.. لا لَهُ ولاستفادته فقط.

اعلم أنه إذا قال لك الموسوِس: ما أنت إلّا حيوان مما لا يحد من الحيوانات،

(١) المعاني المتولدة في الذهن (ت: ١٠٣)

والنمل أخوك والنحلة أختك، فأين أنت وأين مَن يَطوي السّماء ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر:٦٧)؟

فقل له: إن عدم تناهي عجزي وفقري وذلّي، مع علمي الإذعانيّ به يصيرُ مرآةً لعدم تناهي قدرته وغَنائه وعزته. فهذا السر رقّاني من مرتبة إخواني الحيوانات. وإن من لوازم كمال عظمته وإحاطة قدرته أن يسمعَ ندائي ويرى حاجاتي ولا يُشغله تدبيرُ الأرض والسماوات عن تدبير شؤوني الحقيرة.

وأما تباعد الإنسان والممكن بدرجة عظمته عن الاشتغال بجزئيات الأمور وخسائسها، فليس من عظمته.. بل إنّما ينشأ من عجزه ونقصه وضعفه. أفلا تشاهد كلَّ حَبابٍ بل كل رشاشةٍ من القطرات والذرات الزجاجية، تشتمل على تمثال الشمس، لو تكلّمت تلك لقالت كلٌّ منها: الشمس لي وعندي وفيّ ومعي.. وما يزاحم تلك الذراتِ في المناسبة مع الشمس لا عيونُ السيارات ولا خدودُ البحور ولا عظمةُ الشمس. بل بدرجة علمنا بعدم تناهي فقرنا وحقارتنا تتزايد القربة -والمناسبة بعدم المناسبة[1]- فما ألطفَ مناسبةَ من لا يتناهى في فقره وعجزه، مع من لا نهاية لغناه وقدرته وعزته وعظمته!

فسبحان مَن أدرج نهايةَ اللطف في نهاية العظمة، وغايةَ الرأفة في غاية الجبروت، وجَمعَ نهاية القُرب مع غاية البُعد. وآخى بين الذرات والشموس، فأظهر قدرته بجمع الأضداد!

فانظر كيف لا تُشغلهُ حشمةُ تدبير الأرض والسماوات عن لطافة تربية الهوام والحشرات، ولا يعوقُه تدبيرُ البر والبحر عن إيجاد أصغر النحل والطير وعن إحياء صغار السماك في أعماق البحور، ولا تزاحمه شدةُ عاصفات البر وحدّة غضب البحر عن كمال لطفه وإحسانه إلى أخفى وأضعفِ وأعجزِ وأصغرِ حيوان ساكنٍ في أخفى مكان، متوكلا تحت ظلمات كثافة البحر وغياهب أمواجه وتفاقم ارتجاجاته، وظلمةِ الليل وظلمات سحابه..

فتبسُمُ الرحمة في خلال غضب البحر وخلف وجهه العبوس القمطرير؛ إذ ينادي هذا البحر بنغماته الواسعة: يا عظيم، يا جليل، يا كبير، يا الله.. سبحانك ما أعظم كبرياءك. فيقابله

(١) أي مع عدم المناسبة.

ذلك الحيوان الصغير بترنّماته الخفية: يا لطيف، يا كريم، يا رزاق، يا رحيم، يا الله.. سبحانك ما ألطفَ إحسانَك. ففي اقتران هذين الذِكرين، وامتزاج هذين التسبيحين حِشمةٌ لطيفة ولطافة محتشَمة وعبودية عالية للواحد الأحد الصمد جلّ جلاله وعمّ نواله..

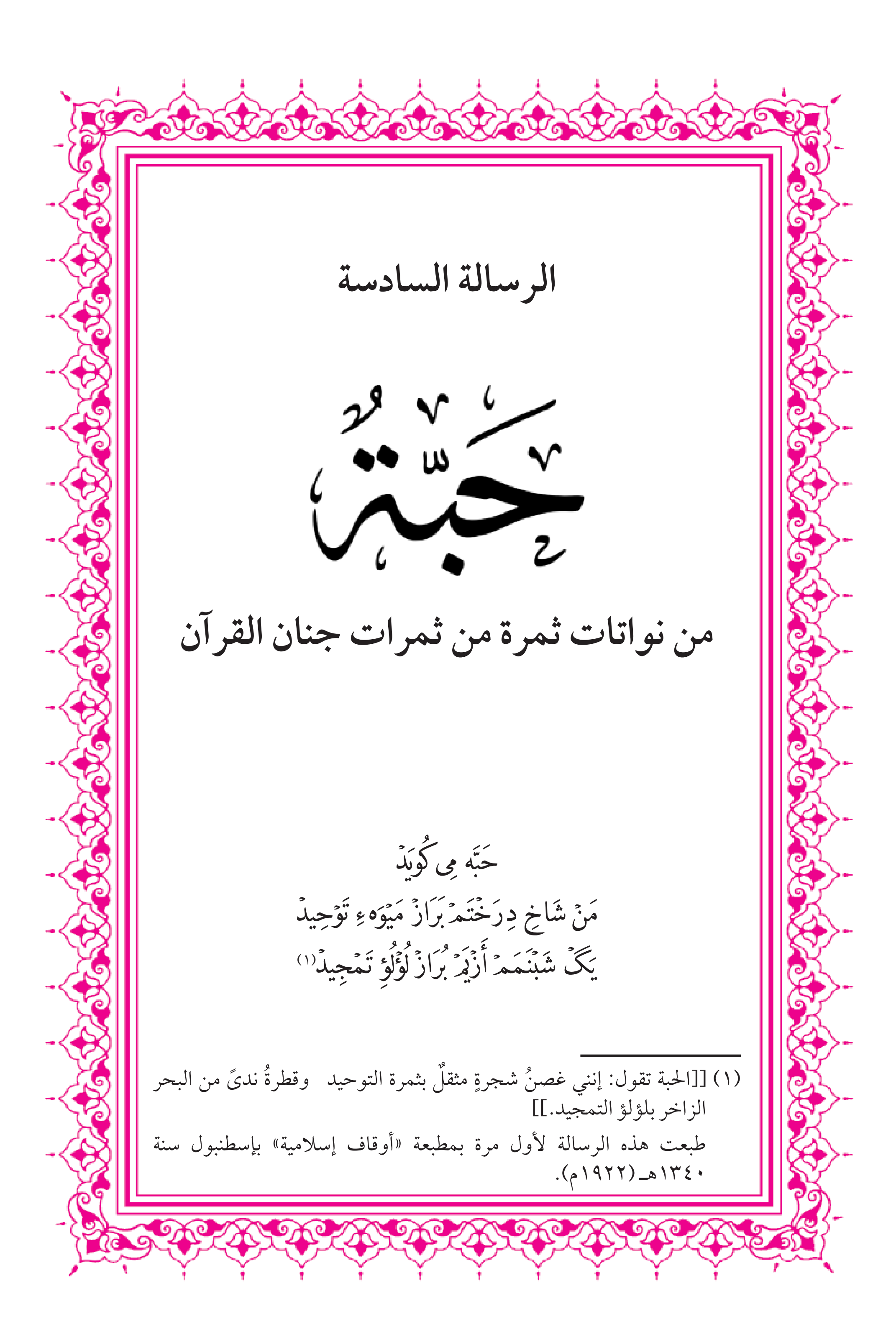
اعلم أن الأهم الألزم بعد علوم الإيمان، إنما هو العمل الصالح؛ إذ القرآن الحكيم يقول على الدوام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

نعم، هذا العمر القصير لا يكفي إلّا لما هو أهمّ.. وأما العلوم الكونية المأخوذة من الأجانب فمضرة؛[1] إلا للضرورة وللحاجات وللصنعة واستراحة البشر.

اَللَّهُمَّ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، ارْحَمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
وَنَوِّرْ قُلُوبَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ،
وَنَوِّرْ بُرْهَانَ الْقُرْآنِ، وَعَظِّمْ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ، آمِينَ.

* * *

(١) إن كانت تفضي إلى السفاهة والفساد (ت: ١٠٥).



الرسالة السادسة

حَبَّة

من نواتات ثمرة من ثمرات جنان القرآن

حَبَّه مِى كُويَدْ

مَنْ شَاخِ دِرَخْتَمْ بَرَازْ مَيْوَهءِ تَوْحِيدْ

يَكْ شَبْنَمَمْ أَزْيَمْ بُرَازْ لُؤْلُؤِ تَمْجِيدْ[1]

---

(١) [[الحبة تقول: إنني غصنٌ شجرةٍ مثقلٌ بثمرة التوحيد   وقطرةُ ندىً من البحر الزاخر بلؤلؤ التمجيد.]]

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «أوقاف إسلامية» بإسطنبول سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م).

في (ط ١)

إفادة المرام

اعلم أنه قيل لي إن الناس يقولون: لا نفهم كثيرا مما في آثاره فتصير ضايعة.

فأقول: لا تضيع بإذنه تعالى. وسيجيء زمان يفهمها أكثرُ المتفكرين المتدينين إن شاء مَن بيده مقاليدُ كل شيء؛ إذ أكثر هذه المسائل أدويةٌ جربتُها في نفسي أعطانيها الفرقان الحكيم، لكن يمكن أن لا يفهمَها الناسُ كما أفهمُها بتمامها! لأن نفسي -بسوء اختيارها- من الرأس إلى القدم ملمّعةٌ بالجروح المتنوعة، فالسليمُ بحياة القلب لا يفهم درجةَ تأثير الترياق في السقيم بلدغ حية الهوى كما يفهمه هو...

وأيضا إني لا أتصرف في السانحات للتوضيح؛ عجزا من التحرير أو خوفا من التغيير. فأكتبها كما سنحت...

وأيضا أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي -خلافا لسائر المتكلمين الذين يفرضون أنفسَهم في مقام السامعين- فيصير أمام كتابي (الذي) وجههُ إليّ، ومعكوسُه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فإذا لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خيالَه إليّ لأضيّفَه على عيني في رأسي، كي يرى كما أرى.

أدرجتُ في «نقطة وقطرة وذيلها وذرة وشمة وحبة» تفاريقَ حدسيات، وقطعات مرآة إذا جاء بإذنه تعالى من يركّبها، بتحرير وتصوير، تظهر مرآةٌ يظهر فيها وجهُ عين اليقين ويتحصل حدسٌ يزهر منه نورُ حق اليقين.. كيف لا، وهو من فيض القرآن المبين!

اَللّٰهُمَّ أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعَه وأرنا الباطلَ باطلا وارزقنا اجتنابه..

آمين

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لله عَلٰى دِينِ الإِسْلَامِ وَكَمَالِ ٱلإِيمَانِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلٰى مُحَمَّدٍ الَّذِي هُوَ مَرْكَزُ دَائِرَةِ ٱلإِسْلَامِ وَمَنْبَعُ أَنْوَارِ ٱلإِيمَانِ، وَعَلٰى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ مَادَامَ الْمَلَوَانِ(١) وَمَادَامَ الْقَمَرَانِ.(٢)

اعلم أنه بينما ترى العالَم كتابا كبيرا ترى نورَ محمد عليه الصلاة والسلام مِدادَ قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه عليه الصلاة والسلام نواتَها أولا، وثمرتَها ثانيا.. وبينما ترى العالَم يلبس جسمَ الحيوان(٣) ترى نورَه «عليه الصلاة والسلام» روحَه.. وبينما ترى العالم تحوّل إنسانا كبيرا ترى نورَه عليه الصلاة والسلام عقلَه.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نورَه عليه الصلاة والسلام عندليبَه.. وبينما ترى العالم قصرا مزيّنا عاليا ذا سرادقات تتظاهر فيها شعشعةُ سلطنة سلطان الأزل وخوارقُ حشمته، ومحاسنُ تجليات جماله، ونقوشُ خوارق صنعته، إذا ترى نورَه عليه الصلاة والسلام نظّارا يرى لنفسه أولا، ثم ينادي بيا أيها الناس تعالَوا إلى هذه المناظر النـزيهة، وحَيهلوا(٤) على ما لَكُم فيه كل شيء من المحبة والحيرة والتنـزّه والتقدير، والتنوّر والتفكر، وما لا يحد من المطالب العالية. ويريها الناسَ، ويشاهِد ويشهَد لهم.. يتحير ويُحيِّرهم.. يُحب ويُحبِّبُ مالِكَه إليهم.. يستضيء ويُضيء لهم.. يستفيض ويفيض عليهم..

اعلم أن الإنسان ثمرةُ شجرة الخِلقة. والثمرةُ تكون أكملَ الأجزاء وأبعدَها من الجرثوم، وأجمعَها لخصائص الكل.. وهي التي من شأنها أن تبقى وتُسْتَبقى.

ومن الإنسان مَن هو نواةٌ أنبتَ القديرُ جل شأنه منها تلك الشجرة.. ثم صيّر الفاطرُ جل جلالُه ذلك الإنسان ثمرةَ تلك الشجرة.. ثم جعل الرحمنُ تلك الثمرة النورانيةَ نواةً لشجرة الإسلامية.. وسراجا لعالمها.. وشمسا لمنظومتها..

(١) الملوان: الليل والنهار، الواحد ملا.
(٢) القمران: الشمس والقمر.
(٣) أي لو افترض العالم كائنا مجسما ذا حياة ترى.. (ت: ١٩٦)
(٤) حيهلوا: اسم فعل بمعنى أقبلوا وعجّلوا وهلمّوا.

وأنه لابد في الثمرة من نواةٍ تشتمل بالقوة على لوازمات شجرةٍ هي مثل أصلها. وأصغريةُ النواةِ لا تنافي أعظميةَ الشجرة، كنواة شجرة التينة..

وأن في الإنسان حبةً، لو كان الإنسان ثمرةً، لكانت تلك الحبة نواتَه، ألَا وهي القلب.. فقد رأيتُ فيه بواسطة الاحتياج علاقاتٍ إلى أنواع العالَم، بل إلى أجزائها.. وارتباطاتٍ إلى جميع أنوار الأسماء الحسنى باحتياج شديد وفقر عظيم لتجلي فردٍ فردٍ منها.. حتى كأن له حاجاتٍ عدَد أجزاء العالَم، وله أعداء ملءَ الدنيا.. فما يطمئن إلّا بمَن يقتدر أن يُغنيه عن كل شيء، ويحفظه من كل شيء..

ورأيت فيه أيضا قابليةً تمثل مجموعَ العالم كالخريطة والفهرستة والأنموذج والتمثال.. وأن المركز فيه لا يقبل إلّا الواحدَ الأحد.. ولا يرضى إلّا بالأبد والسرمد.. فهذه النواة –وهي حبة القلب– ماؤه الإسلام وضياؤه الإيمان فإن اطمأنتْ تحت تراب العبودية والإخلاص، وسُقيَت بالإسلام، وانتبهتْ بالإيمان، أنبتت شجرةً نورانيةً مثاليةً من عالم الأمر هي روحٌ لعالمه الجسماني، وإن لم تُسقَ بقت نواةً يابسةً منكمشة لائقةً للإحراق بالنار إلى أن تنقلبَ إلى النور.

وكم في النواة من أعصابٍ رقيقة وأشياءَ دقيقة لا يُبالَى بها، وتُرى أقلَّ من أن يُهتَمّ بها، إلّا أن لكلٍ منها –إذا انكشفت النواة– وظيفةً مهمةً بحشمة وعظمة.. كذلك لحبةِ القلب خدّام كامنة نائمة إذا انتبهتْ وانبسطتْ بحياة القلب، يجولون في بساتين الكائنات كطيور سيارة، وتنبسط[1] بدرجة يقول المرء: الحمد لله على كل مصنوعاته، لأنها كلها لي نِعَمٌ.. حتى إنَّ الفرضَ أو الخيالَ الذي هو من أضعفِ خدَّام القلب وأهونِهم، له وظيفةٌ عجيبة، يَدخل به صاحبُه المتوكل –وهو في السجن مقيد– في حديقةٍ نزيهة، ويضع رأس صاحبه المتنبّه وهو يصلي في الشرق أو الغرب تحت «الحجر الأسود» ثم يُودع في الحجر الأسود شهادتَي صاحبه..

ومن المشهود أن «البيدر» يدور على رؤوس «الأثمار».. والثمرة هي التي تنتَقى وتُستبقى.. فبيدر الحشر ينتظر بني آدم.

اعلم أن لكل أحد من هذا العالم العام عالما خاصا، هو عين العام، لكن مركزه هو الشخص، بدلَ الشمس. فمفاتيحُ ذلك العالَم في نفس الشخص ومعلّقة بلطائفه.. ولونُ ذلك

(١) أي حبة القلب.

العالم وصفاؤهُ وحُسنهُ وقُبحهُ وضياؤه وظلمته تابعةٌ لذلك المركز. فكما أن الحديقة المرتسمة في المرآة تابعة في أحوالها من الحركة والتغيّر وغيرهما للمرآة، كذلك عالم الشخص تابعٌ لمركزه الذي هو الشخص كالظل والتمثال. فلا تحسبنّ صِغَرَ جِرمك سببا لصغر جُرمك؛ إذ ذرةٌ من قساوة قلبك، تكدّر[1] عليك نجوم عالمك..

اعلم أن هذه ثلاثون سنة، لي مجادلةٌ مع طاغوتين وهما: «أنا» في الإنسان، و«الطبيعة» في العالم. أما هذا، فرأيتُه مرآةً ظليا حرفيا. لكنْ نظرَ الإنسانُ إليه نظرا اسميا قصديا بالأصالة، فتفرعن عليه وتَنَمَرَدَ. وأما هذه، فرأيتُها صنعةً إلهيّة وصبغةً رحمانية.. لكنْ نظرَ البشرُ إليها بنظر الغفلة فتحولت لهم «طبيعةً» فتألّهتْ عند مادييهم. فأنشأتْ كفرانَ النِعَم المنجرّ إلى الكفر.

فلله الشكر والحمد وبتوفيق الأحد الصمد وبفيض القرآن المجيد أنتجت المجادلة قتلَ الطاغوتين وكسرَ الصنمين؛ بالنقطة، والقطرة، والذرة، والشمة، والحبة، والحباب.. فتكشَّفتْ الصنعةُ الشعورية الإلهية والشريعةُ الفطرية الربانية من حجاب الطبيعة الموهومة، وانسلختْ هي منها، أي نهارُها من ليلها. وتَكشّفَ «أنا» عن ظل «هو»، وانشقّ عنه فأشارت بـ«هو» إلى مَن: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ (الشورى:١١) جلّ جلاله..

اعلم يا «أنا»! لك أمور تسعةٌ في دنياك تعاميتَ عن ماهيتها وعواقبها:

أما جسدُك؛ فكالثمرة المتزهرة المتزينة صيفا، المنكمشة المتفسخة شتاءً.

وأما حيوانيتُك[2]؛ فانظر إلى جنس الحيوان كيف يُسرع فيهم الموتُ والزوال.

وأما إنسانيتُك؛ فمترددة بين الانطفاء والاصطفاء والزوال والبقاء، فاستحفِظْ على ما بقي بها من شأنه أن يبقى بذكر الدائم الباقي.

وأما حياتك[3]؛ فكقامتك قصيرةٌ معيّنةُ الحدود لا تقدَّم ولا تؤخَّر، فلا تتألـمْ ولا تحزن ولا تخَفْ عليها ولا تحمّلها ما لا طاقةَ لها به مما تطاول إليه طول الأمل.

---

(١) مشتقة من انكدار النجوم أي تناثرها.
(٢) أي حياتك المادية (ت: ١٠٨)
(٣) أي مدة بقائك وعمرك.

وأما وجودك؛ فليس مُلكا لك، فله مالكٌ، الملكُ له وأشفقُ به منك؛ فمداخلتك بغيرِ ما أمركَ به، فكما أنها من الفضول وشُغل فضولي فكثيرا ما تضر؛ ألا ترى الحرص و(مرق) النوم كيف يفعلان ويجلبان الخيبة والسهر!

وأما مصائبك؛ فلا تمرُّ[1] حقيقةً لأنها تَمُرُّ سريعا، بل تحلو لأنها تُحول؛ فتَحوِّلُ وجهَكَ من الفناء في الفاني إلى البقاء بالباقي.

وأما أنت هنا الآن؛ فمسافرٌ ثم مسافرٌ، والمسافرُ لا يَعلّقُ قلبَه بما لا يتعلق به ويفارقه بسرعة. فكما ترتحل من هذا المنـزل في هذا المسجد البتة، كذلك تفارق هذه البلدة قطعا، إما إلى بطنها أو إلى خارجها.. فكما ستفارقها بالضرورة، كذلك تذهب بل تُخرَج وتُطرَدُ -شئتَ أم أبيتَ- من هذه الدنيا الفانية؛ فاخرجْ وأنت عزيز قبل أن تُطرد وأنت ذليل.

وأما وجودك؛ فافْدِهِ لمُوجدهِ الذي يشتريه بثمنٍ غالٍ، فسارعْ إلى البيع بل الفداء:

أولا: فلأنه يزول مجانا.

وثانيا: لأنه مالُه وإليه يؤول..

وثالثا: لأنه إن اعتمدتَ عليه سقطتَ في العدم، لأنه «بابٌ إليه»، وإذا فتحتَه بالتَرك وصلتَ إلى الوجود الثابت..

ورابعا: لأنه إذا تمسكتَ به كان في يدك نقطة وجودٍ فقط، ويحيط بك ما لا يتناهى من الأَعدام الهائلة.. وإذا نَفَضْتَ يدك منه استبدلتَ لمعةً بشمس فينقلب محيطُكَ إلى ما لا يتناهى من أنوار الوجود.

وأما لذائذ الدنيا؛ فقِسمتُكَ تأتيك، فلا تَطِشْ في طلبها.. ولزوالها بسرعة لا يليق بالعاقل تعليقُ القلب بها. وكيف ما كانت عاقبةُ دنياك فتركُ اللذائذ أولى؛ إذ إما إلى السعادة، وهي تستلزم تركها.. وإما إلى الشقاوة. ومَن ينتظرُ الصَّلبَ كيف يلتذُّ ويَستعذِبُ ما يزيد عذابَه من تزيينات آلات الصَلب؟ وإن توهمتَ بالكفر العدمَ -العياذ بالله- فأولى بالترك؛ إذ بزوال اللذة يُحِسُّ ذلك العدمُ الهائلُ أَلَمه الأليم آنا فآنا في ضمن زوال اللذائذ، وهذا الألَمُ أثقلُ بمراتبَ من لذة الوصال إن كنت تشعر..

(١) مأخوذة من المرارة ضد الحلاوة.

اعلم أن مثلَك -وقد تصيب رأسَك المصائبُ المرماةُ «بالقدر»- كمثل أغنام مُرسَلة في المرعى، يراها الراعي قد تجاوزت، فيرمي الأحجارَ خلفَها لترجعَ، فيقول المُصابُ رأسُه بلسان الحال: نحن تحت أمر الراعي، وهو أعرفُ بنا منا فلنرجع.. فيرجع.. فيرجعون..

فلا تكوني يا نفسي أضلَّ من الغنم! فقولي عند المصيبة:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

اعلم أن من الدليل على أن القلب ما خُلق للاشتغال بأمور الدنيا قصدا؛ أنه: إذا تعلق بشيء تعلّق بشدةٍ، واهتمّ به اهتماما عظيما، ويتطلب فيه أبديةً ودواما.. ويفنى فيه فناءً تاما. وإذا مدّ يدَه يَمُدّ يدا تطيق أن تقبضَ على الصخور العظيمة وتَرفعَها، مع أن ما يأخذه بتلك اليد من الدنيا، إنما هو تينةٌ أو تبنةٌ أو ريشةٌ أو شعرةٌ أو هباءٌ أو هواءٌ..

نعم، القلب مرآةُ الصمد؛ فلا يقبل حجرَ الصنم بل ينكسرُ به. والعاشقُ المجازي يرى ظُلمَ معشوقه في الأكثر، بسرّ: أن المعشوق بفطرته -بلا شعور- يردّ ولا يرضى ما ليس له بحق، وهو ليس بلائقٍ إسكانه في باطن قلب العاشق.

اعلم أن القرآن أُنزل وأُنزلت به مائدةٌ سماويةٌ، يوجد فيها كل أنواعُ ما تحتاج إليه طبقاتُ نوع البشر المتفاوتين في اشتهاء الأفهام.. في المائدة أطعمة مترتبة، قُدِّمَ أولا في وجهِ السُفرة الإلهية رزقُ الأكثر المطلق والجمهور الأعظم، أي العوام.. مثلا: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء:٣٠) الصفحة الأولى: أي هما رتقاوان، أما هذه فنقيةٌ صحوٌ صافيةٌ. وأما تلك فميتة غبراء يابسة. فازدوَجَتا بإذنه تعالى فأولدت هذه أمطارا وتلك أثمارا. والدليل على هذه الصحيفة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠). وخلف هذه الصفحة والصحيفة انفصال السيارات مع شمسها[1] من عجين المادة التي خُلقَت من نور سيّد الأنام ﷺ. والآية[2] على هذه الصفحة حديث: «**أول ما خلق الله نوري..الخ**»[3]..

(١) وتفصيلها في إشارات الإعجاز لدى تفسير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة:٢٩).
(٢) أي الدليل والبرهان.
(٣) العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٣١١ عن جابر بن عبد الله بلفظ: «قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره...» فذكر الحديث بطوله. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن ٣/ ٤٧٠.

مثلا: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق:١٥) الصحيفة الأولى المقدمة في النظر، أنهم مع إقرارهم بخلقهم الأول الأعجبِ المشهودِ، يستبعدون الخلق الجديد الأهون؛ إذ له مثال سبق. وإن خلفَ هذه الصحيفة برهانا نيرا على كمال سهولة النشر.

أيها المنكرون للحشر.. تُحشَرون.. وتنشرون في عمركم مرات، بل في سَنتكم، بل في يومكم، تلبسون وتخلعون هذا الجسم كلباسكم صباحا ومساءً يتجدد عليكم جسمكم كلباسكم.[1]

اعلم فيا عجبا من بلاهة النفس! ترى في نفسها أثرَ المصنوعية والمملوكية والتربية من طرف ربّ مختار حكيم، ثم تنظر إلى أمثالها من سائر الأفراد والأنواع والأجناس، فيتظاهر سرُّ كلّيةِ القاعدة وشمولِ الفيض، وتحلُّبِ نوعِ إجماعٍ وتصديق فعلي، فكان لازما عليها أن تطمئن بتفطنِ سرِ: «كلية القاعدة ودستورية الحادثة». والحال أنها تتخيل ما يقوي تجليات الأسماء عليها من عموم تجلياتها في دائرة الآفاق سببَ الضعف وواسطة التستر وأمارة الإهمال وعلامةَ أنه لا رقيب عليها فتقول: اتسعَ فامتنع.. عَظُم فَعُدِم. فهذه مغلطة يخجل منها الشيطان أيضا.

اعلمي! أيتها النفس المتضجرة القلقة.. أن كل أحوالك في التعين، والنقش في جبهتك بقلم القَدر، كطلوع الشمس وغروبها. فإن أردتِ أن تضربي سندان القَدر برأسك العليل، فتضجّري. واعلمي يقينا، أن من لا يستطيع أن ينفذَ من أقطار السماوات والأرض، لابد أن يرضى رضاء محبةٍ بربوبيةِ مَن: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢).

اعلم لو كان صانعُ الشيء في الشيء لناسَبه، ولَتَنَوعَ بعدد الأشياء. وإذا لم يكن فيه فلا، كهذا الكتاب: يُكتب بقلم واحد مع أنه لا يُطبع إلّا بحديدات مصنوعة، موضوعة تحته عدد حروفه، ولو تَنَبَّتَتْ نقوش الصنعةِ المتقنة في شيء منه وتحلّبت ثمراتُها وترشحت حروفُها من نفسه وإمكانه، لانبثتْ وانتثرتْ وانتشرتْ ولخرجت عن الانتظام. لكن فيها استقرار تام وانتظام كامل فلم ينكتب نقشُ الشيء منه ولن ينكتبَ منه أبدا، بل يُكتب عليه بقلم القُدرة على مِسطَر القَدَر.

(١) تفصيله في إشارات الإعجاز في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (المؤلف).

اعلم ومن الغرائب أن العقلَ الذي يتطاول إلى الإحاطة بالعالم والنفوذ إلى الخارج والخروج من دائرة الإمكان، يغرق في قطرة.. ويفنَى في ذرة.. ويغيب في شعرة.. وينحصر الوجود عنده فيما فني فيه.. ويريد أن يُدخلَ معه كلَّ ما أحاطَ به في النقطة التي بَلَعته.[١]

اعلم أنه لو كان المُلك لك لتنغّص عليك التنعمُ بتكلف التعهّد والتحفظ والتخوف. والمنعمُ الكريم يتعهد كل لوازمات النعمة.. وما يفوِّض إليك إلّا التنعمَ والتناول من سُفرة إحسانه، والشكرَ الذي يزيد لذةَ النعمة.. إذ الشكر؛ رؤيةُ الإنعام في النعمة. ورؤية الإنعام تزيل ألَمَ زوال النعمة؛ إذ تزولُ النعمةُ حينئذٍ فلا تعطي موضعها للعدم حتى تُؤلِم، بل تُخلي الموقعَ لمجيء المِثل كالثمرة، فتعطيك لذةَ التجدد. ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (يونس:١٠) يدل على أن الحمدَ عينُ اللذة. نعم، إن سرَّ الحمد؛ رؤيةُ شجرةِ الإنعام في ثمرة النعمة. فيزول ألمُ تصوّر الزوال فيُلتَذ بنفس الحمد..

اعلم أن المعلومات الآفاقية لا تخلو عن الأوهام والوساوس. وأما إذا استندت إلى الأنفس واتصلت بالوجدانيات المشعورة بالذات، تصفّت عن الاحتمالات المزعجة. فانظر من المركز إلى المحيط، ولا تعكس فتنتكس.

اعلم أن هذه المدنية السفيهة المصيّرةَ للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلُها ويتناجَون بالإثم وما لا يعني[٢] بالجرائد صباحا ومساءً، غَلُظَ بسببها وتكاثفَ بملاهيها حجابُ الغفلة، بحيث لا يُخرَق إلّا بصرفِ همةٍ عظيمة. وكذا فَتحتْ لروح البشر منافذَ غير محدودة نظّارة إلى الدنيا يتعذّر سدُّها إلّا لمن خصّه الله بلُطفه..

اعلم أن الذرة تسعُ الشمسَ بتجليها فيها بالمشاهدة ولا تسع تلك الذرةُ ذرتين بالذات بالبداهة، فذراتُ الكائنات ومركباتها –كقطرات المطر ورشاشاتها المتشمسة المتلألئة بتماثيل الشمس– قابلةٌ لأن تصير مظاهرَ للمعات تجليات القدرة النورانية الأزلية المطلقة المحيطة المستندة بل المتضمنة للعلم والإرادة الأزليين الغير المتناهيين.. ولا يمكن أن تكون ذرةُ حُجيرةِ عينك منبعا ومعدنا لقدرةٍ وشعور وإرادة تتحمل وظائفها العشرة من

(١) نعم، إن أكبر فلاسفة الأرض عقلا يغرق في قطرة من الألم، ويفنى في ذرة من المحبة، ويغيب في شعرة من السرور، وينحصر الوجود عنده في لحظة فناء باهتماماته، ويجهد أن يسحب معه كل معارفه الوجودية إلى عمق النقطة التي ابتلعته.

(٢) وما لا يعني من الأمور التي تلهي الإنسان.

خَدَمتها في الأعصاب المحركة والحساسة والأوردة والشرايين والإبصار والتصوير وغيرها مما يتيه فيه الفكر.

فهذه الصنعة المتقنة العجيبة، والنقش المزين المنتظَم، والحكمة العميقة الدقيقة، تقتضي قطعا:

إما أن يكون كل ذرة وكل مركب في الكائنات معدنا ومنبعا ومصدرا لصفات محيطة مطلقة كاملة.

وإما أن يكون مظهرا ومعكِسا ومَجلَىً للمعاتِ تجلياتِ شمس الأزل الذي له هذه الصفات.

والشِق الأول فيه محالاتٌ بعدد ذرات الكائنات ومركباتِها؛ فمن جاز عنده أن يحمل على جناحَى نحلةٍ جبلي «سُبحانْ وآرارات»[1] وأن ينبع من عيني بعوضة «النيل والفرات»، فليذهب إلى الشق الأول؛ فتشهد كلُّ ذرةٍ -بِعَجزها عن تحمّل ما لا طاقة لها به- أنه: لا موجدَ ولا خالقَ ولا رب ولا مالك ولا قيوم و**لا إله إلّا الله**. وكل ذرات الكائنات ومركباتها بألسنتها المختلفة ودلالاتها المتنوعة تتكلم بـ:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الْجَمَال يُشِيرُ[2]

نعم، إن كل حرف من كتاب الكائنات، يدل على وجود نفسه بوجهٍ واحدٍ، وبمقدار حرف، لكن يدل على كاتبه وصانعه بوجوه كثيرة. وينشدُ من أسمائه المتجلية عليه قصيدةً طويلة:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَلاِ الأعلى إلَيكَ رَسَائِلُ[3]

اعلم[4] أن مرايا التجليات متنوعة منها: الزجاج، والماء، والهواء -لاسيما للكلمات- وعالم المثال، والروح، والعقل، والخيال، والزمان. وغيرها مما لا نعلم أو لا تعلم.. وتماثيل الماديات الكثيفة في المرايا[5] منفصلة حُكما، وأمواتٌ حقيقةً.. وليس لها خاصية الأصل.. وغيرٌ

(١) جبلان يقعان شرقي تركيا.
(٢) لم ينسب إلى قائله: انظر تفسير الألوسي ٨/ ٤١٧؛ البحر المديد لابن عجيبة ٤/ ١١٣؛ البرهان للزركشي ٢/ ١٦٠.
(٣) لرجل نحوي مشهور يُعرف بركن الدين بن القَوْبَع (ت ٧٣٨ هـ) - (قول على قول ١١/ ١٥٧ للكرمي).
(٤) الغصن الرابع من «الكلمة الرابعة والعشرين» تفصّل هذه المسألة.
(٥) أي صورها المرتسمة في المرايا، كما سيأتي.

للأصل أيضا، بدليل انتقالها إلى الفطوغراف، دون النورانية الخالصة، وفي غير الخالصة تنتقل هويةُ صورتها المادية فقط.

وأما تماثيل النورانيات فمتصلةٌ حُكما، ومرتبطةٌ حقيقة، ومالكةٌ لخواص الأصل، وليستْ غيرا له. فلو جَعل الفاطرُ جلّ جلاله حرارةَ الشمس حياتها، وضياءها شعورَها، وألوان الضياء حواسَّها؛ لتكلمت الشمسُ معك في قلب مرآتك التي في يدك، كتلفونك ومرآة قلبك. إذ مثالها الذي في يدك له أيضا بمقدار استعداده حرارةُ حياةٍ، وضياءُ شعورٍ، وألوانُ حواسٍ. ومن هذا السر يطّلع النبي ﷺ الذي هو النور النوراني على صلواتِ كلِّ مَن صلّى عليه في آن واحد. ومن هذا السر ينفتح مغلقات أسرار.[1]

اعلم أن «سبحان الله والحمد لله» يتضمنان التوصيفَ بصفات الله: الجلالُ بالأول.. والجمال بالثاني. فـ«سبحان الله» ينظر إلى بُعد العبد والممكن عن الله الواجب الوجود العلي العظيم. و«الحمد لله» ينظر إلى قُرب الله بالرحمة واللطف إلى العبد ومخلوقاته. فكما أن الشمسَ قريبةٌ منك تُوصل حرارتَها وضياءها إليك وتتصرف فيك بإذن خالقها، الذي صيّرها مرآةً لجلوة اسمه «النور» وظرفا لنِعَمه التي هي الحرارة والضياء مع أنك بعيدٌ عنها لا يصل يدُك إليها، وأنت بالنسبة إليها قابلٌ فقط لا فاعلٌ ولا مؤثر.. كذلك - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - إن الله جلّ جلاله قريبٌ منا فنحمده، ونحن بعيدون عنه فنسبّحه. فأحمدْه وأنت تنظر إلى قُربه برحمته. وسبّحه وأنت تنظر إلى بُعدك بإمكانك. ولا تخلط بين المقامين، ولا تمزج بين النظرين، لئلا يتشوش عليك الحقُّ والاستقامة. لكن يمكن لك -بشرط عدم الالتباس والمزج- أن تنظر إلى القرب في جهة البُعد.. وإلى وجه البُعد في جهة القرب.. وإلى الوجهين معا فتقول: «سبحان الله وبحمده»..

اعلم يا طالب الدنيا! لابد أن تتركها[2] لأمور أربعة:

أولا: فلأنها سريعة الزوال، وألمُ الزوال مذلّ ومزيل للذة الوصال.

وأما ثانيا: فلأن لذائذَها منغَّصة بآلامٍ مقارِنة وأكدارٍ متعاقبة.

---

(١) إيضاحها في «اللوامع» - أقسام التمثلات مختلفة - من مجلد «الكلمات».

(٢) وتركها يعنى: أنها ملك الله، يُنظر إليها بإذنه وباسمه (المقام الثاني من الكلمة السابعة عشرة من مجلد الكلمات).

وأما ثالثا: فإن ما ينتظرك وأنت تذهب إليه بسرعة بلا انحراف من القبر الذي هو باب إلى الآخرة، لا يقبل منك مزيَّنات الدنيا هديةً، إذ تنقلب هناك قبائح.

وأما رابعا: فوازنْ بين سكونك ساعة في موقع بين الأعداء والمؤذيات والحشرات المضرة، وبين السكون في سنين كثيرة في موقع آخر قد اجتمع فيه كل أحبابك وكل عظمائك. ومالِك الملك أيضا يدعوك إلى ترك لذة تلك الساعة ليريحَك في تلك السنين مع أوِدّائكَ. فأجب داعيَ الله قبل أن تُساق إليه بالسلاسل.

فسبحان الله ما أعظمَ فضلَ الله على الإنسان يشتري بثمنٍ غالٍ من الإنسان مالا له وديعةً عند الإنسان ليحمله عنه.. ويبقيَه له.. ويحميَه مما يفسده. مع أن الإنسان إنْ تَملَّكَه ولم يبعْه وقع في بلاءٍ عظيم في تعهّده بقدرة لا تكفي -من ألوف مصالحه- بواحد.. ولو تحمله بنفسه على ظهره لأنقض ظهرَه. ولو أمسكه بنفسه لزال سريعا وذهب مجانا وفني مورثا لآثامه وأثقاله على مالكه الكاذب.

اعلم أنه إنني مصداق لما قيل:

وعيني قد نامت بليلِ شبيبـتي ولم تنتبه إلّا بصُبح مَشيب[1]

إذ أشدُّ أوقات انتباهي في شبيبتي، رأيته الآن أعمقَ طبقات نومي! فالمتنورون المتنبهون في عُرف المدنيين كانتباهي فيما مضى، مَثَلُهم كمثل مَن رأى في رؤياه أنه انتبه وقصَّ رؤياه على بعض الناس، والحال أنه بهذا الانتباه مرّ من طبقة النوم الخفيفة إلى الطبقة الكثيفة. فمَن كان هكذا نائما كالميت كيف يوقظ الحي الناعس، وكيف يُسمع الناعسَ ما يتكلم به من وراء حُجب نومه المضاعف!

أيها المتنبّهون النائمون! لا تتقرَّبوا إلى المدنيين بالمسامحة الدينية والتشبّه، ظنا منكم أنكم تَصيرون جسرا بيننا وبينهم، وتملأون الواديَ بيننا. كلّا، إن المسافة بين المؤمنين والكافرين غيرُ محدودة، والوادي بيننا في غاية العمق لا تملأونه، بل تلتحقون بهم أو تضلّون ضلالا بعيدا!

اعلم أن في ماهية المعصية[2] -لاسيما إذا استمرت وكثرت- بذرَ الكفر.. إذ المعصية

(١) انظر: ابو العباس المقري، نفح الطيب ٤/ ٣٤٢، ٧/ ٢٨٠.
(٢) توضيح هذه المسألة في اللمعة الثانية من «اللمعات».

تُولِد أُلفةً معها وابتلاءً بها، بل تصير داءً، دواؤها الدائمي نفسُها، فيتعذر تركُها. فيتمنى صاحبُها عدَم عقابٍ عليها، ويتحرى بلا شعور ما يدل على عدم العذاب، فتستمر هذه الحال حتى تنجر إلى إنكار العذاب وردّ دار العقاب. وكذا إن خجالة المعصية -بغير الندامة والقلع- تُلجئ صاحبَها إلى إنكار كون المعصية معصيةً، وإنكار مَن يطلع عليها من حَفَظة الملائكة وغيرها.. فمِن شدة الخجالة يتمنى عدمَ الحساب.. فإن صادف وهما ينفيه، تلقّاه برهانا.. وهكذا إلى أن يسودّ القلبُ، العياذ بالله..

اعلم[١] أن من لمعات معجزات القرآن كما في «اللوامع»[٢] المشتملة على الإشارة إلى أربعين نوعا من إعجازه، ومن كمال بلاغته: أنه جمع السلاسةَ الرائقة، والسلامةَ الفائقة، والتساندَ المتين، والتناسبَ الرصين، والتعاون بين الجمل وهيئاتها، والتجاوبَ بين الآيات ومقاصدِها بشهادة علم البيان وعلم المعاني، مع أنه نزل في عشرين سنة منجَّما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقاطعا بتلاؤم كأنه نزل دفعةً.. ولأسباب نزولٍ مختلفة متباينة مع كمال التساند، كأن السببَ واحدٌ.. وجاء جوابا لأسئلة مكرّرة متفاوتة، مع نهاية الامتزاج والاتحاد، كأن السؤال واحدٌ.. وجاء بيانا لحادثاتِ أحكامٍ متعددة متغايرة، مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة.. ونزل متضمنا لتنـزلات إلهية في أساليبَ تناسب أفهام المخاطَبين، لاسيما فهم المنـزَل عليه عليه السلام، بحالات في التلقي متنوعةٍ متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأن الحالةَ واحدة.. وجاء متكلما متوجها إلى أصنافِ مخاطبين متعددةٍ متباعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطَب واحد، بحيث يظن كلُ صنف كأنه المخاطَب بالأصالة.. ونزل مُهديا وموصلا لغاياتٍ إرشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد؛ تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي «التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة». فبسر امتلائه من التوحيد، الْتَأَمَ وامتزج وانتظم واتّحد.

ومن كان له عين في بصيرته، يرى في التنـزيل عينا ترى كلَّ الكون، كصحيفة مبصَرة واضحة.. وقد جاء مكررا ليقرِّر.. ومردّدا ليحقق قصصا وأحكاما. مع أنه لا يُمِلُّ تكرارُهُ،

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه الفقرة على ما جاء في القطرة الخامسة من الرشحة الرابعة عشرة وعلى الطبعة الأولى من الكتاب.
(٢) «اللوامع» -بيان موجز لإعجاز القرآن- من «الكلمات».

ولا يُزيل عَوْدُهُ ذَوْقَه ولا يُسئِمُ تردادُهُ. كلما كرّر حقّق وقرّر، بل ما كررته تحلو وتفوح أنفاسُ الرحمن منه «إن المسك ما كررته يتضوّع».[١] وكلما استعدتَه استَلذْتَه؛ إن كان لك ذوق سليم بقلب غير سقيم. والسر فيه: أنه قُوتٌ وغذاءٌ للقلوب، وقوة وشفاء للأرواح. والقوتُ لا يُمِلُّ تكرارُه.. فمألوفُه آنَسُ وألَذّ، خلافَ التفكّه الذي لذتُه في تجدده، وسآمتُه في تكرره.

وكما أن الإنسان في حياته المادية يحتاج في كل آنٍ إلى الهواء، وفي كل وقتٍ إلى الماء، وفي كل يوم إلى الغذاء، وفي كل أسبوع إلى الضياء، في الأكثر.. فتتكرر هذه الأمور لتكررّ الحاجات، فلا تكون تكرارا.. كذلك إن الإنسان بجهة حياته الروحانية أيضا؛ يحتاج إلى أنواع ما في القرآن؛ فإلى بعضٍ في كل دقيقة بل في آنٍ سيال كـ: «هو.. الله» فبه يتنفس الروحُ.. وإلى بعضٍ في كل ساعة كـ: «بسم الله».. وإلى بعض في كل وقت.. وإلى بعض في كل زمان متدرجا بدرجات الاحتياج، فيكرر القرآن على ما تقتضي حياةُ القلب تكرارَه.

مثلا: «بسم الله» كالهواء النسيمي يطهِّر الباطن داخلا ويثمر خارجا في نَفْسِك كَنَفَسِك في جسمك.. وأيضا في تكرار القرآن بعضَ الحادثات الجزئية إشارةٌ إلى أن الحادثة الجزئية تتضمن دستورا كليا، كما أشرتُ إلى بعضٍ من جمل قصة «موسى» عليه السلام التي هي أجدى من تفاريق العصا.[٢]

والحاصل: أنَّ القرآن الحكيم كتابُ ذكر، وكتابُ فكر، وكتاب حُكم، وكتاب علم، وكتاب حقيقة، وكتاب شريعة، وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين.

اعلم أن من أعاجيب فطرة الإنسان في وقت الغفلة، التباسَ أحكام اللطائف والحواس. كالمجنون الذي يصل نظرُه إلى شيء، فيمدّ يدَهُ إليه ظنّا منه -لمجاورة العين لليد- أن ما يحصل بتاك، يحصل بهذه أيضا. فالإنسان الغافل الذي لا يصل يدُ اقتداره إلى تنظيم أدنى جزء من أجزاء نفسه يتطاول بغروره وبوسعة خياله إلى الحكم والتحكم في أفعال الله في الآفاق..

وكذا من أعجب فطرة البشر أن أفراده، مع تقارب درجاتها في الصورة الجسمية، تتفاوت معنىً بدرجات، كما بين الذرة إلى الشمس إلى شمس الشموس خلافا لسائر الحيوانات؛

(١) وينسب إلى الإمام الشافعي: أعِد ذِكر نُعمانٍ لنا إنّ ذكرَه هو المسكُ ما كرّرته يتضوّع.
(٢) مثل يضرب فيمن نفعه أعمّ من غيره. (مجمع الأمثال ١/ ٣٧)

إذ هي مع تفاوت أفرادها في الصور الجسمية، كالسمك والطير، تتقارب في قيمة الروح؛ فكأن الإنسان الذي قام من «مخروط الكائنات» في حاق الوسط[١]، منه إلى الذرة ومنه إلى شمس الشموس سواء؛ إذ لم يُحدَّد قواه ولم تُقيّدْ، أمكَنَ له أن يتنـزل ويتسفل «بالأنانية» إلى أن يكون هو والذرة سواء؛ وكذا جاز له أن يتجاوز بالعبودية وبترك «أنا» ويتصاعدَ بإذنه تعالى إلى أن يصيرَ بفضل الله كشمس الشموس مثل محمد عليه الصلاة والسلام.

اعلم أن الأصل في الشيء البقاء، حتى إن الأمورَ السيالة السريعةَ الزوالِ -كالكلمات والتصورات- لها أيضا مواضعُ أُخر يتحصنون فيها من الزوال. لكن يتطورون في الصور، حتى كأن الأشياء موظفون لحفظ الشيء إما بتمامه كالنوراني، أو وجهٍ من الشيء، يسارعون بكمال الاهتمام لأخذه ووضعه في قلوبهم الشفافة.

والحكمة الجديدة تفطنت لهذا السر لكن بلا وضوح، فلهذا أخطأت بالإفراط فقالت: لا عدمَ مطلقا، بل تركُّبٌ وانحلال.[٢] كلا! بل تركيب بصُنعه تعالى.. وتحليل بإذنه.. وإيجادٌ وإعدام بأمره.. يَفعَلُ مَا يَشاءُ ويَحكُم مَا يُرِيدُ.

اعلم أيها السعيد الشقي! إن القبرَ بابٌ باطنه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب.. وأَوِدَّاؤك ومَن تحبُّه، أكثرهم -حتى كلُّهم- ساكنون خلف هذا الباب. أَلَمْ يأنِ لك أن تشتاق إليهم وإلى عالَمِهم.. فَتنظَّفْ، وإلّا استقذروك.

لو قيل لك مثلا: إن «الإمام الرباني أحمد الفاروقي» قُدس سره، ساكن الآن في الهند، لاقتحمتَ المهالك وتركتَ الأوطان لزيارته. مع أن تحت اسم أحمد فقط ألوفَ نجوم حول شمسِ مَن في الإنجيل اسمه «أحمد» وفي التوراة «أُحيد» وفي القرآن «محمد».. وتحت اسم محمّد ملايين.. وهكذا كلهم خلف باب القبر في رحمة الله ساكنون. فلابد أن يكون نصب عينك دائما «هذه الأساسات» وهي:

(١) إن كنتَ له تعالى كان لك كلُّ شيء، وإن لم تكن له كان عليك كلُّ شيء.

(٢) وكلُّ شيء بِقَدَرٍ، فارضَ بما آتاك تزد يُسْرا على يُسْرٍ، وإلّا زدْتَ مرضا على مرض.

---

(١) الحاق: الوسط، والكامل في الشيء.

(٢) انظر خاتمة اللمعة الثالثة والعشرين «الطبيعة»، ففيها التوضيح الشافي لهذه المسألة.

(٣) المُلكُ له، ويشتريه منك ليبقيَه لكَ.. ويزولُ مجانا لو بقي عندك.

(٤) وأنت فقيرٌ إليه من كُلِّ وجهٍ.

(٥) وأنت مقيّدٌ بجهات أربع مسدودة. تُساق إلى باب القبر المفتوح لك.

(٦) لا لذةَ للقلب حقيقةً فيما لا دوام فيه؛ تزول أنتَ، وتزول دنياك، وتزول دنيا الناس.

(٧) وستُنْزَع من الكائنات هذه الصورة. وسيُخلَع عليها أخرى. كالثانية، والدقيقة، والساعة، واليوم.. كأن الكائنات ساعة كبرى، كما ذكر في «النكتة الرابعة من الكلمة التاسعة».

(٨) فلا تهتم بما يبقى لك أثرا في الفاني ويفنى عنك في الباقي.

(٩) ولا تنظر من بُعدِك وخستك ومن عظمته وعزته تعالى -ونقطة نظرك هذه الحيثية- إلى تصرفاته وتنـزّلاته برحمته ونعمته؛ إذ حينئذٍ لا يليق إلّا التسبيحُ.

(١٠) ولا تنظر من حيثية قربه وإحاطته بعلمه ورحمته، ومن مخلوقيتك ودخولك في عنايته وكرمه، إلى صفات جلاله، لئلا تستهوي بك الأوهامُ والأهواءُ.

فسبحان من تقدستْ وتنـزهتْ عن أن تحيط به الأفكارُ والعقول، والحمد لله الذي وسعت رحمتهُ كلَّ شيء.. **لا إلهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويُميت بيدهِ الخَير وهوَ على كلِّ شيء قدير..**

اعلم أن مَن في قلبه حياةٌ إذا توجه إلى الكائنات يرى من عظائم الأمور ما لا يحيط به ويَعجز عن إدراكه ويتحيّر فيه، فللتشّفي من ألم الحيرة يشتاق إلى «سبحان الله» كتعطش العليل الغليل إلى الماء الزلال.. ويرى من لطائف النِعم واللذائذ ما يُجبرهُ على إظهار تلذذه وتزييد تلذذه واستيزاد لذته بالدوام برؤية الإنعام في النعمة، والمنعِم في الإنعام بعنوان الحمد، فيتنفس بـ«الحمد لله» كما يتنفس المظفر السالم الغانم.

ويرى من عجائب المخلوقات وغرائبها ما لا يطيق مقاييسُ عقله وزنَها ويضيق ذهنُه عن محاكمتها، وحسُّ تجسس الحقيقة يُشغله بها، فينادي: «الله أكبر» فيستريح. أي خالقها أعظمُ وأكبرُ فلا يثقُل عليه خلقُها وتدبيرها، كمثل من يرى القمرَ يدور حوله فيغشاه ألمُ

تعجب، أو خروجَ جبل بالزلزلة فيتدهش فيكبّر، فيلقى عن ظهره أثقالَ العَجب والتدهش على سفينة القدير القوي المتين جلّ جلاله..

اعلم أنك بسيئاتك لا تضر الله شيئا إنما تضر نفسك. مثلا: ليس في الخارج[١] شريكٌ حتى تقوّيه باعتقادك فتؤثّرَ في كمال ملكهِ تعالى، بل في ذهنك وفي عالمك فقط. فيخرّب بيتك على رأسك..

اعلم أنه من توكّل على الله فهو حسبه.. فقل: «حسبي الله ونعم الوكيل»:

فأولا: لأنه الكامل المطلق، والكمالُ محبوب لذاته وتُفدَى له الأرواحُ.

وثانيا: لأنه محبوب لذاته وهو المحبوب الحقيقي، والمحبة تقتضي الفداء.

وثالثا: لأنه الموجودُ الواجبُ.. وبقربه أنوارُ الوجود.. وببُعده ظلماتُ العَدَمات، وألمٌ أليم في أُفول آمال الروح الإنساني.

ورابعا: لأنه الملجأ والمنجا للروح الذي ضاقت عليه الأكوانُ، وآلمَته مزخرفات الدنيا، وعادَتْهُ الكائناتُ وأُنقض ظهرُه تحت الشفقة اليتمية والمرحمة المأتمية..

وخامسا: لأنه الباقي الذي به البقاء، وبدونه الزوال، وكلُّ العذاب في الزوال. وبدونه يتراكم على الروح آلامٌ بعدد الموجودات، وبه يتظاهر على المتوكل أنوارٌ بعددها..

وسادسا: لأنه المالك يحمل عنك مُلكه الذي عندك، إذ لا تُطيق حملَه، فبتوهم التملّك تقعُ في عذاب أليم أليم. فلبقائه ودوام إنعامه لا تغتمَّ بفناء ما في يدك، كما لا تحزن الحَباباتُ المتشمسة بالتحول والانحلال. فلإظهار تجددات تجليات الشمس يَفدي الحَبابُ صورتَه بكمال النشاط بل يموت وهو يضحك. وكما لا تغتم الثمرات بفراق الشجرة ولا النواة بانحلال الثمرة ولا أنت بزوالها إذ تقولون[٢] فلتحيا الشجرة إذ في حياتها موتُنا حياةٌ.

يا هذا! أنت ثمرة إنعاماته بل مجسَّمُ إنعاماته.

وسابعا: لأنه الغني المغني وبيده مقاليد كل شيء، إذا صرتَ عبدا خالصا له، ثم نظرت

(١) أي في الواقع والحقيقة (ت: ١١٨).
(٢) أنت والنواة والثمرة.

إلى الكائنات تراها مُلكَ مالكك وحِشمته وحواشيه فتتنـزّه بها، كأنها مُلكٌ لك بل أعلى، بلا كلفة ولا ألم زوال.. إذ الخادمُ الخالص للمَلِك والفاني في محبته يفتخر بكل ما للمَلِك.

وثامنا: لأنه ربّ الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتّقين وكلّهم مسعودون في رحمته، فعِلْمك بسعادتهم يعطيك في شقاوتك سعادةً ولذةً إن كنتَ ذا قلب.

اعلم أنه لا يليق بك إن كان لك عقلٌ سليم أن تهتم وتغتم وتغضبَ وتصخب لما يأتيك أو يفوتُك من أمور الدنيا، لأن الدنيا تزول لاسيما دنياك، ولاسيما أنت؛ إذ لست بأبديّ هنا، ولستَ من حديدٍ ولا شجر حتى يطولَ بقاؤك، بل من لحمٍ متجدّد ودمٍ متردد وروابط في غاية رقة تتأثر بأدنى شيء. وقد تنقطع تلك، وينجمد هذا، ويتفسخ ذلك باختلال ذرتين، ولاسيما تَنفسَ فيك صبحُ المشيب وكَفّنَ نصفَ رأسك.. ولاسيما تضيّفَتْ بل توطنت فيك العللُ التي هي طليعة الموت، والأمراضُ التي هي مخالبُ هادم اللذات، مع أن أمامك عمرا أبديا ألقيتَه خلفك ظهريا، إنما ترتّبت راحته على سعيك هناك، مع أنك في حرصك وشَرهَك كمَن هو خالد وخَلُدَت له الدنيا خاصة.. فانتبه قبل أن تُنبّهك سكراتُ الموت..

اعلم أنك إذا توجهتَ إليه تعالى بعنوان المعلوم والمعروف يصير لك مجهولا ومنكرا، إذ هذه المعلومية والمعروفية نتيجةُ الأُلفة العُرفية والتسامع التقليدي، والتداول الاصطلاحي، وهي لا تغني من الحقيقة شيئا؛ بل ما يتراءى لك فيها مقيد لا يتحمل الصفات المطلقة. بل إنما هو نوع عنوان لملاحظة الذات الأقدس..

وأما إذا توجهتَ إليه بعنوان الموجود المجهول، تكشّف لك عن أشعة المعروفية.. وعن بُروقِ شروقِ موصوفٍ لا تَثقل ولا تتعاظم عليه هذه الصفاتُ المطلقة المحيطة المتجلية في الكائنات، كما لا يثقل عليك حملُ قميصك من الحرير الرقيق ومنديلِك من الخز المنمنم.[1]

اعلم كفاك فخرا بلا نهاية -لا كفخرك بكمال كبرائك- أن يكون لك مالكٌ قدير على كل شيء. ومن اقتداره -وهو هو الذي السماواتُ مطويات بيمينه، والأرضُ قبضته يوم القيامة- أنه يربيك بشفقةٍ أتمّ من شفقة أبويك، وأنت أنت: كقطرة في بحر، والبحر كنقطةٍ في صحراء، والصحراء كذرة بين عظائم مصنوعاته؛ إذ هو نور الأنوار العالِمُ بالأسرار.. وليس

(١) الحرير المنقش.

من عظمة السلطان الإنساني عدم اشتغاله بتفاصيل جزئيات الأمور، بل من عَجزه وعدم اقتداره.. ومن عظمة سلطان الأزل أنه كما يكتب بقلم صُنعه على صحيفة السماء بمداد النجوم الدراري آياتِ ألوُهيته، كذلك يكتب بذلك القلم على صحيفة سواد العين بمداد الجواهر الفردة آياتِ ربوبيته...

فسبحان مَن هذه الأجرامُ العلوية والكواكب الدريَّة نيّراتُ براهين أُلُوهيته وعظمته، وهذه المصابيح المزينة والنجوم المتبسمة شعاعاتُ شواهد ربوبيته وعزته جلّ جلاله.

اعلم أن الأسماء الحسنى كلٌ منها يتضمن الكلَّ إجمالا، كتضمن الضياء للألوان السبعة.. وكذا كلٌّ منها دليل على كلّ منها، ونتيجةٌ لكلٍ منها، بينها تعاكسٌ كالمرايا. فيمكن ذكرُها كالقياس الموصولِ النتائجِ متسلسلا، وكالنتيجة المترتبةِ الدلائلِ. إلا أن الاسمَ الأعظم الواحدَ يتضمن الكلَّ فوق هذا التضمن العام. فيمكن للبعض الوصول إلى نور الاسم الأعظم بغيره من الأسماء الحسنى. فيتفاوت الاسم الأعظمُ بالنظر إلى الواصلين. والله أعلم بالصواب.

تضرّع و(نِياز)

إلهي لازمٌ عليّ أن لا أُبالي ولو فات مني حياةُ الدارين وعادَتْني الكائناتُ بتمامها؛ إذ أنت: «ربي وخالقي وإلهي».. إذ أنا مخلوقُك، ومصنوعُك، لي جهةُ تعلّقٍ وانتساب، مع قطع نهايةِ عصياني وغايةِ بُعدي لسائر روابط الكرامة. فأتضرع بلسانِ مخلوقيتي:

يا خالقي! يا ربي! يا رازقي! يا مالكي! يا مصوري! يا إلهي!

أسألك بأسمائك الحسنى واسمك الأعظم، وبفرقانك الحكيم وبحبيبك الأكرم، وبكلامك القديم، وبعرشك الأعظم، وبألفِ ألفِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ارحمني يا الله، يا رحمنُ، يا حنّانُ، يا منّانُ، يا ديّانُ.. اغفر لي يا غفّارُ، يا ستّارُ، يا توّابُ، يا وهّابُ.. أعفُ عني يا ودودُ، يا رؤوفُ، يا عفوّ، يا غفورُ.. اُلطف بي يا لطيفُ، يا خبيرُ، يا سميعُ، يا بصيرُ.. وتجاوز عني يا حليمُ، يا عليمُ، يا كريمُ، يا رحيمُ.. ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ..﴾ يا ربُ، يا صمدُ، يا هادي.. جُد عليَّ بفضلِكَ يا بديعُ، يا باقي، يا عدلُ، يا هو.. أحيِ قلبي وقبري بنور الإيمان والقرآن يا نورُ، يا حقُ، يا حيُّ، يا قيّومُ، يا مالكَ الملكِ يا ذا الجلال والإكرام، يا أوّلُ، يا آخرُ، يا ظاهرُ، يا باطنُ، يا قوّيُ، يا قادرُ، يا مولايَ، يا غافرُ، يا أرحمَ الراحمين.. أسألك باسمك الأعظم في القرآن.. وبمحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو سِرُّكَ الأعظم في كتاب العالم أن تفتحَ من هذه الأسماء الحسنى كواتٍ مُفيضةً لأنوار الاسم الأعظم إلى قلبي في قالبي، وإلى روحي في قبري.. فتصير هذه الصحيفة كسقف قبري، وهذه الأسماء ككوات تُفيضُ أشعة شمسِ الحقيقة إلى روحي.إلهي أتمنى أن يكون لي لسانٌ أبدي ينادي بهذه الأسماء إلى قيام الساعة، فأقبلْ هذه النقوش الباقية بعدي نائبا عن لساني الزائل.

اَللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيدِنا محمدٍ صلاةً تُنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميعَ الحاجات، وتُطهّرنا بها من جميع السيئاتِ، وتغفرُ لنا بها جميع الذنوب والخطيئات..

يا الله، يا مجيبَ الدعوات! اجعل لي في مدة حياتي وبعد مماتي، في كل آن أضعافَ أضعاف ذلك.. ألفَ ألفِ صلاةٍ وسلامٍ مضروبَين في مثل ذلك وأمثال أمثال ذلك، على سيدنا محمد وعلى آلِهِ وأصحابه وأنصاره وأتباعه.. واجعل كل صلاةٍ من كل ذلك تزيد على أنفاسيَ العاصية في مدة عمري.. واغفر لي وارحمني بكلِّ صلاةٍ منها برحمتك يا أرحمَ الراحمين.. آمين..

ذيل الحبة

يا ناظر!

أظنني أحفر بآثاري المشوّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ مني.

فيا ليت شعري هل كَشَفتُ..

أو سينكشفُ..

أو أنا وسيلة لتسهيل الطريق لكشّافه الآتي.

لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله..

حَسْبُنا الله ونِعمَ الوَكيل.

اَللَّهُمَّ لا تُخرِجنا مِنَ الدُّنيا إلّا مَعَ الشَّهادة والإيمان.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لله عَلَى نِعْمَةِ الإيمَانِ وَالإسْلَامِ بِعَدَدِ قَطَرَاتِ ٱلأمْطَارِ، وَأمْوَاجِ البِحَارِ، وَثَمَرَاتِ ٱلأشْجَارِ، وَنُقُوشِ الأزْهَارِ، وَنَغَمَاتِ الأطْيَارِ، وَلَمَعَاتِ ٱلأنْوَارِ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلى كُلٍّ مِنْ نِعَمِهِ فِي ٱلأطْوَارِ، بِعَدَدِ كُلِّ نِعَمِهِ فِي الأدْوَارِ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلى سَيِّدِ ٱلأبْرَارِ وَٱلأخْيَارِ مُحَمَّدٍ المُخْتَارِ وَعَلى آلِهِ الأطْهَارِ وَأَصْحَابِهِ نُجُومِ الْهِدَايَةِ ذَوِى ٱلأنْوَارِ مَادَامَ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

اعلم أن المسافر كما يُصادف في سيره منازلَ، لكلِّ منـزلٍ شرائطُ تخصّهُ.. كذلك للذاهب في طريق الله مقامات ومراتب وحالاتٌ وحُجبٌ وأطوار، لكل واحدٍ طورٌ يَخصهُ؛ مَن خلَطَ غلطَ. كمثل مَن نزل في قرية اصطبلا سمع فيه صهيل الفرس، ثم في بلدٍ نزل قصرا فسمع تَرَنُّمَ العندليب، فتوهم الترنمَ صهيلا، وأراد أن يستمع منه صهيل الفرس مغالطا لنفسه.

اعلم أن مما زيّن في عينك هذه الحياةَ تلألُؤ تماثيلِ نجوم الهداية من أماثل الأسلاف في مرآة الدنيا،[1] بسرّ: أن المستقبل مرآة الماضي، والماضي يلتحق بالبرزخ -بمعناه- ويُودع صورتَه ودنياه في مرآة الاستقبال والتاريخِ وأذهانِ الناس. مثلك في حب الحياة بحبهم كمثل مَن صادف في وجه طريقه مرآةً عظيمة فرأى فيها تماثيل رفقائه وأحبابه الذاهبين إلى الشرق (مغرّبين في المرآة) فيتوحش من الشرق فيهرول مغربا. ولو كُشِفَ عن وجهك غطاءُ الغفلة لرأيتَك تسرعُ في بيداءَ خاليةٍ يابسة لسراب وعذاب، لا لِعَذْبٍ وشراب..

اعلم أن من عظيم علو القرآن وأصدق دليل حقانيته: محافَظَتَه لكلِّ لوازمات التوحيد بمراتبه.. ومراعاتَهُ لموازنة الحقائق العالية الإلهية.. واشتماله على مقتضيات الأسماء الحسنى، والتناسب بينها.. وجمعَه لشؤونات الربوبية والألوهية بكمال الموازنة. وهذه خاصيّةٌ ما وُجدَت قطُّ في أثر البشر وفي نتائج أفكار أعاظم الإنسان من الأولياء المارين إلى الملكوت، والإشراقيين الذاهبين إلى بواطن الأمور، والروحانيين النافذين إلى عالم الغيب.

(١) أي إن الصور الجميلة والنماذج الطيبة لأولئك الأئمة العظام تحبب لك هذه الدنيا (ت: ١٢٣).

فإنهم لا يحيطون بالحقيقة المطلقة بأنظارهم المقيدة، بل إنما يشاهدون طَرفا منها فيتشبثون به وينحبسون عليه ويتصرفون فيه بالإفراط والتفريط.. فتختل الموازنة ويزول التناسبُ.

مَثلهم كمثل غوّاصين في البحر لكشف كنزٍ متزين ممتلئ بما لا يحصى من أصناف الجواهر، فبعضٌ صادف يدُه ألماسا مستطيلا مثلا، فيحكمُ بأن الكنزَ عبارةٌ عن ألماسٍ طويل، وإذا سمع من رفقائه وجودَ سائر الجواهر فيه يتخيلها فصوصَ ألماسه، وصادف آخرُ ياقوتا كرويا وآخر كهربا[1] مربعا وهكذا. وكل واحد يعتقد مشهودَه جرثومَ الكنز ومعظمه، ويزعم مسموعَه زوائدَه وتفرعاتِه، فتختل الموازنة ويزول التناسب، فيضطرون للتأويل والتصلف والتكلف حتى قد ينجرّون إلى الإنكار والتعطيل. ومَن تأمل في آثار الإشراقيين والمتصوفين المعتمدين على مشهوداتهم بلا توزين بميزان السُّنة لم يتردد فيما قلت.

ثم انظر إلى القرآن فإنه أيضا غواص لكن له عينٌ مفتوحة تحيط بالكنز وما فيه، فيصف الكنزَ كما هو عليه، بتناسب وانتظام واطراد.

مثلا: يشتمل على ما تقتضيه عظمةُ مَن: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر:٦٧).. وكما قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء:١٠٤) مع أنه: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (آل عمران:٦) ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (هود:٥٦) و ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (الأنعام:٧٣) مع أنه: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩٦) ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ (الروم:٥٠) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ (النحل:٦٨) ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (الأعراف:٥٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ (الملك:١٩) ويكتب صحيفة السماء بنجومها وشموسها ككتابة صحيفةِ جناح النحلة بحجيراته وذراته ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة:٢٥٥) مع أنه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣) وهكذا.. وقس عليها.. وما يشاهد في نوع البشر من أنواع الفرق الضالة، إنما نشأت من قصور أئمتهم المارين إلى الباطن، المعتمدين على مشهوداتهم، الراجعين من أثناء الطريق، المصداقين لما قيل: «حفظت شيئا وغابت عنك أشياء».[2]

(١) حجر كريم مشهور، وهو صمغ شجرة إذا حكّ صار يجذب التبن وغيره.
(٢) لأبي نواس: فَقُل لِمَن يَدَّعي في العِلمِ فَلسَفَةً   حَفِظتَ شَيئا وَغابَت عَنكَ أشياءُ.

اعلم أن توصيفَ السماء بالدنيا في: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ (فصلت:١٢) ومقابلة الدنيا للآخرة، تشير إلى أن السماوات الست الأُخر ناظرةٌ إلى عوالم أخرى، من البرزخ إلى الجنة، والمشهودةُ بنجومها وطبقاتها سماء الدنيا. والله أعلم.

اعلم أنه جِيءَ بك من العدمِ إلى الوجود، ثم رقّاك موجِدُك من أدنى أطوارِ الوجود حتى أوصَلكَ بإنعامه إلى صورة الإنسان المسلم. فما تخلل بينك وبين مبدإ حركتك من المنازل الكثيرة المتعددة كلٌّ منها نعمةٌ عليك، وفيك ثمرةٌ وصبغةٌ من كلٍّ واحدٍ. فصرتَ كقلادةٍ منظّمة، وعنقودٍ نضيدٍ بحبات النِعَم، وسنبلةٍ منضدة من الرأس إلى القدم، كأنك فهرستة لطبقات نِعَمه تعالى؛ ولأن الوجودَ يقتضي علّةً، والعدمَ لا يقتضي.. كما تقرر في العقول.. تُسأل ويُسألُ عنك في كل منزل في مراتب الوجود من الذرة إلى العدم: كيف وصلت إلى هذه النعمة؟ وبِمَ استحققتَها وبـ«هل شكرتَ؟» ولا يَسأل من له مسكةُ عقلٍ عن حَجَر لماذا ما صار شجرا، وعن شجرةٍ لماذا ما صارت إنسانا...

فيا أيها السعيد المسكين المغرور! أنت نقطةٌ في وسط سلسلةِ الموجودات، فعليك نِعَمٌ بعددِ ما تحتَك إلى العدم الصرف، وأنت مسؤولٌ عن شُكرها. وأما ما فوقك فليس لك ولا لأحدٍ أن يسأل لماذا ما وصلتَ إلى أعلى مما أنت فيه، كما لا حقَّ للذرة أن تقول: «أي واه» لِمَ ما صرتُ شمسا، ولا للنحلةِ أن تقول لصانعها: هلا خلقتَني نخلةً مثمرة؟.. إذ ما تحتك وقوعاتٌ، وما فَوقك عدمات إمكانات شبيهة الممتنعات..

اعلم يا أنا! أن مما أهلككَ وأهواكَ وأوهمك وأهذاك وأذلك وأضلك؛ أنك لا تعطي كلَّ ذي حقٍ مقدارَ حقّه، وكل ذي حِمل حملَهُ بوسعه، بل تَفرِطُ وتُفرِّطُ فتحمِّل على نفرٍ ممثلٍ للجيش كلّ لوازمات الجيش العَرَمْرم، وتتحرى في تمثال الشمس في عين القطرة أو وجهِ الزهرة كلّ لوازمات عظمة شجرة الشمس المثمرة بالسيارات. نعم، القطرة والزهرة تصفان ولا تتصفان.

اعلم أن المُلكَ له، وأمانتُه، واشتراه، لا فائدة في «المرق». لا خير فيما لا يبقى. وإياك ونقضَ العهد معه. وعليك بالموت، والموتُ المنجرّ إلى الحياة أولى من هذه الحياة المنقلبة إلى الموت.

اعلم[1] أن ما في المرآة كما أنه «ليس عينا ولا غيرا» فهو «عين وغيرٌ»، فمن حيث إنه مظروفُ ملكوتِ المرآة «عينٌ» فأحكامُه أحكامُ الأصل. ومن حيث إنه صفةُ مُلكِ المرآة المتلألئة به «غيرٌ»، فله أوصافٌ ناظرة إلى المرآة، لا إلى الأصل فقط. ومن الحيثيتين «لا عينٌ ولا غيرٌ». كما أن الشيء في مرآة الذهن –من وجهِ أنه مظروفه– معلومٌ، ومن جهةِ أنه صفته علمٌ مع تغاير لوازمهما...

اعلم أنه لا تزاحم بين العوالم المختلفة في نوع الوجود. فإن شئتَ فادخل في ليلة مظلمة منـزلا منوّرا بالمصابيح وأربع جدرانه من الزجاجة التي هي نوع مشكاةٍ للعالم المثالي؛

فأولا: ترى فيها –باتصالِ الحقيقي بالمثالي– منازلَ عديدةً متنورة عمّت البلد كأنه لا ظلمة بمقدار مد النظر..

وثانيا: تراك تتصرف بالتغيير والتبديل بكمال السهولة في تلك المنازل..

وثالثا: ترى السراج الحقيقي أقربَ إلى أبعد السُرُج المثالية من لصيقهِ، بل من نفسه لأنه قيّومه

ورابعا: ترى أن حبةً من هذا الوجود تقتدر أن تقل وتحمل عالما من ذلك الوجود.

فهذه الأحكام الأربعة تجري في موادَّ كثيرةٍ حتى بين الواجب وعالمِ الممكنات التي وجوداتها ظلال أنوار الواجب، فوجودها في مرتبة الوهم، لكن استقرّ وثَبتَ –بأمره تعالى له– وجودٌ خارجي، فليس خارجيا حقيقة بالذات ولا وَهميا محضا ولا ظليا زائلا بل له وجودٌ بإيجاد الواجب الوجود. فتأمل..

اعلم أنه كما أنه محال أن لا يكون لهذا المُلك المُعتَنى به مالكٌ، كذلك محالٌ أن لا يتعرفَ ذلك المالكُ إلى الإنسان الذي يدرك درجاتِ محاسنِ الملك الدالة على كمالات المالك، مع أن ذلك الإنسان كالخليفة في مهده الممهّد له يتصرف فيه كيف يشاء؛ بل في السقف المحفوظ السماوي أيضا بعقله. ومع ذلك إن الإنسان أشرفُ المخلوقات بشهادة تصرفاته العجيبة الخارقة مع صغره وضعفه، وإنه أوسعُ الأسباب اختيارا بالبداهة. فبالضرورة يرسل المالك من يعرّف المالكَ إلى مماليكه الغافلين عنه ويخبرهم ما يَرضى به ويطلبه منهم ذلك المالك جل جلاله..

---

(١) تفصيل هذه المسألة في «الكلمة السادسة عشرة».

اعلم أن كلَّ الحواس حتى الوهم والفرض والخيال يتفقون في النهاية على الحق ويَلتَجِئون إليه، ولا يبقى عندهم للباطل إمكان. فيقرون بأن الكائنات لا يمكن أن تكون إلّا على ما أخبَر به القرآن.. هكذا شاهدتُ وعقلي معي.

اعلم أنه كما لا تزاحم ولا تصادم بين عالم الضياء وعالم الحرارة وعالم الهواء وعالم الكهرباء (والألكتريقية) وعالم الجاذبة إلى عالم الأثير والمثال والبرزخ. تجتمع الكلُّ بلا اختلاط معك في مكانك بلا تشكٍّ من أحدٍ منكم، من مزاحمةِ أخيه.. فهكذا يمكن أن يجتمعَ كثيرٌ من أنواع العوالم الغيبية الواسعة في عالم أرضنا الضيقة. وكما لا يعوقنا الهواءُ من السير ولا يمنعنا الماءُ من الذهاب ولا يمنع الزجاجُ مرورَ الضياء ولا يعوقُ الكثيف أيضا نفوذَ شعاع «رونتكن» ونورِ العقل وروح المَلَك، ولا يمنع الحديدُ سيلانَ الحرارة وجريان «الألكتريق» ولا يعوق شيءٌ سريانَ الجاذبة وجولانَ الروح وخدّامه وسيرانَ نور العقل وآلاتِه.. كذلك هذا العالَمُ الكثيف لا يمنع ولا يعوق الروحانياتِ من الدوران، والجنَّ من الجولان، والشيطانَ من الجريان، والمَلَك من السيران..

اعلم أن النور والنوراني كالعين والسراج والشمس، يتساوى لها الجزئي والنوع والجزء والكل والواحد والأُلوف. فانظر إلى الشمس كيف انصبغت بتماثيلها السياراتُ والبحورُ والحياضُ والحبابات والقطَرات والرشاشات (والشَّبنَمات) والذرات الزجاجية دفعةً، بالسهولة والمساواةِ بين السيارات والذرات.

كذلك - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - تصرفاتُ شمسِ الأزل نورِ الأنوار في كتاب الكائنات هكذا.. يكتُب كلَّ أبوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجمله وحروفه دفعةً بلا كُلفة كما قال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨).. آمَنّا..

اعلم أن من تأمل في ذرات الأشياء وسَرَيانها إلى حدود، ثم توقفِها عندها لفوائدَ وثمراتٍ، تيقّن أن عند الحدود من يأمر الذرات بـ: قفي وانثني! كما يأمر القالبُ الذهبَ الذائبَ بلسان حديد، وينهى بـ: لا تَسِل واستقر! فيما عَيَّنْتُه لك معاطفي وتلافيفي المصنوعة لحِكم.

وآمرُ الذرات ما هو إلّا علمٌ محيطٌ يتجلى ذلك العلمُ قدَرا، فينعكس القدَرُ مِقدارا فينطبع المقدارُ قالبا..

............(١)

اعلم أن القرآن كما يفسّر بعضُه بعضا، كذلك إن كتاب العالم يفسِّر بعضُ آياته بعضها. فكما أن العالَم المادي يحتاج احتياجا حقيقيا إلى شمس تفيض منها عليه أنوارُ نعمته تعالى، كذلك العالمُ المعنوي يحتاج أيضا إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى. فنبوةُ أحمد عليه الصلاة والسلام في الظهور والوضوح والقطعية بدرجة الشمس في وسط النهار، وهل يحتاج النهارُ إلى دليل؟..

اعلم أن الثمرات المترتبةَ على وجود الحي لا تنظر إلى الحي وبقائه ونفعِه وكمالِه فقط، بل إليه بحصةٍ ودرجة، وإلى المحيي جل جلاله بدرجات غير محصورة.. فحصةُ الحي قد لا تحصل إلا بزمان مديد، لكن ما ينظُرُ إلى المحيي قد يحصل في آنٍ سيال، كإظهار الحي -بمعكسيته ومظهريته لتجليات الأسماء الحسنى- حمدَ خالقهِ بتوصيفه بأوصافِ كماله وجماله وجلاله بلسان الحال..

اعلم أن فردَ الإنسان كنوع سائر الأنواع، بسر: أن فرد الإنسان له ماضٍ ومستقبل يجتمع في الشخص -معنىً- كلُّ مَن مات منه من أفراد نفسه؛ إذ في كل سنةٍ يموت منه فردان صورةً ويورثان فيه معنَيَيْهما من الآلام والآثام والآمال وغيرها، فكأنه فردٌ كلي.. وإحاطةُ فكره وعقله ووُسعة قلبه وغيرها تعطيه نوعَ كليةٍ.. وكونَ فرده كنوعه في الخلافة والمركزية لعالمٍ خاص كالعالم العام.. والعلاقةُ الشعورية مع أجزاء العالم وتصرفُه في كثير من أنواع النباتي والحيواني والمعدني تحويلا وتغييرا خلافا لسائر الحيوانات وغيرها، أيضا تعطي له نوعَ كليةٍ، كأنَّ كلَّ فردٍ نوعٌ منحصر في الشخص.. ودعاء المؤمن لعموم أهل السماوات والأرض يشير إلى أن الشخص يصير بالإيمان كعالَم، أو مركزِه. فما تجري في نوع الحيوان من القيامات المكررة النوعية المشهودة في كل سنة -فإن شئت فَانظُر إلى آثارِ رحمة الله في كل سنة في الثمرات

(١) في (ط١): اعلم أن الأسماء الحسنى أبواب متفاوتة، ووجوه مختلفة، ناظرة إلى الذات، وقد تتجلى أسماء متقابلة في شيء واحد، كالمعطي والمانع والضار والنافع، فيدل على أنه كما يعطي لهذا قصدا، يمنع ذلك الشيء من ذا بإرادة، ويضر ذاك بما ينفع هذا. كلاهما مرادان له تعالى، ويتحدس من هنا: أن من اتصف بحقيقة اسمٍ من الأسماء يتصف بجميعها.

المتجددةِ الأمثالِ كأنها أعيانُها، وإلى حشر أنواع الهوام والحشرات بكمال سهولة من القيامة- تجري بالحدس القطعي في كل فرد من أفراد الإنسان، فيدل كتاب العالَم في هذه الآيات التكوينية على قيام القيامة الكبرى لأبناء البشر، كما يدل القرآن عليه بالآيات التنـزيلية.. فالدلائل العقلية على القيامة ذكرتُها في «إشارات الإعجاز»[١] وفي الباب الثالث في «نقطة»[٢] فراجعها إن شئت، فإن فيهما ما يطرد عنك الوساوسَ ويطيّر عنك الأوهام..

اعلم أنك إذا استمعت القرآن فألبس لكلّ نغمةٍ -من نغماتهِ المتطوّرة على الحُجُب، والمتنوعة في المراتب الإرشادية، والمنصبغة بحسيات الوسائط، من جبرائيل عليه السلام إلى من تسمع منه- ما يناسبها.

فلك أن تَمُرّ بسمعك من القارئ في مجلسك إلى الاستماع من النبيِّ ﷺ الذي يقرؤه في ذروة شاهق النبوة في مجلس الأرض على أبنائها من بني آدم وغيرهم.

ولك أيضا أن تستمعَ من جبرائيل وهو يخاطب النبيَّ في الأفق الأعلى عليهما الصلاة والسلام.

ولك أن تستمع من خلف سبعين ألف حجابٍ من المتكلم الأزلي، وهو يتكلم مع النبي في قاب قوسين أو أدنى. فألبسْ إن استطعتَ لكلٍّ ما يليقُ به!

اعلم أن ما يتعلق بك منك من الشعور والعلم، إنما هو بدرجةِ ما يرجع إليك منك، بسر عدم الإسراف، ومناسبةِ السبب للمسبَّب، والقوةِ للعمل. وما يرجع إليك بالنسبة إلى ما يرجع إلى مَن خَلَقَك كنسبة شعرةٍ إلى حبل، وخيط إلى ثوب. فنسبةُ علمِك وشعورك المتعلقين بك بالنسبة إلى علمِه وبصره المتعلقين بك كنسبة «تنور الذباب»[٣] الذي يبرق منه النور كنُجيمة بتلمعه في النهار تحت ضياء الشمس المحيط به. وأنت في ظلمات الغفلة، وليل الطبيعة ترى لمعتَك نجما ثاقبا..

اعلم أن فيما بين أفعال الله تناسبا، وبين آثاره تشابها، وبين أسمائه تعاكسا، وبين أوصافه

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:٤) و ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة:٢٥).
(٢) وقد وسّع الأستاذ المؤلف كلا من الباب الثاني والباب الثالث من هذه الرسالة فأصبحا «الكلمة التاسعة والعشرين» لذا لم يدرجا ضمن رسالة «نقطة من نور معرفة الله» في هذا الكتاب.
(٣) المقصود: اليراعة.

تداخلا، وبين شؤوناته تمازجا. إلّا أن لكلٍ طورا يخصُّه، يستتبع ما سواه في طوره. فلا يُتوجّه قصدا في بيته ودائرة حُكمه إلى غيره، ولا يُطلَب لوازمُ الغير منه، لأن لازم اللازم ليس بلازم إلّا بقصدٍ جديد. إذ التابع لا يُستتبع، كما أن الحرف التبعي لا يُحكم عليه.

فإذا نظرت من آثاره إلى الجامدات فتوجّه قصدا إلى القُدرة والعظمة، ويتراءى لك تجليات سائر الأسماء استطرادا وتَبَعيا.

فإذا نظرتَ إلى الحيوانات الغير الناطقة فألبس لها طورها، فهكذا ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨) ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢).

اعلم أن «**لَا حَولَ ولَا قُوّةَ إلّا بالله**» ينظر إلى مراتب أطوار الإنسان وأدوار وجوده من الذرات إلى الوجود الحي، معدنا جامدا، ونباتا ناميا، وحيوانا حساسا، وإنسانا مؤمنا، ففي كل مقام من تلك المنازل، ولكل لطيفة من لطائفه آلامٌ وآمال:

فلا حولَ عن العدم ولا قوةَ على الوجود إلّا بالله..
لا حول عن الزوال ولا قوةَ على البقاء إلّا بالله..
لا حول عن المضار ولا قوةَ على المنافع إلّا بالله..
لا حول عن المصائب ولا قوةَ على المطالب إلّا بالله..
لا حول عن المعاصي ولا قوةَ على الطاعات إلّا بالله..
لا حول عن النقم ولا قوةَ على النعم إلّا بالله..
لا حول عن المساوئ ولا قوةَ على المحاسن إلّا بالله..
لا حول عن الآلام ولا قوةَ على الآمال إلّا بالله..
لا حول عن الظلمات الهائلة ولا قوة على الأنوار المتلألئة إلّا بالله العلي العظيم.

اعلم[1] من توكل على الله فهو حسبه:

(١) إن إيضاح هذا القسم الذي يخص «**حسبنا الله**» في اللمعة التاسعة والعشرين العربية، وفي الشعاع الرابع والرجاء الرابع عشر والخامس عشر من اللمعة السادسة والعشرين، رسالة الشيوخ (المؤلف).

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأنه مالكُنا ومالكُ الكل، فالكلُّ كمُلكِنا إن كنّا له تعالى.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأنه الكامل المطلق والكمال محبوب لذاته، من شأنه أن يُفدَى له الوجود.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأنه الجليل الجميل ذو الكمال والجلال والجمال المحبوبُ لذاته، فلِشوق تجديد تجليات جماله نموتُ ضاحكين ونحيا مسرورين.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأنه الواجبُ الوجود الموجِد لكل موجود، فعلمُنا بوجوب وجوده يعطينا كلَّ الوجود، وبعدم العلم يصير في يدنا نقطةُ وجود يتحامل عليها أعدامٌ هو ملء الدنيا.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ : لأنه القديم الأبدي الدائم الباقي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (القصص:٨٨).

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأن الدنيا فانية والحياة زائلة.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأن بدونه يصير كلُّ لذائذ الدنيا منغّصةً بآلام هائلة، وبالتوجه إليه والارتباط برحمته لا تزيد اللذائذَ الزائلة إلا لذةُ تجدّد الأمثال خالصة عن آلام الزوال.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأن به أنوارَ الوجود وبدونه ظلمات الأعدام الهائلة.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ لأنه إن عرفناه وشكونا إليه وأرضيناه كفانا كلَّ حاجاتنا إلى أنواع الكائنات، وأما إذا توجّهنا إلى الأسباب -التي حاجاتُنا عندها في النظر الظاهري- وشكونا إليها فمع أنها عميٌ صمٌ لا تسمعُنا ولا ترانا، تتشوش علينا الأمورُ وتتشتت بنا الطرقُ، كمثل مَن شكى إلى سلطان فأنفَذَ في آن، ومَن شكى إلى كلِّ أهل البلد فردا فردا ليتفقوا على إمداده. ولو اتفقوا ما اتفقوا إلا في زمان طويل وتكلفٍ عظيم!!

اعلم أن من لطائف إعجاز القرآن ومن دلائل أنه رحمةٌ عامة للكافة: أنه كما أن لكلِ أحد من العالم عالَما يخُصُّه، كذلك لكلٍّ باعتبار مَشْرَبه من القرآن قرآنٌ يخُصُّه ويربّيه ويُداويه.

ومن مزايا لطف إرشاده: أن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينها، يتيسرُ لكل أحدٍ أن يأخذَ من السُّوَر المتعددة آياتٍ متفرقةً لهدايته وشفائه، كما أخذَها عمومُ أهل المشارب وأهل العلوم؛ فبينما تراها أشتاتا باعتبار المنازل والنـزول، إذن تراها قد صارت كقلادةٍ منظمةٍ ائتلفت واتصلت مع أخواتها الجديدة. فلا بالفصل من الأصل تنتقص، ولا بالوَصْل بالآيات الأُخر تَستوحش. فهذا السر يشير إلى أن لأكثر الآيات الفرقانية مع سائر الآيات مناسباتٍ دقيقةٍ يجوز ذكرها معها واتصالُها بها.

فكما أن سورة «الإخلاص» اشتملت على ثلاثين سورة بضمّ جُمَلِها بعض إلى بعض دليلا ونتيجةً، كما ذكر في «اللوامع»[1] كذلك القرآن الكلّي الجزئي والنوع المنحصر في الشخص يشتمل بجامعية الآيات للمعاني المتعددة ومناسبة الكل للكل يحتوي على ألوفِ ألوفِ قرآنٍ في نفس القرآن. فلكلٍّ ذي حقيقة فيه كتابٌ يخصُّه ومن اتبعه.

اَللّٰهُمَّ يا منـزلَ القرآن بحقّ القرآن اجعلْ القرآنَ مونِسا لي في حياتي وبعد مماتي ونورا في قلبي وقبري..

لا إله إلّا الله مُحمّدٌ رسُولُ الله..

الوداع[2]

* * *

(١) المنشورة ملحقة بمجلد «الكلمات».

(٢) ظننت بشدة مرضى قرب الأجل في ذلك الوقت فقلت: الوداع. أنا أسافر من باب القبر إلى مجمع أحبابي وأساتيذي ورفقائي من طلبة المدارس والنور. (المؤلف)

ذيل الذيل

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الرحمنِ الذي من لطائف عظائم ثمرات طوبى رحمته: «سيدُنا محمد» عليه الصلاة والسلام والجنّةُ المتدلّيان على الدارين.. والقديرُ الذي هذه الموجوداتُ الجديدةُ الجلية، والأجرامُ العلويةُ في بستان الكائنات شواهدُ ربوبيته، وهذه النباتاتُ المتلونة والحيوانات المتنوعة في حديقة الأرض خوارقُ صنعتِه وبراهينُ أُلوهيته، وهذه الأزهارُ المنوّرةُ والأشجارُ المُثمِرةُ في هذه الجنان معجزاتُ قدرته ودلائلُ رحمته، وهذه الشجرةُ بأوراقها وأزهارِها وأثمارها في هذه الروضة معجزاتُ قدرته.. تشهد كلٌّ على أنه على كل شيء قدير.

فالواقعاتُ الماضية معجزاتُ قدرتهِ، تدلُّ على أنه قادرٌ على كل الممُكناتِ الآتية لم يَخرج فيما مضى ولن يَخرجَ فيما يأتي شيءٌ من حُكم قُدرته. تتساوى بالنسبة إليه الذراتُ والشموسُ.. وهو الحقُّ المُبين الواحدُ الأحدُ الذي تُنشدُ ذراتُ الكائناتِ ومركّباتُها بدلالاتها المختلفة وألسنتها المتنوعة مشيرةً إلى جماله المطلق:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الْجَمَال يُشِيرُ

ويتلو كتابُ الكائنات بأبوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجُمله وحروفه آيات وجوبه ووحدته، وتقرأ سطوره على العقول:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَلإِ الأعلى إلَيكَ رَسَائِلُ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

اعلم يا سعيد الشقي! لا تنظر إلى ما ليس لك، بل انظر إليك، أيُّ شيء أنت؟ وما أنت؟ وبِمَ تستند؟ إذ أنت عَجزٌ متجسّدٌ واحتياجٌ محضٌ ومجسّمُ إنعامٍ ونومٌ مموَّهٌ باليقظة.

فالعجز جسدُك والاحتياجُ روحٌ فيه يتحرك، والإنعام جسمك، وحياتُك نومٌ تسكن

به. «أي واه» واشقاوتا أغرقُ في قطرة تصير بحرا عليّ، وأغيبُ في آن يصيرُ كالأبد، وأظن لمعةَ هذه الحياة شمسا شارقة!

أيها السعيد المسكين! ما رأسُ مالِك إلا ستون دينارا تقريبا، أخذتَ خمسة وأربعين فصرفتَها كلَّها لمصارفِ يوم في خانِ الدنيا، ونسيتَ بيتكَ وما يلزم له فصار مالُكَ عليكَ دَيْنا ونارا، وما بقيَ من خمسة عشر دينارا مجهولٌ لا تدري أتأخُذُها أو بعضَها أو لا تأخذ شيئا منها. فكلما أخذت شيئا منها فاصرفه لبيتك الدائمي. ولا أقلّ استَبْقِ لكَ ثُلثه ليَصيرَ لك دِينا ونُورا. فما أجهلكَ وأشدكَ خسارة! صرفتَ كلَّ المأخوذ ليوم زائل وما بقي في يدك لمقامك الباقي إلا أقلُّ قليل، وأنت راحلٌ غافلٌ؛ كانت لك ثلاث درجات: خطوت على اثنتين بخروجك من المنـزل والبلد، فرفعتَ قدمك لتخطى على الدرجة الثالثة بالخروج من الدنيا الفانية.

اعلم[١] أنه كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواه الناس، إذ يقولون: «تشكَّل بنفسه».. و«اقتَضَتْهُ الطبيعة» و«أوجَدَتْهُ الأسباب». فهذه الجمل الثلاث باطلة، ومن ظروف المحالات: إذ إنك موجود، فإما أنتَ مصنوعُك بالنظر إلى الجملة الأولى.. وإما مصنوعُ أسباب العالم كما اقتضته الثانية.. وإما مصنوعٌ بطبيعة موهومة، وقوة عمياء كما تدل عليه الثالثة.. وإما مصنوع الله كما يستلزمه الحق والحقيقة.

أما الأوّل: فمحالٌ بوجوهٍ غير محصورة:

منها: لابد أن تعطيَ لكل ذرةٍ من ذراتك عينا ترى كلَّكَ، بل كلَّ الكون وشعورا كذا، وهكذا ممّا يستلزمه كمالُ صنعتك لنظر نِسَب الجزء إلى نقوش الكل.

ومنها: لابد أن توجَد فيك عددَ المركبات المتداخلة المتصاعدة المتنازلة في ذراتك قوالبُ كقوالب الطبع من الحروف الحديدية المصنوعة أيضا، لو لم تُكتب بقلم القدير الأزلي الواحد.

ومنها: لابد أن يكون كلُّ ذرة بسر وحدة الأثر حاكمةً على الكل ومحكومة للكل، كالأحجار في البناء المعقّد بفرض نفي الباني.. وكذا ضدا ومثلا، ومُطلقةً ومقيدةً، ومصدرا ومنبعا لصفاتٍ تستبعد وجودها حتى فيمن يطوي السماء كطيّ السجل!

(١) في اللمعة الثالثة والعشرين «رسالة الطبيعة» تفصيل لهذه الفقرات.

وأما الثاني: فمحالاته لا تحصى:

منها: أن المواد التي صُنِعت منها كزجاجات الأدوية في «صيدلية»، فإن أمكن عندك أن يخرج بانصبابٍ وسيلان بلا مداخلة أحدٍ من كل زجاج مقدارٌ معين بميزان حساس، ثم تجتمعَ المقاديرُ المتفاوتة لتشكيلِ علاج الحياة أو تركيبِ معجون حيويّ، أمكنَ لك أن تتوهم صدورَك من أسبابٍ جامدة.

ومنها: صدور شيء واحدٍ بكمال الانتظام من أسباب غير محدودة جامدِين متشاكسِين عُميا صما مترددين بين الإمكانات. تزداد بالاختلاط أعمَيَتُها وأصميّتها، ومع أن مباشرتَها بظاهر الشيء. والحال أن باطنه ألطفُ وأكمل صنعة، فمحاليةُ صدورك منها أظهرُ من أن يخفَى.

ومنها: أن اجتماعَ تلك الأسباب الغيرِ المحصورة بكمال الاتفاق والانتظام بميزان الحاجة في حُجيرة من حُجيرات عينك ليس بأسهلَ من اجتماع أركان العالم بوجوده الخارجي بأجرامه العظيمة في كفِّك، بل في ظُفركَ، بل في حُجيرةٍ منه؛ إذ مَن يعمل في بيت، جاز اشتمالُ البيت عليه إن كان العامل ماديا، فما دام العالَم بأجزائه عاملا في جزئكَ جاز دخوله في ذرتك. وهذه سفسطة يخجل منها السوفسطائي.. وهكذا من المحالات المتسلسلة والممتنعات العقلية والأباطيل التي تمجّها الأوهام.

والاحتمال الثالث: وهو تأثير الطبيعة، فأبطَلُ وأفسد. إذ الطبيعة لها ظاهرٌ عُرفي موهوم ظَنّته الغفلةُ والضلالة حقيقةً، ولها باطنٌ هو الصنعة الإلهية والصبغة الرحمانية.

وأما القوةُ فحقيقتها تَجلّي قدرة الحكيم العليم الخبير المريد. وأما ما يصوِّره نظرُ الغفلة والتغافل من الصانع الواحد وما اتصل به من جناحَي التصادف الأعمى والاتفاقية العوراء.. فمن مخترعات الشياطين بالاضطرار الناشئ من الضلالة.

ولقد حققنا في «نقطة، وقطرة وذيلها، وشمة، وذرة، وحبة وذيلها» بما لم يُبق شبهةً: أن هذه الصنعة الخارقة لا تصدر إلّا من قدرةِ خبيرٍ بصيرٍ، يتصف بجميع أوصاف الكمال.

فأين يدُ الممكن المسكين المقيد المحدودِ الجامد الكثيف من نسج حُلَّة الكائنات؟! وأين يدُ البعوضة من نسج قميصاتٍ مطرزات منقشات لَبِستْها هذه العوالم؟!

فلم يبقَ إلّا أن تكون أنتَ وكلُّ شيء مصنوعَ الصانع الأزلي الذي شواهدُ خلاقيته بعدد الموجودات:

منها الكائنات بجميع ذراتها ومركباتها. كُلٌّ يشهدُ عليه بخمس وخمسين لسانا كما في «قطرة».

ومنها: القرآن مع كل كتب الأنبياء والأولياء والموحّدين، مع الآيات التكوينية في الكون.

ومنها: سيدُ الأنام مع كل الأنبياء، والأولياء والمَلك..

ومنها: ما في الجن والإنس من الفطرة بأنواع احتياجاتها..

ومنها: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آل عمران:١٨).

فمع ما سمعت: فاعلم أن مَثَل إسناد الصنعة إلى الممكن على الوجوه الثلاثة الأُول، وإلى الواجب كما هو الحقُّ؛ كَمَثَلِ الشجرة بأثمارها إن أسندتَها للوحدة، بأن أسندتَها بقوانين النمو إلى جرثومها المستمد من النواة الممتثلة للأوامر التكوينية المُفاضة من أمر «كُن» الصادر من الواحد الواجب. فالشجرةُ بجميع أجزائها وأوراقِها وأزهارها وأثمارها كثمرةٍ واحدة، ولا فرق بين شجرة ذات ثمرتين كخردلتين، وشجرة كجبل ذات أثمار غير محدودة من الجوز الهندي لسر مجهول(١) في وجود السهولة واليُسر في الوحدة والاتفاق، حتى في تشريك المساعي وتوحيدها بتقسيم الأعمال.. ووجود الصعوبة والعسر في الكثرة والتشتت.

وأما إذا أُسندَت إلى الكثرة الإمكانية وغيرِ ما عيّنه الصانع؛ لاحتاج كُلُّ ثمرةٍ وكلُّ زهرةٍ وكلُ ورق وكل غصن إلى كلِّ ما يحتاج إليه كلُّ الشجرة، لاندماج أنموذج الكل في جزءٍ جزءٍ. فانظر ما تَرَى: ما بين الشقّين، كما بين الوجوب والامتناع؛ إذ سهولة الأوّل بدرجةٍ جاز أن يقال يجب أن يكون هكذا.. وصعوبة الثاني بدرجة تضطرنا أن نقول: يمتنع أن يكون كذا.

الحاصل: إن أعطيتَ التصريف لغيره تعالى لزمك: إما أن تجعلَ كلَّ حُجيرة من حُجيرات أجزائك محيطةً بصفاتها بالكائنات، إن أسندتَها إلى نفسها.. وإما أن تجعل كلَّ

(١) [لم ينكشف ذلك السر بعدُ أثناء تأليف هذه الرسالة، إلّا أنه اتضح بعد ذلك بـ«الشفافية والمقابلة والموازنة والانتظام والتجرد والإطاعة»]. (المؤلف).

حُجيرة كحُجرة تجتمع فيها مجموع أسباب العالم العاملة فيها، إن أسندتَها إلى الأسباب؛ لأن وحدةَ الحجيرة إلى أن تصلَ إلى وحدة العالم تدل على وحدة الصانع، إذ الواحد لا يصدر إلا عن الواحد، لاسيما الحجيرة التي لا تسع إصبعين لبعوضتين، فكيف تسع ما لا يسَعُه كلُّ الكون من تصرف إلهين؟ فدليل الوحدة هو الوحدة. وزجيجة -كخردلة - يمكن أن توجد فيها الشمسُ بضيائها وألوانها وحرارتها بالتجلي بكمال السهولة، ولا يمكن وجود خردلتين في خردلةٍ بمصدريتها لهما.

فكما أن الوجودَ الخارجي أثبتُ وأثقلُ وأحكمُ من الوجود المثالي، فتسع ذرةُ ذاك جبلَ هذا، وشمسُ هذه تدخل في لمعةِ ذاك.. كذلك الوجود الوجوبي أثبتُ وأرسخُ وأرزنُ وأرصن بل هو الوجود الحقيقي والخارجي البحت، وأحقّ بما لا يُحد من الوجود الإمكاني. فالموجودات الإمكانية بحذافيرها المتمثلة في مرآة العلم الأزلي المحيط تصيرُ كالمرايا لتجليات أنوار الوجود الوجوبي. فالعلمُ مرآتُها، وهي مرآة الوجود الوجوبي. فوجودها خرج من مرتبة العلم إلى الوجود الخارجي، ولم يصل إلى مرتبة الوجود الحقيقي.

اعلم أنه من تأمل في الكون يتحدس منه: أن الفاعليةَ والتأثير من شأن اللطيف، والنوراني، والمجرد.. وأن الانفعال والقابليةَ والتأثر من شأن المادي والكثيف والجسماني.

فإن شئتَ انظر إلى النور وإلى الجبل، فالأول: يقوم في السماء، ويدُه الرقيقة اللطيفة في الأرض فعالةٌ جوالةٌ. والثاني: بعظمته وبأياديه الغليظة لا يقتدر على فعلٍ وتأثيرٍ حتى في لَصيقه وجاره.. وكذا نرى في تفاعل الأشياء في الظاهر: أن بدرجة لطف الشيء ونورانيته تظهر مرتبة السببية فيه، وبالكثافة يتقرب إلى درجة المسَبَّب. فيُعلم من هنا أن خالق الأسباب الظاهرية وموجد المسبَّبات هو نورُ الأنوار الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣) لا إله إلّا هو.

اعلم أن التفكر نورٌ يُذيبُ الغفلة الباردة الجامدة، والدقة نارٌ تحرق الأوهامَ المظلمةَ اليابسة، لكن إذا تفكرتَ في نفسِك فدقّقْ وتمهّل وتغلغلْ وفصِّله تفصيلا، بمقتضى الاسم «الباطن» المتعمق؛ إذ كمالُ الصنعة أتمُّ في تحليله وتفصيله.. وإذا تفكرت في الآفاق، فأجمِل

وأسرع ولا تَغُص ولا تَخُضْ إلّا لحاجةِ إيضاح القاعدة، ولا تحدِّد النظر، كما هو مقتضى الاسم «الظاهر» الواسع؛ إذ شعشعةُ الصنعة أجلى وأبهرُ وأجملُ في إجماله ومجموعه، ولئلا تغرق فيما لا ساحل له.

فإذا فصلتَ هناك -يعنى في نفسك- وأجملتَ هنا، تقرّبتَ إلى الوحدة. فصارت الجزئياتُ أجزاءً، والأنواعُ كلا، والمختلِط ممتزجا، والممتزج متحدا فيفور منه نورُ اليقين. وإذ عكستَ بأن أجملتَ فيك، وفصّلتَ في الآفاق تتشتت بك الكثرةُ وتستهوي بك الأوهامُ وتستغلظ أنانيتُك وتتصلّب غفلتُك، فتنقلب طبيعةً. فهذا طريقُ الكثرة المنجرة إلى الضلالة.

اَللَّهُمَّ لا تجعلنا من الضالين آمين.

اعلم أنه قد روي أن الإنسان «إذا تحرك سكن رزقُه، وإذا سكن تحرك رزقُه». الحق أنه من لمعاتِ حقيقة واسعة.. فانظر إلى الأشجار لمّا سكنتْ متوكلةً تحركتْ إليها أرزاقُها، وإلى الحيوانات لما تحركتْ حريصاتٍ سكنتْ عنها أرزاقها ثابتة في مقامها نابتةً على عروقها، تدعو بألوانها وروائحها إلى أنفسها مَن جاع واحتاج من الحيوانات المتحركة بأهوائها والدائرة بهَوَساتها.

اعلم أنه ما أجهلَ الإنسانَ الغافل وما أضلَّه وما أضرّه لنفسه! يترك خيرا عظيما لوجود احتمالٍ عائق بين تسعة احتمالات سائقة، ويرتكب الضلالةَ بترك الهداية لشبهةٍ سوفسطائية مع وجود أُلوفِ براهينِ الهداية، والحال أن الإنسان وهّام ذو احتياط وحزم يتجنب من المضار العاجلة باحتمالٍ واحدٍ من عشرة احتمالات. فكيف لا يتجنب من أضرّ المضرات بتسعة احتمالات بل بتسعة وتسعين؟!

اعلم أن في روح الإنسان احتياجاتٍ لا تتناهى وقابليةً لتألماتٍ لا تتناهى واستعدادا لتلذذات لا تتناهى ومهيأٌ لآمال والآم لا تتناهى؛ حتى إن الشفقةَ مع ضلالة القلب تتضمن آلاما غير متناهية. كما ذُكر في «قطرة»، فليس لك أن تقول: ما أنا ومَن أنا وأيُّ شيء أنا حتى تقوم لي القيامة، ويوضَع لي الميزان، ويجري عليّ الحساب! فيا أيها الضال الشاك..! لا تغتر بهذه الحياة، فإن لذتها معلقةٌ بمغلطة مربوطةٍ بالشك لأهل الضلالة. فيفرُّ الضالّ الشاك من دهشةِ ألم الزوال والفناء إلى احتمال السعادة الأبدية. ويفر أيضا من تكلف تحمّل التكاليف

الدينية إلى احتمال عدمِ الآخرة، فيتخلص بهذه المَغْلَطة من الألَمين مؤقتا. ففي قريب من الزمان تنحل عليه العقدة، وتنكشف الحقيقة. فلا الاحتمال الأول يهوِّن ألَمه بل يُحِسُّه كلَّ الألم دفعةً، ولا الثاني يخفف حِمله بل يضاعف عليه آلاما جهنمية. وكذا يقول –لكن في زمان قليل– فالمصيبة عمّت وطابت، فلا عليّ أنى كأمثالي فلا أُبالي! لكن يجيء زمان عن قريب، تتضاعف عليه المصيبة بدرجة عمومها، كإصابة الشخص في نفسه ثم أقاربه وأحبابه، لأن في روح المرء علاقاتٍ بأبناء جنسه فمهما عمّت المصيبةُ تضاعفت البلية.

أيها الشاك الغافل! لا تحسب أن ما تذوقُه بيدَيِ الغفلة والشك لذةٌ لذيذة، بل فيه ادّخارُ آلامٍ أليمة، ستهجم عليك دفعةً وتنقلبَ آلاما جهنمية. فإن أحببتَ أن يتبدل لك هذه الآلامُ المترصدة لذائذَ متجددةً، وتنقلب هذه النارُ نورا؛ فقوِّس أنفَ غرورك بالركوع في الأوقات الخمسة، ووسِّع رأسَه لنـزول ضيفِ الفرقان مع فيض الإيمان. فلابد من المداواة بالتفكر بالآيات وملازمةِ الطاعات كي يُخرَق حجابُ الشكوك والغفلات وتنضج حلاوةُ النجاة من مَرارة هذه الضلالات، وتنكشفَ لذة المناجاة.

اعلم[1] أن العبودية تستلزم التسليمَ دون الاختيار والتجربة والامتحان إذ «للسيد أن يختبر عبدَه، وليس للعبد أن يختبر ربّه»!

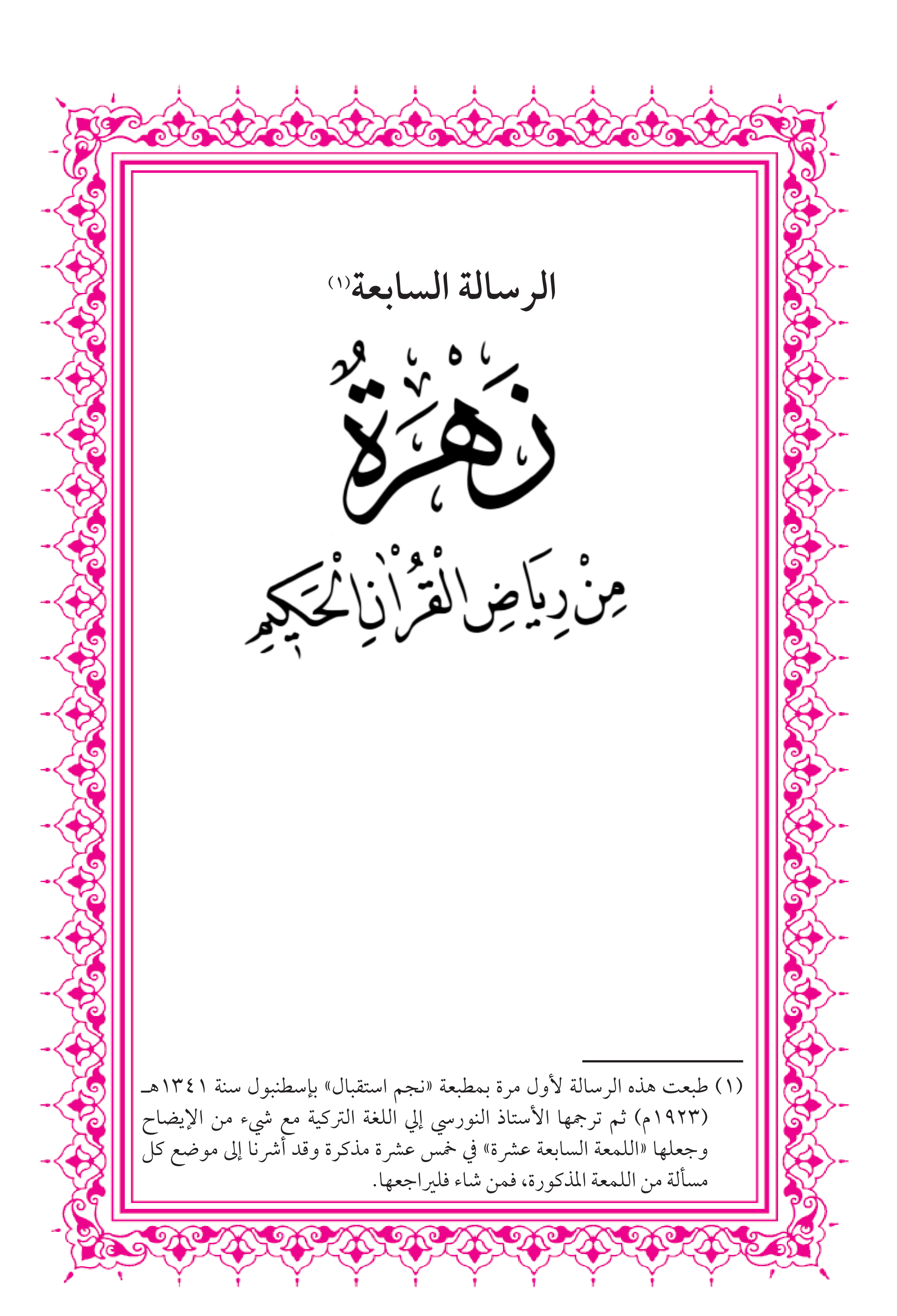
اعلم أن دائرة الاسم «الباطن» ودائرةَ الاسم «الظاهر» متداخلتان ومتقابلتان. فأهل الأُولى يقولون قدرتُه مثلا كالبحر. وأهل الثانية يقولون كالشمس. فالبحر كالكل ذي الأجزاء. والشمس كالكلي ذي الجزئيات تماثيلها كجزئياتها. والباطني المحض المفرط لا يخلُص من شائبة التجزؤ والاتحاد. والظاهري السطحي المخالف للسُّنة لا يخلص من شوب شَرَك الأسباب، فالصراط المستقيم هو القرآن..

فيا مُنـزلَ القرآن، بحق القرآن اهدنا الصّراط المُستقيم

آمين.. آمين.. آمين

* * *

(١) تراجع المذكرة الثالثة عشرة من «اللمعة السابعة عشرة».



الرسالة السابعة[1]

زَهْرَةٌ

مِنْ رِيَاضِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

(١) طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم استقبال» بإسطنبول سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) ثم ترجمها الأستاذ النورسي إلي اللغة التركية مع شيء من الإيضاح وجعلها «اللمعة السابعة عشرة» في خمس عشرة مذكرة وقد أشرنا إلى موضع كل مسألة من اللمعة المذكورة، فمن شاء فليراجعها.

كلُّ حيّ في الدنيا كعسكر موظّف، إنما يعمل بحساب المَلِك وباسمه.

فمن زَعمَ أنه مالِكٌ، فهو هالِكٌ..

إنَّ هذا النظام والميزان المشهودين عنوانان لقبضتي الرحمن وبابان من الكتاب المبين.. ومن كتاب الكائنات.

والقرآن ترجمانُ الكتابين وفهرستة البابين وفذلكةُ القَبْضَتين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحاكم الحَكَم الحكيمِ الأزلي الذي نظَّمَ هذه الكائنات بقوانينِ عادتهِ وسنَّتهِ، وعيَّنها بدساتير قضائهِ وقدَرِه، وأسس بنيانَها بأُصول مشيئته وحِكمته، وزيَّنها بنواميسِ عنايتهِ ورحمتهِ، ونوَّرَها بجلواتِ أسمائه وصفاتِه. وهو القادرُ القيومُ السرمدي الذي ما هذه الكائنات بماهياتها وهُوياتها وتمايزاتِها وتزييناتِها وموازينها ومحاسنها إلا خطوطُ قلمِ قضائهِ وقدَره، ونقوشُ بركار عِلمه وحِكمته، وتزييناتُ يدِ بيضاء صُنعه وعنايته، وأزاهيرُ رياضِ لُطفه وكرمه، وثمراتُ فيّاض رحمتهِ ونعمتهِ، ولمعاتُ تجليات جمالهِ وكمالهِ جلَّ جلالهُ؛ حمدا يزيدُ على ضرب جميع الذرات في الذرات.

فيا من بتلألؤ لمعاتِ بروقِ شروق أسمائه ظهر عجائب المخلوقات.. ويا مَن تساوى بالنسبة إلى قدرته الذراتُ والسياراتُ.. ويا من كتبَ على مِسطَرِ الكتاب المبين -المصدرِ للنظام والميزان- هذه الكائنات المتزينات:

إنّا نُقدِّمُ إليك بين يَدي كلِّ سُكونٍ وحركةٍ تتحركُ بها ذراتُ العالَم ومركباتها شهادةَ: نشهدُ أن لا إله إلّا أنتَ وحدَكَ لا شريكَ لك، ونشهد أن محمّدا عبدُك ورسولُك، أرسلته رحمةً للعالمين.

اَللَّهُمَّ صلّ وسلّم عليه وعلى آله وصحبه بعددِ جميعِ الحروفات المتشكّلة في الكلمات المتمثلة بإذنِكَ في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كلِّ كلمةٍ من القرآن مِن كل قارئٍ من حين النـزول إلى يوم النشور.

اعلم[1] أن ما يوصل إليك -بحسب الظاهر- من الوسائل؛ إمّا له اختيار أو لا. وما لا اختيار له، لا ريب أنه يعطيك ما يعطيك بحساب الله وباسمه. فخذ وكُل أنت باسم الله، وتوجَّه بتمام شكرك إليه.. وإما له اختيارٌ ما، فلا تأخذ ولا تأكل منه ما لَمْ يُذكَرِ اسمُ الله عَليهِ، أي بإخطار صاحبه الحقيقي وبتوجيه نظرك إليه كما ترمز إليه الآية: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (الأنعام:١٢١).. فإن لم يَذكُر هو، فاذكر أنت. وانظر من فوقِه إلى مَن أنعمَ

(١) المسألة الرابعة من المذكرة الثالثة عشرة للّمعة السابعة عشرة توضح هذه المسألة. وفي (ط١): اعلم يا سعيد الشقي: إن ما يوصل...

عليه وعليك. فانظر في النعمة إلى الإنعام، ومنه إلى المنعم الحقيقي. فاشكره بهذا النظر، فإنّ هذا النظر شكرٌ، ثم ارجع إن شئت وانظر إلى الوسيلة وأدعُ له مُثنيا عليه بسبب إرسال النعمة على يده. وإياك إياك يا قلبي أن تنظر أوّلا وبالذات إلى المنعم الظاهري..

الحاصل: لابد من «بسم الله»: مرتين في المختار، ومرة في غيره. وإياكِ إياكِ يا نفسي أن تظني «الاقترانَ» عِلّية.. فقد يقارن وصولُ نعمةٍ فعلَ أحدٍ، فيظنُ قاصرُ النظر أن فعلَه علّتُها، كلا! وإياك أن تجعلَ عدمَ نعمةٍ عند عدمِ شيءٍ دليلا على أن وجودَ ذلك الشيء علةُ وجودها. فقد تترتب النتيجةُ على ألوف أمورٍ، فلا توجد -بسنّة الله - تلك النعمة لِفِقَدْ أي جزءٍ كان ولو أضعف الأمور. فهل يجوز لمن فتحَ قنطرة جدولٍ فسال الماءُ على نواة وبذر فانشجرت وتسنبلت، أن يدّعيَ أن الشجرة صُنعُه ومُلكه ومالُه حقيقةً؟ فهذه المسألة ميزان تُعرف به درجاتُ الغفلة والشرك الخفي..

وإياكَ إياك يا قلبي أن تسنِد ما يُفاض على الجماعة أو يتظاهر منها أو يتحصل من مساعيها إليكَ وإلى غيرك من ممثل الجماعة أو أُستاذِها أو مرشدها؛ إذ مع أن هذا الإسناد والتصوّر ظلمٌ عظيم يوقع المسنَد إليه -المستتر فيه «أنا»- في غرور عظيم، وأنانية غليظة، ويفتح لمَن يسنِد منافذَ إلى نوع شركٍ خفي، فتأخذ الوسيلةُ حُكمَ المقصود ويلبس البوّابُ زيّ السلطان..

وإياك إياك إذا رأيت من أحدٍ فيوضاتٍ تَرِدُ عليك، أن تظن أنه مصدرُها أو منبعها. بل ما هو إلّا مظهرها ومَعكِسُها، بل يحتمل أن لا يكون مصدرا ولا مظهرا، بل لأجل حصر نظرك عليه تتخيل ما يُفاض عليك من مقلّبِ القلوب إلى قلبك، كأنه تمثّل أولا في مرشدك، ثم انعكس عليك. كَمَثل من يُمعن النظر في زجاجة، فيتجرد ذهنه فيجول في عالم المثال، فيشاهد غرائبَ فيزعمها متمثلة في الزجاجة، كلا![1]

اعلم[2] يا من يستمد من الأسباب: «تنفخُ في غير ضرمٍ وتستسمن ذا وَرَم».[3]

---

(١) المسألة الخامسة من المذكرة السابعة للّمعة السابعة عشرة.

(٢) يراجع الرمز الأول من المذكرة الرابعة عشرة للّمعة السابعة عشرة.

(٣) «نفخت في غير ضرم».. مثل يضرب لمن يصنع الشيء في غير موضعه. والضرم: النار أو الحطب السريع الالتهاب، ونفخ في غير ضرم أي في مكان لا نار فيه.

وللشريف الرضي: تَسومُني الضَيمَ لَقَد نَفَختَ في غَيرِ ضَرم

ولصفي الدين الحلي: رَجَوتُكُم نُصَحاءَ في الشَدائِدِ لي لِضُعفِ رُشدِيَ وَاستَسمَنتُ ذا وَرَمِ

مثلا: إذا شاهدتَ قصرا عجيبا يُبنَى من جواهرَ غريبةٍ لا يوجد وقتَ البناء بعضُ تلك الجواهر إلا في الصين، وبعضها إلّا في فاس، وبعضها إلّا في اليمن، وبعضها إلّا في سيبيريا، وهكذا.. أفلا تشهدُ أن ذلك القصر بناءٌ يبنيه مَن يحكم على كرة الأرض ويجلب من أطرافها ما يريد في أسرع وقت؟

وهكذا؛ كلُّ حيٍّ بِناءٌ، وكلُّ حيوان قصرٌ إلهي، لاسيما أن الإنسان من أحسن تلك القصور، ومن أعجبها، لأنه امتدت حاجاتُه إلى الأبد، وانتشرت آمالُه في أقطار السماوات والأرض، وشرعت روابطهُ في ما بين أدوار الدنيا والآخرة. فيا هذا الإنسان، لا يليق بك ولا يحق لك وأنت تحسَبك إنسانا أن تدعوَ وتعبدَ إلّا مَن يَحكم على الأرض والسماء ويملك أزمةَ الدنيا والعقبى!

اعلم[1] يا قلبي أن الأبله الذي لا يعرفُ الشمسَ إذا رأى في مرآةٍ تمثالَ شمس، لا يحب إلا المرآة ويحافظ عليها بحرص شديد لاستبقاء الشمس، وإذا تفطن أن الشمس لا تموت بموت المرآة ولا تفنى بانكسارها، توجَّه بتمامِ محبتِه إلى الشمس؛ إذ ما يشاهَد في المرآة ليس بقائم بها، بل هو قيومُها. وبقاؤه ليس بها، بل بنفسِهِ.. بل بقاءُ حيوية المرآة وتلألؤها إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتِها، إذ هي قيومُها. يا هذا قلبُك وهويتُك مرآةٌ، فما في فطرتك من حُب البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها.. فقل: «يا باقي أنت الباقي، فإذ أنت باقي فليفعل الفناءُ بنا ما شاء فلا نبالي بما نلاقي».

اعلم[2] يا أيها الإنسان! إنّ من غرائب ما أودع الفاطرُ الحكيم في ماهيتك أنه قد لا تَسعك الدنيا فتقول «أوف»[3] كالمسجون المخنوق، مع أنه تَسعُك خردلةٌ وحُجيرةٌ وخاطرةٌ ودقيقةٌ حتى تفنَى فيها، وتستعمل أشد حسياتك لها.. وأعطاك لطائف بعضُها يبتلع الدنيا فلا يشبع، وبعضها يضيق عن ذرة ولا يتحمل شُعيرة، كما أن العين لا تتحمل شعرة.

فاحذر وخفّف الوطء، وخَف أن تغرقَ ويغرق معك ألطفُ لطائفك في أكلةٍ، أو كلمةٍ، أو شعرة، أو شُعيرة، أو لمعةٍ، أو لحمةٍ، أو بقلةٍ، أو قُبلةٍ.. فإن في كل شيء جهة من عدم

---

(١) الرمز الثاني من المذكرة نفسها.
(٢) الرمز الثالث منها.
(٣) كلمة تضجر.

التناهي يطيق أن يُغرقَك، ولا يضيق عن بلعِك. فانظر إلى مرآتك كيف يغرقُ فيها السماء بنجومها! وإلى خردلةِ حافظتك كيف كتب «الحق» فيها أكثر ما في صحيفة أعمالك وأغلبَ ما في صحائف أعمارك! فسبحانه من قادرٍ قيوم!

اعلم[1] أن دنياك كمنـزل ضيق كالقبر، لكن لأجل أن جدرانه من زجاجة تتعاكس، تراه واسعا مقدار مد البصر؛ إذ الماضي المعدومُ من جهة الدنيا، والآتي المفقودُ؛ مرآتان متقابلتان تصلان جناحَ حالك وتتصلان بزمانك. فلا تفرقُ بين الحقيقة والمثال؛ فيصير خطُ «آنِكَ» سطحا، حتى إذا تحركتَ بتحريك المصائب ضربت الجدرانُ رأسَكَ فيطيرُ خيالكَ ويُطرَد نومُك، فترى دنياكَ أضيقَ من القبر والجسر، وزمانَك أسرعَ من البرق والنهر..

اعلم[2] يا من يريد أن يرى شواهدَ تجليات اسمه «الحفيظ» المشار إليه بـ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧-٨) وبـ: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس:٦١) في صحائف كتاب الكائنات المكتوب ذلك الكتابُ على مِسطرِ الكتابُ المبين.

انظر إلى غُرفَةٍ تأخذها بقبضتك من أشتات بذور الأزهار والأشجار، قد اختلطت تلك البذور والحبّات المختلفةُ الأجناسِ والأنواع، المتشابهةُ الأشكالِ والأجرام، بحيث لا يميَّز بينها. ثم ادفنْها معا -في الظلمة- في ظلمات تراب بسيط جامد محدود. ثم اسقِه بالماء الذي لا ميزانَ له ولا يفرّق بين الأشياء، فأينما توجّهْه يذهب. ثم انظر إليها عند الحشر السنوي وقد حُشر بنفخ الرعد في الصُور في الربيع، حتى ترى تلك البذورَ المختلطة المتشابهةَ كيف امتثلت بلا خطأ الأوامرَ التكوينيةَ من فاطرها الحكيم، بصورة يتلمعُ منها كمالُ الحِكمة والعلم والإرادة والقصد والبصيرة والشعور! ألا ترى تلك المتماثلات كيف تمايزت؟ حتى صارت هذه شجرةَ التين تنشُر وتنثر على رؤوسكم نِعَم ربّها! وصارت هذه أزاهيرَ تزيَّنت لأجلك وتضحك في وجهك وتتودّد لك؟ وصارت هاتيك فواكهَ مما تشتهون تدعوك إلى أنفسها وتفديها لك؟ حتى صارت تلك الغُرفة بإذن خالقها جَنةً مشحونةً من الأزهار المختلفة

---

(١) يراجع الرمز الرابع من المذكرة الرابعة عشرة للّمعة السابعة عشرة.
(٢) المسألة الأولى من المذكرة الخامسة عشرة للّمعة السابعة عشرة.

والأشجار. وانظر هل ترى فيها غلطا أو قصورا؟. ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (الملك:٣) بل قد أعطى «الحفيظ» لكلٍ منها ما ورثه من مال أبيه وأصله بلا نقصان وبلا التباس. فما يفعل هذا الفعل إلا من يقتدر على أن يقيم القيامة. فمَن يفعل هذا، هو الذي يفعل تلك.. فإظهارُ كمالِ الحفظ ها هنا مِن الأمور التافهة الزائلةِ حُجةٌ بالغة على محافظة ما له أهميةٌ عظيمة وتأثير أبدي، كأفعال خلفاء الأرض وآثارهم، وأعمال حَملة الأمانة وأقوالهم، وحسنات عبدة الواحد الأحد وسيئاتهم. ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦) بلى إنه لمبعوث إلى الأبد، فيحاسَب على السبَد واللبَد.[١]

فهذا المثال الذي تنسج أنت على منواله ليس قبضةً من صُبرة[٢] أو غرفة من بحر، بل حَبَّة من رمال الدهناء، ونقطة من تلال الفيفاء،[٣] وقطرة من زلال السماء.. فسبحانه مِن حفيظ رقيب وشهيد حسيب.

اعلم أيها السعيد الغافل! إن ما لا يرافقك بعد فناء هذا العالم بل يفارقك بخراب الدنيا، لا يليق أن تلزق قلبَك به. فكيف بما يتركك بانقراض عصرك؟.. بل فكيف بما لا يصاحبك في سفر البرزخ؟.. بل فكيف بما لا يشيّعك إلى باب القبر؟.. بل فكيف بما يفارقك سنة أو سنتين فراقا أبديا مورِثا إثمَه في ذمتك؟.. بل فكيف بما يتركك على رغمك في آن سرورك بحصوله؟

فإن كنت عاقلا لا تهتم ولا تغتم، واترك ما لا يقتدر أن يرافقَك في سفر الأبد، بل يضمحل ويفنَى تحت مصادمات الانقلابات الدنيوية والتطورات البرزخية والانفلاقات الأُخروية. ألا ترى أن فيك شيئا لا يَرضى إلّا بالأبد والأبدي، ولا يتوجه إلّا إليه، ولا يتنـزل لما دونه؟ وذلك الشيء سلطانُ لطائفك. فأطِعْ سلطانك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله.

.........[٤]

(١) السَبَد: جمع أسباد: القليل من الشعر، يقال: «ما له سبدٌ ولا لَبَد» أي لا شعر ولا صوف، يقال: لمن لا شيء له (انظر: مجمع الأمثال للميداني).

(٢) الصُبرة: ما جُمع من الطعام بلا كيل ولا وزن.

(٣) الفيفاء: الصحراء الملساء والجمع: فيافي.

(٤) في (ط١): اعلم أني رأيتني في المنام وأنا أقول للناس: يا أيها الإنسان! إن من دساتير القرآن: أن لا تحسبن شيئا مما سواه سبحانه أعظم منك بحيث تتعبد له.. وأن لا تحسبن أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبر عليه. إذ يتساوى ما سواه في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية.

اعلم[١] يا أيها السعيد الغافل! تنظر إلى أطرافك الآفاقية فتراها ثابتة مستمرة في الجملة وبالنوع، فتظن نفسَك أيضا ثابتةً دائمةً حتى لا تتدهشُ إلّا من القيامة، كأنك تدوم إلى أن تقوم هي. كلا! إنك ودنياك في مَعرض الزوال والفناء في كل آن. فمثلك في هذا الغَلط كمثل مَن في يده مرآة متقابلةٌ لمنـزل أو بلد أو حديقة ارتسمتْ هي فيها، ففي أدنى حركة للمرآة وتغيرها يحصل الهرج والمرج في تلك الثلاثة التي اطمأننتَ بها. وأما بقاؤها في أنفسها فلا يفيدك، إذ ليس لك منها إلا ما تعطيك مرآتُك بمقياسها وميزانها. فتأمل في مرآتك وإمكان موتها وخراب ما فيها في كل دقيقة. فلا تحمِل عليها ما لا طاقةَ لها به.

اعلم[٢] أن من سنة الفاطر الحكيم -في الأكثر- ومن عادته، إعادةَ ما لَهُ أهميةٌ وقيمةٌ غاليةٌ بعينهِ لا بمثله في الأدوار والفصول المتكررة بتجدد الأمثال في أكثر الأشياء. فانظر إلى الحشر العصري والسنوي واليومي، تَرَ هذه القاعدةَ مطّردة. وقد اتفقت الفنونُ وشهدت العلومُ على أن الإنسان أكملُ ثمرات شجرة الخلقة، وله أهمية عظيمة وقيمة غالية، وفردُه كنوعِ غيره. فبالحدس القطعي يُعادُ كلُّ فردٍ من البشر في الحشر والنشر بعينه وجسمه واسمهِ ورسمهِ..

.........[٣]

اعلم أن الفذلكات المذكورةَ في أواخر الآيات لا تنظر إلى تلك الآية التي هي فيها فقط، بل تنظر إلى مجموع القصة، بل إلى تمام السورة، بل إلى جميع القرآن؛ لتساند الآيات وتلاحظها وتناظرها، فلا تزنْ ما في الفذلكة بميزان مآل آيتها فقط، ولا تحمِل عظمتَها على حُكمٍ جزئي مُهّد المحلُ لذكرها، وإلّا بَخَسْتَها حقَّها. مثلا قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ (الأعراف:١٧٤).. ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (الإسراء:٤١).. ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الروم:٥٨).. و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٧١)..

(١) تراجع المذكرة الثالثة للّمعة السابعة عشرة.
(٢) تراجع المذكرة الرابعة للّمعة السابعة عشرة.
(٣) في (ط١) اعلم يا نفسي الجاهلة المغرورة! إن لكل مقام ومرتبة ظلا، بل ظلالا متباينة، وأين الظل من الأصل؟ فهل يليق بمن يرى عكس سرير سلطان في الماء تحته أو في المنام، فقعد عليه أن يظن نفسه سلطانا أو مساويا للسلطان؟ أو يشاهد النجوم في حوضه فيظن نفسه في السماء كمن يسري بين النجوم وفوقها. على أن من يرافقه علمه وعقله في السير الملكوتي على خطر عظيم من الغرور، فيقيس نفسه بسبب أخذ علمه ظلا من ظلال مرتبة على صاحب أصل المرتبة. وكذا على خطأ جسيم من العجب فقد يقول كفرانا للنعمة: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (القصص:٧٨) ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ (الزمر:٤٩).

و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل:٧٠) ومثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩) و ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣) وأمثالها مما له عيون ناظرة إلى أكثر الآيات التنـزيلية، وأكثر الآيات التكوينية، وأكثر الأحوال البشرية.

فهذه الخواتيم القرآنية التي تُمهَرُ بها الآيات مع تأييدها لآياتها، ترفع رأسَ المخاطَب من الجزئي المشتّت إلى الكلي البسيط؛ ومن الجزء المفصّل إلى الكل المجمل، وتوجِّه نظره إلى المقصد الأعلى.. وغير ذلك من أسرار البلاغة.

اعلم[1] يا قلبي قد يغالطك الشيطان بإراءة الغير الغير المحدود، ليهوّنَ عندك قيمةَ ما أُنعم عليك. فانظر حينئذٍ إلى احتياجك ونفسِك وعجزك وحكمة النعمة والإنعام القصدي في النعمة، وإلى عدم تناهي تجلي القدرة والعلم والإرادة، وإلى غايات وجودك ونتائجه العائدة إلى مالكه وصاحبه الحقيقي الذي له الأسماء الحسنى. وكذا يغالطك الموسوِس مستمدا من أنانيتك ومستندا بفرعونية النفس بإراءة صغار الحيوانات وخِساس الحشرات، ويضعها نصب عينك ويقول لك: ما الفائدة في خلقتها السريعةِ الزوالِ؟ فيلقنك العبثيةَ -بعد تلقين أنّ غايةَ الحياة هي الحياة، وأن قيمة الحياة بالبقاء- ليُسقِطَ في عينك أهميةَ الرحمة والنعمة وإتقانِ الصنعة فيها تُشاهِد هذه الثلاثةَ فيه، ليُنسيكَ الصانعَ بالتعطيل. فقابلْ أنت بإراءة السماوات بنجومها والأرضِ بحيواناتها. هذا إذا نظرتَ إليها وأنت أنت.. وأما إذا نظرتَ إلى ما هو أصغر منك، فانظر أيتها الحُجيرةُ الكبرى إلى غرائب حياة حُجيرات جسدك ووظائف الكريوات الحمراء والبيضاء في دمك الدائر مادمتَ في هذه الدار، وإلى رقائق لطائفك الطائفة بقلبك.

اعلم يا أيها الأوروبا![2] إنك أخذتَ بيمينك الفلسفةَ المضلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفيهة، تدّعي أن سعادة البشر بهما. شُلّت يداك وبئست هَديتاك.

ألا يا ناشر الكفر والكفران! هل يمكن لمن أُصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائبَ هائلة، السعادةُ بكونه في ذروة الرفاه والزينة بجسمه؟ ألا ترى أن مَن انكسر خيالُه

(١) قد مرّ في ذيل الحباب إجمال هذه المسألة. (المؤلف).

(٢) إن أوروبا اثنان: أحدهما: نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الإسلامية. أَظهَر -بإحسان الله- ما يستريح به البشر في هذه الحياة.. وأوروبا الثاني: خَالَفَ الأديانَ السماوية واستند بالفلسفة الطبيعية المادية وغلبت سيئاتُ المدنية حسناتها، وصار سببا لمشقة أكثر البشر وشقاوتهم. فإني أخاطب هذا القسم الثاني (المؤلف). والمذكرة الخامسة للّمعة السابعة عشرة توضح المسألة أكثر.

أو خابَ من أمل وهميّ أو انقطع رجاؤه من أمر جزئي كيف يَمَرّ[1] له الحلو ويعذّبه العَذبُ اللذيذ وتضيق عليه الدنيا؟ فكيف بمَن أُصيب بشؤمك في أعماق قلبه وروحه باليُتم الروحي والضلالة التي فيها انقطاعُ كلِّ الآمال وانشقاقُ كل الآلام؟ فهل يقال لمَن روحُه مع قلبه في جهنم، وجسمُه في جنةٍ كاذبة زائلة: إنه مسعود؟

فاستمع أيها الروح المفسد لما يُتلى عليك، أَذكر لك واحدا فقط، من أُلوف المهالك التي أوقعت البشرَ فيها، وأُقدّم لإيضاحه مثالا.

مثلا: هاهنا طريقان؛ فذهبنا في هذه، فنرى في سيرنا بمد النظر في مدة السفر عند كل خطوة رجلا عاجزا يتهاجم عليه رجالٌ غُلَّبٌ يغتصبون مالَه ودوابَّه ويخرّبون بيتَه، وقد يجرحونه بحيث تبكي عليه السماء، فأينما نظرنا نرى الحال على هذا المنوال بحيث لا تسمع إلّا صيحات الظالمين ونياحات المظلومين، فطمّ عليهم المأتم العمومي. فبسر: «أن الإنسان يتألم بألم الغير» والحال أن الوجدان لا يتحمل التألم بهذه الدرجة، يضطر الناظرُ للتجرد عن الإنسانية والتزام نهاية الوحشة بتبطّن قلبٍ لا يبالي بهلاك الناس عند سلامته.

فيا أوروبا! أهديتَ بدهائك الأعور لروح البشر هذه الحالة الجهنّمية، ثم تفطنتَ لهذا الداء العضال دواءً لإبطال الحسّ في الجملة، وهو الملاهي الجذابة والهَوسات الجلابة. فتعسا لكَ ولدوائك.

ثم ذهبنا في الطريق الأخرى؛ فترى في كل منـزل وفي كل مكان وفي كل بلاد عساكر موظفين منتشرين في الآفاق والطرق، فيجيء بعضُ المأمورين فيرخّصون[2] بعضَهم من الوظيفة ويأخذون سلاحَهم ودوابهم ولوازماتهم الميرية ويعطون لهم تذكرة الإذن، فيفرحون بالترخيص وبالرجوع إلى المَلِك وزيارته باطنا، وإن حزنوا بترك المألوف ظاهرا. ونرى أنه قد يصادف المأمورون نفرا عجميا لا يعرفهم فيقول لهم: أنا عسكر السلطان وفي خدمته، وإليه أرجع، فإن جئتم بإذنه ورضائه فعلى الرأس والعين، وإلّا تَنَحوا عني لأقاتلنّكم وحدي ولو كنتم أُلوفا، لا لنفسي بل لحفظ أمانة مالكي، وحماية حيثية سلطاني وعزته. وهكذا نرى في مد طريقنا ومدة سفرنا تحشيدات بتهليل وسرور تسمى «تولدات»، و«ترخيصات» بتكبير وحُبور

(١) من المرارة التي هي ضد الحلو. (انظر: لسان العرب مادة «مرد»).
(٢) أي يسرحونهم من الوظيفة.

تسمى «وفيات». فالقرآن الحكيم أهدى للبشر هديةً لو اهتدوا بها لسلكوا بها في مثل هذا الطريق.. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس:٦٢).

فيا أوروبا! تزعم أن كل ذي حياة من أصغر السمك إلى أكبر المَلَك مالكٌ لنفسه ويعمل لذاته وإنما يسعى للَذته، له حق حياة وغايةُ همته حفظ البقاء. وما ترى فيما بينها من «التعاون» المأمور به من جانب خالقها: كإمداد النباتات للحيوانات والحيوانات للإنسان، تظنه «جدالا».. حتى حكمتَ بأن «الحياةَ جدال».[1] فيا سبحان الله كيف يكون إمدادُ ذرات الطعام بكمال الشوق لتغذية حُجيرات البدن جدالا وخصاما؟ بل إنما الإمدادُ تعاونٌ بأمر رب كريم.

والدليل على أن ذا الحياةِ ليس مالكا لنفسه، هو: أنَّ أشرفَ الأسباب وأوسعَها «اختيارا» الإنسانُ. والحال أنه ليس في يدِ اختيارِه ودائرةِ اقتدارِه من أظهر أفعاله الاختيارية -كالأكل والكلام والتفكر- من المائة إلّا جزء واحد منهم. فإذا كان الأشرف الواسع الاختيار هكذا مغلولَ الأيدي عن التملك والتصرف الحقيقي، فكيف بسائر البهيمات والجمادات؟

وما ورّطك في هذا الخطأ إلّا دهاؤك الأعور؛ إذ نسيَ ربّه الذي هو خالق كل شيءٍ، واستند بالطبيعة الموهومة وأسندَ الآثار إلى الأسباب، وقسَّم مالَ الله على الطواغيت. فعنده يضطر الإنسان وكل ذي حياة أن يصارعَ مع ما لا يُعد من الأعداء لتحصيل ما لا يحد من الحاجات، باقتدارٍ كذرة، واختيار كشعرة، وشعور كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفئ، وعمرٍ كدقيقة تنقضي؛ مع أنه لا يكفي كلُّ ما في يده لواحد من مطالبه. فإذا أُصيب بمصيبة لا يستمد إلّا من أسباب صمّ وعمي: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ (الرعد:١٤) فقَلَب دهاؤك المظلم نهارَ البشر ليلا متنورا بأنوار كاذبة مستهزية. وصَيَّر كلَّ ذي حياة في نظر تلاميذه كالرجل المسكين المبتلى بهجوم الظلمة كما رأينا في الطريق الأُولى.. ويرى في الدنيا مأتما عموميا، ويرى الأصواتِ نعياتِ الموت ونياحات اليتامى. وصيَّر تلميذَه الخاص: «فرعونا» لكن يعبد أخسَّ الأشياء، ويرى كلَّ سبب نافع أنه ربُّه.. «متمردا» لكن يتمسكن بنهاية الذلة للذَّته. ويقبّل رِجلَ الشيطان لمنفعة خسيسة.. و«جبارا» لكن لعدم نقطة الاستناد عاجزٌ في ذاته بغاية العجز.

(١) أي أن الحياة صراع دائم والبقاء فيها للأقوى!

وإن غايةَ همة تلميذك: بطنُه وفرجُه أو منفعةُ قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية،[١] أو تسكين حرصه وغروره. ولا يحب إلّا نفسَه، ويفدي لها كلَّ شيء.

وأما خالص تلميذ القرآن فـ«عبد» لكن لا يتنـزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة.. و«ليّن هيّن» لكن لا يتذلّل لغير فاطره إلّا بإذنه.. و«فقير» لكن يستغني بما ادّخر له مالكه الكريم.. و«ضعيف» لكن يستند بقوة سيده الذي لانهاية لقدرته. ولا يرضى تلميذُ الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغايةً، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة. فانظر إلى درجة تفاوت همة التلميذين.

وكذا، ما يرى أعظمَ الأشياء كالعرش والشمس إلا مخلوقا عاجزا مسخّرا مأمورا، ويرى في روحه علاقةً شديدة مع كل الصالحين من أهل السماوات والأرض، فيدعو لهم من صميم قلبه، كما يدعو المرء لأهل بيته.

فانظر التفاوتَ بين مروءة التلميذين؛ ذاك يفر من أخيه لنفسه، وهذا يرى كل العباد إخوانَه. والقرآن يعطي ليد تلاميذه بدلَ هذا التسبيح العادي[٢] أعدادَ ذرات الكائنات فيسبّحوا لله، وفي أيديهم بدل التسبيح الذي عدده تسعة وتسعون «سلسلةُ جميع ذرات الكائنات» فيقرؤون أورادَهم بذلك التسبيح العجيب، ويذكرون ربَّهم بأعداد ذلك، بل يزيدون.. فانظر إلى تلاميذ التنـزيل من الأولياء أمثال الكيلاني، والرفاعي،(*) والشاذلي كيف أخذوا في أياديهم سلاسلَ الذرات والقطرات وأنفاس المخلوقات وغيرها كالتسبيح يذكرون الله بها، بل يستقلّونها فيمدون أيديهم إلى ما لا يتناهى من عدد معلومات «علام الغيوب»! انظر إلى هذا الإنسان الذي يصارعه أصغرُ مكروب ويصرعه أدنى كرب، كيف ترقَّع وانبسط لطائفُه بفيض إرشاد القرآن، حتى استصغر الدنيا أن تكون تسبيحا لوِرده، واستقل الجنةَ أن تكون غايةً لذكره! ومع ذلك لا يرى لنفسه فضلا على أدنى شيء من خلقه سبحانه.

وأما هَدي القرآن فيقول: يا أيها الإنسان إن ما في يدك أمانةٌ، ومُلكٌ لمالك قدير على كل شيء وعليم بكل شيء، رحيم بك، كريم يشتري منك مُلكَه الذي عندك ليحفظَه لك، لئلا يضيعَ في يدك، وأجَّل لك ثمنا عظيما وأنت مأمور وموظف كالعسكر فاعمل بحسابه وباسمه،

(١) تطمين ما يشعر به من رقةٍ نحو بني جنسه.
(٢) المراد: المسبحة.

وهو الذي يرزقك ما تحتاج إليه، ويحفظك مما لا تقتدرُ عليه. وغايةُ حياتك: مظهريتُك لتجليات أسمائه وشؤونه. فإذا أصابتك مصيبةٌ فقل: «إنّا لله وفي خدمته، فإن جئتِ أيتها المصيبة بإذنه ورضاه فمرحبا بك: إنّا إليه راجعون وإلى رؤيته مشتاقون. وسيعتقُنا من تكاليف الحياة يوما ما، فليكن على يدك وإن جئت بإرادته وأمره فقط ابتلاءً دون إذنه ورضاه فلا أُسلّم أمانته لغير الأمين ما استطعت».

فحقيقة الحال في الطرفين على هذا المنوال. لكن درجات الناس متفاوتة في الهداية والضلالة. ومراتب الغفلة مختلفة. لكن الغفلة أبطلت الحس بدرجة لا يحس المدنيّون بإيلام هذا الألم الأليم، ولكن بتزايد الحساسية العلمية وإيقاظات الموت تتشقق الغفلة. فويل ثم ويل لمن ضلّ بطواغيت الأجانب.

فيا شبان الترك! فهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا معكم وعداوتهم لكم تتبعونهم في سفاهاتهم وأفكارهم بل تلتحقون بصفّهم بلا شعور؟.. ألَا إنكم تَكذبون في دعوى الحمية، إذ هذا الاتّباع استخفافٌ بالمليّة واستهزاء بالملة. هدانا الله وإياكم إلى الصراط المستقيم.

اعلم[1] يا من يستكثر عددَ الكفار ويتزلزلُ باتفاقهم على إنكار بعض حقائق الإيمان!

أما أولا: إن القيمةَ ليست في الكمية، إذ الإنسان إذا لم يصر إنسانا انقلبَ حيوانا شيطانا، لأن الإنسان إذا ترقى في الاحتراصات[2] الحيوانية كالمنكرين للأديان، فهو أشد حيوانية. وأنت ترى كثرةَ كميات الحيوانات بلا حد وقلةَ الإنسان مع أنه هو الخليفة.

وثانيا: إن الإنكار نفي، وألفُ نافٍ لا يرجَّحون على اثنين من أهل الإثبات.

فإن قلت: كافرٌ ما هو؟

قيل لك: فالكفار الذين لا دين لهم نوعٌ خبيث من حيوانات الله، خَلَقَهم لعمارة الدنيا، وللنار.. وليكون[3] واحدا قياسيا لدرجات نِعَمه تعالى على عباده المؤمنين. وأما اتفاقهم على إنكار حق ونفيه فلا قوةَ في اتفاقهم بسر النفي. إذ الكفر نفيٌ وإنكارٌ وجهلٌ وعدمٌ، ولو كان في صورة الإثبات. مثلا: لو نفى كلُّ أهل إسطنبول رؤية الهلال؛ وأثبت رؤيتَه شاهدان، ترجّحا

(١) تراجع المذكرة السادسة للّمعة السابعة عشرة.
(٢) أي أوغل في الحرص على الحياة الدنيوية المادية.
(٣) ليكون كل كافر واحدا قياسيا.

على إجماعهم بسر تساندِ الإثبات، ونظرِ الإثبات إلى نفس الأمر، ونظر النفي إلى نفس النافي وعندَه.

مثلا: لو طبّق الغيمُ في وجه السماء فرفعنا رؤوسنا، فما رأى الشمس من جميع أهل المملكة إلا حزبٌ قليل، فهل يُقبَل منك أن تقول: إن النافين متواترون، والرائون أقلّ قليل فاتّباع الأكثر أولى؟ كلا.. إذ لمن لم يرَ أن يقول: لا شمس عندي، وفي رؤيتي، دون لا شمسَ في نفس الأمر وفي وجه السماء. وهكذا فلتعددِ المدّعَى بهذا الاعتبار بين النافين لا يقوَى حُكمُ بعض ببعض. فإجماعُهم في قيمة الفرد كالاجتماع لحل مسألة، أو المرور في ثقبة ضيقة. خلافا للمثبتين الناظرين إلى نفس الأمر لاتحاد المدّعَى وتعاونِ القوى، كالتساند على رفع صخرة عظيمة.

اعلم(١) يا من يشوّق المسلمين على الدنيا ويدعوهم إلى صنائعها وترقياتها ويضربهم بعصا التشويق! تمهّل وتأمّل في رقة بعضِ حبالهم المربوطين بها بالدين، واحذر أن ينقطعَ قسمٌ من حبالهم فيصيرون ضررا محضا في الحياة الاجتماعية، بسرّ أن المرتدّ لا حقّ له في الحياة لانفساده بالكلية، خلافا للكافر، فالشريعة تعطي له حقَّ حياة، وأن الفاسق خائن ومردودُ الشهادة، لانفساد وجدانه خلافا للذمي في مذهب الحنفية.(٢) فاعتبر! ولا تغتَر بكثرة الفساق؛ فإن الفاسق لا يرضى بالفسق، وما طَلبه بالذات بل وقع فيه.. وما من فاسق إلّا ويتمنى أن يكون متقيا وأن يكون آمرُه متدينا صالحا، إلّا إن ارتدّ، العياذ بالله!

أتظن أن المسلمين لا يحبون الدنيا ويحتاجون لأن يُنبَّهوا ولا ينسَوا نصيبهم من الدنيا؟ كلا! بل اشتدَّ الحرصُ.. والحرصُ في المؤمن سببُ الخيبة؛ إذ الدعاةُ إلى الدنيا في كل شخص بكثرة؛ كنفسه واحتياجه وحواسه وهواه وشيطانه، وأمثالِكم من رفقاء السوء، وحلاوةِ العاجلة وغيرِها، مع أن الداعي إلى الآخرة الباقية بقلّة. فمن الحَمية والهمة إمداد القليل.

أم تحسب أن فقرنا من زهدنا؟ كلا.. ألا ترى المجوس والبراهمة وسائر مَن تسلط عليهم الأوروبائيون أفقرَ منا؟ أم أنت أعمى لا ترى أن ما زاد على القوت الضروري لا يبقى في يد المسلمين في الأكثر، بل يغتصبه أو يختلسه الكفار بدسائسهم؟ وإن أردتَ من تمدنِهم،

(١) تراجع المذكرة السابعة للّمعة السابعة عشرة.
(٢) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ١/ ١٥٦؛ البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم ٩/ ٣١٠.

تسهيلَ إدارتهم وحصولَ الأمن في المملكة؛ فقد أخطأتَ الطريق. لأن إدارة مائةٍ من الفاسقين الذين فسدت أخلاقهم وتزلزَلَ اعتقادُهم أصعبُ من إدارة أُلوفٍ من المتدينين. فأهل الإسلام لا يحتاجون إلى التشويق على الحرص على الدنيا، بل يحتاجون إلى تنظيم مساعيهم، والتعاون، والأمنية بينهم،[١] وما هي إلّا بالتقوى..

اعلم[٢] أن الحق سبحانه بكمال كرمه أَدمج قسما من مكافأة الخدمة في نفس الخدمة، وأَدرج أجرةَ العمل في نفس العمل. حتى إن الموجودات ولو الجمادات تمتثل أوامره التكوينية بكمال الشوق والتلذذ، وبالامتثال تصير مَعاكسَ تجلياتِ أسماءِ نورِ الأنوار. كالحباب الحقير المظلم الذي يتوجه بقلبه الصافي إلى الشمس، فيتنور مبتسما في وجهك، بجعل قلبه سريرَ الشمس. وكيف لا تلتذ الذراتُ ومركباتها -بفرض شعورٍ فيها - بمظهريتها لتجليات أسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق مع ارتقائها بالامتثال، مثل الحباب من نهاية الخمود والظلمة إلى نهاية الظهور والنور!

انظر إلى حواسك وأعضائك وخدَمتها التي تخدم لبقاء الشخص أو النوع كيف تتلذذ بنفس خدمتها حتى يكونُ التَركُ عذابا لها.

ثم انظر إلى الحيوانات كيف تلتذ بوظائفها، ألا ترى الديكَ مثلا: كيف يؤْثر الدجاجات على نفسه في دعوتها إلى أكل ما رآه من الغذاء ولا يأكل هو؟ ويُرى من طوره أنه يفعل هذا بالشوق والتلذذ والافتخار. وهكذا الدجاجة الراعيةُ لأفراخها وهي صغيرة، التاركةُ لها إذا كَبرت كسائر الوالدات النباتية والأمهات الحيوانية غير الإنسان! فيظهر من هذه الحال أنها لا تعمل بحساب نفسها ولا لكمالها، بل بحساب من وظَّفها مُنعِما عليها برحمته بإلقاء لذةٍ في وظيفتها.

ثم انظر إلى النباتات والأشجار كيف تمتثل أوامرَ فاطرها بطورٍ يرمز بشوقٍ ولذة؛ إذ تزّيناتُها ونشرُ روائحها تُظهِر شوقَها، وفداؤها نفسَها لسنبلتها ولثمراتها تُعلن أن لذتَها في امتثال الأمر. إذ تُعِدّ وتُحضر وهي سائلة من باب الرحمة أطيَب الغذاء، فتطعِم ثمرتَها بإذن ربّها. ألا ترى شجرةَ التين كيف تُطعم التين لبنا خالصا تأخذه من خزينة الرحمة وهي لا تُطعم

(١) إشاعة الثقة، فيأمن بعضهم بعضا.
(٢) تراجع المذكرة الثامنة للّمعة السابعة عشرة.

نفسها إلا الطين! وشجرة الرمان تسقي الرمان شرابا صافيا مما أعطاها ربُّها وهي لا تشرب إلّا الماء! وهكذا.

ثم انظر إلى الحبوبات تَرَ فيها اشتياقا ظاهرا للتسنبل كمثل المحبوس في أضيق المكان كيف يشتاق للخروج إلى البستان. ومن هذا السر الجاري في الكون بسنةِ الله يكون العاطلُ المستريح أشقى من الساعي المجدّ، إذ ذاك شاكٍ من عمره، وهذا شاكرٌ. واندمجت الراحةُ في الزحمة، والزحمة في الراحة.(١)

ثم انظر إلى الجامدات تَرَ فيها أن ما «بالقوة» يجتهد لأن يصيرَ «بالفعل» ويسعى بسنة الله بطور يرمز إلى أن في المسألة شوقا ولذة. ألا ترى قطرةَ الماء كيف يشتمل قلبُها على شوق لامتثال أمر بارئها، بحيث اقتدر الماءُ بشدّة ذلك الشوق مع لطافة الماء وضعفه على شق الحديد مع قوة مقاومته عند سماع أمرِ: «توسَّع أيها الماء بإذن ربك» بواسطة لسان البرودة! وهكذا.

حتى إن جميعَ ما في الكون من السعي والحركة: من اهتزاز الذرات، إلى دوران الشمس إنما يجري على قانون القَدر، وإنما يصدر من يد القُدرة، وإنما يَظهر بالأمر التكويني المتضمن للعلم والأمر والإرادة، بل يتضمن القُدرةَ أيضا. حتى إن كل ذرة وكل مركب وكل ذي حياة كنفرٍ من العسكر له نَسَب في دوائر المركبات. وله وظائف لفوائد، بعدد نَسَبه فيها كذرة عينك في حُجيرة عينك، وفي عينك، وفي أعصاب وجهك، وفي شرايين بدنك.. لها في كل نسبةٍ وظيفةٌ لفائدة وهكذا.. فكل شيء يشهدُ على وجوب وجود القدير الأزلي بلسان عجزه عن تحمل ما لا طاقة له به، من وظائفه المحمولة عليه في نظام الكون وحفظ موازنة قوانينه؛ إذ «النظام والموازنة» بابان مهمان دقيقان من «الكتاب المبين». فأين الذرةُ والنحلة -مثلا- وأين قراءةُ ذلك الكتاب الذي هو في يد مَن يطوي السماء كطي السجلّ للكتب! وكذا يشهد كلُّ شيء على وحدة واجب الوجود الحق سبحانه بعلاقته وهو فرد بالمركبات المتداخلة المتصاعدة ووظائفِه في مقاماتها ونَظَر نِسَبِه ووضعيته إلى نقوشها!

ثم إن الفاطر الحكيم أجملَ لكل شيء دساتيرَ بابَي «الكتاب المبين» في لذة خاصة واحتياج مخصوص بذلك الشيء، إذا عمل الشيء عليها صار ممتثلا من حيث لا يشعر لأحكام

(١) أي الراحة في التعب والنصب، والضيق والتعب في الراحة.

ذلك الكتاب. مثلا: إن البعوض في حين ما يجيء إلى الدنيا يخرج من بيته بلا توقف، فيهجم على وجه الإنسان فيضربه بعصاه فينفجر منه له ماءُ الحياة، فمَن علّمه بهذه الصنعة كرّا وفرا؟ وأعترفُ أني لو كنتُ في موقعه لما تعلّمتها إلا بتدرّس مديد وتدرب عديد. فقس على البعوضة والنحلة والعنكبوت الملهَمين كلَّ الحيوانات والنباتات، قد أعطى الجوادُ المطلق سبحانه ليدِ كل فرد منها «تذكرةً مكتوبة بمداد اللذة والاحتياج». فسبحانه سبحانه! كيف أدرج سرائرَ ما في سطور بابَي «الكتاب المبين» في تذكرة مسطورة في رأس النحلة مثلا، مفتاحُها لذة خاصة بالنحلة المأمورة؟

وهكذا فيظهر مما سمعتَ مما مر بالحدس الإيماني سرٌ من أسرار: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف:١٥٦) وسرٌ من أسرار: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء:٤٤) وسرٌ من أسرار: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس:٨٢، ٨٣).

اعلم يا من يدعو المسلمين إلى الدنيا، أخطأتَ! أتحسبُ أيها الغافلُ أن المطلوبَ بالذات من الإنسان عمارةُ الدنيا واختراعُ الصنايع وتحصيلُ الرزق وغيرُ ذلك مما يعود إلى الدنيا؟ والحال أن صاحب الملك الذي أمرُه بين الكاف والنون يقول بقولٍ يصدقّه الوجود والكون والواقع وتجهيزاتُ الفطرة الإنسانية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ (العنكبوت:٦٠). أم تزعم أن مَن صنعك ويصنعك دائما بتجديدِ وجودكَ في كل زمان يحتاجُ لما تصنعُ في نظام ملكه وإلى توسيطك في تصرفاته؟.. أترى كل مصنوعاتِ البشر تساوي خلقة نخلة أو نحلة أو صنعة عين أو لسان؟

اعلم يا أيها الغافل! إن من أبعد المحالات أن لا يَعلم مَن خلَقَك ما يتوارد عليك وأنت تتقلب فيه من الأحوال الاجتماعية والأطوار الدنيوية. فكن مَن شئت اعتقادا وفكرا ولو معطِّلا وماديّونا.[1] فبالضرورة والمشاهدة ترى في النطفة والبيضة والحبة والنواة فعالية وخلاقية وصنعة وتصرفا. أيمكن في عقلك أن يكون المتصرفُ في النواة -هذا التصرف البصير الحكيم الناظر إلى مناسبات تلك النواة لعالَم نوعها ولمن يستفيد منها- غيرَ عالمٍ بعالَم

(١) أي ولو منكرا لوجود الله وممن يحصرون الوجود فيما يرونه من مادة فقط.

الأشجار وأحوالها وارتباطها بسائر العوالم؟ وأن لا يرى ولا يشاهِد «فالقُ الحبة ومُسَنْبِلُها» مَن يزرعها ولِمَ يزرعها وما يحصل منها وما يحصد منها وجهةَ ارتباطها بعالم الحيوانات ومحيطِها وما يجري فيه؟ أم يُحتمل عندك أن يكون مَن يصوّر البيضة -فرخا مجهَّزا بالآلات اللائقة بعالم الطير- غيرَ بصيرٍ بأحوال عالم الطيور وأطوار جيران الطيور من سائر الأنواع؟ أم يجوز في زعمك أن لا يرى خالقُ النطفةِ علقةً، والعلقةِ مضغةً، والمضغةِ عظاما وكاسِ العظامَ لحما ومُنشئُه خلقا آخر ذا حياة؛ ومصوّره بصورة تتلمع منها أثرُ صنعةِ عليمٍ، بصير حكيم، بما لا غاية فوق علمه ورؤيته وحكمته؛ ومُجهِّزُه بجهازات يتصرف بها ذلك الإنسان المخرَج من النطفة في كثير من الأنواع والعوالم. وأن لا يشاهِدَ ذلك الخلاقُ عالَم الإنسان وأحوالَه وشؤونه وما يجري على رأس نوع الإنسان. وأن لا يعلم أدوار الإنسان والعوالم التي يجول الإنسانُ فيها بجسمه وحواسه وروحه وعقله وخياله، وغير ذلك مما أُودع في جوهر الإنسان من نظارات العوالم ومراصد الحقائق؟

أيها الغافل! أتظن أنك حرّ ومأمون من مداخلةِ مَن يمدّ إلى يدك بعصا الغصن رمانةً مصنوعةً لك وبخيط الشار[1] بطيخةً مطبوخةً لأجلك؟ فمن غفلتك تظن صانعَ البطيخ غافلا عن آكله، ومِن عماكَ تتوهم صانعَ الرمانة قوةً عمياء لا تعلمُ ما تعمله للمتفكّهين بالرمانة وطراوتِها والمتحيرين في صنعتها القائلة: «سبحان من صوّرني فأحسن صورتي»، والمتفكرين في لطافتها الناطقة بـ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٤)، والمتأملين في انتظامها المتقن المنضّد المنادي بأعلى صوته: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤). أم تحسب أيها الجاهل أن لا يرانا ولا يعرفُنا مَن يرسل إلينا لحاجاتنا الخصوصية هذه الثمراتِ؟ أو لا يشاهدنا مَن يبث في ما بين أيدينا وفي خلال ديارنا ولمنافعنا بهيماتِ الأنعام وسائرَ الحيوانات؟

اعلم يا من يعتمد على نفسه وعلى الأسباب وعلى الدنيا! أنك حينئذٍ تصير كالذباب ذي النُجيم يترك النهارَ بشمسه، ويعتمد على نُجيمِ نفسه وتلمُّعِه في الليل.. ومثَلُك كمثل نفرِ عسكرٍ يتصور أن سلطانه يعمّ إحسانُه وإنفاقُه حتى أدنى نفر وحيوان؛ ثم يقول في نفسه: «أين أنا؟ وأين نظرُه الخاص وعنايتُه الخصوصية من بين مالا يتناهى من المنعَم عليهم، مع

(١) شار العسل: اجتناه.

أن قلبي محتاج لحبيب وشفيق خاص يعينني على حسياتي ويصاحبني، فالأولى أن أتّخذَ من دونه وليا ومرجعا»، ثم يتحرى في خارج نظام العسكر روابطَ ومعاملات حتى يصير عاصيا، فيُطرَدُ ويُحبس «كالفاسق المحروم»، ويقال له: ألم تعلم أيها المسكين أن خزينة المَلكِ تكفي لكل حاجتك وحاجاتِ سائر الأفراد المرتزقين؟. وأما ما في يدك ويد أربابك فلا يكفي لأدنى حاجتك، إذ أنت بين أعداءَ لا تُعدّ وآمالٍ لا تُحد، وإن قانون المَلِك لتجرده عن الماديات لا يُشغل -ذلك القانونَ- نفرٌ عن نفر، بل يتوجه بتمامه لأي فردٍ كان، ولو كنتَ وحدكَ في السلك العسكري لما تفاوتَت المعاملة، فكأن السلطان ينظر إليك خاصةً دائما في منظار قانونه، ويراك بأبصار ملتزمي قانونه، لاسيما إذا لم يكن السلطان ماديا كقانونه المجرد، فلا يغفل عنك حينئذٍ ولو طرفةَ عين، ففي عموم إحسانه نظرٌ خصوصي إليك، بدليل انطباق الإحسان على الحوائج التي تخصك بذاتها، أو تخصك بكيفياتها، ومفتاح هذا السر هو: أن الأحدية تتلمع في خلال وُسعة الواحدية، كتلمّع عين الشمس في خلال الضياء المحيط حتى في كل ما مسّه الضياءُ من الذرات الشفافة وكتلمع النظام التام في خلال المُشَوَّشِيَّة الظاهرية الناشئة من اشتباك أشتات الأشياء.

والحاصل: إن فاطرَك ومالكَك أرحمُ وأكرمُ وألطفُ وأرأفُ بك من كل قريبٍ وحبيبٍ ورفيقٍ وشفيقٍ وهو العليمُ بك وبأسرارك، وهو القديرُ على أعظمِ مطالبك وعلى أخفاها. فاترك الكلَّ وتوكل عليه..

اعلم[1] أن كتابَ الكائنات الذي هو «كتابُ القُدرة» مكتوبٌ على مِسطرِ «الكتاب المبين» الذي هو «كتاب العلم» بشهادة أن هذا النظام والميزان المشهودَين المحيطين بابان بعينهما من هذين الكتابين، ورابطةُ اتصالهما، وبرزخٌ بينهما، وعنوانان لقبضتي الرحمن، ولا رَطبٍ ولا يابسٍ إلّا وهما داخلانِ من باب هذين البابين في «الكتاب المبين». ولأجل أنه لا خارج في الكون والوجود من البابين بالمشاهدة، فكل شيء داخل في ذلك الكتاب.

وأما القرآن المبين الذي هو كتاب «صفة الكلام» فهو ترجمان الكتابين: الغيبيّ والشهودي، القُدرتيّ والعلمي. وفهرستةُ البابين وفذلكة القبضتين.

(١) في المكتوب العاشر وفي حاشية المقصد الثاني من الكلمة الثلاثين يميّز الأستاذ النورسي بين «الكتاب المبين» و«الإمام المبين».

ومن دساتير هذه الكتب الثلاثة الآتية من الصفات الثلاث التي هي، «العلم والقدرة والكلام»؛ أنّ كلَّ حي بل كلَّ شيء كعسكرٍ موظفٍ وكعبدٍ مأمورٍ، إنما يعمل بحساب الملِكِ المالكِ له، لا بحساب نفسه ومالكيتها، ولا لِذاته ولِلَذّته، بل إنما لذّتُه في ذاتِ وظيفته. ومن زَعمَ أنه مالكٌ فهو هالكٌ، ومَن تملّك تهتّك.

اعلم أن السماوات مصنوعةٌ من غير فطور ترونها. فصانعُها أعزُّ وأجلُّ وأكبرُ وأعظمُ من أن يتعسَّر عليه إيجادُ كل جزئيات كلِّ ما في جوفها، ومن أن يخرُج من ملكه شيءٌ ما من الأشياء.. فلأجل الاشتباك التام بين جزئيات الأنواع لابد أن يكون خالقُ نوعٍ واحد كالسمك والذباب مثلا، خالقَ كل الأنواع. فله المُلكُ وله الحمد وله الخلقُ وله الأمرُ وله الحُكمُ لا إله إلّا هو.

اعلم[1] أن النبي ﷺ ونبوتَه فذلكةُ الكمال والخير، وأن مسلكَه والدينَ فهرستةُ السعادة والحُسن المجرد. وقد نرى في العالم كمالا فائقا وحقا ناطقا، وخيرا شاهقا وحُسنا شارقا، فبالضرورة يكون الحقُّ والحقيقة في جانب النبي، والضلالةُ والوهم والعدم في خلافه. فإن شئت فانظر من أُلوفِ أُلوفِ محاسن العبودية التي جاء بها النبيُّ إلى هذا الواحد: وهو توحيدُ قلوب الموحدين وجمعُ ألسنتهم في أمثال صلاة العيد والجمعة والجماعة، بحيث يقابل هذا الإنسانُ عظمةَ خطاب المعبود الأزلي بجميع أصوات القلوب وأدعيتها وأذكارِها، بتظاهرٍ وتظافرٍ في اتفاقٍ وتساندٍ وتجاوب في وسعةٍ كأن هذه الأرضَ تنطقُ هي بنفسِها، وتصلي بأقطارها وتمتثل بأطرافها أمرَ: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ النازلَ بالعزّة والعظمة من فوق السماوات السبع، حتى صار هذا الإنسان المخلوق الضعيف -مع صغره وكونه كذرة بين هذه العوالم- عبدا محبوبا لخالق الأرض والسماوات وخليفةَ الأرض، ورئيسَ الحيوانات، وغايةَ خِلقةِ الكائنات. ألا ترى أَنْ لو اجتمع في الشهادة كما في الغيب أصواتُ المكبِّرين البالغين مئاتِ الملايين في آن واحد بـ«**الله أكبر**» في صلاة العيد وأدبار الصلوات تساوي تكبيرَ كرة الأرض لو كبّرت، فكأن الأرض في العيد تتزلزل زلزالَها فتكبّر الله بأقطارها وأوتادها، وتتكلم من صميم قلب قِبلَتِها، بفم مكَّتِها بـ«**الله أكبر**» فتتموج كلمتُها متمثلةً في هواء كهوف أفواه المؤمنين المنتشرين في أطرافها، بل -وكذا- في أطراف البرزخ والسماوات جل جلالُ مَن خَلَقها ومَهَّدها وجعلها مسجدا لعباده سبحانه..

(١) تراجع المذكرة التاسعة للّمعة السابعة عشرة.

اعلم[١] يا من يُحبُّ أن ينظر ويصلَ إلى نور معرفة الحق سبحانه من مسامات الدلائل والبراهين ومن مرايا الآيات والشواهد، لا تتجسّس بأصابع التنقيد ما جرى عليك، ولا تنقد بيد التردد ما هبّ إليك، ولا تمدنّ يدَك لأخذ نورٍ أضاء لك. بل تجرَّدْ وتعرّض وتوجّه.. فإني قد شاهدتُ من أنواع الشواهد والبراهين ثلاثة:

قسم منها كالماء يُرى ويُحسّ، ولكن لا يُستمسَك بالأصابع، فتجرد عن خيالاتك وانغمس فيه بكليتك، ولا تتجسسّ بإصبع التنقيد، فإنه يسيل ولا يرضى بالإصبع محلا.

وقسم منها كالهواء يُحسّ ولكن لا يُرى ولا يُتخذ.. فتعرّض بوجهك وفمك وروحك لنفحات رياح الرحمة، ولا تقابلها بيد الأخذ والتنقيد والتردد بدل تنفسِ الفم وتروّح الروح، فإنه يزول، وهو منطلقٌ ولا يرضى باليد منـزلا.

وقسم منها كالنور يُرى ولكن لا يُحس ولا يُؤخذ؛ فتوجّه ببصرِ بصيرتك مقابلا له بقلبك، فإن النور لا يؤخذ ولا يُصاد إلا بالنور، ولا تمدّ يدا ماديةً حريصة، ولا تزنه بميزان الماديات فإنه يختفي، وإن لم ينطف. ولا يرضى بالماديّ حَبسا وقيدا وبالكثيف مالكا وسيدا..

اعلم[٢] وانظر إلى درجة رحمة القرآن وشفقته على جمهور العوام ومراعاته لبساطة أفكارهم كيف يكرر ويُكثر الآياتِ الواضحةَ المسطورة في جباه السماوات والأرض فيُقرؤهم الحروفات الكبيرة الظاهرة التي تُقرأ بكمال السهولة بلا شبهة كخلق السماوات والأرض، وإنزالِ الماء من السماء، وإحياء الأرض وأمثالها. ولا يوجّه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلّا نادرا. ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن كيف يتلو على الإنسان ما كتبَتْه القدرةُ في صحائف الكائنات، حتى كأن القرآن قراءةٌ للكائنات ونظاماتِها وتلاوةٌ لشؤون مكوّنها وأفاعيلِه. فإن شئت فاستمع بقلب شهيد أمثالَ سورة «عمَّ» وآيةِ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ .. ﴾ (آل عمران:٢٦) وأمثالها..

اعلم[٣] أني قد أكتب تضرّعَ قلبي إلى ربي –مع أن من شأنه أن يُستَرَ ولا يُسطر– رجاءً من رحمته تعالى أن يقبل نطق كتابي، بدلا عني إذا أسكت الموتُ لساني «ومنه هذه المناجاة»:

---

(١) تراجع المذكرة العاشرة للّمعة السابعة عشرة.
(٢) تراجع المذكرة الحادية عشرة للّمعة السابعة عشرة.
(٣) تراجع المذكرة الثانية عشرة للّمعة السابعة عشرة.

يا ربي الرحيم ويا إلهي الكريم! قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراتها إلّا آثام مؤلمة مذلة، وآلامٌ مضرة مضلة، ووساوسُ مزعجة معجزة. وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخجيل متقربٌ بالمشاهدة بكمال السرعة؛ بلا انحراف، وبلا اختيار كآبائي وأحبابي وأقاربي وأقراني إلى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق أبد الآباد للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولاسيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الأمارة.

فيا ربي الرحيم، ويا ربي الكريم! أراني عن قريب قد لبستُ كفني وركبت تابوتي وودّعت أحبابي وتوجهت إلى باب قبري، فأنادي في باب رحمتك:

الأمانَ.. الأمانَ يا حنان يا منان نجّني من خجالة العصيان.

آه كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفعُ رأسي إلى باب رحمتك أنادى:

الأمان.. الأمان يا رحمن يا حنان خلصني من ثقل حمل العصيان.

آه أنا ملتفٌ بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وأنا منتظر لعفوك ورحمتك.. ومشاهد بأن لا ملجأ ولا منجا إلا إليك وأنادي:

الأمان.. الأمان من ضيق المكان ومن وحشة العصيان ومن قبح وجه الآثام، يا رحمن يا حنان يا منان يا ديان نجّني من رفاقة الذنوب والعصيان..

إلهي! رحمتُك ملجئي ووسيلتي، وإليك أرفع بثي وحزني وشكايتي..

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي، يا مولاي! مخلوقُك ومصنوعُك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المسيء المسن الشقي الآبق قد عاد بعد أربعين سنة إلى بابك؛ ملتجئا إلى رحمتك، معترفا بالذنوب والخطيئات، مبتلىً بالأوهام والأسقام، متضرعا إليك. فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذاك أهل وأنت أرحم الراحمين. وإلّا فأيّ باب يُقصَد غيرُ بابك، وأنت الرب المقصود والحق المعبود. ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك..

آخر الكلام:

أشهد أن لَا إله إلّا الله وأشهد أن محمّدا رسول الله

❋ ❋ ❋

ذيل الزهرة



الحمد لله على نعمته بإنزال القرآن، وعلى رحمته بإرسال سيد الأنام، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

اعلم أن الفاطر الحكيم جل جلاله جعل النباتات والحيوانات -لا سيما صغارهما- من أوسع ميادين تصرفات قدرته، ومن أكثر مظاهر تجليات صفاته، ومن أغلب مرايا جلوات أسمائه؛ لأسرارٍ غالية وحكمٍ عالية:

منها: أن النبات كالنواتات للأرض، وأن الحيوان ثمرةُ العالم. والنواة أنموذج مصغّر للشجرة، والثمرة مثال مصغر لها. فكل ما يتجلى عليها يتجلى عليهما أيضا.

فما دام أن غايات الخلقة والحياة هي المظهرية لتجليات أسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق، تكون العناية بتكثير جزئيات النبات والحيوان، لاسيما دقائقهما هي الأوفق للحكمة الأزلية.

روي أن موسى عليه السلام اشتكى إلى الله من كثرة البعوضات الهاجمة عليه، وسأل: «ما الحكمةُ في تكثيرها؟.. فأوحى إليه: أن البعوض يَسأل: لِمَ خلقت هذا الإنسان بهذه الجسامة، وهو يغفل عنك؟ ولو خلقت رأسه بعوضاتٍ لبلغت مائة ألف مسبحين بحمدك في عالمهم، وذاكرين لك بين إخوانهم، مظهرين لجلوات أسمائك ونقوش صنعتك بلسان قالهم وحالهم».

نعم، إن القرآن المعنوي المكتوب بمداد النجوم على صحائف طبقات السماوات، إذا قَرَأَ على الأنظار آيات العظمة والجبروت التكوينية، يقرأ معه -رأسا برأس- القرآنُ المكتوب بمداد الجواهر الفردة على جزء لا يتجزأ في حُجيرة عينك: آياتِ العلم والحكمة.

فإذا سمعت من ذاك: سبحانه ما أعظمَ شأنه! سمعت من هذا أيضا: سبحانه ما أدق حكمته وما ألطف صنعته! فإذ تساوى القرآنان، واقتضت الحكمةُ تكثيرَ نسخ أحدهما -وتكثيرُ نُسَخ الكبير لا يفيد الناظرين- فلا بد من تكثير نسخ الصغير للمطالعين المتفكرين الغير المحدودين، من المَلَك والجن والإنس وغيرهم. وفي تكثير النسخ لا يبقى الكتاب كتابا واحدا، بل تتنوع الكتب وتتفاوت الفوائد وتتعدد المفاهيم، فتتلاحق الأمثالُ فيتزايد الحُسن والجزالة. ولولا إدراجُ كثير من سور الكتاب الصغير ونُسَخه في بعض حروفات القرآن الكبير لفاق الصغير على الكبير بدرجة صغره!

ومنها أيضا: أن أتم التجليات؛ تجلي الأحدية. وأكملَ الصنعة؛ إدراجُ الأكبر بتمام نقوشه في الأصغر. وأن الثمرة والنواة بالنسبة إلى النبات، وأن النبات والحيوان بالنسبة إلى الأرض، وأن الإنسان والنبي بالنسبة إلى العالم. وأن القلب والسر بالنسبة إلى الإنسان..أنموذج مختصٌر جامعٌ مُظهِرٌ لجميع الأسماء المتجلية على الأصل والكل والمحيط.

وأن الثمرة -مثلا- كما أنها «جزء» من الشجرة وهي «كلُّها»، فتشير من هذه الجهة إلى الواحدية.. كذلك كـ«الجزئي» لها تشتمل على تمام الشجرة وهي «كلّيها» فترمز بهذه الجهة إلى الأحدية.. فالواحدية شاهدة الوحدة عند تجلي الأحدية في مرايا الكثرة والجزئيات.

مثلا، - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ -: إن الضياء المحيطَ في النهار مثالُ الواحدية، وتمثال الشمس في كل ذرة شفافة وقطرةٍ وحوضٍ وبحرٍ ونجوم سيارة مثال لتجلي الأحدية. فإذا رأيت الشمسَ في مرآتك بلَون مرآتك، وبما تقتضيه وضعيتّها، ثم رأيتَها في مرايا أخرى، فتنظر إلى الضياء، فيشهد لك بالوحدة، وأن لا كثرةَ في المتجلّي، كما تتوهم. وتنشد الكثرة والمرايا:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الْجَمَال يُشِيرُ

فيُتحدس من هذه الأسرار، أن الفاطر الحكيم -جلّت حكمته، ودقّت صنعته- متوجهٌ بألطف قدرته وأتمّ عنايته وأكمل رحمته وأدق حكمته من العالم إلى الأرض، ومنها إلى ذوى الحياة، ومنهم إلى الإنسان، ومن فرد الإنسان إلى قلبه، ومن نوع الإنسان إلى ما هو قلبُ النوع وقلبُ العالَم ونواتُه التي خُلق العالَمُ عليها، وثمرتُه المنوّرة التي انتهى إليها مخلوقا لأجلها،

وتمثال محبة فاطر العالم، ومثال رحمته.. وما ذلك القلب العالي الغالي المطهّر المنـزّه إلّا سيدنا وسيد الأنام محمد عليه صلوات وتسليمات بعدد ثمرات شجرة العالم.

اعلم يا من يتوهم الإسرافَ والعبثيةَ في بعض الموجودات! أن كمالَ النظام والميزان في إنشاء كل موجودٍ يطرد هذا الوهم؛ إذ النظامُ خيط نُظم فيه الغايات المترتبة على الأجزاء الجزئية والتفاصيل الفرعية. ومن المحال أن يراعي أحدٌ كلّ غايات تفاصيل قصرٍ -بدلالة انتظام بنائه- ويترك غايةَ المجموع التي بها تصير الغاياتُ الجزئية غاياتٍ.

فإن شئت التحقيقَ فاستمع يا من له قلب شهيد وسمعٌ حديد!: إن لكل شيء غاياتٍ دقيقةً كثيرةً تعود منها إلى الحي القيوم المالك بمقدار مالكيته وتصرفه بمظهرية الشيء لأنواع تجليات أسمائه، وما تعود إلى الحي إلّا بدرجة تلبّسه الجزئي.

وإن كلَّ شيء من الأشياء يصير هدفا مشتركا بين ذوي العقول، فلا يصير عبثا أصلا؛ إذ إذا لم يطالعه هذا هنا الآن، طالعه هؤلاء، ومع أن وجوه استفادة كل أحدٍ من كل شيء في غاية الكثرة، وأن جنودَ الله لا تُحصى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر:٣١). فلا شيء في الكون إلّا ويتزاحمُ عليه -بلا مزاحمةٍ- أنظارُ مَن لا يُحصى من الملائكة المسبّحين المقدّسين بأجناسهم وأنواعهم المالئين للكون، ومن الجان المتحيرين المتفكرين باقتسامهم وأصنافهم، ومن الأرواح المكبّرين المهللين بطوائفهم، وقبائلهم وغيرهم ممن لا يمنعهم كثيفاتُ الأشياء عن رؤية ما في أجوافها، ولا يشغلهم شهودُ شيء عن شيء، وفوق الكل رؤيةُ صانعِ الكلِّ لصنعته.. وكذا كثير من الناس المؤمنين المتنبهين، بل وكذا الحيوانات المتحسسات المتأثرات بحواسهم.

فإن قلتَ: أيةُ آياتِ كتابِ الكائنات تدل على وجود معتبِرين ومتحيرين ومتفكّرين ومسبحّين من غير الإنسان؟ وأي سطرٍ من ذلك الكتاب يشير إليه؟.

قيل لك: آيةُ النظام في سطر الميزان من صحيفة الحكمة؛ ألا ترى أنك إذا ذهبتَ إلى دار تمثيل -مثلا- فرأيتَ في تلك الدار أنواعا كثيرة من الغرائب التي تتحير فيها الأنظارُ، وأصنافا من الملاهي التي تستحسنها الأسماعُ، وأقساما متنوعة من السحر والشعبذة التي تتلذذ بها العقول والخيال. وهكذا من كل ما يتلذذ به ما لا يحد من لطائف الإنسان وحواسه

وحسياته، ثم نظرتَ في ساحة محل التمثيل، فما رأيت إلّا صبيانا صما عميا مفلوجي الحواس والحسيات إلّا قليلٌ منهم. فبالضرورة العرفية تتفطن وتتيقن بأنّ خلفَ هذه الحُجُب والأستار المرسَلة على وجوه الجدار عقلاءَ مختلفين في الأذواق والمشارب لهم حواسُ سليمة جاءوا للتنـزّه، يشتاقون لكل ما أُبدع وشُهِر في ذلك المجلس، ويرونك والتمثيلَ من حيث لا ترونهم.

فإذ تفطنت لسر التمثيل، فانظر من دار الدنيا إلى هذه المصنوعات؛ فمنها كزرابي مبثوثة، وفُرُشٍ مرفوعة، وحللٍ ملبوسة، وحلية منثورة، وصحائفَ منشورة.. ومنها أزاهير وثمرات اصطفت؛ تدعو بألوانها وطعومها وروائحها ذوى الحياة وأصحابَ الحاجات، وتدعو بنقوشها وزينتها وصنعتها أُولي الألباب وذوى الاعتبار.. ومنها نباتات شَمّرت عن ساقاتها لوظيفة خلْقَتها، وحيواناتٌ قامت على أرجلها لوظيفة عبوديتها، وأكثرها لا تشعر بما أُودع في أنفسها من المحاسن الرائقة واللطائف الفائقة، فليست تلك اللطائفُ والمحاسن لِحَمَلَتَها البُهْمِ العُجْمِ، بل ما هي إلّا لغيرها السميع البصير.. ومنها إلى ما لا يحد ولا يعد.

فمع كل هذه الحشمة الجلابة والزينة الجذابة، وأنواع التلطيفات والتوددات، وأنواع التحببات والتعرفات، وأقسام التعهدات والتعمدات وأصناف التزينات والتبسمات وأشكال الإشارات والجلوات، وغير ذلك من ألسنة الحال التي كادت أن تنطقَ بالقال مع أنه لا نرى ظاهرا في ساحة الدنيا من ذوي الاعتبار والابتصار إلّا هؤلاء الثقلين اللذين صيرت الغفلةُ أكثرَهم كصبيانٍ صمٍ عميٍ فلج في ظلمات طاغوت الطبيعة يعمهون.

فبالحدس الصادق وبالضرورة القطعية وبالبداهة العقلية، لابد أن يكون الكون مشحونا من ذوي الأرواح المعتبِرين المسّبحين مما عدا الثقلين. كما قال مَن قولُه القول:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ (الإسراء:٤٤).

اعلم أن بمقدار توسع تصرف القدرة في الجزئيات وتزييدِ الأمثال تتقوى العناية بالفرد. فلا تقل: أنا قطرة في بحر، فيُنسيني البحرُ. كلا! بل البحر شاهدٌ على أنك بنسبة محاطيتك به محفوظ أبدا بنظام قوي نافذ بقوته في جميع أمثالك؛ إذ بدرجة الصغر والخفاء والمُحاطية يتزايد

الاهتمامُ به، والمصونيةُ من الإهمال، والمحفوظيةُ من مداخلة الغير، ومن لعب التصادف، ويزيد ظهورُ المخلوقية والمجعولية.

ألا ترى أن المركز أصونُ من تسلط الغير والمهاجمات، وأن النواة أحصنُ من لعب التصادفات وتعجيز العاصفات، وأن الاهتمامَ بالنواة أشد؟

أيها الإنسان! أنت نواة الأرض والأرضُ بيضة العالم. ومن هذا السر يُكثر القرآن ذكرَ خلق السماوات والأرض ويجعله عنوانا لخلق كل شيء.

اعلم وانظر إلى كمال النعمة في كمال الحكمة، وكمال الحكمة في كمال النظام، وكمال النظام في كمال الميزان، في صنعة الحواس الخمسة الإنسانية؛ إذ فطَرها فاطرُها بوضعيةٍ وجهّزها صانعُها بجهازاتٍ، يحس الإنسان بها ويُذَوِّقُ صاحَبَها خصوصياتِ جميع أنواع الثمرات والأزهار والأصوات والروائح وغيره، حتى إن في حاسة الذائقة حسياتٍ رقيقةً دقيقةً منتظمة بعدد طعوم جميع أجناس الثمرات وأنواعها وأصنافها.. وهكذا حاسة السمع لخصوصيات ما لا يحد من الأصوات. وقس سائرَ الحواس الظاهرة، ولاسيما الباطنة التي هي أكثرُ غناءً وجهازا.

ومن هذا السر؛ بلغت جامعيةُ فطرة الإنسان إلى درجةٍ صيّرَت هذا الإنسانَ: مظهرا لما لا يحد من أنواع تجلياتِ أسماءِ فاطره جلّ شأنه، وذائقا لما لا يعدّ من ألوان نِعمه، عمّ نواله.

مَثَلك أيها الإنسان، كمثل المركز العمومي للتلفون، فكما أن فيه لمخابرة كل موقع في الولاية مفتاحٌ خاص، كذلك فيك لحسِّ ذوقِ جميع أنواع نِعَمه، ولذوق لذة مظهريتك لما لا يحد من أقسام تجلياته مفاتيحُ مخصوصة عُلّقت برأسك ولطائفك، فاستعملْها كما يرضى به بارئُها، بالحركة بميزان شريعته.

ومن هذا السر: يمكن التفاوت بلا نهاية بين مراتبِ لذائذِ شخصين هما في عين جنةٍ وفي عين مكانٍ. وبشارةُ: «**المرءُ مع مَن أحبَّ**»[1] قد تجمع بين الأدنى والأعلى.[2]

اعلم أن ما يُرى عند اختلاط أشتات الأشياء وأوباشها من المُشوَّشيّة المنافية للنظام

(١) البخاري، الأدب ٩٦؛ مسلم، البر ١٦٥.
(٢) تفصيله في الكلمة الثامنة والعشرين.

والميزان، فليس مما لعب به التصادفُ، بل خرج من صورة النظام إلى نقش الكتابة، لكن تلك الكتابة غير مقروءة بالسهولة للنظر الظاهري الأمي الناظر إلى معكوسها في مرآة الوهم!

ألا ترى أن تلك الأشتاتَ لو كانت بذورا، إذا تنبتت، تكشّفت عن نظام تام. فالجمع بينها كتابةٌ غريبةٌ لقلم القدر.

اعلم أن الحُجةَ القاطعة على خاتمية النبوة الأحمدية، إيصالُها حدودَ الدين في كل قاعدةٍ منه إلى حدٍ لا يُتَعَقَّل أوسعُ ولا أكملُ ولا أتمُّ منه.

مثلا، في مسألة التوحيد والربوبية، يقول:

﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (يس:٨٣)

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود:٥٦)

﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (الزمر:٦٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٦)

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:٣)

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان: ٣٠)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦).

وكذا يحكم ذلك الدين بأن نهاياتِ ما تنقسم إليه المادة وتنبسط وتصل إليه حدود الماديات من الجواهر الفردة والذرات، وأعظمَ ثمراتِ العالم من الشموس والسيارات، متساويةُ الأقدام كتفا بكتف في امتثال أمرِ خالقها المنـزّهِ عن صفاتها، المقدس عن حدودِها ولوازماتها.

وفي مسألة الحشر والتوحيد، وصلَ إلى مرتبةٍ لا حدّ فوقها بالبداهة.

وهكذا في كل مسألةٍ مسألةٍ، فلا يمكن فيه الإكمالُ والإتمام بآخرَ. فحقُّه الأبديةُ والدوامُ إلى يوم القيام.

اعلم أن قلبي قد يبكي في خلال أَنِينَاته العربية بكاءً تركيا، بتهييج المحيط الحزين التركي، فأكتب كما بكيت:

[لا أُريد من كان زائلا لا أُريد

أنا فانٍ، مَنْ كان فانيا لا أُريد، أنا عاجز، من كان عاجزا لا أُريد

سلّمت روحي للرحمن، سواه لا أُريد

بل أُريد،

حبيبا باقيا أُريد.

أنا ذرةٌ، شمسا سرمدا أُريد.

أنا لا شيء ومن غير شيء، الموجوداتِ كلَّها أُريد.

* * *

لا تَدْعُني إلى الدنيا، فقد جئتُها ورأيت الفساد.

إذ لمّا حجبَت الغفلةُ أنوارَ الحق،

رأيتُ الأشياء والدنيا أعداءً ضارّين.

ذقت اللذائذ، ولكن وجدتُ الألم في زواله.

أما الوجودُ، فقد لبستُه،

آهٍ لا تسل كم عانيتُ من الألم في العدم.

إن قلتَ: الحياة، فقد رأيتُها عذابا في عذاب.

نعم، لما استتر نورُ الحق عني،

إذا بالعقل يتحول عقابا، ورأيت البقاء بلاء، والكمالَ هباء،

والعمر ذهب أدراج الرياح.

نعم، بدونه، انقلبت العلومُ أوهاما.

وأصبحت الحِكَمُ أسقاما، والأنوارُ ظلماتٍ، والأحياءُ أمواتا،

والأشياءُ أعداءً.
ولمستُ الضرَّ في كل شيء.
والآمالُ انقلبت آلاما.
والوجودُ هو العدم بعينه. وصار الوصال زوالا.
والألم يعصرني مما لا بقاء فيه.
نعم، إن لم تجد الله فالأشياء كلُّها تعاديك؛
أذىً في أذىً، بل هو عينُ الأذى.
وإن وجدتَ الله،
فلن تجده إلّا في ترك الأشياء.
فرأيت بذلك النور: الجنةَ في الدنيا،
وبدت الأمواتُ أحياءً.
ورأيت الأصواتَ أذكارا وتسابيح.
والأشياء مؤنسةً، واللذائذَ في الآلام نفسِها.
والحياةَ أصبحت مرآةً تعكس أنوارَ الحق.
والبقاءَ رأيتُه في الفناء.
والذراتِ تلهج بالذكر.
يقطُر من ألسنتها وتتفجر من عيونها؛
شَهْدُ شهادة الحق.]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

(١) لأبي العتاهية في ديوانه. وينسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه.

اعلم[١] يا من يتوهم اللذةَ والسعادةَ الدنيوية في الغفلة وفي عدم التقيد بالدين!

أني جرّبتُ نفسي مرةً فرأيتُني على جسر امتدّ من رأس جبلٍ إلى رأس جبل شاهقَين، وتحتَهما وادٍ عميق في غاية العمق، وقد أظلم علينا الدنيا بما فيها.

فنظرت في يميني الماضي، فما رأيت إلّا ظلماتٍ عدَميّة مدهشة.. ثم في يساري المستقبلي، فما رأيت إلّا غياهب مهدِدة دهاشة.. ثم إلى تحتي، فرأيت عمقا إلى أسفل السافلين.. ثم إلى فوقي، فما رأيت إلّا غيما بُكما صُما يمطر الغمَّ واليُتمَ واليأس والبأس.. ثم في أمامي فرأيت في خلال الظلمات عفاريتَ وعقاربَ وليوثا وذئاباً كاشرةً أسنانَها للافتراس.. ثم في خلفي، فما رأيت مددا ولا مغيثا ولا معينا.

فبينما أنا مدهوش مأيوس نادم من تجربتي! إذ نبهتْني الهدايةُ الربانية، فرأيت وقد طلع على الأنام قمرُ الإسلام وأشرقت شمسُ القرآن، فرأيت جسرَ الحياة: طريقا تمر بين جنان النِّعم السبحانية وتنتهي إلى جنة الرحمة الرحمانية.. ويميني الماضي: بساتينَ مزهرةً بالصُلَحاء، منورةً مثمرة بالأنبياء والأولياء تجري من تحتهم أنهارُ الدهور، وهم في البقاء خالدون.. ويساري: فراديسَ تزهر فيها الآمالُ والأماني برحمة الحنان المنان.. وفوقَنا: سحائبَ الرحمة تفيضُ علينا ماءَ الحياة، وفي خلالها تبتسم الشمس بأنوار الهداية والسعادة الأبدية.. وأما ما في أمامي من الكائنات، فإخواني وأحبابي وأنعامٌ مؤنسات، صوّرتْها ظلمةُ الضلالة وحوشا موحشات، فقرأت علينا هذه الواقعة: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (البقرة:٢٥٧).

يا نورَ النور بحق اسمك النور أخرجنا من الظلمات إلى النور.. آمين..

اعلم أيها السعيد المجنون المحزون! إن مَثلَك كمثل صبي أبله قعد على ساحل البحر يبكي دائما لزوال الحبابات المتشمسة. كلما زال واحدٌ بكى عليه، ظنا منه انطفاءَ الشُميسة المتبسمة في الحباب بزوال الحباب وتحوله، وقد يبكي لتكدر ما في الحباب وتشوهه باختلاط موادَّ كثيفةٍ به، ولا يرفع رأسَه حتى يتفطن لتنـزّه الذات -التي هذه التماثيل جلواتُ أنوارها المتجددة على وجه البحر وخدود الأمواج وعيون القطرات- عن الزوال بزوال مرايا تجلياته، بل ليس في ما ترى زوالٌ مؤلم ولا فراقٌ أليم.

(١) تفصيل هذا المثال في الكلمة الثالثة والعشرين.

أما الجمال بمحاسنه وجلواته فثابتٌ بكمال حشمته في تجدد شؤونه وتعدد مراياه. وأما المرايا والمظاهر فتظهر لوظيفتها وهي راقصةٌ، فإذا تمت الوظيفةُ استترت وهي ضاحكة.

كذلك أنت، قاعد على ساحل بحر الدنيا تتألم باكيا على أُفول ذوي الكمال والجمال والحسن، وعلى زوال ثمرات النِّعم عند انقضاء أوانها، تزعم بالغفلة أن الجمالَ مِلكُ ذي الجمال والثمرات مال الشجرة، وتغتصبهما منهما عاصفات التصادفات فتلقيهما في ظلمات العدمات. أفلا تعقل أن من نوّر ما تحبه بنور الحُسن هو الذي نوّر كلَّ أزاهير بستان الكائنات وشوّق عليها قلوب البلابل العاشقين.

إلى كم تبكي أيها المسكين على زوال ما في يدك من الثمرة! فانظر إلى تواتر نِعَم فالق الحب والنوى في إبقاء شجرة تلك الثمرة.. ثم إلى دائرة إنعاماته في أقطار الأرض من أمثال تلك الشجرة إن عقمت.. ثم إلى دائرة تجدد إحساناته في تجدد الفصول والسنين إن صارت سنتُك شهباء.. ثم إلى دائرة إدامة إحسانه حتى في عالم المثال والبرزخ بأمثال ما شاهدتَ في عالم الشهادة.. ثم إلى دائرة إنعاماته الواسعة الأبدية في عالم الآخرة بأشباه ما استأنستَ به في حديقة الأرض، ثم.. و.. ثم.. وهكذا! فلا تنظر إلى النِّعمة بالغفلة عن الإنعام حتى تحتاجَ إلى التشفي بالبكاء، بل انظر من النِّعمة إلى الإنعام ودوامِه، ومن الإنعام إلى المُنعِم ووسعةِ فيضه وكمالِ رحمته، فاضحك شاكرا له، وبفضله فافرح.

وحتى متى تدمع عينُك ويجزع قلبُك على فراق جمالٍ زالَ! فانظر إلى كثرةِ ووسعة الدوائر المتداخلة المحيطة بما تحبه؛ تنسيك ألَمَ فراقه بإذاقة لذةِ تجدُّد أمثاله وترادفِ أشكاله. وتلك الدوائرُ المتفاوتة صغرا وكبرا إلى أصغرَ من خاتمِك وأكبرَ من منطقة البروج، وزوالا وبقاءً إلى آنٍ ودقيقة وإلى دهر وأبدٍ؛ مظاهرُ ومرايا ومعاكسُ ومجاري لجلواتِ ظلالِ أنوارِ جمال ذي الجلال والإكرام الأزلي الأبدي السرمدي القيوم الباقي المقدَّس عن الحدوث والزوال المنـزّه عن التغيّر والتبدل. فلا تظنن أن ما في المرآة مُلك للمرآة، كي لا تبكي على ما في المرآة بموتها وانكسارِها، فارفع رأسَك عن الدنيا بخفضه إلى منظار قلبك لترى شمسَ الجمال، فتعلمَ أنّ كلَّ ما رأيتَ وأحببت إنما هو من آياته نِعَمٌ.. ومن آيات جماله أنْ زيّن السماء بمصابيحها والأرضَ بأزاهيرها.. ومن آيات حُسنه أنْ خلق الإنسانَ في أحسن تقويم.. وأن

كتبَ العالَم في أبدع ترقيم.. ومن آيات بهائه أن أشرق أرواحَ الأنبياء ونوّر أسرارَ الأولياء وزيّن قلوبَ العارفين بأنوار جماله المجرد. جلّ جلاله.

اعلم يا أنا! أراك أنك لا ترى تناسبا بينك -وأنت عجزٌ مطلق وفقر مطلق، قد تضايقتْ عليك الحدود والقيود حتى صرت كذَرَّة غابت في رمال الجزئيات وكنملة تراكمت عليها جبال الحادثات، وكنحلة تفاقمت عليها العاصفات- وبين مَن لا نهاية لقدرته وغنائه، ولا حدَّ ولا قيدَ لتجليات أسمائه وصفاته، وجميعُ الخلق في قبضة قدرته، والسماوات مطوياتٌ بيمينه، لا تتحركُ ذرةٌ في الكون إلّا بإذنه، لا شريك له في مُلكه وألوهيته، ولا منازعَ له في جبروته وربوبيته، ولا إله إلّا هو.

نعم، لو كانت وظيفتُك في الدنيا الاشتراكَ مع فاطرك في ربوبيته سبحانه، لكانت المناسبة لازمة في المعاملة معه، لكن هيهات! أين يدُ البعوضة من نسجِ قميصاتٍ مطرّزات قُدّت على مقدارِ قامات هذه العوالم، بل وظيفتُك في فطرتك وغايةُ كمالك في استعداد ماهيّتك إنما هي: العبوديةُ التي على المحوية تنبّتَت، ومنها ابتدأت وإلى المحبوبية انتهت، وإياها أثمرت. والعبوديةُ ضد الربوبية والمالكية. فعدم المناسَبة هي المناسِبة. فبدرجة علمك ببعدك عن الربوبية والمالكية تصير عبدا محبوبا مرحوما.

وإن العبوديةَ مرآةُ الربوبية بالضدية ككتابة الحروف النورية على صحيفة الظلمة، فكلما تقربَت إلى العدم تراءت منها أعالي مراتبِ جلواتِ الوجود للواجب الوجود جل جلاله ولا إله إلّا هو..

اعلم[1] يا من يتوهم المبالغة في بعض ما ورد في فضائل الأعمال! مثلا: قد يُروى: من فعل هذا مثلا كان له مثلُ ثواب الثقلين.. حتى قال بعض: إن المرادَ الترغيب فقط، وبعض: مطلق الكثرة. وقد انكشف لي في ما مضى أن القضيةَ في تلك المتشابهات مطلقةٌ وقتية يكفي في صدقها وجودُ الحُكم في بعض الأفراد، في بعض الأوقات، فليست تلك القضايا كلية؛ إذ لصحتها شرائطُ غيرُ مذكورة معروفةٍ. فإن كانت كليةً فهي قضيةٌ ممكنة، وكذا ليست دائمة، لتقيّدها بالإخلاص وبالقبول.

(١) الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين يوضح هذه المسألة.

وقد انكشف لي الآن، أن الثوابَ فضلُ الله وفيضُه، ونظرُ العبد لا يحيط بما يعطي مَن لا نهاية لتجليات فيضه لعبده الذي لا نهاية لاحتياجه في دارِ بقاء لا نهاية لدوامها. فما من فيضٍ -إذا نظرتَ إليه من جانب الله-، إلّا وفيه جهةٌ من عدم التناهي لو وزِنَ بجميع ما أحاط به علمُ العبد لزاد عليه. مثلا روي: من قرأ هذا أُعطي له مثلُ ثواب موسى وهارون عليهما السلام.[1] المراد أن ما ترونَه وتتصورونه بنظركم المتناهي في هذا العالم المتناهي من ثوابهما لا يزيدُ على ثواب قراءة آيةٍ في نفس الأمر وبالنظر إلى الله بشرط القبول والإخلاص.

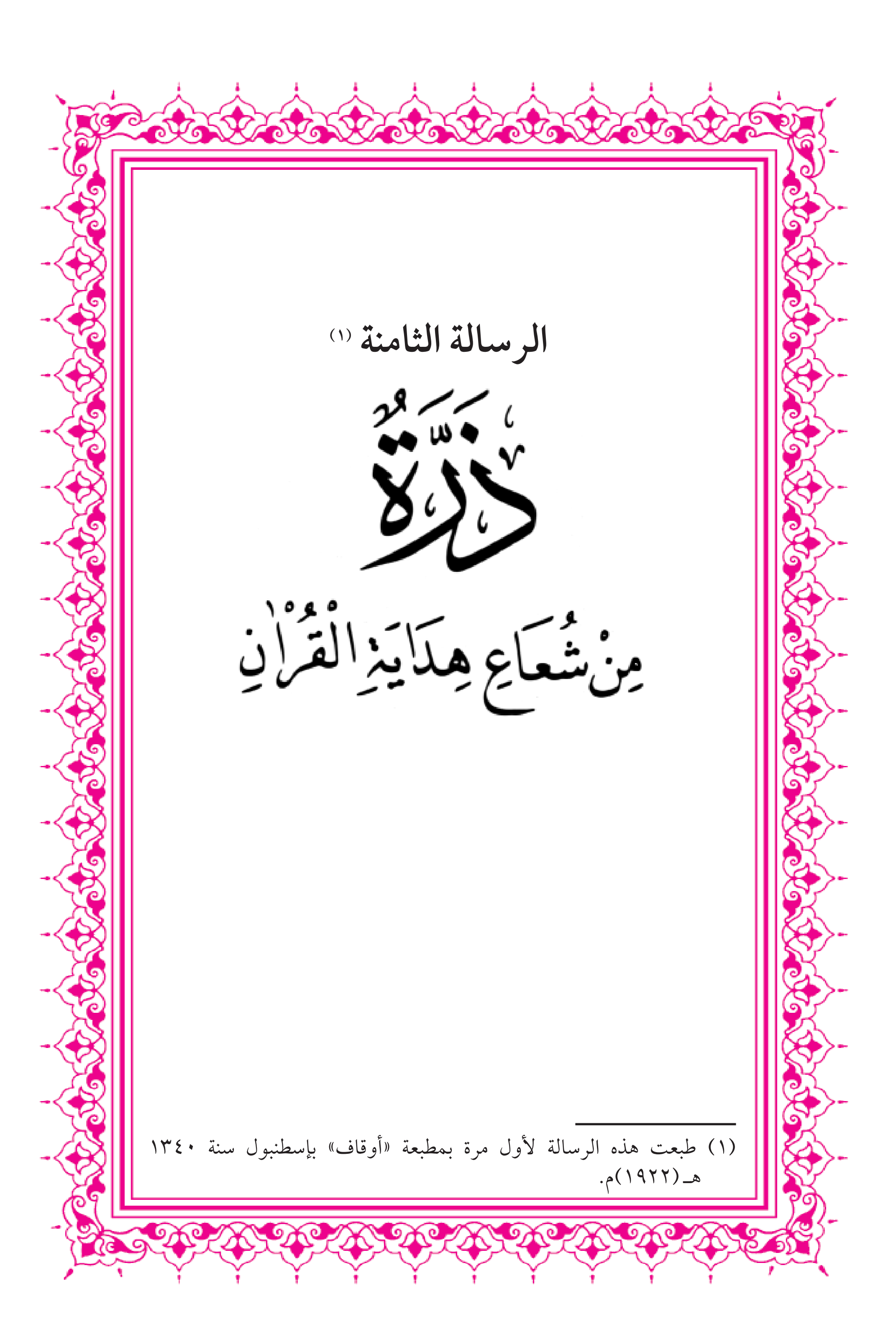
وكذا إن التشبيه في الكمية دون الكيفية، فللقطرة المتشمسةِ أن تقول للبحر لا يزيدُ وجهُك على عيني في أخذ فيض الشمس من ضيائها وألوانه.

نعم، إن الثواب ينظر إلى عالم الإطلاق، وذرةٌ من ذلك العالم تسعُ عالَما من هذا العالم، كما تسعُ ذرةٌ من زجاج عالمَ السماء بنجومها.

وكذا قد يتيسر لأحد فتحُ خزينةٍ من رحمة بكلمة طيبة في حالةٍ قدسية، فيقيس الناسَ على نفسه فيعبر عن القضية الشخصية بالمطلقة الموهِمة كليةً، والعلم عند علام الغيوب ومقلّب القلوب جل جلاله.

* * *

(١) الحمد لله رب السماوات ورب الأرضين رب العالمين وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. الحمد لله رب السماوات ورب الأرضين رب العالمين وله العظمة في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، وله الملك ربّ السماوات وهو العزيز الحكيم.



الرسالة الثامنة [1]

ذَرَّةٌ

مِنْ شُعَاعِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ

(١) طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «أوقاف» بإسطنبول سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢)م.

في (ط١)

اعلم أن هذه الرسالة محادثاتٌ مع نفسيَ الأمارةِ المرائية، ورشاشاتٌ من شرارات «القطرة» أظن أنى مأذون في نشرها. إذ يتكرر الاحتياج للمعالجة في كل «رمز» مادام لم يُكتب. فإذا كُتب يزول الاحتياج، لكن يبقى نوعُ تمايل للمناقشة مادام لم يُنشر. فإذا نُشر زال ذلك واطمأن القلب. فيدل على أنه ليس لي فقط، بل فيه للغير حصةٌ. فلهذا أتجاسر على نشرها لعل فيها نفعا لبعض الناس إن شاء الله تعالى.

ولتنوع الرموز يمكن الاستفادة لكثير فـ«ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك كله». ولترك التصنع تركتُ الخاطرات في الصور التي برزتْ فيها أولَ ما خطرت في القلب. ومن الله الهداية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يا مَن له الملك وله الحمد صلّ وسلم على سيد البشر الذي قلتَ له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ (الأنفال:٦٤)، فقال: لبيك! بحيث أسمعَ من عرفاتٍ ملائكةَ السماوات العليا.. فقلتَ: بشِّر وأنذر. فنادى بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة:٢١) بحيث أسمعَ أدوارَ الزمان وأطراف المكان.. إذ صار ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة:١١٩) بطَور المشاهِد.. إذ يشاهِد فيشهَد مناديا لأجيال البشر خلف الأعصار والأقطار.. إذ أسمعَ، فهذا صدى صوته يُسمَع بأعلى صوته.. إذ قد ملأ الدنيا بنداء القرآن وبجميع قوّته.. إذ قد استولى على نصف الأرض وبكمال جدّيته بشهادة سِيَره، وبغاية وثوقه بشهادة زهده في الدنيا، ونهاية اطمئنانه بشهادة قوة دساتيره ومعالمه، وبكمال إيمانه بشهادة أنه كان أعبدَ وأتقى من الكل.

اعلمي يا أيتها النفس الجاهلة! أن الأبوابَ المفتوحةَ النظارة إلى الله عدد طبقات العالم وصحائفه، وعدد المركبات المتصاعدة والمتنازلة. فما أجهلَكِ؛ إذا انسدّ في وجهكِ بابٌ عادي تتوهمين انسدادَ كلِّ الأبواب. مَثَلُك كمثل مَن إذا لم يَرَ أو لم يعرف في بلد فرسانَ العسكر مع وجود سائر جيوش السلطان وخدّامِه ودوائر حكومته، يشرع ينكر وجود السلطان ويؤوّل كلَّ شعائره ومعالمه.

اعلم أن الدليلَ على أن الباطن أعلى وأتمَّ شعورا وأقوى حياةً، وأزيَنُ وأعلم وأكمل وأحسن وألطفُ من الظاهر.. وأن ما على الظاهر من الحياة والشعور والكمال وأمثالِها، إنما هو ترشّحٌ ضعيف من الباطن -لا الباطن جامدٌ ميّت أثمَر حيّا عليما- كونُ بطنِك أكملَ انتظاما من بيتك، وجلدِك أحسنَ نسجا من ثوبك، وحافظتِك أتمَّ نقشًا من كتابك. فقس على هذه الجزئيات عالَمَ المُلك وعالمَ الملكوت وعالَمَ الشهادة، وعالمَ الغيب والدنيا والآخرة. فيا حسرةً على النفوس! إن النفس الأمارة النظارة بعين الهوى ترى الظاهر حيا مونسا مفروشا، على باطنٍ ميت عميق مظلم موحش..

اعلم أن وجهَك يتضمن من العلامات الفارقة عددَ أفراد الإنسان الماضية والآتية، بل

لو وجد الغير المتناهي من الأفراد لتصادف كلُّ واحدٍ في وجهك ما يميزك عنه -مع التوافق في أركان أجزاء الوجه- كأن الوحدة تجلّت من وجهك في كثرة غير متناهية.

فالتوافقُ في أساساتِ أعضاءِ أفراد الإنسان والحيوان يدل بالبداهة على أن الصانعَ واحدٌ أحدٌ. والتخالفُ في التعيّنات المنتظمة يدل بالضرورة على أن الصانع مختارٌ حكيم.

ويتعاظم هذا السر بالنظر إلى كل فردٍ فردٍ.. ومن أبعدِ المحالات وأبطلِها أن لا يكون هذا التمييز الحكيم والتخالف المثمر والتفريق المفيد بقصدِ قاصدٍ واختيارِ مختارٍ وإرادة مريدٍ وعلم عليم.

فسبحان مَن أدرجَ وكتبَ الغيرَ المتناهي في صحيفة الوجه، بحيث يُقرأ بالبصر ولا يُحاط بالعقل. نعم، يُقرأ بالنظر واضحا مفصلا ولا يُرى بالنظر إجمالُهُ، بل ولا بالعقل أيضا. فهو المعلوم المُبْصَر، المجهولُ المطلق، والمشهودُ الغائب. فمحالٌ بمراتبَ أن يكون هذا التخالفُ المنتظم المفيد في نوع الإنسان، والتوافقُ المطّرد المتناظر في أنواع أمثال الحنطة والعنب، وكذا النحل والنمل والسّمك، بالتصادف الأعمى والاتفاقية العوراء، كلَّا ثم كلَّا. إنه لصنعةُ سميعٍ، بصير، عليم، حكيم.

فإذا كان أوسعُ أطوار الكثرة وأبعدُها وأرقاها، وأنسبُ مراتب الكثرة لجولان التصادف -لو كان- وأكثرُها انتشارا وأدناها أهميةً هكذا غيرَ مُهمَلٍ ولا سدىً، بل محفوظا من يد التصادف، حتى صار ميدانا لجولان القصد الحكيم والاختيار العليم والإرادة السميعة البصيرة.. فيا أيها التصادفُ لا محلّ لك في مُلك الله، فاذهب مع أخيك الطبيعة وأبيك الشرك إلى جهنمِ العدم والفناء بل الامتناع. وآيةُ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ (الروم:٢٢) أشارت إلى أولِ مراتب تجلّي الحكمة وإلى آخرها..

اعلم أن مما يوسوس به الشيطان، أنه يقول: إن البقرَ مثلا لو كان مُلكا ونَقشا للقدير الأزلي العليم لمَا كان هكذا مسكينا، إذ حينئذ تحت جلده وداخل بيته يحكم قلمُ قديرٍ عليم مريد على الإطلاق؛ فكيف صار فوق الجلد وخارجَ البيت هكذا عاجزا جاهلا يتيما مسكينا؟

قيل له: أيها الشيطان الإنسي الذي صار أستاذا لشياطين الجن!

أولا: لو لم يكن صنعةَ القدير الأزلي الذي يعطي كلَّ شيء ما يليق به بمقدار المصلحة، لزِم أن يكون إذَنْ حمارُك أعقلَ وأحذقَ منك ومن أساتيذك، ولزِم أن يكون في داخل إصبعك -مثلا- شعورٌ واقتدارٌ يزيدان على شعورك واختيارك بمراتب. فمَن قيَّدَهما في حدِّهما مع أن شأن هذه اللطائف الانبساط والانتشار؟

وثانيا: إنّ القدر يرسم مقدارا وقالبا، يُنشئ منه قابليةً، تقبل من الفيض المطلق مقدارَ قالبه، وكل ما يترشح من الداخل إلى الخارج فبمقياس الجزء الاختياري وميزانه، وبقدر الاحتياج ودرجته، وبمساعدة القابلية وتحملها، وبميزان نظام حاكمية الأسماء وتقابلِها. فليس المصنوعُ البقرُ فقط، خارجُه داخلَ آخرَ. ففي كل شيء الداخلُ مظهرُ المطلق، والخارجُ مظهرُ المقيد. ومَنْ طلب إضاءة الدنيا وجذبَ السيارات ومركزيةَ العالم وأمثالَها من لوازم عظمة الشمس وحشمتها، من شُميسة الحباب، انعزلَ عن العقل.

نعم، يصف الحبابُ تلك اللوازم ولا يتّصف..

اعلم أنك صنعةٌ شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع؛ مُجَسَّمُ الحكمة النقاشة، ومتجسّدُ العلم المختار، ومُنجَمدُ القدرة البصيرة بما يليق بك، وثمرةُ الرحمة السميعة لنداء حاجاتك، ومتصلَّب الفعل المريد لما يريده استعدادُك، ومتكاثَف الإنعام العليم بمطالبك، وصورةُ القدَر المرسِّم المهندس الخبير بما يناسب بناءك. فكيف يمكن لك أن تذهب بجزئك الجزئي الاختياري والشعرة الشعورية، وتخلص عن أحكام الكل وتصير حرا برأسك. ثم ترجع تقيس الكل على الجزء؟ وكيف يتيسر أن تتغافل عن مالكك المالك لكل شيء؟ وكيف تتوهم مع هذا العلم أن ليس عليك رقيبٌ، سميعٌ، بصير، عليم، مجيب، مغيث.. يسمع أنيناتك يبصر فاقاتك ويعلم جناياتك؟

يا نفسي المسكينة، لم تتوهمين نفسَك خارجةً؟[1] حتى يلزم عليك مراعاةُ كل حي واحترامه، أو ظلم الكل بعدم الأهمية. فهذا حملٌ ثقيل لا يُطاق حَمله، فحينئذٍ لابد أن تتركي الأجنبيةَ الشركية[2] وتدخلي في دائرة مُلك الله، لتستريحي بالأخوة، بل تصيرين أختا كبيرة

(١) أي خارج الدائرة التي تجلى القدرُ والصفات الإلهية فيها.
(٢) الشرك الذي هو أجنبي عن الفطرة (ت: ١٦٦).

محترمة. ألا ترين أن مثَلك كمثل مَن كان في سفينة مشحونة بمال السلطان وقد فُوّض إليه تدبيرٌ جزئي من دواليبه، فوضع الشخصُ الأبله ذلك الدولاب المربوط بالسفينة مع أرزاقه على ظهره بكمال الاهتمام. فإن كان له جزء من العقل لقال: إني أيضا في السفينة فأطرحُ فيها مالي مع مال مالكها.. وكذا واحملي الدساتير الإسلاميةَ على سفينة دماغ عالم الإسلام لتستفيدي وأنت مستريحة مطمئنة...

اعلم أن من خلَقك لا يُبعَد منه ولا يُستغَرب أن يخلق العالَم بجميع ما فيه، لأنه فيك ما فيه.[١] بل يجب أن يكون خالقُك هو الخالق لكل شيء، لامتناع أن يكون خالقُ البطيخ غيرَ خالقِ نواته التي هي أنموذجُه المصغر المتلخّص منه المُحاط به...

اعلم أنك مقيّدٌ بالتعيّن، في مقيّدٍ بالبدن، بمقيد بالعمر، محدودُ الحياة في محدود البقاء بمحدود الاقتدار. فحينئذ لابد أن لا تصرفَ هذا العمرَ القصير القليل الفاني للفاني حتى يفنى، بل للباقي ليبقى؛ إذ الاستفادة منه هنا تصير مائة سنة، كمائة نواة نخلة تتآكل مع يبوستها وقلة نفعها وإضاعة فوائد الغرس على آكلها، وإن وجّهت إلى الآخرة وسُقيت بماء الشريعة صارت مائةَ نخل باسقات.. الحق أن مَن يشترى بمائة نخل باسقات، مائةَ نواة يابسات.. فهو لائق لأن يكون حطب الحُطَمَة..

اعلم أن مخزنَ الأوهام والشبهات بل الضلالات فرضُ النفس نفسَها خارج الدائرة التي تجلى القدَرُ والصفات الإلهية فيها، ثم تفرضُ النفسُ نفسَها الأجنبية[٢] في موقع الشيء الذي تعلّق به القدرُ وتجلى عليه اسمٌ من الأسماء الإلهية فتفنى فيه، ثم بصبغة الأجنبية تشرع تُخرج ذلك الشيء أيضا عن مُلكِ الله، وتصرُّفِ قُدرتِه بتأويلاتٍ تصير بها أستاذَ الشياطين، وتعكس حالاتها المترشحة من شركها الخفي في ذلك الشيء المعصوم. فالنفسُ الأمارة كالنَّعامة ترى فيما عليها، لها وجها،[٣] وكالسوفسطائي تقول للمتخاصميَن: يا هذا دليلُ خصمك يردّك، وكذا: يا ذا دليلُ هذا يبطلك، فلا حق لكما.[٤]

اعلم أن النفس تديم الغفلةَ بربط الدنيا بالآخرة، كأنها منتهاها، كلا بل معكوستها.

(١) أي لأن فيك ما في العالم (ت: ١٦٦).
(٢) حيث فرضت نفسها أولا خارج الدائرة.
(٣) تظن أن في الأمور التي تدينها وجها يؤيدها ويسندها (ت: ٦٦).
(٤) أي دليل الواحد يرد الآخر، فلا يبقى دليل لأحد (ت: ١٦٦).

فبتصور الآخرة -ولو مع الشك- تتخلص من دهشة فناء الدنيا وألم الزوال، وبسبب الغفلة أو الشك تريد الخلاصَ من كلفة العمل للآخرة وتنظر إلى الأسلاف الميّتين، كأنهم أحياءٌ غائبون، فلا تعتبرُ بالموت. وكثيرا ما يَثبت عروقُ مطالبها الدنيوية في أرض الآخرة للتأبيد بدسيسةٍ، أنّ تلك المطالب لها وجهان: وجه إلى الدنيا لا ثباتَ له، بل هباءً منثورا. ووجه إلى الآخرة تتصل أساساته بأرضها فتدوم، كالعلم مثلا له وجه مظلم ووجه مضيء. فالنفس الشيطانة تريك المضيء وتُبلعك المظلم.[١] إذ النفس نعامة (دوَه قوشي) والشيطان سوفسطائي، والهوى بيطاشي..[٢]

اعلم أني قد تيقنت بلا ريب أنه لو لم تصدُق «الموجبة الكلية» لزِم صدقُ «السالبة الكلّية» في مسألة خلق الأشياء؛ إذ كل الخلق بالتساند المنتظم كلٌّ لا يقبل التجزي، فإما وإما.[٣] مع أن الوهم الذي يطيق أن يتوهم عدمَ العلة في كل شيء أوهنُ بمراتبَ من نسج العنكبوت، فالقبول في شيء ما، يستلزم بالحدس الصادق القبولَ في كل شيء.

وكذا، إن الخالقَ إما واحدٌ وإما غيرُ متناهٍ، لا وسط قطعا، إذ الصانع لو لم يكن واحدا حقيقيا، لكان بالضرورة كثيرا حقيقيا. وهو ما لا يتناهى. وعلى الثاني -مع محالات عجيبة- يلزم عدمُ التركيب وفقدُ الوحدة مطلقا وامتناعُ الوجود.

اعلم أنه كما أن من المحال الظاهر أن يكون منيرٌ غيرَ متنور، والموجِد غيرَ موجود، والموجِب غيرَ واجب.. كذلك محالٌ أن يكون مُنعِمُ العلم غيرَ عالم، ومُحسنُ الشعور غير ذي شعور، ومُعطي الاختيار غيرَ مختار، ومُفيض الإرادة غير مريد، وصانعُ المكمّل غير كامل. وهل يمكن أن يكون مُرسم العين ومصوّر البصر ومنوّر النظر غير بصير؟ بل من الواجب أن يكون ما في المصنوع من أنواع الكمال من فيض الكمال المناسب للصانع.. والمكروب الذي لا يعرف من الطيور إلا البعوضة إذا رأى البازي يقول ليس بطير إذ ليس له ما للبعوضة..

اعلم أن أشد ما تطلبه النفسُ الناطقةُ البقاءُ والدوامُ، حتى لو لم تنخدع بتوهم الدوام

---

(١) أي تريك الوجه المضيء من العلم بأن له فوائد ستظهر في الآخرة وإن لم تظهر في الدنيا. وذلك ليُبلعك الوجه المظلم منه. (ت: ١٦٦).

(٢) التشبيه هنا مبني على أسس معينة؛ فالنفس تغمر رأسها في الغفلة كالنعامة لئلا يصيبها الأجل، والسوفسطائي ينكر كل شيء كالشيطان، والبكتاشي كالهوى يغيّر معاني الأشياء فيقول: مثلا: الصلاة ليست مفروضة، إذ قال الله ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ﴾ ولا يتم الآية ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ .

(٣) فإما أن الله خالق كل شيء وإما أنه ليس بخالق شيء. (ت: ١٦٧).

ما التذّت بشيء. فيا طالبةَ الدوام اشتملي على ذكر الدائم لتدومي، وكوني زجاجةً لنوره لئلا تنطفي، وصدَفا لدرّه لتصطفي، وبدنا لنسيم ذكره لتحيَي، وتمسكي بالخيط النوراني الذي هو شعاع من اسم من الأسماء الإلهية لئلا تسقطي في فضاء العدم. فالثمرة الغافلة إذا لم تتوجه إلى ما تقوم به، وانجذبت إلى التشعشع الأجنبي وضحكهم في وجهِها، انقطعت وسقطت على رأسها!

يا نفسُ استندي على ما يقوّمكِ، إذ إلى عهدته منك من الألف تسعُمائة وتسعةٌ وتسعون، وإليك واحدٌ فقط. فاطرحي واحدَكِ أيضا في سفينة مالِه واستريحي.

اعلم أنكَ إذا لم تُطق أن تفعلَ لنفسك، ولم تصلْ يدُك إليك، فالناس والأسباب البُعَداء-بالطريق الأولى- لا يطيقون ولا تصل أيديهم إلى خُوَيْصَّة ذاتك، فجرّب نفسَك هل تقدر أن تصنع لسانك الذي هو شجرة الكلمات وحوض الأذواق و«سانترال» المخابرات، فإنْ لمْ، ولم[1].. فلا تشرك بالله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

اعلم أن العالم دكان ومخزنٌ إلهي يوجَد فيه كلُّ نسجٍ وطرز وشكل وقشر، كثيف ورقيق وزائل ودائمي، ولبٌ صلب ومايع وهوائي، بعضها نَسجُ الإيجاد وبعضها ترسيم التجلي. قد ضلت الفلاسفةُ في الإيجاب بالذات، بإدراج الإيجاد في التجلّي...

اعلم أن الشرك الخفي الناشئ من الأنانية، إذا تصلَّب انقلبَ إلى شرك الأسباب،[2] وهو إذا استمر تحوّل إلى الكفر، وهو إذا دام تبدَّل إلى التعطيل، والعياذ بالله...

اعلم أن طلَب الضياء في طور الظلمة مع محافظة النفس عليها وتطبّعها بها أليم شديد، مخلٌّ بحرمة الضياء، ومُلَوِّثٌ له. فلابد من التعري والانسلال من الظلمة. ثم النظر منها -لا فيها- إلى الضياء.

اعلم أن من الأعاجيب؛ أن الإنسان خُلق ليكون فاتحا وكاشفا مريئا، وبرهانا نيّرا، ودليلا مبصّرا، ومعكِسا نورانيا، وقمرا مستنيرا للقدير الأزلي، ومرآةً شفافة لتجلي الجمال الأزلي. وقد انجلت وتصيقلت بحمل الأمانة التي تدهّشتْ من حملها السماوات والأرض

(١) فإن لم تصنع ولن تصنع (ت: ٦٨).
(٢) المقصود بالأنانية: الغرور وتفسير كل شيء وفق ما يطلبه «أنا» أما شرك الأسباب فيعني إعطاء الأمور والتصرف بيد الأسباب. والفقرتان التاليتان توضحان المسألة.

والجبال. إذ من مضامين تلك الأمانة صيرورةُ الإنسان واحدا قياسيا لفهم الصفات المحيطة، وصيرورةُ ما فيه من «أنا» -الذي هو النقطة السوداء بالغفلة والشرك الخفي- مفتاحا لتنوير الصفات. فكيف ولأي شيء صار أكثرُ الإنسان حجابا وبابا وسدا. وكان لازما عليه أن يفتح فأغلَق.. وأن ينوِّر فأظلم.. وأن يوحِّد فأشرك.. وأن ينظر بمرصاده إلى الله فيسلِّم المُلكَ إليه، لكن نظر إلى الخلق بمرصادِ «أنا»، فقسّم مُلكَ الله عليهم.. نعم، إن الإنسان لظلوم جَهُول.

اعلم يا نفسي، إن أرضيت خالقَك بالتقوى والعمل الصالح، كفاكِ إرضاءَ الخلق. فإن رضوا منك بحسابه تعالى فنافعٌ، وبحساب أنفسهم فلا فائدة، إذ هم عاجزون مثلك. فإن أردت الشق الأول فأرضِ ربَّك، وإن أردتِ الثاني أشركتِ بلا فائدة.. ألا ترين أن مَن ذهب إلى مقرِ سلطانٍ مطلقٍ لمصلحةٍ، إن أرضاه تمت بلا كلفة، مع محبةِ الرعية له. وإن طلبها ممَن تحت حكمه المطلق يتعسّر -بل يتعذر- إرضاءُ الكل واتفاقُهم على إيفاء مصلحته. ثم بعد الاتفاق يحتاج إلى إذن السلطان، وإذنُه يتوقف على إرضائه إن كان إكراما، وإن كان استدراجا فلا بحث.

اعلم أن الواجبَ الوجود كما لا يشبه الممكنَ في الذات والماهية، كذلك لا يشبهه في أفعاله.. مثلا: لا فرقَ بالنسبة إليه بين القريب والبعيد، والقليل والكثير، والصغير والكبير، والفرد والنوع، والجزء والكل بالحدس الشهودي. وكذا لا كلفةَ ولا معالجة ولا مزاولة ولا مباشرة في فعله، خلافا للممكن. ولهذا يتحير العقلُ في فهم كنهِ أفعاله تعالى فيظن الفعلَ لا فعلا.[١]

اعلم أن أنيابَ الأسد كما تدل أن من شأنه الافتراسَ، وأن لطافة البطيخ على أنه للأكل، كذلك استعداد الإنسان يدل على أن وظيفتَه الفطريةَ العبوديةُ. وأن عُلويةَ روحانيته واشتياقَه إلى البقاء والأبدية تدل على أن الإنسان خُلق أولا في عالمٍ ألطفَ من هذا العالم، وأُرسل إلى هنا، ليتجهّزَ ويعود إليه. وأن كونه ثمرةَ شجرةِ الخلقة يدل على أن من الإنسان مَن هو نواة أنبت منها الصانعُ شجرةَ الخلقة، وما تلك النواة إلا مَن اتفق كلُّ الكُمّل، بل نصفُ البشر -بسر انصباغ العالم بصبغته المعنوية- على أنه أفضلُ الخلق بالتمام، وهو نورُ سيد الأنام الفاتحِ الخاتم عليه الصلاة والسلام..

(١) فينكر الفاعل (ت: ١٦٩).

القطعة الثانية من

ذرة من شعاع هداية القرآن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اعلم أن ناظمَ السماوات والأرض، ومكوّرَ الليل والنهار على جمجمة أرضنا ومهدنا كالعمامة المخططة، كيف يليق بألوهيته أن يفوّضَ بعضَ صفحات العالم إلى ممكنٍ مسكين؟ وهل يمكن أن يتصرفَ بالذات في ما تحت العرش غيرُ ربِّ العرش؟ كلّا. إذ لا تتقاصر تلك القدرةُ عن الإحاطة. فلا فُرجةَ للغير للمداخلة، مع أن عزةَ الجبروت والاستقلالية، ومحبةَ التودد والتعرّف لا تساعد[١] للغير -كائنا ما كان- أن يكون حجابا وواسطةً اسميةً تجلب إلى نفسه أنظار عباد الله.

على أن التصرفاتِ في الكل والجزء والنوع والفرد متداخلةٌ متساندةٌ لا يمكن التفريق ولو بين فاعلين متفقين، إذ ناظِم العالم في عين الوصف يدبر مهدَنا، وفي عين الحال يربي الإنسان، وفي عين الوقت يتصرف في شؤونات الأنواع، وفي عين الآن يصنع حُجيرات البدن، وفي عين الزمان يخلق الذرات بتلك القدرة المتوجهة إلى جميع الصفحات. بل بعين النظم يدبر، وبنفس التدبير يربّي، وفي عين التربية يتصرف ويخلق.

فكما لا يمكن أن تُنور الشمسُ وجهَ البحر دون خدود الحبابات، وعيونِ القطرات، وأناسي الرشاشات.[٢] كذلك لا يمكن مداخلةُ شيء من الأشياء في ذرة من حجيرة من عضو من جزئي من ساكني الأرض بغير القدرة التي تكوّر ليلَها ونهارها. ومن صوَّر وأنشأ ونظّم دماغَ الذباب وعينَ المكروب، لا يترك أفعالَك غاربها على عنقها[٣] سُدىً ومهملة بل يكتبها في «إمام مبين»، فيحاسبك عليها.

---

(١) بمعنى لا تسمح.

(٢) أناسي: جمع إنسان: وهو هنا إنسان العين أي سوادها ومقلتها. أي مُقل الحبيبات المائية المتطايرة من رشاش الماء والشلال.

(٣) ينظر إلى الهامش في رسالة «لا سيما».

اعلم أن ما يُتحدس ويُرى في كل مصنوع، بل في كل ذرة من التصرف المطلق، والقدرة المحيطة، والحكمةِ البصيرة -بجميع ما يتعلق بها وما يُنظَّم معها في سلك- برهانٌ باهر وآية بينة؛ على أن صانعَ كلِّ شيء واحدٌ لا شريك له، وليس لاقتداره توزيعٌ ولا انقسام ولا تجزؤ اللازمةُ للانتهاء، إذ لو كان الممكن صانعا، لكان في تصرفه توزيعٌ وفي قوته انقسامٌ وفي توجّه اقتداره واختياره تجزؤ، مع أن ما يتعلق من الثلاثة بالنحلة مثلا بحيثية لا يمكن -لو كان من الممكن المتجزي المتجاوز- أن لا يتجاوز. مع أن النحلةَ تتكشف عن اقتدار صانعها بوجهٍ لا يتعسر على ذلك الاقتدار خلقُ عوالمَ. فكيف ينحبس فيها ولا يتجاوز إلى المجاور، فلا بد بالضرورة أن يكون الصانعُ واجبَ الوجود واحدا لا نهاية ولا حدّ ولا انقسام لقدرته التي تجري في ميزان قدَره، وتُكتب على مسطره.

اعلم أن كونَ البعوضة والعنكبوت والبرغوث وأمثالها أذكى بمراتب، وأجزَل فطرةً، وأتم صنعةً من الفيل والجاموس والإبل، مع قصر أعمار هؤلاء، وعدم نفعها ظاهرا، بخلاف أولئك.. برهان باهر وآية نيّرة على أن الصانع لا كُلفةَ ولا معالجة ولا تعمُّل في خلقه الأشياءَ، بَل يقول: كن فيكون، ولا يَحكم عليه شيء، يفعل ما يشاء لا إله إلّا هو.

اعلم أن شُميسةَ الحباب كما أنها جزء كذلك جزئي؛ إذ هي شمسٌ بالهوية الظلّية دون الماهيةِ الأصلية فهي لا هي ولا غيرُها. فاشتراكُ الكائنات في الشمس لا ينقص من حصة الحباب شيئا، سواءٌ وجودُها وعدمها بالنسبة إليه. فللحباب أن يقول: الشمسُ بالتمام لي وفيّ، متوجهة إليّ.

اعلم أن ما يتصاغر ويتباعد عن دائرة الاسم الظاهر العظيم الواسع يتقارب ويتقيد بدائرة الاسم الباطن النسبي أو الحقيقي ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ (البروج:٢٠) بأسمائه.[1] فالإنسان بذهنه الجزئي المحدود المقيد الفاني فيما تعلق به، ينظر إلى عظمته تعالى وتدويره للسيّارات حول الشمس، فيستبعد منه أن يشتغلَ بخلق الذباب مثلا، بقياس الواجب على الممكن المسكين قياسا شيطانيا. فمن هذا القياس ينشأ ظلمٌ عظيم للمخلوقات الصغيرة، وتحقير لهم؛ إذ ما من شيء إلّا ويُسبّح خالقَه، ولا يتنـزل لأن يكون له ربٌّ غيرُ مَن صيّر الدنيا بيتَه، والشمسَ سراجَه، والنجومَ قناديلَه، كأنه ليس في الدنيا إلّا ذلك الشيء الحي. فلا يجوز

(١) محيط بعلمه وإرادته وقدرته وبسائر صفاته الجليلة (ت: ١٧١) فلا شيء خارج دائرة إحاطته.

للكبير أن يتكبَّر على الصغير، إذ الوجود كالحق، لا فرق بين القليل والكثير. وكم من قليلٍ كثيرٌ، وكثيرٍ قليلٌ.

اعلم أن كل شيء -من شمس الشموس إلى ثمرة الشجرة- إذا أُمعن النظرُ يُرى أنه انتُخب واختير ومُيّز مما لا يحد. فأي شيء كان ينظر إلى ما لا يتناهى، فلا يَتصرف فيه بالذات إلّا من لا نهاية لتجليات صفاته. فتأمل!

اعلم أن العموم لا ينافي القصدَ الخصوصي والعنايةَ الشخصيةَ في الإنعام، إذ نِعمُ الله ليست مثلَ مال الوقف أو ماء النهر،[1] حتى يُرى إنعاما على الإطلاق، وحتى لا يُحِس الشخصُ في نفسه احتياجا إلى الشكر الخاص. وأن التعيّنات والخصوصيات ليست كالأواني والقوالب الحاصلة أوّلا، حتى يكون التعيّن، هو الذي يحصّل وجهَ الإنعام للمتعيّن. إذ المنعمُ الحقيقي جل شأنه يصنع لكل فرد قصعةً تناسبُه، ثم يملؤها من طعام نعمته فيحسنهما بالقصد الخصوصيّ للشخص باسمه ورسمه. فكما وجب الشكرُ على مطلق النعمة، وجب على الخاصة بالخصوصي.

اعلم أن الكتابَ الكبير المشهود «أي العالَم» والكتابَ العزيز المسموع «أي القرآن» بَخسَ أكثرُ البشر حقَّهما، إذ فيلسوفهم المتفكّر لا يعطي بالذات «للواجب» إلا جزءا بسيطا وقشرا رقيقا أو تركيبا اعتباريا، ثم يقسم الباقي على علل موهوماتٍ، بل ممتنعات، وأسماءٍ بلا مسميات ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠). وأما الموحّد، فيقول: الكل مالُه ومنه وإليه وبه. أما القرآن، فأديبُهم المتخيل لا يعطي لذي العرش من ذلك القصر المحتشم[2] من أساساته المتينة ودساتيره المكينة وأحجاره المذهبة وأشجاره المزهرة إلا بعضَ نقوش النظم، وقسما من المعاني.. ثم يقسم الباقي من تلك النجوم السماوية على ساكني الأرض بدسيسةِ تلاحقِ الأفكار. (تُوه)[3] على عقله الذي خيل إليه تطاولَ يد البشر إلى النجوم بتبديلها والتصرف في أجرامها. مثله كمثل من يعطي لفياض البحر بعضَ الحبابات. والمؤمن المحقق يقول: كل ما اشتمل عليه[4] من أول الأساسات إلى آخر نقوش النظم منه وله. وأن القرآنَ

(١) أي ليست مشاعا وعاما للجميع (ت: ١٧١).
(٢) المقصود: القرآن الكريم.
(٣) كلمة تضجر وتحقير.
(٤) أي القرآن الكريم.

لُفَّ في أساليبَ هي معاكِسُ ألوفِ مراتبِ مقتضيات المقامات وحسيات المخاطبين. وكذا مرّ القرآنُ على سبعين ألف حجاب، وتداخَل إلى أعماق القلوب والأرواح، وسافر ناشرا لفيضه ومونسا بخطابه على طبقات البشر، يفهمُه ويعرفُه كلُّ دور، ويعترف بكماله ويقبله كلُّ قرن. ويستأنس به ويتخذه أستاذا كل عصر، ويحتاج إليه ويحترمه كلُّ زمان بدرجة يتخيل كلٌّ: أنه أُنزل له خاصة. فليس ذلك الكتاب شيئا رقيقا سطحيا، بل بحرٌ زخّار وشمسٌ فيّاض وكتابٌ عميق دقيق.

اعلم، انظر إلى الماء والهواء كيف خُلقا سهلَين سلسَين، فسبحان من يرزق ويلقم المكروبَ والفيل. فانظر طباخَ القدرة كيف صنع طعاما لا يضيق عن لقمته فمُ النحل ويملأ فمَ الفيل، ولا يتكبر على فم المكروب ولا يتكبر عليه فمُ الكركدن، ويقول كلاما يسعه صماخُ الذرة ويمتلئ به أُذن الشمس، ويعطي للكلمة التي تتكلم به تناسلا واستنساخا، بوجهٍ يمتلئ بعين تلك الكلمة كهفُ الجبل فيجيبك بالصدى، ولا تتعاظم على الحجيرة التي في صماخ البعوضة.

اعلم أنه يليق أن يُتصوَّر وقتَ الصلاة عالمُ الإسلام مسجدا، محرابُه مكّة وآية المحراب الكعبة، يصلي في ذلك المسجد أجيال. فإذا سجدوا في الفَناء، يجيء أجيال أُخر فيصلون فيذهبون، فيُملأ ويُفرغ دائما. فالأعصار كدقائقِ وقت العصر في مسجد «بايزيد».

اعلم يا سعيد! من السعادة أن تتركَ اليوم على الكرم منك -وأنت عزيز مستبقيا للفضيلة- ما يتركك غدا على الرغم منك وأنت ذليل، مبقيا عليك الخسارة؛ إذ إن تركتَ الدنيا انسللتَ من شرها فأورِثتَ خَيرَها، وإذا تركَتْك انسللتَ من خيرها وأثمرتْ لك شرَّها.

اعلم أن المدنية الفاسقة أبرزت رياءً مدهشا يتعذر الخلاصُ منه على أصحاب المدنية، إذ سمّت الرّياء بـ«شان وشرف»[1] وصيّرت المرءَ يرائي للمِلَل ويتصنع للعناصر كما يرائي للأشخاص، وصيّرت الجرائدَ دلّالين له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق، وأنْسَت الموتَ الشخصيَّ بحياة العنصرية المتمردة بدسيسة الحَمية الجاهلية الغدارة.[2]

---

(١) أي الشهرة.

(٢) بمعنى: غدت حياة الشخص تفدى لحياة العنصرية تحت ستار الحمية الجاهلية (ت: ١٧٢).

اعلم أن جمعيةَ النساء مذكّر يتخاشن، كما أن جمعية الرجال مؤنثة تتلاين، بإشارةِ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ (يوسف:٣٠) و ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ (الحجرات:١٤). وجمعيةَ الضعفاء قوي، وجمعية الأقوياء ضعيف.

اعلم أن في انكسار الجِنَّة وخَفْضِها، انفتاحَ الجَنَّة وفَتحَها.[1]

اعلم أن من أظهر براهين النبوّة الأحمدية التوحيدَ. إذ الرافعُ لأعلام التوحيد بمراتبه على رؤوس الكائنات، ودلّال التوحيد بمقاماته على أنظار العالم، ومفصِّلُ ما أجمله الأنبياءُ عليهم السلام، سيدُنا محمد عليه الصلاة والسلام. ففي حقيقة التوحيد وقوته حقيقةُ نبوته وحقانيتها.

* * *

(١) العبارة فيها جناس عجيب: فانكسار الجنة -أي بكسر الجيم- تعني الشياطين، وخفضها يعني احتقارها وعدم طاعتها، ففي خفضها انفتاح الجنة وفتحها -بفتح الجيم-.. والله أعلم.

القطعة الثالثة من

ذرة من شعاع هداية القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أنه يلزم لمثل هذه التزيينات والكمالات والمناظرِ الحسنة وحشمة الربوبية وسلطنةِ الألوهية من مُشاهِدٍ لها، ومتنـزِّهٍ بها، ومتحيّرٍ فيها، ومتفكر ينظر إلى أطرافها ومحاسنها، فينتقل منها إلى جلالة صانعها ومالكها واقتداره وكماله.

نعم، إن الإنسان -مع جهالاته وظلماته- له استعدادٌ جامع كأنه أنموذجُ مجموعِ العالم، وأُودع فيه أمانةٌ يفهم بها الكنـزَ المخفي ويفتحه. ولم يُحدَّد قواه، بل أُرسلَت مطلقةً فيكون له نوع شعور كلي بشعشعةِ كمالِ حشمةِ جلالِ سرادقِ جمالِ عظمةِ ألوهيةِ سلطان الأزل. وكما أن الحُسن يستلزم نظرَ العشق، كذلك ربوبيةُ النقاش الأزلي تقتضي وجودَ نظر الإنسان بالتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم أيضا بقاءَ ذلك المتفكر المتحير إلى الأبد ورفاقتَه لمَا تحيّر فيه في طريق أبد الآباد.

نعم، إنّ مَن زيّن وجوهَ الأزاهير كما أوجد لها عشاقا مستحسِنين من أنواع الذبابات والعصافير، وزيّن خدودَ المُلّاح فأوجد لها أنظار المشتاقين الوالهين.. كذلك من زيّن وجهَ العالَم بهذه الزينة الجاذبة، ونوّر عيونَه بهذه المصابيح المتبسّمة وحسّنه بأنواع المحاسن المتلألئة، وأدمج في كل نقش بكمال الوضوح توددا وتعرفا وتحببا، لا يخليه من أنظارِ مشتاقين متحيرين متفكرين منجذبين عارفين بقيمة كل؛ فلجامعية الإنسان صار الإنسان الكامل سببَ خلق الأفلاك علّةً غائية له وثمرة له.

اعلم أن من كمال السعادة واللذة الحقيقية، تركَ كل شيء حتى الوجود لأجل أنه جل شأنه هو هو، ولأجل أنه واجب الوجود، ولأجل أنه الكامل المطلق، ولأجل أنه ذو الجلال والجمال المطلق، فليكن له فداءً كلُّ شيء لي، وكُلّي والكلُّ وكلُّ شيء.

اعلم أن التوافقَ بين الأشياء كما يدل على أن الصانع واحدٌ أحدٌ، كذلك إن التخالف المنتظَم بينها، يدل على أن الصانع مختارٌ حكيمٌ. مثلا: توافقُ أفراد الإنسان بل الحيوان في أساسات الأعضاء. لاسيما التماثل في الأعضاء المثناة في الشخص برهان باهر على وحدة الخالق، وتخالفُها في التعيّنات والصور المتقنة آية نيّرة على اختيار الخالق وحكمته.

اعلم أن أظلم الخلق الإنسانُ. فانظر ما أشدَّه ظلما! فلشدة حبه لنفسه لا يعطي الأشياءَ قيمةً إلّا بمقدار خدمتها لنفسه، وينظر إلى ثمرتها بمقياس نفعها للإنسان، ويظن العلّةَ الغائية في الحياة عينَ الحياة. كلا، إن للخالق في كل حي حِكَما تدِقّ عن العقول. لِمَ لا يجوز أن يكون هذه الحيوانات القصيرةُ الأعمارِ والحوينات السريعة الزوالِ مباديَ ومساطرَ ومصادرَ وأساساتٍ ونواتاتٍ لغرائبَ مثاليةٍ وبرزخية وملكوتية وتجليات سيالة وترشحات وثمرات لتصرفات القدرة في الغيب؟..

........[1]

اعلم أن الله بكمال قدرته صيَّر جميعَ ذرّات الكائنات عبيدا لشريعته الفطرية وأوامره التكوينية. فكما يقول للذباب كن هكذا، فيكون هكذا.. كذلك يقول بعين السهولة لجميع الحيوانات كونوا بهاتيك الصفات وبهاتيك الأشكال وبهاتيك الأعمار، فيكونون كما أُمروا بلا كلفة!

اعلم أن القوةَ والقدرة التي أخذت هذه الأجرامَ في قبضتها، ونظّمَتها كتنظيمِك فصوصَ الجواهر على مرآتك بيدك، لا تعجز عن شيء ولا تساعد لمداخلة شيء ما في دائرة تصرفها.

اعلم أنه كما لا ريب في اتحاد القطرة مع البحر في كونهما ماء، ومع النهر في كونهما من السحاب، واتحادِ شُميسة القطرة مع شمس السماوات، واتحادِ السمك مثل الإبرة مع السمك الذي يسمّى بـ«بالينه بالغى»[2] في النوع، واتحادِ الحبَّة مع الصُبرة.. كذلك إن الاسمَ المتجلي على حُجيرة في جزء من الجزئيات متّحدٌ في المسمى مع الاسم المحيط بالكون من الأسماء

(١) في (ط١): اعلم أن البصر كما ينحصر عنده المعلوم -بل الموجود- في المبصر، كذلك النفس الأمارة إذا لم تر شيئا تنكر وجوده، ولو كان من أبده البدهيات.
(٢) الحوت العظيم من حيتان البحر.

الحسنى، كالعليم بكل شيء مع الخالق لهذه الذرة، والمصوّر لهذه النحلة، والمنشئ لهذه الثمرة، والشافي لهذه العلة، بل محال أن لا يكون الواسعُ الأوسع عينَ الاسم الجزء الجزئي.

اعلم أنه لأن العطالة والسكون والتوقفَ والاستمرار على طرز في الممكن -الذي ظهور وجوده بتغيره- نوعُ عدمٍ في الأحوال والكيفيات، والعدم ألمٌ محض وشرٌ صرف.. كانت الفعاليةُ لذةً شديدة والتحولُ في الشؤون خيرا كثيرا، ولو كان ألما ومصيبة. فالتأثرات والتألمات حسنةٌ من جهات، قبيحةٌ من جهة.

فالحياة التي هي نور الوجود تتصفى بالتأثرات، وتتصَيقل بالتألمات.. فلا تنافرها الحياة، فلا توزَنُ بميزان البقاء العائد للحي، بل بميزان الظهور والمعكسية لتجلّي شؤون «المحيي» جلَّ شأنه، إذ للمحيي في الحياة ألوف حصص، وللحي حصة عرَضية. كمالُها في تبعيتها لحصص المحيي.

فتزيّن الحباب بشُميسيته في آنٍ سيال لا يعطي له حقا بدرجةٍ يعارض الشمسَ في حقوق تجلياتها المشحونة بالحِكم الجسيمة. إلّا أن حباب الإنسان إذا آمن ينقلب بالإيمان زجاجةً كأنها كوكبٌ دريّ يوقد مصباحها من أشعة شمس الأزل.

اعلم أنه كيف يمكن أن يصنع أحدٌ جميع أساسات قصر وأثاثاته وتركيباته المتوجهةِ جميعا إلى بناء القصر الواحد، ولا يكونَ القصرُ علّةً غائية لذلك الصانع،[1] ولا يكونَ ثمرات القصر عائدة إليه. أيها الإنسان! الأرض قصر والعالَم قصر.

اعلم أن الله جل جلاله تعرّف إلينا بخلقه ومصنوعاته، وتودّد بنعَمِه وإنعاماته، وتحبّب برزقه ورحماته، ففعل هاتيك لتلك، بل كأنها هي. وهكذا تجلَّى كلُّ اسم من أسمائه الحسنى. فمن تفَهّمَها منها كما هو حقها -بتفهيمه تعالى- ثم فهّمها لغيره كافةً -بإذنه جلّ شأنه- يحق له أن يقال في حقه: «**لَولاكَ لَولاكَ لمَاَ خَلَقْتُ الأفلَاك**»[2] وما هو إلا الرابط المتين الأمين بين السماوات والأرض، الذي ارتبط العرش بالفرش بالحبل المنسوج على قلبه

(١) في (ط١): لذلك الصانع، ولو معلوما مبصرا، ولا يكون في تدبيره وتصرفه، بل لا يمكن أصلا، كذلك أنت قصر والأرض قصر.

(٢) «إنه صحيح معنىً ولو ضُعّف مبنى» علي القاري، شرح الشفا ١/ ٦؛ الأسرار المرفوعة ٣٨٥؛ العجلوني، كشف الخفاء ٢/ ٢١٤؛ الشوكاني، الفوائد المجموعة ٣٢٦.

الذي هو أشرف الكائنات جنسا، وأكملُ ذوي الحياة نوعا وسيدُ النوع الذي شُرّف بالخلافة شخصا، وهو سيد المرسلين وأمام المتقين، حبيب رب العالمين محمد عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام أبد الآبدين.

* * *

خاتمة

لله دَرُّ العلّةِ والمصيبة والذلّة، ما أحلاها وهي مُرّة! إذ هي التي تُذيقُك لذةَ المناجاة والتضرع والدعاء.

عن ابن سمعون(*): «كل كلام خلا عن الذكر فهو لغو».[١]

اعلم أني على جناح السفر إلى الآخرة، فلكثرة ذنوبي لا يكفي عمري بل أعمار للاستغفار، فأُوكلُ كتابي هذا وأُوصيه بأن ينادي مستغفرا بعدي بدلا عني دائما بهذا (الفرياد)[٢]:

(أي واه) وا اسفا وا حسرتا وا خسارتا وا ندامتا! على تضييعي لعمري وحياتي وصحتي وشبابي، في المعاصي والذنوب والهوسات الزائلة المضرة، فأورثَتْ في أوان شيبي ومرضي آثاما وآلاما. وأنا بهذا الحمل الثقيل والوجه الأسود والقلب المريض متقرب إلى باب القبر للفراق الأبدي من الدنيا الفانية.

فيا ذلّي إذا ما قال ربي ... إلى النيران سوقوا ذا المرائي!

إلهي لا ملجأ ولا منجا إلا باب رحمتك.

إلـهي عبدُك العاصي أتاك ... مقرّا بالذنوب وقد دعاك

فإن ترحم فأنت لذاك أهلٌ ... وإن تطرد فمَن يرحم سواك[٣]

(١) في (ط١): وكل سكوت خلا عن الفكرة فهو سهو، وكل نظر خلا من العبرة فهو لهو.
(٢) أي الاستغاثة والنداء.
(٣) ينسب إلى إبراهيم بن أدهم: إلـهي عبدُك العاصي أتاكا ... مقرّا بالذنوب وقد دعاكا

يا رب زكناه زشت خود منفعلم

أز قول بد وفعل بد خود خجلم

فيضي بد لم زعالم قدس بريز

تا محو شود خيال باطل زدلم[١]

«أستفتح باب الرحمة بنداء مولانا»

أى خدا مَن الله الله مى زنم

بردر تو شيئا لله مي زنم

أى خدا باسوى خود راه نما

زانكى من كم راهم راه مي زنم[٢]

إلهي لستُ للفردوس أهلا ولا أقوى على نار الجحيم

فهبْ لي توبةً واغفر ذنوبي فإنك غافر الذنب العظيم

* * *

(١) [[يارب إنني متألم نادم على سيئاتي وآثامي
وخجِلٌ من أقوالي وأفعالي السيئة
فاسكب من عالم القدس فيضا على قلبي
كي يمحو من قلبي الخيال الباطل]]

(٢) [[ياالهي إنني أُردد: «الله، الله»
وأنادي وأقول شيئا في سبيلك على بابك
ياإلهي اهدني الطريق إليك
فقد ضللت ولكني سائر في الطريق]]

في (ط١):

هذا تقريظ أخي في الله الحسيب النسيب
السيد محمد شفيق الأرواسي(*)

باسمه سبحانه

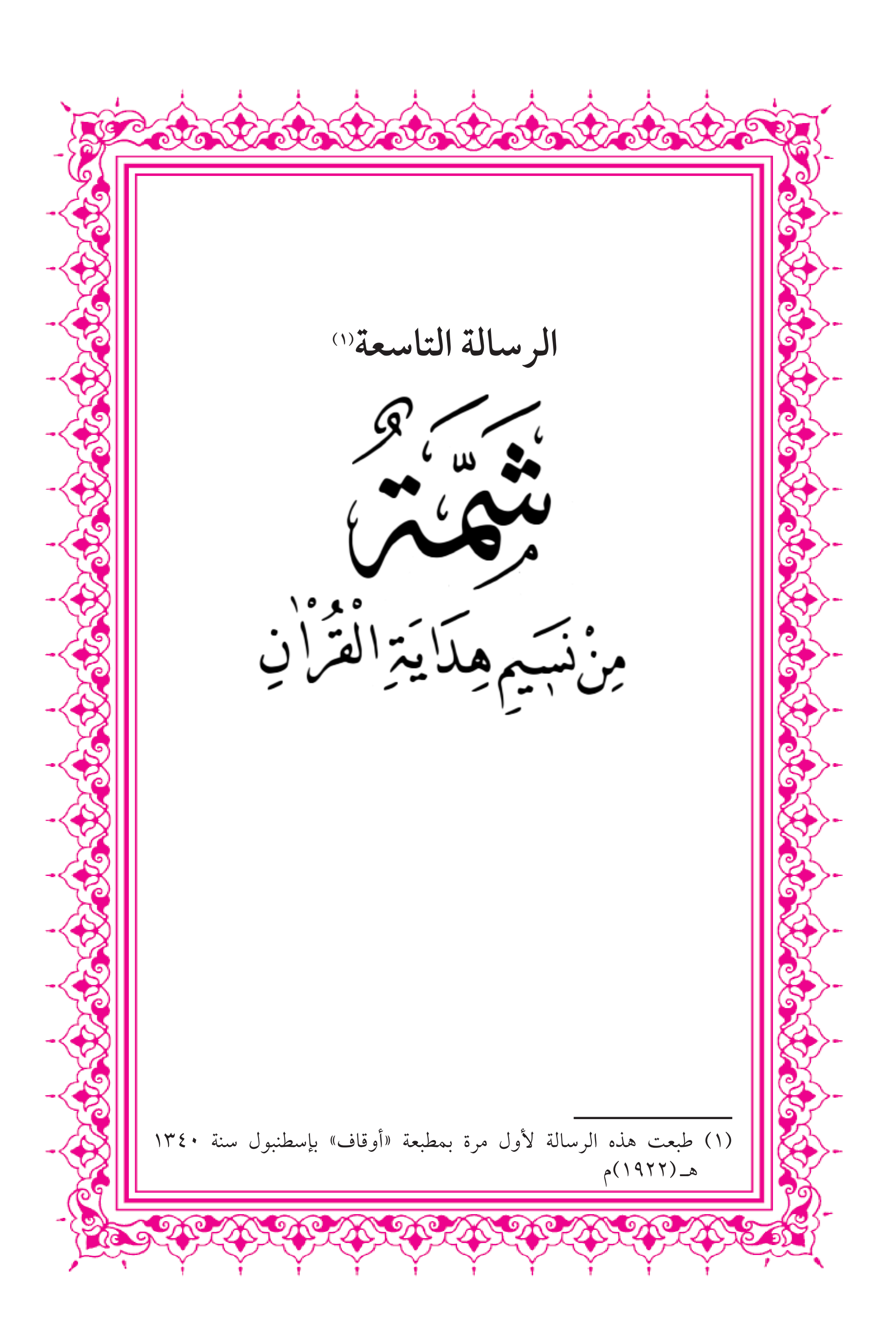
﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾

والصلاة والسلام على خير خلقه..

ومن المعروض لدى ناظر آثار أستاذنا بديع الزمان، الملهَمة من فيوضات آيات القرآن، والمستفادة من إشاراتٍ تهدي إليها نكاتُ بلاغة الفرقان التي لا يدركها إلّا مَن منّ عليه الملك المنان، بانكشاف اللطائف الأمرية، وتوسيع الدائرة العقلية، مع صيقلة سائر مرآة الحواس والوجدان بأن خلاصة ما لخصته من الإخلاص في حقها، أن كلا منها حصن حصين في مقابلة أشرار أعداء الدين، بل سد صيني لا يؤثر فيه وساوس النفس، ودسائس الشيطان، وتلقينات عبدة الطبيعة، وأباطيل أفكار الفلاسفة الضالين.. وأنه يجري من منابع مباحثها ماءُ حياة تنمو به العقدة الإيمانية وتنطفئ منه الشرارات النفسانية، فلابد لكل طالب من السعي البليغ في مطالعتها كي تحصّن بما حصله من براهينها وتشفي بما ناله من ذوقياتها ودقائقها.. وإن وجد تعسرا في فهم معانيها، فلا يكن سببا لفتور السعي فيها، فإن صداق الفوائد الجليلة إنما هو المساعي الكثيرة، ولا يلومنّ مؤلفها أيضا، لأن صعوبتها غير اختيارية، لما فيها من مسائلَ موضوعاتُها من الخوارق للعادات، وقضايا ذوقيةٍ لا يسعها ضيق العبارات، وبراهينَ من نتائجَ بدهية عنده وعند الغير من النظريات، ومفهومات متناسبة ومتناسلة قد نصبت على بعضها نُصُب وترك في البعض الآخر الآياتُ، لأن بُعد المسافة لا تكفيها راياتُ الجُمَل والكلمات وغيرُ ذلك من الأسباب مثل بدائع التشبيهات وغرائب التمثيلات.

الحقير

محمد شفيق



الرسالة التاسعة[1]

شَمّةٌ مِنْ نَسيمِ هِدايةِ القُرْآنِ

(١) طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «أوقاف» بإسطنبول سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢)م

في (ط١)

إفادة المرام

اعلم أيها الناظر! إني أسمع من الناس شكايةً عن الغموض في آثاري، فاستمع مني ثمانية كلام:

فأولا: لا تعجل لعتابي لأجل الإشكالات، إذ مخاطبي نفسي الدساسة، وهي تفهم بسرعةٍ أجوبةَ أسئلتِها المخطئة ولو بالرمز.

وثانيا: إن كل مسألة افتتحت بـ«اعلم» سلاحٌ قاطع، ودواءٌ نافعٌ، أُعطِيتُه من حيث لم أحتسب، في وقت شدة احتياجي وكثرة جروحي. فليس لي في الكتاب مالٌ إلّا ما ليس في الكتاب من الألم والجرح والداء المستتر في الضمير. وأما المذكور في الكتاب من الدواء والسلاح وذوق الحق، فليس مني، ولا مما مضغه فكري، بل من فيض القرآن الكريم.

وثالثا: إني لا أبالي بتنقيد الناس؛ إذ لله الحمد إني لا أعرف الآن لنفسي غيرَ القصور والعجز وما تستحق من الذم. فإذا أردتُ التمدحَ والافتخار بأثري لا أرى إلّا ما أخجل به وأفتضح، إلّا أن الله ستّارُ العيوب. فكما لا قيمة لنفسي حتى أبتهجَ متصنعا بها يُظَن محاسنَ وهي في الحقيقة مساوئ، كذلك لا أقيم لنفس غيري المتكدرة بالأنانية أيضا وزنا، حتى أتصنّعَ له بالرياء الكلاميّ والتصلف في العبارة. إلّا أنه يليق أن تُلبَس الحقايقُ ما يليق بها.. ولكن هيهات أنا عاجز وأعجمي وخام لا أطيق أن أنسج غيرَ ما ترونه من أساليبي المشوشة، فأعترف وأنادي بأعلى صوتي: بأني عاجز، قاصر في الإفهام. لكن أقول تحديثا بالنعمة وأداءً للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين.

ورابعا: لا تحسبنَّ أن ما أكتبه شيء مضغَتْه الأفكارُ والعقول. كلا! بل فيضٌ أُفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الكريم، ولا تظنه أيضا شيئا سيالا تذوقه القلوب وهو يزول. كلا! بل أنوارٌ من حقائقَ ثابتةٍ انعكست على عقلٍ عليلٍ وقلبٍ مريضٍ ونفسٍ عمي.

وخامسا: إني ما أدري كيف صار عقلي ممزوجا بقلبي، فصرت خارجا عن طريق أهل

العقل من علماء السلف وعن سبيل أهل القلب من الصالحين، فإن وافقتُهما «فبها ونعمت»، وإن خالفتُ في كلامي أيّ السبيلين منهما فهو مردود عليّ.

وسادسا: لا تطلب في آثاري انتظاما وانسجاما ووضوحا، لأنها تقيِّد وتلخّصُ مشاهداتي في تحولات غريبة ومجرَّبات نفسية مختلفة، مع أمور أخرى، لو اطّلعتَ عليها لعذّرتني.

وسابعا: لا تقل: إذا لم أدرِ الكلَّ، لا أُريد الكلَّ.. فإذا كنتَ في بستان أتترك كل الثمرات إن لم تأكل كلها.

وثامنا: إن ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهانا حتى يقالَ: فيه نظر! بل مبادئ حدسية قُيّدت وعُقدت واستُحفظت بأنوار اليقين المُفاضة من القرآن الكريم.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين على رحمته على العالمين برسالة سَيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

اعلم أن العالمَ بجميع أنواعه من طبقات الغيب والشهادة يشهد بأنه: «لا إله إلّا هُو» إذ التساند بينها هكذا يقتضي.. وبجميع أركان جميع أنواعها من المنظومة الشمسية وغيرها تشهد بأنه: «لَا رَبَّ إلَّا هُوَ» إذ التشابه مع التناظر هكذا يقتضي.. وبجميع أعضاء جميع أركانها من أرضنا وغيرِها تشهد بأنه: «لا مَالِكَ إلَّا هُوَ» إذ التماثل مع اتحاد السكة هكذا يقتضي.. وبجميع أجزاء جميع أعضائها من طوائف النباتات وقبائل الحيوانات تشهد بأنه: «لا مُدبِّر إلَّا هُوَ» إذ التعاون مع الاشتباك هكذا يقتضي.

وبجميع جزئيات جميع أجزائها تشهد بأنه: «لا مُربّيَ إلَّا هُوَ» إذ توافق الأفراد في أساسات الأعضاء يصرّح باتحاد القلم وبأن المربّي واحدٌ، وتمايزُها في الصور المنتظمة ينصّ على أن الكاتب مختارٌ حكيم.. وبجميع حُجيرات جميع جزئياتها تشهد بأنه: «لا مُتَصَرف في الحقيقةِ إلَّا هُوَ» ولا تصرفَ إلّا تحت أمره التكويني؛ إذ لو لم يتحد لَلَزم وجود متصرِّفين غير متناهين، مع أنها أضدادٌ أمثال[1] ومع أنها مستقلين أُسراءُ، ومع أنها مطلقين مقيَّدين[2] مع محالات أُخر كثيرة.. وبجميع ذرّات جميع حُجيراتها تشهد: بأنه: «لَا نَاظِمَ إلَّا هُوَ» إذ اتحّاد الخيط بين الجواهر الفردة هكذا يقتضي.. وبعموم أثير ذَراتها تشهد بأنه: «لا إلهَ إلَّا هُوَ» إذ بساطةُ الأثير وسكوته وانتظاره وسرعة امتثاله لأوامر الخالق هكذا يقتضي.

اعلم أنّه لا حقَّ لأحدٍ في التشكي والاعتراض على صانع العالم؛ إذ في إرضاء الفرد المشتكي إغضابُ أُلوفِ حِكَمٍ متدلية في نظام مقتضٍ لكسر هَوَس ذلك الفرد ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (المؤمنون:٧١).

---

(١) أي على الرغم من أنها متماثلة فهي متضادة، وهي حرة وأسيرة، ومقيدة ومطلقة إلى آخر ذلك من المحالات.
(٢) هكذا في النسخة الخطية، ولعل سياق العبارة يقتضي: ومع أنها مستقلون أُسراءُ، ومع أنها مطلقون مقيَّدون.

فيا أيها المشتكي! مَن أنت حتى تعترض وتصيّر هوسَك الجزئي مهندسَ كليّات الكائنات، وتجعل ذوقَك الفاسد مقياسَ درجات النِعم؟ وما يدريك لعلّ ما تراه نِقما عينُ النِعَم؟ ومَن أنت حتى يُغيِّرَ حركةُ دواليب العالم و«جرخ الفلك» لتسكين هوسِك الذي لا يوازي جناح البعوضة، ولا يملأ نواةَ التينة؟ لكن لك أن تشتكي إليه، لا منه؛ إذ لك منك حَبَّة من صُبرة، والمملوك لا يملك. فاعرف حدَّك ولا تجاوز طورَك.

اعلم أن مَن يتصرف في حُجيرة من عضوٍ من جسد، لابد أن يتصورَ الجسدَ أولا، ثم يتصرّفَ لنظر نسَب الجزء إلى نقوش الكلّ ووضعيته.[1] فالتصرف في الحجيرة تحت أمر خالق الكل البتة.

اعلم أن من يحفظ بيضات الهوام والسمك، وبذورَ الحشرات والنباتات، حفظا رحيما نظيما حكيما، كيف يليق بحفيظيته وحكمته أن يهمل ولا يحفظ أعمالَك التي هي نواتات لأشجارٍ مثمرة في الآخرة، وأنت حاملُ الأمانة وخليفةُ الأرض؟ مع أن شدّة حسّ حفظ الحياة في كل حي، وشدّةَ حسّ التأليف للبقاء والإدامة بين المتباينات المجتمعة يدلان بالحدس الصادق على أن الوجود ينجرّ إلى البقاء الأبدي بتجلي اسم «الحي الحفيظ الباقي».. وأيضا رمزٌ من القدَر الإلهي إلى أن في الفاني ما يبقى.

اعلم أن من يحفظ بذر التينة مثلا في الأطوار ويحميه في الأدوار ويصونه عن الانحلال ويحفظ في تلك البذيرة لوازمات شجرة التينة بكمال الاهتمام والمحافظة، وهكذا سائر النباتات والحيوانات.. لا يهمل -ذلك الحفيظ- البتةَ أعمالَ البشر خليفة الأرض بالضرورة وبالحدس الصادق.

اعلم أن المعنى يبقى واللفظ يتبدل، واللب يبقى والقشر يتمزق، والجسد يبقى واللباس يتخرّق، والروح يبقى والجسد يتفرق، و«أنا» يشبّ والجسد يشيب، والواحد يبقى والكثير يبلى، والوحدة تدوم والكثرة تتمزق، والنور يبقى والمادة تتحلل. فالمعنى الذي يبقى من أول العمر إلى الآخر، مع تبديله لأجسادٍ، وانتقالِه في أطوار، وتدحرجِه على أدوار مع محافظة وحدانيته،[2] يدل على أنَّه يتخطى على الموت أيضا وينسلّ من كلاليبه، متشققَ الجسد،

(١) أي ثم يتصرف ناظرا في نسب الجزء إلى نقوش الكل، حيث هناك علاقات وارتباطات كثيرة للجزء مع الكل (ت: ١٧٧).

(٢) أي مع الحفاظ على بقائه ووحدته (ت: ١٧٧).

عريان الروح، سالما في طريق الأبد. وشدّة دستور الحفظ والمحافظة في الماديات التي الأصلُ فيها الفناء، تدل بالحدس القطعي وبالطريق الأَولى على جريان ذلك القانون الباقي في المعنى والنور والروح الواحد البسيط، التي الأصلُ فيها البقاء.

اعلم أن عظمة الألوهيّة وعزّتَها واستقلالَها تستلزم دخولَ كلِّ شيء -مطلقا: عظيما أو حقيرا، أعظمَ الأشياء وأخَسَّها- تحت تصرفها. فخستُك وحقارةُ أحوالك لا تستلزم خروجَك.[1] إذ بُعدُك لا يستلزم بعدَه، وحقارة صفتك لا تستلزم حقارةَ وجودك. وتلوث وجه المُلك فيك، لا يستلزم تلوثَ ملكوتك.. وكذا لا تستلزم عظمةُ الخالق خروجَ الحقير عن تصرفه، إذ العظمةُ الحقيقية تستلزم الإحاطةَ، والانفرادَ في الإيجاد.

اعلم أن المادي الكثيف كلّما تعاظم تباعدَ عن الدقائق والخفايا وتقاصر يدُه عنها. وأما النور فكلّما تعاظم وتعالى كان أتمَّ نفوذا في الخفايا والدقائق. وكلما كان النور ألطفَ كان أكشفَ لباطن الشيء كشعاع «رونتكن». فإذا كان هذا هكذا في الممكن المسكين والكثرة المشوشة، فكيف بنور الأنوار من طرف الوجوب والوحدة العالِم بالأسرار ومدبّر الليل والنهار؟ فعظمتُه تستلزم الإحاطةَ والنفوذ والشمول.

اعلم وانظر إلى كمال مراعاة القرآن ومماشاته وتأنيسه لأفهام جمهور العوام الذين هم الأكثر المطلق؛ إذ يَذكر في المسألة ذاتِ الدرجات الدرجةَ القريبةَ إليهم، والصحيفةَ الواضحة لنظرهم، وإلّا لزم أن يكون الدليل أخفى من النتيجة. فالقرآن يذكر الأشياء الكونية للاستدلال على صفات الخالق جلّ جلاله. فكلما كان أظهرَ لفهم الجمهور كان أوفق للإرشاد.

مثلا: يقول:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ (الروم:٢٢) مع أن خلفَ طبقة الألوان مسافاتِ تعيّناتِ الوجهِ كما أُشير إليها في «ذرّة» ويقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ (آل عمران:١٩٠) مع أن تحت صحيفة الليل والنهار المقروءة بأول النظر عجائبَ نقوشِ تحريكِ الأرض على نفسها وتدويرها حول الشمس. ويقول: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ:٧) مع أن تحت ما يُرى من صورة سفينة الأرض وخيمتها المرساة المربوطة بالعمد والأوتاد تسكينَ غضب الأرض التي ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ

(١) خروجك عن تصرفها (ت: ١٧٧).

ٱلۡغَيۡظِ ﴾ (الملك:٨) بسبب الهرج والمرج في بطنها وإسكات غضبها بخلق الجبال فتتنفس الأرضُ من منافذها، فتهتز بالزّلزلة فقط، بدل التمزق لولا الجبال، وتحت هذه الصحيفة أيضا جعل الجبال مخازنَ الماء ومشّاطةَ الهواء وحاميةَ التراب من استيلاء البحر والتوحل. وهذه العناصر أوتادُ حياة الحيوان، الذي الناطق منه «وتد» الدنيا. فقس على هذه أمثالها.

ومن هذا السر ترى الشريعةَ تعتبر رؤيةَ الطلوع والغروب،[1] دون الحساب الحقيقي.. ومن هذا السر أيضا التردادُ للتثبيت، والتكريرُ للتقرير في القرآن الحكيم.

اعلم أن حقائق الآيات أوسع بمراتبَ من خيالات الأشعار، فتنـزّهتْ عن الشعرية. والمتكلمُ خلف الآيات يبحث عن شأنه وفعله، وفي الشعر فضوليٌّ يبحث عن غيره. والقرآن الباحث عن العاديّات في الجملة خارقٌ للعادة،[2] والشعر الباحث عن خوارق العادات في الأكثر عادي.

اعلم أن مرايا وحدة الخالق وصحائفَ شواهدِها متعدّدةٌ متنوعة متداخلة متحدة المركز غيرُ محدودة؛ فتنوُّر واحدٍ في النظر المتبصر يستلزم تنوّرَ الكل، وبفتح واحدٍ يمكن بالدّخول فتحُ الكل، دون العكس ؛ إذ انسدادُ واحد لاسيما الأدنى لا يستلزم انسداد الكل. مع أن النفسَ الأمارة بتعليم الشيطان تكذِّب الأصلَ الصادق وتصدّق بالعكس الكاذب.

اعلم أنه كما لا يمكن أن يكون كاتبُ الكلمة غيرَ كاتب الحرف، وكاتب السطر غيرَ كاتب الصحيفة، وكاتُبها غيرَ كاتب الكتاب.. كذلك لا يمكن أن يكون خالقُ النملة غيرَ خالق جنس الحيوان، وخالقُه غيرَ خالق الأرض، وخالقُها غيرَ رب العالمين.

ومن إشارات الربوبية المطلقة العامة كتابةُ كلمةٍ أو كلام أو كتاب في حرف كبير، لرمز عمومِ الشعور والإحاطة كخلق السمك في حرف البحر، وخلق دابة الأرضة في سطر الشجر، وخلقِ الحيوان في نقطة الأرض، والنملِ في كل موضع يُظَن أنه جامد مهمل متروك، حتى إن بعض المصنوعات كصورة «**يس**» كتبت فيها سورة «**يس**».

اعلم أن هذه النجومَ والشموس متماثلة متساوية في الجملة، فليس ربُّها منها بالضرورة، وربُّ واحدِها ربُّ كلِّها وربُّ كل شيء.

(١) أي طلوع الهلال وغروبه، لأن رؤيته أسهل للعوام لحساب الأيام والشهور (ت: ١٧٨).
(٢) أي يبحثه بحثا خارقا للعادة. والكلمة الثالثة عشرة تفصّل هذه المسألة.

......[١]

اعلم أن الفردَ الإنسان جماعةٌ من المكلَّفين، ولكل فردٍ من حواسه -ظاهرا وباطنا- عبادةٌ تخصُّه، وضلالةٌ تفسِّقُه. فكما أن سجدةَ الرأس لغير الله ضلالة، كذلك سجدةُ خيال الشعراء بالحيرة المفرطة والمحبة الوالهة في مدح غير الله -لا بحساب الله- أيضا ضلالةٌ يَفْسُق بها الخيالُ. وقس على الخيال إخوانَه.

اعلم أن من أَعمّ أسباب ضلالة فكر البشر؛ ظَنَّ المألوفِ معلوما، مع أن الألفةَ تتضمّن الجهلَ المركب، فبحُكمِ الألفة لا يتأملون في العاديّات المستمرة مع أنها كلَّها خوارقُ معجزاتِ القدرة، وما يمُعنون النظر إلا في ما فوق العاديّات من نوع التجليات السيالة، كمَن لا ينظر من مجموع البحر -مع ما في بطنه من الحيوانات- إلّا إلى تموّجاته بالهواء وتلألئه بشعاعات الشمس، فيستدل بهذين الحالتين فقط على عظمة مالك البحر وصانعه جلّ جلاله.

اعلم أن أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلّماته، بل بدهياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب. ففي الأساس فسادٌ أي فساد. فلهذا السر توجِّه الآياتُ أنظارَ البشر إلى العاديات المألوفة، وتثقب نجومُ القرآن حجابَ الألفة، ويأخذ[٢] بأُذُن البشر ويُميل رأسه، ويريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات.

اعلم أن المناسبة حتى المكالمة لا تستلزم التساوي ولا التداني ولا التشابه؛ فقطرة المطر وزهرة الثمر لهما مناسبة ومعاملة مع الشمس. فيا أيها الإنسان! لا تحسبن أن حقارتَك تسترك عن نظر عناية خلاق الكون.

اعلم أن ما اشتهر من وقوع بسط الزّمان وطيّهِ لبعض الأولياء كما وقع للشعراني[*] في مطالعته للفتوحات المكية،[٣] في يوم واحد مرتين ونصفا، كما في آخر «اليواقيت والجواهر» لا ينبغي أن يُستغرَب فيُستَنكر؛ إذ فيما تراه له نظائر تقرّبه إلى الفهم؛ ألا ترى أنك ترى في الرؤيا كأن مرَّ عليك سنة[٤] في ليلة بل في ساعة. ولو قرأتَ القرآن بَدَلَ ما جرى عليك، وما

(١) في (ط١) أيها الإنسان! لو أنصفت لما تضجرت من البراغيث والبعوض وأمثالها؛ إذ يتحمل -بكمال التسليم- افتراسَـك كلُّ الثمرات وأكثرُ الحيوانات تلك المخلوقاتُ اللطيفة المعصومة. فمن الإنصاف أن تتحمل أهون الاقتصاص من أيدي بعض المؤذيات.. فالجروح قصاص.

(٢) يأخذ القرآن.

(٣) لمحي الدين بن عربي.

(٤) في (ط١) مرّ عليك سنة بل سنون في ليلة.

شاهدتَه من الأقاويل والأفاعيل لقرأت ختماتٍ في تلك الساعة. ففي انكشاف هذه الحالة لأهل الكشف في اليقظة ينبسط الزمان، ويطول العمر، ويتقرب إلى دائرة الروح التي لا يقيّدها الزمان. ولو صُوّرت «ساعة» لها أميالٌ متداخلة لأجل أن تكون ميزانا تشير إلى درجات سرعة الحركات الموجودة في مصنوعات الله، لا سيما لبيان درجات سرعة الصوت، والضياء، و«الألكتريق»، والخيال، ونور العقل، والملَك، والروح. فمِيلٌ يعدّ الساعات وميلٌ الدقائقَ، وميل الثوانيَ إلى الميل الذي يعدّ العاشرات،[1] مع محافظة النسبة بين كلّ آنين من معدودِ أول الأميال إلى آخرها. ففي تلك الساعة مدارُ الميل العادّ للساعات المشيرِ إلى أبطأ الحركات، لو كان مثل دائرة ساعتك هذه، لكان مدارُ الميل العادّ للعاشرات المشيرة لأسرع الحركات مثل مدار زُحل بل أوسع، فافرض أحدا ركب ميلَ الساعات وواحدا امتطى ظهر ميل العاشرات، فانظر كَم بين ما رأَيا وقَطَعا، فقد انطوى لهذا ما انبسط لذاك بدرجةٍ تكون ثانيةُ ذا سنةَ هذا. ولأن الحركةَ كجسم الزمان أو الزمان كلونِها، فما يجري فيها، يجري فيه أيضا. فلِمَ لا يجوز للولي الغالبِ روحُه على جسمانيّته أن يُصدر أفاعيلَه على مقياس سرعة الروح والخيال؟

اعلم أنه قد يستعظم المرءُ النتيجةَ وهي التوحيد المحض الخالص، ولا يسعها ذهنُه الكاسد، أو لا يتحملها خيالُه الفاسد. فيشرع يردّ براهينَها الصحيحة القاطعة، ويتعلل بأن نتيجةً بهذه العظمة لا يمكن أن يقبَلها ويقيمَها هذا البرهان ولو كان في غاية القوة. فالمسكين لا يعرف أن قيّومَ النتيجة الإيمانُ، وما البرهان إلّا مَنفَذٌ ينظر إليها.. أو مكنسة يطهّر الأوهامَ عنها. مع أن البرهان ليس واحدا، بل لها براهين عدد رمال الدهناء،[2] وبمقدار حصى البطحاء[3] وقطرات الأمطار وأمواج البحار.

اعلم أن من هيّأ البطيخَ والتفاح لأكلك، لا بد أن يكون أعلمَ بأكلك منك، وخبيرا بذوقك الوجداني الذي لا يدريه غيرُك. فأين العروق والأغصان الجامدة الميتة من هذا العلم؟ فما الأسبابُ والأغصان إلّا موازيبُ الرحمة ومَسيلاتُ النعمة.

* * *

---

(١) تنقسم الدقيقة الواحدة إلى (٦٠) ثانية وكل ثانية إلى (٦٠) ثالثة وهكذا إلى العاشرة. وفي الكلمة الحادية والثلاثين، رسالة «المعراج النبوي» تفصيل لهذه المسألة.

(٢) الدهناء: الفلاة.

(٣) البطحاء: مسيل واسع فيه رمل ودقائق الحصى.

القطعة الثانية من

شَمَّة من نسيم هداية القرآن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

فسبحان الله ما أرقّ الحجابَ بين المُلك والملكوت، وما أعظمَ المسافة بينهما! وما أقصرَ الطريقَ بين الدنيا والآخرة وما أطولَها! وما ألطفَ الحجابَ بين العلم والجهل وما أغلظَه! وما أشفَّ البرزخَ بين الإيمان والكفر وما أكثفَه! وما أقصرَ المسافة بين العبادة والمعصية مع أن ما بينهما كما بين الجنة والنار! وما أقصرَ الحياة وما أطولَ الأمل!

فكما أن بين الأمس واليوم حجابا رقيقا لا يمنع من مرور الروح ونفوذِه إلى الأمس والماضي، وأن ذلك الحجابَ بالنسبة إلى الجسد مسافة سنة أو الأبد.. كذلك بين الملك والملكوت، والدنيا والآخرة حجابٌ رقيق شفاف لأهل القلب والروح، وغليظ كثيف غايةَ الكثافة لأهل النفس والهواء الجسماني.

وكما أن بين نهارك وليلك برزخا لطيفا، هو جفنك، فإذا فتحتَ عينَ نفسك زال ليلُك وانجلى نهارُك، وإن نسيت نفسَك فعميتَ دام عليك ليلُك سرمدا.. كذلك من نظر بحسابه تعالى إلى الكائنات صار كلّ ما شاهده علما. وإذا نظر بالغفلة وبحساب الأسباب صار كلّ ما يظنه علما، جهلا محضا.

وكما أن بين تنوّر «آيا صوفيا» وشدة ظلماته في الليل زمانا بمقدار تحريك الإصبعين لمفتاح «الألكتريق»، وفي فضاء العالم بالتهاب البرق وانطفائه في آن، واستضاءة الدنيا وظلماتِها بالسحاب الأسود وانكشافِه عن وجه الشمس بهبوب نسيم الرحمة دفعة.. كذلك من نظر بنور الإيمان والتوحيد يرى العالم مملوءا نورا، وأنسيةً وتحببا وتوددا، وأجزاء الكائنات أودّاء إخوانا أحياءً مؤنسين. وأما إذا نظر بالكفر يرى أجزاء العالم أعداءَ وأجانبَ أمواتا موحشين ويرى العالم ظلماتٍ بعضها فوق بعض وهو في بحر مصطلم مظلم يغشاه موجٌ من فوقه موج إذا أخرج يدَه لم يكد يراها.

وكما أن ما بين وجهَي المرآة أرق من الورق، مع أن بينهما من الفرق كما بين الغرب والشرق، ثم تبدّلُ الوجهين -بأن تضحك في وجهك أو تعبس- يحصل بتحريك الإصبعين لها[١].. كذلك لأفعال البشر وجهان؛ فبتعلُّق النية بها لوجه الله تنقلب وتريك وجها شفافا معكسا يسَع في عمقه المثالي ما لا يحدّ من التجليات، وبفقدان النية أو النية لغير وجه الله يُظهر الوجه الجامد أو الأسودَ السطحي الذي لا يُغني من الحق شيئا.

وكما أن الوجه الأسود الملون من المرآة لا يسع في عمقه شيئا وفي عرضه، إنما يسع بمقدار جِرمه الصغير وأما الوجه الشفاف؛ فلاتصاله بالبرزخ والمثال المطلق يسع ما لا يحد ولا يضيق عمقه من أعظم الأشياء.. كذلك الحياةُ لها وجهان: وجهٌ إلى الدنيا أسود ضيق فانٍ، ووجهٌ إلى الحق شفاف واسعٌ دائمي، فالنفس الغافلة بقبول مغلطة الشيطان تلبس الوجهَ الأسود وتُظهر أحكامَ الوجه الأشف، بطول الأمل وطلب الأبد.

اعلم أن مفتاحَ العالم في يد الإنسان وفي نفسه، فالكائنات -مع أنها مفتّحةُ الأبواب- منغلقة،[٢] فالحق سبحانه أودع -من جهة الأمانة-[٣] في الإنسان مفتاحا يفتح به كلَّ أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنـزَ خلّاق الكون. والمفتاحُ ما فيك من «أنا». إلّا أن «أنا» أيضا معمّى مغلق، ومُطلسَم منغلق، فإذا فتحتَ «أنا» بمعرفةِ ماهيته الموهومة انفتح لك الكائنات.

نعم، إن الله جلّ جلاله أعطى ليد الإنسان «أنا» ليصيِّره واحدا قياسيا -بالفرض والتوهّم لا بالعلم والتحقق- لفهم أوصاف الربوبية.

فالإنسان إذا عرف «أنا» ما هو؛ بأن رآه شعرةً شعورية في حبل وجود الإنسان، وخيطا رقيقا في ثوب ماهية البشر، وألِفا في كتاب الشخص؛ له وجهان: وجه إلى الخير، فَبِه قابلٌ للفيض فقط لا فاعل. ووجهٌ إلى الشر والعدم وبه فاعل، وماهيته موهومة، وربوبيته مخيّلة، ووجوده أضعف من أن يتحمل شيئا بالذات.. بل إنما هو كميزان الحرارة وأمثاله من الموازين التي يُعرَف بها مقادير الأشياء. فـ«أنا» أيضا ميزان يُعرَف به الصفات المحيطة المطلقة للواجب الوجود.. وأذعَنَ[٤] دخل تحت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩) وأدى الأمانة بحقها.

---

(١) المقصود: نوع من المرايا ذات الوجهين.

(٢) أي مع أنها مفتحة الأبواب ظاهرا إلّا أنها منغلقة حقيقة.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ (الأحزاب:٧٢).

(٤) أي إذا عرف الإنسان كل ما ذكر عن ماهية «أنا» وأذعن..

فإذا تأمّلتَ في «أنا» بالمعنى الحرفي، صار لك عينا تفهّمتَ ورأيت به كل ما في الكون، لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفتْ في «أنا» ما يصدّقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفةُ «أنا» وربوبيتُه الموهومة ومالكيتُه المفروضة. فليرجع «أنا» من السّمَكَتية إلى الحبابية[1].. وأما إذا نظرت إلى «أنا» بالمعنى الاسمي واعتقدتَه مالكا، وخُنت في الأمانة دخلت تحت: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:١٠)، إذ الأمانة التي تدهشتْ من حملها السماوات والأرض والجبال هي «أنا» من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، إذ إذا تستَّر «أنا» عنك غلُظَ، حتى صار حبلا بلع وجودَك فصار كُلُّك أنا. ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به فيصير شيطانا يبارز أمرَ صانعه. ثم يقيس الناسَ، ثم الأسبابَ على نفسه فيقع في شرك عظيم.. ففي هذا الوجه لو أرسلتَ عينك وفتحت كل الآفاق انغلق في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك؛ إذ ترى كلَّ شيء بلون ما في نفسك من «أنا». ولونُه في ذاته -في هذا الوجه- الشرك والتعطيل، ولو مُلئت الآفاقُ آياتٍ باهرةً، وبقي في «أنا» نقطةٌ مظلمة طمَّت على الآيات.

مسألة مهمة: وهي أن «أنا» له وجهان: وجه أخذتْه النبوة، ووجه أخذته الفلسفة.

فالوجه الأول: منشأ العبودية المحضة؛ ماهيتُه حرفية، ووجودُه تبعي، ومالكيتُه وهميّة، وحقيقتُه فرضية، ووظيفتُه صيرورتُه ميزانا ومقياسا لفهم صفات الخالق. فالأنبياء هكذا نظروا إلى «أنا»، فسلَّموا المُلك كلَّه لله، وحكموا بأنه لا شريك له لا في مُلكه ولا في ربوبيته ولا في أُلوهيته، وبيده مقاليدُ كلّ شيء وهو على كلّ شيء قدير. ومن هذا الوجه الشفافِ الحي أَنبت الرحيم جلّ جلاله شجرة طوبى العبوديةِ فأثمرت أغصانُها المباركة في حديقة الكائنات، دانيةً قطوفُها، متدلية بثمرات الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين المتلألئين كالنجوم في الظلمات.

وأما الفلسفة فنظرت إلى «أنا» بالمعنى الاسمي دون الحرفي، وبالوجود الأصلي دون التبعي، وزعموه مالكا بالحقيقة، وظنوه حقيقة ثابتة، وتوهموا وظيفتَه تكمُّلَ ذاته بحب ذاته. فمن هنا تشعبت أنواعُ الشرك، وعلى رأس «أنا» تنبتتْ شجرةُ زقومِ الضلالةِ؛ فمن غصن «القوة البهيمية» أثمرت في أنظار البشر -باستحسان القوة الظالمة والحسن المرائي- أصناما عابدةً من جهة، ومعبودةً من جهة.. ومن غصن «القوة الغضبية» أثمرت على رؤوس البشر

(١) من الوجود الحقيقي إلى الوجود الموهوم.

نمارد وفراعين.. ومن «القوة العقلية» أثمرت في عقول البشر الدهريين والماديين وفلاسفةً يعطون للواجب واحدا، ويقسِّمون سائرَ مُلكه على غيره تعالى.. وإن «أنا» في ذاته كأنه كان هواء وبخارا، لكن بسبب شؤم نظرهم تميّع، ثم بالألفة تصلّب، ثم بالغفلة تجمّد، ثم بالعصيان تكدّر فاستغلظ حتى ابتلع صاحبَه. وتوسَّع بأفكار النوع، ثم قاسَ الناسَ والأسباب على نفسه فصار مبارزا لأوامر خالقه. فمن هنا اضطر بعضُ الفلاسفة إلى تأثير الأسباب،[1] وإيجاد الطبيعةِ والتصادفِ، ونفيِ الحشر، وقِدَمِ الأرواح وأمثالِها من ضلالاتهم ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (التوبة:٣٠)، اختطفتهم الشياطينُ بمنقارِ «أنا» وأنابيبه ومخاليبه.

فـ«أنا» في العالم الصغير كالطبيعة في العالم الكبير، كلاهما من الطواغيت،

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦).

اعلم أن حياة الحسنات بالنية، وفسادَها بالرؤية والرياء والإراءة، وعرقَ الوجدانيات المشعورة بالذات تنقطع بالنية وبشعور ثانوي،[2] كما أن النية حياةُ الأعمال، كذلك النية موتُ الأحوال بجهةٍ.[3] مثلا: نية التواضع تفسده، ونيّة التكبر تزيله، ونيّة الفرح تطيّره، ونيّة الغم تهوّنه وقس.[4]

اعلم أن الشجرة بل كل ما فيه قانونُ التكامل، لابد أن تنبت على نواة تربّت في بطن ثمرة من مثل تلك الشجرة. فإن لم تُسْبَقْ بغيرها كشجرة العالَم، فلابد لها من نواة عريانة ما تجسدت بالثمرة بعدُ. ثم حقُّها من العناية الأزلية أن تلبس أيضا ثمرةً من ثمرة الشجرة التي تنبّتت عليها، فلابد أن تكون تلك الثمرة التي تجسدت النواةُ بها أعظمَ وأكرمَ وألطف وأشرف وأعلى وأجلَّ. فالكائنات شجرة، والعناصر أغصانُها، والنباتات أوراقها، والحيوانات أزاهيرها، والأناسي ثمراتها. وأضوأُ ثمراتها وأنورُها وأولاها وأجلاها وأحسنُها وأزيَنُها وأعظمها وأكرمها وأشرفها وألطفها وأجمعُها وأنفعها هو محمد عليه الصلاة والسلام سيدُ المرسلين

---

(١) أي إلى الاعتقاد بتأثير الأسباب.

(٢) إن أساس الوجدانيات التي تستشعر بالذات شعورا فطريا، ينقطع بشعور ثانٍ ونية (ت: ١٨٣).

(٣) المقصود: الأحوال الفطرية (ت: ١٨٣).

(٤) أي إن نية التواضع بتصنع وبشعور ثانوي تفسد التواضع الفطري، وكذا نية التكبر بشعور ثانوي تزيل عزة النفس والوقار الفطري.

وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، صاحبُ المعراج وما زاغ البصر، ومَن انشق له القمر، وكلّمه الضبُّ والظبي والذئب والجذع والذّراع والجمل والجبل والحجر والمدَر والشجر، ونبعَ الماء من بين أصابعه كالكوثر، أفضلُ الخلائق الإنسانية، ومجمعُ الحقائق الإيمانية، وطور التجليات الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية، وقائد ركب الأنبياء والصديقين، وأفضل الخلق أجمعين، حاملُ لواء العِزّ الأعلى بالتوحيد، ومالك أزمّة المجد الأسنى بالإسلام، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأُول، وترجمان لسان القِدم، ومنبع العلم والحلم والحِكم المتحقق بأعلى رتب العبودية، والمتخلق بأخلاق المقامات الاصطفائية، الخليل الأعظم والحبيب الأكرم، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات وأنمى البركات، ما دامت الأرض والسماوات.

[خذ بيدي يا سيد المرسلين

فأنت الأمل يا نور كرم الله المبين

لا انتماء لي إلا إليك يا سيدي

وأنطقُ دليلي: لا إله إلّا الله محمد رسول الله]

إلهي! أُحب وأتمنى أن يكون لي أُلوفٌ من الألسنة مستغفرة عني إلى قيام الساعة. فاجعل يا إلهي! نُسَخَ رسالتي هذه بدلا عني ألسنةً لي، مستغفرين ومصلين على النبي بدلا عني مادام القلم وما يسطرون..

إلهِي، الذُّنُوبُ أخْرَسَتْني، وَكَثْرَةُ المَعَاصِي أخْجَلَتْنِي، وَشِدَّةُ الغَفْلَةِ أخْفَتَتْ صَوتِي، فَأدُقُّ بَابَ رَحْمَتِكَ، وأُنَادِي في بَابِ مَغْفِرَتِكَ بِصَوتِ سَيِّدِي وَسَنَدِي الشَّيخ عَبْدِ القَادِرِ الكيْلانِي وَنِدائِهِ المَقبُولِ المَأنُوسِ عِنْدَ البَوَّابِ.

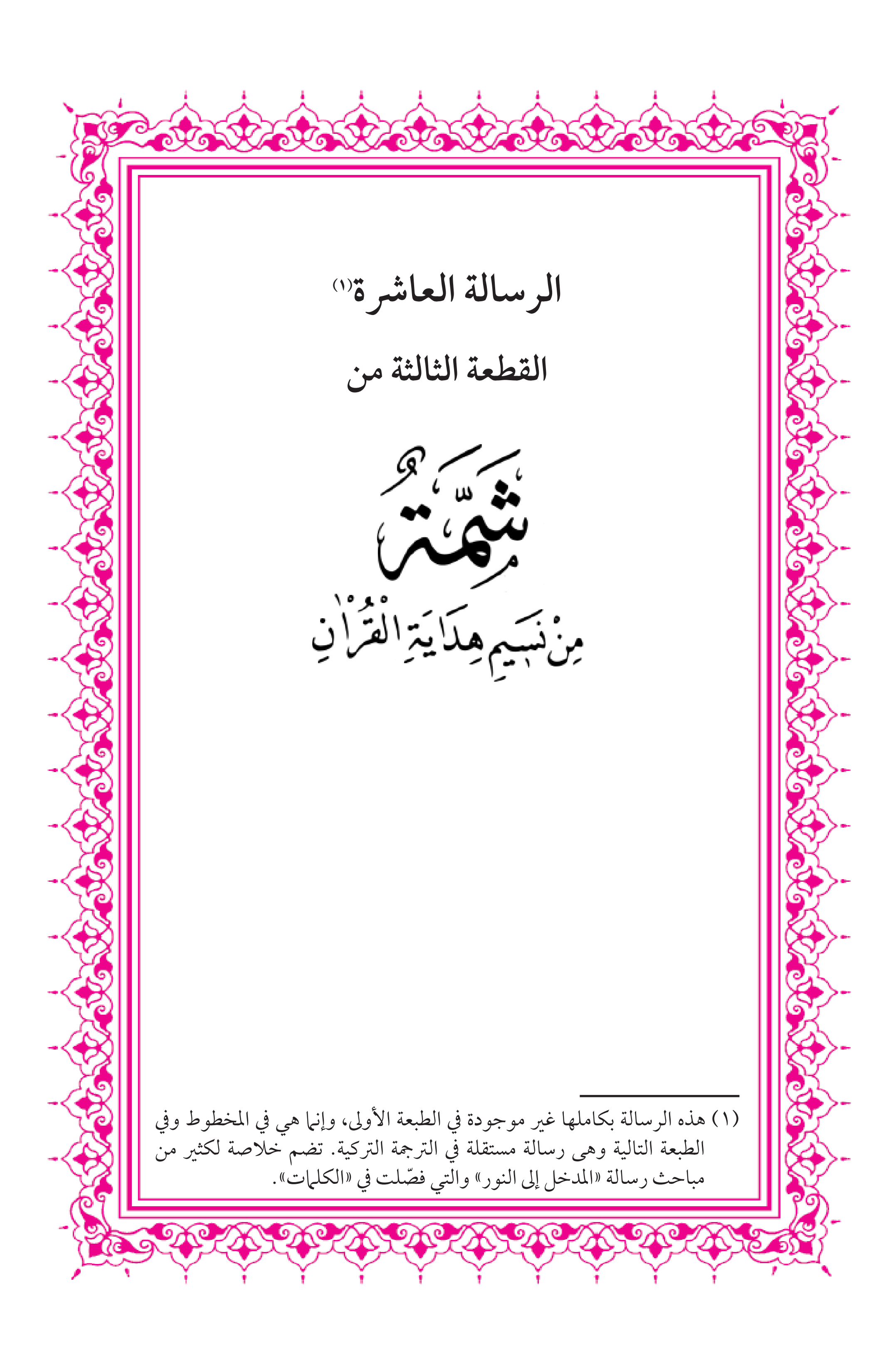
بِيَا مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ، وَيَا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ، وَيَا مَنْ لَا يَضُرُّهُ شَيءٌ، وَلَا يَنْفَعُهُ شَيءٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ شَيءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيءٌ، وَلَا يَؤُودُهُ شَيءٌ، وَلَا يَسْتَعِينُ بشَيءٍ، وَلَا يُشغِلُهُ شَيءٌ عَنْ شَيءٍ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيءٌ، ولا يُعجِزُهُ شَيءٌ، اغْفِر لِي كُلَّ شَيءٍ، حَتَّى لَا تَسْألَنِي مِنْ شَيءٍ. يَا مَنْ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَةِ كُلِّ شَيءٍ، وَبِيَدِهِ مَقَاليدُ كُلِّ شَيءٍ، وَيَا مَنْ

هُوَ الأَوَّلُ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ، وَالآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شيءٍ، وَالظَّاهِرُ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ، وَالبَاطِنُ دُونَ كُلِّ شيءٍ، وَالقَاهِرُ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ، اغْفِر لِي كُلَّ شَيءٍ، إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.. وَيَا عَليما بِكُلِّ شَيءٍ، وَمُحيطا بِكُلِّ شَيءٍ، وَبَصيرا بِكُلِّ شَيءٍ. وَيَا شَهيدا عَلى كُلِّ شَيءٍ، وَرَقيبا عَلى كُلِّ شَيءٍ، وَلَطيفَا بِكُلِّ شَيءٍ، وَخَبيرا بِكُلِّ شَيءٍ، اغْفِر لِي كُلَّ شَيءٍ مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطيئَاتِ حَتّى لَا تَسْأَلَني عَنْ شَيءٍ، إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

اَللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِعِزَّةِ جَلَالِكَ وَبِجَلالِ عِزَّتِكَ، وَبِقُدرَةِ سُلْطَانِكَ وَبِسُلطانِ قُدْرَتِكَ مِنَ الفَضِيحَةِ وَالأهواءِ الرَّدِيَّةِ، يَا جَارَ المُستَجيرينَ أجِرْنِي مِنَ الشَّهَواتِ الشَّيطَانِيَّةِ وَطَهِّرنِي مِنَ القَاذُوراتِ البَشَرِيَّةِ، وَصَفِّنِي بِحُبِّ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالمَحَبَّةِ الصِّدّيقِيَّةِ، مِنْ صَدَإِ الغَفلَةِ وَأوهَامِ الجَهْلِ حَتّى تَفنَى الأنَانِيَّةُ، وَيَبقى الكُلُّ لله وَبِالله وَإلى الله وَمِنَ الله غَرقاً بِنِعْمَةِ الله في بَحْرِ مِنَّةِ الله مَنْصُورينَ بِسَيفِ الله مَحْظُوظينَ بِعِنَايَةِ الله مَحفُوظينَ بِحِمَايَةِ الله عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ يُشْغِلُ عَنِ الله.. فَيَا نُورَ الأَنْوَارِ، وَيَا عَالِمَ الأَسْرَارِ، وَيَا مُدَبِّرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَا مَلِكُ يَا عَزيزُ يَا قَهَّارُ، يَا رَحيمُ يَا وَدُودُ يَا غَفَّارُ، يَا عَلّامَ الغُيُوبِ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ وَالأبْصَارِ، يَا سَتَّارَ العُيوبِ، يَا غَفَّارَ الذُنُوبِ، اغْفِر لِي ذُنُوبِي وَارْحَمْ مَنْ ضَاقَتْ عَلَيهِ الأسْبَابُ، وَغُلِّقَتْ دُونَهُ الأبوَابُ، وَتَعَسَّرَ عَليهِ سُلُوكُ طَرِيقِ أهْلِ الصَّوَابِ، وَانْصَرَمَتْ أيَّامُهُ وَنَفْسُهُ رَاتِعَةٌ في مَيادينِ الغَفْلَةِ وَالمَعْصِيَّةِ وَدَنِيِّ الاِكتِسَابِ.. فَيَا مَنْ إذا دُعِيَ أجَابَ، وَيَا سَريعَ الحِسَابِ، وَيَا كَريمُ يَا وَهّابُ، ارْحَمْ مَنْ عَظُمَ مَرَضُهُ وَعَزَّ شِفاؤهُ، وَضَعُفَتْ حيلَتُهُ وَقَوِيَ بَلاؤهُ، وَأنْتَ مَلْجَؤهُ وَرَجاؤهُ.. إلَهي إلَيْكَ أرْفَعُ بَثّي وَحُزني وَشِكَايَتِي.. إلهي حُجَّتِي حَاجَتِي، وَعُدَّتِي فَاقَتِي وَانْقِطاعُ حِيلَتِي.. إلهي قَطرَةٌ مِنْ بِحَارِ جُودِكَ تُغنيني، وَذَرَّةٌ مِنْ تَيَّارِ عَفْوِكَ تَكفينِي، يَا وَدُودُ يَا وَدُودُ يَا وَدُودُ يَا ذا العَرشِ المَجيدِ يَا مُبدِئُ يَا مُعيدُ يَا فَعّالا لِماَ يُريدُ، أسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الّذي مَلأَ أركَانَ عَرشِكَ، وَأسْأَلُكَ بِقُدرَتِكَ الّتي قَدَرْتَ بِهَا عَلى جَميعِ خَلقِكَ، وَبِرَحْمَتِكَ الّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ يَا مُغيثُ أغِثنَا واغْفِرْ جَميعَ ذُنُوبِي وَسَقَطَاتِ لِسَانِي في جَميعِ عُمري بِرَحْمَتِكَ يَا أرحَمَ الرَّاحِمينَ آمينَ وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمينَ. آمين.. آمين.. آمين..

«يا من يقرأ هذا الاستغفار أولا لنفسك، فأقرأه ثانيا: بدلا عني في سبيل الله.. فإني في قبري ساكن، ولساني ساكت ناطق بكتابي مستعيرا لسانك فانطق بحسابي أيضا حسبةً لله...».

سعيد النورسي



الرسالة العاشرة[1]

القطعة الثالثة من

شَمَّة

مِنْ نَسِيمِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ

(١) هذه الرسالة بكاملها غير موجودة في الطبعة الأولى، وإنما هي في المخطوط وفي الطبعة التالية وهى رسالة مستقلة في الترجمة التركية. تضم خلاصة لكثير من مباحث رسالة «المدخل إلى النور» والتي فصّلت في «الكلمات».

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن الله التوفيق لأقوم الطريق.

سبحانك يا من أنطق السماءَ بحمده وتسبيحه بكلمات النجوم والسيارات.

ويا من أنطق الأرضَ بحمده وتسبيحه بكلمات الأشجار والنباتات.

وأنطق النبات والشجر بكلمات الأزهار والثمرات..

وأنطق الزهر والثمر بكلمات البذور والنواتات.

وأنطق النواة والبذر بلسان السنابل وكلمات الحبّات.

سبحانك يا من يسبح بحمدك الضياءُ بأنواره، والهواءُ بأعصاره، والماءُ بأنهاره، والأرض بأحجاره، والنبات بأزهاره، والشجر بأثماره، والجو بأطياره، والسحاب بأمطاره، والسماء بأقماره.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبراس[1] الأنبياء، وزبرقان[2] الأصفياء ونيّر[3] الأولياء، وشمس الثقلين، وضياء الخافقين.[4] وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدجى.

---

(١) النبراس: المصباح.
(٢) زِبرقان (بكسر الزاي والباء): أي القمر.
(٣) نَيِّر (بفتح النون وتشديد الياء): المقصود الشمس.
(٤) أفق المشرق والمغرب.

اعلم[1] يا من يضيق ذهنُه عن فهم سرّ ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ (الملك:٥) أن للصعود إلى سماء هذه الآية سلّما ذا درجات سبعة:

الأولى: أن للسماوات سكانا يناسبونها يسمَّونَ بالملائكة، إذ امتلاء الأرض -مع حقارتها بالنسبة إلى السماء- من ذوي الحياة والإدراك، يشير بل يصرّح بامتلاء السماوات ذات البروج -تلك القصور المزينة- من ذوي الإدراك.

وكذا إن تزيينَ الكائنات بجميع هذه التزيينات والمحاسن والنقوش مستلزمةٌ لوجود أنظار متفكرين مستحسنين بالحيرة والتقدير؛ إذ لا يُظهَر الحُسن إلّا لعاشق، كما لا يُعطى الطعامُ إلّا لجائع، مع أنه لا يكفي الجن والإنسُ لعُشر معشار عَشِيرِ هذه الحشمة والوظيفة، بل لا تقوم بها إلّا ما لا يُعد من أنواع الملائكة والروحانيات.

الثانية: أن للأرض علاقةً مع السماء ومعاملةً معها وارتباطا يجيء منها إليها أشياء، من الضياء والحرارة والبركات وغيرها. فبالحدس القطعي نعلم أن للأرضيّين طريقا يصعدون فيها إلى السماء، إذا خَفّوا بوضع أثقالهم وخلع أجسادهم كالأنبياء والأولياء والأرواح.

الثالثة: أنَّ سكونةَ السماء وسكوتها وانتظامها واطّرادها تدل على أن أهلَها ليسوا كأهل الأرض التي فيها اضطرابٌ وتذبذب واختلافات وامتحان بمشاجرات، بسبب اختلاط الأشرار بالأخيار واجتماع الأضداد، بل كلُّ أهل السماء مطيعون يفعلون ما يؤمَرون.

الرابعة: أنَّ لمالك يوم الدين ولرب العالمين أسماءً متغايرةً أحكامُها، فالاسم الذي اقتضى إنـزالَ الملائكة للمحاربة في صف الصحابة مع الكفار، يقتضي وقوعَ المحاربة بين الملائكة والشياطين؛ أي السماويين الأخيار والأرضيين الأشرار. ألا ترى السلطان كيف يفعل؟ إذ قد يقتضي شأنُ سَطوته واسمُ حشمته تشهيرَ استحقاق المكافأة والمجازاة على رؤوس الأشهاد، أو إعلانَ تعظيم بعض خدامه، بأن لا يعامِلهم بعِلْمِه بهم فقط، وبتَلَفُونه الخاص، بل يأمر الوزيرَ فيحشّد الناسَ لميدان مبارزة محتشَمة، وامتحان عُلوي، واستقبال سياسي.

الخامسة: أنه لابد أن يقلّد أشرارُ الروحانيات أخيارَهم في تشبث الذهاب إلى مملكة السماء للطافتهم، ولابد أن لا يقبَلَهم أهلُ السماء، بل يطردونهم لشراراتهم. ولابد في حكمة

(١) تفصيل هذا البحث في «الكلمة الخامسة عشرة» و«الكلمة التاسعة والعشرين».

سلطنة الربوبية أن يكون لهذه المبارزة المعنوية والمعاملة المهمة علامةٌ وإشارةٌ في عالم الشهادة لإشهاد الإنسانِ الذي أهمُّ وظيفته المشاهدةُ والشهادةُ مع أنه لا يَرى فيما بين الحادثات السماوية أنسبَ من إعلان هذه المبارزة العلوية من رمي الشُهب المشابِهة للمنجنيقات المُرماةِ من بروج الحصون الرفيعة، مع أنه لا يرى لهذه الحادثة حكمةً تناسبها غيرَ هذه الحكمة المشهورة المشهودة لجميع أهل الحقيقة، خلافَ سائر الحادثات.

السادسة: أنَّ القرآن الحكيم المعجز يرشد البشرَ ويزجرُه من العصيان بأسلوب غال ومثَل عال.. فانظر إلى إنذارِ ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (الرحمن:٣٣). الآيةُ في تعجيز الثَقلين، وإعلان عجزهما في جنبِ وُسعةِ سلطنة الربوبية، كأنّهُ يقول: أيها الإنسان الحقير الصغير العاجز! كيف تعصي سلطانا يطيعه الشموسُ والأقمارُ والنجوم والملائكة الذين يرجمون الشياطينَ ببنادقَ كأنها جبالٌ بل أعظم! وكيف تتجاسر على العصيان في مملكةِ سلطانٍ؛ مِن جنوده مَن يقتدر أن يرميَ في وجه الأعداء بنجومٍ في عظمة أرضكم كما ترمي جَوزَك وبندقتك.

السابعة: أنَّ النجم كالمَلك والسَمَك له أفراد في غاية الصغر وفي غاية الكبر. فكل ما يضيء في وجه السماء فهو نجم، فمن هذا النوع ما يُزَيّن به السماء كالجواهر والأثمار والأسماك،[1] ومنه ما يُرجم به الشياطين كالمنجنيقات المرماة للطرد، أو للإشارة إلى وجود الحارسين المتيقظين المطيعين المجتنبين عن اختلاط العاصين، أو للرمز إلى جريان قانون المبارزة في أوسع الدوائر.. ولله الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

اعلم أن الآيات المصرِّحة بكتابة الأشياء قبل كونها وبعد كونها كثيرةٌ، كأمثالِ ﴿ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (الأنعام:٥٩). ويصدّقها منظوماتُ مكتوباتِ كتابِ الكائنات وموزوناتُ آياتها، لاسيّما آياتُ النظام والميزان والانتظام والتصوير والتزيين والامتياز.

أما قبل الكون، فالدليلُ جميعُ المبادي والبذور وجميعُ المقادير والصور، إذ ما البذور إلا صُنيدقات لطيفةٌ أُودعت فيها فهرستةُ ما رسمَه القَدر، فتبني القدرةُ وتستخدم الذرات على هندسته. وما المقادير إلّا مكتوباتٌ قدَرية منظومة، وقوالبُ علمية موزونة؛ إذ الذرات

(١) أي إن هذه الأفراد الكثيرة لنوع النجم تزيّن وجه السماء وتتلألأ كالجواهر، كما تزين الأثمارُ البساتينَ الغناء والأسماكُ البحارَ.

الصم العمي الجامدة تتحرك في نمو الأشياء ثم تتوقف عند حدود معوجّة، توقفَ سميعٍ بصير بمظانّ الفوائد والثمرات. وهكذا فقس كثرة براهين الكتابة قبل الكون.

وأما الدليل على الكتابة بعد الكون؛ فمن العالَم جميعُ الثمرات التي هي كمطوياتِ صحائفِ أعمالِ الأشجار والأزهار، تَنشرُ على رأس الأشهاد ما جرى على رؤوس أُصولها، إذا دُفنت في الأرض وحُشرت في الربيع. ومن الإنسان قوّته الحافظة التي هي في محل كالخردلة في الصغر، وما هي إلّا كسَنَدٍ استنسخته يَدُ القدرة بقلم القَدر من صحيفة الأعمال، وأعطَتْه ليد الإنسان ليتذكّر به وقتَ المحاسبة، وليطمئن أن خلفَ هذا الهَرج والمَرج والفناء والزوال مرايا للبقاء رَسَم فيها القديرُ هويّات الزائلات، وألواحا يكتب فيها الحفيظُ العليم معانيَ الفانيات.

اعلم أنه كما أن الساعة غيرُ ثابتة بل متزلزلة مضطربة الآلات، كذلك الدنيا التي هي ساعة كبرى أيضا متزلزلة؛ فبإدراج الزمان فيها صار «الليلُ والنهار» كميلين يعدّان ثوانيها، و«السنة» إبرةً تعدّ دقائقَها، و«العصر» كإبرة تعد ساعاتها. وبإدراج المكان فيها صار «الجو» بسرعةِ تغيره وتحوله وتزلزله كمِيل الثواني، و«الأرضُ» بتبدل وجهها نباتا وحيوانا موتا وحياةً كميل الدقائق، وبتزلزل بطنها وتولد «جبالها» كميل الساعات. و«السماء» بتغيراتها بحركات أجرامها وظهور ذوي الأذْناب والكسوفات والشهابات كالميل الذي يعد الأيام.

فالدنيا المبنية على هذه الأركان السبعة -مع أنها واصفةٌ لشؤونات الأسماء ولكتابة قلم القدرة والقَدر- فانيةٌ هالكة متزلزلة راحلةٌ كالماء السيال في الحقيقة. لكن تجمّدت -صورةً- بالغفلة، وتكدّرت بالطبيعة فصارت حجابا عن الآخرة.

فالفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جمودَتها وكُدورَتَها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعية. وأما القرآن فينفش الدنيا كالعهن المنفوش بآياته، ويشفّفها ببيّناته، ويذيبها بنيّراته، ويمزّق أبديتَها الموهومة بنعياته، ويفرّق الغفلةَ المولدة للطبيعة برعداته. فحقيقةُ الدنيا المتزلزلة تَقرأ بلسان حالها المذكورة آيةَ

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

اعلم أن مميّز الإنسان عن الحيوان شمولُ علاقته بالماضي والمستقبل، وكليةُ إدراكه بالأنفس والآفاق.. وكشفُه لترتب العلل الظاهرية في إنشاء الأشياء الظاهرية. فأعظمُ وظيفته وأقدمُها،[١] وأتم جهازاته وألزمُها؛ التسبيحُ والتحميد بالجهاز المخلوق لهما، فيسبّح الإنسانُ صانعَه بلسان الماضي والحال والمستقبل، وبألسنة الأنفس والآفاق.[٢] وبسر مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يُثني على صانع الأشياء بقراءة أسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صُنع الأشياء. فـ«سبحان الله» يتضمن معنى الحيرةِ والتقدير، ومعنى التعجب والاستحسان، ومعنى التنـزيه والتقديس، ومعنى الهَيبة مع المحبة، ومعنى المجهولية للعظمة.

اعلم أن لله عطايا وقضايا ومقدرات.. ينفذ العطاءُ في القضاء، والقضاءُ في القدَرَ. أي يخرق العطاءُ قانونَ القضاء. كما تنخرق صلابةُ الحجر والتراب عند مرور العروق اللينة، وتنكسر مقاومةُ الحديد للمَيل اللطيف من الماء اللطيف عند الانجماد، ويُخرق لسهم القضاء قانونُ القَدر كما ينخرق القانونُ الكلي الذي هو قَدَرُ النوع بشذوذ الجزئيات الخارقة المخصّصة للإشارة إلى أنه سبحانه فاعلٌ مختار، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ويَحْكُمُ ما يريدُ، لا مانع لما أعطى، ولا رادّ لما قضى.. فنسبة العطاء إلى القضاء كنسبة القضاء إلى القَدر، أي العطاء شذوذٌ عن قانون القضاء كما يقول العارف بحقيقة الحال: «يا إلهي إن حسناتي من عطائك، وسيئاتي من قضائك. لولا عطاؤك لكنت من الهالكين». أي استعداد النفس الأمارة بالسوء قانونُ شر وهلاك.

اعلم أن السر في تختيم الآيات بفذلكات متضمنة للأسماء الحسنى كأمثال آية الملك، أو بعين الأسماء كما في كثير من الآيات، هو أن القرآن الحكيم ببيانه الإعجازي يبسط الآثار للنظر، ثم يستخرج منها الأسماء، كأمثال آيةِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم:٢٧).

وكذا ينشر للبشر منسوجاتِ صُنعه، ثم يطويها في الأسماء.

وكذا يفصّل أفاعيلَه ثم يَجْملها بأسمائه.

(١) أي أولى الوظائف وأهمها (ت: ١٨٨).

(٢) أي إن الإنسان يحمد ربه ويسبّحه بما أنعم عليه في الماضي والحال وما سينعم عليه من نعم في المستقبل، وبما يجده منها في نفسه أو في الآفاق (ت: ١٨٨).

وكذا يرتّب المخلوقات ويشفّفها بإراءة النظام والميزان والفوائد، ثم يريك فيها الأسماء كأن تلك المخلوقاتِ ألفاظٌ، وهذه الأسماء معانيها أو ماؤها أو نواتها إيجادا وخلاصتها علما.

وكذا يذكر الجزئيات المادية المتكيفةَ المتغيرة، ثم يُجمِلها بالأسماء الكلية النورانية الثابتة.

وكذا يفرش الكثرةَ المتوسعة المنتشرة، ثم يضع عليها مظاهرَ الوحدة كجهة الوحدة.

وكذا يُظهِر بإظهار غاياتِ المسبَّبات بُعْدَ ما بين الأسباب والمسبَّبات المتصلتين في الظاهر، كما يُرى تماسُّ الأفق بالسّماء في ظاهر النظر، مع أن ما بينهما مسافة مدهشة. إذ لا طاقة لأعظم الأسباب بذاته على حَمل أخف المسبَّبات، فيُظهر القرآنُ بإظهار هذا البُعد محلَّ ظهور الأسماء ومَطَالِعها.

وكذا قد يذكر أفاعيلَ الخلق فيهدّد، ثم يسلّي بأسماءٍ تشير إلى الرحمة.. وقد يذكر مقاصدَ جزئيةً، ثم يقررها بأسماء هي كالقواعد الكلية والبراهين عليها.[1]

اعلم[2] أن العجز كالعشق طريقٌ موصلٌ إلى الله بل أقرب وأسلم. ثم إن أهلَ السلوك سلكوا في طرق الخفاء على اللطائف العشرة، وطرق الجهر على النفوس السبع.. وهذا العاجز استفاد من القرآن طريقا قصيرا، وسبيلا سويا هو أربع خطوات:

الخطوة الأولى: ما أشارت إليها آيةُ ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ ﴾ (النجم:٣٢).

والثانية: ما أشارت إليها آية ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ ﴾ (الحشر:١٩).

والثالثة: ما أشارت إليها آيةُ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ ﴾ (النساء:٧٩).

والرابعة: ما أشارت إليها آيةُ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص:٨٨).

وإيضاحه: أن الإنسان بحسب جبلّته محبٌّ لنفسه، بل لا يحب بالذات -في الأول- إلّا ذاتَه، فيمدح نفسَه مدحا لا يليقُ إلّا بالمعبود، ويدافع عن نفسه بشدة وينـزّهها عن المعايب ولا

(١) الكلمة الخامسة والعشرون، رسالة «المعجزات القرآنية» تفصّل هذه المسائل بأمثلة كثيرة.

(٢) تفصيله في ذيل «الكلمة السادسة والعشرين».

يقبل القصورَ لها ما أمكنه، حتى كأنه يصرفُ الجهاز المخلوق فيه لحمد معبوده وتسبيحه إلى نفسه، كـ ﴿ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ (الجاثية: ٢٣). فلابد من تزكيتها هنا بعدم تزكيتها.

والثانية: نسيانُ النفس في مقام الكُلفة والخدمة، وشدةُ التزامها في مقام أَخذ الأُجرة والحظوظات. فتزكيتُها عكسُ هذه الحالة أي عدم النسيان في عين النسيان.

والمرتبة الثالثة: لا يرى من نفسه إلّا القصورَ والنقص والعجز والفقر، ويرى كلَّ المحاسن نِعَماً من جانب فاطره تقتضي الحمد لا الفخر، فتزكيتُها في هذه المرتبة؛ علمُها بأن كمالَها في عدم كمالِها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في فقرها.

والخطوة الرابعة: دركُ أنه في نفسه وبالمعنى الاسمي فانٍ مفقودٌ حادثٌ معدومٌ، وبالمعنى الحرفي -والمرآتيةِ لأسماءِ صانعه- شاهدٌ مشهودٌ وواجدٌ موجودٌ. فتزكيتُها هنا معرفةُ أن عدَمَها في وجودِها، ووجودَها في عدمِها، ووِردُها: «له الملك وله الحمد».

وكذا إن مشرب أهل وحدة الوجود يذهب إلى إعدام الكائنات بنفي وجودها، ومشرب أهل وحدة الشهود يذهب إلى حبس الموجودات في سجن النسيان المطلق.. وأما ما أَفهمُ من منهاج القرآن فهو عفوها عن الإعدام والحبس، بل استخدامُها في وظائفِ إعلان الأسماء الحسنى بالمظهرية والمرآتية؛ بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وعزلُها عن الخدمة بالمعنى الاسمي وبحساب نفسها.

ثم إن الإنسان في وجوده دوائرُ متداخلةٌ ومصنوعات متراكبة؛ إذ هو نبات، وحيوان، وإنسان، ومؤمن.. فالمعاملة للتزكية قد تقع أولا في الطبقة الرابعة الإيمانية. ثم تتنازل إلى النباتية التي هي شديدة المقاومة، وقد تقع المعاملة في الكل في اليوم والليلة. ومما غَلِط فيه الإنسانُ عدمُ الفرق بين تلك المراتب فيقول: خُلق لنا ما في الأرض جميعا؛ فأولا يغلط بظن انحصار الإنسانية في معدته النباتية أو الحيوانية، ثم يغلط بانحصار غايات الأشياء في ما يؤول إلى نفسه. ثم يغلط بتقدير قيمة الأشياء بمقياسِ مقدار منفعته منها، فلا يشتري نجم الزهرة بزهرةٍ مشمومة.

اعلم[١] أن العبوديةَ نتيجةُ النعمة السابقة وثمنُها، لا مقدمةُ المكافآت اللاحقة ووسيلتها.

(١) تفصيله في الثمرة الثانية من الغصن الخامس للكلمة الرابعة والعشرين.

أيها الإنسان! أخذتَ أجرتك؛ إذ صنَعك هكذا في أحسن تقويم ثم تَعرَّفَ إليك بإعطاء الإيمان.

نعم، كما أنه بإعطاء المعدة أنعمَ عليك بجميع المطعومات.. كذلك بإعطاء الحياة صيَّر لك عالمَ الشهادة سُفرةً مملوءَةً من النِّعم. فانظر إلى تفاوت السُفرتين. وكما أنه بإعطاء النفس الإنساني جعل لهذه المعدة عوالمَ المُلك والملكوت مائدةً مشحونة بالنِّعم.. كذلك بإعطاء الإيمان فرشَ لك مع الموائد المزبورة موائدَ مدخراتِ كنوز أسمائه.. وبإعطاء محبته فَتَح لك ومنَحك ما لا يوصف، فإذا أخذتَ مثل هذه الأجرة، فعليك بالخدمة. فإذا أعطاك بعد العمل نعمةً أخرى فما هي إلّا من محض الفضل.

اعلم أن ما يشاهَد من الجُود بلا حساب في تكثير أفراد الأنواع، لاسيما في صغار المخلوقات مع كمال الإتقان وحسن الانتظام، يشير بل يصرّحُ بعدم التناهي في تجليات الصانع، وبمباينة ماهيته، وبتساوي الأشياء بالنسبة إلى قدرته، وبوجوبه.

نعم، ما هذا الجُودُ والإيجاد إلّا من ذلك الوجوب ومن برهانه. والجُودُ في النوع جلالي، والإتقانُ في الفرد جمالي.[1]

اعلم أن الصنعة الإنسانية تسهُل على الصانع بدرجة علمه بها، وتَعسر بمقدار جهله، لاسيما في المصنوعات اللطيفة الدقيقة الجهازاتِ. فكلما كان أعلم كانت عليه أيسرَ وأسهلَ. فما يُشاهَد من السهولة بلا حدّ في السرعة المطلقة والوسعة المطلقة في خلق الأشياء المنتظَمة، يدل قطعا وحدسا على أن لصانعها علما لا نهاية له. كما تشير إلى تلك السهولة آيةُ ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ (القمر:٥٠).

اعلم أنه كما أن مَن لفَّ على مصنوعٍ أو مصنوعات لفائفَ مصنوعة، وألبَس مكنونةً مزينةً أو مكنوناتٍ أقمصةً نُسجت من جنسِ مادتها -كالجلود- وأدرج متولداتٍ منحوتات من بطونٍ متراكمة في أجوافها، لا شك ولا ريب أن المظروفَ كالظرف، والمحاطَ كالمحيط صنعُ واحدٍ ومالُه وملكُه.

(١) أي يتجلى جلاله سبحانه إذا نظر إلى النوع -بأفراده الكثيرة- أما إذا ما أُنعم النظر في كل فرد فيتجلى جمال الإتقان في الصنعة. ففي الفرد يتجلى الجمال وفي النوع يتجلى الجلال.

كذلك لا شك ولا ريب أن من لفَّ لفائف الوحدة الاتصالية والنوعية على الكثرة، كوحدة الكل والكلي والظرف.. وكذا ألبَس على قامات جماعاتِ هذه المصنوعات المنثورة أقمصةَ هذه العناصر التي كأمهاتها.. وكذا أدرج هذه المخلوقات لاسيما الحيوانات التي هي تماثيلُ مصغرةٌ لهذه العوالم الكبيرة في أجواف تلك العوالم اللواتي هن كأبنية متداخلة ضُربت على موجودات هن كثمراتها أو نواتاتها، ما هو إلا واحدٌ أحدٌ صمدٌ يتجلى على المحيط بالواحدية، وعلى المحاط بالأحدية.

اعلم[١] أنه كما أن للسلطان عنواناتٍ متنوعةً لحاكميته في دوائر حكومته وطبقات رعيته ومراتب سلطنته ووظائف أميريته، كأنه موجودٌ حاضرٌ ومشهودٌ ناظرٌ في كل دائرةٍ وخلفَ كلِّ حجابٍ بممثله وقانون نظامه، كذلك مثلا: - ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ - إن مَن له الأسماء الحسنى، له تجلٍ في عالَمٍ عالَمٍ بعنوان اسمٍ من أسمائه الحسنى ويستتبع ذلك الاسمُ في دائرة سلطنته سائرَ الأسماء بل يتضمنها.. وكذا يتصرف في كل طبقةٍ طبقةٍ كلاًّ وجزءا، كليا وجزئيا بتجلٍّ خاص في ربوبية خاصة بجلواتِ اسم خاص، أي يتجلى عليه بخصوصيةٍ كأنه يخصّه، مع أنه يعمُّ ويحيط.

وله سبحانه في مراتب ربوبيته شؤوناتٌ متناظرة.. وله في سرادقات ألوهيته أسماء متعاكسة.. وله في مرايا حشمته تمثيلاتٌ متفاوتة.. وله في تصرفات قدرته عنوانات متنوعة.. وله في تجليات صفاته ظهورات متزاهرة. وله في جلوات أفاعيله تصرفات متظاهرة.. وله في تنويع مصنوعاته ربوبيات متدائرة على تجلي الأحدية على جزئيات محاط الواحدية، كما أشار إلى هذه الحقيقة العظيمة الواسعة ترجمانُ لسانِ القِدم في مناجاته في «الجوشن الكبير»[٢] وهذه المناجاة مشتملةٌ على تسعة وتسعين عقدة، وصَدَفُ، كلٍّ منها متضمنةٌ لاثني عشر من جواهر التوحيد صريحا أو ضمنا؛ إذ إذا نودي أحدٌ بوصفٍ مطلق في مقام التعيين يدل على انحصار الوصف فيه. مثلا: «يا دائم» أي يا من لا دائمَ في العالم إلّا هو. فله سبحانه حجُب نورانية إلى سبعين ألفا، كما روي[٣].. ولوجود المنافذ في الحجب والتناظر في الشؤونات والتعاكس في

(١) تفصيله في الغصن الأول من «الكلمة الرابعة والعشرين» وفي «الكلمة الحادية والثلاثين».

(٢) الجوشن: لغةً: الصدر والدرع. والمقصود هنا مناجاة الرسول ﷺ المروية عن علي بن الحسين الملقب بـ«زين العابدين» رضي الله عنه.

(٣) انظر: أبو يعلى، المسند ١٣ / ٥٢٠؛ الطبراني، المعجم الأوسط ٦ / ٢٧٨، ٨/ ٣٨٢؛ الروياني، المسند ٢/ ٢١٢؛ ابن أبي عاصم، السنة ٢/ ٣٦٧؛ الطبري، جامع البيان ١٦/ ٩٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ١/ ٧٩.

الأسماء، والتداخل في التمثيلات، والتمازج في العنوانات، والتشابه في الظهورات، والتساند في التعرفات، والتعاضد في الربوبيات، وتجلي الأحدية في إحاطة الواحدية، لزم البتةَ لمن عرفه سبحانه في واحد مما مرّ، أن لا يستنكرَه في سائر ذلك، بل يفهم بالبداهة أنه هو هو.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤).

اعلم أن من عجائب جامعية فطرة الإنسان، أن أدرج الفاطرُ الحكيمُ في هذا الجِرم الصغير موازينَ لا تُعدّ، لوزن ما لا يُحدّ من مدخرات رحمته. وأدمج فيه آلاتٍ لا تُحصى جهازاتُها المعنوية لفهمِ ما لا يتناهي من مكنونات كنوز أسمائه الحسنى.

انظر إلى حواسك العشرةِ كيف أحاطت بألوان عوالم المسموعات والمبصَرات والمذوقات وغيرها.. وكذا أعطاه جزئياتِ صفاتٍ وأحوالٍ من الإرادة والعلم والسمع وغيرها لفهم صفاته المحيطة وشؤونه الواسعة.. وكذا لفّ على أنانيته لفائفَ بعدد العوالم وألوانها، ليعرفَ حالها بتلك اللطائف.. وكذا ألبس على قامة ماهيته أقمصةً بعدد حُجب الربوبية ليترقى فيها بقطعها.. وكذا أودع فيه لطيفةً مُدرِكة، بصورة عجيبة، بحيث تصير الحافظة التي هي في صغر الخَردلة كعالَمٍ واسع، تسير تلك اللطيفة في تلك الخردلة دائما، ولا تصل إلى ساحلها. ومع ذلك قد يضيق على تلك اللطيفة هذا العالمُ الكبير، فتحيط هي بهذا العالم، وتحيط بها وبجميع ميادين جولانها ومكاتيب مطالعتها هذه الخردلة. فسبحان من صغّرها بلا غاية في عين كبرها بلا نهاية. ومن هذا السر، تتفطن لتفاوت مراتب الإنسان؛ فمن الإنسان من يغرق في ذَرّة، ومن الإنسان من تغرق فيه الدنيا.

ثم إن الإنسان قد يَفتح بمفتاحٍ من مفاتيحه الموهوبة عالَما واسعا من أبسط ما انتشرت إليه الكثرة، فيضل فيها فلا يصل إلى الوحدة والتوحيد إلّا بعُسر عظيم. فللإنسان في معناه وسَيره الروحي طبقاتٌ؛ ففي طبقة يتيسر له باليسر والسهولة الحضورُ والتوحيد، وفي طبقة أخرى تستولي الغفلةُ والأوهام، وقد تتسع عليه الضيقةُ بحيث يغرق في الكثرة غرقا تاما، فينسى الوحدة رأسا. وإن المدنيين الذين توهموا السقوطَ ترقيا، والجهلَ المركب يقينا، والانغماس التام في النوم انتباها، هم في هذه الطبقة السفلى. فهم أبعد بدرجات من البدويين من درْك الحقائق الإيمانية.

اعلم أن الواحدية تدل على أن الاسمَ يحيط بكل شيء، وأن الأحدية تدل على أن كلَّ شيء حيٍّ يشير إلى كل اسم له تعلّقٌ بالكون، فالتجلي بالواحدية بإحاطته بكل الأشياء، وبالأحدية بإراءة كل شيء لكل الأسماء.

اعلم أن أكثر مظاهر الجلال تجلي الأسماء على الكل والكليات والأنواع والجماعات. والجودُ المطلق في النوع من تجلي الجلال. وأن أغلب مرايا الجمال المتجلي نقوشُ جزئيات الموجودات، وجمال أشخاصها مع تزايد الحسن، وجلاء المرآتية بتلاحق الأمثال في تكثير الأفراد، والإتقان والانتظام الأجمل في شخصٍ شخصٍ من تجلي الجمال.. وكذا يظهر الجلال من تجلي الواحدية؛ ويظهر الجمال من تجلي الأحدية. وقد يتجلى الجمالُ من الجلال كما يتجلى الجلالُ من الجمال.. فما أجملَ الجلالَ في عين الجمال، وما أجملَ الجمالَ في عين الجلال!

اعلم أن شهود البصر للمصنوع المصنّع المرصّع مع عدم شهود البصيرة لصانعه ليس إلّا؛ إما لعدم البصيرة أو عماها، أو ضيقِها من عظمة تصور المسألة، أو للخذلان. وإلّا فهو[1] أنكرُ من إنكار شهود البصر، كالسوفسطائي بل أشنع وأكمه.[2]

اعلم أنه كما أن من زرع بذرا في مزرعة، وعمّتها حبّاتُ البذر ولو منمنمة،[3] تكون المزرعةُ محميّةً له، ومصونةً من تصرف الغير بالزرع مرة أخرى، حتى كأن البذر سورٌ معنوي.. كذلك كل نوع من أنواع النباتات والحيوانات المزروعة المبثوثة في مزرعة الأرض والمنثورة المنشورة في أكثر وجهها، سورٌ يمنع الشركة، وحارسٌ يطرد الغير، وحامٍ يردّ الأوهام. فكيف بتساند المجموع، وتعاضد الجميع بتلاحق الشواهد وتعانق الأفراد؟!

اعلم أنه كما أن من يُحب أن يشاهِدَ في رياض جنته وحديقته المنتظمة صورةَ القِفار الغير المنتظمة، ومثالَ أحجارها الموحشة، وتماثيلَ اعوجاجاتها المشوشة؛ لإظهار لطافةِ تنظيماته، قد يصنع فيما بين منظومات بستانه صخورَ الكهف بتنحيتاتٍ مشوشة، فكمالُ انتظامها هنا في عدم انتظامها. لكن يتفطن المدققُ أن تنظيمَ هذا بعدم الانتظام إنما هو بقصدِ ناظمٍ حكيم؟

كذلك إن ما يُشاهَد فيما بين المخلوقات المنظومة والمصنوعات الموزونة، من القفار

(١) أي عدم شهود البصيرة للصانع، أي إنكار الصانع!
(٢) كمه، كمها: عمى، أكمه: أكثر عمىً، وشبه بالسوفسطائي لأنه ينكر وجود الأشياء بل حتى نفسه.
(٣) منمنمة: صغيرة الحبوب.

المختلفة الأشكال المشوشة، ومن الجبال والآكام المتفاوتة الأحجار البعيدة عن النظام؛ بدرجة تتوهم النظرةُ الحمقاء الظاهرية أنْ لعبَت بها يدُ التصادف، ما هي إلّا منتظمةٌ بعدم التنظيم، ومشوشيتُه السطحية بقصدِ صانعٍ حكيم وفاطر عليم، بشهادة إحاطة المنظومات والموزونات بها وفرشها عليها، كنظم الدرر المنظومة على نحور الجواهر المنثورة لإظهار شعشعة الصنعة المنتظمة، وكإراءة شدة الظلمة لتلك النيّرات. فانظر إلى الأشجار ذوات الأشواك، وإلى النباتات المجهزة برماح أشواكها لدفع آكل النباتات، حتى ترى انتظاما عجيبا في عدم انتظامها، ولطافةً ظريفةً في خشونتها الموحشة. ومن أمارات كون عدم الانتظام -كالانتظام- بقصدِ صانعٍ حكيم؛ عدمُ توافق شكل بعضٍ لبعضٍ بدرجةٍ كأن كل فرد من نوعٍ مستقلٍ منحصرٌ في ذلك الشخص، مع اتحاد النوع وتآخذ أسباب التوافق. فعدم التوافق دليل عدم الاتفاقي وعدم التصادف.

اعلم أن من مزايا جامعية فطرة الإنسان، ومن مميزاته على سائر الحيوان، فهمَه لتحيّات ذوي الحياة لواهب الحياة. أي أنه كما يفهم كلامَ نفسه، يفهم بسمع الإيمان جميعَ كلمات ذوي الحياة المسبّحات، بل الجمادات. فكلٌّ منها يفهم كلامَ نفسه فقط -على ما يظهر- كمتكلّمٍ أصمَّ من هذه الجهة. وأما الإنسان فمتكلمٌ سميعٌ يسمع في وسعة البصر، أي يمكن له أن يسمعَ في وقتٍ بلا مزاحمةٍ ما تتكلم به الموجودات من أدلّات الأسماء الحسنى. فقيمة كلٍ منها بمقدار نفسه؛ وقيمة الإنسان المؤمن بمقدار الكل. فهو فردٌ كنوعٍ، بل كأنواع.. والله أعلم بالصواب..

اعلم أن الحقيقةَ تشبه الظاهر في الصورة، مع عظمة بُعْدِ ما بينهما في نفس الأمر. مثلا: التوحيد العامي الظاهري يَثْبُتُ بأن لا يُثبَتَ ولا يُسنَد شيءٌ من الأشياء إلى غيره تعالى، وهذا النفي سهل بسيط. وأما التوحيد لأهل الحقيقة فإنما يَثْبُتُ بأن يُثْبِتَ كلَّ شيء مما يشاهَد من الأشياء ويسندَه إليه سبحانه، ويرى فيه سكّته ويقرأ عليه خاتمه جلّ جلاله. وهذا الإثبات يُثبت الحضورَ وينافي الغفلة.

اعلم أن من حكمة إمهال الكافر المتوجّه بالمعنى الاسمي والقصد الذاتي إلى هذه الحياة الدنيوية؛ خدمتَه لتظاهر ألوان نعَمه تعالى الحاصلة بالتركيب الصُنعي، وإن لم يشعر هو..

وكذا تنظيمُه لمحاسنِ جميلاتِ مصنوعاته تعالى، وإن لم يفهم هو.. وكذا تشهيره –بطرزٍ جالبٍ للنظر– لغرائب صنعته سبحانه، وإن لم يتفطن هو.. كالساعة تعلّمُك عدد الساعات وهي لا تعلم ما تعمل هي.

اعلم أنه يمكن أن يذهبَ الموفَّق من الظاهر إلى الحقيقة بلا مرور على برزخ الطريقة؛ وقد رأيتُ من القرآن طريقا إلى الحقيقة بدون الطريقة، أي المشهورة. وكذا رأيت طريقا موصلا إلى العلوم المقصودة بدون المرور على برزخ العلوم الآلية.. نعم، ومن شأن الرحمة الحاكمة أن تُحسِن لأبناء هذا الزمان –السريعِ السيرِ– طريقا هكذا قصيرا سليما.

اعلم أنه كما أن وجودَ الشيء وحياتَه برهانٌ باهر على وجوب وجود موجده وصفاته، وآيةٌ نيّرة على أنه وحده، أي له كل شيء، وحجةٌ قاطعة لأيدي الأسباب.. كذلك فناءُ الشيء وموته في تجدد الأمثال برهانٌ ظاهر على بقاء المبدئ المعيد الوارث الباعث، ودليلٌ واضح على أنه لا شريك له –أي ليس لشيءٍ من الأشياء شيءٌ من الأشياء من جهة الخلق والإيجاد– وحجة قاطعة لأيدي أنفَس الأشياء من التأثير في أنفُسها.

الحاصل: أن الحياة تقول: «لا إله إلّا هو وحده»، وتردّ الأسبابَ.. وأن الموتَ يقول: «لا إله إلَّا هو لا شريك له»، ويردّ الأنفس.

اعلم أن من وظائف حياة الإنسان؛ شهودَه لتحيات ذوي الحياة لواهب الحياة. ثم الشهادةَ عليها، أي يشاهِد عبادةَ الكل فيشهَدُ عليها ويُعلنها كأنه ممثلُ الكلِّ ولسانُهم، يخبر الكلَّ بعمل الكلِّ في الإعلان لدى سيدهم.

اعلم أن القرآن والمنـزَل عليه القرآنُ يبحثان عن مسائلَ عظيمة، ويثبتان حقائقَ جسيمةً. ويبنيان أساساتٍ واسعةً؛ كأمثال إثبات وحدانية مَنْ يطوي السَـماء ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء:١٠٤).. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر:٦٧).. ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ (النحل:٧٧) بالنسبة إليه. و ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (الإسراء:٤٤) و ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف:٥٤).. ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ (الروم:١٩) ويحشر في تلك الأحياء أزيد من ثلاثمائة ألف حشر ونشر وقيامات، بإحياء أنواع النباتات والحيوانات،

وكتابتِها على صحيفة الأرض في نهاية الاختلاط والاشتباك، مع غاية التمييز بلا خبط ولا غلط. مع أنّ حشر واحد من تلك القيامات المشهودة ليس بأهونَ من حشر طائفة الإنسان، إذ يزيد عددُ طائفةٍ واحدة من طوائف الذباب الذي يوجد في عمر سنة على عدد الإنسان في عمر الدنيا. وكذا يقولان: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴾ (الزمر:٦٢- ٦٣) و ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٦).. ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٨) ويقولان: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٨).. وهكذا من عظائم المسائل المبرهنة المهمة، فليس نظرُهما في الكائنات كنظر الفنون الفلسفية والعقول الإنسانية، بل مَثَلُهما كمثل من يعرّفك صنعةً لتعريف صانعه، والمصنوعُ في قبضته يقلّبه، ويريك باطنَه وصحائفه وتلافيفَه وغاياتِ جهازاته عند صانعه، ويعلّمك كتابا بمعانيه وإشاراته.. ومَثَلُ الإنسان وفلسفته كمثل من يعرّفك مصنوعا بعيدا من يدكما[1] ومن فهمكما -وإنما يصل نظركما إلى سطحه ولا ينفذ إلى باطنه- فيلقمك مسائلَ سطحيةً كوساوسَ شطحيّةٍ لا تسمن ولا تغني، وكمثل أجنبي أعجمي لا يعرف من العربية كلمةً، لكن له معرفة بمناسبات النقوش والصور، فشرع يعلمك كتابَ الفصوص المذهّب ببيان مناسبات نقوش الحروف، وكيفية صورها ووضعية بعض إلى بعضٍ. وهكذا، من سفاسفَ واهيةٍ صورية.

فإذا كان هذا هكذا؛ فلا تجعلْ مقاييسَ العلوم الإنسانية محكّا لحقائقهما،[2] ولا تزنهما بميزانها؛ إذ لا توزَن الجبالُ الراسيات بميزان الجواهر النادرات، ولا تَطلب تزكيتَهما بها بجعل دساتيرها الأرضية مصداقا على تلك النواميس السماوية. فلا تظنن التزلزلَ بتحريك الأهواء الضالة لبعض التفرعات الجزئية، فأهمية الشيء بقدر قيمته.

اعلم[3] أيها المصاب ببليةٍ دامت من مدة! لا توزّع من جنود صبرك وقوّته، في مقابلة ما مضى إلى يومك هذا، بل إلى ساعتك هذه ؛ إذ التحقتْ تلك الأيامُ الأليمة الخالية إلى صف جنودك بانقلابها لذائذ معنوية وحسناتٍ أخروية. وكذا لا توزِّع من صبرك في مقابلة ما يأتي بعد يومك هذا، بل ساعتِك هذه. إذ هو عدمٌ ومعدومٌ وفي يد المشيئة. فأجمِع جميعَ قوة صبرك وجنودِه على هذا اليوم، وفي هذه الساعة، مع تقوّي قوتك المعنوية بالتحاق جنود

(١) أي بعيدا عن يد الإنسان وفلسفته.
(٢) أي القرآن والمنـزل عليه القرآن ﷺ. وتفصيل هذه المسائل في «الكلمة الثانية عشرة».
(٣) تفصيل هذه المسألة في «الكلمة الحادية والعشرين».

البلايا الأعداء إلى جنودك بانقلابها أحبابا ممدّةً، مع الاستمداد من التوكل على المالك الكريم الرحيم الحكيم في مقابلة ما يأتي. فإذا فعلت هكذا، يكفي أضعفُ صبرك لأعظم مصيبتك.

اعلم أنه كثيرا ما يُتوهَّم -بقصور الفهم- ما هو من منابع الحقيقة ومعادن الحق أنه من مخايل المبالغة ومظانّ المجازفة.

مثلا: روي: «**لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة، ما شرب الكافرُ منها جرعة ماء**»[1] أو كما قال.. المراد لا يساوي ما تمثّل في مرآة حياتك الفانية ووُسعة عمرك الزائل من هذه الدنيا الخارجية، مقدارَ جناح بعوضة من عالم البقاء. كما أن حبةً باقيةً بالتنبّت تُرجَّح على بيدر من تبنٍ يفنى بالتفتت.. فلكلٍّ أحدٍ من هذه الدنيا -التي هي مظاهرُ الأسماء الحسنى ومزرعةُ الآخرة- دنيا، فإنْ نظر إلى دنياه بالمعنى الحرفي، واستعملها للباقي كانت لها قيمة عظيمة؛ وإلّا -فلفنائها- لا توازي ذرةً باقية، وقس عليها بعضَ ما ورد في ثواب بعض الأذكار مما لا يجري في مقاييس العقل.

اعلم أن مما يدل على أن دستورَ الحياة هو التعاونُ دون الجدال -كما توهمَتْه الفلاسفة الضالة المضلة- عدمَ مقاومة التراب الصلب ولا الحجر الصلد لسيَران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة، بل يشق الحجرُ قلبَه القاسي بتماسِّ حريرِ أصابعِ بناتِ النبات، ويفتح الترابُ صدرَه المصمّتَ لسرَيان رائد النباتات.

نعم، تجاوبُ أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارعُ النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابقُ مواد الأغذية لترزيق الثمرات، وتزيّنُ الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاون الذرات في الإمداد لغذاء حجيرات البدن؛ دليلٌ قاطع ساطع على أن الدستور العام هو التعاونُ وما الجدال إلَّا دستورٌ جزئي بين قسم من الحيوانات الظالمة.

اعلم أن مِن أظهر براهين التوحيد، السهولةَ المطلقةَ المشهودة. مع أن في الشركة يستلزم كلُّ شيء -لاسيما حي- كلَّ ما يلزم للكل. ففي كل فرد من الكلفة كلفةُ ما في الكون، لاستلزام الفرد في الانفراد كلَّ كلفة الكل، كميةً.

اعلمي أيتها النفس الأمارة! أنكِ متهَمةٌ في أحسن مطالبك؛ إذ قد تشتاقين إلى أمور

(١) الترمذي، الزهد ١٣؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ الحاكم، المستدرك ٤ / ٣٤١.

الآخرة، لكن بالمعنى الحرفي، أي لئلا تتنغصَ الدنيا عليكِ بفنائها، فشوقُ الآخرة للتسلي من أَلَم الفناء. فأُفّا وتُفا[١] لهمّتكِ الدنية، كيف تُصيّر السلطان الدائمي خادما لحقير دنيٍ زائل؟ وتعمل خانا لسكن بعض الحيوانات في ليلة، بعَمَد مرصعةٍ بالجواهر تأخذُها من تحت قصرٍ سلطاني مستمرٍ[٢].. فتخربين القصر على رأسكِ، وتأكلين ثمرات الجنة الباقية قبل بدُوّ صلاحها في هذا البستان الكاذب.

اعلمي أيتها النفس العاشقةُ لنفسها، المستندةُ على ظهور وجودها! أنك اكتفيتِ بقطرة سراب[٣] عن بحر ماء الحياة، وبلمعةٍ ضعيفةٍ في ليلةٍ مدلهمّة عن الشمس في رابعة النهار.

أما ظهورُ وجودِك بالنسبة إلى ظهور وجود فاطرك؛ فكنسبة عدد نفسِك الواحدة، إلى ضرب جميع الموجودات في ذراتها. إذ نفسُك تدل على وجود نفسك بوجه واحد، وبمقدار جرمك.. وتدل على وجود موجِدها بوجوه لا تعد، مع دلالة كل من الموجودات على ظهور وجود موجِدك بوجوهٍ لا تعد أيضا إفرادا وتركيبا، فلابد أن يكون ظهورُ وجوده عندك أظهرَ من وجودكِ بدرجةِ أعظميةِ العالم على صغرك.

وأما حبُّك لنفسك، لأنها مخزنٌ لذّتك ومركزُ وجودك ومعدنُ نفعك وأقربُ إليك. فقد التبس عليك ظل الظليل الزائل، بأصل الأصيل الكامل. فإن تحبَّ نفسَك لِلذةٍ زائلة؛ فلابد أن تحبَّ من يفيدك لذائذَ باقيةً بلا نهاية، ويفيضُ على جميع من تلتذ بسعاداتهم لذائذَ تُسعِدُهم.

وإن كانت نفسُك مركزَ وجودك؛ فربُّك موجِدكَ، وقيّومُ وجودك مع وجودات كل من لك علاقة بوجودهم.

وإن كانت نفسك معدنَ نفعك؛ فرازقُك هو الذي بيده الخيرُ كله، وهو النافع الباقي، وعنده نفعُك ونفعُ كلِّ مَن لك نفعٌ في نفعهم.

وإن كانت نفسُك أقربَ إليك؛ ففاطرُها أقربُ منها إليها، إذ تصل يدُه منها إلى ما لا تصل يدُها ولا شعورُها ولا حبُّها إلى ذلك الشيء الذي هو في بحبوحة نفسها، فلابد أن تجتمع

(١) الأف: وسخ الأذن. والتف وسخ الأظفار، ثم استعمل ذلك عند كل شيء يضجر منه. قاله الأصمعي.
(٢) أي كيف تهونين من شأن الآخرة، فتجعلينها في خدمة الدنيا.. فإنك تبنين عمارة موقتة لنزول بعض الدواب –الشهوات– بما تسرقينه من أعمدة مذهّبة لقصر سلطان في الآخرة!
(٣) المقصود الحياة الدنيا كما سيأتي.

جميعُ المحبات المنقسمةِ على جميع الموجودات مع محبتك لنفسك فتهديها إلى جناب المحبوب الحقيقي.

اعلم أن مما يحجُبك عن الله ويبقيك في الغفلة؛ انحصارَ نظرك الجزئي على الجزء والجزئي، فيجوِّز صدورَه بالتصادف عن الأسباب الواهية. وأما إذا رفع رأسه ومدّ نظره إلى الكل والكلي، لا يجوّز صدورَ أدنى شيء من أعظم الأسباب.

مثلا: يمكنك أن تسند رزقَك الجزئي إلى بعض الأسباب، ثم إذا نظرتَ إلى خلو الأرض وفقرها في الشتاء، ثم امتلائها متبرّجةً متزينة بالأرزاق التي طبختها القدرةُ في مراجل الأشجار وجفان الجنان، تيقنتَ أنه لا يمكن أن يكون رازقك إلّا من يرزق كل حي بإحياء الأرض بعد موتها.

ومثلا: يمكنك أن تسندَ ضياءك الجزئي المادي، ونورَك المخصوص المعنوي إلى بعض الأسباب الظاهرية فتقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ (القصص:٧٨) ثم إذا نظرت إلى اتصال ضيائك بنور النهار، واتصالِ نورِ قلبك بضياء منبع الأنوار، تيقنتَ أنه لا يقتدر على إضاءة قالبك، وتنوير قلبك حقيقةً إلّا من يُقلِّبُ الليلَ والنهار بتحريك السيارات والأقمار. يضلّ من يشاء من الفجار ويهدي من يشاء من الأبرار بتنـزيل التنـزيل للاعتبار والاختبار.

اعلم أيها الإنسان أمامك مسائلُ عظيمةٌ هائلة، تُجبر كلَّ ذي شعور على الاهتمام بها!

منها «الموت» الذي هو فراقُك عن كلِّ محبوباتك من الدنيا وما فيها.. ومنها «السفر» إلى أبد الآباد في أهوال دهاشة.. ومنها «عجزُك» الغير المعدود في «فقرك» الغير المحدود في سفرك الغير المحصور في عمر معدودٍ محدود، وهكذا..

فما بالك تناسيتَ وتعاميتَ عنها -كطير الإبل- أي «النعامة» يخفي رأسه في الرمل، ويغمض عينه لئلا يراه الصيادُ.. إلى كم تهتم بالقطرات الزائلة، ولا تبالي بالبحور الدهاشة!

اعلم أني أحمد الله على أن فتح لي أعاظمَ مسائلِ هذه الكائنات بمسألة من النحو، هي الفرق بين «المعنى الحرفي والاسمي»، أي هذه الموجودات كلماتٌ دالات على معانٍ في غيرها، أي مكتوباتٌ ربانية تالياتٌ للأسماء الحسنى، لا اسمية حتى تدل على معنى في نفسها لذاتها..

فما تفرَّع من الوجه الأول؛ علمٌ وإيمانٌ وحكمةٌ. ومن الوجه الثاني؛ جهلٌ مركبٌ، وكفرانٌ مرجَّب،[١] وفلسفة مذهّبة.

وكذا أشكره على أنْ فتح لي مسألةً جسيمةً من أعاظم مسائل الربوبية بمسألة من المنطق، وهي الفرق بين «الكلي ذي الجزئي، والكل ذي الجزء»، فتجلي الجمالِ والأحدية كالأول.. وتجلي الجلالِ والواحدية كالثاني.. وتجلي الكمال والكبرياء جمع الجمع.. أي جمال في عين الجلال كالكلّي في عين الكل، والجزئي في عين الجزء.

اعلم أن الدنيا فهرستةُ الآخرة؛ فيها إشارات إلى مسائلها المهمة، منها الذوقُ في الرزق الجسماني. فالذي أدرج في وجودك حواسَّ وحسياتٍ، وجوارحَ وجهازات، وأعضاءَ وآلات لإحساس جميع أنواع نِعمه الجسمانية، ولإذاقة أقسام جلوات أسمائه المتجلية على الجسمانيات، في هذه الدار الزائلة الذليلة التي ليست لذيذةً ولا للَذةٍ.. يشير بهذا الصُنع الحكيم، إلى أن صاحب الإحساس والإذاقة،[٢] أعدّ لضيوف عباده ضيافةً جسمانيةً أيضا لائقة بالأبدية في قصورٍ ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ﴾ (المائدة:١١٩).

اعلم[٣] أيها السعيد العاجز الخائف! أن الخوفَ والمحبة إذا توجّها إلى الخلق، صار الخوفُ بليةً أليمةً، وصارت المحبةُ مصيبةً منغّصةً ؛ إذ تخاف من لا يرحمُك أو لا يسمع استرحامَك. وتُحبُّ من لا يعرفك. أو يحقّرك لمحبتك، أو لا يرافقك، بل يفارقك على رغمك.. فاصرفْهما من الدنيا وما فيها إلى فاطرك الكريم وخالقك الرحيم، ليصير خوفُك تذلّلا لذيذا بالالتجاء إلى صدر الرحمة كتلذذ الطفل بالتخوّف الذي يجبره إلى الانضمام إلى صدر أمه الشفيقة، وتصير محبتُك سعادةً أبديةً لا تزول ولا تُذِلّ، لا إثم ولا ألم..

اعلم أيها الإنسان! أنك ثمرةٌ أو نواةٌ لشجرة الخلقة، فبجسمانيتك أنت جزءٌ صغير ضعيف، عاجز ذليل، مقيّد محدود. لكن الصانعَ الحكيم رقّاك بلطيف صُنعه من الجزء الجزئي، إلى الكل الكلي.. فبإدراج الحياة في جسمك أطلقكَ من قيد الجزئية في الجملة، بجولان جواسيسِ حواسِّك المنبسطة على عالم الشهادة لجلب أغذيتهم المعنوية.. ثم بإعطاء الإنسانية

(١) المرجب: الذي جعل له رُجْبة وهي دعامة من الأحجار تدعم بها النخلة (مجمع الأمثال ١/ ٣٢).
(٢) أي الذي وهب هذا الإحساس والتذوق.
(٣) الغصن الخامس من «الكلمة الرابعة والعشرين» يفصل هذه الخاطرة.

جعلك كالكل بالقوة (كالنواة).. ثم بإحسان الإسلامية والإيمان، جعلك كالكلي بالقوة.. ثم بإنعام معرفته ومحبته صيّرك كالنور المحيط، فاختر ما شئت.. فإن أخلدتَ إلى الأرض واللذائذ الجسمانية؛ صرتَ جزءا جزئيا، عاجزا، ذليلا. وإن استعملت جهازات حياتك بحساب الإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية؛ صرت كالكل الكلي والسراج المركزي.

اعلم يا من يحب الموجودات الدنيويةَ التي لا تصل إليها إلّا بمقدار جِرْمك، ومساعدة قيدك. فتتألم بسائر الفراقات الأليمة، جزاءً لصرفك المحبةَ في غير محلها.. إن أحببتَ الواحدَ الأحدَ، وتوجّهتَ بحسابه وباسمه وبإذنه وبنظره وبحَوله، تنـزّهتَ بالجميع معا في آنٍ بلا فراق ولا ألم. كمثل من ينتسب لسلطان له مع كل جزء من مملكته ارتباط، يسمع ويبصر كل ما يجري في كل مكان ومن كل مكين، كأنه هو في كلٍّ وعند كلٍّ، فيسمع ذلك الخادم بسمعِ سيدِه، ويبصرُ ببصره بواسطة آلات المخابرة والمشاهدة لذيذات النغمات وجميلات الصور الموجودات في محلّ سلطنة بعيدةٍ.

اعلم[١] يا من يشتاق إلى معرفة أخبار أمثال القمر، بحيث لو قيل لك: إن أفديتَ نصفَ عمرك؛ لنـزل أحدٌ من القمر وأخبرك بأن في القمر كذا وكذا، وأخبرك بحقيقة استقبالك، لفديت بلا تأسف.. أنه جاء أحدٌ يخبرك أخبار مَن ليس القمرُ إلّا كذباب يطير حول فَراشٍ، يطيرُ هو حول سراجٍ من قناديلِ سقف بيته الذي أعدّه لعبيده المسافرين.. وكذا يخبرك بأخبار الأزل والأبد، والحياة الأبدية، والحقائق الأساسية، والمسائل العظيمة التي أصغرُها أعظمُ من انفلاق الأرض مع القمر. فإن شئتَ فاستمع إلى سورةِ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ وإلى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ وأمثالِها.. وكذا يريك سبيلا سويا إلى الوحدة، يُنجيك من التشتت في ضلالات الكثرة الموحشة، ويمد إلى يدك العروة الوثقى وسلسلة عرشية تنقذ من استمسك بها من الغرق في ظلمات الممكنات المشتتة، ويَسقيك من عين الإيمان بالحياة الأبدية ماء الحياة، لتخلِّصك من الاحتراق بنار الفراق من جميع ما تحبه على الإطلاق.. وكذا يخبرك بمرضيات خالقك الذي الشمسُ والقمرُ والنجوم مسخَّرات بأمره، واستقرت الأرض بإذنه وبمطالبه منك.. وكذا صار ترجمانا لمخابرة سلطان الأزل والأبد الذي لا نهاية لقدرته وغَنَائه، وبمكالمته معك أيها العاجز بلا نهاية، والفقير بلا غاية.

(١) تراجع الرشحة العاشرة من «الكلمة التاسعة عشرة».

فمع كل ذلك كيف لا تترك نفسَك لفهم هدى القرآن؟ ولا تنسَى هَوسكَ لاستماع رسول الرحمن؟ وكيف لا تستقبل رسولَه بالتسليم والإيمان؟ وكيف لا تشتاق إلى السلام عليه بالصلاة والسلام؟ وكيف لا تحتاج إلى الاستخبار منه ما يطلبه سيدُنا الحنّان ومالكُنا المنّان جلّ جلالُه؟

اعلم أننا نرى الصانعَ الحكيم بكمال حكمته، وعدم العبثية في صنعه وعدم التضييع، يَنسج من الأشياء الحقيرة الصغيرة القصيرة الأعمار، منسوجاتٍ جسيمةً غالية عالية دائمة، لاسيما في نسج النباتات.. وكذا -بسرّ عدم العبثية مطلقا وعدم الإسراف- يوظّف الفردَ الواحد من الآلات والجهازات بوظائفَ كثيرة متنوعة، لاسيما في رأس الإنسان. فلو انفرد لكل وظيفة من الوظائف المكلفة بها ما في رأسك مقدار خردلة، للزم أن يكون رأسك كجبل الطور في الكبر ليسع أصحاب الوظائف. ألَا ترى اللسان -مع سائر وظائفه العظيمة- مفتشٌ[1] لمدخرات خزينة الرحمن، ولجميع المطعومات المطبوخة في مطبخ القدرة. فله وظائف بعدد تنوع أذواق المطعومات، وقس. أفلا تشير هذه الفعاليةُ الحكيمةُ إلى أن ذلك الصانعَ يجوز -بل يجب- أن يَنسجَ من الأشياء السيالة السريعة في سيل الزمان، ومن الأيام الميتة والأعوام الماضية والأعصار الخالية نسائجَ غيبيةً، ومنسوجاتٍ أخرويةً بمكوك الليل والنهار والشمس والقمر في اختلاف الملوين،[2] وتحوّل الفصول؟ كما نسج في الإنسان الذي هو فهرستةُ العالم ما يؤيد هذا، إذ يُبقي دقائقَ حياته الماضية الفانية بين منسوجات حافظته ومكتوباتها، فيكون الفناءُ والموت في هذه الشهادة الضيقة، انتقالا باقيا وبقاءً صافيا في دوائرِ عوالمِ الغيب. وقد نسمع من منابع الوحي «أن دقائق عمر الإنسان تعود إليه»؛ فإما مظلمةٌ بالغفلات والسيئآت، وإما مضيئةٌ بمصابيح الحسنات المعلقة في حلقات الدقائق.

اعلم أن من حكمة تفنن الصانع الجميل الحكيم في تصوير الأفراد صغيرا وكبيرا كما في الحيوان لاسيما فيما يطير بجناحَيه، وفي السمك وفي المَلَك وفي العوالم في الجملة، من الذرات إلى الشموس، بجعل الصغير مثالا مصغرا للكبير.. لُطفَ الإرشاد، وتسهيلَ التفكّر، وتيسيرَ قراءةِ مكتوباتِ القدرة، وإظهارَ كمال القدرة، وإبرازَ نوعي الصنعة الجمالية والجلالية، إذ من

---

(١) بمعنى ناظر أو مشرف.

(٢) أي الليل والنهار. الواحد: ملا.

أسباب المجهولية الدقةُ والخفاءُ، فيزيلهما بوضوحِ حروف الكبير. وكذا من أسباب المجهولية الوسعةُ والعظمة، فلا يحيط بها النظر ولا يضبطها الفَهم فيزيلهما بتقارب حروف الصغير. وأما النفسُ الأمارة المتتلمذة عند الشيطان فتظن صغرَ الجسم سببَ صغر الصنعة، فتجوِّز صدورَها من أسباب صمٍ عُميٍ، وتدّعى في الكبير المنبسط عدم الكتابة بالحكمة، ووجودَ العبثية والتصادف..

اعلم[١] أنه إن قيل: إن الجودَ المطلق والرزقَ بلا حساب يلائمان العبثيةَ، وينافيان الحكمة من جهة؟ يقال له: نعم، إن انحصرت الغايةُ في الواحدة مع أن لكل شيء لا سيما حيّ، غاياتٍ متعددةً وثمرات متنوعة ووظائفَ مختلفة. ألا ترى أن للسانك وظائفَ بعدد شعر رأسك؟ فالجود باعتبارٍ غايةٌ بلا حساب وباعتبارٍ وظيفةٌ لا ينافي الحكمة والعدالة في وجوده الناظر إلى مجموع الغايات والوظائف، كالعسكر المستخدَم في تعقيب ذي جناية أو في حماية قافلة مثلا. ففي العسكر كثرةُ وجود بلا حساب بالنسبة إلى أمثال هذه الخدمات الجزئية مع القلة والمساواة لما يلزم لحفظ الثغور والحدود وسائر الغايات..

اعلم أنه يمكن أن يُتَصَوَّرُ الإنسانُ خلف أثره وصنعته الجزئية، ولا يمكن في مصنوع الصانع الأزلي إلّا من خلف سبعين ألف حجاب خلف ذلك المصنوع الجزئي. ولو أمكن لك أن تنظر إلى مجموع مصنوعاته دفعةً؛ لارتفعت الحُجبُ الظلمانيةُ، وبقيت الحُجبُ النورانية. فالطريق الأقرب في نفسك، لا في الآفاق إلّا بالعشق السديد.

اعلم[٢] أن أغلبَ مَن له نسلٌ من الحيوانات والنباتات ينوى كلُّ فرد -من الأغلب- الاستيلاءَ على وجه الأرض، ويريد التسلطَ عليها ليتخذَها مسجدا خالصا لنفسه يَعبُد بإظهار أسماء فاطره، في كل جزءٍ منها عبادةً غير متناهية لخالقها الذي لا نهاية للياقته للعبادة. فإن شئتَ فانظر إلى البطيخ ونواتاته، والشجر والنواتات في ثمراته، والسمك وبييضاته، والطير وبيضاته، إلّا أنّ ضيقَ عالَم الشهادة وإحاطةَ علم عالم الغيب والشهادة بما كان، وبما يكون، وبما لم يكن لو كان كيف يكون.. اقتضيا قبولَ عباداتها بالقوة[٣]، ونياتها المندمجة في بذورها.

(١) هذه المسألة الدقيقة «حكمة تعدد الغايات» توضحها حاشية الحقيقة السادسة من «الكلمة العاشرة – رسالة الحشر».
(٢) تفصيل هذه المسألة في الثمرة الثانية من الغصن الخامس للكلمة الرابعة والعشرين.
(٣) حتى ولو لم تخرج بعدُ إلى طور الفعل.

اعلم أن ذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هو للإخطار[١] لا للانحصار. أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائد نظام ذلك الشيء ذي الغاية، وفي انتظامه الدال على أسماء صانعه؛ إذ الإنسان إنما يهتم بما له علاقةٌ ما به، فيرجّح ذرةً ما إليه على شمس ليست إليه.. مثلا: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ (يس:٣٩) ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥) هذه غايةٌ من ألوف غايات تقدير القمر، وليس المراد الانحصار، أي إنما خُلق ذلك لهذا، بل إن هذا المشهود لكم من ثمرات ذاك.

اعلم أن من سكّته التي لا تُقلَّد، ومن خاتَمه الذي يختص به، ومن أبهر براهين التوحيد في قدرة غير متناهية، وعلمٍ لا يتناهى في تصرفٍ مطلق، في إتقان مطلق، في سهولةٍ مطلقةٍ.. خلقُ أشياء مختلفات لا تُعد، من شيء واحد بسيط، كالنباتات بأشتاتها من التراب وكمختلفات أعضاء الحيوان دما لحما عظما وغيرها من غذاءٍ بسيط.. وكذا خلقُ الواحد من أنواعٍ متباينة لا تحصى كجسد الإنسان –مثلا– من مطعوماته الغير المحصورة..

فسبحان مَن هو القدير على أن يجعل شيئا كلَّ شيءٍ، ويجعلَ كلَّ شيء شيئا.

اعلم أن في ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة:٦٤) سر عظيم ومثل عظيم![٢] إذ كما أنك تَحفظ من التفتت والضياع بعضَ البذور وتدّخرها ثم تزرعها في مزرعتك.. كذلك إن الوارثَ الباعث الحفيظ الذي يحيي الأرضَ بعد موتها يكتب ثمرات أعمال جميع النباتات فيرثُها حافظا لها، ثم يزرعها منثورةً بحكمة توزيعٍ وانتظام تقسيم بإطارة بعض البذور إلى الأطراف لا مجتمعةً خلف أصلها فقط، ثم ينشر أوراقَها وأزهارها حتى يصير نظيرَ: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ (التكوير:١٠). فانظر من شدة اهتمامك حتى تقتدرَ على حفظ بعض البذور، إلى كمالِ حفيظيةِ الحفيظ المطلق في محافظةِ ما لا يعد من الصُنَيدقات اللطيفة المتضمنة لفهرستات أمهاتها المعيّنة بمسطر القدر، من مغيّرات ومُفسدات لا تحد في انقلابات لا تُعد، مع نهاية التمييز في نهاية الاختلاط. فهذا الحفظ لا يخليك غاربك على عنقك[٣] تفعل ما تشاء ثم تموت وتستريح.. ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦) كلا ليحاسَبنّ على النقير والقطمير.

---

(١) للتنبيه.
(٢) الأظهر: سرا عظيما ومثلا عظيما.
(٣) لعله: حبلك على غاربك.

اعلم أن من وظائف الحياة الإنسانية فهمَ الإنسان بمقياسيةِ جزئياتِ صفاته وشؤونه وشؤون أبناء نوعه أو جنسه لصفات فاطره وشؤونه، وأما فهمُ عظائم شؤونه الحشرية والأخروية وكلياتِ أفعاله في القيامة وإحياء الأموات؛ فتحتاج لفهمها بالإذعان إلى جعل الفاعلية في الحشر الربيعي والقيامة الخريفية قياسا لشؤونه في القيامة الكبرى. انظر إلى الربيع لترى فيه تنظيرا -كتفسيرٍ- لأمثالِ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١).

اعلم أن من عظمة إحاطة الإسلامية امتدادَ أساسات جدرانها من أعلى عليي كليات صفات ذي العرش، ومسائل خلق العرش والسماوات والأرض وملائكتها، إلى جزئيات خطراتِ القلب، مع امتلاء ما بينهما بدساتيرَ محكمةٍ رصينةٍ.

* * *

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣)

اعلم[١] يا من يدعو المسلمين إلى الحياة الدنيوية التي هي لعِب في نوم ولهو، ويشوّقهم للخروج من دائرة ما أحلّه الله من الطيبات الكافية «لكيفهم»،[٢] إلى الدخول في دائرة ما حرَّمه من الخبيثات المنغّصة التي تجبرهم على ترك بعض شعائر دينهم أو ترك دينهم.. إن مثَلَك معهم[٣] كمثل سكران بسُكر لا يميّز بين الأسد المفترس والفرس المؤنس، ولا يفرق بين آلة الصَلب وآلة لعب الصبيان من الحبل المتحرك في الهواء؛ ولا يعرف الجرحَ المبرّح من الورد المفرّح، بل يظن الأسدَ فرسا، وآلةَ الصلب حبلَ اللعب، والجرحَ المقشعر الوردَ المحمرّ. ومع ذلك يظن نفسه مرشدا مصلحا.. فجاء إلى رجل هو في وضعيةٍ مدهشة؛ إذ خلف هذا الرجل أسدٌ عجيب متهيئ للهجوم في كل آن، وقدامَ الرجل آلة الصلب قد نُصِبتْ، وفي جنبيه جرحةٌ عميقة قد انفرجت، وقرحةٌ مزعجة قد انفجرت.. وفي يديه علاجان إذا استعملهما، انقلب -بإذن الله- الجرحان وردَين محمرّين. وفي لسانه وقلبه طلسمان إذا استعملهما انقلب

(١) الدرس الثالث من رسالة «المدخل إلى النور».
(٢) لمسرّاتهم البريئة المباحة شرعا.
(٣) جاء هذا المثال بوضوح تام في الكلمة السابعة.

-بأمر الله الأسدُ- فرسا يركبه إلى حضور سيده الكريم الذي يدعوه إلى دار السلام يضيّفه. وانقلب حبلُ الفراقِ والصلب المتدلي من شجر الزوال والفناء بلطف الله آلةَ السير والتنـزّه، والمرور بالاهتزاز على المناظر السيالة المتجددة وعلى المرايا الجوالة المتبدلة، لازدياد لذةِ تجددِ تجليات الجمال المجرد الدائم التجلي والظهور، على مرّ الفصول والعصور والدهور، ولازدياد اللذةِ في تجدّد صوَر الإنعام والنِّعم على مرِّ الأنام والأيام والأعوام. ثم يقول ذلك السكران الذي هو أيضا في مثل تلك الوضعية، لذلك الرجل: اترُك الطلسمَين واطرح العلاجين وتعال نَلْهُ ونلعبْ ونرقص ونطرب! فيقول له الرجل: يكفي لكيفي ما يساعده حِرز الطلسمين وحفظ العلاجين، ولا يمكن اللذة والسعادة في ما عداه، إن أمكن لك أن تقتل أسدَ الموت الذي «**لا يموت إلا في الجنة**»[1].. وأن ترفع هذه الآلة المسمَّرة في الأرض إلى الثرى بحكم حاكم الأرض، أي تزيل آلةَ الزوال بتبديل الأرض غير الأرض.. وأن تشفيَ من هذا الجرح المستولى على كلِّية حياتي، بتبديل حياتي العاجزة الفانية حياةً باقيةً قادرة على الإطلاق وأن تُبرئ هذه القرحة المحيطة بكلية ذاتي، بتحويل ذاتي الفقيرة ذاتا سرمديةً غنيةً على الإطلاق. وإذ لم يمكن لك هذه الأمور «الأربعة» لا يتيسر لك أيها الشيطان السكران أن تخدع إلّا مثلَك سكرانا بسُكرٍ لا يميّز بين الضحك والبكاء، والبقاء والفناء، والداء والدواء، والهوى والهدى. وأما أنا «فحسبي الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير».

فإذا تفطنتَ لسر التمثيل، أو اشتقت إلى رؤية صورة الحقيقة؛ فاعلم أن تلاميذ المدنية السفيهة الضالة، وطلبةَ الفلسفة السقيمة المضلة، قد سُكروا باحتراصات عجيبة وتفرعنات غريبة، فجاؤوا يدعون المسلمين إلى اتّباع عادات الأجانب، وترك شعائرَ فيها شعورٌ وإشعار بأنوار الإسلام، فيقابلهم تلامذة القرآن بـ: يا أيها الضالون الغافلون! إن اقتدرتم أن ترفعوا من الدنيا الزوال والموت، ومن الإنسان العجزَ والفقرَ فاستغنوا من الدين وشعائره، وإلّا

---

(١) عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ. ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩) وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا». (رواه البخاري في تفسير هذه الآية، ورواه مسلم برقم ٢٨٤٩). (يشرئبون: يَمُدُّونَ أَعْنَاقهمْ يَنْظُرُونَ).

فاخسؤوا واتركوا وسوَستكم ودمدمتكم التي هي كزمزمة الذباب[١] في ما بين نعرات هذه الرعود الأربعة، والآيات التكوينية المنادية بأعلى صوتها على لزوم الدين بشعائره ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

نعم، إن خلفي أسد الأجل يهددني دائما، فإن استمعتُ بسمع الإيمان صدى القرآن، انقلب الأسدُ فرسا، والفراقُ بُراقا يوصلني إلى رحمة الرحمن الرحيم وإلى حضور سيدي الحنّان الكريم. وإلّا صار الموت أسدا مفترسا يمزقني على رغمي، ويفرّقني عن جميع محبوباتي فراقا أبديا. وكذا بين يدي وأمامي آلات الفناء والزوال، قد نُصبت وتدلت في اختلاف الليل والنهار، وآلات الهلاك والفراق قد تموجت على أمواج الفصول والعصور. فهذه الآلاتُ نصبت لصلبي مع جميع أحبابي، فإن أصغيت بصماخ الإيقان لإرشاد القرآن انقلبتْ تلك الآلاتُ مركبَ السير والتنـزّه في نهر الزمان وبحرِ الدنيا لمشاهدة تجدّد تجليات شؤونات القدرة على صفحات الفصول، بزنبرك[٢] الشمس وسير القمر ودوران الأرض للتعمم[٣] بلفائف الليل والنهار، والتقمّص بحُلتَي الصيف والشتاء، ولمشاهدة تجدد جلوات الأسماء على المظاهر السيالة والمرايا المتحولة والألواح المتبدلة في اختلاف الليل والنهار.

وكذا، إنَّ في جنبي الأيمن من الفقر الغير المحدود قرحةً مستوليةً، فمع أني أعجزُ من أعجزِ حيوان من جنس الحيوان، إني أفقرُ من جميع الحيوانات، أي حاجاتي المعنوية والمادية تساوي حاجاتِ الكل، مع أن اقتداري أقلُّ من فعاليةِ عصفورة. فإن تداويتُ بشفاء القرآن انقلب الفقرُ المطلق الأليم شوقا لذيذا إلى ضيافة الرحمة، واشتهاءً لطيفا لتناول ثمرات رحمة الرحمن الرحيم. فيزداد لذةُ الفقر والعجز بمراتبَ على لذة الغَناء والقوة. وإلّا بقيت في آلامِ إزعاجات الحاجات، وفي ذل السؤال والتعبد لكل ما عنده حاجة من مطالبي، والتذللِ لكل شيء.

وفي جنبي الأيسر أيضا، جرحٌ عميق هو عجزٌ وضعفٌ بلا حد في مقابلةِ أعداء ومهالكَ

(١) تتابع صوته.
(٢) زنبرك: المحرك، النابض.
(٣) لبس العمامة.

بلا عدٍّ؛ فألم الخوف يزيل لذةَ الحياة الدنيوية.. فإن أنصتُّ بالتسليم لدعوة القرآن، انقلب عجزي تذكرةَ دعوةٍ للاستناد بالقدير المطلق، والاتصال -بسر التوكل- بنقطةِ استناد فيها أمنٌ وأمان من الأعداء. وإلّا بقيتُ مضطربا بين أعداءٍ متشاكسين لا تعد، بعجز لا يحد.

وكذا إنّي على جناح سفر طويل، يمر على القبر والحشر إلى الأبد، فلا يرينا العلم والعقل نورا ينوّر ظلمات تلك الطريق، ولا يعطينا رزقا يصير زادَ ذلك السفر؛ إلّا ما يُقتَبس من شمس القرآن ويؤخَذ من خزينة الرحمن. فإن وجدتَ شيئا يمنعني عن هذا السفر، لكن غيرَ قطع الطريق بالضلالة التي هي قبول السقوط من فم القبر في دهشة ظلمات العدم الذي هو أهوَلُ وأدهشُ، فقل.. وإلّا فاسكت حتى يقولَ القرآن ما يقول. فبعدما قرأتْ هذه الآياتُ الخمسة[1] من كتاب العالم على رأس الإنسان آيةَ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣) كيف يجوز اتّباعُك أيها الغِرّ المغرور؟ ولا يختار مشرَبَك إلّا سكرانٌ بشراب السياسة، أو حرصِ الشهرة، أو شهوةِ السُمعة، أو رقةِ الجنسية، أو زندقةِ الفلسفة، أو سفاهة المدنية وغيرها مما يُسكَر بمثله.. مع أن هذه الضربات القارعةَ على رأس الإنسان، وهذه الأهوال التي تضرب وجهَ البشر سيطيّر سُكره. ومع ذلك إن الإنسان ليس -كالحيوان- مبتلىً بآلام الحال فقط، بل يضرب رأسَه خوفُ المستقبل وحزنُ الماضي مع ألم الحال.

فإن أردتَ أن لا تبقى أشقى وأذلَّ وأحمقَ وأضلَّ من جميع الحيوانات؛ فأنصت واستمع بسمع الإيمان بشارة القرآن بإعلانِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (يونس:٦٢-٦٤).

---

(١) وهي: زوال الدنيا، موت الإنسان، عجزه وفقره وسفره الطويل.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (سورة التين).

اعلم[1] أن إتقان الصنعة وكمالَها في كل شيء يدلّ على أن صانع الكلِّ كما أنه عند كلٍّ في كلِّ مكان ليس في مكان وليس عند شيء.. وأن الإنسان لاحتياجه إلى كل شيء من أصغرِ جزءٍ جزئي إلى أكبرِ كلِّ كلّي، لا يليق أن يَعْبُد إلّا مَن «بيده ملكوتُ كل شيء، وعنده خزائنُ كل شيء».. وأن نفسَ الإنسان من جهة الوجود والإيجاد والخير والفعل في غاية الصغر والقصور والنقص، أدنى من النمل والنحل وأضعفُ من العنكبوت والبعوضة. ومن جهة العدم والتخريب والشر والانفعال، أعظمُ من السماوات والأرض والجبال. مثلا: إذا أحسن، أحسن بما تسعه ذاتُ يده وتصل إليه قوةُ ذاته. وإذا أساء، أساء بما يتعدى وينتشر.

فبسيئةِ الكفر يحقّر مجموعَ الكائنات والموجودات بتنـزيل قيمتها من أوج كونها مكتوباتٍ ربّانيةً ومرايا إلهيةً إلى حضيض صيرورتها موادَّ متغيرةً سريعةَ الزوال والفراق، يلعب بها التصادفُ بالعبثية.. ويُسقط الإنسانَ الذي هو قصيدةٌ منظومة موزونة معلِنة لجلوات الأسماء القدسية، ونواةٌ لشجرة باقية، وخليفةٌ تفوَّقَ على أعاظم الموجودات بحمل الأمانة.. إلى دركةِ جعْلِهِ أذلَّ من أذلِّ حيوان زائل فانٍ، وأضعفَ وأعجزَ وأفقر.

وكذا إن الإنسانَ من جهةِ «أنا» له اختيارٌ كشعرة، واقتدار كذرة، وحياة كشعلة، وعمرٌ كدقيقة، وموجوديةٌ هي جزء جزئي مما لا يعد من أنواع لاتحد في طبقات الكائنات.. ولكن من جهة عجزه وفقره له وسعةٌ عظيمة إذ له عجز عظيم بلا نهاية، وفقر جسيم بلا غاية، يتيسر له أن يصير مرآة واسعة لتجليات القدير بلا نهاية والغنيِّ بلا غاية.

وكذا إن الإنسان من جهة الحياة الدنيوية المادية الحيوانية كنواة، تَصرِف الجهازاتِ المعطاةَ لها للتسنبل والتشجر في وسعة عالم الفضاء إلى جلبِ موادَّ واهيةٍ في مضيق التراب إلى أن تتفسخَ بلا فائدة.. فمن جهةِ الحياة المعنوية كشجرة باقية امتدت أغصانُ آمالها إلى الأبد.

وكذا إن الإنسان من جهة الفعل والسعي المادي حيوانٌ ضعيف عاجز، له دائرة ضيقةٌ

(١) الدرس التاسع من «المدخل الى النور» وتوضيحه في «الكلمة الثالثة والعشرين».

نصف قطرها مَدُّ يده.. ومن جهة الانفعال والدعاء والسؤالِ ضيفٌ عزيز للرحمن الذي فَتَح له خزائنَ رحمته وسَخّر له بدائعَ صنعته؛ له دائرة عظيمة نصف قطرها مدُّ نَظَرِهِ بل خيالِه بل أوسع.

وكذا إن الإنسان من جهة لذة الحياة الحيوانية وكمالها وسلامتها ومتانتها أدنى من العصفور بمائة درجة؛ لتَنَغُّص لَذّاتِه بأحزان الماضي ومخاوف الاستقبال.. ومن جهة الجهازات وتفصّل الحواس وتنوع الحسيات وانبساط الآلات وتكثّر مراتب الاستعدادات -المشيرة هذه الحالة- إلى أن وظيفته الأصليةَ هي الشهودُ لتسبيحات الموجودات، والشهادةُ عليها، والتفتشُ بالتفكر، والنظارةُ بالعبرة، والدعاءُ للحاجة، والعبوديةُ بدرك العجز والفقر والقصور. ومن وجهِ جامعيةِ استعداده المستعِد لأنواع العبادات أعلى من أعلى عصفور بمائة مراتب. فبالبداهة يَعلم من له عقل أنّه ما أُعطي له هذه الجهازات لهذه الحياة بل لحياة باقية.

مثلا: إذا رأينا أحدا أعطى لأحدِ خَدَمِه عشرةَ دنانير ليشتري لنفسه لباسا من قماش مخصوص، فاشترى من أعلاه. ثم أعطى لآخرَ ألفَ دينار للاشتراء. نعلم يقينا أن هذا ليس لاشتراء لباس من ذلك القماش الذي ما قيمةُ أعلاه إلا عشرةُ دنانير، بل إنما أُعطي لما هو أغلى وأعلى بمائة مراتب. فإذا اشترى -لبلاهته- بالألف لباسا من ذلك مع أن ما اشتراه أدنى بمائة درجة من لباس الأول، لابد أن يعاقَب عقابا مديدا ويؤدَّب تأديبا شديدا.

وكذا إن الإنسان بقوة ضعفه، وقدرة عجزه أقوى وأقدر بمراتبَ؛ إذ يُسخَّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يَقتدر على عُشر معشاره باقتداره. فهو كالصبي يصل ببكائه إلى ما لا يصل إليه بألوف أضعاف قوته. فيتفوقُ بالتسخير لا بالغلبة والغصب والجلب. فعليه أن يعلن عجزه وضعفَه وفقرَه وفاقته بالاستمداد والتضرع والعبودية.

وكذا إن الإنسان من جهة نظاريته لمحاسنِ كمالاتِ سلطنةِ الربوبية، ودلّاليته لبدائع جلوات الأسماء القدسية، وفهمه بطعمه لمدخرات خزائن الرحمة، وعلمه بوزنه لجواهر كنوز الأسماء المتجلية، وتفكره بمطالعته لمكتوبات قلم القدرة، وشوقه برؤيته للطائف المصنوعات.. أشرفُ المخلوقات وخليفةُ الأرض.

* * *

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (فاطر:١٥) ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات:٥٠).

اعلم أيها السعيد القاصر العاجز الفقير! أن في نفسك قصورا بلا نهاية، وعجزا بلا غاية، وفقرا بلا انتهاء، واحتياجا بلا حد، وآمالا بلا عدّ. فكما أُودع فيك الجوعُ والعطشُ لمعرفة لذة نعمته تعالى، كذلك رُكّبْتَ من القصور والفقر والعجز والاحتياج لتنظر بمرصادِ قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياسِ فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميزانِ عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نِعَمه وإحسانه.

فغايةُ فطرتك هي العبودية. والعبودية أن تعلن عند باب رحمته: قصورَك بـ«**أستغفر الله**» وبـ«**سبحان الله**».. وفقرَك بـ«**حسبنا الله**» وبـ«**الحمد لله**» وبالسؤال.. وعجزَك بـ«**لا حول ولا قوة إلّا بالله**» و بـ«**الله أكبر**» وبالاستمداد.. فتُظهرَ بمرآة عبوديتك جمالَ ربوبيته.

* * *

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار:١٣-١٤)

اعلم[١] أيها السعيد الغافل! أن لكل أحدٍ في سفر حياته طريقين إلى القبر، والطريقان متساويان في القصر والطول. لكن أحدهما -مع أنه لا ضرر فيه- فيه منفعةٌ عظيمة بشهادات أهل الشهود المتواترين وإجماعهم، يصل إلى تلك المنفعة العظيمة من عشرةِ سالكيه تسعةٌ.. والآخَر -فمع أنه لا نفعَ فيه بالاتفاق- فيه ضررٌ عظيم بإجماع أهل الخبرة والشهود. فاحتمالُ الضرر من العشرة تسعة، إلّا أن مَن يسلك في هذا لا يحمل سلاحا ولا زادا، فيخفّ في الظاهر، ويخلص من ثقل مَنٍّ،[٢] لكن يحمل على ظهر قلبه مائة مَنٍّ مِن المِنّة، ويثقل على عاتق روحه أحمالَ الأهوال والمخاوف. ولأن التمثيل يريك المعقول محسوسا، نمثل لهذه الحقيقة مثالا:

(١) الدرس الرابع من «المدخل إلى النور» وفي «الكلمة الثالثة» توضيح وافٍ.
(٢) المن يساوي ٢٤ أوقية.

مثلا: تريد أن تذهب إلى إستانبول، أو تُرسَل إليه، ومن مكانك إليه طريقان؛ يمينا وشمالا متساويان قصرا وطولا، متخالفان نفعا وضرا، خفةً وكلفةً. ففي جانب اليمين نفعٌ عظيم بإجماع أهل الشهود والاختصاص بلا ضررٍ وبالاتفاق، وحملُ سلاح ومِزوَدِ زادٍ بمقدار مَنّ، مع خلاص الروح والقلب من ثِقلة حمل المنّة والخشية اللتين هما في ثقلة الجبال.. وفي اليسار ضرر بشهادات ملايينَ من أهل الخبرة والشهود، وبلا نفع باتفاقِ الموافقين والمخالفين، مع خفةٍ ظاهر في طرح السلاح الصارم اللازم، وترك الزاد الألذّ الألزم. لكن حَمَل[1] على عاتق روحه بدلَ «قيتي»[2] السلاح قناطيرَ الخوف، وعلى ظهر قلبه بدل أربع «حقات»[3] الزاد مائة مَنٍّ من المِنّة. إذ قد يخبر الشاهدون الصادقون أن الذاهبين بيُمن الإيمان في اليمين في أمنٍ وأمان في مدة سيرهم، وإذا وصلوا إلى البلد حصل لتسعةٍ من العشرة نفع عظيم وربح جسيم. وأن الماشين بشؤم الضلالة والبطالة والبلاهة في اليسار، لهم في مدة سيرهم اضطرابٌ عظيم من الخوف والجوع، يتنـزل الماشي لكل شيء لخوفه في ضَعفه في عجزه، ويتذلّل لكلِ شيءٍ لاحتياجه في فقره. وإذا وصلوا إلى البلد يُحْبَسون أو يُقتَلون لا ينجو إلّا واحد أو اثنان. فمَن له أدنى عقلٍ لا يرجِّح ما فيه احتمالُ الضرر، على ما لا ضرر فيه لأجل خفةٍ قليلة. فكيف يرجِّح ما فيه أعظم الضرر من المائة بتسعة وتسعين احتمالا، على ما فيه أَعظم النفع بتسعة وتسعين احتمالا لأجل خفّة جزئية في الصورة، مع ثقلةٍ كلّيةٍ في الحقيقة؟

أما المسافر فأنتَ، وأما إسطنبول فعالم البرزخ والآخرة، وأما الطريق الأيمن، فطريق القرآن الآمر بالصلاة بعد الإيمان. وأما الطريق الأيسر، فطريق أهل الفسق والطغيان. وأما أهلُ الخبرة والشهود، فالأولياء المشاهدون؛ إذ ذو الولاية ذو ذوق شهودي في الحقائق الإسلامية، فما يعتقده العامي قد يشاهده الولي. وأما السلاح والزاد، ففي ضمن التكليف المتضمِّن للعبودية المتضمِّنة للصلاة المتضمنة لكلمة التوحيد المتضمنة لنقطتي الاستناد والاستمداد المتضمنتين للتوكل على القدير الحفيظ العليم وعلى الغني الكريم الرحيم..

فخلُصَ من التنـزل والتذلل لكل شيء له فيه جهة ضرٍّ أو نفع. إذ «**لا إِلهَ إِلَّا الله**» يفيد أن لا نافعَ ولا ضار إلّا هو ولا نفعَ ولا ضرَّ إلّا بإذنه.

---

(١) أي السالك قد حمل على عاتق...

(٢) مقياس للوزن يساوي (١٢٨٢ غم).

(٣) أو أوقية: مقياس للوزن القديم.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ ﴾ (العنكبوت:٦٤).

اعلم[١] أيها السعيد المسافر إلى الشيب، إلى القبر، إلى الحشر، إلى الأبد! إن ما أعطاك مالكُك من العمر لتحصيل لوازمات الحياتين بقدر الطول والقصر، قد ضيعتَه كلَّه في هذه الحياة الفانية التي هي كقطرة سرابٍ بالنسبة إلى البحر، فإن كان لك عقل فاصرف نصفَه أو ثلثه لا أقل عُشرَه للباقية. ومن العجائب أن يقال لمثلك مِن أحمق الناس هو عاقل ذو فنون.

مثلا: هل تَرى أحمقَ من عبدٍ أعطاه سيدُه أربعة وعشرينَ دينارا وأرسله من «بوردور»، إلى «أنطالية»،[٢] إلى «الشام»، إلى «المدينة»، إلى «اليمن». وأمره أن يصرف تلك الدنانير في لوازمات سفره، لكن إلى «أنطالية»، يمشي راجلا له نوع اختيارٍ، لو لم يصرف شَيئا لوصل أيضا. ومنها إلى سائر منازله لا اختيار له، إن اشترى وثيقةً لركب سفينةً أو «شمندوفرا»[٣] أو طيارةً وقطع مسافة شهرٍ في يومٍ. وإلا لذهب ماشيا طريدا تائها وحيدا. مع أن ذلك السائح الأبله صرف ثلاثة وعشرين دينارا في مسافة يومين! فقيل له: فلا أقلَّ فاصرف الواحد لِزاد السفر الطويل، يمكن أن يرحمك سيدُك. فقال: لا أصرف لاحتمال عدمِ الفائدة. فقيل له: فيا للعجب لبلاهتك إلى هذه الدرجة! كيف يفتيك عقلُك أن ترمي نصفَ مالك في قمار «البيانكو»[٤] وهو ثمانية وأربعون دينارا، مع اشتراكِ ألفِ إنسان برجاء الظفر بألفِ دينارٍ، باحتمالٍ واحد من ألفِ احتمالٍ. فكيف لا يفتيك هذا العقلُ بأن تعطي جزءً واحدا من أربعة وعشرين جزءً من مالكَ لتظفر بكنوزٍ لا نفاد لها بتسعمائة وتسعة وتسعين احتمالا بشهادات ملايين من أهل الخبرة والاختصاص. مع أنه يُهتم في مثل هذه المنفعة الجسيمة بإخبارِ واحدٍ عامي، فكيف بإخباراتِ شموس البشر ونجومه المتواترين، وأهلِ الشهود الذين يُرجَّح اثنان من مثبتي أهل الشهود على ألوف النافين المنكرين، كما يرجَّح شاهدان لهلال رمضان على ألوف المنكرين لرؤيته.

(١) الدرس الخامس من «المدخل إلى النور» و«الكلمة الرابعة» تكشف دقائق هذا المثال.
(٢) أسماء مدن تقع جنوبي تركيا.
(٣) شمندوفر: القطار.
(٤) البيانكو: اليانصيب.

أما العبد المسافر فأنت. وأما «بوردور» فدنياك. وأما «أنطالية» فالقبر. وأما «الشام» فالبرزخ. وأما «اليمن» فما بعد الحشر. وأما الدنانير الأربعة والعشرون، فأربعٌ وعشرون ساعة في عمر اليوم، تَصرِف ثلاثا وعشرين ساعةً لمصالح الحياة الفانية؛ وتتهاونُ في صرفِ ساعةٍ واحدةٍ في أداء خمس صلوات التي هي مِنْ أَلْزَمِ الزاد في السفر الطويل!

هذا التمثيل لبيان سر من أسرار الآية الكريمة:

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (الشعراء:٩٠-٩١).

اعلم[1] يا أيها الغافل التارك للدين في طلب الدنيا! أحكي لك حكايةً تمثيليةً، فيها مثالُ قِسم من حقائق الدنيا والدين.

كان فيما غبرَ من الزمان أخوَان، فذهبا إلى أن انقسم الطريق طريقين: في أحداهما كلفةُ اتّباع القوانين، وفي الأخرى لا كلفةَ في الظاهر.. فذو الخُلق الحَسن اختار جانب اليمين مع الكلفة الخفيفة. وذو الخُلق السيئ اختار جانب اليسار مع الخفة الثقيلة. فذهب ذو الشمال فيما بين القِفار إلى أن دخل صحراءَ خالية فسمع صوتا هائلا، فرأى أسدا مدهشا يهجم عليه، ففرّ إلى أن صادف بئرا عميقا بستّين ذراعا، فرمى نفسه فيه، فسقط ثلاثين ذراعا فوصل يدُه إلى شجرة في جداره، ولها عِرقان؛ قد تسلطت عليهما فأرتان: بيضاء وسوداء تقطعان العرقين. فنظر فيما تحته فرأى ثعبانا عظيما رفع رأسه إلى قرب رجله، وسعةُ فمه كفم البئر. ونظر في جوانبه فرأى حشرات مضرّة مؤذيةً. فنظر إلى الشجرة فرآها شجرة التين، لكن أثمرت أنواعا متباينةً من ثمرات الأشجار المختلفة، فبينما ضجت لطائِفُه من دهشة الوضعية، إذ تجاهلت نفسُه بالتغافل مع أنيناتِ لطائفِه، فحسِبَ -بالمغالطة- أنه في بستانٍ، فبسرّ حديثِ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[2] هكذا ظنَّ، فهكذا عُومِلَ. فبقى أبدا بين هذه الأهوال لا يموت ولا يحيى. فهذا المسكين -بسوء فهمه- لم يتفطن أنه لا يمكن التصادف في هذه الأمور المطلسمة.

فلنرجعْ ونترك هذا المشؤوم في عذابه؛ ولنذهب خلف الأخ الميمون المتيامن. فهذا يذهب مستأنسا بحُسن ظنه الناشئ من حُسن سيرته. انظر كيف استفاد بحُسن نَظره مما

(١) البحث خلاصة «الكلمة الثامنة» والدرس الثاني من «المدخل إلى النور».

(٢) البخاري، التوحيد ١٥،٣٥؛ مسلم، الذكر ٢، ١٩، التوبة ١؛ الترمذي، الزهد ٥١، الدعوات ١٣١؛ ابن ماجه، الأدب ٥٨.

لم يستفد منه أخوه، إذ صادف في طريقه بستانا فيه أثمارٌ وأزهار، مع مستقذراتٍ وميتات. فتنـزّه بالمستحسنات ولم يلتفت إلى الملوَّثات كأخيه. ثم ذهب حتى دخل في صحراء خالية فسمع صوتَ الأسد الهاجم، فخاف لكن لا بدرجة أخيه، باحتمالِ أن الأسدَ مأمورُ سلطانِ الصحراء، ففرّ فصادف بئرا بستين ذراعا فطرح نفسه فيه، فتعلق في نصفه بشجرة لها عِرقان، تسلطت عليهما فأرتان تقطعانهما، فنظر فوقه فرأى الأسد؛ ونظر تحته فرأى ثعبانا عظيما -فمه كفم البئر- تقرُب إلى رجليه، فتدهّش من الخوف لكن أدنى بمراتب من دهشة أخيه. لأنه تفطّن بحُسن ظنِّه وفهمه من تناظر هذه الأمور العجيبة أن فيه طلسما، وأنها تحت أمر حاكم ناظر إليه يجرّبه. فتولّد من خوفه «مَرَقُ» معرفَةِ مَن هو الذي يتعرّف إليَّ ويسوقني إلى أمرٍ من عنده. فتولد من «مرقه» محبةُ صاحب الطلسم. فنظر إلى رأس الشجرة فإذا هي تينة أثمرت أثمارا متباينةً فزال خوفه بالكلية، وتيقن أنه تحت حُكم طلسم، إذ لا يمكن أن تثمر التينة ثمراتِ سائر الأشجار. فما هي إلا إشاراتٌ إلى ألوانِ الأطعمة التي أعدّها ذلك الملِك الكريم لضيوفه. فتولد من محبته له طلبُ ما يفتح به الطلسم ويرضى به الطلسم، فأُلهِمَ المفتاحَ، فنادى: تركتُ الكلَّ لك، وتوكلتُ عليك! فانشقّ الجدار، فانفتح بابٌ إلى جنانٍ نـزيهة. فرأى الأسد والثعبان انقلبا خادمَين يدعوانه إلى الدخول..

فانظر إلى تفاوت حال الأخوين: ذاك ينتظر الدخولَ في فم الحية، وهذا يُدعى إلى الدخول في باب البستان المنوّر المزهر المثمر.. وذاك في دهشة أليمةٍ وخوف يتفطّر منه أعماقُ قلبه، وهذا في عبرة لذيذة وخوف تتقطر منه محبةٌ وحرمة ومعرفة.. وذاك في وحشةٍ ويأسٍ ويُتم، وهذا في أُنسيةٍ ورجاء واشتياق.. وذاك في هدفِ تَهاجُمِ الأعداء الموحشة، وهذا ضيف يستأنس بخدام المُضيف.. وذاك يعجِّل عذابَه بأكل الثمرات اللذيذة التي أُذن في طعمها لاشتراء ما هي من أنموذجها لا إلى أكلها، إذ في بعضها سمٌّ، وهذا يؤجّل الأكلَ ويلتذ بالانتظار..

فإذا تفهّمتَ دقائق التمثيل فاعرف أوجُه التطبيق: أما الأخَوَان فالروحُ المؤمن والكافر، والقلبُ الصالح والفاسق. وأما الطريقان فطريق القرآن والإيمان، وطريق العصيان والطغيان. وأما الصحراء فالدنيا. وأما الأسد فالموت. وأما البئر فالبدن والحياة، وأوسط العمر ستون. وأما الشجر فالعمر. وأما الفأرتان البيضاء والسوداء فالنهار والليل. وأما الثعبان فالبرزخ

الذي فمه القبر.. وأما الحشرات المضرة فالمصيبات.. وأما الثمرات فالنعم الدنيوية المشابهة المذكِّراتُ لثمرات الجنة.. وأما المسمومة منها فالمحرّمات. وأما الطلسم فسر حكمة الخلقة.. وأما المفتاح فـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (البقرة:٢٥٥) (أي يا الله أنت معبودي ورضاك مطلوبي) و«**لا إله إلا الله**». وأما تبدّلُ فم الثعبان بباب البستان؛ فلأن القبرَ لأهل القرآن والإيمانِ بابٌ إلى رحمة الرحمن في دهليز الجنان، ولأهل الضلالة والطغيان باب إلى ظلمات الوحشة والنسيان في برزخ كالزندان[1] كبطن الثعبان. وأما تبدلُ الأسد المفترس فرسا مونسا؛ فلأن الموتَ للضال فراقٌ أبدى عن جميع محبوباته، وإخراجٌ له من جنته الكاذبة الدنيوية إلى زندان القبر في الانفراد. وأما للهادي فوصالٌ إلى أحبابه، ووصولٌ إلى أوطانه، وخروج من زندان الدنيا إلى بستان الجنان لأخذ أُجرة الخدمة من فضل الحنّان، المنّان الديّان الرّحمن. جل جلالُه ولا إله إلا هو.

اعلم[2] أيها السعيد المغرور المفتخر بما لم تفعل! أنه لا حقَّ لك في الفخر والغرور؛ إذ ليس منك في نفسك إلا القصور والشر. وإن كان خيرا فهو جزئي كجزئك الاختياري، لكن بجزئك الاختياري تفعل شرّا كليا، إذ بقصورك تُسقِط ثمراتِ سائر الأسباب المتوجهه إلى مقصودك، فتستحق خسارة كليةً وخجالةً عامةً، لكن عكستَ القضية فَتَفَرْعَنت..

مثَلُك في هذا، كمثل مغرورٍ أحمق صار شريكا لجماعةٍ في التجارة بسفينةٍ، ففعل كلُّ واحد وظيفته، فترك هو وظيفته التي بها تتحرك السفينة حتى غرقت فخسروا ألف دينارٍ، فقيل له: الحقُّ أنّ كلَّ الخسارة عليك، فقال: لا، بل تنقسم علينا فعليَّ بمقدار حصتي. ثم في سفر آخر، فعلَ كما فعلوا فربحوا ألف دينار؛ فقيل له: فليُقسم الربحُ على رأس المال، فقال: لا، بل كل الربح لي، إذ قلتم أولا كل الخسارة عليك، فإذن كل الربح لي. فقيل له: أيها الجاهل! «الوجودُ» يتوقف على وجود كل أجزاء الموجود والشرائط. فثمرةُ الوجود تُعطى للكل، والربح وجود. وأما الخسارة فثمرةُ العدم مع أن الكلَّ ينعدم بعدم جزء واحد وبفَقد شرطٍ.

فيا أيها السعيد اسما، والشقي جسما! تُرجَع ثمرةُ العدم على من صار سببا للعدم، فلا حقَّ لك في الفخر والغرور.

(١) الزندان: السجن.
(٢) الدرس السادس من «المدخل الى النور».

أما أولا: فلأن الشرَّ منك والخير من ربك.

وأما ثانيا: فلأن شرَّك كلي وخيرَك جزئي.

وأما ثالثا: فلأنك أخذتَ أُجرة عملك الخير قبل العمل، بل لا تساوي جميعُ حسناتك لعُشر معشار عشير ما أَنعم عليك مَن جعلك إنسانا مسلما. ومن هذا السر تكون الجنة من محض الفضل، وتكون جهنم عين العدل؛ إذ قد يعمل البشر بشرّه الجزئي الآنيّ جنايةً كليةً دائمةً.

وأما رابعا: فلأن الخير إنما يكون خيرا إن كان لله. فإذا كان له، فالتوفيق منه، فالمنّة له.. فالحقُّ «الشكرُ» لا «الفخر» بالإراءة والرياء الذي يصيّر الخيرَ شرا.. فمن جهلك بهذه الحقيقة صرتَ مغرورا في نفسك، غَرورا لغيرك.. فتُسند حسنات الجماعة إليه فيتفرعنُ في نظرك، بل تقسِّم مالَ الله وفعلَه على الطواغيت.

وكذا من هذا الجهل إسنادُك سيئاتك التي هي منك -بالنص- إلى القدَرَ فرارا من المسؤولية، وتملّكُك للحسنات التي هي من فيضِ فضلِ فاطرك -بالنص- إلى نفسك، لتُحمَد بما لم تفعل.. فتأدّبْ بأدب القرآن: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) فالتزم ما لَك، ولا تغصِب ما ليس لك. وكذا تأدّب بآداب القرآن؛ بجعل جزاءِ السيئة مثلَها.. والحسنةِ عشرَ أمثالها.. فلا تُعدّي عداوتَك من المسيء بصفةٍ إلى أقاربه وإلى سائر صفاته، وتجاوزْ بمحبتك من المحسن إلى أنسابه مع الصفح عن عيوبه.[1]

اعلم [2] أيها السعيد الغافل الفضولي! إنك تترك وظيفتَك، وتشتغل بوظيفة ربِّك. فمِن ظلمك وجهلك تركُك لوظيفة العبودية الخفيفة التي هي في وسعتك.. وحملُك على ظهرك ورأسك وقلبك الضعيف وظيفةَ الربوبية التي تختص بمن ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار:٧،٨) فالتزم وظيفتَك، وفوّض إليه وظيفته لتسعدَ وتستريح.. وإلّا صرت عاصيا شقيا وخائنا غويا. مثلُك[3] كمثل نفرِ عسكرٍ له وظيفة أصلية هي التعليم المخصوص، والحرب والجهاد، والسلطان مُعينُه في هذه الوظيفة بإحضار

(١) هذه المعاني مفصّلة في المكتوب الثاني والعشرين، رسالة «الأخوة».
(٢) «الكلمة الخامسة» والدرس السابع من «المدخل إلى النور».
(٣) هذا المثال موضح في «الكلمة الثانية».

لوازماتها، ولسلطانه وظيفةٌ مخصوصة هي إعطاء أرزاق ذلك النفر وتعييناته ولباسه حتى دوائه.. لكن قد يَستخدم النفرَ في وسائل هذه الوظيفة، لكن بحساب الدولة.

ومن هذا السر؛ إذا قلتَ لنفر يطبخ طعامه: ما تفعل؟ يقول: أفعل سُخرةً «وعنقرةً»[١] للدولة، ولا يقول أعمل لرزقي.. لعلمه أنه ليس من وظيفته، بل على الدولة حتى أن تُدخل اللقمةَ في فمه، إن لم يقتدر بالمرض مثلا. فالنفر المشتغل بالتجارة لتَدارُك رزقه جاهلٌ شقيّ يُزيَّف[٢] ويؤدّب.. والتارك للتعليم والجهاد خائن عصيّ يُضرَب ويُعنَّف.

فيا سعيد الشقي! أنت ذلك النفر، وصلاتُك هي تعليماتك. وتقواك -بترك الكبائر ومجاهدتُك مع النفس والشيطان- هي حربُك. فهذه هي غاية فطرتك لكن الله هو الموفِّق المعين. وأما رزقُك وإدامةُ حياتك وما يتعلق بك من الأموال والأولاد، فهي من وظيفة فاطرك، لكنه قد يستخدمك في وسائلِ قرعِ أبوابِ خزائنِ رحمته بالسؤال الفعلي أو الحالي أو القالي، وقد يستعملك في الذهاب في المسالك التي توصلك إلى مطابخ نعمته، فتطلب بلسان الاستعداد أو الاحتياج أو الفعل أو الحال أو القال ما عيّن وَقدّر لك.. فما أجهلَك في اتهامك -في حق رزقك- مَن رزقك أطيب الرزق، وأنت طفل صغير بلا اختيار ولا اقتدار ويرزق كل دابة لا تحمل رزقها وهو السميع العليم القدير الغني الذي جعل الأرض في الصيف مطبخةً لضيوفه يفيض فيوضه في ظروف الرياض، ويملأ أواني الأشجار بلذيذات الأطعمة.. فاعمل بحسابه وباسمه وبإذنه فيما استعملك فيه بعد إيفاء وظيفتك الأصلية.. فإذا تعارضا فعليك بوظيفتك فتوكل عليه، وقُلْ: حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكيلُ، نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصير.

* * *

(١) عنقرة: كلمة مستعملة بالتركية أصلها يوناني، وهي تعني العمل مجانا من دون رغبة ولا أجرة.
(٢) بمعنى: يهان ويحقر.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦)

وكذا ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠)

وكذا ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧).

اعلم[1] يا مَن يدّعي أنه يدعو ولا يُجاب! إن الدعاء عبادةٌ. وثمرةُ العبادة في الآخرة. وأما المقاصد الدنيوية فأوقاتُ تلك الأدعية التي هي عبادات مخصوصة.

فكما أن الغروبَ وقتُ صلاة المغرب. والخسوف والكسوف وقتُ صلاة الكسوفين لا غايةٌ لهما، وانقطاعَ المطر؛ وقتُ صلاة الاستسقاء، لا أن الصلاة وُضعت لنـزول المطر، بل هي عبادةٌ لوجه الله تدوم مادام لم ينـزل، وإذا نـزل المطر انقضى وقتُها.

وكذا، تسلّطُ الظالمين ونـزولُ البلايا أوقاتٌ لأدعيةٍ مخصوصة تدوم مادامت هي، فإن رُفعت بها فنورٌ على نور، وإن لم تُرفَع لا يُقال: لم يُقبَل الدعاء، بل: لم ينقضِ وقتُ الدعاء.

وأما وعد الإجابة في ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فالإجابة غيرُ قبول الدعاء بعينها، بل الجوابُ دائمي، وإسعافُ الحاجة تابعٌ لحكمة المُجيب.

مثلا: تقول لطبيبك: يا حكيم! فيقول: لبيك مجيبا.. فتقول: أعطني هذا الطعامَ أو الدواء. فقد يعطيك عينَ ما طلبت أو أحسنَ منه، وقد يمنعُك بضرورةٍ في مرضك. ومن أسباب عدم قبول الدعاء ظنُّ كونِ الدعاء لهذه المقاصد الدنيوية. مثلا: يُظن صلاةُ الاستسقاء موضوعةً للمطر فلا تكون خالصةً فلا تُقبل.

اعلم أن بالانقلاب ينفرجُ وادٍ معنويّ بين الطرفين، فلابد من جسر ممدود فيه مناسبة بين العالَمين ليمرَّ عليه بالتعريّ والتلبّس من هذا العالم إلى ذلك العالم. لكن الجسر له أشكالٌ متخالفة، وماهيات متباينة وأسماءٌ متنوعة باعتبار أجناس الانقلابات وبُعد مقام المنقلَب إليه عن نوع المنقلِب. فالنومُ جسرٌ بين عالم اليقظة والمثال. والبرزخ جسر بين الدنيا والآخرة.

(١) الدرس الثامن من «المدخل إلى النور» وموضح في «الكلمة الثالثة والعشرين».

والمثال جسر بين العالم الجسماني والروحاني. والربيع جسر بين الشتاء والصيف. وأما في الحشر فليس فيه واحد، بل تندمج فيه انقلاباتٌ كثيرة عظيمة فجسرُها أعجبُ وَأعوج وأغرب!

اعلم أن في إكثار ذكر القرآن لمآل ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ (الأنعام:٦٠) ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨) ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨) ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ (الرعد:٣٦) بشارةً عظيمة، وتسليةً جسيمة -وإن تضمنت للعاصي تهديدا- إذ تقول هذه الآياتُ للناس: إن الموتَ والزوال والفناء والفراق من الدنيا ليست أبوابا للعدم والسقوط في ظلمات الفناء والانعدام، بل هي أبوابٌ للقدوم والذهاب إلى حضور سلطان الأزل والأبد. فهذه الإشارة تُنجي القلبَ من دهشة ألَمِ تصوُّر تَمزُّقِهِ مع جميع محبوباته بين أيدي عدَمَات هائلة غير متناهية، والتفرّق بين أنيابِ فراقات مدهشة. فانظر إلى دهشة جهنّمَ المعنويةِ المندمجة في الكفر! إذ بسرِ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» ظنَّ الكافرُ هكذا.. فصَوَّرَ فاطرُه ظنَّه عذابا أبديا عليه.. ثم انظر إلى درجةِ تفوّق لذة اليقين بلقاء الله حتى على الجنة، ثم بعدَه مرتبةُ الرضاء، ثم بعده درجة الرؤية، حتى إن جهنم الجسمانية للمؤمن العارف العاصي كالجنة بالنسبة إلى جهنم المعنوية للكافر الجاهل بخالقه. ولو لم يكن من البراهين الغير المحصورة للبقاء ووسائله، إلا «تضرّعاتُ حبيب المحبوب الأزلي» وقد اصطف خلفَه في تلك الصلاة الكبرى صفوفُ الأنبياء وصفوفُ الأولياء مؤمِّنين على دعَواته ومناجاته، لكَفَتْ وسيلةً وبرهانا. أيمكن أن يوجد في هذا الحُسن الأبدع الأجمل، والجمال الأبرع الأكمل هذا القبحُ الأعجَبُ والنقصُ الأغرب؟ أي بأن لا يَسمعَ مَن يَسمع أخفى هواجسِ الحاجات، لِأخفى المخلوقات بدليل قضائها في أوقاتها اللائقة، وأن لا يَقبلَ أرفعَ الأصوات الصاعدة من الفرش إلى العرش، وأحلى المناجاة، وأعظمَ الدعوات، في أشد الحاجات..؟ كلا ثم كلا.. هو السميع البصير.

نعم، هذه المعاملة من أوسع مراتب شفاعته عليه الصلاة والسلام وكونه رحمةً للعالمين.

اعلم أنه كثيرا ما أُصادف الغافلين وهم يتحججون بمسألة القَدر، ويتعمقون في مسألة الجزء الاختياري، وخَلق الأفعال.. مع أنهم بلسان غفلتهم ينكرون القدر رأسا ويعطون الأزمّة ليد التصادف، يتوهمون أنفسَهم فاعلين على الإطلاق، ويقسّمون مالَ الله وصُنعَه على أبناء جنسه وعلى الأسباب. فالنفسُ الكافرة أو الغافلة في وقت الغفلة تسلب الكلَّ باطنا وإن أثبتت ظاهرا. والمؤمنةُ العارفة تثبت الكلَّ له إيمانا وإذعانا؛ فهاتان المسألتان في الكلام،

غايتان لحدود التوكّل والإيمان، ولمراقي التوحيد والإسلام، لأهل الصحو والحضور من العارفين، وبرزخٌ حاجز.[١] فأين أنتم أيها الغافلون المتفَرعنون في أنانيتكم، وأين التحقق بهاتين المسألتين؟ فإن ترقيتَ في المَحويّة والعبودية إلى درجة نفي الجزء الاختياري، وإلى مقام إحالة كل شيء على القَدرَ، فلا بأس عليك، إذ فيك نوعٌ من السُكر؛ إذ هما حينئذٍ من المسائل الإيمانية الحالية، لا العلمية التصورية.

اعلم[٢] أن التواضعَ قد ينافي تحديث النعمة. وقد ينجرُّ تحديثُ النعمة إلى الكِبر والغرور، فلابد من الدقة والإمعان وترك الإفراط والتفريط.

وللاستقامة ميزان وهو أن لكل نعمةٍ وجهين: وجهٌ إلى المُنعَم عليه فيزيّنه ويميّزه ويتلذذ به، فيفتخر، فيقع في السُكر فينسى المالك، فيتملّك، فيظن الكمالَ بمُلكه الذاتي، فيتكبر بما لا حقّ له فيه.. ووجهٌ ينظر إلى المنعِم فيظهر كرمَه، ويُعلن رحمته، وينادي على إنعامه، ويُشهد على أسمائه. وهكذا مما يتلو من آيات جلواته في إنعامه. فالتواضع إنما يكون تواضعا إذا نظر إلى الوجه الأول، وإلّا تضمن كفرانا. وتحديثُ النعمة إنما يكون شكرا معنويا وممدوحا إذا نظر إلى الوجه الثاني، وإلا تضمن تمدحا وغرورا.

يا يوسف الكشرى![٣] إذا تلبستَ بلباس فاخر غالٍ لأخيك يوسف الكيشي، فقال لك سعيد: ما أحسَنك! فقل: الحُسن للّباس، لا لي، فتصيرَ متواضعا في التحديث.

اعلم أن عِرقَ الرقابة والغبطة والحسد إنما يتحرك عند أخذ الأجرة وتوزيع المكافأة وملاحظتِها. وأما عند الخدمة وفي وقت العمل فلا، بل الأضعفُ يحبُّ الأقوى، والأدنى يميل إلى الأعلى، ويستحسن تفوّقَه عليه، ويحب زيادته في الخدمة عليه؛ لأنه يتخفف عنه ثقلُ الخدمة وكلفةُ العمل. فإذ كانت الدنيا دار خدمة وعمل فقط للأمور الدينية والأعمال الأخروية، لابد أن لا يتداخل فيها الرقابةُ والحسدُ، وإذا تداخلت فيها الرقابة يظهر عدمُ الإخلاص، وأنّ العامل في تلك الأعمال يلاحظ مكافأةً دنيوية أيضا، وهو تقديرُ الناس واستحسانُهم. ولا يعرف المسكينُ أنه بهذه الملاحظة أبطلَ عملَه -بدرجةٍ- بعدم الإخلاص بتشريك الناس برب الناس في إعطاء الثواب، وأضعفَ قوتَه بتنفير الناس عن معاونته.

---

(١) وبرزخ حاجز لأهل الغفلة.

(٢) المسألة السابعة من «المكتوب الثامن والعشرين» توضح هذا البحث.

(٣) الكلام موجه إلى «ملا يوسف» أحد طلاب الأستاذ النورسي القدامى.

اعلم أن معنى الكرامة مباينٌ لمعنى الاستدراج، إذ الكرامةُ كالمعجزة فعلُ الله.. ويتفطّن صاحبُها أنها منه سبحانه، وليس من نفسه، ويطمئن بأنه حامٍ له رقيبٌ عليه يختار له الخير. فيزداد يقينا وتوكلا. فقد يشعر بتفاصيل الكرامات بإذن الله، وقد لا يشعر وهذا أولى وأسلمُ. كأنْ أنطقه الله بها في قلب أحدٍ، أو مثّله له يقظةً لهدايته، وهو لا يعلم ما يفعل الله به لعباده.

وأما الاستدراج فينكشف له صورةُ الأشياء الغائبة وهو في غفلة، أو يعمل أفعالا غريبة، وهو مستند بنفسه واقتداره فيزدادُ بُعدا وأنانية وغرورا. فيقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (القصص:٧٨) وانكشف لي بصفاء نفسي وضياء قلبي.. فلا التباس بين أهل الاستدراج وأهل الولاية في الطبقة الوسطى.

وأما مظهر الفناء الأتمَّ من أهل الطبقة العليا المنكشف لهم بإذن الله الأشياءُ الغيبية، فيرونها بحواسهم التي هي لله[١] فالفرق أظهرُ؛ إذ نورانيةُ باطنِهم المترشحةُ إلى الظاهر أرفع من أن تلتبس بظلماتٍ من يرائي ويدعو إلى أنانيته.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء:٤٤).

اعلم[٢] أن التسبيح والعبادة على وجوه غير محدودة في كل شيء، ولا يلزم شعورُ كل شيء بكل وجوه تسبيحاته وعباداته دائما. إذ لا يستلزم الحصولُ الحضورَ؛[٣] مثَلُ ذلك كمثل أجير جاهل يعمل في سفينة لمالكها الذي استأجره ليجسَّ بإصبعه على بعض مسامير «الألكتريكية» في بعض الأوقات، ولا يعرف الأجير ما يترتبُ على عمله من الغايات الغالية. وإنما يعرف ما يعود إلى نفسه من الأجرة ولذةِ المكافأة. حتى قد يتوهمُ أنّ وضعَ هذا العمل ليس إلّا لهذه اللذة.. كمَثل الحيوان الذي لا يعرف من غايات الازدواج إلّا لذّةَ قضاء الشهوة، ولا يضرّ جهلُه هذا -ولا يمنع- من حصول النسل الذي هو غايةٌ من الغايات المطلوبة لمالكه. كمثل النمل ينظّف وجهَ الأرض من جنائز الحُوينات، مع أنه لا يعرف إلّا تطمين حرصه.. أو كمثل العنكبوت الذي يزيّن وجهَ الفضاء، ورؤوس النباتات والأحجار بخيوط حريره المتلمّعة بالضياء للمسابقة مع الهوام في سير الهواء ولا يعرف إلّا نسج مصيدته، ومدَّ ما يطير

(١) كما جاء في الحديث الشريف «... فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...» (رواه البخاري).
(٢) «الكلمة الرابعة والعشرون – الغصن الرابع» توضيح واف لهذه المسألة.
(٣) أي لا يستلزم حصول التسبيح جمعَ النفس وبلوغها تمام اليقظة عند التسبيح.

به ليمرَّ عليه.. وكمثل الساعة تُعرِّفك عددَ ما انقضى من عمرك اليومي، وهي لا تعرف إلّا زوال ألم تضييق أمعائها[١].. وكمثل النحل صنع ما صنع بحلاوة الوحي المندمج في لذّته الخاصة.. وكمثل الوالدات النباتية والحيوانية والإنسانية إنما تعمل للذة الشفقة، ولا تخل جهالاتُها بالغايات بحصول تلك الغايات التي زيّنت بيتَ الكائنات. بل كأن تلك الشفقة نواةٌ ومِسطَر لتلك الغايات.

ويكفي المسبّحين العابدين علمُهم بكيفية عملهم فقط. كما قال عز وجل: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (النور:٤١). ولا يلزمهم علمُهم بكون عَمَلهم تسبيحا مخصوصا هكذا، وشعورهم بصفة العبادة المعينة. ويكفيهم شعورُ سائر إخوانهم المتفكرين بما في أعمالهم من لطائف العبادات وغرائب التسبيحات. بل يكفي علمُ المعبود المطلق فقط. وإذ لا ابتلاء بالتكليف لا تلزمهم «النية» فلا يلزم شعورُهم بوصف عملهم. على أن تلك المصنوعات في الأصل كلماتُ تسبيحاتٍ أفادت معانيَها ثم صارت تلك الكلماتُ مسبّحاتٍ بألسنتها كذواتها. وفي تلك الكلمات مسبحاتٌ أخرى. وفي هذه أيضا مسبّحات صغار، وفيها أيضا مسبحات أصاغر وهكذا، إلى ما شاء السبّوح القدّوس جلّ جلالُه ولا إله إلّا هو.

اعلم أن ما أُرسل إليك وزيّنك من الرأس إلى القدم من أشتات النِعم والمحاسن واللطائف إنما تمرّ «بميزانٍ» من خلال حُجبٍ متباينة، وتتسَلَّلُ «بنظام» من بين لفائفَ متخالفةٍ، وتتوجه إليك «بالانتظام» من خلف طوائفَ متضادة.

اعلم أن في النفس أمرا لطيفا كدرهم من وَرِق رقيق، أظن أنه مرصاد الأبد؛ إذ ما يمسّه شيء إلّا ويعطيه حُكمَ الأبد ويموّهه بوَهم الأبدية، وإذا استعمله الهوى والهوس، صار آلةً تجلب أحجارَ الآخرة وأساساتِها إلى الدنيا، فيبنى قصرها عليها، فيأكل أثمارَ الآخرة بلا نضج في الدنيا الفانية.

اعلم أن النفسَ شيءٌ عجيب! وكنزُ آلاتٍ لا تُعد، وموازين لاتحد، لدَرك جلواتِ كنوز الأسماء الحسنى إن تزكّت.. وكهفُ حيّاتٍ وعقارب وحشرات، إن دسَّت وطغت. فالأَولى-والله أعلم- بقاؤها لا فناؤها؛ فالبقاءُ مع التزكية -كما سلكت عليه الصحابةُ- أوفقُ بسر الحكمة من موتها الأتم كما سلك عليه معظم الأولياء.

(١) المقصود حركة النابض وانفتاحه التدريجي.

نعم، إن في جرثوم[١] النفس جوعا شديدا، واحتياجا عظيما، وذوقا عجيبا. وإذا تحوّل مجرى سجاياها، انقلب حرصُها المذموم اشتياقا لا يشبع، وصار غرورُها المشؤوم وسيلةَ النجاة عن جميع أنواع الشرك، وتحول حبُّها الشديد لنفسها وذاتها؛ حبا ذاتيا لربها وهكذا.. حتى تنقلب سيئاتُها حسناتٍ.

اعلم أنه كما أن قيمةَ الإنسان المؤمن قيمةُ ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية ونقوش جلوات الأسماء، وقيمةَ الإنسان الكافر أو الغافل قيمةُ مادته الفانية الساقطة.. كذلك قيمةُ هذا العالم تزيد بلا نهاية -إن نُظِر إليه بالمعنى الحرفي وبحسابه سبحانه- كما علَّم القرآن. وتسقط قيمتُه إلى درجة المادة المتغيرة الجامدة -إن نُظِر إليه بالمعنى الاسمي وبحساب الأسباب- كما علَّمَتْه الحكمةُ الفلسفية.

فالعلم المستفاد من القرآن المتعلق بالكائنات؛ أعلى وأغلى بما لا يُحدّ من العلم المستفاد من فنون الفلسفة.

مثلا: يقول القرآن: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٦) فانظر كيف يفتح بهذا الحُكم لفهمك مشكاةً إلى سلسلة جلوات الأسماء. أي أيها الإنسان! إن هذه الشمس بعظمتها مسخَّرةٌ لكم، ونورٌ لبيتكم، ونار لإنضاج مطعوماتكم بأمرِ مَن يرزقكم، فلكُم مالكٌ رحيم، عظيم القدر بدرجةٍ ما هذه الشموس إلا مصابيح له أُسرجت في منـزل معدّ للمسافرين فيما بين منازله الباقية، وهكذا فقس.

وأما ما تقول الحكمة من أن «الشمس نارٌ عظيمة متحركة على نفسها تطايرت منها أرضُنا وسيارات هي منظوماتها، وارتبطت بالجاذبة جاريةً في مداراتها».. فلا تفيدك إلّا حيرةً في دهشة، وعظمة صماء، وحكمة عمياء.

اعلم أنه لا حقَّ لك في أن تطلب حقا من الحق سبحانه، بل حقٌّ عليك أن تشكره دائما؛ إذ له الملك والحمد.

يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم! اجعل هذا الكتابَ نائبا عني في تكرير هذه الشهادة بعد موتي إلى يوم الدين:

(١) أي أصله.

اَللّٰهُمَّ يا ربَّ محمد المختار، يا رب الجنة والنار، يا رب النبيين والأخيار، يا رب الصديقين والأبرار، يا رب الصغار والكبار، يا رب الحبوب والأثمار، يا رب الأنوار والأزهار، يا رب الأنهار والأشجار، يا رب الإعلان والإسرار، يا رب الليل والنهار! نُشهدك ونُشهد حملةَ عرشك، ونُشهد جميع ملائكتك، ونُشهد جميع مخلوقاتك، بشهاداتِ جميع أنبيائك وبشهادات جميع أوليائك، وبشهادات جميع آياتك التكوينية والكلامية، وبشهادات جميع مصنوعاتك، وبشهادات ذرات الكائنات ومركباتها، وبشهادات حبيبك عليه أفضل صلواتك، المتضمِّنة شهادتُه لجميع تلك الشهادات، وبشهادات قرآنك، بأنّا كُلَّنا نَشهد بأنك أنت الله الواجب الوجود، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الحق المبين، الحي القيوم، العليم الحكيم، القدير المريد، السميع البصير، المتكلم، لك الأسماء الحسنى. ونَشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، لك الملك، ولك الحمد، ونستغفرك ونتوب إليك.. وكذا نشهد بأن محمدا عبدك، ونبيك، وحبيبك، ورسولك، أرسلته رحمةً للعالمين.. فَصَلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه أبد الآبدين آمين آمين آمين..

في بيان جوهرة من كنوز آيةِ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

اعلم[١] يا أيها السعيد الناسي لنفسك ولوظيفة حياتك! الغافِلُ عن حكمة خِلقة الإنسان، الجاهلُ بما أودع الصانعُ الحكيمُ في هذهِ المصنوعات المزيَّنة! أن مَثَل بناء هذا العالم وإدخال العالم الإنساني فيه، كمثل سلطان له خزائن فيها أصناف الجواهر، وله كنوزٌ مخفية، وله مهارةٌ في صنع الغرائب، وله معرفةٌ بعجائبِ فنونٍ لا تعد وبغرائبِ علوم لا تحد. فأراد ذلك الملك أن يُظهر على رؤوس الأشهاد حشمةَ سلطنتِهِ وشعشعةَ ثروته وخوارقَ صنعتِه وغرائبَ معرفته، أي أن يشهَد كمالَه وجمالَه وجلالَه المعنوية بالوجهين؛ بنظره، ونظر غيره.

فبنى قصرا جسيما ذا منازل وسرادقات. فزيّنها بمرصّعاتِ جواهر كنوزه، ونَقَشَها بمزينات لطائف صنعته، ونظّمها بدقائق فنون حكمته، ووسَمها بمعجزات آثار علومه، وفرش فيها سُفرةَ لذيذاتِ نعمه ونعمته. وهكذا مما يَظهر بمثله الكمالاتُ الخفية. فدعى رعيته للسير والتنـزّه، وأضافهم بضيافة لا مثل لها، كأن كل لقمة منها أنموذجُ مئاتِ صنعةٍ لطيفة. ثم عيّن أستاذا لتعريف ما في ذلك القصر من رموزِ تلك النقوش وإشاراتِ تلك الصّنائع،

(١) الدرس العاشر من «المدخل إلى النور» وهو خلاصة «الكلمة الحادية عشرة» ونواتها.

ووجوه دلالات تلك المرصعات المنظومات والجواهر الموزونات على كمالات صاحبها، ولتعليم الناس آدابَ الدخول والمعاملات مع صانع القصر، فيقول لهم:

أيها الناس! إن مليكي يتعرف إليكم بإظهار ما في هذا، فاعرفوه.. ويتودَّدُ إليكم بهذه التزيينات، فتودَّدوا إليه بالاستحسانات.. ويتحبَّب إليكم بهذه الإحسانات، فأحبّوه.. ويرحم إليكم، فاشكروه.. ويتظاهر إليكم فاشتاقوا إليه. وهكذا مما يليق بمثله أن يقول للداخلين. فدخل الناس فافترقوا فرقتين: ففريق نظر إلى ما في القصر، فقالوا: لهذا شأن عظيم، فنظروا إلى المعلم الأستاذ فقالوا: السلام عليك! لابد لمثل هذا، من مِثلِكَ.. فَعَلِّمْنَا ممّا علَّمك سيدُك.. فنَطَق فاستمَعوا فاستفادوا فعملوا بمرضيات الملِك.. ثم دعاهم الملك لقصر خاص لا يوصَف، فأكرمهم بما يليق بمثله لمثلهم في مثل ذلك القصر..

والفريق الآخر: ما التفتوا إلى شيء غير الأطعمة، فتعامَوا وتصامُّوا، فأكلوا أكلَ البهائم فتناموا، وشربوا من الإكسيرات التي لا تُشرب، فسكروا فتنهقوا، فشوشوا على الناظرين، فأخذهم جنودُه فطرحهم في سجن يليق بهم.

وأنت تعلم أن الملك لما بنى هذا القصر لهذه المقاصد، وحصولُ هذه المقاصد مربوطٌ بوجود هذا الأستاذ، وباستماع الناس له.. يحقّ أن يقال: لولا هذا الأستاذ لَما بنى الملكُ القصر، وإذا لم يستمع الناس لتعليمات الأستاذ المبلِّغ يخرب القصر ويبدَّل.

وإذا تفطنت لسر التمثيل فانظر إلى صورة الحقيقة.. أما القصر فهذا العالم الذي نُوّر سقفُه بمصابيح متبسمة، وزُيّن فرشُه بأزاهير متزينة. وأما الملك فهو سلطان الأزل والأبد الذي ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ (الإسراء:٤٤).. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ (الأعراف:٥٤). وأما المنازل، فالعوالم المزيَّنة كلٌّ بما يناسبه. وأما الصنائع الغريبة، فهي معجزاتُ قدرته. وأما الأطعمةُ، فهي خوارق ثمرات رحمته. وأما المطبخ والتنور، فالأرض وسطحها. وأما الكنوز المخفية وجواهرها، فالأسماء القدسية وجلواتها. وأما النقوش ورموزها، فمنظوماته المصنوعات المرموزات ودلالاتها على أسماء نقاشها. وأما الأستاذ المعلم ورفقاؤه وتلامذته، فسيدُنا محمد

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم.. وأما حواشي الملك في القصر؛ فالملائكة عليهم الصلاة والسلام.. وأما المسافرون المدعوون للسير والضيافة، فالإنسان مع حواشيه من الحيوانات. وأما الفريقان، فأهل الإيمان والقرآن الذي يفسّر لأهله معانيَ آيات كتاب الكائنات. والفريق الآخر؛ أهل الكفر والطغيان التابعون للنفس والشيطان صمّ بُكم عميٌ هم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٤) لا يفهمون إلّا الحياة الدنيوية..

فأما السعداء الأبرار فاستمعوا للعبد الواصف لربه بـ«الجوشن الكبير» وللمبلّغ بدلالته للقرآن الكريم. وأنصَتوا للقرآن؛ فصاروا نظّارين لمحاسن سلطنة الربوبية؛ فكبّروا مسبّحين، ثم صاروا دلالين لبدايع جلوات الأسماء القدسية؛ فسبّحوا حامدين وصاروا فاهمين بالطبع بحواسهم لمدخرات خزائن الرحمة؛ فحمدوا شاكرين. ثم صاروا عالمين بجواهر كنوز الأسماء المتجلية بالوزن بموازينِ جهازاتهم؛ فقدسوا مادحين. ثم صاروا مطالعين لمكتوبات قلم القدرة؛ فاستحسنوا متفكّرين. ثم صاروا متنـزّهين برؤية لطائف الفطرة؛ فأحبّوا الفاطر مشتاقين. ثم قابلوا تَعَرُّفَ الصانع إليهم بمعجزاتِ صنعته بالمعرفة في الحيرة فقالوا: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك يا معروفُ، بمعجزات جميع مصنوعاتك..» ثم قابلوا تودّدَه إليهم بمزينات ثمرات الرحمة بالمحبة. ثم قابلوا تعطّفه وتعهّده لهم بلذائذ نعَمه بالمحمَدة والشكر، فقالوا: «سبحانك ما شكرناك حقَّ شكرك يا مشكورُ، بأَثْنِيَةِ جميع إحساناتك على رؤوس الأشهاد، وبإعلانات جميع نعمك ولذائذها في سُوق الكائنات، وبشهاداتِ نشائدِ منظوماتِ جميع ثمرات رحمتك ونعمتك لدى أنظار المخلوقات». ثم قابلوا إظهاره لكبريائه وكمالهِ وجمالهِ وجلالهِ في مظاهر الكائنات ومرايا الموجودات السيالة؛ بالسجود في المحبة في الحيرة في المحوية. ثم قابلوا إراءته وُسْعةَ رحمته وكثرةَ ثروته بالفقر والسؤال. ثم قابلوا تشهيره للطائف صنعته؛ بالتقدير والاستحسان والمشاهدة والشهادة والأشهاد. ثم قابلوا إعلانَه لسلطنة ربوبيته في أقطار الكائنات؛ بالتوحيد، بالإطاعة والعبودية بإعلان عجزهم في ضعفهم وفقرهم في فاقتهم. فأَدَّوا وظائف حياتهم في هذه الدار، حتى صاروا في أحسن تقويم، أعلى من كل الخلق خليفة أمينا ذا أمانة ويُمنٍ وإيمانٍ. ثم دعاهم ربُّهم إلى دار السلام للسعادة الأبدية فأكرمهم بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما الفريق الآخر الفجّار الأشرار، فكفروا فحقَّروا بالكفر جميعَ الموجودات بإسقاط

قيمتها كما مرَّ سابقا. وردّوا جميع تجليات الأسماء فجنوا جناية غير متناهية فاستحقوا عقابا غير متناه.

أيها السعيد المسكين! أتحسب أن وظيفةَ حياتك حُسنُ محافظةِ النفس والتربية المدنية وخدمة البطن والهوسات؟.. أم تحسب أن غايةَ إدراج هذه الحواس والحسيات، والجوارح والجهازات، والأعضاء والآلات، واللطائف والمعنويات في ماكنة حياتك استعمالُها في هوَسات النفس الدنية في هذه الحياة الفانية؟ كلا! بل ما حكمةُ إدراجها في فطرتك إلّا إحساسُك جميعَ أنواع نِعَمه تعالى، وإذاقةُ معظم أقسام تجليات أسمائه.

فما غاياتُها إلّا أن تزن بتلك الموازين مدخراتِ خزائنِ رحمته، وأن تفتح بتلك الجهازات مخفيات كنوز جلوات أسمائه جل جلاله؛ بل ما غاياتُ حياتك إلّا إظهارك وتشهيرك بين إخوانك المخلوقات ما في حياتك من غرائب جلوات أسمائه.. ثم إعلانُك بحالك وقالك عند باب ربوبيته عبوديتَك.. ثم تبرُّجُك وتزيُّنك بمرصّعاتِ جواهرِ جلواتِ أسمائه للعرض والظهور لنظر شهود الشاهد الأزلي.. ثم فهمُك لتحية ذوي الحياة بالتسبيحات لواهب الحياة، ومشاهدتُك لها، وشهادتُك بها، وإشهادك عليها.. ثم فهمُك بمقياسيةِ جزئياتِ صفاتك وشؤونك لصفات خالقك وشؤونه المطلقة المقدسة.. ثم فهمُك الكلمات الموجودات الناطقات بتوحيده وربوبيته.. ثم تفطّنُك بأمثال عجزك وفقرك لدرجات تجليات قدرته وغناه.

وما ماهيةُ حياتك إلّا خزينةٌ وخريطةٌ وأنموذج وفذلكة ومقياس وميزان وفهرستة لغرائبِ آثارِ جلوات أسماء خالق الموت والحياة.. وما صورةُ حياتك إلّا كلمةٌ مكتوبة مسموعة مفهّمة لأسمائه الحسنى. وما حقيقتُها إلّا مِرْآتِيَّتُها لتجلي الأحدية. وما كمالها في سعادتها إلّا شعورُها بما تمثَّل فيها مع المحبة والشوق لما هي مرآةٌ له، وأما سائر ذوي الحياة فيشاركونك في بعض الغايات المذكورة لكن لا يساوونك، إذ أنت المرآةُ الجامعة كما رُوي: «ما يسعني أرض ولا سماء ويسعني قلب عبدي المؤمن».[1]

---

(١) الحديث «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن». قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وذكرُ جماعةٍ له من الصوفية لا يريدون حقيقة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلا منهما كفر، وصالحو الصوفية أعرف الناس بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإنما يريدون بذلك أن قلب المؤمن يسع الإيمان بالله ومحبته ومعرفته. أهـ. وانظر: أحمد بن حنبل، الزهد ص٨١؛ الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ١٥؛ الديلمي، المسند ٣/ ١٧٤؛ الزركشي، التذكرة في الأحاديث المشتهرة ص١٣٥؛ السخاوي، المقاصد الحسنة ص٩٩٠؛ العجلوني، كشف الخفاء ٢/ ٢٥٥.



يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا فرد، يا حي، يا قيوم، يا حكم، يا عدل، يا قدوس

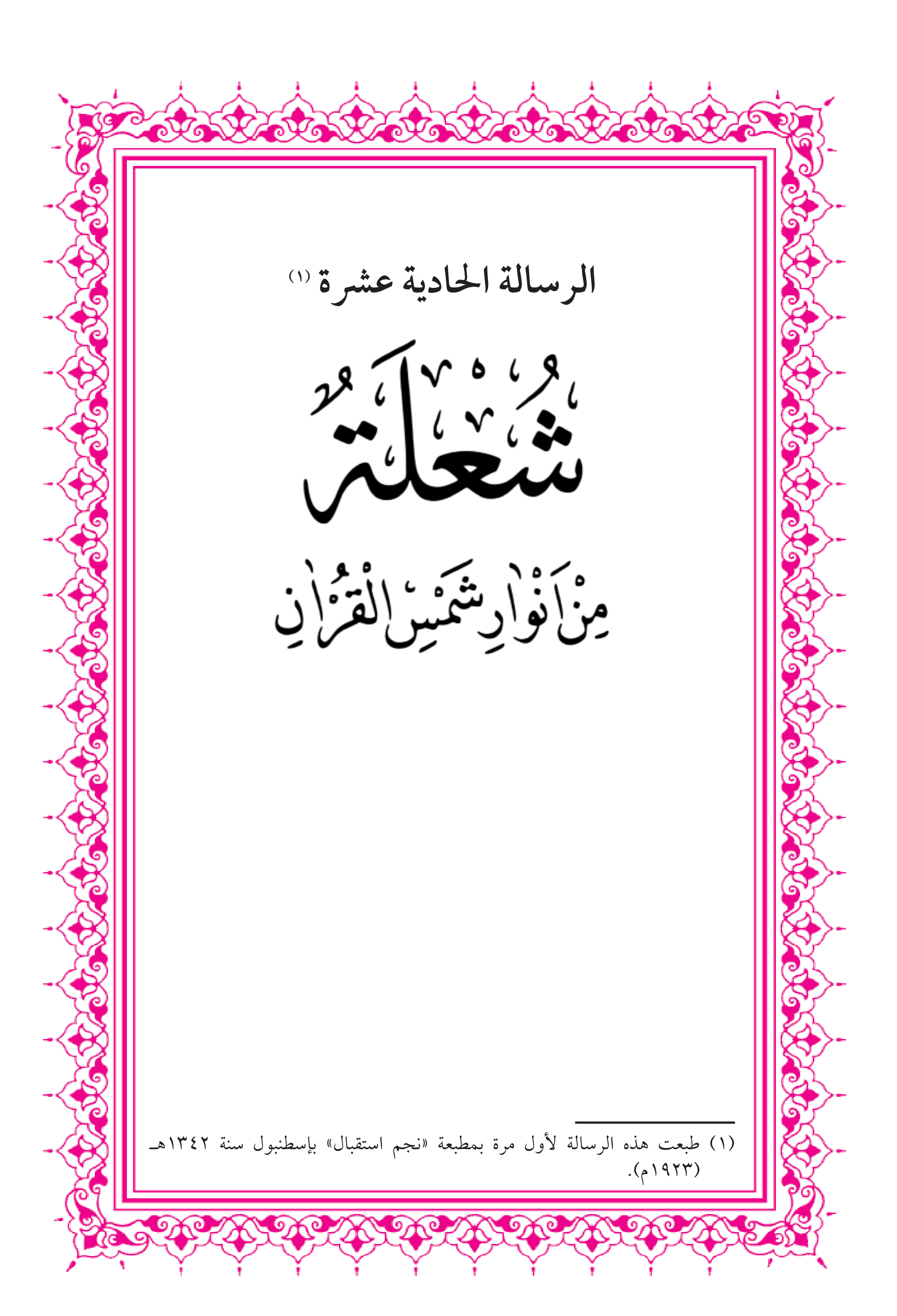
بحق اسمك الأعظم، وبحق آيات فرقانك الأحكم، صلّ على سيدنا محمد رسولك الأكرم بعدد ذرات وجودنا وبعدد عاشرات دقائق عمرنا وحياتنا، وأنـزِلْ علينا وعلى -ناشر هذه المجموعة من طلاب النور- وعلى طلبة رسائل النور السكينةَ والتمكين والاطمئنان كما أنـزلتَ على أصحابِ وآل نبيّك المختار عليه الصلاة والسلام، وأنـزِل علينا وعلى طلبة رسائل النور السكينة والإيمان الخالص واليقين الكامل والنية الصادقة والمتانة الأتم في خدمة القرآن والإيمان..

وآمِن فَزَعَنا بدفع البِدعِيَّات الهائلات عن شعائر الإسلام، وفرّح قلوبنا بإعلان الشعائر الإسلامية في العالم عن قريب الزمان. وبنشر رسائل النور بكمال الرواج بين عالم الإسلام. وسلِّمنا وسلِّم ديننا وسلم طلبة رسالة النور من تجاوز الملحدين.. وارزقنا وارزق طلبة رسائل النور السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة. واشف أمراضنا واجعل القرآن شفاء لنا ولهم من كل داء واجعلنا واجعلهم من الحامدين الشاكرين دائما

آمين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. أجمعين آمين..

* * *



الرسالة الحادية عشرة [1]

شُعْلَةٌ

مِنْ أَنْوَارِ شَمْسِ الْقُرْآنِ

---

(١) طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم استقبال» بإسطنبول سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م).

اعلم أن الفاطر الحكيم إنما ركّب في وجودك هذه الحواس، والحسيات، والجهازات لإحساس أنواع نِعَمه، ولإذاقة أقسام تجليات أسمائه.

فما غاياتُ حياتك وما حقوقها إلّا إظهارُك لآثار تجليات أسمائه، وتشهيرُ غرائبها لدى أنظار المخلوقات..

وما إنسانيتك؛ إلّا شعورُك بهذه الوظيفة.

وما إسلاميتك؛ إلا إذعانك بهذه المظهرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد من الله.. وبالله.. وعلى الله.. لله.. كما يليق بالله.. الحمد لله على «الحمد لله» بدور يدور بأنابيبَ في تسلسل وبتسلسل يتسلسل في دور دائرٍ بلا نهاية.

اَللَّهُمَّ إنا نقدّم إليك بين يَدَيْ كلِّ نعمةٍ ورحمةٍ، وبين يدي كلِّ عنايةٍ وحكمةٍ، وبين يدي كلِّ حياة ومماتٍ، وبين يدي كلِّ حيوانٍ ونباتٍ، وبين يدي كلِّ زهرةٍ وثمرةٍ، وبين يدي كلِّ صنعةٍ وصبغةٍ، وبين يدي كلِّ نظامٍ وميزانٍ، وبين يدي كلِّ سكونٍ وحركة في ذرات العالم ومركباتها شهادةً **نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير.. ونشهد أنّ محمدا عبدُه ونبيه وحبيبُه ورسوله أرسله رحمةً للعالمين.**

اَللَّهُمَّ صلِّ على محمد بحرِ أنوارك، ومعدنِ أسرارك، وشمس هدايتك، وعين عنايتك، ولسان حجّتكَ، ومليك صنع قدرتك، ومثال محبتك، وتمثال رحمتك، وأحبّ الخلق إليك، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلِ كلِّ وصحبِ كلٍّ أجمعين، وعلى ملائكتك المقربين، وعلى عبادك الصالحين من أهل السماوات والأرضين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

سبحانك يا مَن يُسبح بحمدك هذا العالمُ بلسان محمد عليه أفضل صلواتك وأتم تسليماتك.

سبحانك يا من تسبح لك الدنيا بآثار محمد عليه أنمى بركاتك.

سبحانك يا من تسبح بحمدك الأرضُ ساجدةً تحت عرش عظمتك بلسان محمدِها عليه أزكى تحياتك.

سبحانك يا من يُسبح لك المؤمنون والمؤمنات بلسان محمدهم عليه صلواتك أبدا سرمدا.

سبحانك أُسبّحك بلسان حبيبك محمد عليه أكمل صلاتك وأجمل سلامك، فتقبّل مني برحمتك كما تقبّلته منه.

اعلم أن عظمة وُسْعَةِ عمومِ آيةِ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ (الإسراء:٤٤) اقتضتْ تفسيرا، فتوجهتُ إليها فترشحتْ متقطرةً منها في قلبي كلماتٌ مفسِّرات لها، وسُلَّم مرقاةٍ للصعود إليها. فهي منها وإليها. فإن أحببتَ أن ترشُف تلك القطرات المفسِّرات المترشحات من عُمان تلك الآية، والنازلات من سماوات عظمتها، فاستمع بقلب شهيد ما سيأتي واقرأ معي هذا:

سبحانك ما عرفناك -نحن معاشر البشر- حقَّ معرفتك يا معروفُ، بمعجزات جميع مصنوعاتك وبتوصيفات جميع مخلوقاتك، وبتعريفات جميع موجوداتك..

سبحانك ما أعظمَ سلطانَك وأوضحَ برهانَك!

سبحانك ما ذكرناك حق ذكرِك يا مذكورُ، بألسنة جميع مخلوقاتك، وبذوات جميع مصنوعاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك..

سبحانك ما أجلّ ذكرَك!

سبحانك ما شكرناك حقّ شكرك يا مشكورُ، بأثنية جميع إحساناتك على أنظار ذوي البصائر، وبإعلانات جميع نِعَمك في سُوق الكائنات على رؤوس الأشهاد، وبشهادات نشائد جميع ثمرات رحمتك المُفْرغة تلك الثمراتُ في قوالب النظام والميزان..

سبحانك ما أوسعَ رحمتَك!

سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك يا معبودَ جميع ملائكتك وجميع مخلوقاتك بجميع أنواع العبادات وأصناف التمجيدات.

سبحانك ما سبّحناك حق تسبيحك يا مَن ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ .. آمنا.. نعم..

سبحانك يا من تُسبّحُ لك الملائكة بأجناسها المتفاوتة، بألسنتها المختلفة، بأذكارها المتنوعة.

سبحانك يا من تُسبّح لك هذه الكائناتُ بأفواه عوالِمها، وأركانِ عوالمها، وأعضاء

أركانها، وأجزاء أعضائها، وجزئيات أنواعها، وحُجيرات جزئياتها، وبفُوَيْهَاتِ ذراتها وأثير ذراتها؛ بألسنة نظاماتها الحكيمة، وموازينها العالية، وأحوالها المنظومة، وكيفياتها الموزونة بصُنعك الحكيم.

سبحانك يا من تُسبِّح بحمدك الجنةُ بأفواهِ بساتينها بنشائد هي حورُها وقصائدُ قصورها، ومنظوماتُ أشجارها، ومتشابهاتُ ثمراتها الموزونة.. كما تسبّح لك أشباهُها هنا في ضرّتها.

سبحانك يا من يقلّب الليل والنهار وسخّر الشمس والقمر، تسبّح لك هذه السماوات، بمنظومات بروجها، بأفواه شموسها بكلمات نجومها، بلسان نظامها في ميزانها، وانتظامها في زينتها، وتلألئها في حشمتها، وانقيادها في مسخّريتها، وسكونتها في سكوتها، وحكمتها في حركاتها.

سبحانك يا من تُسبِّح لك طبقاتُ الجو بأفواه رعودها وبروقها ورياحها وسحابها وشهابها وأمطارها، بكلمات لمعاتها وقطراتها، بلسان نظامها في ميزانها في غاياتها وثمراتها.

سبحانك يا مَنْ تُسبِّح لك الأرضُ ساجدةً لعظمة قدرتك بمحمدها وقرآنها، بأفواه بحورها وجبالها وأنهارها وأشجارها، وبأصواتٍ واهتزازاتٍ صوتية -هما حيواناتها ونباتاتها- وبكلمات نورانية وحروف نورية -هما أنبياؤها وأولياؤها- بلسان نظامها وميزانها وحياتها ومماتها، وفقرها ويبسها، وتبرجها وتزينها، بإذنك الكريم وصُنعك الحكيم.

سبحانك يا من تسبح لك البحورُ بكلماتٍ -هي عجائبُ مخلوقاتها- وبمنظومات نغماتها بلسان نظامها وميزانها وحكمتها وغاياتها.

سبحانك يا مَن جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا، تسبّح لك الجبال بأفواه عيونها وأنهارها وأشجارها، بلسان نظاماتها وموازينها وغاياتها ومخازنها.

سبحانك يا من جعل من الماء كلَّ شيء حي.

ويا من تسبّح لك الحيوانات بأفواه حواسها وحسياتها وجهازاتها وأعضائها وصنعتها وصبغتها وعقولها وقلوبها، بألسنة نظاماتها وموازينها، وبأسئلة استعداداتها واحتياجاتها ودعواتها وتنعّماتها، في أمطارها، وتقلباتها في أطوارها وحياتها ومماتها.

سبحانك يا مَن تسبح بحمدك الهوامُ في الهواء عند دورانها بزمزمة هَزَجاتها بشكرك، والطيورُ في أوكارها مع أفراخها بسجعاتها ونغماتها شكرا لك، بلسان نظامهما وميزانهما، وصنعتهما ونقوشهما وزينتهما كما تناديان على إحسانك، وتصيحان على نعمتك بإظهار شكرك في وقت تلذذاتهما بثمرات نعمتك، وتنعماتهما بآثار رحمتك.. كما تسبّح بحمدك الحشرات في قرارها بدمدمتها، والوحوش في قفارها بغمغمتها بألسنة نظاماتهما وموازينهما وصورهما وأشكالهما وتنعماتهما الكريمة وتقلباتهما الحكيمة..

سبحانك ما ألطفَ صنعَك وما أنفذ حكمك!

سبحانك يا مَنْ تُسبّح لك الأشجارُ صريحا بغاية الوضوح عند انفتاح أكمامها، وتزايد أوراقها، وتكامل ثمارها، ورقص بناتها على أيادي أغصانها؛ بأفواه أوراقها الخضرة، وأزهارها المتبسمة، وأثمارها الضاحكة بلسان نظاماتها وميزانها وطعومها اللذيذة، وألوانها الجميلة، وروائحها اللطيفة، ونقوشها المستحسنة، وزينتها المستملحة.. كما تمجّدك وتنادي على كمال رأفتك، وتصف تجليات صفاتك، وتُعرّف جلوات أسمائك، وتفسر تحببك وسياستَك لمصنوعاتك؛ بما يترشح من شفاه ثمارها من قطراتِ لمعاتِ جلوات تحبُّبك وتعهّدك لمخلوقاتك..

سبحانك ما ألطفَ برهانك في إحسانك، وأزيَن لطفك في توددك!

سبحانك يا من تُسبّح لك النباتاتُ بكمال الوضوح والبيان عند تنوّر أزهارها وتبسُّمِ بناتها وانكشاف أكمامها واشتداد حبوبها، بأفواه أزاهيرها وسنابلها بكلمات حباتها المنظومة وبذورها الموزونة بلسان نظامها الأرقّ وميزانها الأدق.. كما تمجّدك وتعرّفك وتشفّ عن وجه تحببك، وتصف صفاتك وتذكر أسماءك وتفسر تودّدك وتعرفك إلى عبادك بما يتقطر من عيون أزاهيرها وأسنان سنابلها، من رشحاتِ جلواتِ توددك وتعرفك إلى مخلوقاتك.

سبحانك ما ألطفَ برهانَك وما أنوَرَه وما أحلاه وما أزيَنه!

سبحانك يا من أنـزل الحَديد فيه بَأس شَديد ومَنافع للناس، تسبِّح لك المعادنُ بأنواعها وأجناسها وأشكالها وخواصها وخاصياتها وفوائدها ونقوشها وتزييناتها، بلسان نظاماتها المرصوصة وموازينها المخصوصة.

سبحانك يا من تُسبّح لك العناصرُ باجتماعاتها المنتظمة بأمرك وقدرتك، وتركباتها الموزونة بإذنك وصنعك الحكيم.

سبحانك يا من تُسبّح لك الذراتُ بفُوَيهات تعيناتها ووظائفها بألسنة نظاماتها وموازينها، وعجزها المطلق في ذاتها مع حملها -بحولك- وظائفَ عظيمة، كما تشهد كلُّ ذرة منها على وجوب وجودك بلسان عجزها بنفسها عن تحمل ما لا تطيق هي على حملها من وظائفها العالية العجيبة في دقائق نظام الكون. حتى إن كلّا منها كمثل نحلة نحيلة حملت عليها نخلةً طويلةً، كما تشير كل ذرة منها إلى وحدتِك بنظر وظائفها وتوجه حركاتها إلى النظام العام المحيط الدال بالقطع على وحدة الناظم. ففي كل ذرة لك شاهدان على أنك واجب واحد. وفي كل شأن لك آيتان على أنك أحد صمد، بل وفي كل شيء لك شواهد وآيات على أنك واجبٌ واحد أحد صمد، جلّ جلالُك، ولا إله غيرُك، وحدك لا شريك لك.

* * *

اعلم أن وجودك وحواسك وجوارحك إنما تنظر أولا وبالذات إلى صانعها الذي يربّيها ويدبّرها ووجوهُها متوجهةٌ إليه سبحانه، ولا تنظر إليك إلّا وظيفةً وبمقدار مالكيتك الموهومة.

فإن أشارت -لأجل حُسن تعهدك لها- إلى لمعةِ شعورك بكيفيةٍ حاصلةٍ من كسبك، فبالمشاهدة تصرّح بِعلمِ بارئها بما لا يحد من كيفياتها المنتظمة وأحوالها المتقنة.. وهكذا تُفصح بسائر أسمائه وصفاته المتجلية عليها.

وإن خَدَمَتْكَ بجهةٍ في دقيقة، خَدَمَتْ صانعَها بكل الوجوه في كل آن.. ومن خِدمتها تشهيرُها لغرائب آثار صنعة فاطرها الحكيم، وكذا امتثالُ الوظائف الفطرية المؤذنة بكمال الموازنة في سر التعاون المادي على لطائف رحمته تعالى ولفائفِ حكمته سبحانه. وكذا إعلاناتُها بلسان فهرستيَّتِها لغرائب الصنعة لمحاسن جلوات فاطرها الحكيم.

وإن نَظرتْ إليك بدرجة ما يصل إليها نظرُك السطحي وبمقدار ما يحيط بها علمُك الإجمالي، نظرتْ إلى صانعها بجميع ذراتها ومركباتها وكيفياتها وأحوالها، فما ميزان مالكيتك

الموهومة إلا درجةُ نظرك وتصرفك فيها، وما هو إلا كقطرة من بحر، فاعرف حدَّك ولا تجاوز طورَك.

فوجودُك وتوابعه له وجهان: فبالوجه الناظر إلى الحق سبحانه له قيمة عالية غالية. وبالوجه الناظر إلى الخَلق لا قيمة له لفنائه وزواله.

إذ الوجه الأول يقول لك وللناظر: إنك صنعةٌ لطيفةٌ، وأثرٌ نظيف نـزيه لمن فطر السماوات والأرض. فحسبُك من الوجود وكمالِه ولذتِه وقيمته علمُك بأنك صنعةٌ للصانع الذي زيّن السماء بهذه النجوم والشموس، حتى صِرتَ أخا عزيزا صغيرا لهذا العالم، يخدمك أخوك الكبير.

والوجه الثاني يقول لك ناعيا باليُتم: إنك مجموعُ عناصر ترافقت باتفاقية عمياء، وعن قريب تتفرق بفراق أليم ومفارقة صماء. فلا تظلِم وجودَك بالتملّك ولا تَبْخَسْ حقَّه بقطعه عن الحق، المؤدي لإسقاطه من القيمة. فلا يقام له الوزنُ حينئذ؛ إذ قيمة ملايينِ سنة وألوفِ قنطار من هذا الوجود الأبتر المكفهر لا تساوي قيمةَ ذرة وآنٍ سيّالٍ لذلك الوجود المظهر المطهّر.. ألا ترى أنك ما اقتطعَك بارئُك اقتطاعا من مواد حاضرة، ولا أخذك أخذا من صُبْرة الكون، ولا اغترفَك اغترافا من بحر الوجود، كيفما اتفق؟ هل ترى في سُوق عالم الكون والفساد دكانا يُشترى منه العيون أو مخزنا ادُّخر فيه الأدمغة والألسنة، أو ماكينة تَصنع القلوب وتنسج الجلود؟ كلا ثم كلا! بل أنشأك بارئُك، واخترعك فاطرُك بصورة بديعة جامعة، وخلقك من شيءٍ كَلاشيءٍ، أو من كل شيء، حتى لا يطمع شيءٌ من الأشياء -ولو أعظمَ الأشياء الممكنة- في خلق شيء من الأشياء ولو أصغر الأشياء، وحتى لا يتطاول إلى دعوى خلق ذبابة مثلا من لا يقتدر على خلق السماوات.

فمن لا يقتدر على خلق كلِّ شيءٍ لا يقتدر على خلقِ شيءٍ مّا من الأشياء.

اعلم أن المادة التي يتصرف فيها الصانع الماهر فيُظهِر فيها صنعةً عجيبة قد لا تساوي قيمةُ تلك المادة عُشر مِعشار قيمة «الصنعة». كالزجاج الذي صُنع منه المرآة الإسكندرية مثلا. وقد تتوازن قيمةُ المادة والصنعة كالبقلواء[1] النفيسة من يد طابخ حاذق، وقد تزيد عليها. وإن لكل من المادة وما فيها من الصنعة غاياتٍ وثمرات تغاير غاياتِ الآخر.

(١) البقلواء: نوع من الحلويات والمعجنات المعروفة.

وأما مصنوعات الصانع الأزلي فأكثرها -بل كلُّها- من القسم الأول حتى كأن المصنوعَ صنعةٌ متجسمة، لاسيما ذوي الحياة، ولاسيما صغارِها التي تضاءلت فيها المادة وتلاشت في كثافة دقائق الصنعة، وقد يصير شيء واحدٌ غايةً لهما، لكن بجهتين كالرزق مثلا: فمن جهة المادة والحياة ما هو إلّا تغذٍ بتلذذ جزئي زائل لحفظ الحياة وبقائها.

وأما من جهة الصنعة المعلَنة المثمِرة لآثار جلواتِ الصانع، فالرزق كنز عجيب لطيف، وخزينةٌ غريبة نظيفة، إذ في الرزق حينئذ التحسس بإحساس جميع النِعَم والشعور بها، والتذوق عند إذاقة أقسام تجليات أسماء الرزاق الكريم، والتشرف بها والتنوّر بفَهمها. فإن شئت فانظر إلى لسانك الذي هو واحد من ألوف آلات الارتزاق بالرزق المادي والمعنوي، كيف اشتمل هذا الجرم الصغير على جهازاتٍ ذائقاتٍ بعدد طعوم المذوقات. فإن انتبه وشَعَر ذو اللسان شكرَ هذا اللسانُ بهذه الألسنة الدقيقات في جهازه، لطائفَ نِعَم مَن أذاقه برحمته هذه النعمَ اللذيذات.

نعم، ومن شُكرِ النعمةِ -بل ألذُّ من النعمة- الشعورُ بالإنعام، ودركُ التِفات المُنعِم.

اعلم أنه ما من مصنوع إلّا وهو منظوم، وما من مخلوق إلّا وهو موزون، قد أنشأه بارئُه صحيحا صريحا، وأنشده فاطرُه واضحا فصيحا. وإنّ ما يُرى في هذه الأشياء الدنيوية وما في أثاثات هذا البيت الفاني من «التنظيم» بحساب معدود وبنظام مسرود، ومن «التوزين» بموازين حساسة، والموازنة بمقاييس جساسة يرمزان بل يُفصحان بعظمة الحساب في الحشر وتحقق وجوده فيه، وإلى هيبة الميزان في عرصات القيامة، ووقوعه ووضعه فيها، إذ ما يشاهَد هنا ما هو إلّا بذور وأساسات ومباد ومبشّرات وشواهد وعلامات لمَا يتَسَنبلُ في الآخرة.

وإن كل ما نشاهد في هذا الكون ما هو إلَّا مصنوع، وأثرُ الصنعةِ عليه ظاهرٌ جلي، يكاد أن ينطق، ولا يُشاهَد صانعُه. وما يُتوهم من جنس الممكنات أنه صانعُ شيء، فهو أضعفُ وأعجز بمراتب غير محدودة من أن يكون صانعَه حقيقة. إذ لابد لتصنيع كل شيء وإنشائه لاسيما من جنس النباتات والحيوانات من آلات مختلفة، وتجهيزات متنوعة، وموازين حساسة كالموازين المستعملة في تركيب الأدوية والمعجونات. وليست فليس[1].. مع أن عند كل مصنوع ومعه

(١) أي إنه ليست للمصنوع تلك الآلات المذكورة. فليس له أن يصنع شيئا قط.

وفوقه وفيه وتحته وقبله وآخره شيء، ومع ذلك الشيء كلُّ ما يلزم للمصنوع وجودا وبقاءً، وما ذلك الشيء إلّا من لمعات وتجليات أنوار قُدرةِ مَن خزائنه بين «الكاف والنون».

لكن، إنّ من الأسماء ما يقبل توسط الوسائط الظاهرية، فيتجلى ذلك الاسم في خلال الحُجُب، وخلفَ السرادقات؛ كالمتكلم، والرزاق، والوهاب، وأمثالها. وبعضها لا يقبل التوسيط ولو ظاهريا؛ كالخالق، والموجِد، والمحيي، وأمثالها. كمثل السلطان مع النفر؛ ففي نفس أرزاقه وسلاحه ولباسه لا واسطة، وفي تحريكه وتعليمه وتوظيفه وتلطيفه تتوسط الوسائط، لكن بإذن السلطان. إلّا أن التوسط هنا لعجز سلطان البشر وضعفه. وهناك لعزة سلطان الأزل وعظمته.

اعلم أني رأيت على رأس شُجيرة نابتة في صخرة، نوعين من الثمرات، فتحيرت منه![1] فتحرّيتها فإذا أحد النوعين: ثمرتُها الخاصة بها يقال لها بالكردي «كِزْوان».[2] والنوع الثاني كالباقلة بمقدار الأصابع، أو أصغر أو أكبر، مقوسة مجوفة كالمنـزل المعد للمسافرين. فأخذتُ من الثمرة الثانية واحدةً، وإذ فتحتها تسارعت إلى الطيران في الهواء طويرات، كالذر في الصغر، وهي التي تراها صافاتٍ كأخواتها من طويرات النمل والذباب، قبيل الغروب وهي ترقص في الضياء بجذبةِ الذكر، فلا تظنن أنهن لاهيات لاعبات؛ بل ما هن إلا مجذوبات ذاكرات للرحمن الذي يمسكهن في الهواء، وهي شبان وتُجعل لهن –وهي أجنة– هذه الباقلةُ –التي كما أنها لا تناسبهن لمخالفة الجنس ولا تناسب الشجيرة لمخالفة النوع– أوكارا كالأرحام لطيفةً حصينةً من أحسن الأوكار، فيها أرزاق نظيفة لذيذة.

فهذه الحالة تصرّح بأن هذه المعاملة إنما تصدر مِن نظرٍ وتدبير فوق نظرِ هذا الجامد وهذه البهيمة؛ إذ لمّا لم يصلحا لهذا التدبير الحكيم؛ لزمتْ حوالة[3] هذا التدبير على خارجٍ عليمٍ، وهذا الخارج المتصرف لابد من أول الأمر البتة أن يحيط بكل أفراد هذين النوعين في جميع أقطار الأرض. وكذا بما يتعلق بهما، وكذا بمهدهما بالضرورة القطعية. ولا يكون هكذا إلّا مَن هو عليمٌ بكل شيء، وقدير على كل شيء.

(١) أي تحيرت مما رأيت.
(٢) كزوان: الحبة الخضراء.
(٣) بمعنى إحالة.

أسألك يا من يجوِّز تصرف غير الله في ملك الله، ويا من يقبَل إمكان وجود التصادف في بعض لطائف صنع الله! كيف تسمع، أم كيف تفهم، أم كيف تعلم هذه الشجيرةُ لسانَ الذبابة التي باضت على رأس غصنها، مودعة بيضاتها في يد حمايتها، حتى تشرع الشجيرة في ذلك الآن تتخذ بألطف شفقة أوكارا أمينة كأرحام الأمهات، أو أرحاما كالأوكار رفيعةً، ومهادا مهتزةً في الهواء. فتأخذ الشجيرة من خزينة الرحمة رزقا كافيا، وافيا، لذيذا، عزيزا. فتدخره في تلك الأوكار في سبيل الله لمن ليس من أبناء جنسها، ولا من جنس بناتها، بل لمسافرين هم وديعة الله. فما هذا «التجاوب» بين هؤلاء المصنوعات إلّا آية شاهدة بأنّ كليهما -بل الكل، بل كلّ ما في الكون- خُدام سيد واحد، وتحت تدبيرِ مربٍ واحد، وفي تربية مدبرٍ واحد، أحد صمد. آمنّا.

اعلم أن النظر إلى الهوام الذاكرات لفاطرها في جو الهواء بألسنة أحوالها وأطوارها ونقوشها المنظومة وأجسامها الموزونة المكتوبة كالكلمات المنقوشة كما تذكُر الله وتفهِّم ذكرَها لك -وإن لم تفهم هي بنفسها- بألسنتها المخصوصة وأصواتها الملفوظة، كأن كلَّ طُوَيرة منها كلمةٌ ناطقة بلسانها عينَ ما تنطق به ذاتها.. وكذا النظر إلى الحشرات المسبِّحات لخالقها في جوف الغبراء بألسنة نقوشها وتزيّناتها المكتوبة بقلم القدرة، كما تسبّح بكلامها الملفوظ المخصوص بها. لابد أن يفيدك أمورا أربعة:

فأولا: اطمئنان النفس بأنك في مأمن حصين وحصن أمين محاط من كل وجه بمولودات وأطفال وطفيلات تربيها شفقةُ عليم، وتدبّرها تربيةُ حكيم، وتزيّنها عناية كريم، وتحسن إليها رحمة رحيم. فأنت تحت نظر هذا العليم الحكيم الكريم الرحيم دائما..

وثانيا: لابد أن يفيدك ذلك النظر قناعة النفس، بأنك لستَ سدىً مهملا، غاربُك على عنقك[1] تسرح كما تشاء، وأن لست موكولا مفوَّضا إلى نفسك العاجزة عن أدنى حاجاتك الغير المحدودة حتى تقعد ملوما محسورا، متوحشا عن عجزك المطلق وحاجاتك الغير المحصورة. لأجل أنك ترى في تلك الصغار نظاما تاما خاصا في عموميته، عاما في خصوصيته. وميزانا حساسا في وسعته، وجساسا بالاقتصاد والإمساك في عين سماحته.

(١) لعله: حبلك على غاربك.

أيها الغافل! ألَا تتلو عليك هذه الحواشي الدقيقة، والكتب الرقيقة الموجودة في بعض الحروف الكبيرة أنك موزون بين موازين.. فَتَنَبَّهْ وأقِمْ الوزن بالقسط.. والحال أنك تلهو كمجنون بين مجانين، فتتبلّه وتخسر الميزان بالقسط.[١]

وثالثا: لابد أن تلقّنك هذه الرؤية التوكلَ والاعتماد بأن من ترجوه لكل شيء وتخافه دائما، في نهاية القرب إليك في عينِ نهايةِ بُعدك عنه. يتصرف فيك وفيما حواليك بقدرته التي يتساوى بالنسبة إليها الأصغرُ والأكبر، والأقلُّ والأكثر، والأقرب والأبعد؛ لا تكلُّفَ ولا معالجةَ، ولا مباشرةَ اختلاطٍ في أفاعيلها بالحدس الشهودي. أفلا تقرأ عليك هذه الحقيقة أنْ: لا تخف ولا تحزن ولا تتوحش؛ إذ أينما كنتَ فهناك مُلكُه، وأينما توجهتَ فَثَمَّ وجهُه، وأنت في وطنك، ولو في بطن الأرض. وأنت تحت نظره، ولو في جوف العدم. تأخذك بإذنه وأمره الأيادي الرحيمةُ الكريمة الحكيمة من حال إلى حال، وطور إلى طور. لا تخرج من يدٍ إلّا وتسابقَ لأخذك يدٌ أخرى بالانتظام، ولا تُصادف في سفرك غُولَ التصادف أصلا. ولا تُظلَم بالعدم ولا يظلمك الفناء بالإعدام. وكم من عدم تَرى خلفه -إن اقتحمته- أو تحته أو فيه خزينةً من خزائن الرحمة مشحونة مما «هو يبقى» من جنس ما «هو يفنى» في هذا الوجود.

ورابعا: لابد أن تفيدك رؤيةُ صغار الهوام وضوحُ برهان المخلوقية التامة، والمصنوعيةُ العامة في كل شيء للصانع الواحد. وتُكْبِرَ في نظرك هذا البرهانَ بدرجة صغرها،[٢] وتُظهر بدرجة خفاها؛[٣] إذ من المحال أن يخرج المحاطُ من دائرة تصرف خالق المحيط، فخالقُهُ هو خالقُه بالضرورة القطعية. إلّا أن الصنعة فيها المادة وغمرتها، خلافا للمصنوعات الكبيرة.

اعلم أيها الغافل إن أكثر وسوستك إنما تنشا من أمور أربعة:

فأولا: من نسيانك نفسك إلى درجة تنقلب شعرةُ الأنانية حبلا غليظا؛ لأنك لمّا نسيت الله بالهوى، فأنساك نفسَك، تغلظتْ أنانيتُك فتفسّقت مِن قشرها المتشقق بكبرها.

وثانيا: من قياس كلِّ ذي حياة على نفسك.. مثلا: إذا رأيت حيوانا فمع أن المشهود

(١) أي بالخطأ.
(٢) أي صغر المصنوعية والمخلوقية.
(٣) أي رغم خفائها.

حيوان معصوم، مأمون، ممنون؛[1] تفرضه إنسانا متفكرا محزونا متشتت الخواطر.. فتظن رقصه في فرح اضطرابا في ترح.

وثالثا: من قِصَر نظرك على تجلّي اسم الظاهر فقط، حتى تتوهم أن ما خرج عن دائرة هذا الاسم لا يرجع إلى دائرة مسمّاه. كلا، إن المسمى الذي له الأسماء الحسنى، كما أنه هو فوق الفوق، فهو في أبطن البطون، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

ورابعا: مِن طلب تجلي الأحدية التي هي أعلى التجليات، وأبعدُها وأخفاها، وأبسطها في أوسعِ وأكثرِ وأرقِّ ما انبسطت إليها الكثرةُ وانتشرت؛ إذ تنظر إلى حيوان مثلا: فتفنى فيه بالقياس النفسي المار آنفا، فتدخل معك فيه أنواعُ حسياتك. مثلا: تتصوره مثلك حزينا لفراق أليفهِ أو وطنهِ، ومغموما بالتفكير في عاقبته ورزقه. فتتألم لمرض الشفقة من آلامه الموهومة، مع أنك لو دخلت في عالمه بالتحقيق لما رأيت شيئا مما توهمتَه حينما دخلت فيه بالفرض من طريق القياس النفسي.

وكما أخطأتَ بهذا القياس قد تخطئ أعظمَ خطأً بقياس آخر، وهو أنك ترى النحلة -مثلا- مصنوعة، فتقيس بلا شعورٍ صانعَها الواجبَ الواحد الحكيم الذي لا كلفة ولا معالجة ولا مباشرة بالاختلاط ولا تَعَمُّلَ في أفاعيله؛ قياسا على الممكن المسكين الكثير الكثيف المقيد المحدود الذي أفاعيلُه لا تكون إلّا بالمباشرة والمخالطة والكلفة والمعالجة؛ فتتوهم من هذا القياس قربَك وقربَ تلك المصنوعة -التي يجول قلمُ الصانع عليها الآن بل دائما- من صانعها المتقدس المتنـزّه المتعالي. نعم، هو جلَّ شأنه من جانبه سبحانه قريبٌ.. لا أقربَ منه، أقربُ من كل قريب، وأقربُ من حبل الوريد.. لكن أنت، وهذا المصنوعُ، من جهتكما بعيدان ببعدٍ لا نهاية له، كمثل الزجاجة التي تمثلت فيها الشمسُ بالتجلي فتلألأت بشعاعها، وتنوّرت بضيائها، وتزيّنت بانكسار الألوان السبعة التي في ضيائها، وانفتح من ملكوت قلب الزجاجة إلى ذات الشمس منفَذٌ وسبيلٌ فيُرى من ظاهر مُلكها تمثالُ الشمس مع لوازمه في بطن وجه تلك الزجاجة بالقرب من يدك. لكن إن مددت يَدَك ما وصلتَ إلى شيء، ولو مُدَّ يدك بسبعين بل بسبعمائة مثل قطر الأرض. حتى إن مَن في عقله بلاهةٌ وفي قلبه محبة للشمس، قد يريد

---

(١) أي سعيد.

أن يصل إلى محبوبته الشمسِ في كل ما تلألأت فيه، مستندا بهذا الوهم السطحي، والرؤية الظاهرة.

وكذا قد يَطلب من كل ما تمثل فيه الشمس تمامَ ما سمعَه أو عرفَه من أوصاف ذات الشمس، ولوازماتها التي لا يسعها إلا مجموع عالم منظومتها، فإن لم يجد الأوصاف في المثال في شيء، يشرع ينكر وجود الشمس في ذلك الشيء. بل قد ينكرها مطلقا.

والقلب مرآة الأحد الصمد، لكن له شعورُ احتساس بما تجلّى فيه، وعلاقةُ مفتونيةٍ بما تمَثل فيه، خلافا لسائر المرايا. كما بيّنه الإمام الربّاني رضي الله عنه. وبهذه الخاصية يستعد القلب لسعادات لا تُعد.

فإن قلت: ما السر في اقتران فعاليةٍ خارقة في مصنوعٍ ذي حياة، مع سكونةِ ما حوله كأنه لا شيء هناك، ومع عدم ترشح هذه الفعالية المدهشة من أرق لفائفه إلى الخارج، ولو بمقدار ذرة؟

قيل لك، كما قيل لي في قلبي: لو كانت الفعالية للأسباب الإمكانية، ومن أنفُس الأشياء؛ لَلَزِم أن يكون في كل حيوان فاعلٌ مستقل، له علم محيط، وفي كل ثمرة صانعٌ قدير له قدرةٌ مطلقةٌ تامةٌ بحيث لا يتعسر على تلك القدرة خلقُ الأرض بما فيها، فحينئذ يكون الترشح والتفشي والانتشار والطغيان من الضروريات، ولكنْ هذا الأمن والأمان المشهودان في الكون والمكان، وهذا السكون والسكوت المرئيان في غير عالم الإنسان، وهذا الانقياد والسِلم والسلام في هذا العالم في كل زمان ما هو إلّا لأن هذه الصنعة الموزونة، والصبغة المنظومة صنعة وصبغةٌ لمن ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ولمن يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ (الحجر:٢١). فنسبة فعلِك بيدك إلى فعلِكَ بأسرع الخيال، كنسبة الفعل بالخيال -لو أمكن- إلى فعلِ قدرة الباري بل لا مناسبة.

اعلم أيها السعيد المسكين المغرور! إنه ليس إليك منك من ألوف حاجاتك إلّا واحدٌ أو أقل. والباقي بالتمام مفوّضٌ باليقين إلى فاطرك الذي خلقك أولا كالفطير[1] بقدرته، ثم فتح صورتَك في الماء بلطيف صُنعه، لتصير مرآةَ أسمائه.. وشقّ سمعك وبصرك برحمته،

(١) الفطير: العجين الذي لم يتم تخميره بعد.

لتسمع الحقَّ وتعتبر بالخلق فتعرفَ الخالق.. وعلّق في كهف وجهك بعنايته لسانا لتذْكُره.. وأدرج في رأسك عقلا لتَعرفَه.. وأودع في صدرك جَنانا لتحبَّه.. ولَطَفَ بك في ظلمات الأحشاء، وتصرّف فيك بربوبيته كيف يشاء، وركّب في وجودك بحكمته هذه الحواسَّ بأنواعها، وهاتيك الأعضاء بأقسامها؛ لأجل إحساس جميع أنواع ثمرات نِعَمِهِ، ولإذاقة أقسام تجليات أسمائه.

فيا أيها الغافل المغرور! إلى كم تتهمه، وهو هذا وقد لطفَ بك هكذا. وتعتمد على ذرة اقتدارك الجزئي، فيفوّضك حينئذ إلى نفسك بسبب سوء اختيارك فتصير ظالما لنفسك لتحميلها ما لا طاقة لها به. وما بالك وما منعك أن تتوكل على مَن ناصيتُك بيده، وحاجاتُك راجعةٌ إليه حتى تُلقى –بالتسليم له– ما إليك على ما إليه. وتُلقيَ بالتوكلِ عليه نفسَك في سفينته الجارية بين طوفان الشؤون فتقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ (هود:٤١) حتى تستويَ على الجُودي الإسلامي، وتستريحَ في ساحل السلامة. ألَا ترى أن شمس الحياة قد اقترب أن تغترب! وأن قمر الوجود قد انخسف بالشَيب، واكفهرّ ببياض الهرم. وأن لا فائدة فيما سواه تعالى، بل كما أنه لا فائدة فيما سواه، إن لم يأذن به ففيه ضررٌ عظيم. فإن كان بدونه فكل شيء ضررٌ وعدو. وإن كان به فهو مُغنٍ عن كل شيء، فلابد من التَرْكِ على الحالين:

أما في حالٍ، فلكونه ضررا محضا. وأما في حالٍ، فلتفويت طلب الغير غاية الغايات مع فوات نفسه.

نعم، وبدونه الألمُ أزيد من اللذة في كل لذة، بل اللذة بدونه ألمٌ مموّه... ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الذاريات:٥٠) فإن عنده من كل شيء –يفنى عندكم– ما هو يبقى من نوع ذلك الشيء، فما يزول هنا ولا يدوم بدونه، يستمر هناك ويدوم به. مع أن الوقت ضيّق.. ألا ترى أنك في سكراتِ الموت، إذ تمامُ عمرك سُكر في سَكَرات، وسَفَر في سقطات. فارفع رأسك من الدنيا، كي ترى عند بارئك نعمةً أبدية، ورحمة سرمدية، ومحبة أزلية.

اعلم أيها المتفكر المتحير المتحري! إذا انتهى علمُك إلى شيء، أو رأيت في شيء جهةً من عدم التناهي، فسبّح بحمده تعالى على قُربك إلى الحق؛ إذ المجهولية واللاتناهية عنوانان وعلامتان نُصبتا على حدود تصرّف ربوبيته المطلقة جل جلاله.

اعلم أيها الوهّام! إذا تهاجمتْ عليك الأوهامُ، فانظر يمينا لترى دوائر تصرف الخلاقية تتناظر متضايقةً، من دائرة المجرّة ومدار السيارات؛ متسلسلة إلى دائرة الجوهر الفرد ومدار الذرات. ومن خلق السماوات مسردةً، إلى خلق الثمرات. ومن إنشاء الأرض، إلى إيجاد الأرَضَة الآكلة للشجرة بتناظر وتشابهٍ وتساند. تدل على اتحاد القَلَم، ووحدةِ السكّة، وأنت في وسط مخروط الكائنات قائمٌ، حامل للأمانة، مقلَّد بالخلافة.

ثم انظر شمالا لترى النظام العام يأمر بالعدل في كل شيء، وترى الميزان التام ينهى عن الميل في كل شيء. ففي ذاك؛ ما هو كالبرق يطيِّر الأوهامَ. وفي هذا؛ ما هو كالرعد يطردُ الأحلامَ.

ثم انظر إليك، لترى نفسَك وجسمَك مصنوعَين من الرأس إلى القدم، من أصغر حُجيرة، إلى تمام بدنك الذي هو أيضا حُجيرة كبرى.

ثم انظر في قلبك، إلى فوقك، لترى بإيمانك أنوار نور الأنوار.. الذي خلق النور.. ونوّر النور.. وصوّر النور.. ونفذ أنوارُ تجلياته في كل شيء جلّ جلاله.

اعلم أن استعمال اسم التفضيل في بعض أسماء الله وصفاته وأفعاله كـ ﴿ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴾ و ﴿ أَحْسَنُ الْخَٰلِقِينَ ﴾ ، و«الله أكبر» وغير ذلك لا ينافي محضَ التوحيد. إذ المراد تفضيل الموصوف بالحقيقة وبالذات، على الموصوف بالوهم وبالنظر الظاهري الأسبابي أو بالإمكانات العقلية. وكذا لا ينافي عزةَ الواحد القهار؛ إذ ليس المراد منه الموازنة بين صفاته أو فعله في نفس الأمر، وبين صفات المخلوقين وأفعالهم؛ لأن مجموع ما في المصنوعات من الكمال ظل مُفاضٌ بالنسبة إلى كماله سبحانه. فلا حقَّ للمجموع -من حيث المجموع- أن تكون له نسبةُ موازنةٍ معه، حتى يصير مفضَّلا عليه.. بل المراد الموازنةُ بين أثرِه الخاص على مفعولٍ خاص، وتأثّرِ المفعول من تأثيره الحقيقي فيه على درجة استعداده الخاص.. وبين أثر الوسائط الظاهرية في ذلك الشيء الخاص وتأثره منها. كما يُقال لنفر لا يعظّم إلّا جاوِشَه[1] ويحصُر شكرَه وحرمته عليه: يا هذا! السلطانُ أعظمُ وأرحم من جاوشك.. وليس المراد المفاضلة بين الجاوش والسلطان في نفس الأمر؛ إذ هو هزلٌ، ما هو بالجد. بل المراد المفاضلة بالنسبة إلى ذلك النفر، باعتبار درجة مربوطيته بالسلطان حقيقةً، وبالجاوش تبعا مع إذن السلطان.

(١) جاوش: رتبة عسكرية تقابل العريف.

وأما «أرأف من كل رؤوف»، و«أكرم من كل كريم»، و«أعز من كل عزيز» وأمثالها؛ فالمراد أن لو اجتمع جميع رَأَفات جميع الكرماء على شخص، ما ساوت ما أصاب ذلك الشخص من بحر رحمته التي لانهاية لها. ففيها تفضيلٌ من أربعة أوجه: إذ المفضّل حقيقي وواحد وفي واحد وبواحد. والمفضَّل عليه اعتباري، وجماعة، وبجميع ما في أيديهم، لا يساوي حصة واحدة، في شخص واحد مما لا يتناهى من فيض الأحد الصمد.. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ (الحج:٧٣).

اعلم أن لفظ «الله» يدل بالدلالة الالتزامية، على معاني كل الأسماء الحسنى وعلى جميع الأوصاف الكمالية. خلافا لسائر الأعلام الدالة على ذوات المسميات فقط.. بسرٍّ أن صفات سائر الذوات ليست بلازمة للذوات، فلا يدل اسم الذات على صفتها، لا مطابقةً ولا تضمنا ولا التزاما. وأما الذات الأقدس؛ فلوجود اللزوم البيّن بينَه وبين صفاته وأسمائه.. وكذا لاستلزام الألوهية لها، يدل اسمه العَلَمي على جميع صفاته بالدلالة الالتزامية.. وكذا لفظ الإله، في سياق النفي.[1]

إذا علمت هذا ؛ فاعلم أن «**لا إله إلا الله**» يتضمن من التوحيد، ومن أحكام التوحيد عددَ الأسماء الحسنى.. فهذا الكلام الواحد يشتمل على ألوف كلام، كلُّ كلام مثل هذا الكلام مركّب من نفي وإثبات. ولأجل أن النفي يتوجه إلى فردٍ فردٍ بالاستغراق الفردي؛ يكون في الإثبات إثباتُ مجموعِ ما نُفيَ عن الغير، بالقاعدة المقررة في المنطق. فكأنه قيل: «لا خالق، ولا رازق، ولا قيّوم، ولا مالك، ولا فاطر، ولا قهار، إلّا الله».. وهكذا، فيمكن أن ينبسط هذا الكلام للذاكر المترقي في الأطوار والمراتب، على كل مراتبه وأحواله. فيكون التكرار كالتأكيد بالتأسيس.

اعلم أنك إذا عرفتَ أن الكلَّ منه تعالى وأذعنتَ به، لابد أن ترضى بها سرّ أو ضرّ. وإن لم ترضَ، اضطررتَ إلى الغفلة. ومن هذا السر وُضِعَت الأسباب الظاهرية وغُطّيت الأعين بالغفلة؛ إذ ما من أحد إلّا وما يخالف هَوَسَه وهواه ومشتهاه ومناه –من حادثات الكائنات– أزيدُ وأكثر مما يوافقها.. إذ ما بُنيت الكائناتُ على هندسةِ هَوَسِ ذي الأماني، بل

(١) أي في: **لا إله إلّا الله**.

تجري الرياح بما لا تشتهي السُفن.[١] فلو لم ير المرءُ ذو الهوى هذه الأسبابَ، ولم يغفل عن مسبِّب الأسباب لتوجّه اعتراضُه الباطلُ وكراهتُه ونفرته وحدّتُه وغيظه الواهية إلى الفاطر الحكيم والمالك الكريم. فإذا رمى الغافلُ سهمَ اعتراضه أصاب الفلك[٢] أو الشيطان أو انعكس إلى رأسه ونفسه.

اعلم أنك إذا أمعنتَ النظر، تفطنت أن بُعدَ «الممكن» عن درجة الإيجاد، بمراتبَ غيرِ متناهية، بالنسبة إلى مقدار ما يُشاهد في ذلك المصنوع المستند إلى ذلك الاقتدار الغير المتناهي.

اعلم أن الدعاء على ثلاثة أقسام:

الأول: دعاء الإنسان، بهذا اللسان بالقول. وكذا الحيوانات الصائحات بألسنتها المخصوصة، في الحاجات المشعورة لهم.

والثاني: الدعاء بلسان الاحتياج، كدعاء جميع النباتات، والأشجار «لا سيما في الربيع». وكذا في كل الحيوانات في الحاجات الضرورية الغير المشعورة.

والثالث: الدعاء بلسان الاستعداد، كدعاء كل ما فيه نشوء ونماء، وتحوّل وتكمّل. فكما أنَّ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء:٤٤) كذلك إن من شيء إلّا ويدعوه، ويشكره بذاته وحاله دائما، كما قد يدعو بلسانه.

اعلم أن النواة قبل أن تتشجّر، والنطفة قبل أن تتبشّر، والبيضة قبل أن تتطيّر، والحَبَّة قبل أن تتسنبل، لابد أن تكون تحت تدبيرِ علمٍ تام نافذ وتربيةٍ، لتُساقَ مِن بين ما لا يُحَدّ من الطرق العقيمة المعوجّة إلى الصراط المستقيم المنتجَة. فما هو إلّا علمُ علام الغيوب الذي يصوِّر في الأرحام كيف يشاء، عالمُ الغيب: «غيبِ الماضي، والمستقبل» والشهادة «شهادة الحال الحاضر». فكأن كلا من النواة والنطفة والبيضة والحبة تذكرةٌ مختصرة استنسخت من «الكتاب المبين» من كتب القُدرة.. أو فهرستةٌ استُخرجت من «الإمام المبين» من كُتب العلم الأزلي ومكتوباته.. أو دساتيرُ استُنبطت من «أم الكتاب» من كُتب القَدَر الأزلي، لاسيما من باب الميزان والنظام.. أو فذلكةُ أوامرَ متمثلة متمركزة ممتزجة تنـزلتْ من ربوبية القدير على كل شيء، العليم بكل شيء جلّ جلاله.

(١) للمتنبي: ما كُلُّ ما يَتَمَنّى المَرءُ يُدرِكُهُ تَجري الرِياحُ بِما لا تَشتَهي السُفُنُ.
(٢) الفلك: الدهر، المقدرات الإلهية، القدر.

اعلم أن نظر المؤمن إلى المصنوعات حرفيٌّ؛ إنما ينظر إليها لتدل على معنى في غيرها. وأما نظرُ الكافر إليها، فقصدي اسميٌّ؛ لتدل على معنى في نفسها.

ففي كل مصنوع وجهان: وجه، ينظر إلى ذاته وصفاته الذاتية. ووجه، ينظر إلى صانعه، وإلى ما تجلى إليه من أسماء فاطره.. والوجه الثاني أوسع مجالا، وأكملُ مآلا؛ إذ كما أن كل حرف من كتاب يدل على نفسه بمقدار حرف وبوجهٍ واحد، ويدل على كاتبه بوجوه كثيرة، ويعرّف كاتبه ويصفه للناظر بمقدار كلمات كثيرة.. كذلك إن كل مصنوع الذي هو حرفٌ من كتاب القُدرة، يدلّ على وجوده ونفسه بمقدار جِرمه ونفسِه وبوجهٍ واحد، وهو وجوده الصُوري. لكن يدل على نقّاشه الأزلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من أسمائه المتجلية على ذلك المصنوع، بمقدار قصيدة طويلة.

ثم إن من المقرر أن المعنى الحرفي، لا يُحكَم عليه بالأحكام القصدية، تصديقا وتكذيبا. ولا يستتبع اللوازم،[١] إلّا بنظر ثانوي. فلهذا لا يتغلغل ذهنُ ناظره في دقائقه، إلّا إذا نظر قصدا، فحينئذ يصير الحرفُ اسما. بخلاف المعنى الاسمي.[٢]

فمن هذا السر ترى كتبَ الفلاسفة أحكَمَ فيما يعود إلى الكائنات في أنفسها، مع أنها أوهنُ من بيت العنكبوت فيما يعود إليها بالنسبة إلى صانعها.[٣] وكلام المتكلمين مثلا لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية إلّا بالمعنى الحرفي التبعي والاستطرادي، وللاستدلال فقط.. حتى إنه يكفي لهم أن تكون الشمس سراجا، والأرض مهادا، والليل لباسا، والنهار معاشا، والقمر نورا، والجبال أوتادا أي بمشّاطيتها للهواء ومخزنيتها للماء والمعادن، وحمايتها للتراب عن التوحل، وتسكين غضب الأرض المتزلزلة بتنفسها فيها، ولا يكفي للفلسفي إلّا أن تكون الشمس مركزَ عالمِ منظومتها، ونارا عظيمة بدرجة تتطاير السيارات مع أرضنا حولها كالفَراش المبثوث. وهكذا، حتى لو لم يطابق رأيُ المتكلمين الواقعَ، مع مطابقة الحس العمومي، والتعارف العام لما ضرَّهم، ولا استحقوا التكذيب.[٤] فلهذا يُرى آراؤهم بادي الرأي أضعفَ وأدنى طبقةً في المسائل الفلسفية، وأقوى من الحديد في أساسات المسائل الإلهية.

(١) أي ولا يستتبع لوازم الحكم.
(٢) أي يكون محل حكم تصديقا وتكذيبا (ت: ٢١٦)
(٣) إن الأحكام التي تخص الكائنات بذاتها تبدو في كتب الفلاسفة قوية في الظاهر إلّا أن حقيقتها أوهن من بيت العنكبوت (ت: ٢١٦)
(٤) لأنهم لم يذكروا الرأي إلّا للاستدلال والاستطراد.

ومن هذا السر أيضا تصير الغلبةُ في الأكثر في الأوائل في الأولى لأهل الضلال، فيما يعود إلى الدنيا وإلى ظاهر هذه الحياة. إذ هم بجميع لطائفهم الساقطة إلى درجة نفوسهم، متوجهون قصدا وبالذات إلى الدنيا قائلون بأعمالهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (الأنعام:٢٩) ولكن العاقبة للمتقين الذين قيل لهم ولسيدهم: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى:٤) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:٣٢) ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤)

فحسبنا الله ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير.

اعلم أن عفوَه تعالى فضلٌ، وعذابَه عدلٌ؛ إذ كما أن من أكل سمًّا، فهو مستحق للمرض بحكم عادة الله المستمرة. فإن لم يمرض، فهو فضل وكرامة من الله بخرق العادة.

نعم، مناسبة المعصية للعذاب قويةٌ بدرجة من القوة، حتى ضلّت فيها المعتزلة فأسندوا الشرَّ إلى غيره تعالى، وأوجبوا الجزاء عليه. واستلزامُ الشر للعذاب -بسر النظام العام- لا ينافي كمال الرحمة ؛ إذ هذا الضرر الجزئي متصلٌ بأنبوب في سلسلةِ نظام محيط تدلت منه كالعناقيد خيراتٌ كثيرة. مع أن تركَ هذه الخيرات الكثيرة لمنع هذا الضرر الجزئي والشرِّ القليل ضررٌ كلي وشرٌ كثير، وهو ينافي حكمةَ عدالة العدل الحكيم الكريم.

أيها الإنسان الظلوم الجهول! اتّق الشرَّ ما استطعت. وإلّا استحققت جزاءَ تركك[1] مع جزاء تفويتك لنتيجةِ سائر الأسباب السابقة عليك، في سلسلة مبادي وجود النتيجة. إذ الشرُّ عدمٌ. وبعدم الجزء الآخر من العلة ينعدم المعلول. فيعود على الجزء الآخر كل ضررِ عدمِ المعلول. إلّا أن ثمرات الوجود لا تعود إليه إلا بمقدار حصته، إذ وجود الجزء ليس علةً لوجود الكل. فمن هنا يُرى كمال عفوه تعالى وكمال فضله؛ إذ يجزي بالشر مثلَه، وبالخير عشرةَ أمثاله. مع اقتضاء الاستحقاق الواقعي عكسَه.[2] وكذا يُرى ظلمُ البشر بحكمهم بعكس الواقع.

اعلم أن الإنسان مبتلىً بالنسيان، وأسوأ النسيان نسيانُ نفسه. إلّا أن نسيان النفس

(١) جزاء تركك الخير.

(٢) حيث إن الحسنات لأنها إيجابية ووجودية فلا تتعدد ماديا ولا تحصل بإيجاد العبد، فالمفروض أن تكتب حسنة واحدة، بعكس السيئات التي تتعدد وتتجاوز، فالمفروض أن تكتب ألف سيئة. راجع -إن شئت- رسالة «حكمة الاستعاذة-اللمعة الثالثة عشرة»، ففيها التفصيل الشافي.

إن كان في المعاملة والخدمة والسعي والتفكر فهو الضلال، وإن كان في النتائج والغايات فهو الكمال. فأهل الضلال وأهل الهدى متعاكسان في النسيان والتذكر؛ أما الضال فينسى نفسه عند النظر للعمل وتطبيقِ دساتير الوظيفة، بل يمدّ نظرَه إلى الآفاق لتطمين الأنانية المتفرعنة، وغرورِه المنبسط الذي تضيق عنه النفسُ. لكن يتذكر نفسه في كل شيء من الغايات فتيلا أو نقيرا. حتى لا غاية عنده إلّا ما يعود إلى نفسه. وإن غاية الغايات في نظره حب ذاته.

وأما من زكّاها فيتذكر نفسَه قبل كل شيء عند السعي والسلوكِ في الحركة، أو التفكر فكأن نفسه واحد قياسي ومبدأ مركزي لكل عملٍ وتفكر. لكن ينسَى نفسه في النتائج والأعراض والفوائد والمقاصد. حتى كأن نفسه فانية، وداخلة في لا شيء، أو مملوكة خَدمت سيدَها بلذة الإخلاص، في وظيفة عائدة من كل وجه إلى السيد. فلا حقَّ لها في مقاضاة شيء، فما أعطى سيدُها لها تراه النفس من محض الفضل.

اعلم أن سر تساند المؤمنين في عباداتهم ودعواتِهم في جماعاتهم سرٌّ عظيم وأمر جسيم له شأن فخيم؛ إذ يصير به كلُّ فرد كالحجر المجصوص، في البناء المرصوص. يستفيد من إخوانه في الإيمان، بألوفِ ألفِ ألفِ ما يستفيد من عملِ نفسه. فإذا نظّمهم سلكُ الإيمان يصير كلٌّ لكلٍّ، وللكلِّ شفيعا وداعيا ومسترحما وراجيا ومادحا ومُزكيا. لاسيما لرئيسهم ورأسهم.[1] فيتلذذ كلُّ فرد بسعاداتِ سائر إخوانه كتنعّم الأم الجائعة بلذة ولدها، والأخِ الشفيق بسعادة شقيقه. حتى يصيرُ هذا الإنسان المسكين الفاني مستعدا لعبوديةِ خلّاق الكائنات، وقبول السعادة الأبدية.

فانظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام فإذا تراه، وهو يدعو بـ«يا أرحم الراحمين»، ترى الأمة كلهم يقولون: «اَللَّهُمَّ صل وسلم على عبدك وحبيبك محمد بحرِ أنوارك، ومعدن أسرارك، وناشر ذكرك وشكرك، ودلّال محاسن سلطنة ربوبيتك». فيزكّونه عند ربهم، ويحببونه إلى مَن أرسله رحمة لهم، ويؤيدون شفاعته. وكذا ينادون بلسان عجزهم المطلق وفقرهم المطلق، غناءَه -سبحانه- المطلق، في استغنائه الأكمل. وينادون جودَه المطلق في عزته الأجلّ. وينادون بلسان عبوديتهم المطلقة ربوبيتَه المطلقة. وبهذا التعاون العُلوي المعنوي يترقى الإنسان من

(١) المقصود الرسول الأعظم ﷺ. (ت: ٢١٧).

أسفلِ سافلي الحقارة والصغر والعجز؛ إلى أعلى عليي الخلافة، وحملِ الأمانة وقابلية المُكَرَّمية بتسخير السماوات والأرض له.

اعلم أن من بَعُدَ عن شيء لا يرى كما يراه القريب منه، ولو كان البعيد أشد ذكاءً وأحدّ بصرا. فإذا تعارضا ترجّح القريب مطلقا. فالفلاسفة الأوروبائية المتغلغلون في المادية، تباعدوا بمراتب عديدة، ومسافات طويلة عن مقام الإسلام والإيمان والقرآن. فأعظمُ فلاسفتهم لا يساوي عاميًا يفهم بالإجمال مآل القرآن فقط.

هكذا شاهدتُ وهو الواقع. فلا تقل: مَن كشف خواص البرق والبخار كيف لا يفهم أسرارَ الحق وأنوارَ القرآن؟ نعم، ليس له، إذ عقلُه في عينه،[1] والعينُ لا ترى ما يراه القلب والروح، لاسيما مع البُعد، ولاسيما عند موت القلب بانقلاب الغفلة إلى الطبيعة ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ (النحل:١٠٨).

اعلم أن من أعظم كُفران النِّعم، ومن أشد تكذيب الآلاء، عدمَ الشكر على ما عَمَّه وغيرَه كالسمع والبصر، أو دام واستمر كالنور والنار، أو أحاط وطمّ كالهواء والماء؛ بل إنما يشكر الله على ما يخصّه من دون الناس، أو يتجدد عليه، أو يندر لندر الحاجة. مع أن الأعمَّ الدائم الأدوم هو النعمة الأعظم الأتم. العموم يدل على كمال أهميتها، والدوامُ على غلو قيمتها.

اعلم أن من آياتِ أنه تعالى ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن:٢٨) التساوي والتوازن والانتظام بين أعداد المتجاورات والمتقابلات والمتشابهات كالأصابع في الأيادي، والحبات في السنابل، والنواة في الثمرات، والأوراق في الأزهار.. فسبحان من أحصى كلَّ شيء عددا وأحاط بكل شيء علما.

اعلم أن التلقيح والتولد مع التربية الشفيقة وظيفتان عامتان نافذتان ساريتان إلى أصغر الأشياء. لهما مكافأة عاجلة هي اللذة المودعة فيهما. فعموم جود المحسن الكريم، مع شدة شوق كل الأشياء (المزدوجة) في إيفاء هاتين الوظيفتين بالمشاهدة؛ يدلان على أن النباتات والأشجار والمعادن بل الجامدات أيضا لها حصة من هذه النعمة واللذة بوجهٍ يليق بها. فمراعاة المكافأة

---

(١) أي لا يفهم ولا يصدّق إلّا ما يرى.

والرحمة والعدل بهذه الدرجة، وسرُّ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف:١٥٦) وكثرة الروايات المؤيدات للمكافأة والقصاص في الحيوانات في الحشر؛ تشير إلى بقاء أرواح الحيوانات ومكافأتها على وظائفها التي امتثلوها بكمال الإطاعة والانقياد.[١] وأما المنقلب ترابا بعد الحشر فهو أجسادُهم. إلّا أنه يجوز أن يجتمع تمامُ نوعٍ منه -مجتمعا، أو فردا فردا- في جسد شخص مبارك، كالناقة المذكورة في القرآن، والكبش والكلب والهدهد والنملة وغيرها.

اعلم أيها السعيد المسكين الحريص على بقاء الوجود، في هذه الدنيا الفانية، فرغمًا على أنفك تفنى إلّا ما أبقاه الباقي. ويزول وجودُك إلّا ما تَوجَّه إلى جهته سبحانه. وتنطفئ حياتُك، إلّا ما أفنيته في سبيله.

فما دام هذا هكذا.. فقل: حسبي من البقاء أن الله المالك الباقي.. وحسبي من لذة البقاء علمي بأنه معبودي الباقي.. وحسبي من غاية البقاء معرفتي بأنه ربي الباقي.. وحسبي من البقاء وكمالِه إيماني بأنه موجدي الباقي.. حسبي من الوجود كوني أثر واجب الوجود.. حسبي من قيمة الوجود أني صنعة مَن فَطر السماوات والأرض.. حسبي من غاية الوجود، علمي بأني صبغةُ من زيّن السماء بمصابيح، والأرض بأزاهير.. حسبي من لذة الوجود، علمي بأني مصنوعُه ومخلوقُه وهو ربي ومُوجدي.. حسبي من الحياة، مَظهَريّتي لتجليات أسماء خالق الموت والحياة.. حسبي من الحياة وحقوقها وغاياتها، إظهاري على رؤوس الأشهاد، وتشهيري بين ذوي الإدراك من إخواني الكائناتِ، وإعلاني في سُوق العالم -بسرِّ جامعيةِ وجودي- لغرائب آثار تجليات أسماء خالق السماوات والأرض.. حسبي من غاية الحياة كوني أنموذجا وفهرستةً لآثار تجليات أسمائه الحسنى.. حسبي من الحياة وكمالِها إظهاري بلسان أحوالي لتجليات أسماء مَن قامت السماوات بأمره، واستقرت الأرض بإذنه.. حسبي من لذة الحياة علمي بأني مملوكُه ومصنوعُه ومخلوقه وعبده وفقيره، وهو خالقي وإلهي وربي وفاطري ومالكي ورحيمٌ بي ومنعِمٌ عليّ.. حسبي من الكمال، الإيمان بالله.. وحسبي من كل شيء «الله».

اعلم أن في التوحيد، وإسناد الأشياء إلى الواحد سهولةً بلا نهاية، إلى درجة الوجوب، وقيمةً غالية بلا نهاية.. وأن في الشرك، وإسنادِ المصنوعات إلى الكثرة صعوبةً بلا نهاية إلى

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»: رواه مسلم برقم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٥٣٥ (تحفة الأحوذي). (ومعنى الجلحاء: التي لا قرن لها).

درجة الامتناع، وسقوطَ قيمة، وذلّةً نازلة بلا غاية، كما مرَّ مرارا.. ألَا ترى كيف يتعاظم ما في يد الجندي مما يُنسب إلى السلطان ويعزّ منه ما هو في أمر السلطان، ويغلو كلامُه الذي هو بحساب السلطان قيمةً وأهميةً. ويتيسر بكمال السهولة «تدارُك كل لوازمات الحياة» من خزائن الملِك وماكيناته. وكيف يتساقط ما ذُكر هباءً منثورا إن انقطع الربط بعصيان الجندي!

اعلم أن الضرَّ -كالنفع- منه.. وكذا الشر -كالخير- منه.. والموت -كالحياة- بقدرته وقدره؛ إذ في موت شيء حياةُ آخَرَ أو مبدَؤها. أو هو هي. وكذا الشر والضر.

اعلم أن في روح الإنسان قابليةً -بوجهين- لِلَذّاتٍ غير متناهية وآلام غير محصورة من جهة جامعية ماهيته وكثرة جهازاته بلا حد، ومن جهة تلذذه بتنعمات أولاده وإخوانه من أبناء نوعه أو جنسه أو إخوانه من أجزاء الكائنات، وتألّمه بتألماتها.

اعلم أني قد شاهدتُ أن النظر إلى الغير مع نسيان النفس يقلب الحقائق، كالنظر في الماء يريك الأشياءَ المعنوية معكوسةً منتكسة. فمع أنك تجهل تعتقد أنك تعلم.

اعلم أن ما اقتضى «تكرار بعض أجزاء القرآن» ما اقتضى تكرار الأذكار والأدعية؛ إذ القرآن كما أنه كتابُ حقيقة وشريعة وكتاب معرفة وحكمة، كذلك هو كتاب ذكر ودعاء ودعوة.. والذكرُ يردَّد، والدعاء يُكرَّر، والدعوة تؤكّد.

اعلم أن من مزيّات علو القرآن إيرادَ مذكِّرات الوحدة خلفَ مباحث الكثرة، والإجمال عقيب التفصيل، وترديف بحث الجزئيات بدساتير الربوبية المطلقة، ونواميسِ الصفات الكمالية العامة الشاملة بذكر فذلكات كالنتائج أو كالتعليلات في أُخريات الآيات، لأجل أن لا يتغلغل ذهنُ السامع في ذلك الجزء الكوني المذكور، فيَنسى «عظمةَ مرتبة الألوهية المطلقة». حتى يخلّ بلوازم آداب العبودية الفكرية لذي العظمة والهيبة والكبرياء. وكذا ليبسُط ذهنَك من ذلك الجزئي إلى أمثاله وأشباهه.. وكذا يريك القرآنُ بهذا الأسلوب، ويفهّمك أنّ في كل جزئي -ولو حقيرا وزائلا- سبيلا واضحا، وصراطا مستقيما، ومحجةً بيضاء إلى معرفة سلطان الأزل والأبد، وإلى شهود جلوات أسماء الأحد الصمد.

مَثَلُ القرآن في هذا الأسلوب كمثل من يريك قطرةَ ماء فيها شُميسة، أو زهرةً فيها تجلي

ألوانِ ضياء الشمس. فيريك بلا مهلةٍ «الشمسَ» في رابعة النهار بحشمتها، ويرفع رأسك إليها، لئلا تتشوش عليك الحال، فتتصاغرَ عندك الشمس فتصيرَ تنكرُ لوازم عظمتها.

مثلا في سورة يوسف: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) خلف أمر جزئي[1].. وكذا في سورة الحج: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الحج:٧٤) وفي سورة النور: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ ﴾ إلى ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٩). وفي سورة العنكبوت: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤١) وأمثالها.

اعلم أن همّةَ الأولياء ومدَدَهم، وأفاعيلَهم المعنوية بالإفاضات نوعٌ من الدعاء، حاليٌّ أو فعليٌّ. والهادي هو الله وهو المغيث المعين. ولقد تلمّع لي شيءٌ، لكن ما تشخص واضحا؛ وهو أن في الإنسان لطيفةً وحالة، إذا دعا الإنسانُ -ولو كان فاسقا- بلسانها استُجيب له قطعا. نعم هي لطيفةٌ إذا أقسمَت على الله أبرَّها.

اعلم يا مَن يتيقن الماضي، ويشك في الآتي! اذهب بنفسك إلى عصرين من قبل، وافرض نفسَك جدَّك الذي هو في وسط شجرة نَسَبك. ثم انظر إلى أجدادك الذين هم موجودات ماضوية. ثم إلى أولادك المتسلسلين منك إليك، الذين هم ممكنات استقبالية، هل ترى تفاوتا بين الجناحين؟ كلا لا ترى، لا في الانتظام، ولا في شيء يوهم وجودَ التصادف. بل كما أن الأول مصنوعٌ بعلم وإتقان يراه صانعُه، كذا الثاني سيُصنَع كذلك وهو مشهودٌ لصانعه قبل كونه. فإعادةُ أجدادك ليست بأغربَ من إيجاد أولادك. بل هو أهون منه. كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ ﴾ (الروم:٢٧). فقس على هذا الجزءِ الجزئي، الكلَّ الكلّي. لترى كل الوقوعات الماضية معجزاتٍ تشهد على أن صانعَها قدير على كل الممكنات الاستقبالية وعليمٌ بتفاصيلها ومحيطٌ وبصيرٌ بها.

نعم، كما أن هذه الموجودات الجلية والأجرام العلوية في بستان الكائنات؛ معجزاتٌ تشهد وتنادي على أن خلّاقها على كل شيء قدير وبكل شيء عليم. كذلك هذه النباتات المتلونة المتزهرة المنثورة، وهذه الحيوانات المتنوعة المتزينة المنشورة في حديقة الأرض، خوارقُ صنعةٍ

(١) المقصود: الكيد الذي دُبّر لإبقاء الأخ الشقيق الحقيقي لسيدنا يوسف عليه السلام.

تشهد بأعلى صوتها على أن صانعها على كل شيء قدير وبكل شيء عليم. تتساوى بالنسبة إلى قدرته الذراتُ والشموس، ونشرُ أثمار الشجر، وحشرُ أبناء البشر.. نعم، ليس إنشاء أزهار شجرة منشورةٌ على أغصانها الرقيقة الدقيقة بأهونَ من إنشاء أبناء نوع الإنسان على عظامهم الرميمة المتفرقة.

اعلم أنه كم من نعمة كقطرة معصورة بنظام رقيق، وميزان دقيق من كل الكون كالثمرة من الشجرة. فإن كانت معصورة محلوبة على الحقيقة مع غاية البُعد، فما المنعِم إلّا مَن في قبضته كل الكون يعصره كيف يشاء، كما هو الظاهر الحق المشهود. فما المُنعِم إلّا الذي خزائنهُ بين «الكاف والنون». فما من نعمة إلاّ مِن الذي صيّر «كن» مصدرَ الكون. وما المنة والشكر إلّا له سبحانه.

اعلم أن مما أُفيض على قلبي من فيض القرآن من كثرة ذكره إحياءَ الأرض، وجلبِهِ أنظار البشر إلى التراب؛ أن الأرض قلبُ العالم، والترابَ قلبُ الأرض. وأن أقرب السُبل إلى المقصود يذهب في التراب، من باب التواضع والمحوية والفناء. بل هو أقرب من أعلى السماوات إلى خالق السماوات؛ إذ لا يُرى في الكائنات شيء يساوي التراب في تجلي الربوبية عليها وفعاليةِ القدرة فيها وظهورِ الخلّاقية منها والمظهرية لجلوات اسمَي الحي القيوم.

وهكذا، فكما أن «عرش الرحمة» على الماء، كذلك إن «عرش الحياة والإحياء» على التراب، والترابُ أجمعُ المرايا وأتمّها. إذ مرآة الكثيف كلما كان ألطفَ وأشفّ؛ تريك صورةَ الكثيف أوضحَ وأظهر وأتم. لكن مرآة اللطيف النوراني كلما كان أكثفَ؛ كان التجلي بالأسماء عليها أتم. ألا ترى الهواء لا يأخذ من فيض الشمس إلّا ضياءً ضعيفا. والماء وإن أراك الشمس بضيائها، لكن لا يفصل ألوانه. مع أن التراب يريك بأزاهيره مفصلَ كلِّ ما اندمج في ضيائها من الألوان السبعة ومركباتها. مع أن هذه الشمس قطرةٌ متلمعة كثيفة بالنسبة إلى نور شمس الأزل. وتَزَيُّن التراب وتبرّجه في الربيع بما لا يُحد ولا يُعد من لطيفات الأزاهير، وجميلاتِ الحيوانات المنادية على كمال ربوبيته، شاهدٌ مشهود. فإن شئت فانظر إلى هذه الواحدة المسماة بالتركي «هرجائي منَكشه»[1] كيف تتصرف يدُ الصانع الحكيم في تلويناتها وتزييناتها وهي واحدة. لكن تظهر وتنظر إليك متبسمة، لا بل متعبسة في عشرين صورة.

(١) نوع من الأقحوان من نباتات الظل.

فسبحان من يتعرف إلينا بلطيف صنعه، ويعرِّف الخلائقَ قدرته بعجائب تصرفه في التراب. ومما يرمز إلى هذا السر حديثُ «**أقربُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد**».[١]

فإن كان هذا هكذا؛ فلا تتوحشْ من التراب وذهابِك فيه، ولا تتدهش من القبر وسكونك فيه.

اعلم أن عقلي قد يرافق قلبي في سيره؛ فيعطي القلبُ مشهودَه الذوقي ليد العقل، فيُبرزه العقلُ على عادته في صورة المبرهَن التمثيلي. ومن تلك الحقائق أن الفاطر الحكيم كما أنه بعيد بلا نهاية، كذلك قريب بلا غاية. وكما أنه في أبطن البطون، كذلك فوق الفوق. وكما أنه ليس داخلا، كذلك ليس خارجا.

فإن شئت فانظر إلى آثار رحمته المنثورة على سطح كرة الأرض، وإلى معمولات قدرته المنشورة في دوائر صحائف الأرض لتشاهد هذا السر متلمعا من سطورها؛ إذ لابد لصانعِ ذرتين أو زهرتين أو ثمرتين أو نحلتين في مكانين في آن واحد، من بُعْدٍ أزيد من البعد بينهما. وإذا كانتا في الكرة والدائرة،[٢] مع تخللِ أعظم القوس بينهما، فحينئذٍ لابد للمقابلة التامة -على التساوي الضرورية المشهودة- من بُعدٍ بلا حدّ.. هذا في وجه الظاهر وفي جانب المُلك. وأما في وجه الباطن وفي جهة الملكوت؛ فلابد لتساوي المقابلة -بلا كيفية- المشهودة، في كمال سهولة الإيجاد وسرعته، مع الجود المطلق، في الإتقان المطلق من قرب بلا نهاية، لا كقرب المركز لتفاوت نسبِ نقاط الدوائر المتداخلة بالنسبة إلى المركز. مع أنه لا تفاوت بالنسبة إلى «الموجِد» الذي أتقن كل شيء صنعا، وأحسن كل شيء خلقه.

نعم، هذا السر من خصائص دائرة الوجوب والتجرد، ومن خواص الإطلاق، ومن خصوصيات تجلي الأحدية في الوحدة، ومن لوازم مباينة ماهية الفاعل الأصلي للمنفعل الظلي.

مثلا: - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ -: إن لِذات الشمس قُربا بلا حد من تماثيلها في المرايا والأزاهير. إذ ذات الشمس قيّوم التماثيل، وأقربُ إليها من لصيقها، بل من أنفسها. وكذا لها بُعد بلا حد من تلك الظلال؛ إذ لا يتيسر -بل لا يمكن- قطع المسافة المتخللة بين الظل المتمكن في مرآتك، وبين الأصل.

(١) تكملة الحديث: «**فأكثروا الدعاء**» (مسلم، الصلاة ٢١٥؛ أبو داود، الصلاة ١٤٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٤٢١).
(٢) أي إحداهما في الكرة الأرضية والأخرى في مدارها.

فسبحان من تقدس عن الأشباه ذاتُه، وتنـزهتْ عن مشابهة الأمثالِ صفاتُه. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

اَللّٰهُمَّ يا عدل، يا حكم، يا عليم، يا حكيم، إنه ليس في الرياح مَرّةٌ، ولا في السحاب قطرةٌ، ولا في الرعود زجرةٌ، ولا في البروق لمعةٌ، ولا في الرياض زهرة، ولا في الجنان ثمرة، ولا في الهواء نحلة، ولا في النبات صبغة، ولا في الحيوان صنعة، ولا في الوجود زينة، ولا في الكون ذرة، ولا في الخلق نظام، ولا في الفطرة ميزان، ولا في العرش شيء، ولا في الكرسي شأن، ولا في السماء نجم، ولا في الأرض آية؛ إلّا وهي لك أدلة شهدتْ، وآيات تشهد على أنك واجب، واحد، أحد، صمد. وبراهين نيّرة شاهدات على أنك أنت الله، وأنت علام الغيوب مُخرجُ الحبوب، مسخّر القلوب. جميع الخلق مقهورون تحت قدرتك، قلوبُهم في قبضتك، نواصّيهم بيدك، مقاليدُهم لديك. لا تتحرك ذرةٌ إلّا بإذنك.

يا إله الأولين والآخرين، يا رب محمّد عليه الصلاة والسلام
وإبراهيم وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام!

أسألك باسمك العظيم، وبنور وجهك الكريم، وبدينك القويم، وبصراطك المستقيم، وبالسبع المثاني، وبالقرآن العظيم، وبألفِ ألفِ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وبألف ألف «فاتحة الكتاب»، وبأسمائك الحسنى، وباسمك الأعظم، وبالحجر الأسود، وببيتك المكرم، وبليلة القدر، وبرمضان المعظم، وبأنبيائك المكرمين، وبحبيبك الأكرم ﷺ؛

أن ترحم أمة محمد، واشرح صدورهم للإيمان والإسلام، وسلّمنا من شر الملاحدة وسلّم ديننا، ونوّر برهان القرآن، وعظّم شريعة الإسلام.

آمين يا أرحم الراحمين..

* * *

[بارك الله فيكم ألف ألف مرة ووفقكم الله] [1]

---

(١) كتب الأستاذ النورسي هذه الجملة الطيبة بالتركية في المخطوط بخط يده.

ذيل الشعلة



الحمد لله والصلاة على نبيه.

اعلم أنه لا يتستر عن النور المحض المحيط شيءٌ من الأشياء، وكذا لا يخرج أمرٌ من الأمور عن دائرة القدرة الغير المتناهية؛ وإلّا لزم تناهي غير المتناهي بالتحديد بالمتناهي، وهو محال بوجوه.

وكذا إن الحكمة تعطي كلَّ شيء الفيضَ بقدَره، كما يقال: [كلٌّ بقدره].. وإنّ بقَدر الظرف يُغترف من البحر، وإن المقدِّر القدير الحكيم لا يَشغله صغيرٌ عن كبير، ولا خطيرٌ عن حقير. وإن المحيط الظاهر الباطن المجرد عن المادة لا يواري الأكبرُ عنه الأصغرَ. ولا النوعُ الفردَ. وإن الصغير مادةً قد يكون كبيرا من جهة الصنعة. وإن نوع الصغير عظيمٌ كثير كبير. وإن العظمة المطلقة لا تقبل الشركة أصلا ولا تتحملها.

وإن ما يشاهَد من الجود المطلق في السهولة المطلقة، في السرعة المطلقة، في الإتقان المطلق، مع إرادة التعرّف التام، مع محبة ذي الجمال مشاهدةَ جمالِه المطلق وكماله المطلق وتشهيرهما، ومع الرحمة المطلقة، والغَناء المطلق بشهادة الآيات التكوينية، ومع وجودِ ما لا يحد ولا يعد من الناظرين المتفكرين المشاهدين المعتبِرين.. يقتضي -بهذه الأسباب- بلا شك وجودَ أنواع الحوينات والطويرات أيضا، بل أَولى، إذ الصغيرُ الأدق أقربُ إلى الوجود، وإلى القدرة النورانية.

اعلم يا «أنا»، إذا كان نفسُك أحبّ إليك، لأنها أقربُ إليك من كل شيء؛ فلابد أن يكون ربُّك أحب إليك منك؛ إذ هو أقرب إليك من نفسك. ألَا ترى أن ما لا يصل اختيارُك وخيالُك إليه من أسرار ما رُكّب فيك، هو حاضر مشاهَد لربك.

اعلم أنه لا تصادف؛ فانظر إلى الرياض واستمع كيف تقرأ على الناظر بنهاية الانتظام في غاية الاختلاط، وكمال الامتياز في كمال امتزاج أشتات الأشياء.. آياتِ حكمة الصانع العليم المحيط.

اعلم أنك إن لم تُوَحِّدْ بنسبة كلِّ شيء إلى الواحد، تضطر إلى فرض وجود آلهة بعدد تجليات الله على جميع أفراد الأنواع في العالم. كما إذا أغمضتَ عينيك عن الشمس، وتغافلت عنها، وقطعت عنها نسبةَ الشُميسات المتلمعات في قطرات وجه البحر بتجليها، اضطررتَ إلى قبول وجود شموس بالأصالة فيها بعدد تلك القطرات. مع أن القطرة لا تسع أصغر مصباح، فكيف بسراج العالم!

اعلم أنه يشاهَد للمدقق أن طوائف المخلوقات وأصناف المصنوعات تتسابق بالرقابة والاشتياق إلى التبرّج والتزين، للعرض والظهور، لنظرِ شاهدٍ جليل يشاهدها كلَّها، ودائما، وبجميع دقائق محاسنها؛ إذ المصنوعات تُظهِر بالمشاهدة هيئةً تتضمن ما لا يتناهى من لطائفِ إتقان الصنعة الجالبة لنظر الدقة، والاستحسان والحيرة. فما هذا التهالك بالمسابقة للظهور، متزينة إلّا لأجل العرض لنظر لا يتناهى. وما هو إلّا نظر الشاهد الأزلي الذي خَلَقَ الخلق ليشاهِد في مرايا أطوارها جلواتِ أنوارِ جماله وجلاله وكماله.. ثم يستشهدَ عليها شهداء تعرّفَ إليهم، بإراءة ذلك الكنـز الخفي. فأعلى غاياتِ وجود الشيء وأغلى حقوقِ حياة الحي هو المشهودية والظهور لنظر فاطره، بمظهريته لآثار أسمائه. وألذُّ لذائذ هذه الحياة هو الشعور بهذا الشهود.

وأما الظهور لأنظار إخوانه من المخلوقات فهو أيضا غاية، لكن نسبتها إلى الغاية الأولى كنسبة المتناهي إلى غير المتناهي.

وأما ما اشتهر بين الناس من «حق الحياة» -وهو حفظ الحياة مع نوع راحة- فأقلُّ وأصغر وأدنى وأحقر من أن يكون جزءا من ملايينِ أجزاءِ «حق الحياة»، تلك الحياة التي هي من أعلى وأغلى وأعجبِ وأغربِ وألطف وأشرف معجزاتِ قدرة الحي القيوم الأحد الصمد. بل ما هو إلّا وسيلة، وإنما يتشرف ما بقي وسيلةً، فإذا ترقى إلى المقصِدية، سقط بالزوال هباءً منثورا.

أتظن -أيها الغافل- أن غايةَ عجيبِ صنعةِ الرمانة مثلا، هي أكلُك ومضغك في دقيقة بغفلة.. كلا، بل إنما هي كلمةٌ أفادت معناها للمكوِّن سبحانه، وللكون؛ فوفّتْ فتوفّتْ فدُفنتْ مِن فيكَ فيك، ويكفي من الزمان والبقاء لهذه الغاية آنٌ سيال.. فلا عبثية.

وكذا فاعلم أن من له جمال فائق، فلذتُه الحقيقية في المشاهدة لجماله شهودا بالذات، وشهودا بإراءة مصنوعاته لمخلوقاته فيشهدونها.. فيشهد أيضا في شهودهم بشهودهم. وأما لذة التفوق بملاحظة الغير فغيرُ ذاتيةٍ، بل عرضيةٌ ضعيفة، ومشوبة مخصوصة بالأمور النسبية.

وأما ذو الكمال الذاتي والجمال الحقيقي المجرد السرمدي، المحبوبُ لذاته لذاته، الذي له المثل الأعلى، فقد أخبرنا على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام «أنه خَلق الخلق ليُعرف»[1].. أي صوّر مرايا ليشاهِد فيها تجلياتِ جماله المحبوبِ لذاته بذاته.

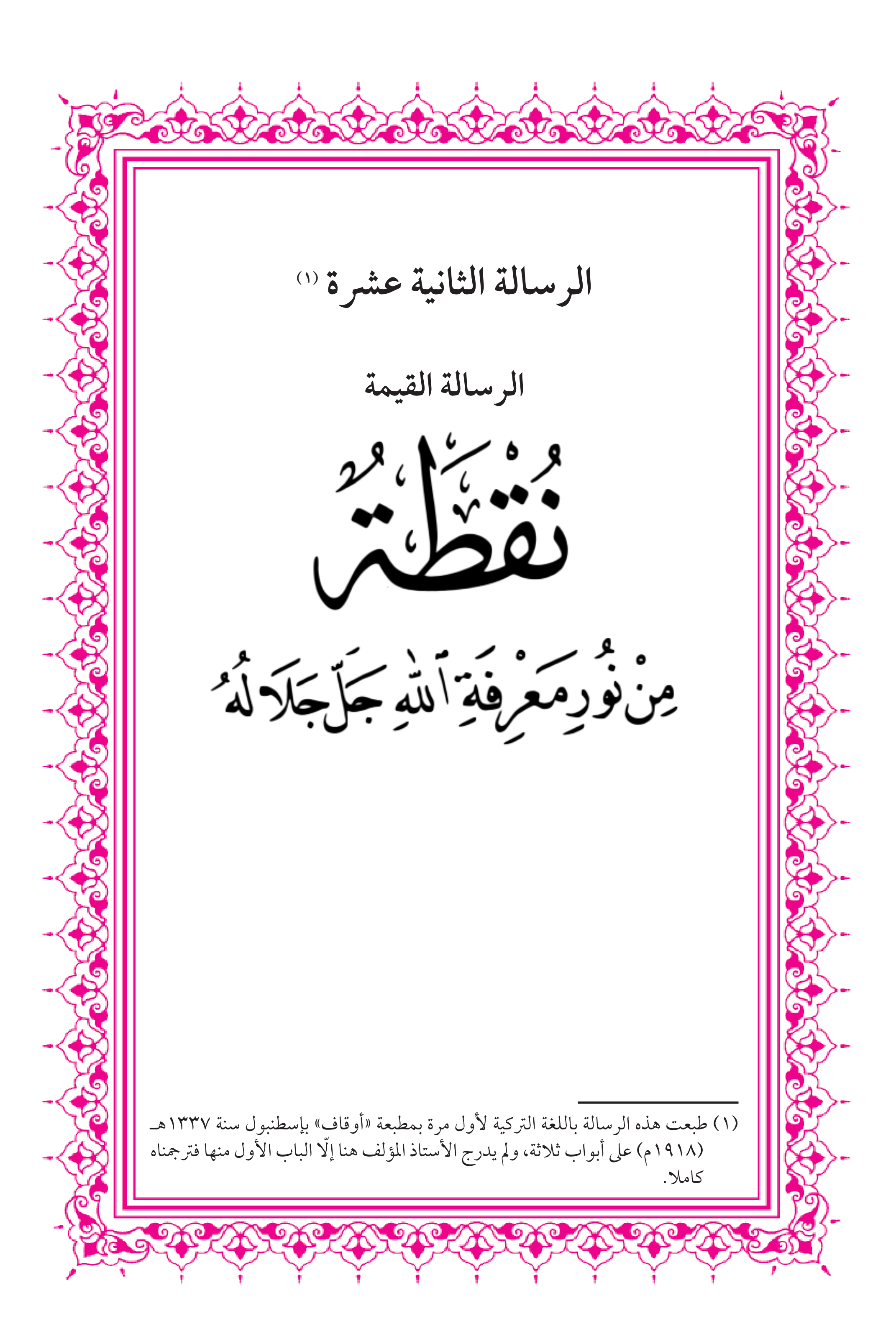
اعلم أيها الفاني، كفاك بقاءً أنك مشهودُه في علمه ومعلومُه في شهوده بعد فنائك من بعض الوجوه. «يا هو»[2] أعطِ كل شيء لصاحبه الحقيقي وانسبه إليه. وخذه باسمه. ثم استرِح، وإلّا اضطررت إلى قبول آلهة بعدد تجليات الله كما مرَّ آنفا. بل بعدد ذرات الكائنات كما مر مرارا أيضا. وكذا بعدد أجزاء التراب.. إذ أيّ جزء من التراب تراه، يصلح لحصول ما لا يعد من المصنوعات المنتظَمة المتنوعة.

فسبحان من تنـزّه عن الأشباه ذاتُه. وتقدست عن مشابهة الأمثال صفاتُه. ودلّت على وحدانيته مصنوعاتُه. وشهِدت بربوبيته آياتُه. وأحاط بكل شيء علمُه وقدرتُه. جلّ جلالُه. ولا إله إلّا هو.

---

(١) وهذا مقارب بالمعنى ما ورد: «**كنت كنـزا لا أُعرَف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا، فعرفتهم لي فعرفوني**»: لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، إلّا أن عليا القاري قال: ولكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. (كشف الخفاء ٢/ ١٣٢ باختصار).

(٢) يا هذاَ!



الرسالة الثانية عشرة [1]

الرسالة القيمة

نُقْطَةٌ

مِنْ نُورِ مَعْرِفَةِ اللّٰهِ جَلَّ جَلَالُهُ

(١) طبعت هذه الرسالة باللغة التركية لأول مرة بمطبعة «أوقاف» بإسطنبول سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) على أبواب ثلاثة، ولم يدرج الأستاذ المؤلف هنا إلّا الباب الأول منها فترجمناه كاملا.

إيضاح

إذا ما دخلتُ بستانا فلا أجني إلّا الأجوَدَ من الثمرات، حتى إذا ما تعبتُ في قطفها أجد المتعة واللذة. ولو وقع نظري على الفاسدة منها، أصرفه عنها، آخذا بالقاعدة: «خذ ما صفا دع ما كدر»... هكذا أنا، فأرجو أن يكون قرّائي أيضا مثلي.

يقال: إنَّ كلامَك لا يُفهم بوضوح.

- نعم، ما حيلتي.. هكذا ترد السانحاتُ إلى القلب.. فبينما أجدني كأنني أتكلم فوق منارة عالية، إذا بي -في أحيان أخرى- أُنادي من قعر بئر عميقة.

فيا قارئي العزيز! أرجو أن تلاحظ في هذه الرسالة:

أنَّ المتكلم: هو قلبي العاجز.

أما المخاطَب: فهو نفسي العاصية.

بينما المستمع: هو ذلك الياباني[1] الذي يتحرى الحقيقة.

وسنشير في هذه الرسالة إلى ما نقصده بالذات، وهو التوحيد، في أربعة براهين عظيمة من بين براهينه التي لا تُحصر.

آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، والبعث بعد الموت حق، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.

سعيد النورسي

(١) حضر القائد العام الياباني الجنرال (Nogi Maresuke) إسطنبول سنة ١٩٠٧م. أي أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ووجّه جملة من الأسئلة حول العقيدة وعلامات الساعة إلى المشيخة الإسلامية، فوجّه العلماء بدورهم تلك الأسئلة مع أسئلة أخرى إلى الأستاذ النورسي، أورد قسما من أجوبته التي تخص العقيدة في المقالة الثالثة في مؤلفه «المحاكمات»، وفصله في رسالة «نقطة من معرفة الله جل جلاله»، وخصّ «الشعاع الخامس» للأجوبة التي تخص أشراط الساعة والدجال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن مقصودَنا ومطلوبنا هو: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ (البقرة:٢٥٥) فمن بين براهينه الكلّية التي لا تُعدّ نورد هنا أربعة منها:

البرهان الأول: هو محمد ﷺ. (وقد بسطنا هذا البرهان في رسالة «شعاعات»).[1]

البرهان الثاني: هذا الكون وهذا الإنسان الأكبر، ذلك الكتاب الكبير المنظور.

البرهان الثالث: هو القرآن الكريم.. ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه وهو الكلام المقدس.

البرهان الرابع: الوجدان الحي، أو الفطرة الشاعرة، الذي يمثّل البرزخَ ونقطةَ اتصال عالمَي الغيب والشهادة. فالفطرةُ الشاعرة أو الوجدان نافذةٌ إلى العقل يُنشر منها شعاعُ التوحيد.

البرهان الأول: وهو حقيقة محمد ﷺ

تلك المجهَّزة بالرسالة والإسلام، فمن حيث الرسالة تتضمن شهادةَ أعظمِ إجماعٍ وأوسعِ تواترٍ لجميع الأنبياء عليهم السلام. ومن حيث الإسلام تحمل روحَ الأديان السماوية كلها وتصديقَها المستند إلى الوحي.

فالرسول الكريم ﷺ يبين للبشرية جمعاء وجودَ الله ووحدانيته في جميع أقواله الصادقة المصدّقة بمعجزاته الباهرة، وبشهادة الأنبياء عليهم السلام وتصديق الأديان كلها. فهو ﷺ يُظهر ذلك النورَ باسم المصطفين الأخيار من البشرية الذين اتحدوا في هذه الدعوة.

تُرى هل يمكن أن يتسلل الباطلُ إلى مثل هذه الحقيقة الباهرة التي تنال هذا القدرَ من التصديق، وتبصرها العيونُ النافذة في الحقائق، فتراها واضحة جلية خالصة لا شائبة فيها؟.. كلا.. ثم كلا.

(١) «شعاعات من معرفة النبي ﷺ» رسالة صغيرة من مؤلفات سعيد القديم.

البرهان الثاني: وهو كتاب الكون

نعم، إن حروفَ هذا الكتاب ونقاطه فردا فردا أو مجموعة، يتلو كلٌّ بلسانه الخاص: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤). ويبيّن وجودَ الخالق العظيم ووحدانيته.. فكلُّ ذرة في الكون تشهد شهادة صادقة على وجوب وجود الخالق الحكيم جلّ جلالُه. فبينما تراها تتردّد بين إمكانات واحتمالات غير متناهية، في صفاتها وذاتها وأحوالها ووجودها، إذا بها تنتعش وتسلك طريقا معينا، وتتصف بصفة معينة، وتتكيف بحالة منتظمة، وتسير وفق قانون مسدَّد، وتتوجه إلى قصد معين.. فتنتج حِكَما ومصالحَ تُبهر الألباب.. فتزيد سطوعَ الإيمان بالله في اللطيفة الربانية الممثِّلة لنموذج عوالم الغيب في الإنسان. أفلا تنادي الذرةُ بلسانها الخاص وتصرّح بقصد صانعها الجليل، وبحكمته البالغة؟ فكلُّ ذرة من الذرات كما أنها تدل على الخالق الحكيم بوجودها المنفرد وبصفاتها الخاصة وبكيفياتها المعينة: فإن هذه الدلالة تتزايد، باعتبار كون الذرة جزءا من مركباتٍ متداخلة متصاعدة، ومن حيث الإمكانات والاحتمالات التي تسلكها، إذ لها في كل مركّب مقامٌ، وفي كل مقام نسبةٌ معينة وارتباط معين، وفي كل نسبة لها وظيفةٌ خاصة، وفي كل موقع تحافِظ على التوازن العام، وفي كل وظيفة تثمر مصالحَ شتى وحِكما عديدة. في كل مرتبة إذن تتلو الذرةُ بلسانها الخاص دلائلَ وجوب وجود صانعها الجليل وتُظهر قصدَ خالقها الحكيم، وكأنها ترتّل الآيات الكريمة الدالة على الوحدانية. مَثلُها في هذا كمثل الجندي الذي له وظيفة معينة وارتباط خاص مع كلٍّ من فصيله وفرقته والجيش كله.. ألَا تكون إذن البراهينُ الدالة على الله سبحانه وتعالى أكثر بكثير من عدد ذرات الكون، فما يُقال من أن: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» إنما هي حقيقة صادقةٌ لا مبالغة فيها قط، بل قد تكون قاصرة.

سؤال: لماذا لا يَرى الجميعُ بعقولهم الخالقَ العظيم؟

الجواب: لكمال ظهوره جلَّ وعلا، ولعدم الضد.

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا   مِنَ الْمَلإِ الأعلى إِلَيْكَ رَسَائِلُ

فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلى فيه النظامُ بوضوح تام بحيث يظهر النّظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزةُ القدرة في كل كلمة أو حرف فيه. فتأليفُ هذا الكتاب البديع

فيه من الإعجاز الباهر بحيث لو فرضنا -فرضا محالا- أن كلَّ سبب من الأسباب الطبيعية فاعلٌ مختار، لسجدَت تلك الأسبابُ جميعا -بكمال العجز- أمام ذلك الإعجاز، قائلة: «سبحانك... لا قدرة لنا... إنك أنت العزيز الحكيم». فإنك ترى أن في هذا الكتاب من النَّظم الدقيق المتشابك المتساند بحيث يلزم لإيجاد نقطة في مكانها الصحيح قدرةٌ مطلقة تستطيع إيجاد الكون كلِّه، وذلك لأن كل حرف من حروفه -ولاسيما ما كان ذا حياة- له وجهٌ ناظر إلى كل جملة من جُمل الكتاب، وله عينٌ شاخصة إليها، بل إن كل كلمة فيه لها ارتباط وثيق مع كلمات الكتاب كلها..

فالذي خلق عينَ البعوضة إذن هو خالقُ الشمس أيضا، والذي نظّم معدة البرغوث هو الذي ينظّم المنظومة الشمسية.

فإن شئت راجع كتاب «السانحات» لترى حقيقة الآية الكريمة: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨). ولتشهد كيف يقطُر شهدُ الشهادة الصادقة من لسان معجزة القدرة، النحلِ، الذي يمثّل كلمةً صغيرة من هذا الكتاب. أو إن شئت فتأمل في نقطةٍ من هذا الكتاب، في حيوان مجهري لا يُرى بالعين المجردة، لتشهد كيف أنه يمثل نموذجا مصغرا للكائنات. فالذي كتبَه على هذه الصورة المعجزة كتب الكائنات. فلو أمعنت النظر فيه لرأيته يضم من المكائن الدقيقة والأجهزة البديعة ما يُثبت لك يقينا؛ أنه لا يمكن أن يفوَّض أمرُه إلى الأسباب الجامدة البسيطة الطبيعية التي لا تميز بين الإمكانات، إلّا إذا توهمتَ أن في كل ذرة شعورَ الحكماء وحكمةَ الأطباء ودهاءَ الساسة والحكام، وأنها تتحاور فيما بينها دون وساطة!! وما هذا إلّا خرافة يخجل منها الخرافيون. فلا يمكن أن تكون تلك الماكنة الحية الصغيرة إذن إلّا معجزة قدرة إلهية. ألَا ترى أن العقول تنبهر أمامها؟ فهي إذن ليست من صنع الأسباب الطبيعية، بل من إبداع مَن يقدر على إيجاد الكائنات كلها وينظم شؤونها، إذ هو محال أن يجتمع أُس أساس تلك الأسباب المادية وهو: القوة الجاذبة والقوة الدافعة معا في جزء لا يتجزأ للقيام بتلك الصنعة الحكيمة.

نعم، إن ما يظنونه أساسا لكل شيء من جذب ودفع وحركة وقوة وأمثالها، إنما هو ناموسٌ إلهي يمثل قوانين عادات الله، واسم لها. فهذه القوانين مقبولةٌ بشرط ألّا تنتقل من

كونها قاعدةً إلى طبيعة فاعلة، ومن شيء ذهني إلى حقيقة خارجية، ومن أمرٍ اعتباري إلى حقيقة مشهودة، ومن آلةِ قياس إلى مؤثر حقيقي.

سؤال: مع أن هذه الشهادة قاطعة، فكيف إذَن يعتقد البعضُ بأزلية المادة، وتشكُّل الأنواع من حركات الذرات (أي بالمصادفة) وأمثالها من الأمور؟

الجواب: لمجرد إقناع النفس بشيء آخر -غير الإيمان بالله-، ولأنهم لا يدركون فساد الفكرة بالنظر السطحي التقليدي، ينشأ لديهم هذا الاحتمالُ. ولكن إذا قصَد الإنسانُ وتوجّه بالذات إلى إقناع نفسه، فلابد أنه سيقف على محالية الفكرة وبُعدها عن المنطق والعقل. ولو اعتقد بها فلا يعتقد إلّا بسبب التغافل عن الخالق سبحانه. فما أعجبَ الضلالَ!. إنَّ مَن يضيق عقلُه عن أزلية الله سبحانه وإيجادِهِ الأشياء كلها -وهي صفة لازمة ضرورية للذات الجليلة- كيف يعطي تلك الأزلية والإيجاد إلى ذرات غير متناهية وإلى أشياء عاجزة؟. فلقد اشتهرت حادثة: أنه بينما كان الناس يراقبون هلال العيد، ولم يره أحدٌ، إذا بشيخ هرم يحلف أنه قد رأى الهلال، ثم تبين أن ما رآه لم يكن هلالا بل شعرة بيضاء مقوسة قد تدلت من حاجبه! فأين تلك الشعرة من الهلال؟ وأين حركات الذرات من تشكيل الأنواع؟

إنَّ الإنسان لكونه مكرّما فطرةً يبحث عن الحق دوما، وأثناء بحثه يعثر على الباطل أحيانا فيخفيه في صدره ويحفظه. وقد يقع الضلالُ -بلا اختيار منه- على رأسه أثناء تنقيبه عن الحقيقة، فيظنه حقا، فيلبسه كالقلنسوة على رأسه!

سؤال: ما هذه «الطبيعة» و«القوانين» و«القوى» التي يسلّون بها أنفسهم؟

الجواب: إنَّ الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاما دقيقا بين أفعالِ وعناصرِ وأعضاءِ جسد الخليقة المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ«سنة الله» و«الطبيعة» وهي محصلةُ وخلاصةُ مجموعِ القوانين الاعتبارية الجارية في الكون.

أما ما يسمونه بـ«القوى» فكل منها هو حُكمٌ من أحكام هذه الشريعة.

و«القوانين» كل منها عبارة عن مسألة من مسائلها.

ولكن لاستمرار أحكام هذه الشريعة واطّراد مسائلها توهَّم الخيالُ فجسّمها في «الطبيعة» واعتبرها موجودا خارجيا مؤثّرا وحقيقةً واقعية فاعلة، بينما هي أمر اعتباري ذهني.

فترى النفوسُ التي ترى الخيالَ حقيقةً والأمرَ الاعتباري الذهني أمرا خارجيا ألبَست هذه الطبيعة طورَ المؤثر الحقيقي. والحال لا يقنع القلبُ بأي مبرر، ولا يعجب الفكر بأي مسوغ، بل لا تأنس الحقيقة بكون هذه الطبيعة الجاهلة مصدرا للأشياء. فما ساقهم إلى هذه الفكرة غير المعقولة إلّا توهمُهم إنكار الخالق الجليل، وذلك لعجزهم عن إدراك آثار قدرته المعجزة المحيرة للعقول.

فالطبيعة؛ مطبعةٌ مثالية وليست طابعة، نقشٌ لا نقاشة، قابلة للانفعال لا فاعلة، مِسطر لا مصدر، نِظام لا نَظّام، قانون لا قدرة، شريعة إرادية لا حقيقة خارجية.

فلو قدِم شخص في ريعان الشباب إلى هذا العالم البديع مباشرة، ودخل قصرا فخما مزينا بأروع الآثار، وافترض لنفسه أن ليس هناك من أحد خارج البناء قد قام بتشييده وتزيينه، وبدأ يتحرى السبب الفاعل في أرجاء القصر، ووقع بصرُه على كتاب جامع لأنظمة القصر وخارطته، فإنه يتصور -من جهله- أن هذا الكتاب هو الفاعل، لما ينعكس في شعوره من البحث عن علّة حقيقية، فيضطر إلى هذه العلة بسبب افتراضه الموهوم مقدما! وهكذا البعض يسلّي نفسه بالطبيعة بسبب تغافله عن الخالق الجليل، فيضطر إلى خداع نفسه بنفسه، ويتيه في مثل هذه الأمور الخارجة عن منطق العقل.

والشريعة الإلهية اثنتان:

إحداهما: الشريعة الآتية من صفة الكلام التي تنظّم أفعال العباد الاختياريةَ.

والثانية: الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية والشريعة الفطرية وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون.

فكما أن الشريعة الأولى عبارة عن قوانين معقولة، فإن الشريعة الثانية أيضا عبارة عن مجموع القوانين الاعتبارية، والتي تسمى -خطأً- بالطبيعة فهذه القوانين لا تملك التأثير الحقيقي ولا الإيجاد اللذين هما من خواص القدرة الإلهية.

ولقد شرحنا -أثناء بياننا التوحيد- أن كل شيء مرتبط بالأشياء جميعا، فلا شيء يحدث من دون الأشياء جميعا. فالذي يخلق شيئا قد خلق جميع الأشياء، لذا فليس الخالق لشيء إلّا الواحد الأحد الصمد. بينما الأسباب الطبيعية التي يسوقها أهل الضلالة هي متعددة، فضلا

عن أنها جاهلة لا يعرف بعضها بعضا. علاوة على أنها عمياء، وليس بين يديها إلّا المصادفة العمياء.. فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١).

الخلاصة: أنَّ الإعجاز الباهر الظاهر في النظام والتناسق والاطراد المشاهَد في كتاب الكون الكبير -وهو برهاننا الثاني على التوحيد- يظهر بوضوح تام كالشمس الساطعة أنّ الكون وما فيه ليس إلّا آثار قدرة مطلقة وعلم لا يتناهى وإرادة أزلية.

سؤال: بمَ يثبت النظام والانتظام والتناسق؟

الجواب: إنَّ العلوم الكونية التي توصل إليها الإنسانُ، هي كالحواس لنوع الإنسان وكالجواسيس تكشف له عن مجاهيلَ لا يصلها بنفسه. فبالإستقراء التام يمكنه أن يتوصل إلى كشف ذلك النظام بتلك الحواس والجواسيس. فكل نوع من أنواع الكائنات قد خصّ بعلم أو في طريقه إلى ذلك، لذا يُظهر كلُّ علمٍ ما في نوعه من انتظام ونظام بكليّة قواعده، لأنَّ كل علم في الحقيقة عبارة عن دساتير وقواعد كلية. وكليةُ القواعد تدل على حسن النظام؛ إذ ما لا نظام له لا تجري فيه الكليةُ. فالإنسان مع أنه قد لا يحيط بنفسه بالنظام كلّه إلّا أنه يدركه بجواسيس العلوم، فيَرى أن الإنسانَ الأكبر -وهو العالَم- منظَّمٌ كالإنسان الأصغر سواءً بسواء. فما من شيء إلّا ومبنيّ على أُسس حكيمة، فلا عبث، ولا شيء سدىً. فبرهانُنا هذا ليس قاصرا -كما ترى- على أركان الكائنات وأعضائها، بل يشمل الخلايا وجميع الكائنات الحية، بل يشمل الذرات جميعا، فكلها لسانٌ ذاكر يلهج بالتوحيد، والجميعُ يذكرون معا: «**لا إله إلّا الله**».

البرهان الثالث: هو القرآن الحكيم

إذا ما ألصقتَ أذنك إلى صدر هذا البرهان الناطق ستسمع حتما أنه يردد: «لا إله إلّا هو». فبرهانُنا هذا يمثل شجرة عظيمة متشعبة الأغصان والفروع، تتدلى منها ثمرات الحق والحقيقة من كل جانب بغزارة ووفرة وحيوية، بحيث لا تدع لأحد أن يداخله ريبٌ من أن بذرتها الأصيلة -وهي التوحيد- قوية، حقة، حية؛ إذ لا يخفى أن البذرة الفاسدة لا تؤتي شجرتُها الثمار الغضة كل حين.

أما غصن هذه الشجرة الوارفة الممتدُ إلى عالم الشهادة. فهو يحمل أثمار الأحكام الصائبة الحقة، مثلما أن الغصن العظيم الممتد إلى عالم الغيب غنيٌّ بالثمرات اليانعة الحقة للتوحيد والإيمان بالغيب.

فإذا ما شُوهد هذا البرهان العظيم من جميع جوانبه عُلِم يقينا أنَّ الذي يعلنه واثق كل الثقة، من نتيجته -وهي التوحيد- ومطمئن اطمئنانا لا يشوبه تردد قط، إذ يبني جميع الأمور على هذه النتيجة الرصينة، بل يجعلها حجر الزاوية لكل شيء في الوجود.. فمثل هذا الأساس الراسخ لا يمكن أن يكون تكلّفا وتصنّعا البتة، بل يجعل الإعجاز الباهر على هذا البرهان مستغنيا عن تصديق الآخرين له، فأنباؤه كلها صدق، ثابتة وحق وحقيقة بنفسها.

نعم، إن الجهات الست لهذا البرهان المنير شفافة رائقة، فعليه: الإعجاز الظاهر، وتحته: المنطق والدليل، وفي يمينه: استنطاق العقل، وفي يساره: استشهاد الوجدان، أمامُه وهدفه: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، نقطة استناده: الوحي المحض.. أفيجرأ وهْمٌ أن يقتحم هذا الحصن الحصين؟

وهناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات وهو «معرفة الله» جلّ جلاله:

أولها: منهج الصوفية، المؤسَّس على تزكية النفس والسلوك الإشراقي.

ثانيها: منهج علماء الكلام المبني على «الحدوث والإمكان» في إثبات واجب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، إلّا أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين، وذوَيْ مشاكل، فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.

ثالثها: مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام.

رابعها وأَولاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق إلى الله وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان.

ولبلوغ عرش هذا الأصل هناك أربع وسائل: الإلهام، التعليم، التزكية، التدبر.

هذا وإن للقرآن الكريم في معرفة الله سبحانه، وإثبات وحدانيته طريقين:

الأول: دليل العناية والغاية

إنَّ جميع الآيات الكريمة التي تُعُدّ منافعَ الأشياء، وتذكر حِكَمها، هي نسّاجة لهذا الدليل، ومظاهر لتجلي هذا البرهان.

وزبدة هذا الدليل هي: إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات، وما فيها من رعاية المصالح والحِكم، إذ النظام المندمج في الكائنات، وما فيه من رعاية المصالح والحِكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفيا قاطعا وَهمَ المصادفة والاتفاق الأعمى. لأن الإتقان لا يكون دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهدُ صدق على النظام، ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات، ويلوّح في الوقت نفسه إلى الحِكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغيّر الأطوار.

فإن شئت فانظر إلى علم الحيوان والنبات. فقد ثبت فيهما أن الأنواع التي يزيد عددها على مئتي ألف نوع، كلٌّ له أصل معيّن، وجدّ أكبر -مثلما الإنسان له أصل وهو آدم عليه السلام- وكل فرد من هذه الأنواع الوفيرة كأنه ماكنة بديعة عجيبة تبهر الأفهام. فلا يمكن أن تكون القوانين الموهومة الاعتبارية والأسباب الطبيعية العمياء الجاهلة، موجِدةً لهذه السلاسل العجيبة من الأفراد والأنواع. أي إن كل فرد، وكل نوع، يعلن بذاته أنه صادرٌ مباشرةً من يد القدرة الإلهية الحكيمة.

ويذكّرنا القرآن الكريم بهذا الدليل، في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ (الملك:٣) بل يبيّنه على أفضل وأكمل وجه، إذ كما أنه يأمرنا بالتفكر في المخلوقات فإنه يقرّر في الأذهان هذا الدليل (دليل العناية) بتعداده الفوائد والنعم، ومن بعد ذلك الإحالة إلى العقل في خواتيم الآيات وفواصلها. فينبه العقلَ ويحرك الوجدان في أمثال هذه الآيات: ﴿..أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿...أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ ﴿... أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿... فَٱعۡتَبِرُواْ ...﴾ .

الدليل القرآني الثاني: هو دليل الاختراع

وخلاصته: أنَّ الله تعالى أعطى لكل فرد ولكل نوع، وجودا خاصا، هو منشأُ آثاره المخصوصة، ومنبعُ كمالاته اللائقة، إذ لا نوعَ يتسلسل من الأزل. لأنه من الممكنات، ولبطلان التسلسل. وأن الحقائق لا تنقلب بل ثابتة، والأنواع المتوسطة لا تدوم سلاسلُها، أما تحوُّل الأصنافِ فهو غير انقلاب الحقائق، إذ ما يسمّونه من تغيّر صوَرِ المادة ما هو إلّا حادث، لأن حدوث بعضها مشهود، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة العقلية. فالقوى والصور من حيث إنها عرضية لا تشكّل التباين الجوهري الموجود في الأنواع. فلا يكون العرَض جوهرا.

ففصائل الأنواع إذن وميزات عموم الأعراض وخواصها قد أُبدع واختُرع من العدم البحت، أما التناسل في السلسلة فهو من الشرائط الاعتبارية الاعتيادية. فيا عجبا كيف تستوعب أذهانُ الضلالة أزليةَ المادة -وهي تنافي الأزلية قطعا- بينما تعجز تلك الأذهان عن إدراك أزلية الخالق الجليل التي هي مِن ألزمِ صفاته الضرورية؟

ثم كيف وَجَدت الذراتُ المتناهية في الصغر قوةً وثباتا بحيث تقاوم أوامر القدرة الإلهية وتبقى أزلية، بينما الكون بعظمته منقاد إلى تلك الأوامر انقيادَ طاعة وخضوع؟ وكيف يُسنَد الإبداع والإيجاد -وهما من خواص القدرة الإلهية- إلى أعجزِ شيءٍ وأهونِه وهو الأسباب؟

فالقرآن الكريم يرسّخ هذا الدليل في آياته التي تبحث عن الخلق والإيجاد، ويقرر أن لا مؤثر إلّا الله وحده. فالأسباب لا تأثير لها تأثيرا حقيقيا، وإنما هي ستائرُ أمام عزة القدرة وعظمتها، لئلا يَرى العقلُ مباشرةَ يد القدرة بالأمور الخسيسة بنظره الظاهر، إذ إن لكل شيء جهتين:

إحداهما: جهة المُلك، وهي كالوجه الملوَّن المطليّ للمرآة، تَرِدُه الأضدادُ، وتصبح حقيرة، عظيمة، قبيحة، شريرة.. إلخ. فالأسباب في هذا الوجه موجودة لأجل إظهار العظمة والعزة.

والجهة الثانية: جهة الملكوت، وهي كالوجه الشفاف للمرآة. هذه الجهة جميلة في كل شيء، إذ لا تأثير للأسباب فيها، فالوحدانية تقتضي هذا. وحيث إن كلا من الحياة والروح والنور والوجود قد خرج من يد القدرة الإلهية دون وساطة فالوجهان شفافان جميلان، أي جميل مُلكا وملكوتا.

البرهان الرابع: هو وجدان الإنسان المسمى بالفطرة الشاعرة

لاحظ النكات الأربع التالية:

أولاها: أنَّ الفطرة لا تَكذب، ففي البذرة مَيَلان للنمو، إذا قال: سأنبت، سأثمر، فهو صادق. وفي البيضة ميلان للحياة، إذا قال: سأكون فرخا، فيكون بإذن الله، وهو صادق. وإذا

قال ميلانُ التجمد في غَرفة من ماء: سأحتل مكانا أوسع، فلا يستطيع الحديدُ -رغم صلابته- أن يكذّبه، بل صدقُ قوله يفتت الحديد. فهذه الميول إنما هي تجليات الأوامر التكوينية الصادرة من الإرادة الإلهية.

النكتة الثانية: لا تقتصر حواسُّ الإنسان الظاهرة والباطنة على الحواس الخمس المعروفة: حاسة السمع والذوق والبصر.. إلخ، وإنما له نوافذ كثيرة مطلّة إلى عالم الغيب، فله حواسُ كثيرة غير معلومة. أمثال حاسة السَوق وحاسة الشوق التي لا تَكْذِب ولا تَزلّ.

النكتة الثالثة: لا يمكن أن يكون شيءٌ موهوم مبدءا لحقيقة خارجية؛ فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إن الإنسان مكرم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردى الإنسان إلى أسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال في الكائنات يردّ هذا الاحتمال.

النكتة الرابعة: أنَّ الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطّل العقلُ نفسَه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه، فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه. والحدس -الذي هو سرعة انتقال في الفهم- يحرّكه دائما. وكذا الإلهام -الذي هو الحدس المضاعف- ينوّره دوما. والعشق الإلهي يسوقه ويدفعه دوما إلى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان المغروز في الفطرة. فالانجذاب والجذبة المغروز في الفطرة ليس إلّا من جاذب حقيقي.

وبعد ما تبين لك هذه النكات، أَمعِنْ في الوجدان لترى كيف أنه برهان مودَع في نفسِ كل إنسان يثبت التوحيد، ولتشاهد أيضا أن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد؛ فالعقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله، تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة، كلٌّ بما يلائمه، فتُقَطِّر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة وأهمية، بل تبسطها وتصقلها.. فهذه هي نقطة الاستمداد.

والمعرفة الإلهية نفسها هي نقطة استناد للإنسان أمام تقلبات الحياة ودوّاماتها، وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه، إذ الإنسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كلُّ أمره نظام وحكمة، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إلى ما يملكه من

قوة هزيلة لا تقاوم شيئا من المصائب.. فإنه سينهار حتما من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات أليمة تذكّره بعذاب جهنم. وهذا ما لا يتفق وكمالَ روح الإنسان المكرّم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كله، أي إن هاتين النقطتين: نقطة الاستمداد والاستناد ضروريتان لروح الإنسان. فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثها في وجدان كل إنسان من هاتين النافذتين –نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد– فمهما أطبق العقلُ جفنه ومهما أغمض عينه، فعيون الوجدان مفتّحةٌ دائما.

وهكذا فشهادة هذه البراهين الأربعة العظيمة القاطعة تدلنا على: أن الخالق الجليل كما أنه واجب الوجود أزلي واحد أحد فرد صمد عليم قدير مريد سميع بصير متكلم حي قيوم، فهو متصف كذلك بجميع الأوصاف الجلالية والجمالية، لأن ما في المخلوقات من فيض الكمال إنما هو مقتبس من ظل تجلي كمال خالقه الجليل، فبالضرورة يوجد في الخالق سبحانه من الحُسن والجمال والكمال ما هو أعلى بدرجات غير متناهية وبمراتب مطلقة من عموم ما في الكائنات من الحُسن والكمال والجمال. ثم إن الخالق سبحانه منـزّه عن كل النقائص، لأن النقائص إنما تنشأ عن افتقارِ استعدادِ ماهياتِ الماديات وقابلياتها، وهو سبحانه وتعالى منـزّه عن الماديات، مقدس متعال عن لوازمَ وأوصاف نشأت عن إمكان ماهيات الكائنات، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١).

فسبحان مَن اختفى لشدة ظهوره.. سبحان مَن استتر لعدم ضده.. سبحان مَن احتجب بالأسباب لعزته.

سؤال: ما ترى في «وحدة الوجود»؟

الجواب: إنه استغراق في التوحيد، وتوحيدٌ ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر؛ إذ إن شدة الاستغراق في التوحيد –بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية– يُفضي إلى وحدة القدرة، أي لا مؤثر في الكون إلّا الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى «وحدة الشهود» ثم إلى «وحدة الوجود». ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد... فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلا على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحُه من تأثير الأسباب، ولم تتجرد من دائرتها، إذا ما تكلّم عن وحدة الوجود يتجاوز

حدَّه. والذين يتكلمون به إنما حصروا نظرهم في «واجب الوجود» حصرا؛ بحيث تجرّدوا عن الممكنات، فأصبحوا لا يرون إلّا وجودا واحدا، بل موجودا واحدا.. نعم، إن رؤية النتيجة ضمن الدليل، أي رؤية الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شيء ذوقي ولا يمكن بلوغها إلّا باستغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جداول الأكوان، وسريانِ الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤيةُ تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقول: إن إدراك هذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلّا أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة السارية في الموجودات، وحينما حصر أهلُ الفكر والعقل هذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة.

ثم إن بين ما لدى الفلاسفة الماديين، ومن وهنَت عقيدتُهم من المفكرين من مذهب «وحدة الوجود» وما لدى الأولياء منه بونا شاسعا وفروقا كثيرة بل إنهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الأول: أن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في «واجب الوجود» واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجودَ الكائنات ولم يعودوا يرون في الوجود إلّا هو. أما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان) فقد صرفوا كلَّ تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن إدراك الألوهية بل أَوْلَوا المادة أهميةً عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلّا المادة، بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة بل استغنَوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني: أنَّ ما لدى الصوفية من «وحدة الوجود» تتضمن «وحدة الشهود» في حين أن ما لدى الآخرين يتضمن «وحدة الموجود».

الفرق الثالث: أنَّ مسلك الأولياء مسلك ذوقي؛ بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع: يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظرا تبعيا ثانويا إلى المخلوقات، بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولا وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: أنَّ الأولياء عبّادُ الله ومحبّوه، بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع، من الظلمة الدامسة.

تنوير

لو افتُرِض -مثلا- أن الكرة الأرضية قد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جدا ومختلفة الألوان، فلا شك أن كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها.. فهذا الفيض الخيالي ليس الشمسَ بذاتها ولا ضياءها بعينه.

فلو نطقت ألوانُ الأزهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضياء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها: إنَّ الشمس مثلي. أو إن الشمس تخصّني أنا.

آنْ خيَاَلَاتِى كِه دَامِ اَوْلِياسْت عَكْسِ مَهْرُويَانِ بُوسْتَانِ خُدَاسْت[1]

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هو: الفناء والسُكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.

«تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ الله وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا»[2]

حَقِيقَةُ الْمَرْءِ لَيْسَ الْمَرْءُ يُدْرِكُهَا فَكَيْفَ كَيْفِيَّةُ الْجَبَّارِ ذِي الْقِدَمِ
هُوَ الَّذِي أَبْدَعَ الْأَشْيَاَ وَأَنْشَأَهَا فَكَيْفَ يُدْرِكُهُ مُسْتَحْدَثُ النَّسَمِ[3]

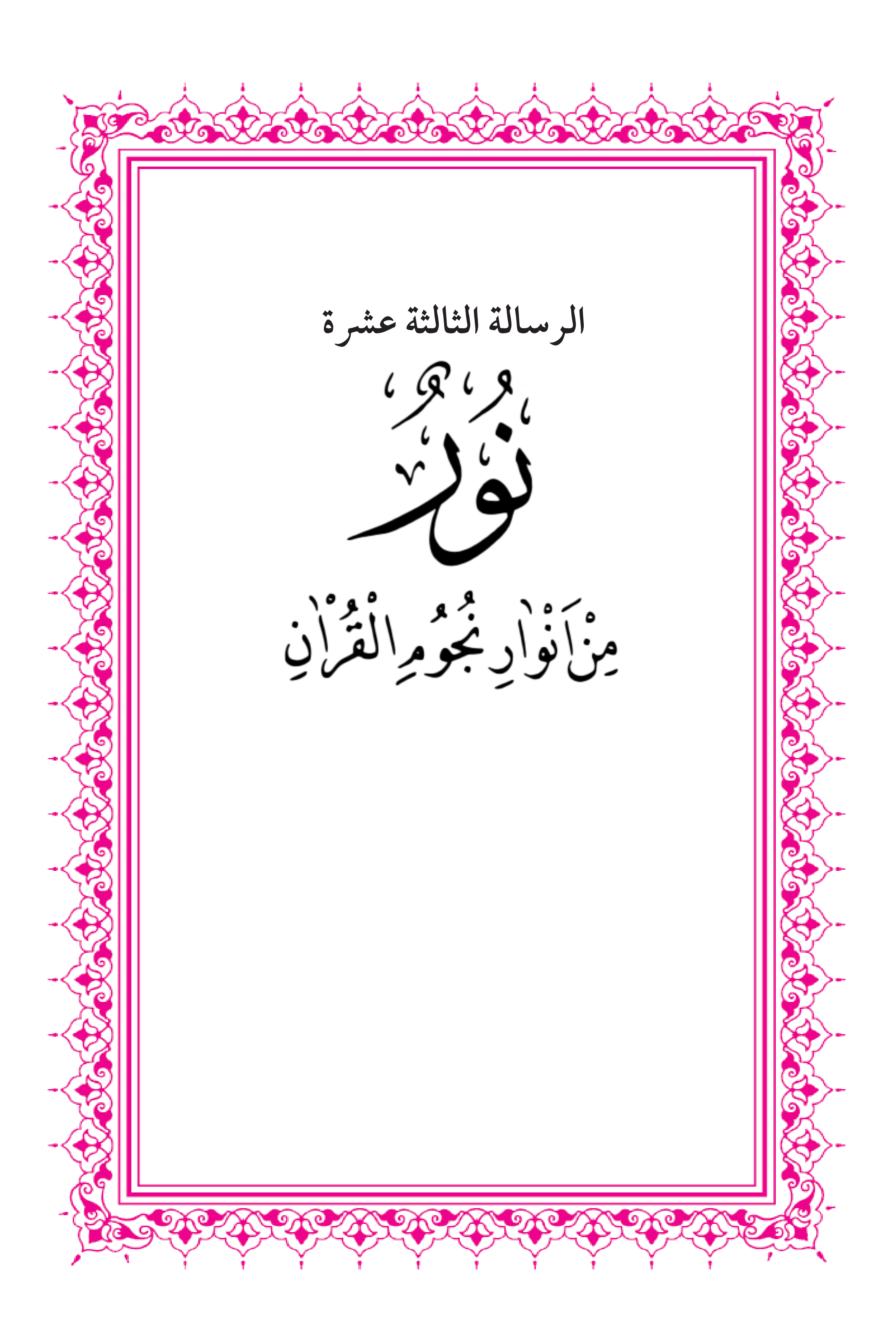
* * *

هذا ولم يُدرج هنا القسم الثاني -الذي يخص بقاء الروح- من رسالة «نقطة» حيث أوفته حقّ الإيفاء «الكلمةُ التاسعة والعشرون» و«الكلمة العاشرة - الحشر». فنحيل القارئ الكريم إليهما. أما القسم الثالث الذي هو عبارة عن أربعة عشر درسا فقد نُشر مستقلا تحت عنوان: «المدخل إلى النور».

(١) «إن الخيالات التي هي شِراكُ الأولياء إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في حديقة الله» والبيت لجلال الدين الرومي في مثنويه ١/ ٣.

(٢) الطبراني، المعجم الأوسط ٦٤٥٦؛ اللالكائي، السنة ١/ ١١٩/ ١-٢؛ البيهقي، شعب الإيمان ١/ ٧٥.

(٣) ينسب إلى الإمام علي كرّم الله وجهه، ديوان الإمام علي ص ١٨٥ - بيروت.



الرسالة الثالثة عشرة

نُور

مِنْ أَنْوَارِ نُجُومِ الْقُرْآنِ

باسمه سبحانه

اعلم لقد كشف هذه الرسالةَ الباحثُ الدؤوب أخونا الكريم «نجم الدين شاهين أر» وذلك أثناء تحرّيه وتنقيبه عن آثار الأستاذ النورسي، فوجدها ضمن مجموعة هائلة من الأوراق المتفرقة المدفونة تحت منصّة الوعظ في الجامع الملاصق لمنـزل الأستاذ النورسي في منفاه: «بارلا». ولمّا كانت الرسالة مؤلّفةً باللغة العربية سلّمها لي مشكورا وقد قمتُ بترجمتها إلى اللغة التركية وضممتها إلى ترجمتي للمثنوي العربي.

والمخطوط هو بخط جيّد للحافظ توفيق الشامي، وقد أجرى عليه الأستاذ تصحيحاتٍ دقيقة. والرسالة بحد ذاتها أصول موجزة وأسس ملخّصة لأجزاء من رسائل النور، ومن هنا فلها أهمية خاصة.

وإذ أُقدّم هذا المخطوط لأخي الكريم إحسان قاسم الصالحي أبارك له عمله في التحقيق والنشر راجيا له التوفيق.[1]

عبد القادر بادِلّي

أورفة

* * *

(١) وقد وضعنا أرقام الصفحات كما في المخطوط بين قوسين مركنين [ ].

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الأعراف:٤٣).

والصلاة والسلام على حجّةِ الحقّ على الخَلق سلطانِ الأنبياء وبرهان الأصفياء حبيبِ ربِّ العالمين وعلى آله وصحبه أبد الآبدين.

اعلم[١] أنه ما مِنْ سهل ولا جبلٍ ولا وادٍ ولا بادٍ ولا بحرٍ ولا بَرٍّ ولا قطعةٍ ولا بقعة في أقطار الأرض إلّا وقد تزاحمَتْ عليها أنواعُ سكّاتِ الأحدِ الصمدِ، حتى كأن هذا الجبلَ -مثلا- يُعلَم أنه مملوكُه سبحانه، بعدد ما فيه من مماليكهِ المتوطنةِ فيهِ من أقسام الحيواناتِ وأصناف الأشجار.. وكذا يُعرَف أنّه مصنوعُهُ تعالى بعدد شهاداتِ ما ضُرِبَ عليه من سِكّاتهِ المتلألئة عليه من أجناسِ النباتات وأنواع الطيور.. ويُفهَم أنَّهُ مكتوبُهُ جلّ جَلاله بعدد ما ضُرِب على جوانبِهِ من خواتمهِ سبحانَهُ من مُزيّنات الأزهار وجميلات الأثمار.

فإذا عَرَفْتَ أن النَّحلَ والنَّخلَ -مثلا- مالُهُ وصُنعه سبحانه تَعرفُ أنّ كل ما يوجَد فيه نحلةٌ أو نخلة هو أيضا مُلكه. وهكذا الكل شاهدُ الكلِّ. وكلٌّ دليلُ كلٍّ.

والدليل على أنّ السِكّاتِ والخواتمَ في جميع الأقطار لِمَلِكٍ واحدٍ ومالكٍ صمدٍ وحدةُ زمانِ ضَربها ووضعِها. ففي آنٍ واحدٍ يُوجَد ما لا يُحدّ في أقطار الأرض من المتماثلات من أجناس الأشياء. فما هذا التوافقُ في الوجود والإيجاد والصورة والإنشاء والزمان إلّا لأن صانعَها واحد أحد لا يمنعُه فعل عن فعل ولا يشغله شأن عن شأن ولا يلهيه قول عن قول ولا يختلط عليه سؤال -قولا أو حاجةً أو استعدادا- بسؤالٍ كذلك، **جلّ جلالُه ولا إله إلّا هو.**

اعلم[٢] أنّك إن شئت أن ترشُف إعجازيةً أُفيضتْ على قلبي من عُمّان القرآن.. فاستمعْ بقلبٍ شهيد ما أخاطب نفسي.

(١) تفصيل هذا البحث في «الكلمة الثانية والعشرين»، لاسيما اللمعة السادسة والثامنة منها.
(٢) توضيح هذا البحث في «الكلمة الثانية والعشرين» وبخاصة اللمعة الرابعة والثامنة، وكذا اللمعة الثالثة والعشرون، رسالة «الطبيعة».

أيها السعيد الغافل حتى عن نفسه وعن غفلته! إنَّ الغفلةَ والكفرانَ والكفرَ تأسّستْ على محالات متضاعفة متسلسلة غير محصورة؛ إذ إذا نظرتَ إلى أيّ شيءٍ كان -لاسيما من ذوي الحياة- ثم غفلتَ بسبب عدمِ الإسناد إليه تعالى (أي إلى الإله الواحد) لَزِمتك هذه المحالات العجيبةُ بقبولِ آلهاتٍ بعدد أجزاء التراب والهواء والماء، بل بعدد الذرات ومركباتها، بل بعدد تجليات الله.. ولو أمكن عدمُ الإسناد لما لَزِم من فرضِ وقوعِهِ محالٌ -إذ إذا لزم المحال فهو ممتنعٌ، لا ممكنٌ، مع أنه لا يلزم محال واحد- بل محالات غير محصورة.

أمّا لزومُ آلهاتٍ بعددِ أجزاءِ التراب، فلأنّك تعلم أن أيّ جزء من التراب ترى، يصلُح لحصول أيِّ نبات وشجر وأيَّة زهرة وثمرة.. فإن شئتَ عي نَ اليقين فاملأ قصعتك هذه من التراب.. ثم ادفن فيها نواة التين حتى تتشجّر تينةً مثمرة.. ثم اقلعها وادفنْ بَدَلَها نواةَ الرمانةِ. ثم بعدُ نواةَ التّفاح.. ثم.. وثم.. وثم.. حتى تستوعب جميعَ الأشجار المثمرة، وقد ترى كم ما بينها من التفاوت في الجهازات المنظمة والتشكلات الموزونة.

مثلاً: لو كانت «الماكينة القَدَرية» المندمجة في نواة التينة «كالفابريقة» التي تصنع السكّرَ من النباتاتِ، لكانت «الميكانيكية القُدرتية» المندرجة في نواة الرمانة كالماكينة التي تنسج الحرير وهكذا فقس. ثم ادفن بدلَ نواة الأثمار كلَّ واحد من بذور الأزهار، بذرا فبذرا، واحدا بعد واحد إلى أن لا تبقى بذرة في الدنيا إلّا وقد دخلتْ في قصعتك ذرّةً ميتةً جامدةً ثم خرجتْ حيةً متسنبلةً متزهرّة.

فيا صاحب القصعة إنْ حصلتْ غفلتُك من مذهب المادّيين؛ لزِمك البتة وبالقطع واليقين الأوليّ -لإدامة غفلتك- أن تقبل وجودَ «فابريقات» معنوية بعدد الأشجار «وماكيناتٍ» بعدد الأزهار في قصعتك هذه. فلو كان المرجع «الطبيعةَ» لزم أن يكون للطبيعة في كل جزء من التراب بل في ذرّةٍ مطبعاتٌ غير محصورة.. وما النواتات والبذور إلّا أمور متماثلة في المادة، ومشابهة في التشكيل، ومتقاربة في الشكل.. وما هي إلّا كمثل مثقالٍ واحد من قطن مع أنه يُنسَج منه قناطيرُ مقنطرة من أثواب الحرير والجوخ والصوف وغيرها. وآيةُ ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ (النساء:١) وآيةُ ﴿ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ﴾ (النور:٤٥) وغيرهما، تشير إلى أن المادة التي تُخلَقون منها لمّا كانت واحدة لا مركبةً كمثل أحدِكم بل أصغر، لا

يمكن أن تكون مصدرا تنشقّون منه أو منشأً تُصنَعون منه، للزوم كونِ المصنوع منه أكبرَ أو مساويا للمصنوع، على أن إيجاد البذور والنواتات -التي كل منها مع بساطتها كأنها مِسطر قُدّرت خيوطُه بهندسة القَدَر، ومع صغرها كأنّها أصل متضمن لمجموع دساتيرِ وجودِ ما هو كأصلها- مع إبداعها في رقائقِ نهاياتِ دقائقِ حدودِ أغصان الشجر وأعضاء النبات.. من أصدقِ شاهد على أن خلْقَها هكذا لا يُتصوّر إلّا ممن خَلق السماوات والأرض، الذي تتساوى بالنسبة إلى قدرته الذراتُ والشموس.

وإن نشأتْ غفلتُك من مذهب الطبيعيين، لَزِمك لحفظِ غفلتك -إن كنتَ ذا شعور- أن تقبلَ في قصعتك وجودَ قدرةٍ بصيرةٍ خارقةٍ، بحيث تقتدر على تصوير جميع الأثمار والأزهار وإنشائها وإبداعها.. وكذا وجودَ علمٍ محيط بتفاصيل خواصها وخاصيّاتها.. وكذا وجودَ إرادة علمية بتفاريق موازينها ولوازماتها.. وهكذا من سائر الأسماء المطلقة المحيطة التي لا يمكن أن يكون مسمىً لها إلّا مَن يطوي ﴿ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء:١٠٤) ومَنْ؛ كما أن الأرضَ قبضتُه يتصرف فيها كيفما يريد، كذلك القلبُ بين إصبعيه يقلّبه كيفما يشاء، لا يشغله كبير عن صغير، ولا يلهيه خطير عن حقير.. وإلّا من يتجلّى بنور قدرته على العرش والشمس والذرّ، باليُسر والتساوي؛ كانعكاس الشمس على البحر والمرآة والقطرات بكمال السهولة والمساواة في ماهية الفيض وإن تفاوتت الكيفيةُ التابعة للقابلية.

كما يشهد لهذا السرّ ما يشاهَد في الربيع من الجود المطلق نوعا.. في الإتقان الأكمل -شخصا-، في السهولة المطلقة، في السرعة المطلقة في إيجاد ما لا يحدّ من أفرادِ ما لا يُعدّ من أنواع الأزهار والأثمار المنثورة والمنشورة في غالب وجه الأرض في زمان واحد.

ثم أفرِغ قصعَتك في هذا التراب واملأها من صُبرة الأرض واعمل في هذا أيضا كل المعاملة الجارية في أخيه الأول، ثم جدِّد الكيل والمعاملة إلى أن تكيل كلَّ التراب.

كما يشهد لمساواة المعاملة في كلّ كَيلٍ جريانُ المعاملة بالفعل في الجملة في غالب وجه التراب بظهور أشتاتِ أفرادِ كثيرٍ من الأنواع في ما صادفته من صفحات التراب في سيرك في الأرض.

ثم توجّه إلى الهواء والماء والضياء فَزِن وكِلْ بقسطاس قصعتك تخرج لك النتيجةُ سواءً بسواء.

هذا بالنظر إلى جميع أفراد جميع الأنواع، والحال أن كل فرد واحد من كلّ زهرة وثمرة وحيوان وحُوَيْنَةٍ كقطرة محلوبةٍ معصورة من كل الكون، ومأخوذة من أجزاء العالم بموازين دقيقة حسّاسة وبنظامات رقيقة جسّاسة لا يقتدر على خلقها هكذا إلّا مَن في قبضته تصرُّف كلّ الكون، فيعصر تلك القطرةَ من تلك الكائنات بموازين ومقادير قَدَره إن شاء النشوّ،[1] أو يُبدعُ مثالا مصغرا يكتب في نسخته مآل ما في الكائنات، إن أراد الإبداعَ وإيجاد الأيس من الليس،[2] كما هو الحق أو الأكثر المطلق.

وأما لزوم ذي الكفر والكفران آلهةً بعدد ذرّات العالم، فقد مرّ في «حَباب» و«قطرة» وغيرهما.. [٤] وأما بعدد تجليّات الله، فقد مرّ في ذيل «شعلة» زبدتُه؛ كما أن تماثيلَ الشمس المتجلية على الشفافات والقطرات إذا لم تُسند إلى الشمس الواحدة بالتجلّي السهل، لزِم قبول شموس بالأصالة في كلّ شفاف وقطرة وذرة متشمسة.

فإن تفهمتَ ما تلوتُ على نفسي، تفطنتَ للمعةٍ من أنوار إعجاز بيان القرآن من جهةِ المعنى، إذ هذه المسألة رشحةٌ من رشحات بحر إعجازه الزاخر المعنوي.

اعلم[3] أن الإيمانَ إكسيرٌ يقلِبُ فحمَ المادة الفانية ألماسا مصنّعا مرصّعا باقيا بمعناه بنسبته إلى الصّانع الباقي.. والإنسانُ بالكفر يعكس فينتكس، إذ كما أنه يوجد في مصنوعات البشر ما تكون قيمةُ مادته خمسةَ دراهم، وقيمةُ صنعته ألوف الدنانير، وتتزايد القيمة بكون صانعه شخصا مشهورا خارقا عتيقا. كذلك في مصنوعات الصانع القديم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف:٥٤) وزيّن السماءَ بمصابيحَ، والأرضَ بأزاهير. بل من أغرب مصنوعاته «الإنسانُ» الذي مادتُه «صلصالٌ كالفخار» ينكسر ويتمزّق بسرعة، ما قيمتُه إلّا شيءٌ قليل.. وأما ما فيه من الصنعة فأمرٌ عظيمٌ تزيد قيمتُها على قيمة المادة بدرجات لا تعد ولا تحصى.. إذ الإنسانُ بنقش الصنعة قصيدةٌ منظومةٌ من لطائف آثار جلوات الأسماء الحسنى.. ومرآةٌ مجلوةٌ لتجلياتِ أشعّاتِ شؤونِ شمس الأزل والأبد.

(١) النشوء: النماء.
(٢) الأيس: الوجود. والليس: العدم الصرف.
(٣) «الكلمة الثالثة والعشرون» توضح هذا المبحث.

فالإيمان نسبةٌ يَنسِبُ الإنسانَ إلى مالكه، وجهةُ النسبة إنما تنظر إلى الصّنعة، فيكون مدارُ النظر حينئذٍ إلى المصنوعية والصنعة. فبالإيمان تزيد قيمةُ الإنسان إلى أن تصيرَ الجنةُ ثمنَه، وتكون الخلافةُ رتبتَه، ويطيق على حمل الأمانة.. وأما الكفر فهو قاطعُ النسبةِ، وقاطعُ الوصلة.. فإذا انقطعت النسبةُ استتر الصنعُ، وانتكست الصنعةُ واختفى التجلي، وظهرت المادةُ، وانقلبت المرآةُ، وسقطت القيمةُ إلى دركة يتمنّى الكافرُ العدمَ، أو ينقلبَ ترابا.

الحاصل: أنَّ الإنسان كماكينةٍ مشتملة على ملايينِ آلاتِ الوزنِ وميزاناتِ الفهم، توزَن بها مدّخراتُ خزينة الرحمة، وجواهر ثروة الكنـز الخفي، حتى أُودعَ في اللسان فقط جهازاتٌ للوزن بعدد المطعومات، ليُحِسَّ ذوو اللّسان بأنواع دقائقِ نِعَم الحق. فإذا استعمل تلك الماكينةَ أمينُ يمين يُمن الإيمان أثمرت ثمراتٍ وأورثت آثارا عند مَن لا يضلّ ولا ينسى.. وأما إذا ما وقعت في يد الكفر صارت كمثل ماكينة غالية القيمة بلا مثيل، أَخَذَها وحشيّ لا يعرف ما هي، فاستعملها في خدمة النّار –كآلة عادية– حتى أحرقها.

فيا مَن بيده ملكوتُ كلِّ شيء، وبيده مقاليدُ كل شيء، ويا مَن هو آخذٌ بناصيةِ كل شيء، ويا مَن عنده خزائن كل شيء، لاتكِلنا إلى أنفسنا، وارحمنا، ونوّر قلوبَنا بنور الإيمان والقرآن.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣)

اعلم[1] أيها السكران السفيه الغافل الضّال! تورطتَ في مزبلة الدنيا فتُريد إضلالَ الناس بتصوير تلك المزبلة معدنَ السّعادة ليتخَفّف عنك. فإن أمكن لك قلبُ أربعِ حقائق فاصنع ما شئت.

أحدها: الموت؛ مع أنّك لا تقلِب، بل تبدّل الموتَ الذي هو تبديلٌ لمكان في نظر المؤمن إعداما أبديا.

والثاني: العجز؛ في مقابلة الحاجات والأعداء الغير المحصورين، مع أنك تحوّل العجزَ المنجر للاستناد إلى القدير المطلق –كأن العجزَ داعٍ يدعوك إليه– إلى عجز مطلقٍ مع اليُتم وعدم نقطة الاستناد.

(١) «الكلمة الثامنة» توضح هذا المبحث بتمثيل لطيف.

والثالث: الفقر؛ في الأكثر المطلق، مع أنك تصرِف الفقر -الذي هو وسيلة التوجه إلى خزينة الغني المطلق كأن الفقر تذكرةُ دعوة- إلى فقرٍ مظلمٍ مؤلم متزايد بتزايدِ رذائل المدنية.

والرابع: الزوال؛ إذ زوالُ اللذة ألمٌ دائم. فلا خيرَ في لذةٍ لا تدوم. مع أنك تحوِّل الزوال -الذي هو وسيلة الوصول إلى اللذة الباقية إن قارنَ نيةً صالحة- زوالا أليما، لا إلى بديلٍ، مورثا آلاما وآثاما. فمَن ينتظرُ الموتَ دائما، ويحيط به العجزُ، ويستولي عليه الفقر، وهو على جناح السفر.. إنما ينخدع بسفسطياتك حالةَ السُكر فقط، والسُكر لا يدوم. [٥] فالتي تسمّيها سعادةَ الحياة، هي عينُ شقاوةِ الحياة من كل الوجوه، وإنما تكون سعادةً ظاهرية بشرط دفع الموت أو نسيانه على الإطلاق.. ورفعِ العجز أو الغرور المطلق.. ودفعِ الفقر. أو الجنة المطلقة ودوام الخلود أو تسكين جرخ الفلك.

نبّهني الله وإياكم عن نوم الغفلة الذي تظنون فيه اليقظةَ الكاذبة -التي هي انغماسٌ في غمرات النوم- انتباها، وأفاقني الله وإياكم من الجنون المطلق الذي تتوهمونه عقلا منورا.

اعلم وانظر كيف أدرجَ الصانعُ القدير ملايينَ عوالمَ من أنواع الحيوانات والنباتات في سطح الأرض، كلُّ عالَمٍ كبحرٍ صارت قطراتٍ للتوظيف، كتوظيف النمل لتنظيف وجه الأرض من جنائزِ الحُوَينات. وقد أطبقت تلك القطرات على وجه الأرض.. أو ككلٍّ ذي أجزاء صار ككلّيّ ذي جزئيات.

كما أن الماءَ والهواء والضياء والتراب لاسيما الثلج كقطراتٍ صارت بحرا، لتماثُل الوظيفة، ووحدةِ الأمر، وتلقي الأمر الوحداني. فأجزاء الأربعة ككلياتٍ تلك مشعورةٌ معلومة موظفةٌ. فتداخلت تلك العوالمُ الغيرُ المحصورة واختلط الكل بالكل واشتبك، مع أن الصانعَ الحكيم ميّز كلَّ واحدٍ عن كلِّ واحدٍ بتشخصّاته المخصوصة ولوازماته المشخّصة، فأظهر نهايةَ الامتياز في غاية الاختلاط، بحيث يَضعُ عالمَ النمل أو الذباب -مثلا- فيما بين أجزاءِ عوالم ذوي الحياة بإيجاد يخصّه ثم يرفعه بإماتة تخصّه، كأن سطحَ الأرض وطنُه فقط، فلا تتشوشُ حياةُ الخاصة ولا مماتُها المعيّن. فنسبةُ عالَمٍ إلى سائر العوالم المجاورة له، كنسبة حُسن انتظامِ تربيةِ فردٍ -مغمور في الأفراد- إلى تدبير النوع. لا يشغل الصانعَ هذا عن ذاك، ولا ذاكَ عن هذا.

فيا مَن غشى بصرَه بالطبيعة! وختم قلبَه بالطبع! إنْ تصورتَ الطبيعةَ الموهومة -التي لو تحققت لكانت كالمطبعة- طابعةً صانعةً لَزمك أن ترى للطبيعة في كلّ جزءٍ من التراب مطبعات مكمَّلات تزيد على جميع مطابع المدنيين.

اعلم أيها الحيوان! لا تفتخر هكذا على النبات؛ إذ تفنُّن الصنعةِ في أختك أتمُّ منها فيك. ألَا ترى أن أجناسَ الحيوانات متقاربةٌ أو متماثلة في لحومهم مع أن لحومَ أجناسِ الثمراتِ حتى أنواعها بل حتى أصنافها متفاوتةٌ متخالفة؟ فهذا أمارةٌ على أن قلمَ القُدرة تأنّقَ فيها. وكذا إنَّ بركةَ النسلِ في الحيوانِ والبشرِ إذا كانت سبعا ففي النباتِ والشجر سبعون، وسبعُ مائة، وسبعة آلاف. إلّا السمك فإنه -لأجل ضعف الحسيات الحيوانية فيه- ملحَقٌ بالنباتات. تشير هذه الحالة إلى أنه للإطعام كالحَبّ.. فهذا علامةُ الخيرية والأهمية فيه.

وكذا إن أُختك النبات والشجرَ مخدومةٌ متوكِّلةٌ، يجيء إليها رزقُها ورزقُ أولادِها الكثيرة. حتى كأنَّ جرثومةَ كلِّ شجرٍ متصلةٌ بخزينة الرحمة، لها منها منفذٌ إليها. فتقسمُ الرحمةُ عليها ما يوافقُ حاجاتِها المتخالفةَ فتعطي الوالدتين لبنا خالصا، ولِبَنَات الرمّان شرابا طهورا، ولأبناء الزيتون دهنا مباركا.. وللجوز زيتا منوّرا.. وهكذا فهذا آية «الحُرمة».[1]

فيا أيها الحيوان المتكبر إنّ سبب ترجيحِ مرجوحِك بمراتِبَ، عليك بثلاث مراتبَ هو أنانيتُك ومرضُك واختيارُكْ فأَسْلِمْ تسْلَمْ.

﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ (النساء:٢٨)

اعلم[2] أيها الإنسان! لا تتكبّر على الحيوان، إن سببَ رفعتِك على سائر الحيوانات إنما هو ضعفُك وعجزك، كما أنَّ الصبيَّ يحكم على والديه وإخوانه بقدرة عَجزه وقوة ضَعفه.. هل ترى في الحيوانات أعجزَ منك في تحصيل لوازمات الحياة، بل ما يحصل لك بالتجارب والتدرّس في عشرين سنةً -مما يلزم لحفظ حياتك- يحصل للحيوان في عشرين يوما، وبعضا في عشرين ساعة، وبعضا في عشرين دقيقة، بل فردُه برأسه يساوي في حفظ الحياة الحيوانية جماعةً متعاونةً منكم. كما أن فردا منكم يساوي أنواعا منهم، من جهة كمال الإنسانية المنحصرة في الإسلامية والعبودية.

(١) أي الاحترام والتقدير.
(٢) «الكلمة الثالثة والعشرون» توضح هذا المبحث بتفصيل.

يا هذا ويا أنا! إمّا تصير أدنى من أدنى الحيوانات وأذلَّ وأعجَزَ. وإمّا تصير أعزَّ وأكملَ من أنواعها. فاختَر ما شئت.. فإذ هذا هكذا فاعرف عجزَك وضعفك. واعلم بأن قدرتَك وقوتَك في الدعاء والبكاء لدى مالكك.

وأما ما تفتخرُ به من المصنوعات الإنسانية فمن أثَرِ إلهامه وخَلْقه وإكرامه، ليجمعَ بك أشتاتَ الأنواع المتخالفة، لإظهار حُسنٍ غريب، وإيجادِ كتابةٍ عجيبةٍ، وتشهير مصنوعاته المختلفة مجتمعةً، وإذاقة مراتبِ نِعَمه الحاصلة من تمزيج بسائط النعم بهندسةِ هَوَسات الإنسان.

اعلم[1] يا مَن يتوسوس من اختلافات الروايات في أمثالِ مسألة المهدي، وقرب الساعة والملاحم الاستقبالية! أتريدُ إيمانا ضروريا في كل مسألة؟ حتى في المسائل الفرعية التي ليست من ضروريات الاعتقاد؟! بل يكفي فيها القبول التسليمي، وعدم الردّ، لا الإذعان اليقيني القصدي حتى تحتاج إلى طلب البرهان القطعي.

ألَا تعلم أن متشابهات القرآن كما تحتاج إلى التأويل كذلك مشكلات الأخبار تحتاج إلى التعبير والتفسير؟ فإذا صادفَك روايةٌ مخالفةٌ للواقع -في نظرك الظاهري- فمع احتمالِ أن تكون من الإسرائيليات، وأن تكون من أقوال الرّواة، وأن تكون من مستنبَطات الناقلين، وأن تكون من كشفيات الأولياء المُحدّثين المحتاجةِ للتعبير، وأن تكون من المسموعات المتعارَفة بين الناس، يذكرها النبي عليه الصلاة والسلام لا للتبليغ السماوي بل للمصاحبة العُرفية للتنبيه.. يلزم الناظرَ أن لا يَقْصر النظرَ على الظاهر، بل يؤوّلَ بتأويل تمثيلي كنائي مسوقٍ لمقصدٍ إرشادي.. أو يفسّرَ بتعبير كتعبير النائم في نومه ما رآه اليقظانُ في يقظته.. فكما تُعبّر أيّها اليقظان ما رآه النائم، كذلك فعبِّر أيُّها النائم -إن استطعت- في غفلة هذه الحياة ما رآه اليقظانُ الذي لا ينام قلبُه الذي هو مظهرُ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (النجم:١٧).

ثم إن الحكمة في إبهام أجَل الشخص وموتهِ.. «لينتظرَه دائما فيستعدَّ لآخرته» هي الحكمة في إبهام الساعة، التي هي موتُ الدنيا لينتظرَها أبناءُ الدنيا.

ومن هذا السر؛ انتظَرَها أهلُ كلِّ عصرٍ من عصرِ السعادة إلى الآن، كما هي الحكمة

(١) راجع إن شئت توضيحا لهذا المبحث «الكلمة الرابعة والعشرين-الغصن الثالث».

الدافعة للغفلة العامة، وهذا الانتظار من هذه الحكمة، لا من إرشاد النبوة في التعيين والحكم بالانتظار للوقوع، بل بالانتظار الذي يقتضيه الإبهام لدفع الغفلة. ولقد سها مَن لم يميّز الحكمةَ من العلّة.

وأما المهديُّ، فلِتقوية القوة المعنوية وردّ اليأس عند استيلاء الضلالة، ولتشجيع ذوي الهمم المجدّدين في الانسلاك في سلك نوراني إمامُه ورأسُه المهدي رضي الله تعالى عنه. فهذه الحكمة تقتضي الإبهامَ ليُمكن الانتظارُ في كلّ زمان.

اعلم[1] أيها المسلم في الظاهر والاسمِ! مَثَلُك في تقليد الكفار في السفاهة ومعارضة الأحكام الإسلامية، كمثل فردٍ من عشيرة يرى رجلا عدوّا من عشيرة أخرى يَذمُّ عشيرةَ الأول ويزيّف رئيسَها ويحقّر عاداتها، مستندا إلى عشيرته متمدِّحا بمفاخرها. فيظنّ ذلك المسكين أَنْ لَو ذمّ هو أيضا عشيرةَ نفسِه وحقّر عاداتها صار كذلك الرجل العدو! ولا يعرف ذلك أنّهُ بهذا الردِ والارتداد، إما مجنونٌ جريء أو رذيل دنيء يكسر ظهرَهُ فيصير يتيما طريدا.

ألا ترى أن الشخص الأوروبائي ينكر محمّدا عليه الصلاة والسلام ولكن يتسلى «بالخرستيانية»[2] المموّهة وبمدنيتهم المخصوصة المزوجة بعاداتهم الملّية، فيمكن أن يبقى في روحه بعضُ الأخلاق الحسنة الدنيوية، وبعض الهمم العالية لأجل هذه الحياة الدنيوية. فلا يرى بسبب هذا التسلي ظلماتِ روحِه ولا يُتْمَ قلبِه.

وأما أنت أيّها المرتد! إن أنكرت محمدا عليه الصلاة والسلام وآثاره لا يمكن لك قبولُ واحدٍ من الأنبياء. بل ولا قبولُ ربّك، بل ولا قبولُ شيء من الكمالات الحقيقية. فانظر إلى دهشة التخريبات في روحك، وأبصرْ شدة الظلمات في وجدانك، ووحشة اليُتم واليأس في قلبك، وعن قريب يترشح قبحُ باطنِك إلى ظاهرك فيصير حُسنُكم وجميلتُكم المرتدّة أقبحَ من أقبح كافر. فالمرتدُّ محرومٌ من الحياتين دون الكافر، إذ الكافرُ لهُ حقُّ حياةٍ إن لم يُحارِبْ.

اعلم[3] يا من يضيق صدرُه ولا يسع فكرُه عظمةَ بعضِ المسائل من الحقائق القرآنية كأمثالِ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ (يونس:٣) و ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ

(١) المسألة الثالثة من «رسالة الثمرة – الشعاع الحادي عشر» توضح هذا المبحث.
(٢) الخرستيانية: كلمة يونانية يقصد بها: النصرانية.
(٣) إن شئت التفصيل راجع «الكلمة الرابعة عشرة».

﴿ ٱلْبَصَرِ ﴾ (النحل:٧٧) و ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨) و ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر:٦٨) و ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) وأمثالها...

إن كتابَ الكونِ المشهود بآياته الشؤونية تفسّر تلك الآيات القرآنية، وتقرِّبُها إلى فهمك بإراءة كثيرٍ من نظائرها المشهودة لعينك، في تلافيف اختلاف الليل والنهار، وفي معاطفِ تحولِ الفصول والأعصار.

فإن شئت الشهودَ فافتح كنزَ آيةِ ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (الروم:٥٠) لترى بعينك ما لا يُعد من المسائل العظيمة نظائرَ ما استبعدتَ!

مثلا: تشاهِد في الحشر الربيعي إحياءَ آلافِ عوالمَ من أنواع النباتات والحيوانات التي ماتت في القيامة الخريفية، وإيجادَ كلٍّ منها بنظامات مخصوصة وموازينَ معينة في أيام معدودة. مع أن لكلٍّ واحدٍ من أكثر تلك العوالم وسعةً بحيث يُزيّن أكثر وجه الأرض كبرقعٍ منمنم.. وهكذا مما لا يحد ولا يحصى من الشّواهد المشهودة الصادقة.

فمما لا يحدّ من تلك العوالم انظُر إلى عالم الشجر.. ومما لا يعد من أنواعها إلى نوع شجر التفاح.. ومما لا يحصى من أفرادها إلى هذه الشجرة! لترى ثلاث حشرٍ ونشرٍ[1] متعاقبة متداخلة.. بنشر أوراقها المهتزّة المنتظَمة.. وحشرِ أزهارها المزينة المنظومة.. وإحياءِ أثمارها اللذيذة الموزونة.. فمن يفعلُ هذه الأفاعيلَ في سطح الأرض ويكتب بتقليب صحيفةِ الشتاء أُلوفَ صحائفَ كصفحة الأرض في الوسعة، هو الذي يُخبر عن نفسه بأنّه ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إلى آخر ما مرّ.

اعلم[2] أن لكل أحدٍ علاقاتٍ بالمحبة والشفقة مع أقاربه، ثم مع أفراد عشيرته، ثم مع أفراد ملّته، ثم مع أفراد نوعه، ثم مع أبناء جنسه، ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألَمَ بمصائبهم ويتلذذَ بسعاداتهم وإن لم يشعر. لاسيما مع مَن أحبّه لكماله من جماهير الأنبياء

---

(١) أي ثلاثة أنواع من الحشر والنشر.

(٢) «المسألة الثامنة من رسالة الثمرة» فيها بيان قيّم لهذا المبحث.

والأولياء والأتقياء. وكم من أحدٍ لاسيما إذا كانت «أُمّا» تفدي نفسَها وتزيل راحتَها لعلاقةٍ واحدة، ولمحبوب واحدٍ مما لا يُحد من أَوِدَّائها.. فالغافل الحاكمُ على نفسه وعلى أودّائه حالةُ الغفلةِ باليُتم وعدم التعهد مُبتلىً بحملِ آلامٍ لا تعد منهم، مع آلام نفسه وإن لم تشعر نفسُه السكرانةُ بعذابِ قلبه وروحه! فلو ظفر هذا الغافلُ بجنةٍ -مثلا- صار مِثل الـذُبيبةِ المتلمعة في الليل لها لمعةُ نورٍ لكن استولت الظلماتُ الموحشة على جميع مناظرها ومحبوباتها ومأنوساتها، مع أن نورها الذاتي قد يضرّها باراءتها لرقيبها. وأما إذا طرد الغفلةَ وردّ المُلك إلى مالكه الحقيقي ينفتح لقلبه منفذٌ إلى أشعّات شمسٍ سرمد، خطُّ استوائها الأزلُ والأبد، ورأى أن كلَّ هذه المحبّات المنتشرةِ على هذه المحبوبات الكثيرة كانت لهذا الواحد الذي يكفي عن الكلِّ ويُنسيك الكلَّ، ولا يكفي عنه الكلُّ، بل ولا عن تجلٍّ من تجليات حبّه. فلو دخل هذا المؤمن الموقن جهنّما -مثلا- أمكنَ له بإذن الله الظفرُ بجنّة روحانية بالتلذذ بالعلم بأن كل أودّائه مصونون من الفراق الأبدي، ومنعَّمون بالسعادة السرمدية.

فيا أيها السعيدُ الغافل؛ اترك نفسَك ووهمَ مالكيتك؛ تظفر بسلامة جميع محبوباتك وسعاداتهم؛ بتسليمهم لمالكهم الكريم الرحيم.

اعلم[1] أن كل شيء بخلقِه سبحانه، إلّا أن الشرور والقبائحَ والقصور والمساوي إنّما تترتّب على لوازمات ماهيّات الممكنات وقابلياتها، فيُجيب الخالقُ الجواد المطلق بالإيجاد، كلَّ ما تسألُه الممكناتُ بألسنةِ استعداداتها.. فالحُسن راجعٌ إليه بالوجهين: أي بالخلق والاقتضاء. وأما القبحُ والقصور، فبالخلق راجعٌ إليه، دون المقاضاة والسؤال. فله الحمدُ دائما؛ إذ السؤال في الحُسن والخيرُ كالجواب منه ومن أسمائه. وله التسبيح دائما؛ إذ سؤالُ الشر والقبح من الممكنات، والجواب المتضمن لمحاسن كثيرة مترتبةٌ على وجود القبح منه سبحانه ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (النساء:٧٩).

اعلم أن أنواع المصنوعات في العالم لاسيّما أنواع النباتات والحيوانات في سطح الأرض كاللفائف المبسوطة المفروشة على وجه الأرض بعضٌ على بعضٍ، وكالأقمصة المنمنمة المتراكبة المتداخلة، لبستْها الأرضُ أو العالمُ. لكن بعضها أرقّ، وبعضها أقصر، وبعضها منفصل الأنساج، وبعضها يتمزّق خريفا ويتجدّد ربيعا، وفيها كلها نسجٌ موزون بانسجام منظوم.

(١) «رسالة القدر – الكلمة السادسة والعشرون» فيها شرح وافٍ.

فتعانقُ الأنواع وتعاونُها بشوقٍ، وترافُق الأفراد وتجاورُها بحسنِ معاشرةٍ تشهد: بأن الكلَّ نسجُ نسّاجٍ واحدٍ وخُدّام سيّد واحدٍ. ونسجُ كلِّ واحدٍ منها بنسجٍ مخصوصٍ بلا مزجٍ، وبإسداءٍ[1] ممتازٍ بلا درجٍ، وإلحامٍ[2] معيّن بلا التحام، في تلافيف تلك اللّفائف المشتبكة المختلطة بلا تشوش ولا خلطٍ ولا غلطٍ يشهد كعين اليقين: بأنها صنعةُ مَن لا نهايةَ لقدرته وحكمته.

وإن ما يشاهَد من ترتّب أمثال التزيين القصدي على جميع المتخالفات يشهد: بأن مَن زيّن قصرَ العالم بمزيّنات ألوان الأنواع؛ هو الذي خلق لوازماته وأساساته وأجزاءه. لَعَمرُك إن التزيينَ في الصنعة من أهمّ المقاصد المهمّة المعرِّفة للصانع، ومن أشفِّ مرايا التودد والتعرُّف، ومن ألطف عنوانات التحبّب.

فإن شئت فانظر مما لا يتناهى من الأمثلة إلى هذه الواحدة وهي: الزّهرةُ الصّفراءُ الشمسية المتبرقعةُ ليلا والمتبرّجة نهارا، الشابةُ من أول الربيع إلى آخر الخريف. صيّرها صانعُها مسكنا لطيفا نظيفا لبعض الحوينات اللطيفة تجول مسبّحاتٍ -جماعةٌ منها في واحدةٍ منها- كأنّها حديقةٌ لها أو قصر أو قرية.

فسبحان مَن ظهر في كل شيء لُطفُه.. ويعرِّف الخلائقَ قدرتَه، ويتعرّف متودّدا إلى عباده بتزيينات مصنوعاته، **جلّ جلالُه ولا إله إلّا هو.**

[٩] ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ (الأنعام:٧٣).. ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء:٢٣).

اعلم[3] أنه لا يُسأل عما يفعلُ. فلا حقّ لشيء ولا لعلمٍ ولحكمةٍ أن يَسأل عنه؛ إذ يتصرف في مُلكه كيف يشاء وهو عليم حكيم، يعلم ما لا نعلم. فعدمُ علمِنا بحكمةِ شيء لا يدلّ على عدمها؛ إذ شهود الحكمة في الأكثر المطلق شاهدٌ على وجود حكمة مستورة عنا هنا أيضا.

مثلا: نتألّم من موت ذوي الحياة، ولا نرى حُسنا في قِصَر عُمر بعض الحيوانات اللطيفة، ولا نفهم وجه الرحمة في انقراض بعض المصنوعات الحيويّة الطالبة للحياة في أمثال

(١) مصدر أسدى الثوب: جعل له سدى، وهو ما يمد طولا في النسج خلاف اللحمة.
(٢) يقال: ألحم الثوب: نسجه. واللحمة خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى.
(٣) «الكلمة السابعة عشرة» توضح مسألة وجه الرحمة في الموت والانقراض الذي يعترى الموجودات.

الشتاء.. والحال أن هذا التألمَ والاعتراضَ المعنويَّ إنّما ينشأ من جهلنا بحقيقة الحال، إذ ما من ذي حياة إلّا وهو كَنَفَرٍ موظفٍ وعبدٍ مأمورٍ بإيفاء وظائفِ تكاليفِ الحياة، الكاتبة تلك الوظائف تسبيحاتٍ وتحميداتٍ بحساب خالق الموت والحياة وباسمه. وحقوقُ الحياة وغاياتها عائدة إليه سبحانه، يكفي لشهوده آنٌ، بل تكفي النيّةُ الحالية بالقوة، كما في نيّة النواتات والبذور. فما الموتُ إلّا ترخيصٌ وتحرير وإذنٌ وترويجٌ ودعوةُ حضور، كما قال: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٨) على أن من كمال رحمته أن لا يُبقِي ذوي الحياة في أرذل العمر، وأن لا يديمهم في شدائد العمر في الشرائط المزعجة، كترخيصِ عشاق الأزاهير وسفرائها، والمتلذذين بالخضراوات وأُمرائها من الوظيفة التي صارت كُلفةً بعد ما كانت لذةً، فاستعملَهم صانعُهم، واستخدمَهم سيّدُهم، في مدة شوقهم مع موافقة شرائط الحياة وسهولةِ حملِ تكاليفِ الحياة. فإذ تعبّس في وجوههم شرائطُ الحياة بأمثال الشيب والشتاء واستيلاءِ سلطنتِها بتحولات الشؤون وانطفاء شوقهم، أمدَّهُم رحمةُ الرحمن بالإذن والترخيص. إلى أن يُرسل أمثالَهم فينسجون على منوالهم فيسبّحون مولاهم.. يبتدئون في أعمالهم من حيث انتهت أعمالُ أسلافهم.

فيا أيّها الغافل المتفرعنُ الزاعمُ أنّك مالكٌ نفسَك وحياتَك، والمتوهمُ أن سعادتك في بقاء حياتك بالراحة! أخطأتَ وخَلَطتَ وغلِطتَ وعصيتَ وَقِسْتَ الحيوانَ الممنون[1] المأمور والمتمثلَ المسرور على نفسك الناسيةِ لمالكها، فتراءت لكَ وَلْوَلَةُ جلوات الرحمة العامة في الشؤون «وا ويلاه» نعيات المأتم العمومي، فلا تتألم لهم حتى يكون «التألم» شفقةً ممدوحة، بل «تألم» لنفسك المفروضة في موقعهم، الفانيةِ بطريق القياس فيهم.

وأما تسليط[2] بعض الحيوانات على بعضٍ؛ فلحمل الضّعفاء على الحزم والتيقظ والجوالية والخفّة واستعمال جهازاتها اللطيفة وإخراج استعداداتها من القوة إلى الفعل وغير ذلك.. فوازِن بين الأهلية والوحشية كَيْ ترى هذه الحكمة ظاهرةً باهرةً.

اعلم[3] أن سرّ تَخالُف أحكام الأولياء في مشهوداتهم مع الاتفاق في الأصول.. وأن سرّ إجمال الأنبياء السالفين وإبهام الأولياء العارفين في غير التوحيد من سائر أركان الإيمان

(١) السعيد والقانع.
(٢) «النقطة الثانية من الكلمة الثامنة عشرة» تشرح الحكمة في هذا.
(٣) راجع -إن شئت- بالتفصيل «الكلمة الرابعة والعشرين - الغصن الثاني».

-إذ قد أجمل قسمٌ من أولئك في الجملة في تفاصيل الحشر وغيره وأبهم بعض من هؤلاء في ما سوى معرفةِ الله، مع أن القرآن والمنـزَل عليه القرآنُ فصّلا كلًّا من المقاصد الإيمانية بما لا مزيدَ عليه تفصيلا قصديا واضحا- وأن حكمتها؛ هو توسّط البرازخ.. وتفاوت القابليّات.. وتنوّع ألوان جلوات الأسماء في المظاهر الكلية والجزئية والظلية والأصلية.

[١٠] مثلا - ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ - أن الشمسَ لها تجلٍّ كلّي بإذن خالقها على الأزاهير، ثم تجلٍّ أخصّ على نوعٍ نوعٍ منها، ثم تجلٍّ جزئيّ على زهرةٍ زهرةٍ، على قول مَن يقول: إن ألوانَها من استحالات ضياء الشمس.. وكذا لها تنويرٌ وإفاضة كلّية بإذن مُبدِعها على السيّارات والقمر، مع أن القمر يفيض ذلك النور الظلّيّ المُستفاد منها على البحار وحَباباتها وقطراتها وعلى التراب وشفافاته وعلى الهواء وذراته.. وكذا لها انعكاسٌ صافٍ كلّي بأمر فاطرها في مرايا جوّ الهواء ووجوه البحار. ثم لها انعكاساتٌ جزئية وتماثيلُ صغيرةٌ في الظاهر على حبابات وجهِ البحر، وقطرات الماء، ورشحات الهواء، وزُجَيجات الثلج.

فللشمس إلى كلّ زهرة، وقطرة، ورشحة في الوجوه الثلاثة طريقان:

أحدهما: بالأصالة وبلا برزخ، بلا حجاب.. الممثّل لمنهاج فيض النبوة.

والثاني: تتوسّط فيها البرازخ، وتُصبَغ الجلوات بقابليات المرايا والمظاهر، وهذا ممثلٌ لمسلك الولاية.

فللزهرة، والقطرة، والرشحة أن تقول في الأول: أنَا مرآة شمس العالم، وفي الثاني: إنما تقول: أنَا مرآةُ شمسي أو شمسٍ نوعي. مع أن شمسَ نفسها أو نوعها أو جنسها لا تسع -وهي في مضيقات البرازخ- كلَّ لوازمات الشمس المطلقة من ربط السيارات بها وتسخين الأرض وتنويرها وتحريك حياة النباتات وغيرها، بل إنما تسندها إلى المقيد المشهود لها، من جهة أن المقيَّدَ عينُ المطلق، لكن هذا الحُكم له، عقليٌّ لا شهودي. بل قد يصادم شهودَه.

يا رفيقي فلنفرض أنفسنا إياها؛ فَصِرْ أنت يا ذا النفس الكثيفة الترابية «زهرة» تضمّن لونُها ضياءً محلّلًا متضمنا للتمثال المتزج للشمس. وليكن هذا الفيلسوف المنغمس في الأسباب «قطرة» تأخذ من القمر ظلَّ ضوء الشمس. أنا قائلا: «لا مؤثر في الكون إلا الله»، شَبْنمة[1] فقيرة خالية من كل لَون، صيرتْ مثالَ عين الشمس إنسانَ عينيها.

(١) ندى.

ثم إن جاذبة محبة مَن بإحسانه تَنوَّرْنا وتَزيَّنّا، حَرّكَتْنا لطلبِ قربه وقصدِ شهوده. فسلكتِ «أيتها الزهرة» إلى أن وصلت إلى المرتبة الكلية لجنس الزهرة (المرآةُ الكثيفة التي تحلل فيها ألوانُ ضياء تمثال الشمس). فلا تخلصُ من التفرق والتشتت بين خصوصيات ألوان المقيدات، ولا تسلمُ من الفراق بتستر عين الشمس بحُجب البرازخ والصور، إلّا أن ترفع رأسَك من الولوغ في محبَّة ذاتك، وتُصعِد نظَرك من الافتتان والتلذذ والتفاخر بمحاسن نفسك إلى عين الشمس في وجه السماء. وتُوجّهَ بباطن وجهك المتوجّه إلى التراب بجلب الرزق المرسَل المسرِع إليك -وإن لم تتوجه إليه ولم تعلم به- إلى هذه الشمس.. إذ أنت مرآتُها كما أنها قطرةٌ متلمّعة من بحر السماء صارت مرآةً للَمعةٍ من أنوار قدرة «النور الحق» سبحانه.. ومع ذلك لا تراها كما هي في نفسها بل متلونةً بلون صفاتك ومرصادك ومقيدةً بقيود قابلياتك.

وذهبتَ أيها «القطرة» إلى أن ترقيتَ إلى القمر بسلّمِ فلسفتك، فرأيت القمَر كثيفا مظلما لا ضياءَ في جرمه بل ولا حياة. فصار سعيُك وعملُك هباءً منثورا. فلا تخلُصُ من ظلمات اليأس ووحشة اليُتم ودهشة الاضطراب بين ازعاجات الغِيلان المتشاكسين إلّا بترك ليل الطبيعة، والتوجّه إلى شمس الحقيقة، واليقين بأن الأنوارَ الليلية ظلال للأضواء الشمسية؛ ومع ذلك لا يصفو لك شهود الشمس وصفاؤها، وإنما تتجلى لك خلف مألوفاتك ومعلوماتك بصبغٍ مِن لون قابلياتك.

فاذهبي أنت أيتها «الرشحة» [١١] الفقيرةُ الضعيفة بالتبخر راكبةً على البخار إلى الهواء، ثم انقلبي نارا، ثم تحوّلي نورا، ثم اركبي على شعاع من أشعات جلوات الضياء.. فأين ما كنتِ من تلك المراتب لكِ منفذ صافٍ إلى العين،[١] تراها بالعين اليقين -وإن لم يكن بالعين[٢]- وترى لزوم لوازماتها لها، ولا يأخذ على يدك في إثبات آثار سلطنتها الذاتية ضيقُ البرازخ، ولا قيدُ القابليات، ولا صِغَر المرايا.

إذ تفطنت أنّ ما يُشاهَد في المظاهر جلواتُها لا هي هي أي ذاتُها في ذاتها. فالواصلون من هذه الطرق الثلاثة متفاوتون في تفاصيل المزايا والشهود وإن اتفقوا على الحق والتصديق.

(١) المقصود: الشمس.
(٢) أي بالبصر.

اعلم[١] أيها الإنسان أنك واحدٌ قياسيٌّ بخمسة وجوه:

إذ أنت فهرستةٌ جامعةٌ لغرائب آثار جلوات الأسماء الحسنى.

ومقياسٌ بجزئيات صفاتك وربوبيتك الموهومة لمعرفة صفاته المحيطة وفهمها بتصوّر حدودٍ موهومة.

وميزانٌ لدرجات نفي الشِركة في الآفاق، بحيث إذا أذعنتَ بأنك كلك ملكه، آمنتَ بأن لا شريك له في العالم. وإذا أعطيتَ ثلثَك له وثلثَك للأسباب وثلثك لنفسك حصل هذا التقسم في جميع الكائنات. وإذا ملّكتَ أنانيتَك درهما من مُلكه لزِمك أن تصدّق مالكيةَ كل فردٍ وكل سببٍ لدرهمٍ فتُقسِّمَ مالَ الله على ما سواه.

وكذا خريطةٌ للعلوم الكونية والمعارف الآفاقية، فإذا انفتحت «أنت»[٢] لك انكشف لك الكون، وإذا أُنسيتَ نفسَك انغلق عليك المعارف الآفاقية، وانقلبت إلى جهالات مركبات وسفسطيات ما لا يَعنيات.

وكذا خزينةُ مفاتيح لمطلسَمات الكنوز المخفية في الأسماء الإلهية؛ فإذا رأيت فيك عجزا بلا نهاية؛ شَاهدتَ لخالقك قدرةً بلا غاية.. وإذا شاهدتَ فيك فقرا بلا غاية، رأيت لرازقك غناءً بلا نهاية.. وهكذا كأن جلواتِ أسمائه حروف نورية مكتوبة في ظلمات حالاتك. فبدرجة ظهور شدة الظلمة تظهر نورانيةُ الكتابة.

فأنت في الوجه الأول حاملٌ، وقابلٌ، ومَظهرٌ، ليس لك منك شيء، بل أنت قصيدةٌ منظومة للسان كن فيكون.

وأما في الوجه الخامس فأنت عاملٌ، وفاعلٌ، ومَعكِسٌ -برابطة الضدية- وسائل بألسنة الاستعدادات والاحتياجات والأفعال والأقوال، لك منك كل السيئات والقصورات والظلمات والفاقات، ولفاطرك منك كلُّ الحسنات والكمالات والنورانيات والفيوضات. وكذا إن الأول يُظهر الأصلَ، والخامس يُظهر مراتبَ الاسم المتجلّي. كما أن الحُسنَ بلا ملاحظة القبح واحد، وبه تتفاضل مراتب الحُسن ودرجاته.

---

(١) توضيح هذا المبحث في «اللمعة الثلاثين-اسم الله القيوم» و«النافذة الحادية والثلاثين من الكلمة الثالثة والثلاثين».
(٢) أي أنانيتك أنت.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١)

اعلم[١] أيها الإنسان ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:٦) الذي يشتري منك مُلكَه الذي عندك أمانةً ليحفظه لك من الضياع.. ولتترقّى قيمتُه من درجةٍ إلى ألوفٍ.. ويعطيك بَدَله ثمنا عظيما.. ويبقيه [١٢] في يدك لاستفادتك.. ويتكفّل عنك كلفةَ تعهّدِه.. ربحا في ربح في ربح في ربح في ربح.

وأنت أيها الغافل لا تبيعُه.. فتخون في أمانته.. وتُسقط قيمتَه من الثريا إلى الثّرى.. ثم يضيع بلا فائدة.. فيفوتُك ذلك الثمنُ العظيم، وتبقى في ذمتك تكاليفُ تعهّده وآثامه ويثقل ظهرَك كلفةُ محافظته وآلامه.. خسارة في خسارة في خسارة في خسارة.

مَثَلُكَ في هذهِ المعاملةِ كَمثَل رجل مسكين في رأس جبل، أصابت ذلك الجبلَ زلزلةٌ جعلت يتساقط منه في أعماق الأودية جميعُ أمثال ذلك الرجل فيتمزّق ما في أيديهم، ويَرى هذه الحالةَ وهو أيضا «على شفا جرف هار» أوشك أن ينهار به في البوار. مع أن في يده أمانةً وهي ماكينة مرصّعة عجيبة، فيها موازين لا تعد وآلات لا تحد وفوائد لا تُحصى وثمرات لا تستقصى. فقال له مالك الماكينة كرما ورحمةً: أريد أن أشتري منك مالي الذي في يدك كأنه مالُك –لئلا تنكسر ضايعا بسقوطك– فأحافظها وأسلّمها لك حين خروجك من الوادي بصورة باقية لا تنكسر أبدا. ولأجل أن تتصرف في آلاتها وتستعمل موازينها في بساتيني الواسعة وخزائني المشحونة، فتتزايد قيمتُها وتأخذ أنواع أجوراتها وثمراتها، وإلّا صارت كآلة عادية ساقطةِ القيمة مستعمَلة في مضيقات بطنك وغارَيك.[٢] إذ أين بطنك وشهوتك وأين البساتين والخزائن الإلهية، وكيف يسع غاراك استعمالَ ماكينة تضيق عنها الدنيا. وها أنا أعطيك بدلَها ثمنا عظيما، ولا أخرجها من يدك في مدة بقائك في هذا الجبل، بل آخذ حلقتها العليا ليتخفف عنك ثقلها ولا تتعجزَ بكلفتها. فإن قبلتَ البيع فتصرّفت فيها باسمي وحسابي كنفر يعمل في ما في يده باسم السلطان وحسابه بلا خوف مما يأتي ولا حزن على ما مضى، وإن لم تقبل هذا البيع الذي فيه ربح بخمسة وجوه؛ خسرتَ بخمسة وجوه وصرت خائنا في الأمانة مسؤولا عن ضياعها.

(١) «الكلمة السادسة» شرحت هذا المبحث بمثال جميل.

(٢) الغاران: فم الإنسان وفرجه، وقيل: هما البطن والفرج؛ ومنه قيل: المرء يسعى لِغارَيْه؛ وقال: ألَم تر أن الدهر يوم وليلة، وأنّ الفتَى يسعَى لغاريه دائبا؟ (لسان العرب).

«خُداءِ بُركَرَمخود ملك خودرا مى خَرَد أز تو
بهاء بى كران داده نِكَه دارد بَراءِ تو»[(١)]

ودرسُ القرآن للبشر وتعليمه له: «البيع»، يقول له: بع تربح.. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:٦٤)، وأما درسُ فلسفةِ مدنيةِ الكفار يقول: تملّك، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ (الأنعام:٢٩). فانظر التفاوتَ بين الهدى المنوَّر، والدّهاء المزوَّر.

اعلم[(٢)]....

[٢٤] **اعلم**[(٣)] أنه سبحانه قريبٌ، وأنت بعيدٌ، إذ كما أنه معك، هو مع جميع أفراد نوعك.. وكما أنه مع نوعك، هو مع جميع أفراد جنسك.. وكما أنّه هو مع جنسك، هو مع جميع جزئيات ذوي الحياة، وكما أنه مع جميع ذوي الحياة هو مع سائر طبقات الموجودات ودوائرها، طبقةً إلى طبقة جميع الموجودات وإلى طبقة الذرّات والأثير والروحانيّات والمعنويات وإلى ما لا يحيط به الوهمُ.

فإذا أردتَ القربَ من جهتك؛ لابدّ أن تمرّ منك متبسطا مترفّعا من الجزئية إلى مقام كليةِ النوع، ثم تذهب مترقّيا في الكلية بإطلاق الرّوح في التجرّد إلى مقام الجنس، وهكذا إلى قطعِ قريبٍ من سبعين ألفَ حجاب؛ إذ إنّه كما أنّه عندك فهو عند كلّ شيء. فإنما تكون عنده -من عندك- إن كنتَ عند كلِّ شيء، ثم بعده يصادفك ما لا يُحد من مسافةِ ما بين الإمكان والوجوب.. كيف الوصول إلى بعيدٍ في قربه ودونَهُ ألوف سرادقات؟ ودونهنَّ حتوفٌ، فإذ كان هذا هكذا فأفْنِ منْكَ بُعدَكَ لتبقى به وتَقرُب بقُربه.

اعلم[(٤)]...

[٣١]....

اعلم أن الله أقربُ إلينا منّا، ونحن بعيدون بلا نهايةٍ. ومن شواهد قُربه تصرّفُه، وإذا

---

(١) يعني: إنَّ الله ذا الكرم الواسع يشتري مُلكه منك، وأعطى مقابل ذلك ثمنا غاليا، ثم يحافظ عليه لأجلك.
(٢) المباحث الموجودة هنا ابتداء من ص [١٢] إلى ص [١٦] ومن ص [١٧] الى ص [٢٤] من المخطوط منشورة في رسائل متفرقة من «المثنوي العربي النوري».
(٣) هذه المسألة الدقيقة تتناولها «الكلمة الرابعة عشرة» بتفصيل وتوضيح.
(٤) هذا المبحث من هذه الصفحة [٢٤] منشور في «المثنوي العربي النوري».

طلبناه عند ما يتصرّف فيه لا نجده إلّا «عند كلّ شيء»، وإذا وصلنا بالترقّي إلى «عند كلّ شيء» بالإحاطة بدائرة الإمكان، لا نجده أيضا إلّا خَلفَ الحُجُب النورانية في دائرة الوجوب من سُرادقات الأسماء والصفات والشؤونات في العزّة والعظمة والكبرياء، وأما إذا طلبناه من جهة قُربه بترك نفسنا، فالأمر سهل إن شاء الله لا حول ولا قوة إلّا بالله.

اعلم[١]....

[٣٦] **اعلم**[٢] يا مَن يحب أن يعرفَ الفرقَ بين حكمةِ القرآن وحكمةِ الفلسفة! أن مثَلَهما كمثل قرآنٍ كُتبت في حروفاته بتذهيبات متنوعة ونقوش مزيّنة بعضُها بالذهب والفضة وبعضها بالألماس والزمرّد وبعضها بالجواهر والعقيق.. وهكذا. وقرأه شخصان فاستحسَناه فقالا: فلنكتبْ على محاسن هذا الشيء المزيّن كتابا؛ فكتب كل منهما كتابا.

أمّا أحدهما: فهو أجنبيّ لا يعرف من العربية حرفا واحدا حتى لا يعرفُ أنّ مشهودَه كتابٌ، لكن له مهارة في الهندسة والتصوير ومعرفة الجواهر وخاصياتها، فكتب كتابا عظيما يبحث عن نقوش الحروف ومناسباتها وجواهرها وخاصياتها ووضعياتها وتعريفاتها.

وأما الآخر: فحينما رآه عرف أنه كتاب مبين، وقرآن حكيم، فلم يشتغل بنقوش حروفه المزيّنة؛ بل اشتغل بما هو أعلى وأغلى وألطفُ وأشرفُ وأزينُ وأحسن بملايين المراتب مما اشتغل به رفيقُه، وهو بيان جواهرِ معانيه وأنوارِ أسراره، فكتب تفسيرا يبحث عن حقائق الآيات.

يا مَن له عقل! فبالله عليك، لأيّ هذين الكتابين يُقال إنّه كتاب حكمةِ هذا القرآن؟ فإذ فهمتَ التمثيلَ فانظر إلى وجه الحقيقة: أما القرآن فهو هذا العالمُ وأما الشخصان فكُتُب الفلسفة والحكماء، والقرآنُ وتلامذته.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣)

اعلم[٣] يا أيها السعيد! أنّ السعادةَ في التوكل، فتوكّلْ على الله لتستريحَ في الدنيا وتستفيد في الأخرى.

(١) المباحث الموجودة ضمن صفحات المخطوط [٣١-٣٥] منشورة في «المثنوي العربي النوري».
(٢) راجع -إن شئت- «الكلمة الثانية عشرة -الأساس الأول والثاني والثالث».
(٣) «الكلمة الثالثة والعشرون» فيها توضيح وافٍ.

مَثَلُ المتوكل وغيرِ المتوكل الذي يرجع إلى التوكل، كَمَثَلِ رجلَين حاملَين على ظهورهما ورؤوسهما أحمالا ثقيلةً، فدخلا سفينةً، فأما أحدُهما فوضع حِمله في السفينة وقَعد على متاعِه مستريحا. وأما الآخر فَلِبلاهَتِهِ في غروره لم يضع حملَه، فقيل له: اطرحْ حِملك الثقيلَ على السفينة. فقال: أنا قويّ. فقيل له: إن السفينةَ التي حملتْكَ أقوى وأحفظُ، مع أن ظهرَك ورأسَك -المتزايدَ ضعفُهما- لا يُطيقانِ حملَ هذهِ الأحمالِ المتزايدِ ثقُلها. فقيل له: بل سلامتُك أيضا مربوطةٌ بوضع حملك؛ إذا رآك صاحبُ السفينة في هذه الوضعيةِ فإما يقول: هو مجنونٌ فليُطردْ أو خائن يتّهمُ سفينتَنا ويستهزئُ بنا، فليُحبس. بل لا تخلص من السخرية واستهزاء الخلق، إذ لمّا لم تكفِ قوتُك لدوامِ الحمل اضطررتَ إلى التصنّع المشير إلى الرياء، وإلى التكبر المشير إلى الضعف، وإلى الغرور المشير إلى العجز، فتصيرُ أضحوكةً يضحكُ من حالِك الناسُ. فتفطَّنَ إلى خطئه. فرجع من عناده فوضع حِمْلَهُ فقعد عليه. فتنفّس فاستراح فقال: جزاك الله خيرا أرشدتني إلى ما فيه راحتي وسلامتي وحيثيتي.

[٥٠] النكتة الخامسة

اعلم أن في ختم الآيات في الأغلب بفذلكات متضمنة للأسماء الحسنى، أو بعينها، أو متضمنة للأمر بالتفكر والحوالة على العقل، أو متضمنة لأمر كلّي من المقاصد القرآنية، شرارات من نور حكمته العلوية ورشاشات من ماء هدايته الإلهية؛ إذ القرآن الحكيم ببيانه الإعجازي، يبسط الآثار وأفعالَ الصانع للنظر، ثم يستخرج منها الأسماء، أو ثبوت الحشر، أو التوحيد، كأمثال: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٩)، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ (النبأ:٦-١٧).

وكذا ينشر للبشر منسوجات صنعِه ثم يطويها في الأسماء، أو الحوالة على العقل كأمثال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ (يونس:٣١-٣٢) و ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤)

وكذا يفصّل أفاعيلَه ثم يُجمِلها بأسمائه أو بصفته، كأمثال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف:٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٦)

وكذا يرتّب المخلوقات ويشففها بإراءة نظامها وميزانها وثمراتها ثم يُريك الأسماء المتجلية عليها، كأن تلك المخلوقات ألفاظٌ. وهذه الأسماء معانيها أو ماؤها أو نواتها أو خلاصتها، كأمثال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤).. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف:٥٤)

وكذا قد يذكر الجزئيات المادية المتكيفة المتغيرة ثم يُجمِلها بالأسماء الكلية النورانية الثابتة وبفذلكة مشوّقة على التفكّر والعبرة، كأمثال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣١-٣٢). ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٦٦-٦٩).

وكذا يفرش الكثرةَ المتوسعة ثم يضع عليها مظاهرَ الوحدة، كجهة الوحدة ويلفّها بالقاعدة الكلية، كأمثال:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤).

وكذا قد يُظهر بُعدَ السبب الظاهري عن قابلية إيجاد المسبّب وثمراته، إذ أين السبب الجامد من تلك المسافة من قصد غايات عالية حكيمة، وللدلالة على أن الأسباب –وإن قارنَت واتصلت في النظر بالمسبّبات– لكن بينهما مسافة طويلة من تلك المسافة، تظهَر مطالع الأسماء، إذ لا طاقة لأعظم الأسباب على حمل أخف المسببات، كما ترى تماسَّ دائرة الأفق من الجبال بالسماء، مع ما بينهما من المسافة العظيمة التي تطلع فيها النجوم، كأمثال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (عبس:٢٤-٣٢).

نعم، أشار بلفظ «متاعا» وبذكر الثمرات العجيبة الصنعةِ والحكمة إلى عزل الأسباب الظاهرية الجامدة عن التأثير الحقيقي.

وكذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۞ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۞ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور:٤٣-٤٥)

وكذا قد يَعُدُّ عجائبَ أفعاله تعالى ليُعِدّ الذهنَ ويُحضره لقبول خوارقِ أفعاله الأخروية، أو يذكرُ أفعالَه الاستقبالية الأخروية بصورة تشير إلى نظائرها المشهودة لنا كأمثال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن

﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس:٧٧-٨١). ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:١).

[٥١] فإنّا نرى في الحشر الربيعي كثيرا من نظائر الحشر الأخروي مثلا: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (التكوير:١٠) تَرى نظيرها -بل نظائرها- في نشر البذورات والنواتات صحائفَ أعمال أمهاتها وأصولها وتاريخ حياتها في الحشر الربيعي.

وكذا قد يذكر مقاصد جزئية ثم يقررها ويحققها بأسماء هي كالقواعد الكلية كأمثال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر:١)

وكذا قد يذكر أفعال الخلق فيهدّد ثم يسلّي بأسماء تشير إلى الرحمة كأمثال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء:٤٢-٤٤).

اعلم[١]

[٥٢] **مبحث عظيم**.[٢] فإن قلتَ: ما وجهُ تفوقِ قيمةِ القرآن على الكل مع أن القرآن يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف:١٠٩).

قيل لك: إنَّ القرآن كلامُ الله باعتبار أنه ربُ العالمين، وبعنوان إله العالمين، وباسم ربِّ

---

(١) هذه المباحث الموجودة في ص [٣٦-٥٠] وكذا [٥١ وقسم من ٥٢] من المخطوط منشورة في «المثنوي العربي النوري».
(٢) الأساس الرابع من «الكلمة الثانية عشرة» وكذلك «الكلمة الخامسة والعشرون» (المعجزات القرآنية) تفصّلان هذا المبحث، وانظر إن شئت أيضا رسالة «المعراج النبوي».

السماوات والأرضين، ومن جهة الربوبية المطلقة، ومن جهة السلطنة العامة، ومن جانب الرحمة الواسعة، ومن حيثية حشمة عظمة الألوهية، ومن محيط اسمه الأعظم إلى مُحاط عرشه الأعظم.

وأما سائرُ الكلمات الإلهية: فمنها ما هو باعتبار خاص، وبعنوان خاص، باسم جزئي، في تجلٍ جزئي، ومن جهة ربوبيةٍ خاصة وسلطنة مخصوصة، ورحمة خصوصية، كأكثر الإلهامات. ومن هذا السرّ يقول الوليّ: «حدّثني قلبي عن ربي» ولا يقول: «عن رب العالمين».

نعم، أين فيضُك بمقدار قابليتك من تجلي ربّك في مرآة قلبك أيّها الولي، ثم أين فيضُ النبيّ من تجلي رب العالمين بالاسم الأعظم في مرآة العرش الأعظم الأم لجميع العروش باعتبار الأسماء بجلواتها؟.. كما أين فيضُك من شمسك في مرآتك الصغيرة المكدّرة، ثم أين الفيض من شمس العالم في سقف السماء؟ ..وكما أين خطابُ مَلِكٍ لأحد رعيته بأمر جزئي لحاجة بتلفونه الخاص، ثم أين فرمان ذلك الملك بعنوان السلطنة العظمى وباسم الخلافة الكبرى ومن حيثيةِ حشمةِ مالكيته العليا وبقصد تشهير أوامره في أطراف مملكته بواسطة سفرائه وأمنائه؟

فمن هذا السرّ العظيم يُفهم سرُّ كون أكثر الوحي بواسطة المَلَك، والإلهام الإلهي بدونه.. وسرُّ عدم بلوغ أعلى وليٍّ درجةَ أحدِ نبيٍّ من الأنبياء.. وسرُّ عظمة القرآن وعزة قدسيته وعلو إعجازه في غلو إيجازه.. وسرُّ لزوم المعراج إلى السماء إلى سدرة المنتهى إلى قاب قوسين، لمناجاة مَنْ هو أقرب إليه من حبل الوريد.. ثم الرجوع في طرفة عين.. وغيرُ ذلك من الأسرار.

ثم إن الكلام النفسي كالعلم والإرادة صفةٌ أزلية بسيطة معلومُ الوجود والثبوت، مجهولُ الكُنهِ والكيفية. وإن الكلمات لا نهايةَ لها.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:٣٢)

أيها الناظر! هذا المبحث العظيم من تتمات القطرة الرابعة من الرشحة الرابعة عشرة.

[٥٣]



وبه نستعين..

بسم الله..

اعلم(١) أن كل شيء يقول: **بسم الله**. إما بلسان قاله أو حاله أو استعداده؛ إذ ترى: أنه ما من شيء من الأشياء، -من الذرات إلى الشموس- إلّا وهو مع عَجزه في ذاته قد تحمّل وظيفةً عجيبة لا تكفي قوّتُه لعُشر معشار عَشِير تلك الوظيفة. فبالبداهة يُعلم أنه إنما تحمّلها بحولِ قويٍّ عزيز، وإنما يباشرها باسم قدير حكيم.

وكذا هو مع جهله قد حمل على ظهره ورأسه غاياتٍ موزونةً وثمرات منظومة، فيها نفع العموم، مع أنه لا يعود منها إلى نفسه عُشر معشار عشيرها، فبالبداهة يُعلم أن ذلك الشيء؛ إنما حُمّل تلك الغايات الحكيمة باسم عظيم حكيم، ويوصلها إلى ذوي الحياة باسم رحمن رحيم وبحساب عليم كريم.

فإن شئت فانظر إلى النواتات والبذور وما تحمّلت من الأشجار والسنابل، وإلى الأشجار وثمراتها، وإلى الحيوانات والحوينات ووظائفها العجيبة. فمَن له أدنى شعور كما يفهم أن نفرا منفردا إذا ساق جميع أهل بلد إلى محل بعيد بغير رضاهم ثم قسّمهم إلى وظائف وخدمات مختلفة، أنه ما يفعل إلّا بقوة سلطانه، وما يعمل إلّا باسمه، وما يستخدمهم إلّا بحسابه، كذلك لابد أن يَفهم أن هذه الموجودات العاجزات الجاهلات، ما تحمِل هذه الوظيفات العظيمات المنتظمات، إلّا باسم قدير عليم، وبحسابِ عزيز حكيم، وإنما تُهدي إلينا هذه الثمراتِ باسم رحمن رحيم، وليس من وظائفها وغاياتها إلّا ما أعطته الرحمةُ العامة لكل فرد من اللذة الخصوصية في خدمته الخاصة، كلذّة الترحم في شفقة الوالدات، وكحلاوة الفعالية في استعداد النحل بامتثال الوحي، وكذوق التلقيح في الفحول، وكالتلذذ في التغذي، وكالاستراحة والتنفس في الخروج من القوة إلى الفعل في نمو الأشياء، فإن ما بالقوة كالمحبوس المقيّد، وما خرج إلى الفعل كالمتنفِّس المطلق... وهكذا فقس.

(١) «الكلمة الأولى» توضح هذه المسألة.

فجعل الفاطر الحكيم والمالك الكريم هذه اللذات الجزئيةَ معاشاتٍ لخدماتها.. وفهرستة لكيفيات وظائفها.. وزنبركا لحركاتها.

فيا أيها الإنسان الحامل للأمانة الكبرى! كيف لا تطيع قانونا أحاط بكل شيء من العرش إلى الفرش! وكيف تتجاسر على العصيان في مقابلة دستور مسخِّر الشمس والقمر، ومستخدم النجم والذرّ.

اعلم أن الفرق بين طريق التوحيد وطريق الإلحاد، كالفرق بين الجنة والجحيم، والواجب والمحال. فإن شئت فانظر إلى الموازنة بين الطريقين:

أما التوحيد، فيُسند الكثيرَ الغير المحدود إلى الواحد، فيتخففُ الكلفةُ والمَصرَف بدرجةٍ تتساوى الشموسُ والذرات والقليل والكثير الغير المتناهي بالنسبة إلى قدرته.

وكذا يُظهر التوحيدُ في كل شيء غاياتٍ كثيرةً مهمة من جهة نظره إلى صانعه. ومن تلك الغايات إظهارُ الشيء لأسماء خالقه، كأن الشيء كلمةٌ واحدة جامعة لرموز الأسماء، فتدل عليها.

وأما الغايةُ المشهورة بين أهل الغفلة التي هي جهة استفادتنا منه من الأكل وغيره، فأقلُّ وأحصر، وأذلّ وأصغرُ من أن تكون غايةً تامة لخلقة الشيء، بل هي وسيلةُ إحدى غاياته.

وأما الإلحاد، فيُسنِد الواحدَ إلى الكثير الغير المحدود، أي يُسند كلَّ شيء إلى العناصر والطبائع العاجزة الجامدة، وإلى القوى والنواميس الصمّ العمي. فتتضاعف الكلفة بدرجة تساوي كلفةُ الفرد كلفةَ عام النوع، بل تساوي كلفةُ شيء واحد كلفةَ كل الأشياء.

وكذا لا يرى الإلحادُ من غايات الشيء إلّا ما يعود إلى الإنسان في حظ نفسه الحيوانية أو إلى نفس الشيء في حفظ حياته الدنيوية.

فمَثَل الموحّد والملحد، كمثل رجلَين رأيا نواةَ تمر، وأرادا تعريفها:

أما أحدهما، فقال: هي فهرستة واحدة مما لا يحدّ من الفهرستات المساة بالنواتات، ومن بعض غايات هذه النواة، أنها تعرفةٌ معنويةٌ لشجرة.. وتعريفٌ لتاريخ حياتها.. وخريطةُ كينونتها بقابلياتها لأن تكون ماكينة تنسج نخلة كأصلها.

وأما الآخر، فقال: لا، بل هذه الشجرة بجميع أجزائها وأوراقها اجتمعت عند هذه النواة، فأوجدَتها، وجمعت جهازاتِ نخلة باسقة فجهّزتها، لكن بلا فائدة. فلا غاية لهذه الشجرة إلّا هذه النواة، ولا غاية لهذه النواة إلّا أكل الإبل بعد السحق والدّق.

فيا مَن له أدنى شعور –ولو كشعرة– هل يمكن مع مشاهدة هذه السهولة المطلقة في الجود المطلق في رخيصية مطلقة، ومع شهود هذه الحكمة العامة في الانتظام المطلق، أن يَستند خلقُ الشيء كهذه الرمانة مثلا إلى أسباب جامدة، لكن تُجلَب جهازاتُ أكثرِ الأشياء لتصنيع ذلك الشيء الواحد الذي هو مثالٌ مصغّر لكل تلك الأشياء.. وأن لا تكون لهذه الرمانة غاية إلّا أكلُها في دقيقة للذةٍ حيوانية.

نعم، كيف تساعد هذه الحكمة التي وَظّفت رأس الإنسان في حواسه بوظائف عديدة، لو خصصت لكل وظيفة منها في رأس الإنسان مقدارُ خردلة لصار رأس الإنسان كجبل الطور.

انظر إلى لسانك ووظائفه، ومن بعض وظائفه وزنُه لجميع مدخّرات خزائن الرحمة..

بل وكيف توافق تلك الحكمةُ لأن لا تكون لمثل هذه الرمانة الخارقة الصنعةِ غايةٌ إلّا أكلُك في آن في غفلة. فمحالٌ ظاهر أن يثمر رأسُك جبلا من الأثمار، وأن لا يثمر مثلُ الجبل إلّا ثمرةً كرأسك. إذ يلزم حينئذٍ جمعُ نهاية الحكمة مع نهاية العبثية، وهو من أمحل المحال وأبطل الباطل، بل تلك الرمانة –كأمثالِها– تضمنت قصيدةً في بيان الأسماء الحسنى، فأفادت معانيها، فوفّت فتوفّت فدفنت من فيك فيك.

سبحان من تحيّرت العقولُ في صنعته.

[١٠] هذه نَورةٌ من شجرة آيةِ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ (الإسراء:٤٤) رأيتُها وقتَ انكشاف الأزهار من الأشجار في زمن الربيع فهيّجتْ جذبتي، فتفكرتُ في تسبيحاتها، فتكلمتُ أنا لي لا لغيري بهذه التسبيحات الفكرية، فظهرتْ هكذا في بعضها رقصُ الجذبة بنوعِ وزنٍ يشبه الشعر وليس بشعر بل قافيةُ ذكرٍ في جذبة فكر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي يسبّح له كلُّ شيءٍ بكلماته المخصوصة المُبصَرَة كالمسموعة، مثلا: الأنوارُ والأنهارُ والأعصارُ كلماتُ الضياء والماء والهواء. فقس.

سبحان مَن يحمدُه:

الضياءُ بالأنوار.. والماءُ والهواء بالأنهار والأعصار..

والتربُ والنبات بالأحجار والأزهار..

والجوّ والأشجار بالأطيار والأثمار..

والسحبُ والسماء بالأمطار والأقمار..

تلألؤُ الضياءِ من تنويـره، تشهيرِه..

تموُّجُ الهواءِ من تصريفه، توظيفِه..

تفجُّرُ المياهِ من تسخيره، تدخيره.. مدحٌ بليغٌ بيّنٌ للقادر.

تزيُّنُ الأحجارِ من تدبيره، تصويره..

تبسُّمُ الأزهارِ من تـزيـينـه، تحسينه..

تبـرُّجُ الأثمار من إنعامه، إكرامه.. حمدٌ جميلٌ ظاهرٌ للفاطر.

تسجُّعُ الأطيارِ من إنطاقه، إرفاقه..

تهزُّجُ الأمطارِ من تنزيله، تفضيله..

تحرُّكُ الأقمارِ من تقديره، تدويره.. تسبيحةٌ فصيحةٌ للقادر، بل آية نيّرة للقاهر.

سبحان من تحمدُه:

السماءُ بالبروجِ والأنوارِ..

والأفلاكُ بالشموس والنجومِ والأقمار..

والجوّ بالرعود والبروق والأمطار..

والأرضُ بالحيوان والنبات والأشجار..

وتحمد الأشجارُ بالأوراق والأزهار.. منظومةً موزونةَ الثمار.

إذ تسكتُ الأزهار من إنشادها، فتنطق الأثمار بالبدار.. حمدا بليغا ناشرَ الأنوار.

وتنشد النواةُ في قلبها، ذكرا خفيا جامعَ الأسرار.

مكتوبةٌ مطويةٌ في سرّها صحائفُ الأعمال للأشجار..

فيُظهر لسانُها حبّاتِ مدحِ الفالق والفاطر..

كلُّ نباتٍ حامدٌ وعابدٌ مسبّحٌ وساجدٌ للقادر..

تبسُّم النبات في تنوير الأزهار.. تحمدةٌ ظاهرةٌ للناظر..

أفواهُها السنبلُ والأكمام، ألفاظُها البذور والحبوب في الأشفار[1]..

منظومةً موزونةَ الأشعار..

لسانُها نظامُها، ميزانُها في نقشها النوّار..

صنعتُها صبغتُها تزيينها البهّار..

بطعمها، بلونها، بريحها، واصفةٌ حامدةٌ للفاطر..

إذ تصف أوصافَه، تُعرّفُ أسماءه، تفسّر تودّدا تعرّفا للقادر.

إذ تَرْشَحُ الأسنانُ السنابلُ، وتقطُر العيونُ الأزهارُ.. قطراتِ رشحاتِ جلواتِ الفاطر..

تودّدا لعَبده.. تعرّفا لخَلقه.. من غيبه في الظاهر.

[١١]

حتى كأن الشجرَ المزهّرة..

قصيدةٌ منظومة محرّرة..

أو فتحت بكثرة عيونها المبصرة..

أو زَينت لعيدها أعضاءها المُخضَرَّة..

---

(١) الأشفار: وهي حروف الأجفان التي ينبُت عليها الشعر، وهو الهُدْب.

ليشهد سلطانُها آثارَها المنوّرة. .

وتُشهِرَ في المحضر مُرصّعات الجوهر. .

لتُعرَضَ للنظر. . كالعسكر المظفّر.

وتُعلِن للبشر: حكمةَ خلق الشجر. .

بكنزها المدَّخر من جود رب الثمر.

سبحانه ما أحسنَ إحسانَه! ما أزين برهانَه! ما أبيَنَ تبيانَه!

من بارئٍ مصوّرٍ. . من خالقٍ مقتدرٍ. . من فاطرٍ منوّرٍ.

فانظر إلى رحمته. . في موسم ربيعه. . لتشهير صنعته:

يظهرُ لك فصلُ الربيع: يَومَ عيد لعبده. .

يَوم زينةٍ لخلقه. . من شجرٍ من نبته.

فيُظهر كلُّ نبات مقدارَ رتبته:

سلطنةَ سلطانِه. . هديةَ مالكه. . منتظرٌ لأمره. . ويخدم باسمه. .

مزهرٌ مثمرٌ بإذنه. . كسفرة نظيفة لضيفه.

فالنور والهواء والتراب مع الماء:

سُفراء أمرِه، حَمَلةُ عرشه. .

في نشر صَنعته. . في تبليغ حِكَمه.

فالعلمُ والحكمةُ عرشُهما في: النور

فالفضلُ والرحمة عرشُهما على: الماء

فالحفظ والإحياء عرشُهما: التراب

فالأمر والإرادة عرشُهما في: الهواء

فاعلم بأن كلَّها -في فعلها- مَظاهرُ باسمه، مَساطرُ لا مصدرُ، قوابلُ لا فاعل، حواملُ بحوله، تحمِل ما تحمله بإذنه، باسمه.. تفعل ما تفعله بطَوله، بحَوله.

لو لم يكن هذا حقَّ الأشياء؛ يلزم للتراب والهواء، والنور مع الماء أن تدّخِر في كل جزءِ ذرةٍ، وقطرةٍ من كلها معرفةً وقدرةً وصنعةً بلا انتهاء.

إذ مثلا هذا الهواء يمرّ في جوّ الفضاء.. يزور بذرّاته كلَّ نباتٍ ذي نماء.

فيُظهر مروره خوارقَ بلا انتهاء.. في معجزات صنعةٍ لمن له خلقُ السماء.

إن أمكن لذرةٍ بسيطة واحدة جامدة جاهلة أن تنشئ هاتا الأشجار.. وتضع تاك الأثمار.. تصوّر هذه الأزهار، بل جملة هذي الأشياء.

وتقدِر أن تحمل هذي الأرضُ، هذي الدنيا، حقّ لك أن تشك في وحدة لا شريك.

فإذ هذا ليس ذاك، فلا شك أن لا مُلكَ إلّا لمَن كلُّ الخلق في قبضة قدرته.. في قبضة حكمته.

لأن كلّ حبّةٍ، وقطرة، وذرة تصلح لكل خضرة، ثمرة، وزهرة. فيلزم في ذرة واحدة وحبّة وقطرة -إن لم تكن مأمورةً بأمر رب السماوات- من صنعةٍ وحكمة وقدرةٍ تكفي لكل المصنوعات، لحمل هذي الموجودات.

سبحان من تحمده الأشجار؛ بالأوراق والأزهار والأثمار..

تَكَشُّفُ الأزهار في تزايد الأوراق، في تكامل الثمار..

في رقص بناتها على أيادي غصنها الخِضار.

تهزّها مراوح نسائم الأشجار..

نُطقٌ فصيحٌ واضح للناظر، في مدح من يُنشئها، يُنشِدُها للواحد القهّار.

أفواهُها، حروفها، ألفاظها.. الأوراق والأزهار والثمار.

إذ تَرقُصُ الأوراق من فرحها في ذكرها للفاطر..

وتَبسُمُ الأزهارُ من زينتها تشكُّرا للقادر..

وتضحك الأثمار بالرحمة في النثار.. لسانها ذو نغماتٍ عشرة في الناظر..

نظامُها المتزن، ميزانُها المنظّم في لونها المنوَّر..

صنعتُها المنقشة، نقوشُها المصنّعة، في شكلها المصوّر.

صبغتُها المزينة، زينتها المصبّغة، في طعمها المسرّر.

عجائبُ صنعتها، تكثُّرُ أنواعِها، تنوُّع لحومها -بكلّها-

حامدةٌ للفاطر.. واصفة للقادر..

إذ تصف أوصافَه، تُعرّف أسماءه تفسّر تحببا، تحننا للصانع، للناظر.

إذ ترشح الثمارُ من شفاهها قطراتِ رشحاتِ جلواتِ الفاطر..

تحببا تعرّفا لعبده.. تعهّدا ترحّما لخلقه المفتقِر.

سبحانه ما أنورَ حجتَه! ما أبهرَ قدرتَه! ما أظهرَ رحمتَه!

من منشئٍ مصوّرٍ ومُنشدٍ مدبّر.. ومنشر مبشّر.

سبحانه ما أجملَ جلاله!

ما أجلَّ جماله!

ما أكبرَ سلطانه!

(فانظر إلى أرضك فقل: **الله أكبر**. وانظر إلى الكائنات فقل: **الله أكبر**، هو الخّلاق الفعّال، هو الفتّاح العلّام، هو الوهّاب الفيّاض، هو العزيز الحكيم، هو الكريم الرحيم).

[١٢] إن شئت أن تعرف معنى «**الله أكبر**» فانظر إلى الكائنات فإنها كلّها ظلالُ أنواره.. آثار أفعاله.. خطوطُ قلم قضائه وقدره.. نقوش أسمائه.. مرايا أوصافه.

فاعلم فقل: «**الله أكبر**».. انظر إلى العوالم.. فإنها كلّها مأخوذة بالتمام في قبضة علمه، في قبضة قدرته، في قبضة عدله، في قبضة حكمته.. منظومةٌ وزنُه، موزونةٌ نظمُه.

فالتنظيم بالنظام، والتوزين بالميزان: قبضتان للرحمن، عنوانان للبابَين.. من «الإمام المبين»، من «الكتاب المبين».. فذلك الكتاب مع ذاك الإمام.. عنوانان بيّنان.. العلمُ والقدرة للقادر العليم، للعادل الحكيم.. فلا شيء يخرج من نظمِ هذا النظام، من وزن هذا الميزان..

يَشهده مَن له في رأسه الإذعان، في وجهه العينان.. فبالحدس الشهودي بل بالشهود الحسّي.. لا شيء من الأشياء في الكون والزمان، يخرج من قبضة تصرّف الرحمن.

فأبصرْ، فقل: «**الله أكبر**».. هو العَدل الحاكم، هو الحَكَمُ الفرد، هو العادل الحكيم.. إذ هو الذي أسّس بنيان الكائنات، بمِسطَر المشيئة، بالحكمة النظّامة.. أصولُ حكمته رابطةُ الموجودات.. ففصّل الموجودات بدستور القضاء، بقانون القدر.. قوانين القُدرة، خيّاطة الصوَر، لقامة المصنوعات.. فنظّم الكائناتِ بناموس السُنّة، بقانون العادات.. نواميس السنّة، قوانين العادة.. نظّامةُ المخلوقات.. إذ «يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد» في الأرض والسماوات.. بتلطيف الرحمة، بتكريم العناية.. قد زيّن الكائنات.. نواميس الرحمة.. دساتير العناية.. حسّانة المصنوعات وزينة الموجودات.. فنوّر الكائنات.. بجلوة الأسماء، تجلّي الصفات.. تظاهرات الأسماء.. في جَلوات الصفات.. نوّراةُ الموجودات.. في الأرض والسماوات.

فافهم وقل: «**الله أكبر**». هو الفاطر العليم، هو الصانع الحكيم.. ذاك العالم الكبير، هذا العالم الصغير.. مصنوعا قدرتِه مكتوبا قدَره.. إبداعُه لذاك، صيّره مسجدا.. إيجادُه لهذا صيّره عابدا، إنشاؤه لذاك، صيّر ذاك مُلكا.. بناؤه لهذا صيّره مملوكا.. صنعته لذاك تظاهرت كتابا، صبغتُه لهذا، تظاهرت خطابا.. قدرته في ذاك، تُظهر عزّته.. ورحمته في هذا تنظّم نعمته.. سكّته في ذاك، في الكل والأجزاء.. خاتمه في هذا في الجسم والأعضاء..

فانظر وقل: «**الله أكبر**».. هو القادر المقيم.. هو البارئ العليم.. هو اللطيف الكريم.. هو الودود الرحيم.. هو الجميل العظيم.. هو نقاش العالم.. إن شئت أن تعرف هذا العالم ما هو كلُّه أجزاؤه، الكائنات ما هي نوعا وجزئياتٍ، فإنما هو هي، خطوطُ قضائه.. رسوم قدره.. في تنظيم الذرات.. في تعيين الغايات.. في تقدير الهيئات.

فبعد هذا الترسيم.. لتعيين الحدود.. لمقدار القدود.. تجيء قدرتُه لتشخيص الصور.. ببركار القدر.. في حكمة الأثر.. مراعاةُ المصالح بالقطع قد شهدت: أن النقوشَ فاضت، من قلمِ عليم، من تدبيرِ حكيم.

فبعد هذا التشخيص تجيء العنايةُ، لتزيين الصور، بيَد بيضائه، بلُطف إنشائه.. تزيُّنُ

الصور بأبدعِ ما يمكن.. يشهد باليقين لصاحب العينين.. أن الزينة والحسن، من أثر لطفه.. آيةُ كرمه.

فبعد هذا التزيين.. يجيء كرمُه.. بالتلطيف والتحسين.. لإبراز التودد.. في تزيين الحسان.. وإظهارِ التعرّف للجن والإنسان.. فما تلك المحاسن وما هاتي اللطائف إلّا مِن هذا التودد.. إلّا من هذا التعرف.. تحبّبُ الفاطر، يقطّر للناظر، من تحسين الأثر.. تعرّفُ القادر.. من تزيين الأثر، يظهر للنظر، بعد هذا التودد.

بعد هذا التودد تجيء رحمتُه، لإبراز الإنعام في نشر سُفرته لتلذيذ الأنام.. ترحُّمُ الخالق، يرشح من الأثر.. تحنّنُ الرزاق، يقطر من الثمر.

الحاصل:

هذا العالم.. خطوطُ قَدره.. نقوش قلمه.. زيناتُ كرمه.. أزاهير لطفه.. بالحدس والعيان.

أثمارُ رحمته.. لمعاتُ جماله.. جلوات جلاله.. مرايا كماله.. بالحق والإيمان.

ما يُشْهَدُ من جمال.. ما يُشهر من كمال.. مظاهرُ سيالة. مرايا جوالة [١٣] ظلال أنواره.. آيات كماله. ويشهد لهذا: كمالُ آثاره..

فالأثر المكمّلُ، يشهد لذي العقل، على الفعل المكمّل. ثم الفعلُ المكمّل يدل لذي الفهم على الاسم المكمّل. والفاعل المكمّل، والاسم المكمّل يدل بالبداهة على الوصف المكمّل. والوصف المكمّل يدل بالضرورة على الشأن المكمّل. ثم الشأن المكمّل، يدل باليقين على كمال الذات، مما يليق بالذات، وهو الحق المبين. رفيعُ الدرجات، خلاق العالم. يشهد لذي العين: أن الجمال الظاهر ليس مُلك المظاهر.

نعم، تفاني المرايا، زوالُ الموجودات، مع التجلي الدائم، مع الفيض الملازم، من أوضح برهانٍ، من أفصح تبيان، للجمال المجرّد، للإحسان المجدَّد، للواجب الوجود، للباقي الودود.

فاعرف.. وقل: «**الله أكبر**».. هو الخلاق الكبير، هو الفعال القدير.

فالأجسام السفلية، والزينات الأرضية، والأجرام العلوية والكواكب الدرّية، في بستان الكائنات: معجزاتُ القدرة، شواهد الحكمة، براهين للواحد الأحد، والقادر الصمد.

سبحان من جعل حديقةَ أرضه: مشهرَ صنعته. مزهّر النباتات، مثمّر الشجرات، مزيّن الحيوانات، محسّن الطيورات. خوارقُ صنعه، شواهدُ علمه، دلائل لطفه.

تبسّم الأزهار، من زينة الأثمار، في هذه الجنان: تودّدُ الرحمن، ترحّم الحنان، تعرّف المنّان، للجن والإنسان، والروح والحيوان.

فالزهر والثمر، والحب والبذر، معجزات الحكمة، هدايا الرحمة، براهين الوحدة.. بشائر لطفه، في دار الآخرة، شواهد صادقة، بأن صانعها بكل شيء عليم، لكل شيء قدير، قد وَسِع كل شيء بالرحمة والعلم، باللطف والتدبير.

فالشمسُ كالذرة، والنجم كالزهرة، والأرض كالبيضة، لا تثقل عليه في الخلق والتدوير، والحفظ والتصوير، والصنع والتنوير.

فافهم.. وقل: «**الله أكبر**».. هو سلطان الأزل.. هو حاكم الأبد.. هو الملك السرمد.

انظر إلى وجه السماء.. كيف ترى سكوتا في سكونةٍ.. حركة في حكمةٍ.. تلألؤا في حشمة.. تبسّما في زينة.. مع انتظام الخلقة.

تلألؤُ نجومها.. تعلن لأهل النهى.. سلطنةً بلا انتهاء.

فهذه النيّرات.. وهذه السيارات.. براهينُ منيرة.. شواهد مضيئة.. معلنةٌ لعزةِ كبرياءِ الألوهية.. مظهرةٌ لشوكةِ سلطنةِ الربوبية.. مبيّنة لحشمة عظمة قدرته.. مشيرة لوسعة إحاطة حكمته.

آمِن وقل: «**الله أكبر**».. ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ..

سبحانك يا مَن في كل شيء لك شاهدان على أنك واجب واحد.

سبحانك يا مَن في كل حيّ لك آيتان على أنك أحد صمد.

سبحانك يا مَن سكتُه مضروبة على جباه الخلق.. بالصدق شاهدة، بالحق ناطقة.

فانظر إلى آثاره كيف تَرى كالفَلَق.. سخاوةً مطلقة في انتظام مطلق.. وقد ترى النظام في سهولة في اتزان مطلق.. في سرعة مطلقة في حسنِ صُنع مطلق.. في وسعة مطلقة في إتقان مطلق.. في رخيصية مطلقة مع غلوّ مطلق.. في خلطة مطلقة في امتياز مطلق.. في بُعدةٍ مطلقة في اتفاق مطلق.. في كثرة مطلقة مع كمال مطلق.

فهذه الكيفية المشهودة شاهدةٌ للعاقل المحقِّق، مُجبِرة للأحمق المنافق.. على قبول الوحدة والصنعة للحق، ذي القدرة المطلقة.. وهو العليم المطلق.

فتأمل وقل: لا خالق إلّا هو.. لا فاطر إلّا الحق.

«تمت الجذبة الفكرية بهزجاتها»

[١٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ (الحج:١٨).

اعلم [١] أن القرآن الحكيم يصرّح: بأن كل شيء من العرش إلى الفرش، ومن النجوم إلى الهوام، ومن الأملاك إلى الأسماك، ومن السيّارات إلى الذرّات يعبد الله ويسجد له ويحمده ويسبّح له. إلّا أن عباداتها متنوعة. فنشير إلى وجهٍ من وجوه التنوعِ بنوعِ تمثيل.

مثلا: - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - إن مَلكا عظيما إذا بنى مدينة جسيمةً وبنى قصرا محتشما، فذلك الملك يستعمل فيهما أربعة أنواعٍ من العَمَلة:

الأول: مماليكُه: فليس لهم معاش[٢] ولا أجرة. بل لهم ذوق وشوق في كل ما يعملون بأمره، ويقولون في مدحه، ويكتفون بشرف انتسابهم له، ولذةِ نظرهم بحسابه.

والثاني: خَدَمة عاميون يستعملهم الملك بعِلمه بأجرةٍ جزئية تليق بهم. ولا يعرفون ما

(١) هذا المبحث القيم خلاصة جيدة للغصن الرابع من «الكلمة الرابعة والعشرين».
(٢) أي المرتّب والأجرة.

يترتّب على عملهم من الغايات العالية الكلية. حتى قد يتوهم البعضُ أنْ ليس لعمله غايةٌ إلّا ما يعود إلى نفسه من الأجرة والمعاش.

والثالث: حيوانات له يستخدمها، فليس لها إلّا العَلَف والتلذّذُ بالعمل فيما تستعدّ له، إذ في خروج الاستعداد من «القوّة» إلى «الفعل» لذة عامة.

والرابع: عَمَلة عالمون بمَ ولِمَ يعملون وتعمل سائرُ العَمَلة، وعارفون بمقاصد الملك. فلهم رياسة ونظارة على سائر الخَدَمة، ولهم معاش متفاوت على درجات رُتَبهم.

كذلك إن مالك السماوات والأرض وبانيها، استخدم واستعبَد الملائكة، ثم الحيوانات، ثم الجمادات والنباتات، ثم الأناسي، لا للحاجة؛ إذ هو خالقُهم وما يعملون، بل للعزّة والعظمة وشؤونات الربوبية وغير ذلك.

فأما الملائكة فليس لهم ترقيات بالمجاهدة. بل لكلٍّ منهم «مقام معلوم» لكن له ذوق مخصوص في نفس عملهم وفيوضات بنسبة درجاتهم، في نفس عباداتهم. فمكافآت خَدَماتهم مندرجة في عين خدماتهم. فكما يتغذى الإنسان بالماء والهواء والضياء والغذاء ويتلذذ بها، كذلك الملائكة يتغذَّون ويتنعّمون ويتلذذون بأنوار الذكر والتسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة، لأنهم من النور فيكفي لغذائهم النورُ والنوراني، كالروائح الطيّبة، ولهم سعادة عظيمة في فعلهم بأمر معبودهم، وفي عملهم بحسابه، وخِدمتِهم باسمه، ونظارتِهم بنظره، وتشرّفهم بانتسابه، وتنـزهّهم بمطالعة مُلكه وملكوته، وتنعّمهم بمشاهدة تجليات جماله وجلاله.

وأما الحيوانات فلوجود النفس المشتهية فيها مع اختيارٍ جزئي ليست أعمالُها خالصةً بحسابه وحسْبةً محضةً لوجهه، فلهذا يعطيها مالِكُها الكريم معاشا في ضمن عملها لأجله.

مثلا: إن العندليب المشهور بالعشق للورد يستخدمُه فاطرُه الحكيم لإعلان المناسبة الشديدة بين طوائف النبات وقبائل الحيوان. فالعندليب خطيب رباني من طرف الحيوانات -التي هي ضيوف الرحمن- وموظّف لإعلان السرور بهدايا رازقها. ولإظهاره حُسن الاستقبال للنباتات المرسَلة لإمداد أبناء جنسه، ولبيان احتياج نوعه البالغ ذلك الاحتياجُ إلى درجة العشق، على رؤوسِ جميلاتِ النباتات، ولتقديم ألطف شكرٍ في ألطف شوقٍ في ألطف وجهٍ لجنابِ مالكِ الملك ذي الجلال والجمال والإكرام.. فهذه غايةُ عمله بحسابه

سبحانه، فهو يتكلم بلسانه فنفهم هذه المعاني منه، وإن لم يَعرف هو معنى نغماته بتمامها. وعدمُ معرفة البلبل بهذه الغايات بتفصيلها لا يستلزم عدمَها، لا أقلَّ يكون كالساعة تُعلّمكَ الأوقات وهي لا تعلم ما تعمل. وأما معاشُه الجزئي فذوقه بمشاهدة الأزهار المتبسّمة وتلذّذُه محاورتها. فليست نغماته الحزينة تألّماتِ شكاياتٍ حيوانية، كلّا بل هي «تَشَكُّراتُ عطايا رحمانية». وقس عليه النحل والفحل والعنكبوت والنمل وبلابل الهوام وغيرها. فلكلٍّ منها معاشٌ جزئي في ذوق خصوصيّ في ضمن خدمتها لغاياتٍ كليةٍ ولصنعةٍ ربّانية كالنفر المستخدَم في سفينة سلطانية.

فالحيوانات بامتثالها للأوامر التكوينية بكمال الإطاعة، وإظهارِها لغايات فطرتها بأحسن وجه باسمه، وتظاهرات حياتها بوظائف [١٥] بأبدع طرز بحوله، وهكذا من سائر تسبيحاتها.. تقدم هدايا عباداتها ومزايا تحياتها لجناب فاطرها.

فالتحيات تظاهرات الحياة بلطائف آثارها المطلوبة لواهب الحياة.

وأما النباتات والجمادات فلأجل أن لا اختيار لها، لا معاشَ لها، فأعمالُها خالصةٌ لوجه الله، وحاصلةٌ بمحض إرادة الله وباسمه وبحسابه وبحوله. إلّا أنه يتظاهر من حال النباتات أن لها تلذّذاتٍ بوظائفها ولا تألماتِ لها، خلافا للحيوان المختار. فله الألم كاللذّة. ولأجل عدم تداخل الاختيار في أعمال الجماد والنبات تكون آثارها أكمل من أعمال ذوي الاِختيار، ثم عملُ ذي الاختيار المنوّر بالوحي والإلهام كالنحل وأمثاله أجملُ من غيره المعتمِد على اختياره.

وأما الإنسان فهو كالمَلَك في كلية العبادة وشمول النظارة وإحاطة المعرفة ودلّالية الربوبية، بل أجمع منه. إلّا أن له نفسا شريرة مشتهية، فله ترقيات وتدنيات.

وكالحيوان في إدخاله في عمله حظا لنفسه وحصةً لذاته، فله معاشان معجّل جزئي حيواني، والآخر مؤجل كلي مَلَكي. فتأمل تَنَلْ.

ولقد ذكرنا في دروس «رسالة النور» كثيرا من أسرار عبودية الإنسان ووظيفته وقسما من عبادة النبات والجماد وتسبيحاتها فلا حاجة إلى التطويل هنا، فإن شئت فراجع تلك الدّروس لترى سرّ سورة «والتين والزيتون» وسورة «والعصر».

«تتمة لمبحث العندليب»

ولا تحسبن أن هذه الوظيفة الربّانية في الإعلان والدلّالية والتغني لذوي الأسماع بهزجات التسبيحات مخصوصةٌ بالعندليب. بل كل نوع له عندليب يمثل ألطفَ حسيّات ذلك النوع بألطف تسبيح في ألطف تسجيع. لاسيما في أنواع الهوام والحشرات؛

فمنها ما له عندليب وبلابل كثيرة، تنشد على رؤوس كثير من أنواع الهوام والحشرات الصغيرة المختلفة سجعاتِ تسبيحاتٍ يلتذّ باستماعها جميعُ مَن له سمع.

فمنها ليلية ذات سرود[1]؛ في مسامرةٍ لصغار الحُوَينات من نوعها وغير جنسها في سكوت الليل وسكونه حتى كأنها قطب حلقةِ ذكرٍ خفي. لأن الغناء كاللسان المشترك العمومي يفهمه كل من له سمع وحسّ.

ومنها نهارية؛ ذات تسبيحات بتسجيعات وهزجات لطيفة رفيعة تنشدها في فصل الصيف على منابر الأشجار على رؤوس جميع ذوي الحياة. وهي تفوق البلبل المشهور بمراتب حتى كأنها رئيس حلقةِ ذكرٍ جهريّ تُهيّج جذبات المستمعين وتُنطقهم كلٌّ بلسانه.

وأفضلُ جميع الأنواع وأشرفُ عندليبها وأنورُها وأبهرُها وأعظمُها وأكرمُها وأعلاها صوتا وأجلاها نعتا وأتمّها ذكرا وأعمّها شكرا، عندليبُ نوعِ البشر في بُستان الكائنات، حتى صار بلطيفاتِ سجعاته بلبلَ جميع الموجودات في الأرض والسماوات.. عليه وعلى آله وأمثاله أفضل الصلوات وأجمل التسليمات. آمين.

اعلم [2] أنه يُفهم من كمال ذكاوة الحيوان وقتَ خروجه إلى الدنيا، ومهارته في العلم العملي المتعلق بحياته، أن إرساله إلى الدنيا للتعمّل لا للتكمل بالتعلّم.

ويُفهم من كمال جهالة الإنسان وعجزه وقت إخراجه إلى الدنيا واحتياجه إلى التعلّم في كل مطالبه وفي جميع عمره أن إرساله إلى الدنيا للتكمّل بالتعلّم والتعبّد لا للتعمّل. وما عملُه المطلوب إلّا تنظيم أعمالِ ما سخّره الله له من النباتات والحيوانات والاستفادة من نواميس الرحمة.. وإلّا الدعاء والالتجاء والسؤال والتضرع والتعبّد لمن سخّر له مع نهاية ضعفه وعجزه

(١) سرد سردا الحديث أو القراءة: أجاد في سياقها.
(٢) «الكلمة الثالثة والعشرون» توضح هذه المسألة.

وغاية فقره واحتياجه هذه الموجودات. وما علمُه المقبول إلّا معرفةُ مَن كرّمه وسخّر له وجهّزه للعبادة والسعادة بتعلّمِ حكمةِ الكائنات بوجهٍ يُنتج معرفةَ خالقها بأسمائه، وصفاته وجلاله وجماله وكماله. وغيرُ هذا الوجه إما ما لا يعنينات أو ضلالات.

اَللّٰهُمَّ اجعلنا لك عبيدا في كل مقام قائمين بعبوديتك متضرّعين لألوهيتك مشغولين بمعرفتك.

اعلم أن الخالق الحكيم، لامتناع العجز عليه، ولكمال جُوده، يخلق الذرة كما يخلق الشمس، ويعطي لها الوجود مثلها.. فكما يخلق الذرة مع الشمس، كذلك يخلق أصغر النبات كأكبر الشجر. وكما يخلق المَلَك المسخّر على الشمس مع المَلَك المسخّر على القطرة، كذلك يخلق أصغر الحوينات كأكبر الحيوان، فيستعبده مثلَه، ويوجِد الفردَ الواحد بأحسن وجه، كما يوجد مجموع الأفراد الغير المحدودة.. ولكل من الموجودات صغيرا وكبيرا قليلا وكثيرا وظيفةٌ لائقة.. وحكمة مناسبة وغاية حسنة.. من خزينة رحمةِ مَن ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٨٢، ٨٣).

[١٦] **اعلم** [1] أيها المسلم أن لك في تطبيق عملك العرفي ومعاملتك العادية على الأصول الشرعية.. خزينةً أُخروية وإكسيرا كبيرا. يصير به كل عمرك عملا، وكل عاداتك المباحة عبادةً، وغفلتُك بمشاغلك حضورا.

مثلا: إذا بعتَ أو اشتريت شيئا وعملت بما يقوله الشرع في تلك المعاملة فتخطرتَ حُكمه في الإيجاب والقبول، صار لك نوع حضورٍ وعبادةً وإطاعة وعملا أخرويا، فقِس واغتنم.

طوبى لمن نوّر حركاتِه بالآداب الشرعية. فيا سعادة مَن وفّقه الله لاتّباع السنّة في أعماله ومعاملاته حتى أورث عمرُه الفاني أثمارا باقية.. ويا خسارة مَن خذله الله باتباع الهوى فاتّخذ إلهه هواه حتى صار عمرُه هواء وعمله هباءً.

اَللّٰهُمَّ وفّقنا لمرضاتك والعمل بكتابك وسنة نبيّك. آمين.

---

(١) «النكتة الأولى من اللمعة الحادية عشرة» تفصّل هذه المسألة.

اعلم [١] أنه كما أن من الإنسان مَن هم رُعاة، ولهم نظارة على تنظيم حركاتِ قسمٍ من الحيوانات، ونوع محافظةٍ له. وكذا منهم زُرّاع لهم نظارة على تنظيم زرعِ قسمٍ من الحبوبات، ونوع ترتيب له.. كذلك إن من الملائكة مَن هو راعٍ بنوع من الحيوان في مرعى وجه الأرض، لكن ليس كالإنسان، بل نظارتُه ورعيُه بمحض حساب الله وباسمه وبحوله وبأمره، بل نظارتُه هي مشاهدتُه لتجليات الربوبية في ذلك النوع، ومطالعتُه لجلوات القدرة والرحمة فيه، وإلهامُ الأوامر الإلهية لها لأفعال ذلك النوع الاختيارية.

ومنهم من له نظارة على نشر نوع من النباتات في مزرعة الأرض بإذن الله وبأمره وباسمه وبحوله. بل نظارتُه لها تمثيلُ تسبيحاتها وتحيّاتِها لفاطرها، وإعلانُها، مع نوعِ تنظيم وحماية بحسنِ استعمال الجهازات الموهوبة لها.

فهذه الخدمة، بنوع كسب، بدون تصرّف حقيقي -إذ في كل شيء سكّةٌ خاصّة بخالق كل الأشياء ليس لغيره فيها مجال- عبوديةٌ وعبادات لهم، لا عادات كالإنسان. فحضرةُ ميكائيل عليه السلام الذي هو مِن حملة عرش الرزاقية، له عبودية بنظارة على جنس النباتات في مزرعة الأرض، وتحته نُظّار على نوعٍ نوعٍ بقوة الله وبحَوله وبأمره وباسمه، وهكذا نُظّار الحيوانات.

فإن شئتَ درْكَ هذا المعنى فانظر إلى الأرض كيف صيّرها الفاطر الحكيم مزرعةً واسعة ومرعى عظيما للنباتات والحيوانات.. ثم انظر إلى أنواع النباتات المنشورة بانتظام عجيب في توزيع بذوراتها في الأطراف بتقسيم غريب بحكمة فاطرها القدير العليم.. وإلى أنواع الحيوانات المنشورة بطرز غريب بتقسيم عجيب وهي تسرح في مرعى الأرض في حُسن انتظامٍ بعنايـة خالقها الحكيم الكريم جل جلاله وعمّ نواله ولا إله إلّا هو.

* * *

(١) تراجع «الكلمة الرابعة والعشرون - الغصن الرابع».

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا اَللّٰه، يَا رَحْمٰنُ، يَا رَحِيمُ، يَا فَرْدُ، يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، يَا حَكَمُ، يَا عَدْلُ، يَا قُدُّوسُ

بحق الاسم الأعظم وبحرمة القرآن المعجِز البيان وبكرامة الرسول الأعظم ﷺ، أدخل الذين قاموا بطبع هذه المجموعة ومعاونيهم الميامين جنةَ الفردوس والسعادة الأبدية.. آمين. ووفّقهم في خدمة الإيمان والقرآن دوما وأبدا.. آمين. واكتب في صحيفة حسناتهم ألفَ حسنة لكل حرف من حروف كتاب «المثنوي العربي النوري».. آمين. وأحسِن إليهم الثبات والدوام والإخلاص في نشر رسائل النور.. آمين

يا أرحم الراحمين! آت جميع طلاب النور في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.. آمين. واحفظهم من شر شياطين الجن والإنس.. آمين. واعف عن ذنوب هذا العبد العاجز الضعيف سعيد.. آمين

باسم جميع طلاب النور

سعيد النورسي

صفحتان من مخطوط بخط «جيلان جالشقان» مع بعض تصحيحات الأستاذ النورسي عليها



زهرة

من رياض القرآن الحكيم

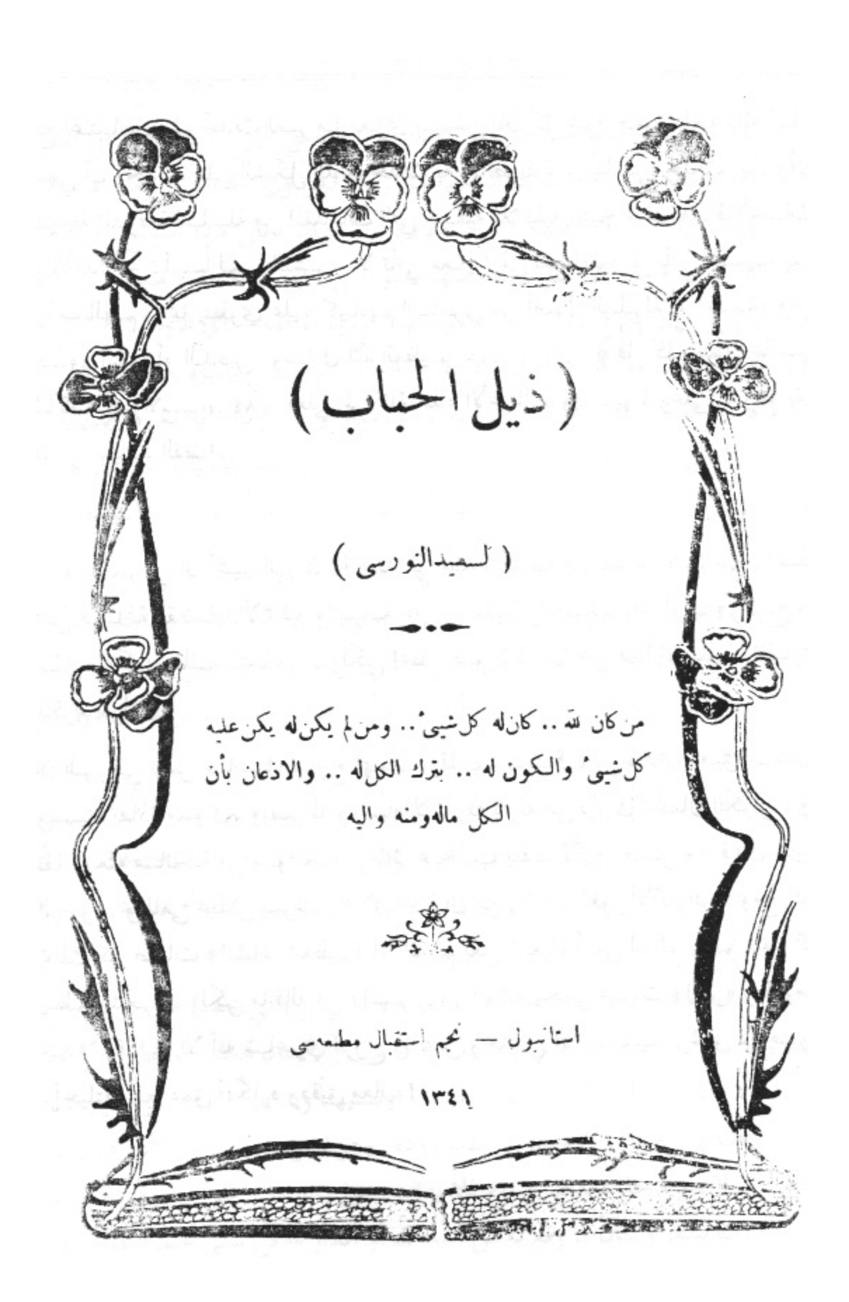
لسعيد النورسى

كل حى فى الدنيا.. كعسكر موظف.. انما يعمل
بحساب الملك.. وباسمه.. فمن زعم انه مالك
فهو هالك: ان هذا النظام والميزان المشهودين
عنوانان لقبضتى الرحمن وبابان من الكتاب المبين
ومن كتاب الكائنات.. والقرآن ترجمان الكتابين
و فهرستة البابين وفذلكة القبضتين.

استانبول — نجم استقبال مطبعه‌سى

١٣٤١

صورة لغلاف الطبعة الأولى من رسالة «زهرة من رياض القرآن الحكيم».


(ذيل الحباب)

(لسعيد النورسي)

من كان لله .. كان له كل شيء .. ومن لم يكن له يكن عليه كل شيء والكون له .. بترك الكل له .. والاذعان بأن الكل ماله ومنه واليه

استانبول — نجم استقبال مطبعه‌سی

١٣٤١

صفحة من الطبعة الأولى

صفحة من مخطوط رسالة « نور من أنوار نجوم القرآن » بخط الحافظ توفيق الشامي.

وقد أجرى الأستاذ النورسي عليها بعض تصحيحاته.

نبذة عن بعض الأعلام

ابن سمعون الزاهد البغدادي: (٣٠٠-٣٨٧هـ) وهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل (أو سمعون) كان يلقب بالناطق بالحكمة، مولده ووفاته ببغداد، علت شهرته، حتى قيل: «أوعظ من ابن سمعون!».

أبو حنيفة: (النعمان بن ثابت) (٨٠-١٥٠هـ) إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد ونشأ بالكوفة، وتوفي ببغداد، وأخباره كثيرة، وله تصانيف منها: «مسند» في الحديث، جمعه تلاميذه و«الفقه الأكبر» و«المخارج» في الفقه. (الأعلام للزركلي ٨/ ٣٦).

أبو يزيد البسطامي (١٨٨-٢٦١ هـ/ ٨٠٤-٨٧٥م): طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال بايزيد: زاهد مشهور، له أخبار كثيرة. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها.

جلال الدين الرومي: (٦٠٤-٦٧٢هـ/ ١٢٠٧-١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف صاحب «المثنوي» المشهور بالفارسية المستغني عن التعريف في ستة وعشرين ألف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس). استقر في «قونية» سنة ٦٢٣هـ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٨هـ. من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه ما فيه، مكتوبات.

الجنيد (البغدادي): (ت ٢٩٧هـ/ ٩١٠م) هو الجنيد بن محمد أبو القاسم الزجاج القواريري. صوفي وزاهد، سيد الطائفة. ولد وتوفي ببغداد. تلقى العلوم الفقهية عن سفيان الثوري والعلوم الصوفية عن خاله السري السقطي.

الإمام الرباني: (٩٧١-١٠٣٤هـ) هو أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي الملقب بحق «مجدد الألف الثاني» برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس

والإخلاص لله وحضور القلب، رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة «الملك أكبر» التي كادت أن تمحق الإسلام. وفّقه المولى العزيز إلى صرف الدولة المغولية القوية من الإلحاد والبرهمية إلى احتضان الإسلام بما بث من نظام البيعة والأخوة والإرشاد بين الناس، طهر معين التصوف من الأكدار، تنامت دعوته في القارة الهندية حتى ظهر من ثمارها الملك الصالح «أورنك زيب» فانتصر المسلمون في زمانه وهان الكفار. انتشرت طريقته «النقشبندية» في أرجاء العالم الإسلامي بوساطة العلامة خالد الشهرزوري المشهور بمولانا خالد (١١٩٢-١٢٤٣هـ). له مؤلفات عديدة أشهرها «مكتوبات» ترجمها إلى العربية محمد مراد في مجلدين.

الشيخ صفوت أفندي: (مصطفى صفوت) (١٢٨٢هـ - ١٩٢٧م) ولد في أورفة، تخرج في الأزهر، كان يتقن العربية والتركية والفارسية. أصدر مجلة أسبوعية في إسطنبول سنة ١٣٢٧ باسم «التصوف». تقلّد مناصب علمية عديدة، حتى أصبح عضواً في «دار الحكمة الإسلامية» وعيّن رئيسا لهيئة تدقيق المصاحف والمؤلفات الشرعية سنة ١٣٣٥ هـ. انتخب للمرة الثانية نائباً من أورفة.

سفيان بن عيينة: (١٠٧-١٩٨هـ) ولد في الكوفة وتوفي بمكة المكرمة. كان إماما عالما ثبتا، حجة زاهدا ورعا مجمعا على صحة حديثه وروايته. حج سبعين حجة، أدرك نيفا وثمانين نفسا من التابعين. وروى عنه الإمام الشافعي وشعبة ومحمد بن إسحاق وابن جريج وابن بكار وعمه مصعب والصنعاني ويحيى بن أكثم وخلق كثير رضي الله عنهم.

سنان (المعماري): (١٤٨٩-١٥٧٨م) أكبر مهندس معماري تركي أشرف على بناء جوامع كثيرة أهمها: شهزادة، سليمانية، سليمية.

الشاذلي: (٥٩١-٦٥٦هـ) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، والشاذلة قرية من إفريقيا، الضرير الزاهد نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، صاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي».

الشافعي: (١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨٢٠م) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة، وكان من أحذق قريش بالرمي برع في ذلك أولاً كما

برع في الشعر واللغة وأيام العرب ثم أقبل على الفقه والحديث وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وله تصانيف كثير أشهرها كتاب «الأم» في الفقه و«أحكام القرآن» (الأعلام للزركلي ٦/ ٢٦).

الشعراني: (٨٩٨–٩٧٣ هـ/ ١٤٩٣–١٥٦٥م) عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، الشعراني، أبو محمد: من علماء المتصوفين. ولد في قلقشندة (بمصر) ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته: وتوفي في القاهرة. له تصانيف، منها «الميزان الكبرى».

الرفاعي: (٥١٢–٥٧٨ هـ) أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي، أبو العباس، الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن في واسط بالعراق سنة ٥١٢ هـ وتفقه وتأدب في واسط. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها سنة ٥٧٨ هـ.

الكيلاني (عبد القادر): (٤٧٠–٥٦١هـ) هو ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي. ولد بجيلان جنوب غرب بحر الخزر، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن رضي الله عنه، دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وهو أحد الأقطاب المعروفين لدى أهل السنة والجماعة، ومجدد عظيم استقام على يديه كثير من المسلمين وأسلم كثير من اليهود والنصارى. من مصنفاته؛ كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي ببغداد.

الإمام الغزالي: (٤٥٠–٥٠٥م) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني واجتماعي، وصاحب رسالة روحية، كان لها أثرها في الحياة الإسلامية، ولد بطوس من أعمال خراسان، ودرس علوم الفقهاء وعلم الكلام على إمام الحرمين، وعلوم الفلاسفة وبخاصة الفارابي وابن سينا وعلوم الباطنية، فلم يجد في هذه العلوم ما يشبع حاجة عقله إلى اليقين ولا ما يرضي رغبة قلبه في السعادة واشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية وارتحل إلى بلاد كثيرة منها دمشق وبيت المقدس والقاهرة والاسكندرية ومكة المكرمة. ومن مصنفاته «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» و«المنقذ من الضلال».

محمد شفيق الأرواسي: (١٨٨٤–١٩٧٠م) ولد في قرية «أرواس» التابعة لقضاء «هيزان» في ولاية «بتليس». من أصدقاء الأستاذ النورسي. تتلمذ عليه من مدرسة خورخور في «وان» وسجن معه في دنيزلي سنة ١٩٤٣. تولى رئاسة لجنة تدقيق المصاحف بإسطنبول لمدة طويلة. كان رئيساً للأئمة في جامع السلطان أحمد لمدة سبع عشرة سنة. تولى مهمة الوعظ

والإرشاد في جامع أبي أيوب الأنصاري طوال أربعين سنة. له مؤلف تحت اسم «خطب الرسول ﷺ ومجالسه».

محي الدين بن عربي: (٥٦٠-٦٣٨ هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م) هو محمد بن علي بن محمد ابن عربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسيه بـ«الأندلس» وانتقل إلى أشبيلية. وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية «شطحات» صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي فنجا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها «الفتوحات المكية» في التصوف وعلم النفس و«فصوص الحكم».

النقشبند (الشاه): هو محمد بهاء الدين، مؤسس الطريقة النفشبندية. ولد في قرية قصر العارفين، قرب بخارى، ودرس في سمرقند، تزوج في الثامنة عشرة من عمره، انتسب إلى شيوخ كثيرين وعاد أخيراً إلى بخارى ولم يغادرها حتى وفاته، وأنشأ فيها طريقته ونشرها، وتوفي ٣ ربيع الأول ٧٩١هـ ١٣٨٩م عن (٧٣) سنة من العمر.


الفهارس

فهرس الآيات

سورة آل عمران

سورة إبراهيم

سورة الأحزاب

سورة الأعراف

سورة الأنبياء

سورة الأنعام

سورة الأنفال

سورة الإسراء

سورة الإنسان

سورة الانشقاق

سورة الانفطار

سورة المائدة

سورة المجادلة

سورة المدثر

سورة الملك

سورة النبأ

سورة النجم

سورة النحل

سورة النساء

سورة النمل

سورة النور

سورة الواقعة

سورة عبس

سورة غافر

سورة فاطر

سورة فصلت

سورة ق

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس تحليلي

أ

ث

ج

ح

خ

د

ص

ض

ط

غ

ف

ق

ن

هـ

و

ي

فهرس الأسماء

فهرس الأشعار والأمثال والحكم

فهرس عام للموضوعات

لمعات من شمس التوحيد

رشحات من معرفة النبي ﷺ

لاسيما

قطرة من بحر التوحيد

ذيل القطرة

حباب من عُمّان القرآن الحكيم

ذيل الحباب

حبة من ثمرات جنان القرآن

ذيل الحبة

ذيل الذيل

زهرة من رياض القرآن الحكيم

ذيل الزهرة

ذرة من شعاع هداية القرآن

القطعة الثانية «من ذرة»

القطعة الثالثة من «ذرة»

شمة من نسيم هداية القرآن

القطعة الثانية من «شمة»

القطعة الثالثة من «شمة»

شعلة من أنوار القرآن

ذيل الشعلة

نقطة من نور معرفة الله جل جلاله

نور من أنوار نجوم القرآن